

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

النثر الفني في العصر المملوكي الأول

٦٤٨ - ٥٧٨٤هـ

جلال يوسف حسن العطاري

إشراف

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه
في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

تموز ١٩٩٥م

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠١٩٥/٩/٢ ... وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

١ - الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم (مشرفاً)

٢ - الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة (عضواً)

٣ - الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن (عضواً)

٤ - الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي (عضواً)

إهداء

- إلى من رباني صغيراً، وتعهداني

بدعوات الرضا والتوفيق كبيراً...

- إلى من صبرته وطابرتي، وتجشمت

من العناء ما تحفه عني من البهد كثيرأ...

- إلى فطانتك كبدي، ليكون لهم

قدوة ونبراساً منيراً...

- إليهم جميعاً أهدي هذا العمل المتواضع...

شكر وتقدير

إن اللسان ليعجز، والقلم ليتوقف عند البحث عن عبارات يمكن أن تنفي أستاذي الجليل الدكتور محمود إبراهيم حقه ، فقد بذل لي من وقته، وأضاء لي بنير فكره ما دجى من دروب هذا البحث، ورعاه حتى ضرب جذوره في الأرض، وامتد بساقه ليرى النور، وصدق الله العظيم القائل: "مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء"، تلك توجيهات العلماء، وهم ورثة الأنبياء، فجزاه الله عنا وعن العلم خير جزاء.

أما أساتذتي الكرام : الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، والأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن، والأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، فلهم جل شكري وامتناني، وعظيم تقديري، لما تجشموه من عناء قراءة هذا البحث، ولما أبدوه من توجيهاتهم السديدة في مناقشته، وإثراء مادته، وتسديد معوجه، لهم جميعا أحني هامتي عرفانا واعترافاً بجميل صنيعهم.

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
- قرار لجنة المناقشة	ب
- إهداء	ج
- شكر وتقدير	د
- قائمة المحتويات	هـ
- الملخص	و
- المقدمة	١ - ٤
- تمهيد : الحركة العلمية في مصر والشام في العصر المملوكي الأول	٥ - ٦٦
- العوامل التي أدت إلى ازدهار حركة التأليف العلمي	٧٠ - ٣٤
- مظاهر الحركة العلمية في مصر والشام في العصر المملوكي الأول .	٣٥ - ٦٦
- الفصل الأول : فنون النثر واتجاهاته.....	٦٧ - ١٩١
- الكتابة الديوانية	٦٩ - ٩٧
- المكاتبات الإخوانية	٩٨ - ٩٧
- الرسائل الأدبية	١١٥ - ١٥٣
- فن الحكاية الأدبية	١٥٤ - ١٧٢
- الخطابة والوعظ والكتابة الدينية	١٧٣ - ١٩١
- الفصل الثاني : النثر الفني في إطار العصر	١٩٢ - ٢٧٨
- تمثيل النثر للحياة السياسية والأحداث التاريخية	١٩٤ - ٢١٨
- تمثيله للحياة الاجتماعية	٢١٩ - ٢٤٥
- تمثيله للحياة الدينية	٢٤٥ - ٢٦٢
- تمثيله للحياة العقلية	٢٦٣ - ٢٧٨
- الفصل الثالث : دراسة فنية للنثر الفني	٢٧٩ - ٣٦١
- الخصائص الفنية للنثر الفني	٢٨٠ - ٣٤١
- فنون نثرية غير مسجوعة	٣٤٢ - ٣٤٨
- الدور الوظيفي للنثر	٣٤٩ - ٣٦١
- الخاتمة	٣٦٢ - ٣٧٤
- قائمة المصادر والمراجع	٣٧٥ - ٣٨٥
- الملخص بالإنجليزية	٣٨٦

الملخص

"النثر الفني في العصر المملوكي الأول"

جلال يوسف العطاري

إشراف : الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

موضوع هذه الدراسة هو النثر الفني في العصر المملوكي الأول، وقد قامت على فرضية مفادها أن الحركة الفكرية في هذا العصر كانت امتداداً لمسيرة هذه الحركة في عصور سابقة، ولكن في إطار ذلك العصر، وقد اتخذ الباحث من دراسة النثر الفني في هذا العصر وسيلة لإثبات ذلك، لأن اللغة مقياس صادق لعقول الناس الذين تصدر عنهم .

ولتحقيق هذه الغاية، جاء هذا البحث مشتملاً على تمهيد وثلاثة فصول:

أما التمهيد : فيلقي الضوء على حركة التأليف العلمي في مصر والشام في هذا العصر، حيث تكشف لي أن الحياة العلمية فيه كانت مشرقة، وأن مصر والشام كانتا زاخريتين بالعلماء الذين خلفوا لنا تراثاً ضخماً من العلم والمعرفة والمصنفات في مختلف فنون العلم والمعرفة، حيث استوعب علماء هذا العصر علوم أسلافهم، كل في مجال تخصصه، إذ حظيت المؤلفات السابقة من علماء هذا العصر باهتمام واسع، فأسهموا في شرحها أو تلخيصها أو نظمها، كما أسهموا في إضافاتهم الجليلة لميادين العلوم المختلفة، فقد تعددت اتجاهات التأليف في كل مجال منها. وقد ساعد على هذا الازدهار مجموعة من العوامل حاولت تبينها.

وأما الفصل الأول، فقد خصصته للحديث عن فنون النثر واتجاهاته، حيث تبينت وجود خمسة اتجاهات هي : الكتابة الديوانية: التي نمت وازدهرت في ديوان الإنشاء، والمكاتبات الإخوانية، وموضوعاتها كثير ومتشعبة، حيث تنوعت بين الرسائل الشخصية والرسائل الامتحانية والإجازات والتقریظات.

ثم الرسائل الأدبية، فقد تعددت أنواعها بين رسائل ملوكية تتصل بالملوك، وبين رسائل المناظرات والمفاخرات، ورسائل تجربة خاطر والرسائل العلمية، ورسائل الوصف.

وأما الاتجاه الرابع من اتجاهات النثر الفني فهو فن الحكاية الأدبية، حيث كشفت عن ثلاثة أنواع منها، هي : فن المقامة وفن الحكاية الطويلة، وفن خيال الظل، حيث درست موضوع كل منها، وتميزها عن مثيلتها في عصور سابقة.

وأخيراً، تحدثت عن فن الخطابة والوعظ والكتابة الدينية، حيث تبين لي أن الخطابة قد ضعفت لفتور دواعيها وعواملها، باستثناء الخطابة الدينية، كما نشط أدب الوعظ، وتنوعت موضوعاته، بالإضافة إلى نشاط فن المناظرات .

وأما الفصل الثاني، فقد كشفت فيه عن تمثيل النثر لمختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية، وذلك انطلاقاً من أن الأدب هو نتاج العصر الذي يولد فيه، حيث كشف لنا عن علاقات دولة المماليك بالدولة المجاورة، كما بين بعض الخلافات والفتن التي كانت تدور بين أمراء المماليك، كما واكب النثر الكثير من الأحداث العسكرية، وكشف النثر كذلك عن صورة العصر في مختلف نواحي الحياة الأخرى : الاجتماعية والدينية والعقلية، مما يثبت أن هذا النثر هو ابن عصره وبيئته.

وأما الفصل الثالث والأخير، فقد كشف لنا عن كثير من الخصائص الفنية التي تميز بها النثر في هذا العصر، ودفع كثيراً من الشبهات حول بعضها، فقد تحدثت عن قضية السجع والمحسنات البديعية الأخرى في نثر هذا العصر، حيث تبين لي أن هذا العصر ليس بدعاً بين العصور في هذه القضية، وإنما كان استمراراً للعصور السابقة. كما تحدثت عن الأسلوب والذوق العام في اللغة، فتبين لي أن كتاب العصر قد راعوا ذلك، كما كشف البحث عن ظاهرة فنية برزت في نثر هذا العصر، وهي ظهور ثقافة الأديب واضحة في أدبه. وخصصت الصورة الفنية بحديث مفصل، حيث تبين لي إكثار كتاب العصر منها، كما ظهر لي تعدد مصادر الصورة في أدبهم. وإذا كان الأدب صورة صادقة عن مظاهر الحياة، معبراً عن خصوصية البيئة والأقليم الذي ينشأ فيه، فقد تبين لي أن النثر في هذا العصر عبر عن هذه الخصوصية من خلال عدد من القضايا.

ولكي ندلل على أن أدب هذا العصر لم يكن جميعه أدباً مسجوعاً، على الرغم من العناية الفائقة بالأسلوب المسجوع، فقد كشفت عن عدد من الفنون النثرية التي خلت من السجع، وجاء أسلوبها مرسلاً.

وأخيراً، إذا افترضنا أن للأدب رسالة ينبغي تحقيقها، فقد أدى النثر في هذا العصر رسالته في مختلف المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية، حيث تبين لي أن النثر قد وعى دوره في كل جانب منها.

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الذي علمه شديد القوى، إن هو إلا وحي يوحى، وبعد:

فإن صلتني بموضوع هذا البحث قديمة، تعود إلى أيام الدراسة الجامعية الأولى. حين درسنا مادة الأدب في مصر والشام، وأطلعنا على حالة الأمة في تلك الفترة، وعلى النتاج الأدبي لها، حين ذاك بدأ يدور في خلدي أن شيئاً من الضبابية وعدم الوضوح يخيّم على هذا العصر وأدبه، وأنه لا بد من تجلية هذا الغموض، وإزالة هذه الغشاوة لتبليج صورة هذا العصر وأدبه واضحة. وقد ترسخت جذور هذه الفكرة عند التحاقنا ببرنامج الدكتوراه، فكان اطلعنا الوثيق على هذا العصر وأدبه مع أستاذنا الدكتور محمود إبراهيم، حيث فتح لنا بفكره المستثير، وقرينته الوقادة، وأطلعنا العميق، فتح لنا المزيد من الآفاق، وأطلعنا على الكثير من حقائق هذا العصر، والأبعاد المختلفة لدور الأدب في أحداثه، عند ذلك قررت أن أخوض غمار هذا العصر، وأجوب آفاق الأدب فيه، فتباحثت مع أستاذنا الكريم، الذي أشار علي بفضلته وكرمه أن أعمد إلى دراسة النثر الفني في مصر والشام، واقترح تركيز الدراسة في العصر المملوكي الأول، فوجدت في هذا الموضوع ما يحقق رغبتني، ويلبي حاجة ملحة في نفسي لاستجلاء صورة العصر وأدبه، فطفقت أبحث في مصادر العصر ومظانه، أجمع كل ما يتصل بهذا العصر من حقائق تاريخية وسياسية واجتماعية ودينية وعلمية، بالإضافة إلى النصوص النثرية، فتجمع لدي مادة ضخمة، ثم توفرت على هذه المادة دراسة وتمحيصاً حتى تكشف لي الجوانب المختلفة لهذا الموضوع.

موضوع هذا البحث، إذن، هو النثر الفني في العصر المملوكي الأول. ويبدو لي أن ثمة مجموعة من العوامل تحفز المرء لدراسة الأدب في هذا العصر ولعل أبرزها عاملان: أولهما: ما أشيع في أوساط الباحثين في عصرنا الحالي من أن هذا العصر هو عصر تخلف وجمود فكري وأدبي. وثانيهما: أن هذا العصر هو عصر تكالبت فيه الأمم والمحن على الأمة الإسلامية، فكانت ثقافتها وحضارتها مهددة، مثلما كان وجودها مهدداً أيضاً، فكان لا بد لهذه الأمة أن تتمسك بأسباب وجودها، وأن تتشبث بحضارتها وثقافتها، ومن هنا تأتي قيمة الدراسات الموضوعية المتخصصة في هذا العصر وأدبه، فهي تحاول الكشف عن تجربة الأمة في هذه الفترة الزمنية، ومحاولاتها للمحافظة على حضارتها وتراثها وثقافتها، وبالتالي وجودها أمام الأخطار التي تتهددها.

وقد سبق هذه الدراسة حول هذا العصر وأدبه دراسات، حاول بعضها تخصيص فصول صغيرة، أو صفحات في مؤلفاتهم لدراسة النثر في هذا العصر، وكان أوفى هذه المؤلفات مجموعة "عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي"، تأليف: محمود رزق سليم، حيث خصص لدراسة النثر مجلداً، وهو أقرب إلى مؤلف وثائقي، يهتم بعرض الوثائق والنصوص مع

تعليق بسيط عليها، بالإضافة إلى اعتماده على عدد محدود من النصوص، ولعل ذلك يعود لتقديم الدراسة، وإطلاعه على مصادر محدودة لذلك العصر.

أما بقية المؤلفات الأخرى، فقد طرق بعضها جوانب هذا الموضوع، إذ خصص الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه: "الأدب في العصر المملوكي" فصلاً للحديث عن بعض فنون الكتابة في هذا العصر، كما ترجم لبعض أعلامها بصورة سريعة موجزة. كما تحدث الدكتور محمد كامل الفقي في كتابه: "الأدب العربي في العصر المملوكي" عن بعض المؤلفات والموسوعات التي ألفت في هذا العصر، ثم عرض لبعض فنون الكتابة وموضوعاتها وخصائصها بإيجاز. وعرض الدكتور عبدالحميد حسن في كتابه: "صفحات من الأدب المصري من المعهد الفاطمي إلى النهضة الحديثة" عرضاً سريعاً موجزاً لمسيرة الأدب في مصر عبر هذه العصور، مع نماذج نثرية وشعرية منها.

وقدم الدكتور عبداللطيف حمزة في كتابه: "الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، صورة موجزة سريعة لأغراض الشعر في هذه العصور دون أن يقف على كل عصر على انفراد، ثم استعرض مجموعة من النماذج الكتابية فيها مع محاولة تحليل بعضها موضوعياً وفنياً. وأخيراً قدم الأستاذ عمر موسى باشا في كتابه "الأدب في العصر المملوكي والعثماني" تراجم سريعة لكثير من أدباء هذا العصر، مع نتف يسيرة من إنتاجهم الشعري والنثري.

أما هذا البحث، فإنه يهدف من بين أهدافه إلى تحقيق غرضين رئيسين:

الأول: إبراز دور الأدب بعامة، والنثر بخاصة في مواجهة الصراع العسكري الحضاري، وبيان مشاركته في الدفاع عن وجود هذه الأمة وحضارتها وتراثها، لأن ضياع لغة الأمة وحضارتها دليل موتها، وليس للأمة أن تدعي الحياة إذا جردت من لغتها التي تعبر عن أفكارها ومشاعرها.

والثاني: التصدي لنفي ما أشيع حول هذا العصر وأدبه، إذ حاول بعض الدارسين إثبات أن أدب هذا العصر لم يكن إلا أدب زخرفة لفظية، وحلية بديعية، و"دروشات صوفية"، ولا يوجد فيه ما يستحق الدراسة والنظر. ولكي لا يكون مثل هذا القول تعميماً لا يستند إلى دليل، ولا تدعمه حجة، فقد حاول هذا البحث إلقاء الضوء على حركة التأليف العلمي، والكتابة الأدبية في هذا العصر من حيث المضامين والسمات الفنية. ومن أجل تحقيق هذين الهدفين، فقد اشتملت هذه الدراسة على تمهيد وثلاثة فصول:

أما التمهيد، فقد خصصته للحديث عن حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول. وذلك لأن هذه الحركة تشكل القاعدة الأساسية للأدب بعامة، والنثر بخاصة،

حيث تحدثت عن عوامل ازدهارها هذه الحركة ومظاهرها، من خلال الكشف عما استجد من اتجاهات التأليف على كل علم من العلوم السائدة في ذلك الوقت، من علوم: القراءات والتفسير والحديث والفقه واللغة العربية واللسانيات والتاريخ والطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية والرياضية، بالإضافة إلى حديث عن ظاهرة فريدة في هذا العصر، هي ظاهرة التأليف الموسوعي.

واشتمل الفصل الأول على حديث عن فنون النثر الفني واتجاهاته، فقسمتها إلى جملة فنون رئيسة، أهمها: المكاتبات الديوانية، والمكاتبات الإخوانية، والرسائل الأدبية، وفن الحكاية الأدبية حيث اشتملت على حديث عن فن المقامة ثم الحكاية الطويلة ثم فن خيال الظل، وأخيراً تحدث هذا الفصل عن فن الخطابة والوعظ والكتابة الدينية.

وتناول الفصل الثاني دراسة النثر الفني في إطار العصر، حيث درست تمثيل النثر لمختلف جوانب الحياة السياسية، والأحداث العسكرية والحياة الاجتماعية والدينية والعقلية، وذلك من أجل الكشف عن قدرة هذا النثر على تمثيل عصره.

وأما الفصل الثالث والأخير، فقد عالج النثر الفني في إطاره الفني، حيث تحدثت فيه عن السمات الفنية التي تميز النثر في هذا العصر، بالإضافة إلى الكشف عن بعض الفنون النثرية غير المسجوعة. وانطلاقاً من أن للأدب رسالة يجب عليه أن يؤديها، فقد حاولت الكشف عن رسالة النثر في هذا العصر من خلال الحديث عن الدور الوظيفي للنثر في هذا العصر، حيث حاولت تبين دور الأدب في مختلف جوانب الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والدينية.

أما منهجي في هذه الدراسة، فقد اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على وصف الظاهرة الأدبية، ثم تحليلها، وتتبعها بدقة وموضوعية، من أجل الكشف عن أسبابها وعللها وخصائصها ومميزاتها، معتمداً في ذلك الأسلوب العلمي الدقيق في تناول الظاهرة ودراسة جوانبها المختلفة، دونما تأثر بالانفعالات والمشاعر الذاتية للباحث، أو بالأراء المسبقة للباحثين الآخرين، متخذاً في ذلك كله من النصوص التاريخية والأدبية مصدراً أساسياً لاستخلاص الآراء والاتجاهات والمميزات والسمات المختلفة التي تخلص إليها الدراسة.

وأما مصادر هذا البحث فمتنوعة، ويمكن توزيعها إلى ثلاث فئات:

الأولى: مصادر تاريخية، حيث أفادت في الكشف عن كثير من جوانب الحياة المختلفة في هذا العصر، بالإضافة إلى اشتغالها على كثير من النصوص النثرية، وأهم هذه المصادر: "ذيل مرآة الزمان" لليونيني، "كنز الدرر" للدواداري، و"تذكرة النبيه" لابن حبيب، و"السلوك لمعرفة أخبار الملوك" للمقريزي، و"النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي، بالإضافة إلى بعض الكتب التاريخية المتخصصة في تاريخ إقليم مثل: "حسن المحاضرة" للسيوطي، أو تلك المتخصصة في

سيرة سلطان بعينه، مثل: "تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور" لمحيي الدين بن عبد الظاهر.

الثانية: كتب التراجم: التي أفادت في تتبع سير الأدباء والعلماء في ذلك العصر، ومعرفة جوانب إنتاجهم الأدبي والعلمي، بالإضافة إلى نصوص من إنتاجهم، وأهمها: "الوافي بالوفيات" للصفدي، "وفوات الوفيات" للكتبي، و"طبقات الشافعية" للسبكي...

الثالثة: كتب الأدب والبلاغة. وقد اشتملت على كثير من النصوص النثرية لأدباء هذا العصر، بالإضافة إلى أنها أفادت في التعرف على كثير من جوانب التطور الأسلوبي للنثر في هذا العصر، وأهمها: "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي، و"مآثر الإنافة" له أيضاً، ثم كتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" لشهاب الدين الحلبي...

بالإضافة إلى مجموعة أخرى من المصادر في مجالات أخرى، وعدد آخر من المخطوطات التي يمكن أن تدرج ضمن كل فئة من الفئات السابقة، وقد تيسر لي الاطلاع على بعضها، وتعذر ذلك على البعض الآخر.

وأخيراً، فإن اللسان ليعجز، والقلم ليتوقف عند البحث عن عبارات يمكن أن تقي أساذي الجليل الدكتور محمود إبراهيم حقه، فقد بذل لي من وقته، وأضاء بنير فكره ما دجى من دروب هذا البحث، ورعاه حتى ضرب جذوره في الأرض، وامتد بساقه ليرى النور، وصدق الله العظيم القائل: "مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء"، تلك توجيهات الغلماء، وهم ورثة الأنبياء، فجزاه الله عنا وعن العلم خير الجزاء.

- تمهيد -

- حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول -

المحتويات

- *** العوامل التي أدت إلى ازدهار حركة التأليف العلمي :
- * تشجيع المماليك للعلم والعلماء
- * دور العلم وتعددتها
- * هجرة العلماء إلى مصر والشام
- *** مظاهر الحركة العلمية في مصر والشام في العصر المملوكي الأول:
- * علم القراءات
- * علم التفسير
- * علوم الحديث
- * علم الفقه وأصوله
- * علوم اللغة العربية واللسانيات
- * التاريخ
- * الطب
- * الفلسفة والمنطق
- * العلوم الطبيعية والرياضية
- * علوم مختلفة
- * ظاهرة الموسوعات

- بسم الله الرحمن الرحيم -

- عوامل ازدهار حركة التأليف العلمي -

شهدت مصر والشام في العصر المملوكي الأول حركة علمية نشطة، فقد ساعد على ذلك مجموعة من العوامل، سنحاول تبنيها والتعرف على آثارها.

* إسهام المماليك في تشجيع العلم والعلماء.

حرص سلاطين المماليك على تشجيع العلماء، وتقريبهم من مجالسهم، صحيح أنهم لم يصلوا إلى درجة سلاطين الأيوبيين في العلم ومراتبه، إلا أنهم ساروا على نهج أسلافهم في تشجيعهم للعلم والعلماء، فقد كانوا يستشيرونهم في كثير من القضايا، وتشير المصادر إلى أن السلطان سيف الدين قطز لما عزم على الخروج لمواجهة التتار، جمع الأمراء واستشارهم، فأشاروا عليه بعقد مجلس، فجمع القضاة ومشايخ العلم، وكان شيخ الإسلام وسلطان العلماء في ذلك الوقت الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فحدثه في الخروج إلى لقاء التتار، فأشار عليه بالخروج وقال: "أخرج وأنا أضمن لك على الله النصر، فقال الملك: إن المال في خزائني قليل، وأريد الاقتراض من التجار، فقال: إذا أحضرت أنت وجميع العسكر كل ما في بيوتكم، وما على نسانكم من الحلوى الحرام، وضربته على السكة، وأنفقت في الجيش، وقصر عن القيام بكلفتهم فأنا أسأل الله تعالى لكم في إظهار كنز من كنوز الأرض يكفيكم ويفضل عنكم، وأما أنكم تأخذون أموال المسلمين، وتخرجون إلى لقاء العدو، عليكم المحرمات من الأطرزة المزركشة أو المناطق المحرمة وتطلبون من الله النصر، فهذا لا سبيل إليه، فوافقوه، وأخرجوا ما عندهم، ففرقه وكفى، وخرجوا وانتصروا". (١)

ومثل ذلك ما فعله الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥. حينما جاءت الأخبار بأن التتار قد خرجوا إلى بلاد الشام، ووصلت أوائلهم إلى حلب، وعندما سمع السلطان بيبرس بذلك خرج من مصر على جرائد الخيل، فلما دخل الشام أقام بها "وعقد مجلسا قيل فيه: إن التتار قد ملكوا البلاد، وإن الخزائن نفذ ما فيها من المال، وأن القصد أن يأخذ من أموال الرعية ما يستعان به على دفع التتار، فأفتاه علماء الشام بأنه يجوز له أخذ أموال الرعية، فأخذ خطوطهم بذلك، ثم قال: هل بقي من أعيان العلماء أحد؟ قالوا: نعم، بقي الشيخ محيي الدين النووي رأس علماء الشافعية، فأحضره وقال له: اكتب خطك بذلك مع الفقهاء، فامتنع من ذلك. فقال له: ما سبب امتناعك؟ قال: أنا أعلم أنك كنت في الرق للأمير إيدكين البندقداري، وليس لك مال، ثم إن الله تعالى منّ عليك، وجعلك ملكاً، وبلغني أن عندك سبعة آلاف مملوك، ولكل مملوك حياصة ذهب، وعندك مانتا جارية، لكل جارية حلي فاخرة ما بين ذهب ولؤلؤ وفصوص ثمينة، فإذا بعث ذلك جميعه، وبقيت ممالكك

(١) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م، ص: ٥١،

وانظر: ابن إياس، بدائع الزهور، فرانز شتاير، فيسبادن، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص: ٣٠١/١ - ٣٠٢.

بالبنود والصوف بدلاً عن الحوايص الذهب، وباعت جواريك الحلي التي عندها، أفتيك بأخذ أموال الرعية، فلما سمع ذلك الملك الظاهر غضب منه، ورسم بأن يخرج من الشام ولا يقيم بها، فوقف العلماء والفقهاء للسلطان وقالوا: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به، فرسم السلطان برجوعه إلى دمشق، فامتنع من العودة إلى دمشق، وقال: لا أدخلها والظاهر في قيد الحياة. (١)

هذه الرواية وما سبقها تحمل أكثر من دلالة، إذ تبين حرص السلطان على مشورة الأمراء والعلماء في كل ما يعرض لهم، وفي كل أمر يستجد، كما تكشف عن حرصهم على أخذ موافقة العلماء الخطية في كل ما يفتون به، كما تشير إلى إذعان السلطان لرأي العلماء برجوعه عن قراره، بالإضافة إلى حرص العلماء على قول كلمة الحق والجهر بها، ولو كان ذلك أمام السلطان، ومهما كلفهم ذلك.

وقد بلغ من خشية سلاطين المماليك من العلماء والفقهاء ما نقل عن الظاهر بيبرس أنه قال بعد وفاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام: "ما استقر ملكي إلا الآن، وكان الشيخ عز الدين يزجره عن المظالم وينهاه عن ذلك" (٢) وكان الملك الناصر محمد يقول لجلسائه: "إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري، وهو قاض من قضاة الحنفية في عهده." (٣)

هذا بالإضافة إلى رعاية سلاطين المماليك للعلم وأهله، فقد كان الملك الظاهر يقرب أرباب الكمالات من كل فن وعلم، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب. (٤)

كما كان سلاطين المماليك على قدر وافر من الديانة، والحرص على ملازمة الصلوات، وإقامة الفرائض، والقضاء على المحرمات ومحاربتها. فقد كان الظاهر بيبرس على قدر من الديانة "وكان ملازماً للخمس في أوقاتها، وألزم حاشيته بها، وحكي عنه أنه ما شرب خمراً قط، ومنع كل منكر، وكان يحصل من المنكر بمصر كل يوم ألف دينار فأبطله، ولما حج رؤي بباب الكعبة محرماً يأخذ بأيدي الضعفاء ليصعدوا، وعمل ستور الديباج للكعبة والحجرة النبوية، وعندما وعظه أحد الشيوخ استعذب وعظه. وأجزل عطاءه." (٥)

وكان بعض السلاطين على قدر من العلم، فقد روى محيي الدين بن عبد الظاهر عن الملك الأشرف خليل بن قلاوون أنه ما رأى ولا سمع بأحسن من فهمه، إذ كان يعلم على المراسيم، يقرأها جميعاً، ويفهم ما فيها، ويقول: بل كان يخرج علينا بأشياء كثيرة في صنعة الإنشاء، ونرى فيها الصواب منه. (٦) وكان عند بعضهم علم بالفقه، فقد كان بيبرس الجاشنكير "موصوفاً بالعقل

(١) ابن إياس، بدائع الزهور: ٣٣٧/١ (٢) المصدر نفسه: ٣١٨/١

(٣) رحلة ابن بطوطة، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م: ٦٣/١

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٨٢/٧

(٥) تاريخ ابن الوردي، المطبعة الوهبية، ١٢٨٥هـ: ٢٢٥/٢ (٦) بدائع الزهور: ٣٧٦/١

التام والفقّه، خرج للحج سنة ٧٠١هـ وحج بالناس، وصنع من المعروف شيئاً كثيراً، وأبطل عدة بدع كانت معروفة، منها أنه قلع المسمار الذي كان في وسط الكعبة، وكان العوام يسمونه سرّة الدنيا، وينبطح الواحد منهم على وجهه، ويضع سرّته مكشوفة عليه، ويعتقد أن من فعل ذلك عتق من النار، كذلك أزال الحلقة التي يسمونها العروة الوثقى. (١) إن من يتصدى لمثل هذه البدع لا بد أن يكون على قدر من الاطلاع على أمور الفقّه، ملماً بكثير من مسائل الفروض والعبادات.

كما كان سلاطين المماليك يكتنون كل التقدير والإجلال للعلماء. فقد روى صلاح الدين الصفدي عن السلطان المنصور لاجين قوله: "حكى لي الشيخ فتح الدين بن سيد الناس: لما دخل عليه لم يدعه يبوس الأرض، وقال: أهل العلم منزّهون عن هذا، وأجلسه عنده، وأظنه قال: على المعقد، ورتبه موقعاً، فبأشّر ذلك أياماً واستعفى، فأعفاه، وجعل المعلوم له راتباً، فتناوله إلى أن مات." (٢)

أما الملك الناصر محمد بن قلاوون فقد كان مطاعاً مهيباً، عارفاً بالأمر، يعظم أهل العلم، ولا يقرر في المناصب الشرعية إلا من يكون أهلاً لها، ويتحرى لذلك ويبحث عنه، ويبالغ. (٣) وكان الملك الناصر يحضر مجالس العلم، ويخلع على العلماء، فعندما افتتح الخانقاه التي أنشأها بجوار القصر بسرياقوس، حضره الصوفية والقضاة ومشايخ البلد، وسمع السلطان هناك على القاضي بدر الدين بن جماعة عشرين حديثاً من تساعيّاته بقراءة ولده عز الدين، وخلع عليه خلعاً سنّية، وأكرمه، وعمل السلطان بالخانقاه المذكورة وليمة عظيمة، وخلع على قاضي القضاة بدر الدين وعلى جماعة من الشيوخ، وفرق من الذهب والفضة على المشايخ ثلاثين ألف درهم. (٤)، وفي رواية أخرى ستين ألف درهم فضة (٥)، وكان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ذكياً مفرطاً، وله بعض اشتغال بالعلم (٦)، وكان السلاطين يصدرّون تكليف التدريس أو تفويض التدريس في بعض المدارس، يصدرّونها بأنفسهم كالمدرسة الصلاحية والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالقسّاط، والمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصوري، ودرس الجامع الطولوني ونحو ذلك. (٧)

ولم ينس سلاطين المماليك ضمان الحياة الكريمة، والدخل الذي يكفل لهؤلاء العلماء مستوى مرموقاً من العيش، إذ رتب الظاهر بيبرس في تربته مدرستين: شافعية وحنفية، ورتب في كل مدرسة مدرّساً له مائة وخمسون درهماً في الشهر (٨)، وجعل الملك المنصور قلاوون راتب المدرس في مدرسته مائتي درهم. (٩)

(١) الشوكاني، البدر الطالع، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٤٨هـ: ١٦٦/١

(٢) النجوم الزاهرة: ١٠٨/٨ (٣) البدر الطالع: ٢٣٨/٢

(٤) تاريخ ابن الوردي: ٢٧٨/٢ (٥) خطط المقرئزي، مكتبة المثنى، بغداد: ٤٢٢/٢

(٦) البدر الطالع: ٢٠٨/١

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م: ٤٠٠/٤

(٨) عز الدين بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: ٢٦٦

(٩) المقرئزي، السلوك، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م: ١٠٤٩/١ نقلاً عن النويري في

وأما أمراء المماليك فقد كانوا أوفر حظاً من السلاطين من حيث اطلاعهم على العلم، وتخصّصهم في ميادينهم المختلفة، ومشاركاتهم فيه، بل لقد ألف بعضهم المصنفات الجليلة في فنون العلم، فقد سمع الأمير سيف الدين تنكرز نائب الشام كتاب "الأثار" للطحاوي من الشيخ عبدالرحمن بن عبدالمولى إبراهيم، فوصله ورتب له مرتباً^(١). كما كان الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري "عالماً فاضلاً، فقيهاً، نحويّاً، ينظم الشعر، وألف تاريخاً سماه: "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"^(٢) وكان خليل بن كيكليدي العلاني ممن سمعوا الحديث، حيث بلغت مشيخته قريباً من سبعمائة، كما رحل إلى الأقطار، واشتغل بالفقه والعربية، ومهر، وصنف التصانيف في الفقه والأصول والحديث... وقد لبس زي الفقهاء، وتولى تدريس الحديث بالناصرية ثم الصلاحية بالقدس"^(٣) وسمع مغلطاي بن قليج الجكري الحديث، ودرس بالقاهرة، وصنف تصانيف كثيرة، قيل إن مصنفاته بلغت نحو المائة،^(٤) وكان للأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولي مشاركة واسعة في العلم. فقد روى مسند الإمام الشافعي، وحدث به، ورتبه ترتيباً حسناً، وشرحه في مجلدات، كما قرأ الفقه على مذهب الشافعي وأفتى، واجتمع بأهل العلم، وأحسن إليهم.^(٥)

وكان علاء الدين الطنبغا، دوادار الأمير علم الدين سنجر السابق، فقيهاً شافعيّاً فاضلاً، أديباً ماهراً، اجتمع بأهل العلم والأدب، وكان له إمام بالشيخ صدر الدين بن الوكيل والشيخ تقي الدين ابن تيمية، وهو أحد أخيار الحلقة بدمشق،^(٦) وكان الأمير سيف الدين شيخو الناصري كبير الدولة ومديرها "يحب العلماء والفقهاء، ويجتمع بهم، ويحسن إليهم،^(٧) وأما الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري فقد كان أميراً جليلاً محباً للعلماء والفقهاء، يجتمع بهم، ويخالطهم، ويتكلم معهم، ويسدي إليهم المعروف."^(٨)

هذه لمحة سريعة حول تقدير المماليك، سلاطينهم وأمرائهم، للعلم، وتشجيعهم لأهله، وإسهام بعضهم في ميادينهم المختلفة، تكشف لنا عن محاولة سلاطين المماليك استشارة العلماء فيما يعرض لهم من أمر الأمة، وحرصهم على الأخذ برأيهم، كما تبين تقديرهم للعلماء وحرصهم على ضمان الحياة الكريمة لهم، بل لقد كان لبعضهم إسهامات واسعة في ميادين العلم المختلفة.

(١) الصفدي، نكت الهميان، المطبعة الجمالية بمصر، ١٣٢٩هـ - ١٩١١م: ١٨٩

(٢) الصفدي، الوافي، فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م: ٣٥٢/١٠. وانظر: بدائع الزهور: ٤٠٨/١

(٣) ابن حبيب، تذكرة النبيه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م، ٢٤٥/١، وانظر: البدر الطالع: ٢٤٥/١

(٤) المصدر نفسه: ٢٤٢/٣، وانظر: المصدر نفسه: ٣١٢/٢

(٥) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م: ٢٧١/٢ - ٢٧٢

(٦) تذكرة النبيه: ٥٠/٣، وانظر الوافي: ٣٦٦/٩ (٧) المصدر نفسه: ٢٠٤/٣

(٨) المصدر نفسه: ٢١٣/٣

*** دور العلم وتعددتها في العصر المملوكي ***

سار سلاطين المماليك وأمرؤهم على نهج أسلافهم الأيوبيين في إنشاء المدارس ووقفها على المذاهب الأربعة أو بعضها، فقد أنشأ المعز أيك التركماني مدرسته المعروفة بالمعزية (١)، كما أنشأ المظفر قطز مدرسته التي بقرب حدره البقر (٢)، وعمر الظاهر بيبرس مدرسة، ووقف عليها درسين للفقه الشافعي والحنفي، كما أقر بها درساً للحديث ودرساً للقراءات السبع، وكانت هذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة (٣)، وقد أنشأ الظاهر بيبرس أيضاً مدرسة ودار حديث بدمشق (٤)، وأنشأ السلطان المنصور قلاوون مجمعاً علمياً ضخماً، ضم مدرسة وقبة وبیمارستاناً، وقد رتب بالمدرسة دروساً للفقهاء الأربعة، ودرساً للطب، كما رتب بالقبة دروساً على المذاهب الأربعة ودرساً للحديث النبوي ودرساً لتفسير القرآن الكريم وميعاداً، وكانت هذه المدارس لا يلبثها إلا أجل الفقهاء المعتمدين، وفي هذه القبة قراء يتناوبون القراءة بالشبائك المطلة على الشارع طول الليل والنهار (٥)، وقد جددت هذه المدرسة في عهد الملك الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ، وفي عهد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٦١هـ.

وأمر السلطان زين الدين كتبغا المنصوري بإنشاء مدرسة إلى جوار القبة المنصورية، لكنه لم يتمها، فأمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بإتمامها، وهي من أجل مباني القاهرة، ورتب فيها دروس للفقه على المذاهب الأربعة (٦).

وأنشأ السلطان حسن بن محمد بن قلاوون مدرسة عند "سوق الخيل"، لم يعمر في سائر الأقاليم مثلها، قيل: إن إيوانها الكبير بني على قدر إيوان كسرى أنوشروان، وهي تشتمل على أربع مدارس، لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به، يشغل فيها العلم، كما قرر بهذه المدرسة صوفية يحضرون من بعد العصر، ويقال إنه لم يبن على وجه الأرض مثلها أبداً (٧).

أما أمراء المماليك، فقد كان حظهم في إنشاء المدارس أوفر من حظ السلاطين، فقد أنشأ الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني، نائب السلطنة بمصر للظاهر بيبرس وابنه الملك السعيد بركة خان، المدرسة الفارقانية بالقاهرة، ورتب بها درساً للشافعية، وآخر للحنفية (٨)، وأنشأ الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش مدرسة بجوار الجامع الأزهر، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية (٩).

(١) بدائع الزهور: ٢٩٥/١ (٢) المصدر نفسه: ٣٠٨/١

(٣) خطط المقرئزي: ٣٧٨/٢ - ٣٧٩، وانظر: بدائع الزهور: ٣٤٠/١

(٤) النعمي، الدارس، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٨م: ٣٤٨/١، وانظر: بدائع الزهور ٣٤٠/١

ومحمد كردعلي، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م ٨١/٦

(٥) خطط المقرئزي: ٣٨٠/٢، وانظر: بدائع الزهور: ٣٥٣/١

(٦) المصدر نفسه: ٣٨٠/٢، وانظر: بدائع الزهور: ٤١٨/١

(٧) بدائع الزهور: ٥٥٩/١

(٨) خطط المقرئزي: ٣٦٩/٢ (٩) المصدر نفسه: ٣٨٣/٢

وأنشأ الأمير علاء الدين أقبغا أستاذار الملك الناصر محمد بن قلاوون مدرسة، وقرر بها درساً للشافعية وآخر للحنفية، كما جعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ، وقرر بها طائفة من القراء يقرأون القرآن بشباكها (١). وبنى الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري نائب السلطة بمصر مدرسة وجعلها يرسم فقهاء الشافعية (٢). وأنشأ مثل هذه المدارس كل من: الأمير منكوتر الحسامي (٣)، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري (٤)، والأمير سيف الدين اسنيغا الناصري (٥)، والأمير بيدر الأيدمر (٦)، والأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار (٧)، والأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي (٨)، والأمير علم الدين سنجر الجاولي (٩)، والأمير صرغتمش الناصري (١٠).

٤٥٨٨٩٠

وكان لنساء الممالك دور أيضاً في حركة بناء المدارس ووقفها، فقد أنشأت الست الجلييلة خوند تتر الحجازية، ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون زوجة الأمير بكتمر الحجازي، مدرسة عرفت بالحجازية، وجعلت بها درساً للفقهاء الشافعية، وآخر للمالكية، وأنشأت بجوارها قبة، ورتبت لشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً. (١١)

وأنشأت الست الجلييلة بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان مدرسة، وعملت بها درساً للشافعية وآخر للحنفية، (١٢) كما بنت الست أيدكين زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصري مدرسة أيضاً. (١٣)

وكان للوزراء وكبار الموظفين مشاركات في إنشاء المدارس أيضاً، إذ أنشأ الوزير صاحب بهاء الدين علي بن محمد بن حنا مدرسة "كانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر، يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها، ويتشاحنون في سكنى بيوتها، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة" (١٤)

(١) خطط المقرئزي : ٣٨٤/٢، وانظر: بدائع الزهور : ٥٠٤/١

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٦/٢

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٧/٢

(٤) المصدر نفسه: ٣٨٨/٢

(٥) المصدر نفسه: ٣٩٠/٢ - ٣٩١

(٦) المصدر نفسه: ٣٩١/٢

(٧) المصدر نفسه: ٣١٢/٢

(٨) المصدر نفسه: ٣١٢/٢

(٩) المصدر نفسه: ٣٩٨/٢

(١٠) المصدر نفسه: ٤٠٣/٢ - ٤٠٤

(١٢) المصدر نفسه: ٣٩٩/٢ - ٤٠٠

(١١) المصدر نفسه: ٣٨٢/٢

(١٤) المصدر نفسه: ٣٧٠/٢ - ٣٧١

(١٣) المصدر نفسه: ٣٩٤/٢

وأنشأ الرئيس شمس الدين شاكِر بن غزِيل المعروف بابن البقري ناظر الذخيرة في أيام الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون مدرسة "كانت في أبدع قالب وأبهج ترتيب، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية". (١)

وشارك الكتاب والعلماء في حركة بناء المدارس أو وقفها، فقد عمر الشيخ مجد الدين عبدالعزيز بن الحسين الخليلي الداري مدرسة، "وقرر بها مدرساً شافعيًا ومعيداً، وعشرين نفراً طلباً" (٢) وبنى الحكيم مهذب الدين محمد بن أبي الوحش المعروف بابن أبي أصيبعة رئيس الأطباء بديار مصر مدرسته المهدبية (٣)، ووقف القاضي الرئيس شمس الدين محمد بن إبراهيم القيسراني، أحد موقعي الدست بالقاهرة، داره مدرسة قبل وفاته (٤)، كما جدد القاضي علم الدين إبراهيم بن عبداللطيف المعروف بابن الأمير ناظر الدولة في أيام الملك الناصر حسن، عمارة المدرسة الصاحبية (٥). وكان للتجار مساهمة في هذه الحركة، فقد أنشأ رئيس التجار في مصر برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلي مدرسة، أنفق في بنائها زيادة على خمسين ألف دينار (٦)، وأنشأ بدر الدين محمد بن محمد الخروبي، التاجر في مطابخ السكر مدرسة، ورتب بها مدرسة فقه، وقد جدد حفيده نور الدين علي بن عز الدين بناءها (٧)، كما أنشأ عز الدين محمد بن أحمد بن محمد الخروبي مدرسة أكبر من مدرسة عمه بدر الدين، إلا أنه مات قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها. (٨)

وعلى العموم، فقد ذكر المقرئ في "خطته" بضعة وأربعين مدرسة أنشئت أو وقفت في العصر المملوكي الأول في القاهرة، هذا عدا عن المدارس التي وجدت في أيام أسلافهم الأيوبيين، واستمرت عامرة بالتدريس والطلبية في العصر المملوكي، وقد نتين لنا أن جهات متعددة ساهمت في إنشاء هذه المدارس، وعلى رأسها سلاطين الممالك، ثم أمراؤهم وبعض نسايتهم، كما شارك الوزراء وكبار الموظفين والعلماء والتجار في بناء هذه الصروح العلمية الضخمة، وقد قال ابن بطوطة فيها عندما زار مصر: "أما المدارس بمصر، فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها". (٩)

(١) خطط المقرئ: ٣٩١/٢

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٠/٢

(٣) المصدر نفسه: ٣٩٧/٢

(٤) المصدر نفسه: ٣٩٤/٢

(٥) المصدر نفسه: ٣٧١/٢

(٦) المصدر نفسه: ٣٦٨/٢

(٧) المصدر نفسه: ٣٦٩/٢

(٨) المصدر نفسه: ٣٧٠/٢

(٩) رحلة ابن بطوطة: ٥٦/١

وأما في دمشق، فلم يكن لسلطين المماليك دور يذكر في إعمار مدارسها سوى المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس، وجعلها للحنفية والشافعية، بالإضافة إلى كونها دار حديث (١)، والمدرسة الجقمقية التي أسسها سنجر الهلالي، فانتزعتها الملك الناصر حسن سنة ٧٦١هـ، وأمر بعمارتهما، فبنيت بالحجر الأبلق، وجاءت في غاية الحسن، وهي مدرسة للحنفية. (٢)

ولأمراء الشام مشاركة واضحة في بناء المدارس في دمشق، فقد غمر تنكز مدرسة فيها، (٣) ول سيف الدين بكتمر الخليلي مدرسة تعرف بالخليلية، (٤) وبنى الأمير ناصر الدين القيصر أحد أمراء الجند المدرسة القيمرية الجوانية، (٥) وأنشأ الأمير سيف الدين منجك أحد ممالك الناصر محمد بن قلاوون المدرسة المنجكية، (٦) وبنى علم الدين سنجر الدوادار دار حديث ومدرسة ورباطاً، (٧) ولناظر الأيتام في دمشق النفيس إسماعيل بن محمد الحراني مدرسة للحديث عرفت باسمه. (٨)

وللعلماء مشاركاتهم في بناء صروح الحركة العلمية في دمشق، إذ أنشأ وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا مدرسته الوجيهية، أنشأها دار قرآن، (٩) كما أنشأ عز الدين بن القلانسي دار حديث عرفت باسمه. (١٠)

وكان للتجار دور في هذه الحركة، إذ أنشأ علي بن اسماعيل السنجاري أحد التجار داراً للقرآن عرفت باسمه، (١١) وأنشأ التاجر شمس الدين بن الصبان دار القرآن والحديث الصبانية. (١٢)

هذه أشهر المدارس التي بنيت في دمشق في العصر المملوكي الأول، وقد بقيت معظم المدارس التي كانت في العصر الأيوبي عامرة بالعلم والعلماء، ويذكر النعيمي أن في دمشق سبع دور للقرآن، (١٣) وفيها من دور الحديث ست عشرة داراً، (١٤) وثلاث دور للقرآن والحديث معاً. (١٥)

-
- (١) النعيمي، الدارس ١/٣٤٨، وخطط الشام: ٦/٨١ (٢) الدارس: ١/٤٨٩، وخطط الشام: ٦/٨٩
 (٣) المصدر نفسه: ١/١٢٣، وخطط الشام: ٦/٧٤ (٤) خطط الشام: ٦/٧٧
 (٥) الدارس: ١/٤٤١، وخطط الشام: ٦/٨٦ (٦) المصدر نفسه: ١/٦٠٠، المصدر نفسه: ٦/٩٥
 (٧) المصدر نفسه: ١/٦٤، المصدر نفسه: ٦/٧٢ (٨) المصدر نفسه: ١/١١٤، المصدر نفسه: ٦/٧٤
 (٩) المصدر نفسه: ١/١٧، المصدر نفسه: ٦/٧١
 (١٠) المصدر نفسه: ١/٩٦، المصدر نفسه: ٦/٧٣
 (١١) المصدر نفسه: ١/١٢، المصدر نفسه: ٦/٧٠ (١٢) المصدر نفسه: ١/١٢٨
 (١٣) المصدر نفسه: ١/١٨، خطط الشام: ٦/٦٩ - ٧١
 (١٤) المصدر نفسه: ١/١٩ - ٢٢، خطط الشام: ٦/٧١ - ٧٤ (١٥) المصدر نفسه: ١/١٢٣ - ١٢٨

أما مدارس الشافعية، فهي ثلاث وستون مدرسة، (١) واثنان وخمسون مدرسة للحنفية، (٢) وأربع مدارس للمالكية، (٣) وإحدى عشرة مدرسة للحنابلة، (٤) كما يذكر أن فيها ثلاث مدارس للطب، اثنان منها أسستا قبل العصر المملوكي، والثالثة في العصر المملوكي، وهي المدرسة اللبودية، وهي من إنشاء نجم الدين اللبودي. (٥)

وكما كان الحال في مدارس القاهرة، فإن مدارس دمشق قد شارك في بنائها أو وقفها أيضاً السلاطين والأمراء والتجار والعلماء، إلا أن حظ دمشق من المدارس في هذا العصر كان قليلاً إذا ما قورن بعدد المدارس التي أنشئت في مصر في ذلك العصر.

ويحاول أحد الباحثين المعاصرين تعليل ذلك بالقول: "إن الأيوبيين كانوا ينظرون إلى الشام على أنها موطنهم الأول. حيث عاشوا في كنف الدولة النورية السلجوقية قبل قدومهم إلى مصر، بل إن كثيراً من أفراد البيت الأيوبي كانوا يقيمون في الشام بصفة دائمة" (٦)، ولست أرى في هذا الكلام معنى، إلا إذا قصد الباحث أن المماليك لم يكونوا يرون في الشام إلا مكاناً لبسط نفوذهم، وامتداداً لحكمهم، وليست داراً لهم، أما الأيوبيون فهم الذين كانوا يعدونها دار إقامة لهم.

وأما في بيت المقدس، فقد كثرت المدارس التي بنيت في العصر المملوكي الأول، وقد شاركت في بنائها أو وقفها فئات من السلاطين والأمراء والعلماء وأهل الخير من التجار والكبراء، وفي هذا العصر أنشئ في بيت المقدس "ما يقارب أربعين مدرسة، وكانوا بذلك أكثر نشاطاً من سلاطين الأيوبيين في إنشاء المدارس، حيث إن الأيوبيين أنشأوا عدداً أقل من المدارس" (٧) ويذكر أستاذنا الدكتور عبد الجليل هذه المدارس مرتبة حسب عصور سلاطين المماليك. (٨)

ويبدو لي أن نشاط الأمراء في بناء المدارس في بيت المقدس كان وافراً، إذ جاء معظمها من إنشائهم أو وقفهم مثل: المدرسة التنكزية لواقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام، (٩) والمدرسة البلدية لواقفها الأمير منكلي بغا الأحمدى نائب حلب (١٠)، ثم المدرسة الأرغونية لواقفها أرغون الكاملى نائب الشام (١١). والمدرسة المنجكية، وقفها الأمير منجك

(١) انظر: الدارس: ١٢٩/١ - ٤٧٢، وخطط الشام: ٧٥/٦ - ٨٨

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٤٧٣/١ - ٦٥٠، والمصدر نفسه: ٨٨/٦ - ٩٥

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٣/٢ - ٢٨، والمصدر نفسه: ٩٦/٦

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٩/٢ - ١٢٦، والمصدر نفسه: ٩٦/٦ - ٩٨

(٥) انظر: المصدر نفسه: ١٢٧/٢ - ١٣٨، والمصدر نفسه: ١٠٠/٦ - ١٠٢

(٦) محمد عبدالرحيم غنيمه: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية، تطوان ١٩٥٣م: ١٠٤

(٧) د. عبد الجليل عبدالمهدي: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصر الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م: ٦٧، وانظر: خطط الشام: ١٢٣/٦

(٨) انظر: المصدر نفسه: ٦٧ - ٧٠ (٩) الأنس الجليل: ٣٥/٢، وخطط الشام: ١١٧/٦

(١٠) المصدر نفسه: ٣٥/٢، وخطط الشام: ١١٧/٦

(١١) المصدر نفسه: ٣٦/٢، وخطط الشام: ١١٨/٦

نائب الشام(١)، والمدرسة الجاولية، وقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة(٢).

وشاركت نساء الأمراء في بناء المدارس ووقفها في القدس منها: المدرسة الخاتونية، وافقتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية، كما شارك الوزراء في ذلك، إذ أسسوا المدرسة الكريمة لوقفها صاحب كريم الدين عبدالكريم بن مكائس(٤)، وللعلماء مشاركاتهم أيضاً، إذ بنوا المدرسة المحدثية لوقفها عز الدين عبدالعزيز العجمي، وكان محدثاً(٥).

وقد شهدت كثير من حواضر مصر والشام في العصر المملوكي الأول حركة علمية، تمثلت في المدارس التي أنشئت فيها، فمما يذكره ابن بطوطة مثلاً أنه كان بدمياط مثلاً وال من ذوي الاحسان والفضل، بنى مدرسة على شاطئ النيل(٦)، ويقول عن مدينة المنية: "بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد(٧)، ويذكر مدينة إخميم ويقول: إن بها مدرسة(٨)، ويذكر مدينة "هو" ويقول إنه نزل بمدرسة تقي الدين بن سراج فيها(٩)، ثم يذكر مدينة قنا وبها المدرسة السيفية(١٠)، ثم مدينة "قوص" وبها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة(١١)، ثم مدينة أسنا التي يقول فيها: "وهي مدينة كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع"(١٢).

أما حواضر الشام، فحظيت منذ أيام الأيوبيين بعدد وافر من المدارس، فقد كان في حلب مثلاً ما يزيد على خمسين مدرسة حتى العصر المملوكي، وأكثر مدارسها نشأت في الدولتين النورية والصلاحية(١٣)، ومن مدارسها التي أنشئت في العصر المملوكي الأول: الإلجانية التي أنشأها إلجاي أمير السلاح زمن اشقتمر(١٤). والمدرسة الصاحبية، أنشأها شهاب الدين

(١) الأنس الجليل: ٣٧/٢، وخطط الشام: ١١٨/٦

(٢) المصدر نفسه: ٣٨/٢، وخطط الشام: ١١٩/٦

(٣) المصدر نفسه: ٣٦/٢، وخطط الشام: ١١٨/٦

(٤) المصدر نفسه: ٣٩/٢، وخطط الشام: ١٢٠/٦

(٥) المصدر نفسه: ٤٣/٢، وخطط الشام: ١٢١/٦

(٦) رحلة ابن بطوطة: ٥٣/١

(٧) المصدر نفسه: ٦٦/١

(٨) المصدر نفسه: ٦٩/١

(٩) المصدر نفسه: ٧٠/١

(١٠) المصدر نفسه: ٧٠/١

(١١) المصدر نفسه: ٧٠/١

(١٢) المصدر نفسه: ٧١/١

(١٣) خطط الشام: ١١٣/٦

(١٤) المصدر نفسه: ١١٠/٦

أحمد بن الصاحب (١)، والمدرسة الناصرية، التي كانت كنيسة لليهود وثبت أنها محدثة، فقلبت مدرسة سنة ٧٢٧هـ (٢)، ويقول ابن بطوطة في ذكر مدارس حلب: "وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع وإتقان الصنعة تنسب لأمرأى بني حمدان، وبالبلد سواها ثلاث مدارس وبها مارستان" (٣).

وكان في حماة حتى نهاية العصر المملوكي سبع مدارس، واحدة منها بنيت في العصر المملوكي الأول، بناها محمد بن حمزة العزي سنة ٧٢٧هـ (٤).

وفي طرابلس عدد آخر من المدارس (٥)، منها في العصر المملوكي الأول: المدرسة القرطانية يظن أن بانيها هو قرطاي بن عبدالله الناصري بنيت سنة ٧٢٦هـ (٦)، والمدرسة الزريقية، بناها سيف الدين كركاي السيفي سنة ٧٣٨هـ (٧)، والمدرسة الخاتونية بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها عز الدين أيدير الأشرفي والي طرابلس سنة ٧٧٥هـ (٨).

ومن المدارس التي بنيت في العصر المملوكي الأول في بلاد الشام أيضا مدرسة حصن الأكراد، أنشأها والي هذه البلدة بكتمر بن عبدالله الأشرفي سنة ٧١٩هـ (٩)، ومدرسة في غزة كانت شافعية أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي (١٠)، ومدرسة في مدينة الصلبيات اسمها السيفية لمنشئها سيف الدين بكتمر والي الولاية سنة ٧٢٤هـ (١١)، ومدرسة في مدينة المعرة بناها ابن الوردي في منتصف المائة الثامنة (١٢).

ولم تكن مراكز العلم في العصر المملوكي الأول مقتصورة على المدارس، فقد كانت الخوانق والزوايا والربط والترب في هذه الحواضر مراكز علمية ساهمت في دفع الحركة العلمية في مصر والشام في هذا العصر، وتخرج فيها الكثير من علماء العصر ومشايخه.

(١) خطط الشام: ١١٠/٦

(٢) المصدر نفسه: ١١٢/٦

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٨٧/١

(٤) خطط الشام: ١٢٥/٦ وانظر فيه بقية المدارس: ١٢٤/٦ - ١٢٥

(٥) المصدر نفسه: ١٢٥/٦ - ١٢٧

(٦) المصدر نفسه: ١٢٦/٦

(٧) المصدر نفسه: ١٢٦/٦

(٨) المصدر نفسه: ١٢٠/٦

(٩)، (١٠)، (١١) المصدر نفسه: ١٢٧/٦

(١٢) المصدر نفسه: ١٢٨/٦

أما الخوانق، ومفردتها خانقاه: "وهي كلمة فارسية معناها بيت، وقيل: أصلها خونقاه، أي: الموضع الذي يأكل فيه الملك، وقد أحدثت الخوانق في حدود الأربعمئة هجرية، وجعلت لتخلو الصوفية فيها لعبادة الله تعالى." (١)

فالخوانق إذن، هي بيوت يخلو فيها الصوفي لعبادة الله سبحانه وتعالى، ولكن دور الخوانق لم يقتصر على هذا الجانب الديني، بل كانت هذه الخوانق مراكز علم أيضاً، يتولى مشيختها الأكابر والأعيان من العلماء، وسكانها من الصوفية ممن يعرفون بالعلم والصلاح، وترجى بركتهم. (٢)

وكانت هذه الخوانق كثيرة في مصر والشام، ففي القاهرة أكثر سلاطين المماليك وأمراؤهم من إنشائها، ووقفوا للإنفاق عليها الأوقاف الجلييلة، ومن هذه الخوانق على سبيل المثال: خانقاه ركن الدين بيبرس وهي "أجل خانقاه بالقاهرة بنياناً، وأوسعها مقداراً، وأتقنها صنعة، بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري" (٣)، هذه الخانقاه كانت مركزاً علمياً يضم خانقاه ورباطاً وقبة، وقد قرر فيها أربعمئة صوفي، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخاً يفرق على كل منهم في كل يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر، وجعل لهم الحلوى، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوي، له مدرس، وعنده عدة من المحدثين، ورتب القراء بالشباك يتناوبون القراءة فيه ليلاً ونهاراً. (٣)

ومن أعظم هذه الخوانق خانقاه سرياقوس التي أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد جعل بها مائة خلوة لمائة صوفي، وبني بجانبها مسجداً تقام به الجمعة، وبني بها حماماً ومطبخاً، ولعظم مقام هذه الخانقاه فقد لقب شيخها بشيخ الشيوخ، وكان هذا اللقب من قبل خاصاً بشيخ الخانقاه والصلاحية (٤)، ورتب في هذه الخانقاه درس للحديث النبوي استمع الملك الناصر إليه في حفل افتتاحه. (٥)

وقد شارك أمراء المماليك في بناء هذه الخوانق أو وقفها، ومنهم الأمير سيف الدين شيخو العمري، أنشأ خانقاه عرفت باسمه على مساحة من الأرض تزيد على فدان، حيث اختط فيها الخانقاه وحمامين وعدة حوانيت يعلوها بيوت لسكنى العامة، ورتب فيها عدة دروس منها: أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرس للحديث النبوي، ودرس لإقراء القرآن بالروايات السبع، وجعل لكل درس مدرساً، وعنده جماعة من الطلبة، وشرط عليهم حضور الدروس وحضور وظيفة التصوف. (٦) كما أنشأ الأمير سيف الدين الجبيغا المظفري خانقاه باسمه، وكان بها عدة من الفقراء يقيمون بسها، ولهم فيها شيخ، ويحضرون في كل يوم وظيفة التصوف،

(١) خطط المقرئزي: ٤١٤/٢ (٢) المصدر نفسه: ٤١٥/٢

(٣) المصدر نفسه: ٤١٦/٢ (٤) المصدر نفسه: ٤٢٢/٢

(٥) انظر: النجوم الزاهرة: ١٧٩/٩ (٦) خطط المقرئزي: ٤٢١/٢

ولهم الطعام والخبز، وكان بها حوض ماء لشرب الدواب، وسقاية بها الماء العذب لشرب الناس، وكتاب يقرأ فيه أطفال المسلمين الأيتام كتاب الله تعالى، ويتعلمون الخط، ولهم في كل يوم الخبز وغيره." (١)

وقد شاركت النساء في ذلك، فقد أنشأت أم أنوك الخاتون طغاي زوجة السلطان الناصر محمد بن قلاوون خانقاه خاصة بها (٢)، وشارك التجار في ذلك أيضاً، فأنشأ كبير التجار زكي الدين الخروبي الخانقاه الخروبية. (٣)

وكانت هذه الخوانق في مصر كثيرة.

مما سبق يتبين لنا أن هذه الخوانق قد أدت غايات متعددة، فبالإضافة إلى دورها الديني المتمثل في عبادة الله سبحانه وتعالى، فقد كان لها دور علمي يتمثل في الدروس العلمية التي كانت تلقى بها، ويشارك فيها أجلاء العلماء، ويحضرها منات الطلبة، كما كان لها دور تربوي أيضاً حيث يربى فيها الناشئة والأطفال، ويتعلمون كتاب الله تعالى والخط والكتابة، كما كانت هذه الخوانق مؤسسات اجتماعية خيرية، تعنى بالفقراء، وتوفر لهم المسكن والملبس والطعام والشراب والعلاج والحياة الكريمة بالإضافة إلى العلم. وقد كانت خانقاه سرياقوس نموذجاً لهذه المؤسسات الخيرية، بما يقدم فيها من خدمات للمقيمين فيها، فقد كان يصرف فيها للصوفي في اليوم رطل من لحم الضأن قد طبخ في طعم شهوي، ومن الخبز النقي أربعة أرطال، ويصرف له في كل شهر مبلغ أربعين درهماً فضة عنها ديناران، ورطل حلوى، ورطلان زيتاً من زيت الزيتون ومثل ذلك من الصابون، ويصرف له ثمن كسوة في كل سنة، وتوسعة في كل شهر رمضان وفي العيدين وفي مواسم رجب وشعبان وعاشوراء، وكلما قدمت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها، وجعلت بها خزانة بها السكر والأشربة والأدوية، وجماعة من الأطباء: طبائعي وجراحي وكحال، بالإضافة إلى مصلح للشعر وحمام. (٤) وفي هذا يقول أستاذنا الدكتور عبد الجليل: "وأما الخوانق فقد قامت بدورها في الحركة الفكرية، كما كانت تقوم بدور ديني واجتماعي، وكانت مراكز عبادة وعلم كغيرها من المؤسسات الدينية الإسلامية." (٥)

وأما الربط، فكانت أيضاً مراكز عبادة بالإضافة إلى كونها مراكز علم، فقد قرر الملك الأشرف شعبان في رباط الآثار درساً للفقهاء الشافعية، وجعل له مدرساً، وعنده عدة من الطلبة، كما كان في هذا الرباط خزانة كتب. (٦) ومنها أيضاً رباط الأفرم الذي أنشأه الأمير

(١) خطط المقرئزي: ٤٢١/٢ (٢) المصدر نفسه: ٤٢٥/٢

(٣) انظر المصدر نفسه: ٤٢٦/٢ - ٤٢٧

(٤) انظر المصدر نفسه: ٤٢٢/٢ - ٤٢٣

(٥) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: ٧٨

(٦) خطط المقرئزي: ٤٣٠/٢

عز الدين أيبك الأفرم، ورتب فيه صوفية وشيخاً وإماماً، وجعل فيه منبراً يخطب عليه للجمعة والعبدین. (١)

وقد شارك كبار العلماء في التدريس بهذه الربط، أذكر منهم: محمد بن أحمد بن سحمان الوائلي المعروف بالشريشي سنة ٦٨٥، الذي أتقن العربية والأصول والتفسير، ودرس بالرباط الناصري. (٢)

وأما الزوايا فقد كانت كثيرة، ساهم في بنائها السلاطين والأمراء والعلماء، ووقفت على المشايخ والصوفية، أذكر منها: زاوية بناها السلطان الظاهر بيبرس، ووقفها لشيخه خضر بن أبي بكر المهراني العدوي، (٣) ووقف الناصر محمد بن قلاوون زاوية للشيخ تقي الدين رجب بن أشيرك العجمي (٤)، وأخرى برسم الشيخين الأخوين محمد وأحمد المعروفين بالطراطرية، (٥) وأنشأ الأمير ناصر الدين محمد ويدعى طيقوش ابن الأمير فخر الدين الطنبغا الحمصي زاوية ورتب بها عشرة من الفقراء شيخهم منهم، (٦) وبنى الشيخ برهان الدين إبراهيم بن معضاد بن شداد الجعبري الواعظ زاوية، كان يجلس فيها للوعظ، فتجتمع إليه الناس ويذكرهم، وكان هذا الشيخ يروي الحديث، ويشارك في علم الطب وغيره من العلوم، فكان الناس يجتمعون إليه، وينتفعون من علمه. (٧)

وبالإضافة إلى الربط والزوايا، فقد كانت الترب التي أنشأها السلاطين والأمراء لتكون مقابر لهم، كانت مراكز علم يقرأ فيها كتاب الله ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى الدروس التي كانت تلقى بها، فقد أنشأ الظاهر بيبرس في تربته مدرستين: شافعية وحنفية، ورتب في كل مدرسة مدرساً، (٨) ولم يكن هؤلاء المدرسون من الطبقة الدنيا، بل كانوا من عليا المدرسين وأجلانهم، ومشايخ العلم، فقد كان جمال الدين بن مالك النحوي قد أقام بدمشق يصنف ويشغل، وتصدر بالتربة العادلية، وبالجامع المعمور. (٩)

من ذلك نتبين أن هذا الربط والزوايا والترب كان لها وظائف علمية واجتماعية، بالإضافة إلى وظيفتها الدينية، فهي أماكن للعبادة أولاً، وأماكن تلقى فيها الدروس العلمية من مختلف التخصصات، بالإضافة إلى إيوائها للفقراء. (١٠)

(١) خطط المقرئزي: ٤٣٠/٢

(٢) انظر: الوافي: ١٣١/٢، والسيوطي، بغية الوعاة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٦ هـ. ص ١٨

(٣) انظر: خطط المقرئزي: ٤٣٠/٢

(٤) انظر المصدر نفسه: ٤٣٢/٢ (٥) انظر المصدر نفسه: ٤٣٢/٢

(٦) انظر المصدر نفسه: ٤٣٤/٢ (٧) انظر المصدر نفسه: ٤٣٤/٢

(٨) انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر: ٢٦٦ (٩) انظر: بغية الوعاة: ٥٣

(١٠) انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: ٧٤ - ٧٨

ولم يقتصر وجود هذه المؤسسات على القاهرة فحسب من الديار المصرية، بل انتشرت في مختلف حواضرها، ويدل على ذلك قول ابن بطوطة: "وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر لطائفة من الفقراء، وهم أهل أدب ومعرفة بطرائق التصوف." (١)

وكما انتشرت هذه المؤسسات في الديار المصرية، فقد انتشرت في حواضر الشام أيضاً، فقد كان في دمشق مثلاً من الخوانق ما يزيد على خمس وعشرين، ومن الرباطات ما يقارب العشرين، ومن الزوايا ما يزيد على ذلك. (٢)

ومن أشهر هذه المؤسسات في دمشق: الخانقاه السميّاطية، وهي منسوبة للسميّاطي أبي القاسم علي بن محمد من أكابر الرؤساء بدمشق، وقد تولى النظر فيها مجموعة من المشايخ الأجلاء حتى عام ٧٨٨هـ (٣)، ومن الربط: الرباط التكريتي لصاحبه التاجر وجيه الدين محمد بن علي التكريتي (٤)، ومن الزوايا: الزاوية السيوفية لصاحبها نجم الدين عيسى بن شاه أرمن الرومي السيوفي (٥)، ومن الترب: التربة الأفريدونية لواقفها التاجر شمس الدين أفريدون العجمي، وكان بها دار قرآن. (٦)

وكان في بيت المقدس عدد كبير من هذه المؤسسات، تحدث أستاذنا الدكتور عبد الجليل عنها، وعن دورها بالتفصيل. (٧)

وكان في طرابلس أيضاً: مدارس وزوايا وخوانق لا يعلم بانيتها ولا زمن بنائها (٨)، كما كان في الخليل رباط خليل الرحمن أنشأه قلاوون (٩)، وفي بعلبك الخانقاه النجمية (١٠).

مما سبق، يتبين لنا كثرة مراكز العلم في مصر والشام في العصر المملوكي الأول وتعددتها، ويحاول بعض الباحثين تحليل ذلك بتلك "الظروف الخاصة التي تميزت بها طبيعة الحكم المملوكي القائم على الغلبة وعدم احترام نظام ولاية العهد الوراثي، وكثرة الانقلابات والمنازعات على الحكم من جانب المماليك، الأمر الذي جعل ثروات السلاطين والأمراء ومصائر ذرياتهم وأولادهم مهددة بأشد الأخطار إذا دهمهم الموت، أو أفلتت من أيديهم أزمّة الحكم" (١١)،

(١) رحلة ابن بطوطة: ٥٦/١ (٢) انظر: الدارس: ١٣٩/٢ - ٢٢٢

(٣) انظر: المصدر نفسه: ١٥١/٢ (٤) انظر: المصدر نفسه: ١٩٣/٢

(٥) انظر: المصدر نفسه: ٢٠٢/٢ (٦) انظر: المصدر نفسه: ٢٢٣/٢

(٧) انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: ٧٤ - ٧٨، وقد ذكرها المقدسي في الأنس الجليل ٣٧/٢ - ٤٩.

(٨) انظر: خطط الشام: ١٢٧/٦ (٩) انظر: خطط الشام: ١٢٧/٦

(١٠) انظر: خطط الشام: ١٢٧//٦ (١١) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى: ٩٢

ويستد الباحث في إثبات رأيه إلى رأي ابن خلدون في ذلك إذ يقول: "ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم، وأكثر ذلك فيها، وحفظه، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا، وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثرُوا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شريكاً لولدهم، ينظر عليها، أو يصيب منها، مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير، والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثر الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طُالب العلم ومعلمه بكثرة جرائتهم منها، وارتحل الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلم، وزخرت بحارها. (٢)

فقول ابن خلدون هذا، لا ينفي عن مقصد الممالك من إنشاء هذه المراكز، وهو رغبتهم في فعل الخير والتماس الأجر من الله سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى ما تقدم، فإذا ما قتل سلطان أو أمير صودرت أمواله، ولا يبقى له إلا تخليد ذكره بهذه المؤسسات الخيرية الخالدة، وغالباً ما يجعلون النظر عليها إلى مواليتهم وعتقائهم تأميناَ لهم من عاديّات الزمن، لأن النظر على هذه المؤسسات يكون مشروطاً بشروط الواقف، ذلك أنه لما أنشأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون المدرسة والقبّة المنصورية، رتب القاضي زين الدين المالكي ناظر الأوقاف السلطانية كتاب وقف، جعل النظر فيه على وقف المدرسة والقبّة لنفسه أيام حياته، فضاق بذلك شهاب الدين أحمد ابن عبادة، وكان ممن يعملون في الديوان الناصري، فأوضح للسلطان أمر الوقف، وبينه له، وقال: "إن قاضي القضاة إنما جعل هذا لنفسه وأولاده وذريته، ولم يجعل للسلطان ولا لعتقائه في ذلك شيئاً، وحسن للسلطان تغيير كتاب الوقف، وأن يجعل النظر فيه لعتيقة الطواش شجاع الدين عنبر اللالا، ومن بعده للأمتل فالأمتل من عتقاء الواقف ثم عتقاء والده... وجعل له أن يتناول من ريع الوقف المذكور في كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة مدة حياته، وجعل لمن يؤول النظر إليه بعده في كل شهر مائتي درهم." (٢)

إذن، هذان سببان لازدهار حركة بناء المدارس ومراكز العلم في العصر المملوكي الأول، وأضيف إلى ذلك أن الممالك يريدون إثبات أنهم ليسوا بأقل من سابقهم في هذا المجال، فهم أيضاً ورثة الإسلام وحماته والداعون إليه، والمدافعون عن حماء ضد الأعداء من الصليبيين والمغول.

(١) مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، (بدون): ٤٣٤/١

(٢) السلوك: ١٠٤١/١ من الملاحق نقلاً عن "نهاية الأرب" للنويري.

هذه المراكز العلمية التي تحدث عنها، إنما تشكل الحلقة الثانية من حلقات طلب العلم في ذلك العصر، أما الحلقة الأولى فتتمثل في الكتاب، حيث يتلقى الصبية حفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه، بالإضافة إلى تعليمهم القراءة والكتابة، وكان الكثير من هذه الكتاتيب ملحقة بالمدارس أو الخوانق. فقد ألحق بمدرسة المنصور قلاوون مكتب سبيل، فيه معلمان يُقرئان الأيتام (١) وإلى جانب المدرسة الحجازية التي أنشأتها الست الجليلة خوند الحجازية، مكتب سبيل، فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم (٢)، وإلى جانب المدرسة القراسنقرية التي أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، مكتب لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز (٣)، وكذلك بجانب المدرسة البوبكرية (٤)، والمدرسة السابقة (٥) والمدرسة المسلمية (٦).

كما ألحق ببعض الخوانق بعض من هذه المكاتب، مثل خانقاه الأمير سيف الدين الجبيغا المظفري (٧)، بالإضافة إلى المكاتب التي ألحقت بالجوامع مما سنتحدث عنه.

أما الحلقة الثالثة في سلسلة حلقات طلب العلم، فتتمثل في المساجد والجوامع، تلك المؤسسات العلمية الكبرى التي لمع ذكرها في حواضر مصر والشام، وأول هذه المعاهد والجامعات، الجامع العتيق بمصر، أو جامع عمرو بن العاص بالقسطاط، فقد كان هذا الجامع بحق جامعة إسلامية كبرى، فقد نقل المقرئزي عن شهاب الدين أحمد بن عبدالله الأوحدي عن المؤرخ ناصر الدين بن الفرات عن شمس الدين محمد بن عبدالرحمن الصانع الحنفي، أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوفاء الكائن في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه (٨) وهذا القول يدل على ازدهار حركة العلم في هذا المسجد، إذ إن ذلك يعني أنه يزخر بطلاب العلم وحلقاته على مدار الساعة، كما يذكر أنه كان في هذا الجامع عدة زوايا يدرس فيها الفقه منها: زاوية الإمام الشافعي التي يتولى التدريس فيها أعيان الفقهاء وجلة العلماء، والزاوية المجدية التي يعد تدريسها من المناصب الجليلة، والزاوية الصاحبية ولها مدرسان أحدهما مالكي والآخر شافعي، والزاوية الكمالية والتاجية والمعينية والعلائية والزينية، والزويتان الأخيرتان كانتا لقراءة ميعاد، (٩) أظنه للقرآن أو الحديث.

(١) خطط المقرئزي: ٤٠٧/٢

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٢/٢

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٨/٢

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٣٩٠/٢ - ٣٩١

(٥) انظر: المصدر نفسه: ٣٩٣/٢ - ٣٩٤

(٦) انظر: المصدر نفسه: ٤٠١/٢

(٧) انظر: المصدر نفسه: ٤٢١/٢

(٨) انظر: المصدر نفسه: ٢٥٦/٢

(٩) انظر: المصدر نفسه: ٢٥٥/٢ - ٢٥٦

وثاني هذه المعاهد الكبرى جامع ابن طولون، فإنه عندما تولى السلطان حسام الدين لاجين، عهد إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري بعمارة الجامع على نفقته الخاصة، وبعد أن تم له ذلك، رتب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة، ودرساً يُلقَى فيه تفسير القرآن الكريم، ودرساً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، ودرساً للطب، كما عمل بجواره مكتباً لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل. (١)

وفي سنة ٧٦٧هـ جدد الأمير يلغا العمري بجامع ابن طولون درساً للحنفية فيه سبعة مدرسين. (٢)

أما الجامع الأزهر، فقد كان معهداً علمياً يزخر بالعلم والعلماء، ويؤمه الطلاب، فقد عمل الأمير بيلبك الخازندار فيه مقصورة كبيرة، رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعي، كما رتب فيها محدثاً يسمع الحديث النبوي، وسبعة لقراءة القرآن الكريم، كما رتب فيه مدرساً، ثم جددت عمارته سنة ٧٦١هـ على يد الأمير سعد الدين بشير الجامدار الناصري، ورتب فيه مصحفاً وجعل له قارئاً، كما أقر فيه درساً للفقهاء من الحنفية، يجلس مدرسه لإلقاء الفقه في المحراب الكبير (٣)، كما أنشأ على باب الجامع القبلي حانوتاً لتسجيل الماء العذب، وعمل فوقه مكتب سبيل لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز. (٤)

ويبين المقرئ ما في هذا الجامع من حركة علمية زاخرة فيقول: "ولم يزل في هذا الجامع منذ بني عدة من الفقهاء يلزمون الإقامة فيه، وبلغت عدتهم في هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً، ما بين عجم وزياغة وأهل ريف مصر ومغاربة، ولكل طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم: الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلس، إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى، وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلوات ولا سيما في المواسم". (٥)

ومن هذه المعاهد العلمية بمصر جامع الحاكم، "قبعد الزلزلة التي أصابت مصر عام ٧٠٢هـ انتدب الأمير بيبرس الجاشنكير لعمارتها، وبعد أن تم له ذلك رتب فيه دروساً أربعة، لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، ودرساً لإقراء الحديث النبوي، وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة، كما كان فيه درس للنحو حيث رتب فيه الشيخ أثير الدين أبا حيان، وهناك درس

(١) انظر: خطط المقرئ: ٢/٢٦٨ (٢) انظر: خطط المقرئ: ٢/٢٦٩

(٣) محيي الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر، الرياض، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م: ٢٧٧، وخطط

المقرئ: ٢/٢٧٥ - ٢٧٦ (٤) خطط المقرئ: ٢/٢٧٦

(٥) خطط المقرئ: ٢/٢٧٦

القراءات السبع للشيخ نور الدين الشطنوفى، وتصدر لإفادة العلوم فيه علاء الدين القونوي، وفي مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب، كما جعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم، وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن، ومعلماً يقرأ أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل. (١)

أما في دمشق، فقد كان الجامع الأموي الجامعة الإسلامية الكبرى التي تضم الكثير من حلقات الفقه والحديث والقراءات، بالإضافة إلى المدارس الملحقة به، ففيه "من الحلق للاستغال بالعلوم الشريفة المصروف عليها من مال الصالح إحدى عشرة حلقة، (٢) وكان فيه من حلق الحديث ثلاثة مواعيد، بالإضافة إلى ثلاث زوايا (٣)، وفي الجامع أيضاً من الحلق المخصصة لقراءة القرآن الكريم مائة وعشرون حلقة، وكل من فيها له راتب على ديوان الجامع (٤)، وأما ما فيه من المدارس الملحقة به، فيذكر ابن شداد أن فيه ست مدارس (٥)، بينما يجعلها النعيمي ثمانين مدارس (٦)، ويرجع الاختلاف إلى المدة الزمنية طبعاً.

ويفصل ابن فضل الله العمري ما في هذا الجامع من دروس، فيصف لنا فيه ثلاثة محارِب للمالكية والحنفية والحنابلة، ولكل من هذه المحارِب إمام ومؤذن، ووقف على كل محراب مدرساً وجماعة من الفقهاء كل طائفة في محرابها (٧)، ثم يذكر أن في كل ركن من أركان المسجد مشهداً أطلق على كل منها اسم من أسماء الصحابة، فيذكر مثلاً مشهد عمر ويقول: به شيخ حديث وجماعة من العلماء يستمعون الحديث. (٨)

أما ابن بطوطة، فيصف وصف مشاهد ما في هذا المسجد من حلقات الدرس فيقول: "ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد، يلقي الصبيان، ويقرنهم، ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره. (٩)

(١) خطط المقرئزي: ٢٧٨/٢

(٢) انظر: ابن شداد، الأعلام الخطيرة "تاريخ مدينة دمشق"، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م: ٨٣ وانظر: الدارس: ٤١٢/٢

(٣) انظر: الأعلام الخطيرة: ٨٥ والدارس: ٤١٢/٢

(٤) انظر: الأعلام الخطيرة: ٨٥

(٥) انظر: الأعلام الخطيرة: ٨٤

(٦) الدارس: ٤١٢/٢

(٧) مسالك الأبصار: ١٩٥/١

(٨) المصدر نفسه: ١٩٦/١

(٩) رحلة ابن بطوطة: ١١٠ / ١

أما المسجد الأقصى، فقد قامت بداخله وحوله حركة فكرية وعلمية نشطة، فقد أنشئت بداخله مدارس في العصر الأيوبي أشهرها: الفارسية والنحوية والناصرية التي جعلها الملك المعظم عيسى زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو^(١)، كما أنشئت حول المسجد الأقصى إحدى وعشرون مدرسة مجاورة لسوره^(٢)، بالإضافة إلى ما كان في القدس من مدارس ومشاهد وزوايا غير ملاصقة للسور، ولكنها بالقرب منه فكانت هذه المراكز ثماني وعشرين مدرسة وزاوية ومشهداً^(٣)، أما ما كان في بيت المقدس من المدارس والزوايا غير قريبة من المسجد، فعددها ست عشرة مدرسة وزاوية^(٤)، فإذا لاحظنا ما بداخل المسجد الأقصى أو حوله من المدارس والزوايا مع المدارس والزوايا البعيدة عنه، نجد أن الحركة الفكرية والعلمية كانت تتركز في المسجد الأقصى وحوله، "فقد كان المسجد الأقصى بما قام فيه وفي ساحاته ومن حوله من مؤسسات علمية: مدارس ومكتبات ودور قرآن ودور حديث وزوايا وخوانق ورباطات كان عبارة عن معاهد علمية أو كليات أو جامعة تعقد فيها الحلقات العلمية، وتدرس العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية والتاريخ وعلم الكلام والمنطق والعلوم الرياضية وغير ذلك من فنون العلم".^(٥)

وتأتي إلى جانب هذه المؤسسات في خدمة الحركة العلمية في مصر والشام: البيمارستانات وأشهرها: البيمارستان المنصوري الذي أنشأه الملك المنصور قلاوون، وقد وقف عليه وعلى المدرسة التي بجواره عدداً من الضياع والأماكن والبساتين، وجعل لها في كل يوم من الرواتب نحو ألف دينار، وكان شرط وقفه "أن لا يمنع من دخوله من كان مريضاً أو رمداً أو مبطوناً أو مجنوناً أو من به عاهة، ويقيم به إلى أن يبرأ أو يموت، وترتب لهم الأطباء والأشربة والمزاوير والسكر حتى الخيار البلدي والتمرحنا والياسمين، كما أشرط على وقفه أن يحضر في كل ليلة أربعة من أرباب الآلات، يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء، وأجرى عليهم الرواتب في كل شهر".^(٦)

فإلى جانب كون هذا البيمارستان مؤسسة صحية واجتماعية تعمل على رعاية المرضى وتأمين العناية الكافية لهم من طعام وشراب وعلاج، فإنها تعمل على ترفيههم أيضاً بإسماعهم الموسيقى، كما كان هذا المستشفى مستشفى تعليمياً حيث تلقى فيه دروس الطب النظرية، فجعل فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس الطب.^(٧)

(١) انظر: الأنس الجليل: ٣٣/٢ - ٣٤، والحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: ٩٢

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٣٣/٢ - ٤١، والحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: ٩٢ - ٩٣

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٤١/٢ - ٤٦

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٤٦/٢ - ٤٨

(٥) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: ٩٢

(٦) بدائع الزهور: ٣٥٣/١

(٧) خطط المقرئ: ٤٠٦/٢

كما كان هناك درس للطب يلقي في جامع ابن طولون. (١)

ويبدو أن مستشفيات الشام أيضاً لم تكن خلواً من هذه الدروس، فقد ذكر السيوطي أن محمد ابن محمد بن عبدالرحمن الجعفري الملقب بابن القوبع قدم دمشق ودرس الطب بالمارستان. (٢)

وأما دور الكتب، فقد كثرت في مصر والشام في هذا العصر، حيث سار المماليك على نهج أسلافهم في ذلك، فقد أكثر الفاطميون والأيوبيون من إنشاء دور الكتب التي تضم الآلاف من الكتب والمؤلفات النادرة مثل خزانة القصر الفاطمي (٣) ودار الحكمة (٤)، ومكتبة جامع دمشق. (٥)

وأما في العصر المملوكي، فقد أكثر سلاطينهم وأمرأؤهم أيضاً من إنشاء المدارس كما رأينا، وألحقوا بها خزائن الكتب، ومن هذه المدارس المدرسة الصاحبية البهائية إذ كان بها خزانة كتب جليلة (٦)، والمدرسة الصاحبية (٧) والمدرسة المنصورية والقبّة الملحقة بها، فقد كان بها خزانة كتب جليلة فيها عدة أعمال من الكتب في أنواع العلوم (٨)، كما ألحق بالمدرسة الناصرية خزانة كتب جليلة (٩)، وكذلك بالمدرسة الحجازية (١٠)، والمدرسة الطبرسية (١١)، والمدرسة المنكوتيرية (١٢)، والمدرسة الملكية (١٣)، والمدرسة السابقة (١٤)، ومدرسة إجماع (١٥)، والمدرسة البشيرية (١٦).

وأما في بيت المقدس فكانت دار كتب المسجد الأقصى التي كانت تضم الكثير من المصاحف والكتب والمخطوطات التي وقفت عليها في العصرين الأيوبي والمملوكي. (١٧)

وأما في دمشق، فقد كان في الجامع الأموي عدة خزائن كتب، إذ كان في كل زاوية من زوايا المسجد مشهد يضم عدة خزائن كتب. (١٨)

(١) انظر: خطط المقرئزي: ٢٨٦/٢	(٢) بغية الوعاة: ٩٧
(٣) انظر: خطط المقرئزي: ٤٠٥/١	(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢١٢/٢
(٥) أبوشامة المقدسي، ذيل الروضتين، دار الجبل، بيروت، ١٩٤٧م: ١٥٩	
(٦) خطط المقرئزي: ٣٧١/٢	(٧) المصدر نفسه: ٣٧١/٢
(٨) المصدر نفسه: ٣٨٠/٢	(٩)، (١٠) المصدر نفسه: ٣٨٢/٢
(١١) المصدر نفسه: ٣٨٣/٢	(١٢) المصدر نفسه: ٣٨٧/٢
(١٣) المصدر نفسه: ٣٩٢/٢	(١٤) المصدر نفسه: ٣٩٤/٢
(١٥)، (١٦) المصدر نفسه: ٣٩٩/٢	
(١٧) انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: ٢٦٧	
(١٨) انظر: مسالك الأبصار: ١٩٦/١، وانظر حول المكتبات في الشام: خطط الشام ١٩٢/٦ -	

وبالإضافة إلى مكتبات المدارس والجوامع، ضمت الخوانق والزوايا والربط شيئاً من هذه المكتبات، إذ كان في رباط الآثار التي أنشأها الصاحب تاج الدين بن حنا خزانة كتب. (١)

وكان للكتب بالقاهرة ودمشق سوق خاصة، "ومما يدل على ضخامة عدد ما بسوق دمشق من الكتب أن حريقاً نشب سنة ٦٨١ هـ فأحرق لشمس الدين إبراهيم الجزري خمسة عشر ألف مجلدة سوى الكراريس (٢)، كما أصيب سوق الكتب في مصر بكارثة أيضاً، فقد شب حريق عظيم سنة ٦٩١ هـ بقلعة الجبل في بعض خزائن الخاص، وأتلف شيئاً عظيماً من الذخائر والنفائس والكتب وغيره. (٣)

وخلاصة القول، كانت حواضر مصر والشام في العصر المملوكي الأول زاخرة بمراكز العلم على اختلاف أنواعها، حيث تشكلت الحياة العلمية لطالب العلم من ثلاث حلقات، يتوجه في أولها إلى الكتاب حيث يحفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه، ويتعلم الخط والكتابة، ويتوجه بعدها إلى الحلقة الثانية التي تتألف من المدارس أولاً، حيث وجد فيها التخصصات المختلفة من علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة وعلوم النحو والطب، ويوازي المدارس في هذه الحلقة الخوانق والزوايا والربط والترب، حيث يتلقى الأيتام والطلبة الفقراء العلم، وقد تبين لنا أن هذه المراكز لم تقتصر وظيفتها على الناحية الدينية، بل كانت مؤسسات علمية تقدم العلم لطلبيه، كما كانت مؤسسات خيرية اجتماعية تعمل على إيواء الفقراء وتقديم لهم كل ما يحتاجونه من طعام وشراب وكساء ودواء.

أما الحلقة الثالثة، فنتمثل في الجوامع، التي تشكل بحق جامعات إسلامية كبرى، تعقد فيها حلقات العلم المتنوعة، ويحاضر فيها كبار العلماء والمشايخ في ذلك العصر، مما يكشف عن حركة علمية نشطة تولى السلاطين والأمراء والعلماء وأهل الخير الإنفاق عليها، ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، فقد كان وجود هذه المؤسسات واستمراريتها مرهوناً باستمرار الوقف، وما يدر به من دخل مهما كانت الدول والحكام.

كما تبين لنا أن هذه الحركة لم تكن مقتصورة على القاهرة ودمشق من حواضر مصر والشام، بل عمت معظم المدن والحواضر المشهورة في كلا القطرين، حيث كانت حلب وحماه وطرابلس والقدس وأسناو قوص وغيرها مراكز علمية مهمة خرجت لنا الكثير من مشايخ العصر وعلمائه في مختلف فنون العلم.

(١) خطط القريري : ٤٢٣/٢

(٢) أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر، القاهرة : ٨٦ نقلا عن نهاية الأرب المخطوط : ٢٩ ص ١٢٨

(٣) النجوم الزاهرة : ٣٣/٨

*** هجرة العلماء إلى مصر والشام ***

ومن العوامل التي ساهمت في دفع عجلة الحركة الفكرية والعلمية في مصر والشام في العصر المملوكي، ما أصاب بغداد من دمار وخراب نتيجة للغزو المغولي، وما كان يحدث في الأندلس من سقوط الممالك الإسلامية فيها الواحدة تلو الأخرى بيد الأسبان، إذ فر كثير من علماء هذين المصرين إلى القاهرة حيث ازدهار الحركة العلمية، وحيث يجدون المكان الملائم للإفادة من علمهم، فنجد الكثير من هؤلاء العلماء الذين رحلوا من بغداد بعد سقوطها، ولجأوا إلى مصر والشام واتخذوها دار إقامة، وتفاعلوا بالحركة العلمية فيها، وساهموا في إثراء المكتبة العربية بما ألفوا من مؤلفات، كما تخرج على أيديهم عدد من مشايخ العلم المشهورين، ففي مجال العلوم الدينية، نجد مساهمات القادمين من العراق في مختلف التخصصات، فقد اشتغلوا بالقراءات وعلومها والتفسير والحديث والفقه، وكانت مشاركاتهم في التأليف والتدريس وإشغال الطلبة في المدارس والجوامع، ففي علوم القراءات نجد "عبدالرحمن بن أحمد بن علي الواسطي الأصل البغدادي تقي الدين، نزيل القاهرة، قد تصدر للإقراء مدة وله "شرح الشاطبية"، (١) كما درس القراءات في جامع ابن طولون (٢)، وفي هذا المجال يصادفنا أيضاً يوسف بن جامع بن أبي البركات أبو إسحق القفصي الضرير مقرئ بغداد، فقد كان عارفاً بالنحو واللغة، بصيراً بعلل القراءات متصدياً لإقرانها، دخل دمشق، وسمع من شيوخها، وله تصانيف في القراءات (٣)، وممن رحل إلى دمشق وأقرأ بها أحمد بن رجب السلامي الذي نشأ ببغداد، وسمع من مشايخها، ثم رحل إلى دمشق، وجلس للإقراء بها، وانتفع به الناس. (٤)

وممن مهر في علوم التفسير بخاصة، مع مشاركات في علوم الفقه وأصوله: علم الدين العراقي، عبدالكريم بن علي الأنصاري. وأصله من وادي آش، رحل جده إلى العراق، ثم قدم مصر فسمي العراقي، وهو من المعدودين في علماء مصر، كانت له مشاركة في الفقه وأصوله والتفسير، أقرأ الناس مدة طويلة، ولي مشيخة التفسير بالمنصورية (٥)، حيث أُملى كتاباً في تفسير القرآن مختصراً، وله اختصاص بتفسير الزمخشري (٦)، وكان علم الدين هذا من العلماء الموسوعيين الذين أظهروا حماساً واضحاً للعلم وشغل الطلبة حتى "إن معظم من بديار مصر قد اشتغل عليه، وكان لا يمل من الإقراء ولا يسأم، وله معرفة بالحساب والكتابة، درس بالشرقية وبالمشهد الفقه. (٧)

(١) بغية الوعاة : ٢٩٦

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الركن ، الهند،

٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م : ٣١٦/١

(٣) بغية الوعاة : ٤٢١ (٤) إنباء الغمر : ٤٢/١

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، مطبعة الموسوعات ، القاهرة، ١٣٢١ هـ : ١٩٧/١

(٦) الصفدي، نكت الهميان : ١٩٥

(٧) المصدر نفسه : ١٩٥

ومن الذين قدموا دمشق، وأفادوا بها في هذا المجال محمد بن الحسن الحسيني الواسطي حيث "اشتغل ببلاده، ثم قدم الشام وتميز وأفاد ودرس، وكان بارعاً في الفقه والأصول، وله تفسير كبير". (١)

كما ساهم القادمون من بغداد في علوم العربية، حيث نجد الإمام فخر الدين أبا طالب أحمد ابن علي الكوفي البغدادي المعروف بابن الفصيح، الذي كان عالماً فاضلاً، تصدر ببغداد لإقراء العربية، ثم قدم دمشق فأعاد ببعض مدارسها، وتصدى لشغل الطلبة والإفادة. وممن أفاد في هذا المجال بمصر، بهاء الدين أبو الرجاء النحوي سلامة بن سليمان الرقي، "وكان من كبار أئمة العربية، أقرأ جماعة بمصر". (٣)

وممن جمع بين علوم الدين والعربية، وكان بحق من أصحاب الثقافة الموسوعية، جمال الدين السرمرقي العقيلي، يوسف بن محمد بن مسعود الحنبلي نزيل دمشق، حيث ولد بسرمن رأى، وانتقل إلى بغداد، وبرع في العربية والفرائض، ويقال إن مصنفاته بلغت مائة، وإنها في نيف وعشرين علماً، (٤) ومؤلفاته تدل على ذلك بحق (٥). وممن كانت له مثل هذه الثقافة الموسوعية، الشيخ عز الدين عبدالعزيز بن أبي القاسم البابصري البغدادي الذي كان يعرف الفقه والنحو وأيام الناس. (٦)

ومن هؤلاء العلماء، من أفاد في مصر والشام معاً، بالإضافة إلى بغداد، ومن هؤلاء شمس الدين أبو المعالي محمد بن أبي بكر الفارسي الذي درس بالنظامية، ثم دخل دمشق فدرس بالغزالية، ثم توجه إلى الديار المصرية وولي بها مشيخة الشيوخ. (٧)

كما ساهم هؤلاء الوافدون في مجال الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هؤلاء الشيخ عفيف الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالمحسن البغدادي الواعظ المعروف بابن الخراط الذي جلس للوعظ بالجامع الأموي. (٨)

كما وفد إلى مصر والشام علماء من بلاد فارس، وكانت لهم مساهمات في إفادة الطلبة والتدريس والتأليف ومناظرة العلماء في مختلف العلوم، ومنهم شمس الدين الأصبهاني محمود بن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد الذي "ولد بأصبهان، وأخذ عن علماء بلاده، ومهر في الفنون، وحج ودخل دمشق، فبهرت فضائله أهلها، وسمع كلامه ابن تيمية، فبالغ في تعظيمه، وقال: ما دخل البلاد مثله، وكان يلزم الجامع الأموي ليلاً ونهاراً، مكباً على التلاوة وتدريس الطلبة، وقد بلغت شهرته إلى حد أن طلب إلى مصر، فدرس بها، وبنى له قوصون الخانقاه المعروفة باسمه، ورتبه شيخاً بها، أما مؤلفاته فمتنوعة، وشاملة لعلوم التفسير والفقه وأصوله والعروض والمنطق والبيديع... (٩)

(١) إنباء الغمر : ١٢٨/١ (٢) ابن حبيب، تذكرة النبيه : ١٨٣/٣

(٣) بغية الوعاة : ٢٥٩ (٤) ، (٥) إنباء الغمر : ١٥٠/١

(٦) تذكرة النبيه : ٢٠٨/١ (٧) المصدر نفسه : ٢٠٩/١

(٨) المصدر نفسه : ٩٠/٢ ، ١٨٥

(٩) المصدر نفسه : ١٥٠/٢ ، وانظر : بغية الوعاة : ٣٨٨ ، والبدر الطالع : ٢٩٨/٢

وممن كانت له مساهمات في علوم مختلفة، منها العلوم النقلية والعقلية من الوافدين من بلاد فارس تاج الدين الأربيلي التبريزي، علي بن عبدالله، "دخل بغداد ومصر، أفتى وناظر، وتصدى لشغل الطلبة في أصناف العلم من: تفسير وفقه وأصول ونحو وبيان ومنطق وجدل وفرائض وحساب وجبر ومقابلة، ومعقول ومنقول، فانتفع الناس به (١)، وله مصنفات في أنواع العلوم السابقة (٢).

هذه صورة سريعة عن مساهمات العلماء الذين وفدوا إلى مصر والشام من العراقيين، وقد رأينا أن مشاركاتهم لم تقتصر على علم من العلوم، بل كانت شاملة لمختلف العلوم الدينية واللغوية والعقلية، وكان بعضهم من أصحاب الثقافة الموسوعية الذين أفادوا في كل هذه العلوم المجتمعة، وتركوا مصنفات فيها، كما بلغت شهرة بعضهم إلى حد أن استدعوا من الشام لتولي التدريس في أماكن خاصة في مصر. وقد تبين لنا حماس هؤلاء العلماء ورغبتهم الجادة في نشر العلم والإفادة، فقد رحل إليهم الطلبة، وتخرج بهم الفضلاء من العلماء، لا يسأمون ولا يملون التدريس والتأليف، وقد بلغت مصنفات بعضهم كما رأينا مائة مصنف، تنوعت في نيف وعشرين علماً، فقد كانت مصر والشام قبلة العلم التي يتجه إليها العلماء، حيث يجدون الحب والتقدير والمناخ الملائم لنشر العلم وإفادته للناس.

وأما الوافدون من الأندلس، فلم يكونوا أقل حظاً من العلم والشهرة من إخوانهم القادمين من العراق، فقد حملوا هم أيضاً أفانين العلم، ليضيئوا بها الطريق لمن شاء من طالبي العلم في مصر والشام، ولنحاول تتبع بعض آثارهم وفضلهم في ميادين العلم المختلفة.

ففي مجال العلوم الدينية، وعلوم العربية يقف علماً شامخاً الشيخ أبو حيان الغرناطي، محمد ابن يوسف أثير الدين، حيث كان له اليد الطولى في التفسير والحديث واللغة والعربية وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم. يقول الصفدي: "لم أر في أشياخي أكثر اشتغالاً منه، لأنني لم أره إلا وهو يسمع أو يشتغل أو يكتب، ولم أره على غير ذلك، وله إقبال على الطلبة الأذكياء، وعنده تعظيم لهم" (٣).

فمما يشير إلى اهتمامه بالعلم والتأليف والإشغال، أنه كان لا يرى إلا وهو يشغل وقته بما يفيد، أو يفيد غيره، وقد تولى تدريس التفسير بالقبلة المنصورية، والإقراء بالجامع الأحمر (٤)، وأما مؤلفاته فكثيرة جداً، تشمل التفسير والقراءات والنحو والتصريف والحديث واللسانيات (٥).

(١) تذكرة النبيه : ٨٩/٣

(٢) بغية الوعاة : ٣٣٩

(٣) الوافي بالوفيات : ٢٦٧/٥

(٤) المصدر نفسه : ٢٦٨/٥

(٥) انظر : الوافي : ٢٨٠-٢٨١

فشيخنا قد حصل علومه في الأندلس والمغرب والحجاز ومصر والعراق والشام، واستقر في القاهرة يصنف ويفيد الطلبة، وقد تخرج به أئمة من مشايخ مصر وعلمائهم.

ومن علماء التفسير الذين وفدوا إلى مصر، القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر، أبو عبدالله الأنصاري، حيث توفي بمنية بني خصيب، وله تفسير في القرآن "سارت به الركبان، وهو تفسير عظيم في بابهِ" (١) ومن الذين أقاموا بدمشق، ركن الدين ابن القوبع الذي ولد بتونس، ثم قدم دمشق، ودرس بالمنكو تمرية والناصرية، ودرس الطب بالمارستان، وصنف تفسير سورة "ق" بمجلد. (٢)

وأما في الحديث، فنجد أبا عبدالله التلمساني العجيسي محمد بن أحمد، الذي سمع الحديث ورحل إلى المشرق، وبلغت شيوخه ألفي شيخ، كان منزله غاصاً بالطلبة، قدم القاهرة فأكرمه الأشرف شعبان، ودرس بالشيخونية والصرغتمشية والنجمية. (٣)

وأما في القراءات، فنجد محمد بن أحمد بن الموفق، أبا القاسم علم الدين الأندلسي اللورقي الذي اشتغل بالقراءات والنحو والعربية وبرع في ذلك، وله مصنفات فيها. (٤) وقد ولي مشيخة الإقراء والنحو بالعادلية، وهو شيخ القراء بالشام (٥).

وأما في النحو وعلوم العربية، فبالإضافة إلى أبي حيان الأنف الذكر، يصادفنا جمال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك نزيل دمشق، حيث تصدر لإقراء العربية، وكان إماماً في القراءات وعلها، وقد أقام في دمشق مدة يصنف ويدرس في الجامع والتربة العادلية، وتخرج به جماعة (٦)، وأما النحو والتصريف، فكان فيهما بحراً لا يجارى، وحبوراً لا يبارى (٧)، وقد صنف مجموعة من المؤلفات في النحو والصرف واللغة والقراءات (٨).

ولولده محمد بن محمد بن عبدالله، بدر الدين بن مالك شهرة واسعة في علوم النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والمنطق والفقه والأصول، تصدى للإشغال والتصنيف، وله مؤلفات في هذه المجالات. (٩)

ومن أئمة النحو في الديار المصرية، جمال الدين الشريشي، محمد بن أحمد بن عبدالله، أبو بكر الوائلي، الذي "ولد بشرش، وتفقّه وبرع في المذهب، وأتقن العربية والأصول والتفسير، ودرس وأفتى وأقرأ الحديث، ودرس بالرباط الناصري، وكان من أوعية العلم، وله مصنفات في هذه المجالات. (١٠)

(١) الوافي : ١٢٢/٢

(٢) بغية الوعاة : ٩٧

(٣) المصدر نفسه : ١٨

(٤) الوافي : ١٠٢/٢

(٥) الذهبي ، العبر في خبر من غير، دار الكتب العلمية، بيروت : ٣٠٣/٣

(٦) الوافي : ٣٥٩/٣

(٧) بغية الوعاة : ٥٣ (٨) انظر مؤلفاته في : فوات الوفيات : ٤٠٧/٣

(٩) انظر : الوافي ٢٠٤/١ (١٠) المصدر نفسه : ١٣١/٢

ومن علماء اللغة الوافدين الذين كان لهم أثر واضح في النهضة العلمية والأدبية في مصر والشام، العلامة ابن منظور محمد بن مكرم صاحب لسان العرب، الذي أسهم إسهاماً واضحاً في النهضة العلمية، حيث اختصر كثيراً من الكتب، وفي ذلك يقول الصفدي: "ما أعرف في كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره، فمما اختصره: كتاب 'الأغاني'، وزهرة الآداب' والحيوان' واليتمية' والذخيرة' ونشوار المحاضرة" (١)، وينقل الصفدي عن ولده قطب الدين بن المكرم أن والده ترك بخطه خمسمائة مجلد (٢)، كما كان ابن منظور أيضاً متقدماً في ديوان الإنشاء بمصر (٣).

وممن أسهم في النهضة الأدبية في مصر والشام، أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني شهاب الدين بن أبي حجلة، "حيث ولد بتلمسان، واشتغل، ثم قدم إلى الحج، ونزل دمشق ثم القاهرة، ومهر في الأدب، ونظم الكثير ونثر، ففاق وعمل المقامات وغيرها، وله مؤلفات أدبية مشهورة. (٤)

وممن كان له إسهام في الحركة الأدبية في المغرب والمشرق ابن سعيد الغرناطي، علي بن موسى الأديب الإخباري الشهير، جال في الديار المصرية والعراقي والشام، وله مصنفات أدبية أشهرها: "المغرب في أخبار المغرب"، و"المشرق في أخبار المشرق" و"ملوك الشعر"، والغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة وغيرها (٥).

مما تقدم، يتبين لنا أن وافدي المغرب والأندلس قد ساهموا مساهمة نشطة في الحركة العلمية والفكرية والأدبية في مصر والشام، فقد اشتغلوا بالعلم والتعليم والتصنيف، وكانوا ممن يرحل إليهم الطلبة، وقد تخرج على أيديهم خيرة من العلماء في هذين القهرين، كما أغنوا المكتبة العربية بمصنفات لا يسد غيرها مكانها، كمؤلفات أبي حيان وابن مالك وابن منظور وقد تمتع هؤلاء العلماء بحب العلم وحب العمل مما جعلهم يصلون الليل بالنهار، كما كان منهم من يتمتع بثقافة موسوعية تجعله يشارك في فنون العلم المختلفة.

ولم تكن مصر والشام مركز جذب للعلماء الوافدين من العراق والأندلس فحسب، بل كانت ملتقى العلماء من مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، فهذا ضياء بن سعد بن محمد القزويني، الشيخ ضياء الدين العفيفي، أحد العلماء الأكابر، حيث تفقه في بلاده، وسمع الحديث، وتقدم في العلم، قدم القاهرة، واستقر في تدريس الشافعية بالشيخونية ومشيخة البيبرسية، وكان ممن يحسن إلى الطلبة بجاهه وماله مع الدين المتين والتواضع الزائد، وكان لا يمل الاشتغال حتى في حال مشيه وركوبه، (٦) "وكان إماماً عالمًا بالتفسير والرواية والمعاني والبيان والفقه والأصولين". (٧)

(١) الوافي : ٥ / ٥٤ (٢) نكت الهميان : ٢٧٦

(٣) المصدر نفسه : ٥ / ٥٤ (٤) إنباء الغمر : ١ / ١٠٨

(٥) ابن شاکر الکتبی ، فوات الوفیات ، دار صادر ، بیروت ، ١٩٧٤م : ٣/ ١٠٣

(٦) إنباء الغمر : ١ / ٢٨٢ (٧) بغية الوعاة : ٢٧٠

فشيخنا هذا كان متفناً في هذه العلوم الدينية واللغوية، حريصاً على الاشتغال والإفادة في كل وقته، يحسن إلى الطلبة ولا يبخل عليهم بعلمه ومكانته وماله.

وممن قدم دمشق من بلاد الروم أيضاً، قاضي القضاة جلال الدين القزويني الذي تلقى العلم والفقه حتى ولي القضاء بناحية الروم، ثم قدم دمشق واشتغل بالفنون، واتقن الأصول والعربية والمعاني والبيان، وولي خطابة الجامع في دمشق، وبلغت سمعته إلى حد أن طلبه الناصر وولاه القضاء بمصر، ثم أعيد قاضياً إلى دمشق، ومصنفاته في المعاني والبيان مشهورة أهمها: "التلخيص" و"إيضاح والتلخيص". (١)

كما قدم إلى مصر والشام بعض من علماء اليمن منهم : تاج الدين اليميني المخزومي عبد الباقي بن عبد المجيد، حيث ورد إلى الشام، وأقام بها متصدراً بالجامع، يقرئ الطلبة العروض والمقامات الحريرية، ورتب له أمير الشام راتباً، ثم عاد إلى اليمن، ومنها إلى مكة ومصر حيث درس بالمشهد النفيسي، ثم استوطن بيت المقدس مدة، وتردد بين حلب ودمشق وطرابلس ومصر، إلى أن توفي، وله مجموعة من المؤلفات. (٢)

وقدم إلى الشام من الهند، الشيخ صفي الدين الهندي، محمد بن عبد الرحمن الأرموي، الذي ولد بالهند، وتفقّه هناك، ثم قدم دمشق، ودرس بالظاهرية والأتابكية، وأقرأ الأصول والمعقول، وله مؤلفات. (٣)

مما سبق، يتبين لنا أن مصر والشام كانتا في العصر المملوكي الأول محط أنظار العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فقد وفد إليها علماء من العراقين والمغرب والأندلس وبلاد الروم والقرم والهند واليمن، وقد لعب هؤلاء العلماء دوراً قوياً في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية، وقد تخرج على أيديهم جلة العلماء، وأغنوا المكتبة العربية بالمؤلفات القيمة في شتى فنون العلم والمعرفة، وما كان التقاء العلماء هذا ليثمر عن شيء لولا الرغبة الأكيدة الصادقة لدى طالب العلم، ولولا البيئة العلمية التي توافرت في مصر والشام في هذه الفترة، فأنى اتجهت تجد دور العلم، وحيثما ذهبت تجد هؤلاء العلماء يلاقون التشجيع والإكرام الذي يدفعهم إلى بذل المزيد من العطاء، فيصلون ليلهم بنهارهم في التصنيف وإفادة الطلبة، وما كانت مصر والشام بطبيعة الحال، في تلك الفترة خلوا من العلماء الأفاضل في مختلف فنون العلم والمعرفة، وقد أسهم هؤلاء الوافدون مع إخوانهم في هذه البلاد في دفع حركة العلم دفعة قوية، ما زلنا نحن في عصرنا الحاضر نجتر ثمارها، فما الذي أثمرت عنه هذه الحركة...؟ هذا ما سنحاول إلقاء الضوء عليه في الصفحات التالية.

(١) بغية الوعاة: ٦٦

(٢) فوات الوفيات: ٢ / ٢٤٦

(٣) الوافي بالوفيات: ٣ / ٢٣٩

مظاهر الحركة الفكرية في مصر والشام في العصر المملوكي الأول .

لقد أثمرت جهود العلماء، نتيجة للعوامل السابقة التي تحدثنا عنها، عن حركة تأليف وتصنيف في فنون العلم المعروفة كافة في ذلك الوقت، وسوف نحاول الكشف عن جهود العلماء واتجاهاتهم في كل مجال من هذه المجالات .

١ - علم القراءات:

اهتم علماء القراءات في العصر المملوكي الأول بمؤلفين كان لهما أثر في توجيه حركة التأليف في هذا العلم:

الأول : كتاب " التيسير " لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ^٢ (٤٤٤هـ) (١).

والثاني: القصيدة المعروفة بالشاطبية، وهي من نظم القاسم بن فيرة بن خلف الرعيني الشاطبي ^٣ (٥٩٠ هـ)، وعنوانها: "حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع للسبع المثاني"، حيث نظم فيها الشاطبي كتاب "التيسير" السابق (٢).

أما كتاب "التيسير" فقد لقي اهتماماً بارزاً لدى علماء هذا العصر، فشرحه عدد من العلماء منهم على سبيل المثال : شمس الدين الحنبلي، محمد بن أحمد (٣)، وأبو حيان الغرناطي (٤)، وبدر الدين حسن بن قاسم المرادي (٥) وشهاب الدين أحمد بن سعد الأندلسي (٦) وشهاب الدين أحمد ابن يوسف المعروف بابن السمين (٧) وجمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام النحوي (٨) وعبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل الحلبي (٩) ومحب الدين محمد بن يوسف الحلبي (١٠).

وأما "الشاطبية"، فقد شرحها كل من : شمس الدين محمد بن أحمد الموصلي (١١)، وسمى شرحه: "كنز المعاني في شرح حرز الأمانى" (١٢) وعلم الدين القاسم بن أحمد اللورقي (١٣) وسمى شرحه: "المفيد في شرح القصيد" (١٤)، كما شرحها أبو شامة المقدسي في مجلدين، وسمى شرحه: "إبراز المعاني من حرز الأمانى" (١٥)، وشرحها عماد الدين علي بن يعقوب الموصلي في أربع مجلدات (١٦)، وأحمد بن محمد بن جبارة شمس الدين المقدسي، وشرحه مطول (١٧)، وكذلك الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (١٨).

(١) غاية النهاية، شمس الدين بن الجزري: مكتبة الخانجي بمصر، ١٣٥١هـ، ١٩٣٢م:

٥٠٣/١، وانظر مقدمة ابن خلدون ٤٣٧

(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون، الفيصلية، مكة المكرمة، ٦٤٦، وانظر مقدمة ابن خلدون ٤٣٨

(٣) الوافي ٢ / ١٦١ (٤) المصدر نفسه : ٥ / ٢٦٧

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢٥٧/١ (٦) تذكرة النبيه : ٣ / ١٣٧

(٧) السلوك : ٢٤/٣ (٨) بغية الوعاة : ٢٩٣

(٩) بغية الوعاة : ٢٨٤ (١٠) إنباء الغمر : ١ / ٢٢٥

(١١) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢هـ، ١٩٥٣م :

٢٥٦ / ٤

(١٢) كشف الظنون : ٦٤٦

(١٣) العيني، عقد الجمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٨هـ -

١٩٨٨م: ٣٦٨/١

(١٤) كشف الظنون : ٦٤٨

(١٥) الوافي : ١١٣/١٨، كشف الظنون : ٦٤٦ (١٦) تذكرة النبيه : ٨٣/١

(١٧) الوافي : ٢٥ / ٨ (١٨) الوافي : ٦ / ٧٣

في شرح مشهور سماه "كنز المعاني" (١)، وشرحها شرف الدين الحموي البارزي (٢)، وشهاب الدين السمين (٣)، وعبدالرحمن بن أحمد الواسطي (٤).

وقد نظم عدد من علماء هذا العصر منظومات على غرار الشاطبية، منها مختصرات لها، ومنها تنمات لها، وأشهر هؤلاء جمال الدين بن مالك الذي صنف في القراءات قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية (٥)، ويعقوب بن بدران المعروف بالجرائدي الذي نظم رموز الشاطبية (٦).

وممن حاول تكملتها، أبو الحسن علي بن إبراهيم الفيحاطي (٧)، وممن حاول اختصارها: أمين الدين عبدالوهاب بن أحمد الدمشقي الحنفي (٨).

كما نظم بعضهم قصائد تشابهها، منهم: فخر الدين بن المنير المالكي الذي نظم أرجوزة في القراءات السبع (٩)، كما نظم أحمد بن علي الهمداني المعروف بابن الفصيح قصيدة أخرى في القراءات (١٠).

وشرحت قصيدة الشاطبي الثانية، وهي الرائية في الرسم القرآني، وقد نظم الشاطبي فيها كتاب "المقنع" لأبي عمرو الداني (١١)، وقد شرحها أحمد بن محمد بن جبارة المقدسي (١٢)، وبرهان الدين الجعبري (١٣).

ولم تقتصر كتب القراءات التي ألّفت في هذا العصر على شروح "التيسير" و "الشاطبية" فحسب، بل ألّفت كتب أخرى في ذلك منها: "مفردات القراء" لأبي شامة المقدسي (١٤)، وألف برهان الدين الجعبري كتابه "السرعة في القراءات السبعة" (١٥)، و "عقود الجمان في تجويد القرآن" و "حدود الإتيان في تجويد القرآن"، وله أيضا منظومة في الرسم سماها "روضة الطرائف" (١٦)، كما ألف في القراءات العشر كتابه "تزهر البررة في القراءات العشرة" (١٧).

وصنف شرف الدين هبة الله البارزي كتابه "السرعة في قراءات السبعة" (١٨)، وللشيخ أنير الدين أبي حيان مؤلف في كل قراءة من القراءات المعروفة مثل "النافع في قراءة نافع" و "الأثير في قراءة ابن كثير"، و "المورد الغمر في قراءة أبي عمرو".

(١) كشف الظنون : ٦٤٦	(٢) نكت الهميان : ٣٠٢
(٣) السلوك : ٢٤/٣	(٤) إنباء الغمر : ٣١٦/١
(٥) الوافي : ٣٥٩/٣	(٦) غاية النهاية : ٣٨٩/٢
(٧) و (٨) كشف الظنون : ٦٤٩	(٩) ملحق تاريخ أبي الفداء، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٠م : ١٢٦/٧
(١٠) بغية الوعاة : ١٤٧	(١١) غاية النهاية : ٢٠/٢
ومقدمة ابن خلدون : ٤٣٨	(١٢) الوافي : ٢٥/٨
(١٣) المصدر نفسه : ٧٣/٦	(١٤) المصدر نفسه : ١١٣/١٨
(١٥) المصدر نفسه : ٧٣/٦	(١٦) فوات الوفيات : ٣٩/١
(١٧) الأنس الجليل : ١٥٣/٢	(١٨) تاريخ ابن الوردي : ٣١٩/٢

وهكذا ... وله "الحلل الحالية في أسانيد القراءة العالية". (١)

وعلى العموم، فقد امتاز قراء هذا العصر بثقافة موسوعة عالية، جمعت علوم هذا العصر، وأخص بالذكر هنا منهم : أبا شامة المقدسي، وأبا حيان الغرناطي، وابن مالك، وبرهان الدين الجعبري، وإن ما أوردته المصادر من مصنفاتهم تشهد لهم بذلك.

٢- علم التفسير :

حظي تفسير القرآن الكريم في العصر المملوكي الأول باهتمام العلماء، فقد خلف لنا علماء هذا العصر ما يزيد على خمسين تفسيراً، وقد اختلفت مناهجهم وطرائقهم في تفسير القرآن الكريم، فمنهم من فسر القرآن الكريم بأكمله، ومن هؤلاء على سبيل المثال: سبط ابن الجوزي (٢)، وعز الدين بن عبد السلام (٣) وعبدالرزاق بن رزق الله الرسعني (٤) والقرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر (٥) وأحمد بن يوسف بن الحسن الكواشي، وله تفسيران (٦) وناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندراني (٧) وبرهان الدين أحمد بن ناصر الحسيني (٨) وزين الدين بن المنجا (٩) وجمال الدين سليمان بن الحسن بن النقيب (١٠) والعلم العراقي عبدالكريم بن علي (١١) والسيد محمد بن إدريس بن الناصر، وله عدة كتب في التفسير (١٢) وبدر الدين بن جماعة الجموي (١٣)، ونجم الدين هبة الله البارزي (١٤) وأبو حيان الغرناطي (١٥) وشمس الدين محمود بن عبدالرحمن الأصبهاني (١٦) وأبو العباس أحمد بن يوسف المعروف بابن السمين (١٧) وتقي الدين السبكي (١٨) ومحمد بن علي الدكالي (١٩) وعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير (٢٠) وشمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن الصانغ (٢١)، وأكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (٢٢) وبرهان الدين إبراهيم بن عبدالرحيم بن جماعة (٢٣).

(١) انظر مؤلفاته في : الوافي : ٢٦٧/٥

(٢) العبر : ٢٧٤/٣ (٣) عقد الجمان : ٣٣٨/١

(٤) ذيل طبقات الحنابلة : ٢٧٤/٤ (٥) الوافي : ١٢٢/٢

(٦) الوافي : ٢٩١/٨ (٧) فوات الوفيات : ١٤٩/١

(٨) الوافي : ٢٠٩/٨ (٩) تذكرة النبيه : ١٩٠/١

(١٠) الوافي : ١٣٦/٣ (١١) نكت الهميان : ١٩٥

(١٢) البدر الطالع : ١٢٦/٢ (١٣) تذكرة النبيه : ٢٣٦/٢

(١٤) تاريخ ابن الوردي : ٣١٩/٢ (١٥) الوافي : ٢٦٧/٥

(١٦) البدر الطالع : ٢٩٨/٢ (١٧) السلوك : ٢٤/٣

(١٨) الوافي : ٢٥٣/٢١ (١٩) بغية الوعاة : ٧٨

(٢٠) إنباء الغمر : ٤٥/١ (٢١) إنباء الغمر : ١٣٧/١

(٢٢) بغية الوعاة : ١٠٣ (٢٣) الأنس الجليل : ١٠٧/٢

واقترع بعض المفسرين على تفسير بعض السور من القرآن الكريم، وكتبوا في ذلك مجلدات، منهم على سبيل المثال : صدر الدين القونوي، وله تفسير سورة "الفاتحة" في مجلد (١)، ومثله إبراهيم بن أحمد الرقي (٢)، ولابن تيمية تفسير سورة "المائدة" في مجلد لطيف، وتفسير سورة "يوسف" في مجلد كبير، وسورة "النور" وسورة "القلم" وسورة "لم يكن"، وسورة "الكافرون" وسورة "تبت" و "المعوذتين" و "الإخلاص"، كل في مجلد (٣)، وإبراهيم بن جماعة تفسير سورة "الفاتحة" أيضا سماه "الفوائد اللانحة من سورة الفاتحة" (٤)، وفسر ابن القويح ركن الدين محمد بن محمد العنبري "سورة ق" في مجلد (٥)، ولعلي بن الحسن المعروف بابن شيخ العونية "تفسير بنج الحمد - وهو خمس سور من القرآن الكريم أول كل سورة الحمد" (٦)، وفسر ابن قيم الجوزية سورة "الفاتحة" في مجلد كبير (٧).

ومنهم من اقتصر على تفسير بعض الآيات من القرآن الكريم، ومن هؤلاء أبو شامة المقدسي، وله تفسير آية الإسراء "وكتاب البسمة" (٨)، ولابن تيمية تفسير الاستعاذة والبسمة و "إياك نعبد وإياك نستعين" وأوائل سورة البقرة وآية الكرسي... وغيرها (٩)، ولخليل بن كيكلي العلاني "تزهة السفرة في تفسير خواتيم سورة البقرة" (١٠) وللحسن بن قاسم المرادي "شرح الاستعاذة والبسمة" (١١)، ولشمس الدين محمد بن محمد الموصلي كتاب "غاية الإحسان في تفسير قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان" (١٢).

ومنهم من اقتصر على تفسير بعض الآيات على طريقة المجالس، بحيث يكون تفسير كل منها في مجلس لا تزيد عليه، ومن هؤلاء عبدالسلام بن أحمد عز الدين الأنصاري، وله تفسير آيات كل آية بمجلس يتنبه عليها ولا يخرج عن حكمها في أول المجلس إلى آخره (١٣)، وشمس الدين محمد بن محمد الموصلي وله : "بهجة المجالس ورونق المجالس" وهو في خمس مجلدات يتضمن الكلام على آيات كريمات (١٤).

ومنهم من اكتفى بتفسير أسماء الله الحسنى، ومنهم القرطبي في كتابه : "الأسنى في أسماء الله الحسنى" (١٥)، ونجم الدين القمولي في "شرح الأسماء الحسنى" (١٦).

ومنهم من اقتصر على تفسير أسماء القرآن، ومن هؤلاء ابن القيم الجوزية (١٧).

ومنهم من لجأ إلى تفسير غريب القرآن ومن هؤلاء : السيد محمد بن إدريس في "الحسام المرهف تفسير غريب المصحف" (١٨) وأبوحيان الغرناطي في "إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب" (١٩). وعلاء الدين بن التركماني في "بهجة الأريب بما في الكتاب

(١) الوافي : ٢٠٠/٢	(٢) المصدر نفسه : ٣١٣/٥
(٣) المصدر نفسه : ٢٣/٧-٢٤	(٤) الأنس الجليل : ١٣٦/٢
(٥) الوافي : ٢٣٨/١	(٦) المصدر نفسه : ٥٢/٢١
(٧) الوافي : ٢٧٠/٢	(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٧٤ هـ، ١٩٥٤ م : ٣٦٧/٢
(٩) الوافي : ٢٣/٧-٢٤	(١٠) الوافي : ٤١٠/١٣
(١٢) الوافي : ٢٦٢/١	(١٣) ذيل مرآة الزمان : ١٣/٤
(١٥) الوافي : ١٢٢/٢	(١٦) حسن المحاضرة : ١٩٨/١
(١٨) البدر الطالع : ١٢٦/٢	(١٩) الوافي : ٢٧٠/٢
(١١) بغية الوعاة : ٢٢٦	(١٤) الوافي : ٢٦٢/١
(١٠) الوافي : ٤١٠/١٣	(١١) بغية الوعاة : ٢٢٦
(١٢) الوافي : ٢٦٢/١	(١٣) ذيل مرآة الزمان : ١٣/٤
(١٥) الوافي : ١٢٢/٢	(١٦) حسن المحاضرة : ١٩٨/١
(١٨) البدر الطالع : ١٢٦/٢	(١٩) الوافي : ٢٧٠/٢
(١٠) الوافي : ٤١٠/١٣	(١١) بغية الوعاة : ٢٢٦
(١٢) الوافي : ٢٦٢/١	(١٣) ذيل مرآة الزمان : ١٣/٤
(١٥) الوافي : ١٢٢/٢	(١٦) حسن المحاضرة : ١٩٨/١
(١٨) البدر الطالع : ١٢٦/٢	(١٩) الوافي : ٢٧٠/٢

العزیز من الغریب" (١).

وفسر بعضهم الآيات الناسخة والمنسوخة في القرآن الكريم، ومنهم محمد بن أحمد المعروف بشعلة (٢).

كما شرح بعضهم آيات الأحكام والفرائض، ومن هؤلاء صلاح الدين خليل بن كيكليدي العلاني في كتابه: "منحة الرانض بعلوم آيات الفرائض" (٣).

ووضع بعضهم كتباً في بيان قواعد التفسير، ومنهم: نجم الدين سليمان بن عبد القويم المصرري في كتابه: "الإكسير في قواعد التفسير" (٤).

كما ألف بعضهم أرجوزة في التفسير، ومن هؤلاء: عز الدين عبدالعزيز بن أحمد الدريني (٥). كما وضع بعضهم حواشي على كتب التفسير السابقة مثل: الحسين بن محمد الطيبي، وله حاشية على الكشف، هي أنفس حواشيه مع بيان ما فيها من الكلام على الأحاديث في بعض الحالات إذا اقتضى الحال، مما يدل على ارتفاع طبقة في علمي المعقول والمنقول (٦)، كما تصدى ابن المنير الاسكندري للرد على صاحب "الكشاف" في كتابه: "الانتصاف من صاحب الكشف" (٧)، وقد انتصف لهما العلم العراقي في كتابه: "الإنصاف بين الزمخشري وابن المنير" (٨).

والنقط بعض العلماء إعراب القرآن الكريم من تفسير أبي حيان المسمى "البحر المحيط"، ومنهم تاج الدين أحمد بن عبد القادر الحنفي في كتابه: "الدر اللقيط من البحر المحيط" (٩).

أما اتجاهات المفسرين في هذا العصر، فنلاحظ أنها تتباين حسب ثقافات المفسرين، فمنهم من لجأ إلى طريقة التفسير بالمأثور كتفسير القرطبي وابن كثير، ومنهم من سيطر عليه الاتجاه اللغوي كتفسير أبي حيان، فلجأ بعضهم إلى استخراج إعراب للقرآن كاملاً من هذا التفسير، ومزج الحسين بن محمد الطيبي في حاشيته على الكشف بين طريقتي المنقول والمعقول، وللشيخ صدر الدين القونوي تفسير لسورة الفاتحة على اصطلاح أهل التصوف سماه: "إعجاز البيان في تفسير أم القرآن" (١٠)، ولعل تفسير أحمد بن يوسف الكواشي ينحو منحى الصوفية في التفسير، إذ كانت ثقافته صوفية وله كشف وكرامات (١١).

(١) الوافي : ٣٠٧/٢١ (٢) ذيل طبقات الحنابلة : ٢٥٦/٤ (٣) الوافي : ٤١٠/١٣

(٤) ذيل طبقات الحنابلة : ٣٦٦/٤ (٥) تذكرة النبيه : ١٣٠/١ (٦) البدر الطالع : ٢٩٩/١

(٧) بغية الوعاة : ١٦٨ (٨) حسن المحاضرة : ١٩٧/١

(٩) الوافي : ٧٤/٧

(١٠) كشف الظنون : ٤٥٥ (١١) نكت الهميان : ١١٦

أما تباين هذه التفسيرات من حيث حجمها، فقد تفاوتت بين التلخيص والتركيز وبين التوسع والتفصيل، فوصل بعضها إلى تسعة وتسعين مجلداً، حيث جمع فيه مصنفه خمسين مصنفاً من التفسير (١)، كما ذكر فيه أسباب النزول والقراءات والإعراب واللغات والحقائق وعلم الباطن (٢)، كما جاء بعضها في تسعة وعشرين مجلداً (٣)، وبعضها في عشرين سفرًا كبيراً (٤)، في حين كان بعضها مختصراً جداً، فقد أملى علم الدين العراقي كتاباً في التفسير مختصراً جداً (٨).

وعلى العموم، فقد كان تفسير القرآن الكريم في هذا العصر - كما رأينا - من العلوم المزدهرة، فلم تكن المؤلفات التي ألقت في هذا العصر عالية على ما ألف في عصور سابقة، بل على العكس من ذلك، رأينا أن بعض علماء التفسير يكتب تفسيراً مطولاً جداً، ويلتزم فيه أن لا ينقل حرفاً عن أحد (٦)، مما يدل على قدرة علماء هذا العصر وامتلاكهم لزمام هذا العلم.

٣- علوم الحديث :

كان حفظ الأحاديث ودراستها وشرحها من العلوم الأساسية التي يتلقاها كل طالب علم، وقد اختلفت طرق رواية الأحاديث وتلقيها من السماع بلفظ الشيخ إلى الإجازة إلى القراءة على الشيخ إلى المكاتبة إلى الوجادة ... وهكذا (٧).

ولست هنا بصدد التفصيل في دراسة هذه المصطلحات أو توضيح مفاهيمها، ولكنني أقول: إن كثيراً من طرق التحمل والتلقي هذه كانت مستخدمة في تلقي الحديث في هذا العصر، وسأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة:

أما السماع من لفظ الشيخ والإجازة فكثير في هذا العصر، ويتمثل ذلك في قول ابن حبيب في خبر ورود المحدث شمس الدين محمد بن جابر الوادي أشي إلى حلب، يقول: "سمعت عليه مع جماعة من الحلبيين من لفظه جميع كتاب "الموطأ" ... وأجاز لنا ما يجوز له روايته بشروطه". (٨)

وأما القراءة على الشيخ فقد وردت في ترجمة زين الدين عمر بن الحسن بن حبيب الدمشقي: "كان حافظاً عارفاً بالحديث، رحل في طلبه، وسار إلى لقاء مشايخه المسنين، وقرأ عليهم، وسمع منهم كثيراً". (٩)

(١) الأنس الجليل : ٢١٧/٢ (٢) فوات الوفيات : ٣٨٢/٣

(٣) العبر : ٢٧٤/٣ (٤) السلوك : ٢٤/٣

(٥) نكت الهميان : ١٩٥ (٦) بغية الوعاة : ٧٨

(٧) انظر : مقدمة ابن الصلاح، المطبعة العلمية، حلب، ١٣٥٠هـ، ١٩٣١م : ١٤٠-١٦٨ ،

والسيوطي، تدريب الراوي، المكتبة العلمية، ١٣٧٩هـ، ١٩٥٩م : ٢٣٩-٢٨٢

(٨) تذكرة النبيه : ٢٥٦/٢ (٩) المصدر نفسه : ١٦٥/٢

وأما المكاتبه، فقد ورد لفظها في ترجمة شرف الدين الدمياطي: "وكتب عن جماعة من رفقائه" (١)....، وقد كان السماع عن الشيخ أكثر هذه الطرق شيوعاً، وأشدها توثيقاً أيضاً، وقد كثر في هذا العصر، فبلغ عدد مشايخ بعض علماء الحديث في هذا العصر أكثر من ألفي شيخ بالسماع، وألف شيخ بالإجازة، ومن هؤلاء علم الدين البرزالي الذي بلغ ثبته (معجم شيوخه) أربعة وعشرين مجلداً، أثبت فيه ما كان معه أيضاً (٢)، ومن هؤلاء محمد بن أحمد العجيسي الذي بلغ عدد شيوخه ألفي شيخ (٣)، وشرف الدين الدمياطي الذي بلغ عدد شيوخه ألفاً وثلاثمائة شيخ (٤)، وصنف بعضهم معجم شيوخه بسبعة مجلدات (٥)، وبعضهم بأربعة مجلدات (٦).

وكانت الرحلة من أجل طلب الحديث سمة بارزة في هذا العصر، فقد سمع جمال الدين المزي مثلاً الحديث في الشام والحرمين ومصر وحلب والاسكندرية (٧).

أما أشهر كتب الحديث التي كثر سماعها وروايتها في هذا العصر، فهي كتب الحديث الستة المشهورة (٨)، وكان حظ الصحيحين من الحفظ والرواية في ذلك العصر وافراً (٩)، كما حفظوا "موطأ مالك" (١٠)، و"السنن الكبير" للبيهقي (١١) و"مسند الطيالسي" و"مسند الحميدي" (١٢)، كما حفظوا كثيراً من الأجزاء مثل "جزء ابن عرفة" (١٣) و"جزء البانياسي" و"الأربعين البلدانية" للسلفي (١٤) و"جزء ابن عيينة"، و"أربعين النقي" (١٥) وغيرها من كتب الحديث وأجزائها.

أما كتب الحديث التي ألفت في هذا العصر فكثيرة، وقد اختلفت مناهج العلماء في تأليفها وذلك حسب الموضوعات التي بحثوا فيها، ويمكن تقسيمها في ثلاثة اتجاهات : الأول منها يتعلق في علم مصطلح الحديث، والثاني يبحث في المتن ، والثالث في السند.

أما ما يتعلق منها في علوم الحديث ومصطلحه فنوعان : الأول منها يتركز حول دراسات قديمة في هذا المجال شرحاً وتنظيماً ونظماً، فأشهر الكتب التي تناولها علماء العصر بالشرح

(١) البدر الطالع : ٤٠٣/١

(٢) تذكرة النبيه : ٣٠١/٢

(٣) بغية الوعاة : ١٨

(٤) السيوطي، طبقات الحفاظ، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م: ٥١٢

(٥) ذيول العبر : ٦٨/٤ (٦) إنباء الغمر : ٥٩/١ (٧) البدر الطالع: ٣٥٣/٢

(٨) الوافي : ٤١٠/١٣

(٩) انظر مثلاً: الوافي: ٣/٣٧٥ ، تذكرة النبيه: ٣/٢٦٣ ، وذيول العبر : ٨٥/٤ ، ١٧٢

(١٠) الوافي : ١/٢٣٢ ، تذكرة النبيه: ٢/٨٢ ، ٢٥٦ ، بغية الوعاة : ٢٠١

(١١) الوافي : ٣/٣٥٤ ، ذيول العبر : ٤/١٧٢ (١٢) ذيول العبر : ٤/١٧٢

(١٣) تذكرة النبيه : ٢/٢٧٥

(١٤) المصدر نفسه : ٢/٥٥ (١٥) نكت الهميان : ٢١٥

والتلخيص هي: "مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث"، فممن اختصرها: محي الدين النووي (١) وعلاء الدين المارديني (٢) وتاج الدين التبريزي (٣)، وممن نظمه: شهاب الدين الخو يي (٤)، وقد شرح هذه الأرجوزة جمال الدين الشريشي (٥).

أما النوع الثاني فهو مؤلفات جديدة في هذا المجال، وأشهرها كتابان لمحي الدين النووي هما "الإرشاد" و "التقريب" وكلاهما في علوم الحديث (٦). ولابن دقيق العيد كتابان أيضا هما: "الاقتراح في مصطلح الحديث" و "أصول الحديث" (٧)، ولبرهان الدين الجعبري كتاب "رسوم التحديث في علم الحديث" (٨)، ولبدر الدين بن جماعة كتاب "المنهل الروي في علوم الحديث النبوي" (٩)، وللشيخ علاء الدين ابن التركماني "المنتخب في علوم الحديث" (١٠).

أما الاتجاه الثاني من اتجاهات الكتب المؤلفة في الحديث في هذا العصر، فيبحث في متن الأحاديث، وفيها أكثر من منحنى:

المنحنى الأول: يتجه إلى شرح كتب الأحاديث السابقة، فقد شرحت كتب الحديث المشهورة، مثل "صحيح مسلم" (١١) و "صحيح البخاري" (١٢) و "سنن أبي داود" (١٣) و "سنن الترمذي" (١٤) و "سنن النسائي" (١٥) و "سنن ابن ماجه" (١٦).

كما شرحت مجموعات أخرى مثل "مختصر ابن الحاجب" (١٧) و "الأربعين النووية" (١٨)، وشرح بعضهم أحاديث في موضوعات محددة مثل: "شرح الحديث المقتفى في مبعث المصطفى" لأبي شامة (١٩)، وشرح بعضهم الآخر أحاديث الأحكام مثل: "قطر الغمام في شرح أحاديث الأحكام" (٢٠)، كما ألف بعضهم شرحا لأحاديث بعينها مثل: "مطرب السمع في حديث أم زرع" (٢١)، و "الفوائد الغزيرة في أحاديث بريرة".

المنحنى الثاني: يتجه إلى اختصار كتب الحديث السابقة، فقد اختصر بعضهم "الصحيحين" (٢٣)، و "سنن أبي داود" (٢٤) و "سنن الترمذي" (٢٥) و "سنن البيهقي" (٢٦).

(١) ذيل مرآة الزمان : ٢٨٣/٣	(٢) حسن المحاضرة : ٢٢١/١
(٣) بغية الوعاة : ٣٣٩	(٤) الوافي : ١٣٧/٢
(٥) تذكرة النبيه : ٣١٩/٣	(٦) طبقات الحفاظ : ٥١٠
(٧) بدائع الزهور : ٤١١/١	(٨) فوات الوفيات : ٣٩/١
(٩) الأنس الجليل : ١٣٦/٢	(١٠) الوافي : ٣٠٧/٢١
(١١) الأنس الجليل : ١٣٧/٢	حسن المحاضرة : ٢١٧/١
(١٢) بغية الوعاة : ١٦١	وحسن المحاضرة : ١٥٠/١
(١٣) ذيل طبقات الحنابلة : ٤٤٧/٤	
(١٤) حسن المحاضرة : ١٦٧/١ واليوسفي، نزهة الناظر، عالم الكتب ، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ٢١٦	
(١٥) البدر الطالع : ٢٠٩/٢	(١٦) المصدر نفسه : ٣١٢/٢
(١٧) فوات الوفيات : ٤٤٢/٣ ، بغية الوعاة : ١٢	(١٨) حسن المحاضرة : ٢١٦/١ ، بغية الوعاة : ٢٦٢
(١٩) فوات الوفيات : ٢٦٩/٢	(٢٠) ذيل طبقات الحنابلة : ٤٥٣/٤
(٢١) البدر الطالع : ٣١٨/١	(٢٢) الأنس الجليل : ١٣٦/٢
(٢٣) الوافي : ٢٦٤/٧	(٢٤) بغية الوعاة : ٢٥ ، وذيل مرآة الزمان : ٢٤٨/١
(٢٥) بغية الوعاة : ٢٦٢	(٢٦) فوات الوفيات : ٣١٥/٣

المنحى الثالث : يذهب إلى تخريج الأحاديث وجمعها، فقد عمل بعضهم على إعادة ترتيب بعض كتب الحديث السابقة مثل : "ترتيب صحيح ابن حبان" (١)، كما جمع البعض الآخر شيئا من كتب الحديث السابقة في كتاب واحد مثل : "الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن"، وقد جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبخاري وأبي يعلى وابن أبي شيبه إلى الكتب الستة (٢)، كما جمع قسم ثالث منهم : أحاديث ترتبط بموضوع معين مثل أحاديث الأحكام مثلا منها : "الإمام في أحاديث الأحكام" (٣)، و"المنتقى من أحاديث الأحكام" (٤)، وجمع قسم رابع بعض الأحاديث في موضوع محدد مثل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم (٥)، وأحاديث هس الذكر (٦)، و"الأربعون الصحيحة فيما دون أجر المنيحة" (٧)، و"الأربعين في أعمال المتقين" (٨) و"الأربعين في الرواية عن رب العالمين" (٩)، كما جمع قسم خامس منهم أحاديث ترتبط بعدد روايتها، فمنهم من جمع ثمانيات (١٠)، ومنهم من جمع تساعيات (١١)، ومنهم من جمع أربعين حديثاً متباينات (١٢)، كما جمع قسم سادس منهم أربعين حديثاً في أربعين بلداً سماها البلدانيات (١٣)، وأخيراً فقد قام بعضهم بتخريج أحاديث استمدها من مؤلفات سابقة مثل تخريج أحاديث "الهداية" وأحاديث "الكشاف" (١٤).

وأما الاتجاه الثالث من اتجاهات كتب الحديث المؤلفة في هذا العصر، فتبحث في سند الأحاديث، وقد تعددت مناهجهم في هذا أيضاً :

فخرج بعضهم معجمات لمشايخه الذين روى عنهم، وقد ذكرت بعضهم في بداية بحث علم الحديث، كما جمع بعضهم الآخر تراجم لمن روى عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل : "الوشى المعلم فيمن روى عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم" (١٥)، وجمع صنف ثالث من العلماء تراجم تختص بكتب معينة من كتب الحديث، فجمعوا تراجم صحيح البخاري وأسماء الصحابة الذين ورد ذكرهم في الصحيحين (١٧)، كما جمع بعضهم الأسانيد الواردة في عشرة كتب من كتب الحديث سماه : "التذكرة في رجال العشرة" (١٨).

(١) حسن المحاضرة : ٢٢١/١	(٢) البدر الطالع : ١٥٣/١
(٣) الوافي : ٢٢٩/٢	(٤) ابن العماد، شذرات الذهب، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ٢٥٧/٥
(٥) الأنس الجليل : ١٠٦-١٠٧/٢	(٦) ذيل طبقات الحنابلة : ٤٣٦/٤
(٧) إنباء الغمر : ١٥٠/١	(٨) البدر الطالع : ٢٤٥/١
(٩) فوات الوفيات : ٤٤٢/٣	(١٠) إنباء الغمر : ١٥/١
(١١) ذبول العبر : ١٠١/٤ وطبقات الحفاظ : ٥١٣	(١٢) ذبول العبر : ١٠١/٤ ، وفوات الوفيات : ٤٠٩/٢
(١٣) ذبول العبر : ١٠١/٤	(١٤) طبقات الحفاظ : ٥٣١
(١٥) البدر الطالع : ٢٤٥/١	(١٦) فوات الوفيات : ١٤٩/١ ، البدر الطالع : ٢٣٤/٢
(١٧) عقد الجمان : ٣٢٨/٤	(١٨) البدر الطالع : ٢٠٩/٢

وألف صنف رابع منهم في سيرة الرجال حسب تعديلهم أو تجريحهم مثل : صلاح الدين العلاني في كتابه : "المدلسين" (١)، والذهبي في "المغني في الضعفاء" و "ميزان الاعتدال" (٢)، وعلاء الدين بن التركماني في كتاب "الضعفاء والمتروكون" (٣)، كما شرع محمد بن علي السروجي في جمع كتاب "التقات" فكتب بعضه، ولو كمل لكان في أكثر من عشرين مجلداً (٤)، وكتب عماد الدين بن كثير كتابه "التكميل في معرفة المضعفين والمجاهيل" في خمسة مجلدات (٥).

وكتب صنف خامس منهم في سيرة الحفاظ الذين حفظوا الأحاديث ورووها ومن هؤلاء : شمس الدين الحنبلي في كتابه "العمدة في الحفاظ" (٦) والذهبي في "طبقات الحفاظ" (٧). كما صنف قسم آخر منهم في من يشتبه باسمه مثل الذهبي في "المشتبه في الأسماء والأنساب" (٨).

هذه نبذة موجزة عن علم الحديث في العصر المملوكي الأول، تبيننا من خلالها أن هذا العلم كان من العلوم المزدهرة، فقد كثر المشتغلون فيه حفظة ورواة ومؤلفين، كما كثرت الكتب المؤلفة في هذا العلم، وتعددت اتجاهاتها.

٤ - علم الفقه وأصوله :

كان علم الفقه من العلوم التي تدرس في كل مركز من مراكز العلم في هذا العصر، وكان كثير من هذه المراكز يدرس الفقه على المذاهب الأربعة، وكان بعضها متخصصاً بمذهب واحد من هذه المذاهب، وقد نتج عن ذلك أن كثر المشتغلون في هذا العلم، وكثرت الكتب المؤلفة في هذا المجال، وكانت هذه الكتب على نوعين : الأول منها كان مركزاً على الدراسات السابقة، والثاني مؤلفات جديدة في هذا المجال، وسوف أحاول استعراض حركة التأليف العلمي لكل مذهب من المذاهب الأربعة على حدة :

أما الفقه الشافعي ، فقد تركز جزء من جهد العلماء في هذا العصر على مجموعة من كتب الفقه الشافعي التي ألقت قبل هذا العصر وأشهرها: كتاب "التبتيه" لمؤلفه: إبراهيم بن علي اللشيرازي سنة ٤٧٦هـ، وقد حظي هذا الكتاب بالشرح والاختصار والنظم من فقهاء العصر، فمن شرحه مثلاً: زكي الدين المنذري حيث شرحه بكتاب نفيس في أحد عشر مجلداً (٩)، وشرحه أيضاً: جلال الدين الدشناوي (١٠)، وأبو محمد الفزاري المعروف بالفركاح (١١) والعلم العراقي (١٢) وشرحه ابن الرفعة في عشرين مجلداً سماه : "كفاية التبتيه في

(١) الأنس الجليل : ١٠٧/٢

(٢) فوات الوفيات : ٣١٥/٣

(٤) البدر الطالع : ٢٠٨/٢

(٦) ذيل طبقات الحنابلة : ٤٣٦/٤

(٨) فوات الوفيات : ٣١٥/٣

(١٠) حسن المحاضرة : ١٩٥/١

(١٢) حسن المحاضرة : ١٩٧/١

(٣) الوافي : ٣٠٧/٢١

(٥) المصدر نفسه : ١٥٣/١

(٧) فوات الوفيات : ٣١٥/٣

(٩) ذيل مرآة الزمان : ٢٤٨/١

(١١) الوافي : ٩٦/١٨

شرح التنبيه" (١)، وشرحه أيضاً برهان الدين الفزاري شرحاً حافلاً في عشرين مجلداً (٢)، وشرحه نجم الدين البالسي (٣) ومجد الدين الزنكلوني (٤).
كما جمع مجي الدين النووي مسائل الخلاف التي في "التنبيه" وحررها (٥). وممن اختصره نجم الدين البارزي (٦)، وشمس الدين الجهني (٧).
وكتب بعضهم استدراكات عليه مثل: قطب الدين السنباطي (٨) وكمال الدين النشائي (٩).
ونظمه شعراً كل من عز الدين الدريني (١٠) وضياء الدين الأذرعي الذي نظمه في ستة عشر ألف بيت (١١).

كما حظيت مؤلفات الغزالي : "البسيط" و "الوسيط" و "الوجيز" باهتمام علماء العصر، حيث شرحت ونظمت واختصرت، وكتب عليها استدراكات، فقد شرح الوسيط "مثلاً" كل من: ابن الرفعة في كتاب "المطلب" وهو في ستين مجلداً (١٢)، ونجم الدين القمولي في كتابه "البحر المحيط" وهو في مجلدات كثيرة (١٣)، وشرحه ابن الفركاح في عشرة أسفار (١٤)، وأبو الفضل الخلاطي شرحه في عدة مجلدات، وسراج الدين الأرموي في ثماني مجلدات (١٦).
واختصر نور الدين الأسناني كلاً من "الوسيط" و "الوجيز" (١٧)، واختصر "الوجيز" تاج الدين الموصلي في كتابه "التعجيز" (١٨).

كما حظيت كتب أخرى في الفقه الشافعي برعاية العلماء واهتمامهم في هذا العصر، فقد اختصر عز الدين بن عبد السلام كتاب "تهاية المطلب" للجويني سنة ٤٧٨ هـ (١٩)، واختصر ابن المنير الإسكندري "تهذيب النحوي" (٢٠) كما شرح بهاء الدين القفطي كتاب "الهادي في الفقه" لقطب الدين النيسابوري (٢١)، وشرح ابن دقيق العيد كتاب "العمدة" (٢٢)، وشرح برهان الدين الجعبري "التعجيز" (٢٣)، وشرحه أيضاً فخر الدين الطائي الحلبي (٢٤)، كما شرح كتاب "الحاوي"

(١) تذكرة النبيه : ٣٣/٢	(٢) تاريخ ابن الوردي : ٢٩٠ / ٢
(٣) تذكرة النبيه : ١٩٥/٢	(٤) الوافي : ٢٢٦/١٠
(٥) ذيل مرآة الزمان : ٢٨٣/٣	(٦) تاريخ أبي الفداء : ١٤٤/٧
(٧) نكت الهميان : ٣٠٢	(٨) حسن المحاضرة : ١٩٨/١
(٩) السلوك : ٣١/٣	(١٠) تذكرة النبيه : ١٣٠/١
(١١) تذكرة النبيه : ٢١٢/٢	(١٢) حسن المحاضرة : ١٤٥/١
(١٣) الوافي : ٩٢/٨	(١٤) المصدر نفسه : ٩٦/١٨
(١٥) تاريخ ابن الفرات، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٢م : ٧٩/٧ (١٦) تذكرة النبيه : ٨٧/١	
(١٧) الوافي : ١٥٧/٦	(١٨) ذيل مرآة الزمان : ١٤/٣
(١٩) فوات الوفيات : ٣٥٠/٢	(٢٠) حسن المحاضرة : ١٤٢/١
(٢١) بغية الوعاة : ٤٠٨	(٢٢) حسن المحاضرة : ١٤٢/١
(٢٣) الأنس الجليل : ١٥٣/٢	(٢٤) البدر الطالع : ٤١٢/١

في الفقه الشافعي غير واحد من علماء العصر منهم على سبيل المثال : ضياء الدين الطوسي (١) وركن الدين الإسترأبادي (٢) وشرف الدين البارزي (٣) وشهاب الدين بن شحنة (٤) وبهاء الدين السبكي (٥) وقطب الدين التحتاني (٦) وتقي الدين السبكي (٧).

وقد نظمته شرف الدين الحموي (٨) والملك المؤيد أبو الفداء (٩)، كما أعاد ابن اللبان الدمشقي ترتيب كتاب "الأم" للشافعي (١٠).

هذه أشهر كتب الفقه الشافعي التي لقيت اهتمام فقهاء مصر والشام في العصر المملوكي الأول. أما كتب الفقه التي ألقت في هذا العصر فكثيرة وأشهرها: "القواعد الكبرى" و "القواعد الصغرى" لعز الدين بن عبد السلام (١١) و "المنهاج" لمحيي الدين النووي (١٢) و "المغني" لسراج الدين بن دقيق العيد (١٣)، وشرع بهاء الدين بن عقيل في تأليف كتاب في الفقه سماه : "الجامع النفيس في مذهب محمد بن إدريس" (١٤)، كما ألف صلاح الدين العلاني كتاب "القواعد في الفقه" (١٥).

وقد حظي كتاب النووي "المنهاج" باهتمام العلماء في هذا العصر شرحاً واختصاراً ونظماً، فقد شرحه كل من : مجد الدين الزنكلوني (١٦) وتقي الدين السبكي (١٧) وجمال الدين الشريشي (١٨) وجمال الدين الأسنوي (١٩) وإسماعيل بن خليفة الحسيني الذي شرحه في عشرين مجلداً (٢٠)، وشهاب الدين الأزرعي، وله عليه شرحان (٢١). وقد نظمته كل من : محيي الدين الزرعي (٢٢)، وشمس الدين الموصلي (٢٣).

وأما في الفقه الحنفي، فقد لقيت كتب "الجامع الكبير" و "الجامع الصغير" لمحمد بن الحسن الشيباني و "الهداية" لبرهان الدين المرغنياني، و "مختصر القدوري"، لقيت هذه المؤلفات اهتماماً وافراً من علماء العصر، فقد توفروا عليها يشرحونها أو يختصرونها أو ينظمونها، فقد شرح

(١) تذكرة النبيه : ٢٧٧/١	(٢) الوافي : ٥٤/١٢
(٣) تاريخ ابن الوردي : ٣١٩/٢	(٤) المصدر نفسه : ٢٩٣/٢
(٥) البدر الطالع : ٨١/١	(٦) بغية الوعاة : ٣٨٩
(٧) حسن المحاضرة : ٢٠٤/١	(٨) بغية الوعاة : ٤١٩
(٩) فوات الوفيات : ١٨٣/١	(١٠) حسن المحاضرة : ٢٠٠/١
(١١) الوافي : ٥٢٠/١٨	(١٢) عقد الجمان : ١٩٤/٢
(١٣) حسن المحاضرة : ١٩٥/١	(١٤) الوافي : ٢٥٢/١٧
(١٥) الأنس الجليل : ١٠٦/٢	(١٦) تذكرة النبيه : ٣١٨/٢
(١٧) الوافي : ٢٥٣/٢١	(١٨) تذكرة النبيه : ٣١٩/٣
(١٩) البدر الطالع : ٣٥٢/١	(٢٠) إنباء الغمر : ٢٠٣/١
(٢١) البدر الطالع : ٣٥/١	(٢٢) تذكرة النبيه : ٣١٣/٣
(٢٣) إنباء الغمر : ٦٨/١	

"الجامع الكبير" مثلاً كل من : ابن الجوزي (١) وعلاء الدين الفارسي (٢) وفخر الدين المارديني (٣) وابنه تاج الدين (٤).

كما شرح "الهداية" كل من : جلال الدين الخبازي (٥) وتاج الدين المارديني (٦) وقوام الدين الأتقاني (٧) وسراج الدين الهندي (٨) ومحيي الدين القرشي (٩) وأكمل الدين البابرّي (١٠)، واختصرها علاء الدين بن التركماني (١١)، ونظم فخر الدين التركي الدوركي "مختصر القدوري" في الفقه (١٢).

أما ما ألف في فقه الحنفية في هذا العصر فأشهرها كتاب : "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع"، وهو في عشر مجلدات لأثير الدين الكاساني (١٣)، كما نظم عبد الوهاب بن أحمد الدمشقي منظومة رائية في الفقه الحنفي من ألف بيت، وشرحها أيضاً (١٤).

وفي الفقه المالكي : حظي كتاب "المدونة" لعبد الرحمن بن القاسم المالكي بشرح علماء هذا العصر، فقد شرحه مثلاً عيسى بن مسعود الزواوي (١٥)، كما حظي كتاب "التلخين" في الفقه أيضاً للقاضي عبد الوهاب باهتمام العلماء، فاختصره داود بن عمر الإسكندري (١٦).

كما ألقت كتب في الفقه المالكي، أشهرها كتاب لخليل الدين بن إسحق المالكي ألفه على طريقة "الحاوي" في الفقه الشافعي (١٧).

وفي الفقه الحنبلي، حظي كتاب "المقنع" في الفقه، لموفق الدين بن قدامة المقدسي باهتمام العلماء في هذا العصر، فقد شرحه كل من شمس الدين بن قدامة المقدسي في عشرة مجلدات (١٨) وزين الدين المنجا في أربعة مجلدات (١٩)، كما شرح غريب ألفاظه وفرداته شمس الدين البعلبي (٢٠).

واختصر سيف الدين الحوراني كتاب "المغني" للمقدسي أيضاً في مجلدين، كما اختصر كتاب "الهداية" أيضاً لمحمود بن أحمد الكلواذاني (٢١).

ولقي كتاب "العمدة" للمقدسي أيضاً اهتمام علماء العصر، فشرحه تقي الدين بن تيمية في أربعة مجلدات (٢٢)، كما نظم جمال الدين يحيى بن يوسف الصرصري "مختصر الخرقى"، كما نظم "روائد الكافي على الخرقى أيضاً" (٢٣).

(١) العبر : ٢٧٤/٣	(٢) حسن المحاضرة : ٢٢١/١
(٣) تذكرة النبيه : ٢١٣/٢	(٤) الوافي : ١٨٢/٧ (٥) عقد الجمان : ١٣٦/٣
(٦) بغية الوعاة : ١٤٥	(٧) البدر الطالع : ١٥٨/١ (٨) البدر الطالع : ٥٠٥/١
(٩) إنباء الغمر : ٨٦/١	(١٠) حسن المحاضرة : ٢٢١/١ (١١) الوافي :
٣٠٧/٢١	
(١٢) الوافي : ٣١/٥	(١٣) عقد الجمان : ٣٢٥/١
(١٤) بغية الوعاة : ٣١٨	(١٥) حسن المحاضرة : ٢١٧/١
(١٦) بغية الوعاة : ٢٤٦	(١٧) السلوك : ١٢٤/٣
(١٨) ذيل طبقات الحنابلة : ٣٠٤/٤	(١٩) شذرات الذهب : ٧٥٦/٧
(٢٠) ذيل طبقات الحنابلة : ٣٥٦/٤	(٢١) ذيل طبقات الحنابلة : ٢٦٤/٤
(٢٢) الوافي : ٢٧/٧	(٢٣) ذيل طبقات الحنابلة : ٢٦٢/٤

وقد ألقت مجموعة من الكتب في الفقه الحنبلي في هذا العصر، أشهرها : "المحرر في الفقه" و " الأحكام الكبرى" لمجد الدين بن تيمية (١)، و"الفائق في الفقه" لأحمد بن الحسن بن عبدالله (٢)، وكتابا "الرعاية الكبرى" و "الرعاية الصغرى" في الفقه لنجم الدين بن شبيب الحراني (٣)، و "القواعد الكبرى" و "القواعد الصغرى" لنجم الدين الصرصري (٤)، كما صنف زين الدين البعلبي كتابا في الأحكام على أبواب "المقنع" سماه : "المطلع" (٥)، وكتب شمس الدين المقدسي كتاب "الأحكام الكبرى" في سبعة مجلدات (٦)، كما نظم شمس الدين المرداوي المقدسي قصيدة دالية طويلة في الفقه (٧).

وقد ألقت كتب في شرح هذه المصنفات السابقة منها : "شرح الرعاية في الفقه" لنجم الدين الحراني (٨)، و"شرح أحكام مجد الدين بن تيمية" (٩)، و"شرح المحرر" له أيضا (١٠).

هذه صورة موجزة للمؤلفات التي ألقت في الفقه على المذاهب الأربعة، ولم يقتصر الأمر، في الحقيقة، على تأليف الكتب الجامعة لقضايا الفقه في المذهب، بل وضعت كتب ورسائل كثيرة في قضايا ومسائل فقهية فرعية، منها على سبيل المثال : "فضل صلاة الجماعة" (١١)، و "الفرق بين النبي والشهيد والولي والعالم والملك" (١٢) و "كتاب الصلاة الوسطى" (١٣) و "كتاب المطلب الأسني في إمامة الأعمى" (١٤) و "مناسك الحج" (١٥)، و "الرسالة المنقذة من الجمر في إلحاق الأنبياء بالخمر" (١٦) و "كشف القناع في حل السماع" (١٧) و "رفع الشقاق في مسألة الطلاق" (١٨) و "توافق الضوء"، و "التسمية على الضوء" و "جواز المسح على الخفين المنخرقين والجوربين" (١٩) و "الصلاة بعد أذان الجمعة"، و "القنوت في الصبح والوتر" و "تحريم اللعب بالشطرنج" و "انتهاز الفرص فيمن أفتى بالرخص" (٢٠) والتحبير بما يحل ويحرم لبسه من الحرير (٢١) وغيرها الكثير من المسائل الفقهية الفرعية التي لا سبيل إلى حصرها.

(١) شذرات الذهب : ٢٥٧/٥	(٣) تذكرة النبيه : ١٨٦/١
(٢) ذيل طبقات الحنابلة : ٤٥٣/٤	(٥) ذيل طبقات الحنابلة : ٤٢٣/٤
(٤) الأنس الجليل : ٢٥٦/٢	(٧) ذيل طبقات الحنابلة : ٣٤٢/٤
(٦) المصدر نفسه : ٤٣٦/٤	(٩) الوافي : ١٨٢/١٣
(٨) المصدر نفسه : ٣٥٦/٤	(١١) الأنس الجليل : ١٣٦/٢
(١٠) المصدر نفسه : ٢٧/٧	(١٣) فوات الوفيات : ٤١٩/٢
(١٢) فوات الوفيات : ١٣/٤	(١٥) الوافي : ٥٥/٧
(١٤) بغية الوعاة : ١٠	(١٧) الوافي : ٩٦/١٨
(١٦) تاريخ ابن الفرات : ٦٣/٧	(١٩) الوافي : ٢٩-٢٨/٧
(١٨) حسن المحاضرة : ١٤٥/١	(٢١) الوافي : ٢٧٠/٢
(٢٠) ذيل طبقات الحنابلة : ٢٩٥/٤	

أما في علم أصول الفقه، فقد حظيت الكتب السابقة في هذا المجال باهتمام العلماء منها على سبيل المثال : كتاب "المحصل" لفخر الدين الرازي (١)، و "مختصر ابن الحاجب" (٢) الذي اختصر فيه "الأحكام" للأموي، و "البدیع في الأصول" لابن الساعاتي (٣)، كما شرحت كتب أخرى مثل "الأصول" لفخر الدين الرازي (٤)، و "المنتخب" (٥) و "مقدمة المطرزي" في أصول الفقه (٦) و "الحاصل" (٧) وغيرها.

ولم تقتصر جهود العلماء على شرح مؤلفات السابقين، بل ألقت كتب أخرى في هذا المجال اتخذت أساساً في هذا العلم فيما بعد مثل كتاب "القواعد" لشمس الدين الأصبهاني، وهو في أربعة فنون: أصول الفقه والدين والمنطق والخلاف (٨)، كما ألف في هذا الفن كل من : أبو شامة المقدسي (٩) وشرف الدين النابلسي الذي جمع بين طريقتي الرازي والأموي في الأصول (١٠) و جلال الدين الدشنائي (١١) وناصر الدين الشيرازي البيضاوي (١٢) الذي ألف "المنهاج في أصول الفقه" (١٢)، وقد حظي هذا الكتاب باهتمام العلماء من بعده شرحاً واختصاراً (١٣)، كما حظي كتاب "الروضة" لمحيي الدين النووي أيضاً باهتمام علماء هذا العصر (١٤).

ومما ألف في هذا العصر من الكتب أيضاً : "المغني في أصول الفقه" لجلال الدين الخبازي (١٥)، و "الوافي في أصول الفقه" لنجم الدين الحراني (١٦)، و "النهاية في أصول الفقه" لصفي الدين الهندي (١٧) و "التمهيد في تنزيل الفروع على الأصول" لجمال الدين الأسنوي (١٨) و "معراج الأصول إلى علم الأصول" لنجم الدين الصرصري (١٩).

-
- (١) انظر شروح هذا الكتاب في : حسن المحاضرة : ١٤٢/١ ، ذيل طبقات الحنابلة : ٣٣٢/٤ الوافي : ٢٩٨/٢٢ ، عقد الجمان : ١٠٨/٢ ، فوات الوفيات : ٣٨/٤
 (٢) انظر شروحه في : فوات الوفيات : ٤٤٢/٣ ، ٣٩/١ ، الوافي : ٣٧٩/١٧ ، ٥٢/٢١ ، ٢٥٧ ، تذكرة النبيه : ٣٠٣/٢ ، ١٥٠ ، ٢٧٧/١
 الأنس الجليل : ١٥٣/٢ ، البدر الطالع : ٤١٢/١ ، ٤١٠ ، ٨١
 السلوك : ١٦/٣ ، ٣٧ ، حسن المحاضرة : ١٥٠/١ ، بغية الوعاة : ٦٣ ، ١٤٨
 إنباء الغمر : ١٢٨/١
 (٣) انظر شروحه في : الوافي : ٥٢/٢١ ، تاريخ ابن الوردي : ٣٢٣/٢ ، البدر الطالع : ٥٠٥/١
 (٤) انظر : الوافي : ٣٧٩/١٧ (٥) انظر : المصدر نفسه : ٣٧٩/١٧ وحسن المحاضرة : ١٩٨/١
 (٦) انظر : فوات الوفيات : ٤٤٢/٣ (٧) انظر : الأنس الجليل : ٢٥٦/٢
 (٨) انظر : فوات الوفيات : ٣٨/٤ (٩) المصدر نفسه : ٢١٩/٢
 (١٠) بغية الوعاة : ١٢٧ (١١) الوافي : ٥٥/٧
 (١٢) الوافي : ٣٧٩/١٧
 (١٣) انظر شروحه في : بغية الوعاة : ٣٠٤ ، حسن المحاضرة : ٢٠١/١ ، تذكرة النبيه : ٣١٩/٣ ، ١٢٤/٣
 (١٤) انظر شروحه في : عقد الجمان : ١٩٤/٢ ، وبغية الوعاة : ٢٦٢
 (١٥) عقد الجمان : ١٣٦/٣ (١٦) ذيل طبقات الحنابلة : ٣٣١/٤
 (١٧) تذكرة النبيه : ٧٢/٢ (١٨) بغية الوعاة : ٣٠٤ (١٩) الأنس الجليل : ٢٥٦/٢

هذا وقد ألفت مؤلفات في أصول الدين، لعل أشهرها : "الإيضاح في أصول الدين" لناصر الدين البيضاوي (١)، كما وضع نجم الدين الحرائي مقدمة في أصول الدين (٢)، وألف ابن دقيق العيد كتاباً في أصول الدين (٣)، وصنف صفي الدين الهندي "الفائق في أصول الدين" (٤)، ولعفيف الدين اليافعي اليماني "مرهم العلل في أصول الدين" (٥)، ولبرهان الدين الحسيني كتاب في أصول الدين فيه سبعون مسألة (٦).

مما سبق، نتبين أن علم الفقه وأصوله، وأصول الدين كانت من العلوم المتقدمة في العصر المملوكي الأول، فقد شهدت حركة تأليف وإبداع واسعة المجال، إذ لم تقتصر جهود العلماء في هذا العصر على التوفر على نتائج العلماء في العصور السابقة، بل ألفت الكتب في هذه العلوم، تلك المؤلفات التي تعد أمهات ومصادر رئيسة في هذا المجال.

٥- علوم اللغة العربية واللسانيات :

حظيت مؤلفات النحويين السابقة باهتمام العلماء في هذا العصر، فقد كان النحو من علوم الثقافة العامة التي يحتاجها العلماء في كل التخصصات، بالإضافة إلى أنه ضروري لدرس القرآن الكريم وفهمه، ومن أشهر الكتب التي اهتم بها علماء العصر شرحاً واختصاراً: "الكتاب" لسيبويه، فقد شرحه مثلاً: أبو بكر الجذامي المالقي (٧) وشهاب الدين الأصبحي (٨)، كما شرح كتاب "الإيضاح" للفارسي و "كتاب اللمع" لابن جني (٩)، وكتاب "التلقين" لأبي البقاء العكبري (١٠)، واهتم علماء العصر كذلك بكتاب "المقرب" لابن عصفور (١١) وكتاب "الجمال" للزجاجي (١٢) والجرجاني (١٣)، وشرح العلماء كذلك بعض المقدمات في النحو مثل : مقدمة الجزولي (١٤) ومقدمة المطرزي (١٥).

(١) الوافي : ٣٧٩/١٧	(٢) ذيل طبقات الحنابلة : ٣٣٩/٤
(٣) حسن المحاضرة : ١٤٢/١	(٤) الوافي : ٢٣٩/٣
(٥) تذكرة النبيه : ٣٠٣/٣	(٦) الوافي : ٢٠٩/٨
(٧) بغية الوعاة : ٢٠٧	
(٨) المصدر نفسه : ١٦٧	
(٩) المصدر نفسه : ٢٠٧	
(١٠) السلوك : ١٨٦/٣	
(١١) انظر : الوافي : ١٠/٢ ، بغية الوعاة : ١٤٥	
(١٢) انظر : بغية الوعاة : ٨٢ ، ٢٤٦ (١٣) انظر : تذكرة النبيه : ٣٠٣/٢ ، الوافي : ٣١٦/٤	
(١٤) انظر : الوافي : ١٠٢/٢	(١٥) انظر : بغية الوعاة : ٤٠٨

أما كتاب "المفصل" للزمخشري فقد لقي عناية فائقة في هذا العصر، فشرح ونظم واختصر (١)، كما اهتم العلماء أيضاً "بملحة الإعراب" للحريري (٢). واهتم العلماء في هذا العصر كذلك "بألفية ابن معطي"، فشرحت شروحات كثيرة، وشرحت كذلك "كافية ابن الحاجب"، و"مقدمته في النحو" أيضاً (٤).

أما جهود علماء هذا العصر، فقد تنوعت بين تأليف كتب نحوية، إلى نظم قصائد في النحو وشرحها، إلى تأليف مقدمات مختصرة في النحو والصرف. فمثال المؤلفات النحوية : مؤلفات ابن مالك : "تسهيل الفوائد" و "الخلاصة" و "الكافية الشافية" وشرحها، و"عدة اللافت وعمدة الحافظ" (٥) وغيرها.

وجمع عبدالرحيم بن علي الإسفاني كتاباً في النحو سماه: "المفيد" (٦)، ولأبي حيان الغرناطي مؤلفات في النحو والصرف كثيرة، أذكر منها: "المبدع في التصريف"، "الموفور"، "التقريب"، "اللمحة"، "الشذرة"، نهاية الإعراب في علمي التصريف والإعراب (٧)

ولابن قيم الجوزية "بدائع الفوائد" في مجلدين في مسائل نحوية (٨)، أما ابن هشام فله في النحو والصرف مؤلفات جليلة أذكر منها : "مغني اللبيب"، "التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل" وهو لأبي حيان، "شرح الشواهد الكبرى والصغرى"، "قواعد الإعراب"، "شذور الذهب" وشرحه، "قطر الندى" وشرحه، "الجامع الكبير" و"الجامع الصغير"، "المسائل السفيرية في النحو" ... وغيرها (٩)، وألف شمس الدين بن الصائغ "التذكرة في النحو" في عدة مجلدات (١٠)، وألف شمس الدين العيزري كتاباً سماه : "سلسلة الضرب في كلام العرب في النحو" (١١)، كما ألف جمال الدين الأسنوي "الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية". (١٢)

أما من كتب مقدمات في النحو فأشهرهم : أبو شامة المقدسي (١٣) وجلال الدين الدشناني (١٤) ورشيد الدين الفارقي، وله مقدمتان في النحو كبرى وصغرى (١٥) وتاج الدين الفاكهاني (١٦) وخليل بن كيكلاي العلاني. (١٧)

(١) انظر شروحه في : ذيل مرآة الزمان : ٢٢١/٢ ، بغية الوعاة : ٢٩٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ،

حسن المحاضرة : ٢٥٧/١ ، الوافي : ١١٣/١٨

(٢) انظر : تاريخ ابن الفرات : ٢٧٠/٢ ، بغية الوعاة : ٣٦٥

(٣) انظر شروحه في : الوافي : ١٣١/٢ ، بغية الوعاة : ١٨ ، ١١٧ ، ٣٦٥ ،

الأنس الجليل : ٥٨/٢ ، السلوك : ٣٢٥/٣ ، حسن المحاضرة : ٢٢٣/١

(٤) انظر شروحه في : الوافي : ٣٧٩/١٧ ، فوات الوفيات : ٣٩/١ ، بغية الوعاة : ٣٨٨، ١٤٥

(٥) فوات الوفيات : ٤٠٧/٣ (٦) الوافي : ٣٨٦/١٨ (٧) فوات الوفيات : ٧١/٤

(٨) بغية الوعاة : ٢٥ (٩) بغية الوعاة : ٢٩٣ (١٠) المصدر نفسه : ٦٥

(١١) بغية الوعاة : ٩٥ (١٢) بغية الوعاة : ٣٠٤ (١٣) الوافي : ١١٣/١٨

(١٤) الوافي : ٥٥/٧ (١٥) المصدر نفسه : ٤٣١/٢٢ (١٦) بغية الوعاة : ٣٦٢

(١٧) البدر الطالع : ٢٤٥/١

أما ما ألف من المنظومات في النحو والصرف، فمنها على سبيل المثال: "ألفية ابن مالك"، و"الكافية الشافية" له في ثلاثة آلاف بيت (١)، وله "لامية الأفعال" وشرحها (٢)، و"لابن الوردی": "اللباب في علم الإعراب" و"تذكرة الغريب في النحو" (٣)، و"لابن قيم الجوزية" "الكافية الشافية" (٤)، و"لمحمد بن عيسى السلسلي أرجوزة في التصريف" (٥)، و"لعفيف الدين الياضي منظومة في النحو عدتها ثلاثة آلاف بيت سماها "تزهة الألباب" (٦)، و"نظم فخر الدين التركي الصلخري قصيدة في النحو تضمنت أكثر الحاجبية" (٧).

وقد حظيت "ألفية ابن مالك" من بين هذه المنظومات باهتمام العلماء من بعده فقد أحصيت لها في هذا العصر ما يزيد عن عشرين شرحاً (٨).

كما كان لعلماء العصر جهود أخرى في التأليف في مسائل فرعية في النحو، ومن ذلك: "روض الأفهام في أقسام الاستفهام" (٩)، و"كشف القناع في إفادة لو الامتناع" و"نيل العلا في العطف بلا" و"الاقتصاص في الفرق بين الحصر والاختصاص" و"كل وما تدل عليه" و"التهدي إلى معنى التعدي" و"بيان الربط في اعتراض الشرط على الشرط" (١٠) و"معاني الأدوات والحروف" (١١).

كما شارك علماء العصر في التأليف في "إعراب القرآن" (١٢) و"إعراب مشكل الحديث" (١٣).

هذه صورة لجهود العلماء في علم النحو، تبين لنا من خلالها مشاركاتهم في جهود السابقين، كما تكشف لنا عن مقدرتهم على التأليف في هذا الموضوع، وقد سدت الكتب المؤلفة في هذه الفترة ثغرة في المكتبة العربية في هذا الموضوع.

(١) عقد الجمان : ١٢٣/٢	(٢) الوافي : ٣٥٩/٣
(٣) بغية الوعاة : ٣٦٥	(٤) المصدر نفسه : ٢٥
(٥) المصدر نفسه : ٨٨	(٦) تذكرة النبيه : ٣٠٣/٣
(٧) الوافي : ٣١/٥	
(٨) انظر شروحها في : ذيل طبقات الحنابلة : ٤٣٦/٤ ، تذكرة النبيه : ١١٠/١ ،	
إنباء الغمر : ٢٧٧/١ ، فوات الوفيات : ٧١/٤ ، الوافي : ٢٥٢/١٧	
حسن المحاضرة : ٢٢٢/١ ، ٢٠١ ، ١٩٨ ، وبغية الوعاة : ١٤ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ٩٦ ، ٢٢٦ ، ٢٨٤ ،	
٣٦٥ ، ٣٠٤	
(٩) بغية الوعاة : ٦٥	
(١٠) المصدر نفسه : ٣٤٢	
(١١) الوافي : ٢٧٠/٢	(١٢) السلوك : ٢٤/٣ ، حسن المحاضرة : ٢٢٢/١
(١٣) فوات الوفيات : ٤٠٧/٣	

أما في مجال علم اللغة، فقد كانت جهود علماء هذا العصر تتركز في اتجاهين :
الأول منها : ينصبّ على كتب القدماء شرحاً واختصاراً ونظماً وتعليقاً، فقد اختصر ابن منظور
"صحاح الجوهري" (١)، كما اختصره شمس الدين بن الصائغ (٢). وعلق عليه رضي الدين
الشاطبي (٣)، وهذب صفي الدين الأرموي "محكم ابن سيده"، وجمع بينه وبين "صحاح الجوهري"
و"تهذيب الأزهري" (٤)، كما نظم شمس الدين بن الموصلي كتاب "فقه اللغة" للثعالبي في كتاب
سماه "الدر المنتظم في نظم أسرار الكلم" (٥).

الاتجاه الثاني : وهو اتجاه التأليف، فنجد ابن منظور يؤلف لنا "لسان العرب" معجماً يجمع الكثير
من كتب اللغة السابقة، إذ يجمع فيه بين "التهذيب" و "المحكم" و "الصحاح" وحواشيه و"الجمهرة"
و"النهاية" (٦)، ولابن خطيب جبرين أيضاً مجموع صغير في اللغة (٧)، كما جمع تاج الدين
الحنفي بين "العباب" و "المحكم" في اللغة في مؤلف آخر (٨)، كما نجد علماء اللغة في هذا العصر
يكتبون في مسائل لغوية فرعية، فمنهم من يكتب كتاباً في "الاشتقاق" (٩)، وفي "شرح فصيح
اللغة" (١٠)، ولابن مالك مؤلفات في مسائل فرعية مثل: "فعل وأفعّل"، و"إكمال الإعلام بمثلث
الكلام" و "النظم الأوجز فيما يهزم" و "الاعتضاد في الظاء والضاد" (١١)، ولأبي حيان كذلك
رسالة بعنوان: "الارتضاء في الفرق بين الضاد والطاء" (١٢).
كما نجد من علماء اللغة من يحاول جمع غريب اللغة من القرآن (١٣)، والحديث
الشريف (١٤).

وكان لعلماء هذا العصر جهود في علم العروض والقوافي (١٥)، فقد شرحت قصيدة ابن
الحاجب في العروض والقوافي، كما وضعت كتب أخرى في هذا الموضوع منها : "مقدمة في
العروض" لبدر الدين بن مالك (١٦) ولهبة الله البارزي (١٧)،
كما نظمت أراجيز أخرى في هذا الموضوع منها واحدة من نظم نجم الدين القصري (١٨)،
وأخرى نظمها أمين الدين الحلبي (١٩)، وثلاثة لأبي حيان في علم القوافي (٢٠).

(١) نكت الهميان : ٢٧٥	(٢) فوات الوفيات : ٣٢٦/٣
(٣) بغية الوعاة : ٨٣	(٤) تذكرة النبيه : ١٣٨/٢
(٥) الوافي : ٢٦٢/١	(٦) المصدر نفسه : ٥٤/٥
(٧) تاريخ ابن الوردي : ٣٢٣/٢	(٨) بغية الوعاة : ١٤٠
(٩) بغية الوعاة : ١٨	(١٠) المصدر نفسه : ١٤٠
(١١) فوات الوفيات : ٤٠٧/٣	(١٢) المصدر نفسه : ٧١/٤
(١٣) انظر: بغية الوعاة : ١٢١	(١٤) انظر: نكت الهميان : ٣٠٢ وبغية الوعاة : ١٧٠
(١٥) انظر شروحها في: الوافي : ٨٥/٣ ، تاريخ ابن الفرات : ٢٧٠/٢، وبغية الوعاة : ٣٠٤	(١٦) عقد الجمان : ٣٦٥/٢
(١٧) نكت الهميان : ٣٠٢	(١٨) بغية الوعاة : ٣٧٢
(١٩) المصدر نفسه : ٨٢	(٢٠) فوات الوفيات : ٧١/٤

وكان لبعض علماء هذا العصر جهود في التأليف في اللغات الأخرى، فقد كان بعضهم يتقن لغات متعددة منهم على سبيل المثال: زين الدين الأمدي، الذي كان يعرف اللغة المغلية والتركية والفارسية والرومية (١)، وفخر الدين الدوركي الذي كان يعرف اللغتين التركية والفارسية (٢)، والقاضي علاء الدين بن مراجل الذي كان يعرف اللغة التركية (٣).

وقد ترك بعضهم مؤلفات ومنظومات في هذه اللغات وقواعدها، ومنهم على سبيل المثال: أمين الدين بن خولان البعلبي الذي ألف كتاباً في اللغة التركية سماه: "العدة القوية في اللغة التركية" (٤)، وفخر الدين الدوركي، وله قصيدة في "قواعد لسان الترك" (٥)، أما أبو حيان فقد ترك لنا مؤلفات في اللغتين التركية والفارسية منها: "الإدراك لسان الأتراك" و "زهو الملك في نحو الترك" و "كتاب الأفعال في لسان الأتراك" و "منطق الخرس في لسان الفرس" (٦).

وأما في علم المعاني والبيان، فقد لقي كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي اهتماماً شديداً من علماء هذا العصر، فقد شرحه على سبيل المثال كل من: قطب الدين الشيرازي (٧) وابن شيخ العوينة (٨)، كما اختصره كل من: بدر الدين بن مالك في كتابين: الأول: "المصباح في اختصار المفتاح" (٩)، والثاني سماه: "روضة الأذهان" (١٠)، كما اختصره كذلك جلال الدين القزويني في كتاب سماه "التلخيص"، وشرحه في آخر سماه: "إيضاح التلخيص" (١١).

وقد اهتم العلماء بكتابي القزويني وابن مالك شرحاً وتلخيصاً، فقد لخص بدر الدين ابن النحوية كتاب ابن مالك في كتاب سماه: "ضوء المصباح" وشرحه في كتاب آخر (١٢)، كما شرح "تلخيص القزويني" كل من: نجم الدين التميمي (١٣) وبهاء الدين السبكي (١٤) ومحب الدين الحلبي (١٥) وأكمل الدين البابرّي (١٦).

ولعلماء العصر تأليف في هذا الموضوع أشهرها "التيبان" وشرحه، لحسين بن محمد الطيبي (١٧)، ولشمس الدين العيزري كتاب آخر، سماه "مصباح الزمان في المعاني والبيان" وشرحه (١٨).

(١) نكت الهميان : ٢٠٦

(٢) بغية الوعاة : ١٠٦

(٣) عقد الجمان : ٣٢٩/٤

(٤) الوافي : ٧٣/٤

(٥) نكت الهميان : ٢٧٤

(٦) المقري، نفح الطيب، دار صادر، بيروت،

١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م، ٥٥٢

(٧) بغية الوعاة : ٣٨٩

(٨) تذكرة النبيه : ١٨٥/٣

(٩) بغية الوعاة : ٩٦

(١٠) الوافي : ٢٠٤/١

(١١) الوافي : ٢٤٢/٣

(١٢) بغية الوعاة : ١١٧

(١٣) الوافي : ٢٩٠/٥

(١٤) بغية الوعاة : ١٤٨

(١٥) إنباء الغمر : ٢٢٥/١

(١٦) حسن المحاضرة : ٢٢٣/١

(١٧) البدر الطالع : ٢٢٩/١

(١٨) بغية الوعاة : ٩٥

هذه صورة موجزة لجهود علماء العصر في علوم اللغة العربية واللسانيات، تحدثت من خلالها عن : علوم النحو والصرف، واللغة، والعروض، واللسانيات والمعاني والبيان، وقد تكشف لنا أن هذه العلوم قد شهدت ازدهاراً في حركة التأليف، إذ توفر العلماء على دراسة جهود السابقين ومؤلفاتهم، يدرسونها ويشرحونها ويختصرونها، كما ساهموا في هذه المجالات، فتركوا لنا مؤلفات قيمة أغنت المكتبة العربية على مدى العصور التالية.

٦- التاريخ :

اهتم علماء العصر بالتاريخ، فقد اتجهوا أولاً إلى المؤلفات التاريخية السابقة، فعملوا على اختصارها، فقد اختصر أبو شامة المقدسي "تاريخ دمشق" لابن عساكر مرتين، الأولى في خمسة عشر مجلداً، والثانية في خمسة مجلدات (١)، كما اختصره أيضاً ابن منظور، بالإضافة إلى اختصاره "لتاريخ بغداد" للخطيب البغدادي (٢)، كما اختصر الذهبي أيضاً هذين الكتابين، بالإضافة إلى اختصاره "لتاريخ نيسابور" (٣).

أما إبداعهم في مجال التأليف التاريخي فزاهر، وقد تنوعت مناهجهم واتجاهاتهم فيه، فمنهم من ألف في "تاريخ الاسلام" مثل الذهبي في كتابه "تاريخ الاسلام" الذي يزيد عن عشرين مجلداً (٤).

ومنهم من اتجه إلى التاريخ العام، وأذكر من هذه المؤلفات على سبيل المثال: سبط ابن الجوزي الذي ألف "مرآة الزمان" في عشرين مجلداً (٥)، وفخر الدين الحسيني جمع تاريخاً ولم يتمه (٦)، وكمال الدين القرطبي الذي ألف تاريخاً في مجلدات (٧)، وسعد الدين ابن شيخ الشيوخ الذي جمع تاريخاً في مجلدين (٨)، وبيبرس المنصوري الدوادار صاحب التاريخ الكبير "زبدة الفكرة" (٩)، وقطب الدين اليونيني الذي جمع تاريخاً ذيل به على "مرآة الزمان"، كما اختصر "المرآة" أيضاً (١٠)، والملك المؤيد أبو القداء في تاريخه المشهور "المختصر في تاريخ البشر" (١١)، وقد ذيل عليه زين الدين بن الوردي حتى سنة وفاته (١٢)، وجمع شهاب الدين النويري تاريخاً كبيراً في ثلاثين مجلداً سماه: "نهاية الأرب" (١٣)، وكتب علم الدين البرزالي تاريخاً بدأ فيه من عام مولده الذي توفي فيه أبو شامة، فكان صلة لتاريخ أبي شامة في خمسة مجلدات (١٤)، وجمع شمس الدين الجزري الدمشقي تاريخاً كبيراً (١٥).

(١) الوافي : ١١٣/١٨

(٢) المصدر نفسه : ٥٤/٥

(٤) البدر الطالع : ١١٠/٢

(٦) الوافي : ١٩٣/١٢

(٨) الوافي : ٣٣٢/١٣

(١٠) ذيل طبقات الحنابلة : ٣٧٩/٤

(١٢) تذكرة النبيه : ١٣٠/٢

(١٤) فوات الوفيات : ١٩٦/٣

(٣) فوات الوفيات : ٣١٥/٣

(٥) عقد الجمان : ١٣٢/١

(٧) الوافي : ١٣٩/٢

(٩) ذيل العبر : ٧٤/٤

(١١) تذكرة النبيه : ٢٢١/٢

(١٣) الوافي : ١٦٥/٧

(١٥) الوافي : ٢٢/٢

وألف تقي الدين السبكي تاريخاً (١)، وشرع عيسى بن مسعود الزواوي في جمع تاريخ، كتب منه عشرة أسفار (٢)، وكتب ابن كثير تاريخه "البدائية والنهاية" (٣)، وصنف ناصر الدين بن الفرات تاريخاً كبيراً جداً (٤)، كما صنف صارم الدين بن دقماق تاريخاً على الحوادث (٥).

وكتب بعض المؤرخين في تاريخ دولة معينة، حكمت إقليماً معيناً لفترة من الزمن، وأولهم: أبوشامة المقدسي في كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" (٦)، وكتب جمال الدين بن واصل الحموي في تاريخ دولة بني أيوب المسمى "مفرج الكروب" (٧)، وألف ركن الدين بيبرس الدوادار "التحفة الملوكية في الدولة التركية" (٨)، وصنف بدر الدين بن حبيب "درة الأسلاك في دولة الأتراك" (٩).

ومنهم من ألف في سيرة ملك أو حاكم مثلاً، ومن هؤلاء عز الدين بن شداد الذي كتب في سيرة الملك الظاهر بيبرس (١٠)، كما كتب محيي الدين بن عبد الظاهر في سيرة الملك الظاهر وفي سيرة المنصور قلاوون (١١)، وصنف بدر الدين بن حبيب "تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه" (١٢).

ومنهم من كتب في تاريخ إقليم معين أو مدينة معينة، فكتب بعضهم في تاريخ مصر ومنهم : تاج الدين الزبيري الذي ألف تاريخاً لمصر سماه: "إيقاظ المتغفل واتعاط المتأمل" (١٣)، وكتب قطب الدين بن منير الحنفى تاريخاً كبيراً لمصر (١٤)، كما عمل تاج الدين اليمنى تاريخاً لليمن (١٥).

وألف بعضهم في تاريخ إقليم معين، حيث كتب محمد بن عبدالعزيز الإدريسي: "المفيد في أخبار الصعيد" (١٦)، وصنف كمال الدين الأدفوي "الطالع السعيد في تاريخ الصعيد" (١٧) وكتب بعضهم في تاريخ مدينة معينة، حيث صنف جعفر بن محمد الإدريسي تاريخاً للقاهرة (١٨)، وخرّج وجيه الدين الهمداني تاريخاً لمدينة الإسكندرية (١٩).

(١) حسن المحاضرة : ١٩٩/١	(٢) البدر الطالع : ٥٢٠/١
(٣) إنباء الغمر : ٤٥/١	(٤) حسن المحاضرة : ٢٦٦/١
(٥) حسن المحاضرة : ٢٦٦/١	(٦) ذيل مرآة الزمان : ٣٦٧/٢
(٧) نكت الهميان : ٢٥٠	(٨) تذكرة النبيه : ١٥٨/٢
(٩) إنباء الغمر : ٢٤٩/١	(١٠) الوافي : ٣/٢
(١١) الوافي : ٢٥٧/١٧	(١٢) البدر الطالع : ٢٠٥/١
(١٣) حسن المحاضرة : ٢٦٦/١	(١٤) ذيول العبر : ١٠١/٤
(١٥) الوافي : ٢٣/١٨	(١٦) حسن المحاضرة : ٢٦٥/١
(١٧) تذكرة النبيه : ١٢١/٣	(١٨) حسن المحاضرة : ٢٦٥/١
(١٩) العبر : ٣٢٧/٣	

كما كتب كمال الدين بن العديم تاريخاً ضخماً لحلب (١)، وجمع عز الدين بن شداد أيضاً تاريخاً لحلب (٢)، كما صنف جمال الدين المقدسي "مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام" (٣)

ولم يقتصر العلماء على التأليف في تاريخ إقليم أو مدينة، بل ألفوا في تاريخ معلم بارز في مدينة معينة، فعمل وجيه الدين الهمداني تاريخاً لمنازة الاسكندرية (٤).

ومن المؤرخين من اهتم بتاريخ التراجم، فكتب ابن خلكان كتابه "وفيات الأعيان" (٥)، الذي نال شهرة واسعة في هذا العصر، فأكمل تراجمه كل من ابن شاكر الكبتي في "قوات الوفيات" (٦)، وصلاح الدين الصفدي في "الوافي بالوفيات" (٧)، وكتب الصفدي كتاباً آخر في التراجم بعنوان: "أعوان النصر في أعيان العصر" (٨)، ويؤلف في هذا الاتجاه الذهبي في "تاريخ النبلاء" وهو في عشرين مجلداً، وفي "العبر في خبر من غبر" (٩).

وضمن هذا المنهج في التأليف التاريخي، نجد من العلماء من يؤلف في الطبقات. فيصنف بعضهم "طبقات القراء" و "طبقات الحفاظ" (١٠)، وضمن الحديث عن طبقات المحدثين والحفاظ نجد منهم من يؤلف في الجرح والتعديل، فيؤلفون في طبقات الثقات والضعفاء (١١)، كما يصنف بعضهم في طبقات الفقهاء (١٢)، ومنهم من يكتب في تاريخ القضاة (١٣)، كما يؤلف بعضهم في أخبار اللغويين والنحاة، فيكتب تاج الدين بن مكتوم مثلاً تاريخاً في عشر مجلدات (١٤)، ويصنف ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء (١٥).

ونجد بعضهم من يخصص تاريخاً في طبقات مذهب معين، فيؤلف عماد الدين بن باطيش في "طبقات الشافعية" (١٦)، ويصنف مثله كذلك مجي الدين الأسنوي (١٧) وتاج الدين عبد الوهاب ابن علي السبكي (١٨)، ويكتب صارم الدين بن دقماق في "طبقات الحنفية" (١٩) وكذلك محيي الدين بن أبي الوفا (٢٠)، ويصنف ابن رجب الحنبلي في "طبقات الحنابلة" (٢١).

(١) الوافي : ٤٢١/٢٢	(٢) العبر : ٣٥٦/٣
(٣) الأنس الجليل : ١٥٧/٢	(٤) ذيل مرآة الزمان : ١٠٣/٣
(٥) الوافي : ٣٠٨/٧	(٦) تذكرة النبيه : ٢٦٦/٣
(٧) السلوك : ٨٧/٣	(٨) السلوك : ٨٧/٣
(٩) فوات الوفيات : ٣١٥/٣	(١٠) الوافي : ١٦٣/٢
(١١) سبق الحديث عن هذا الموضوع في علم الحديث (١٢) حسن المحاضرة : ٢٠١/١	(١٣) الوافي : ١٨٨/٤
(١٤) الوافي : ٢٣/١٨	(١٥) ذيل مرآة الزمان : ٤٣٧/٢
(١٦) العبر : ٢٧٥/٣	(١٧) حسن المحاضرة : ٢٠٠/١
(١٨) البدر الطالع : ٤١٠/١	(١٩) حسن المحاضرة : ٢٦٦/١
(٢٠) حسن المحاضرة : ٢٢٢/١	(٢١) البدر الطالع : ٣٢٨/١

وضمن الحديث عن منهج التأليف في التراجم والطبقات، نجد من علماء هذا العصر من يؤلف معجماً لشيوخه الذين تلقى عنهم، أو تلمذ لهم، وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع.

ولم ينس مؤرخو العصر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع بعضهم إلى 'السيرة' لابن إسحق، فاختصرها ومنهم عماد الدين الواسطي (١)، ومنهم من نظمها مثل : عبدالعزيز الديري (٢)، ومنهم من ألف فيها مثل : فتح الدين بن سيد الناس الذي ألف كتاباً في السيرة انتفع به الناس من أهل عصره، ومن جاء بعدهم (٣)، كما ألف عز الدين الإربلي في السيرة كتاباً يشتمل على مجلدين (٤)، وكتب علاء الدين مغلطي في السيرة كتاباً سماه ' الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم.' (٥)

ولم يفت مؤرخي هذا العصر الكتابة في فضائل الصحابة، فيؤلف فتح الدين بن القيسراني كتاباً في معرفة الصحابة (٦)، ويصنف ابن سيد الناس في ذكر فضائلهم 'تحصيل الإصابة في تفضيل الصحابة' (٧)

ويخصص بعضهم الحديث عن واحد من الصحابة، فيخرج عز الدين الإسفاني كتاباً في فضل أبي بكر رضي الله عنه (٨)، وللذهبي في ذلك مؤلفات في سير الخلفاء الراشدين وهي: 'توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق' و 'نعم السمر في سيرة عمر' و 'التبيان في مناقب عثمان' و 'فتح المطالب في أخبار علي بن أبي طالب'. (٩)
كما كتب بعضهم في سيرة بعض الخلفاء العباسيين، مثال ذلك : ابن سيد الناس في كتابه: 'تور العيون في سيرة الأمين والمأمون' (١٠).

ونجد اتجاهاً لدى مؤرخي هذا العصر، يقوم على التأريخ لحادثة معينة، مثال ذلك ما كتبه عز الدين الرسعني عن 'مصرع الحسين' (١١).

هذا عرض لمناهج المؤرخين في هذا العصر، يكشف لنا أن هذا الفن كان من العلوم المزدهرة في هذا العصر، فقد كتب مؤرخو هذا العصر في تاريخ الإسلام، وفي التاريخ العام، وفي تاريخ دولة معينة، وفي تاريخ حاكم بعينه، أو في تاريخ بلد أو إقليم، كما كتبوا في التراجم والطبقات، وأطالوا في ذلك، وألفوا كذلك في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، أو في سير الصحابة والخلفاء.

(١) الوافي : ٢٢١/٦ (٢) حسن المحاضرة : ١٩٧/١

(٣) البدر الطالع : ٢٤٩/٢ (٤) تذكرة النبيه : ١٦٧/٢

(٥) البغدادي، هدية العارفين، (٦) تذكرة النبيه : ٢٦١/١

مكتبة المثنى، بغداد ١٩٥٥ : ٤٦٨/٢

(٧) الوافي : ٢٨٩/١ (٨) الوافي : ٢٣٦/٩

(٩) فوات الوفيات : ٣١٥/٣ (١٠) اليوسفي، نزهة الناظر : ٢١٦

(١١) ذيل طبقات الحنابلة : ٢٧٤/٤

٧- الطب :

كانت صناعة الطب، وما زالت، من أشرف الصنائع، وقد كانت هذه الصناعة متقدمة في العصر المملوكي الأول، فكان هناك أنواع من التخصصات في الطب وهي : الباطنية والجراحة والعظام وطب العيون، بالإضافة إلى الصيدلة (١)، كما كان للأطباء رئاسة أو "نقابة" تنظم العمل داخل هذه المهنة. (٢)

ومما يدل على تقدم هذا العلم ما كان يدره من مال على صاحبه والمشتغل به، فهذا رئيس الطب بمصر إبراهيم بن الرشيد بن أبي الوحش بن أبي حليقة يخلف تركة قيل: إنها بلغت ثلاثمائة ألف دينار (٣)، ومن هنا فقد كثر الأطباء في هذا العصر، ونشطوا نشاطاً ظاهراً، فقد توفروا على كتب القدماء في الطب يقرأونها، ويدرسونها لتلازماتهم، أو يشرحونها، أو يختصرونها. فقد كانت أشهر الكتب التي لاقت رواجاً واهتماماً عند أطباء العصر هي: "الكليات من كتاب القانون" لابن سينا، فقد شرحه يعقوب بن غنائم (٤)، وعلاء الدين بن النفيس (٥) وقطب الدين الشيرازي (٦)، كما شرح كتاب "الفصول" لأبقراط (٧)، وكتاب "المسائل" لحنين بن إسحق (٨).

وقد اختصر هذه الكتب وغيرها نجم الدين بن اللبودي (٩)، كما كتب بعضهم حواشي عليها، ومنهم شرف الدين بن الرحبي الذي وضع حواشي على كتاب "القانون" لابن سينا (١٠).

كما كان للأطباء في هذا العصر مشاركة في التأليف، فقد صنفوا المؤلفات القيمة في هذا العلم، تنوعت اتجاهاتها وموضوعاتها بين كتب الطب العامة التي تبين أعراض الأمراض، وطرق علاجها، مثل : كتاب "المدخل في الطب" و "العلل والأمراض" و كتاب "التدقيق في الجمع والتفريق" حيث ذكر فيه مؤلفه الأمراض وما يتشابه منها في أكثر الأمر لمؤلفها : نجم الدين بن المنفاخ (١١)، ومثلها أيضاً كتاب "الشامل في الطب" لابن النفيس (١٢)، و "التذكرة" في الطب في ثلاثة مجلدات، لعز الدين السويدي (١٣)، و "النهج الواضح في الطب" للصاحب أمين الدولة. (١٤)

(١) انظر : صبح الأعشى : ٢٥١/١١

(٢) انظر : المصدر نفسه : ٣٧٦/١١

(٣) ذيول العبر : ١٨/٤

(٤) ذيل مرآة الزمان : ١٧٩/٤

(٦) البدر الطالع : ٢٩٩/٢

(٨) عقد الجمان : ٣٧٤/٢

(١٠) عيون الأنباء : ٦٨٢

(١٢) عقد الجمان : ٣٧٤/٢

(١٣) فوات الوفيات : ٤٨/١

(٥) عقد الجمان : ٣٧٤/٢

(٧) ذيل مرآة الزمان : ٣١٢/٤

(٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء،

دار مكتبة الحياة، بيروت : ٦٦٨

(١١) ذيل مرآة الزمان : ٩٢/١

(١٤) عيون الأنباء : ٧٢٨

ومن هذه المؤلفات ما كان متخصصاً في مجال الأدوية مثل : كتاب "المختار في ألف عقار" للرشيد بن أبي حليقة (١)، ومنها ما كان متخصصاً في الوقاية من الأمراض مثل كتاب : "حفظ الصحة" (٢)، ومنها ما كان متخصصاً في الجراحة مثل كتاب "العمدة في صناعة الجراح" في عشرين مقالة، عشر مقالات علم وعشر عمل (٣)، ومنها ما كان متخصصاً في الكحل (طب العيون) مثل كتاب "المهذب في الكحل" (٤)، وكتاب "كشف الرين في أمراض العين" (٥)، وكتاب "القانون في أمراض العين" (٦). كما كان بعضها مختصاً بالتشريح مثل كتاب "خلق الإنسان وهينة أعضائه ومنافعها" (٧). كما كتب بعضهم في طريقة إرشاد المريض إلى العلاج والدواء عند عدم وجود الطبيب، ومثل ذلك "غنية اللبيب عند غيبة الطبيب" (٨) و "إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد عند غيبة الطبيب" (٩).

ولم ينس أطباء العصر التأليف في الطب النبوي، فشرح نجم الدين ابن المنفاخ أحاديث نبوية تتعلق بالطب (١٠)، كما ألف علاء الدين الصفدي كتاب "الأحكام النبوية في الصناعة الطبية" (١١).

كما عرف أطباء هذا العصر العلاج النفسي واستخدموه في علاجهم (١٢)، كما كتب رشيد الدين أبو حليقة مقالة في "أن الملاذ الروحانية ألد من الملاذ الجسمانية، إذ الروحانية كمالات وإدراك الكمالات، والجسمانية إنما هي دفع آلام خاصة، وإن زادت أو وقعت في آلام أخر" (١٣).

(١) فوات الوفيات : ٢٤٨/٤ وانظر : الوافي : ٢٠٠/٣

(٢) فوات الوفيات : ٢٤٨/٤

(٣) ذيل مرآة الزمان : ٣١٢/٤

(٥) الوافي : ٢٥/٢

(٦) المصدر نفسه : ٢٦٦/٢١

(٧) المصدر نفسه : ٣٥١/٢٢

(٨) المصدر نفسه : ٢٥/٢

(٩) البدر الطالع : ٧٩/٢

(١٠) الوافي : ٢٤٦/٦

(١١) المصدر نفسه : ٢٦٦/٢١

(١٢) انظر : عيون الأنباء : ٥٩٥

(١٣) المصدر نفسه : ٥٩٧

٨- الفلسفة والمنطق :

يبدو أن الفلسفة من العلوم التي لم يكن مرغوباً فيها في العصر المملوكي، فهذا ابن خلدون يعقد فصلاً في "مقدمته" : "في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها" وذلك لأن ضررها في الدين كثير، فوجب أن يصدع بشأنها، ويكشف عن المعتقد الحق فيها (١)، كما كان ينظر إلى أصحاب هذا العلم والمشتغلين به نظرة فيها الشك والطعن في دينه أحياناً، فقال أبو شامة في حق شخص يعرف بالفخر بن البديع البندهي: "وفيها (أي سنة ٦٥٧ هـ) توفي شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر في علوم الأوائل وقد أفسد عقائد جماعة من الشباب، وكان يتجاهر باستنفاص الأنبياء عليهم السلام" (٢)، ويبدو أن هذا الشك قد استمر بعد ذلك، فهذا الصفدي يقول عن عز الدين الأربلي : "كان مظلماً في دينه ونحلته، متفلسفاً، صادقاً في نقله .." (٣).

أما المنطق، فقد شرحت بعض الكتب والمسائل السابقة فيه، كما اختصر بعضها، وألفت بعض الكتب الجديدة في هذا المجال، ويبدو لي من استعراض أسماء المشتغلين بهذا العلم أن الثقافة الدينية واللغوية تغلب عليهم، ولعل ذلك يعود إلى حاجة أرباب هذه العلوم إلى هذا العلم في علومهم.

أما أشهر الكتب والمسائل التي اهتم بها علماء العصر في هذا المجال، فكان كتاب "الشفاء" لابن سينا، وهو كتاب استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها (٤)، فقد اختصره شمس الدين الخسروشاهي (٥)، كما نظمه نجم الدين الخضراوي (٦).

وشرح ابن واصل الحموي كتابي "الجمال" و "الموجز" للأفضل الخونجي (٧)، وشرح ناصر الدين الشيرازي (٨) وشمس الدين أبو الثناء الأصفهاني كتاب "المطالع في المنطق" (٩)، كما شرحه القطب التحتاني (١٠)، كما شرح تاج الدين بن التركماني (١١) والقطب التحتاني (١٢) "الشمسية في المنطق لنجم الدين القزويني"، وعلق أبو حيان على مسائل نهاية ابن رشد في كتابه "مسلك الرشيد" (١٤)، كما شرح كتاب "أسرار الاهتداء" لشهاب الدين السهروردي (١٥).

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون : ٥١٤

(٢) ذيل الروضتين لأبي شامة : ٢٠٢ وانظر : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية: ٢٨٩

(٣) الوافي : ٣٩٩/١١ (٤) انظر : مقدمة ابن خلدون : ٤٩١

(٥) الوافي : ٧٣/١٨ (٦) حسن المحاضرة : ١٩٤/١

(٧) نكت الهميان : ٢٥٠ (٨) الوافي : ٣٧٩/١٧

(٩) تذكرة النبيه : ١٥٠/٢ (١٠) بنية الوعاة : ٣٨٩

(١١) الوافي : ١٨٢/٧ (١٢) بغية الوعاة : ٣٨٩

(١٣) كشف الظنون : ١٠٦٣/٢ (١٤) فوات الوفيات : ٧١/٤

(١٥) بغية الوعاة : ٣٨٩

أما الكتب التي ألفت في هذا المجال فأمهمها: "المدخل إلى علم المنطق والطبيعي والإلهي" ليعقوب بن غنائم، (١) و "مقدمة في المنطق" لبدر الدين بن مالك، وكتاب "غاية المطلب" و "القواعد" لشمس الدين الأصبهاني، (٣) وكتاب "هداية الألباب" (٤) و "الأبواب في المنطق" لابن واصل الحموي (٥)، وكتاب "غرة التاج في الحكمة" لقطب الدين الشيرازي، (٦) وكتاب "ناظر العين" لمحمود بن عبدالرحمن شمس الدين الأصبهاني (٧)، وكتاب "الكوكب المشرق" لشمس الدين العيزري. (٨)

٩ - العلوم الطبيعية والرياضية

اقتزن علم الحساب من هذه العلوم خاصة بعلم الفرائض أو علم الوراثة، (٩) ولذلك فإن الثقافة الدينية والفقهية خصوصاً تغلب على أرباب هذه الصناعة، فكثير ممن برع في الفقه برع في الحساب، فهذا شمس الدين الكلاعي الفرضي، اشتغل الناس عليه في الفرائض والحساب، (١٠) وهذا ناصر الدين بن العتال الحنفي برع في الفقه والحساب (١١)، وهذا صفي الدين الحنبلي أيضاً كان علامة في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة، (١٢) وهذا بالطبع يعود لحاجة كل من العلمين للآخر.

وقد وجد من علماء هذا العصر من ألف في الحساب ومنهم : شمس الدين بن الأكفاني الذي كتب "اللباب في الحساب" (١٣)، وكتب المهذب محمد بن محمد الحنبلي الحاسب "مقدمة في الحساب"، (١٤) وصنف أبو العباس بن البناء كتاب "التلخيص في الحساب" (١٥). ومن العلوم الرياضية التي عرفت في ذلك الوقت علوم الجبر والمقابلة، وقد ذكرت المصادر أسماء مشهورة في هذا العلم منهم : صفي الدين الحنبلي ونجم الدين الحراني الذي كان له يد طولى في علم الخلاف والجبر والمقابلة. (١٦)

ومن فرع هذه العلوم أيضاً : علم الهندسة، وقد كثر المشتغلون بهذا العلم أيضاً، أذكر منهم الحكيم بن الأكفاني الذي كان إماماً في الهندسة والحساب. (١٧) ومن فروع هذه العلوم أيضاً : علم المساحة، ومن أشهر المشتغلين بهذا العلم صدر الدين بن العطار (١٨)، وناصر الدين بن العتال الحنفي (١٩)

(١) ذيل مرآة الزمان : ١٧٩/٤	(٢) عقد الجمان : ٣٦٥/٢
(٣) فوات الوفيات : ٣٨/٤	(٤) الوافي : ٨٥/٣
(٥) تاريخ ابن الوردي : ٢٤٤/٢	(٦) بغية الوعاة : ٣٨٩
(٧) البدر الطالع : ٢٩٨/٢	(٨) بغية الوعاة : ٩٥
(٩) انظر : مقدمة ابن خلدون ٤٥١	(١٠) إنباء الغمر : ٨١/١
(١١) إنباء الغمر : ٦٧/١	(١٢) البدر الطالع : ٤٠٤/١
(١٣) الوافي : ٢٥/٢	(١٤) ذيل مرآة الزمان : ٧٩/١
(١٥) البدر الطالع : ١٠٨/١	(١٦) عقد الجمان : ٣٣٦/٣
(١٧) الوافي : ٢٥/٢	(١٨) تذكرة النبيه : ١٤٢/٣
	(١٩) إنباء الغمر : ٦٧/١

ومن فروعه أيضا علم الإصطربلاب والأرباع والجيب والكرة وغير ذلك. ومن أشهر من عرف بذلك أمين الدين الأبهري (١) وشمس الدين المزري (٢).

ويبدو لي مما سبق أن علم الحساب والجبر والمقابلة هي أكثر العلوم الرياضية التي شاعت في ذلك الوقت لسببين:

الأول : ارتباط هذه العلوم بعلم الفرائض كما سبق أن ذكرت، وهو أحد فروع الفقه المعروفة في ذلك الوقت، وعن طريق هذه العلوم يمكن معرفة نصيب كل من الورثة من الميراث.

الثاني : ارتباط هذه العلوم بالوظائف والدواوين الرسمية، فقد كان المتعلمون حريصين على إتقانها ليحظى أحدهم بوظيفة ديوانية، ويستدل على ذلك أن كثيراً ممن أتقنوا هذه العلوم كانت لهم مناصب ديوانية، أو رؤساء في الدواوين الرسمية، ومن هؤلاء مثلاً: معين الدين بن حشيش ناظر الجيش بالديار المصرية، وهو ذو يد طولى في معرفة الحساب الديوان (٣)، وعلم الدين سليمان بن إبراهيم، وهو بارع في صناعة الحساب (٤)، ومحب الدين محمد بن يوسف الحلبي ناظر الحبشة، وكان له يد طولى في الحساب (٥).

ومن العلوم الطبيعية التي عرفت في ذلك الوقت علم الفلك والهيئة والأرصاء والتقاويم والأنواء والأزياج (٦)، وقد كثر المشتغلون بهذه العلوم، وأشهرهم : المنجم اليشكري الذي كانت له يد طولى في علم الفلك والتقاويم وعمل الأزياج (٧)، وزين الدين عمر بن مكي المعروف بابن المرحل الذي برع في علوم شتى منها علم الهيئة (٨)، وشمس الدين الشرواني الذي كان عارفاً بالنجوم والأرصاء (٩)، وأبو العباس بن البناء الذي كان له كتاب في الأنواء (١٠)، ونجم الدين التحفازي الذي كان له معرفة بالتقاويم (١١)، وعلاء الدين بن الشاطر الذي كان يعرف بالمطعم الفلكي (١٢).

مما سبق، يبدو لي أن علم الفلك والهيئة كان من العلوم المعروفة في ذلك الوقت، وذلك لارتباطه أيضا بالعلوم الشرعية، فمعرفة أوقات الصلاة والمواسم الدينية تقتضي من المسلمين التعرف على هذه العلوم ووجوب تعلمها.

(١) تذكرة النبيه : ٢٤٢/٢	(٢) نكت الهميان : ٢٤٤
(٣) تذكرة النبيه : ١٩٧/٢	(٤) الوافي : ٣٤٠/١٥
(٥) بغية الوعاة : ١١٨	(٦) مقدمة ابن خلدون : ٤٨٧-٤٨٩
(٧) الوافي : ١٨٥/٢٢	(٨) عقد الجمان : ١٣٦/٣
(٩) الوافي : ١٤٢/٢	(١٠) البدر الطالع : ١٠٨/١
(١١) فوات الوفيات : ٢٣/٣	
(١٢) إنباء الغمر : ١٧٢/١	

الموسيقى : وجد من رجال العصر المملوكي الأول من عرف الموسيقى واشتغل بها، أذكر منهم مثلاً: الأمير شهاب الدين بن جلدك الذي كان عارفاً بصناعة الألحان وعلم الموسيقى (١). ومنهم: شمس الدين الدهان الذي كان يعرف الموسيقى وينظم الشعر ويلحنه، فيغني به المغنون، وكان يلعب بالقانون، (٢) ومنهم: شمس الدين بن الجوشي الذي كان عارفاً بالموسيقى، ويعلم أهل الوعظ الألحان. (٣)

وقد وجد من ألف في هذا الفن، ومنهم: شمس الدين بن أكر، قال عنه الصفدي: "إمام عصره في علم الموسيقى، شغل جماعة من أكابر علم النغم وقرأوا عليه، ووضع كتاباً في فن الموسيقى سماه: "غاية المطلوب في علم الأنغام والضروب"، قال لي: ظهر لي خطأ جماعة من المتقدمين في هذا الفن مثل الفارابي وغيره، وقد برهنت على ذلك." (٤)

ويبدو لي أن هذا الفن كان في خدمة طائفة الصوفية التي نشطت نشاطاً ملحوظاً في هذا العصر، إذ كان شمس الدين بن أكر السابق ذكره صوفياً، له زاوية عند مشهد الحسين بالقاهرة (٥)، وكان شمس الدين بن الجوشي أيضاً يعلم أهل الوعظ الألحان. (٦)

ومن المعارف التي كانت شائعة في ذلك الوقت: تعبير الرؤيا" أو تفسير المنامات، وقد عرف هذا العصر الكثير ممن أتقنوا هذه الصناعة، أذكر منهم: أيذر السنائي الذي كان له معرفة بتعبير الرؤيا (٧)، وشمس الدين المزي الذي كان إليه المنتهى في تفسير المنامات، يضرب به المثل في وقته (٨)، وشهاب الدين المقدسي النابلسي مفسر المنامات، وله في ذلك مقدمة سماها: "البدر المنير" (٩)، وصلاح الدين القواس (١٠)، وابن شيخ العونية علي بن الحسين، وله كتاب في هذا الموضوع سماه: عَرَفَ العبير في عَرَفَ التعبير. (١١)

ومن معارف ذلك العصر أيضاً: "حل المترجم والألغاز"، ولهم فيها تصانيف، وممن برع في ذلك: عفيف الدين النحوي، وقد انفرد بالبراعة في حل المترجم والألغاز، وله في ذلك تصانيف منها:

(١) تاريخ ابن الفرات : ٣٧/٧	(٢) الوافي : ٢٠٩/٤
(٣) إنباء الغمر : ٢٢٤/١	(٤) الوافي : ٣٠٥/٤
(٥) الوافي : ٣٠٥/٤	(٦) إنباء الغمر : ٢٢٤/١
(٧) الوافي : ١٥/١٠	(٨) نكت الهميان : ٢٦٤
(٩) فوات الوفيات : ٨٦/١	(١٠) الوافي : ٢٤٨/١٦
(١١) الوافي : ٥٢/٢١	

"عقلة المجتاز في حل الألغاز"، ومصنف في حل المترجم (١)، ومنهم غرس الدين الأربلي، وعنده معرفة بالنحو وحل المترجم، ومن نظمه : الألفية في الألغاز المخفية، وهي ألف لغز في ألف اسم (٢)، ومنهم أيضا : ابن دفتر خوان الموصلي، وله في ذلك كتاب "الحكم الموجزة في الرسائل الملعزة" (٣). ومن هؤلاء : تاج الدين بن الدريهم وله في ذلك : "المبهم في حل المترجم" و "غاية الإعجاز في الأحاجي والألغاز" (٤).

ويبدو لي أن هذا النوع من المعارف كان من الأدب الفكاهي الهزلي.

ظاهرة الموسوعات

وجد في هذا العصر ظاهرة فريدة تقوم على جمع علوم وفنون مختلفة في مؤلف ضخم، وقد ساعد على وجود هذه الظاهرة مجموعة من العوامل السياسية والاجتماعية والعلمية، ولعل أهمها : ما أصيبت به الحضارة العربية الإسلامية من نكبات ودمار في المشرق والمغرب، على أيدي التتار في بغداد، ومحاكم التفتيش في الأندلس، حيث أُلقت آلاف الكتب والمؤلفات، فقد تولد لدى العلماء في مصر والشام، وكانتا كما تبيننا قبله العلماء في ذلك العصر، تولد لديهم غير دينية وقومية على التراث العربي الإسلامي، فبدلوا قصارى جهدهم للمحافظة على ما تبقى منه، ولم أشتاته في مصنفات جامعة شاملة، وقد وجد هؤلاء العلماء التشجيع والدعم من الحكام والسلاطين في ذلك الوقت، بل إن بعض هذه المصنفات قد ألقت لهم، وبعضهم شارك في تأليفها، بالإضافة إلى الجو العلمي الذي كان سائدا في ذلك الوقت، حيث كان التعليم متاحاً للجميع ليأخذوا منه بالقسط الذي يريدون مجانياً، فقد توافرت لدى العلماء فرصة الإمام والجمع بين علوم مختلفة، فنجد منهم من كان ملماً في علوم التفسير والقراءات والفقه والحديث والنحو والتاريخ والمنطق والحساب ... وغيرها من العلوم المختلفة، فيروى مثلاً عن ابن واصل الحموي أنه كان يشغل في حلقاته في ثلاثين علماً (٥)، ويروى عن جمال الدين السمرري العقيلي أن مصنفاته بلغت مائة، وأنها في نيف وعشرين علماً (٦).

(١) الوافي : ٣٠٨/٢١

(٢) الوافي : ٢٤٩/١٠

(٣) المصدر نفسه : ٤٦٦/٢١

(٤) البدر الطالع : ٤٧٧/١

(٥) نكت الهميان : ٢٥٠

(٦) إنباء الغمر : ١٥٠/١

ومن أشهر هذه المصنفات كتاب لشرف الدين التيفاشي، وكانت وفاته في القاهرة، ومصنفه في أربعة وعشرين مجلداً، ورتبه وبوبه وجمع فيه من كل شيء، وسماه : "فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب" (١)، ومنها مصنف لابن الصفار المارديني، يحتوي على آداب كثيرة، وسماه كتاب "أنس الملوك" (٢)، ومنها كذلك كتاب كبير لشمس الدين الخويي يحتوي على عشرين علماً (٣)، ومصنف آخر ألفه ابن قرصة الفيومي وسماه : "تنف المحاضرة"، يتضمن مسائل فقهية ونحوية ولغوية وأدبية (٤)، ومنها مؤلف كبير صنفه علاء الدين الكندي الوداعي، ويدعى "التذكرة الكندية" أو "الوداعية"، وهو في خمسين مجلداً فيه عدة فنون (٥)، ومنها كتاب "الكناش" للملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، وهو في مجلدات كثيرة، ويبدو لي من اسمه أنه يجمع علوماً متنوعة، كما كان الملك المؤيد نفسه ممن يجمعون ثقافة واسعة تضم علوماً وفنوناً كثيرة، ومنها كتاب "تهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري، وهو في الأدب والتاريخ، ويشتمل على ثلاثين مجلداً (٧)، ومنها كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لشهاب الدين بن فضل الله العمري، وهو في عشرين مجلداً (٨)، ولصلاح الدين الصفدي كتاب جامع سماه "التذكرة الصفدية" وهو في ثلاثين مجلداً، جمع فيه نواذر الأشعار ولطائف الأدبيات نظماً ونثراً (٩)، ولابن أبي حجلة كتاب سماه: "حاطب ليل" في مجلدات كثيرة، جمع فيه فوائد أدبية كالتذكرة (١٠).

وبعد، فهذه صورة للحركة العلمية في العصر المملوكي الأول، بحثت فيها في الأسباب والظواهر، وقد حاولت من خلالها إعطاء صورة مركزة وموجزة، وتبين لي من خلالها أن الحياة العلمية في هذا العصر كانت مشرقة، وأن مصر والشام كانتا في ذلك العصر زاخرتين بالعلم والعلماء والمصنفات في مختلف فنون العلم والمعرفة.

(١) الوافي : ٢٨٨/٨	(٢) فوات الوفيات : ١١٩/٣
(٣) فوات الوفيات : ٣١٣/٣	(٤) الوافي : ٢٥/٨
(٥) الوافي : ١٩٩/٢٢	(٦) الوافي : ١٧٣/٩
(٧) تذكرة النبيه : ٢٤٦/٢	
(٨) فوات الوفيات : ١٥٧/١	
(٩) كشف الظنون : ٣٨٨/١	
(١٠) إنباء الغمر : ١٠٨/١ ، كشف الظنون : ٦٢٤/١	

الفصل الأول

فنون النشر الفني واتجاهاته

- المحتوى -

- الكتابة الديوانية

- ازدهار فن الكتابة الديوانية في العصر المملوكي الأول.
- مفهوم الكتابة الديوانية وأنواعها:
- ١ - مكاتبات موجهة من الخلفاء إليهم.
- ٢ - مكاتبات السلاطين إلى الملوك الآخرين.
- ٣ - مكاتبات السلاطين إلى النواب والعمال والموظفين.
- أ - مكاتباتهم إلى أولياء عهودهم
- ب - مكاتباتهم إلى الأمراء والولاة.
- ٤ - المكاتبات الديوانية بمصطلح العصر.

- المكاتبات الإخوانية:

- الرسائل.
- الإجازات.
- الأسئلة والأجوبة.
- التقریظات.

- الرسائل الأدبية.

- الرسائل الملوكية: رسائل الغزو - رسائل الصيد والطرود - رسائل البندق.
- رسائل تجربة خاطر.
- المفاخرات والموازنات
- الرسائل العلمية.
- رسائل الوصف.
- رسائل المعارضات.

- فن الحكاية الأدبية:

- المقامات
- الحكاية الطويلة.
- خيال الظل

- الخطابة والوعظ والكتابة الدينية -

- الخطابة وأنواعها.
- المواعظ والنصائح والحكم والوصايا
- المناظرات والخلافات الدينية.

الكتابة الديوانية

ازدهار فن الكتابة الديوانية في العصر المملوكي الأول:

ازدهر فن الكتابة الديوانية في العصر المملوكي الأول ازدهاراً ملحوظاً، ولعل أحد أهم أسباب هذا الازدهار يعود إلى ديوان الإنشاء، وما فرضه من قيود وشروط على من يتخذ الكتابة صنعة له، فقد كان الوصول إلى العمل في هذا الديوان غاية يطمح إليها أدباء ذلك العصر، وقد صرح بذلك القلقشندي بقوله: "لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها، ومعيشة يتمسك بسببها، وأن الكتابة هي الحرفة التي لا يُلَقِّق بطالب العلم سواها، ولا يجوز له العُدول عنها إلى ما عداها. مع الجنوح فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها وتقديمها على كتابة الديونة وترشيحها". (١)

فقول القلقشندي هذا يفيد أن صنعة الكتابة يجب أن تكون الحرفة التي يسعى إليها طالب العلم، وقد ذكر القلقشندي نوعين من أنواع الكتابة شاعا في ذلك العصر: الأول: الكتابة الإنشائية في ذلك الديوان، وهي التي قصدتها القلقشندي في قوله هذا.

والثاني: كتابة الديونة: وقصد بها كتابة الأموال ودواوين الدولة الأخرى. وقد أراد القلقشندي من طلبة العلم أن يتوجهوا إلى النوع الأول من الكتابة، وأن يسعوا جاهدين من أجلها، ولذلك فقد اجتهد أدباء العصر في وضع أسس وقواعد هذه الصنعة، ورسموا للشادين في هذا المجال الطريق التي يجب عليهم أن يسلكوها، وحددوا لهم أنواع الثقافات التي يجب عليهم أن يلموا بها، فهذا شهاب الدين محمود الحلبي يدون ثمرة تجربته في العمل في دواوين الإنشاء لمن يتولى هذا الأمر من بنيه، أو لمن يرغب في ذلك، فيضع لهم قواعد وأصولها في كتابه: "حسن التوسل إلى صناعة الترسل"، وقد صرح بذلك في مقدمة كتابه بقوله: "فإنه لما جعل الله لي في كتابة الإنشاء رزقاً، باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت، وعاشرت من أجله أكابر أهلها وأئمتها من عاشرت، ورأيت من مذاهبهم في أساليبها ما رأيت، ورويت عنهم من قواعدها بالمجاورة والمحاورة ما رويت، واطلعت منها بكثرة المباشرة على طرائق، وألجنت فيها باختلاف الوقائع إلى مضائق أي مضائق، ونشأ لي من الولد وولد الولد من عاناها، وترشح لي من بني من لم

أرض له بالتلبس بصورتها دون التحلي بمعناها، فأحببت أن أضع لهم، ولمن يرغب في ذلك، في هذه الأوراق من فصولها قواعد، وأقيم لهم فيها على ما لا يسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد، ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها، ويعملوا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها. (١)

كما ألف ابن فضل الله العمري كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" راسماً لطلبة هذه الصناعة الطريق القويم، والمبادئ التي ينبغي لهم أن يسيروا عليها. (٢)

وكان القلقشندي قد وضع مقامة اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد، وما ينبغي أن يسكله من الجواد مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده، ومهدت قواعده (٣)، وقد جاء كتابه "صبح الأعشى" بأكمله شرحاً وتبياناً وتوضيحاً لما تضمنته هذه المقامة من قواعد، وما اشتملت عليه من أنواع الثقافات التي يجب على كاتب الإنشاء أن يلم بها. (٤)

وبما أن ديوان الإنشاء هو مقصد الأدباء، وهذهم الأسمى الذي يطمحون للوصول إليه، وبما أن طريقه شاق وشائك، فقد حرص كتاب العصر وأدباؤه على قطع هذه الطريق، وتنافسوا في ذلك، لما يتمتع به صاحب هذه الصناعة من شرف سام، فكتابة السر تأتي في الترتيب الثاني من جملة الوظائف الديوانية في دولة المماليك بعد الوزارة (٥)، كما كان كاتب ديوان الإنشاء أو رئيس الديوان يحظى بالجلوس في مكان قريب جداً من السلطان، فكان يجلس على يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، ثم وكيل بيت المال، ثم الناظر في الحسبة، ويجلس على يساره كاتب السر، وقدامه ناظر الجيش، وجماعة الموقعين تكمله حلقة دائرة. (٦)

فكما نلاحظ، فإن كاتب السر، كما كان يطلق على رئيس ديوان الإنشاء في العصر المملوكي، كان يحظى بمكانة رفيعة مقربة من السلطان، وفي معرفة الواجبات الموكولة إليه زيادة في بيان فضل صاحب هذه الوظيفة وشرفها، فقد كان ديوان الإنشاء في العصر المملوكي يضم ثلاثة أنواع من الوظائف كما بينها القلقشندي وهي:

(١) شهاب الدين الحلبي، حسن التوصل إلى صناعة الترسل، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، ص ٧١ - ٧٢

(٢) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، منشورات جامعة مؤتة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، ص ٣

(٣) صبح الأعشى: ١٢٧/١٤

(٤) انظر مقدمة كتاب صبح الأعشى: ٣٤ - ٣٦

(٥) انظر: المصدر السابق: ٣٠/٤

(٦) المصدر نفسه: ٤٦/٤

١ - كتابة السر: وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها، وتسفيرها، وتصريف المراسيم وروداً وصدرًا، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها، وفي وقت متأخر من العصر أصبح له الحق في التوقيع على ما كان الوزير يوقع عليه، مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى المراجعة فيه، كما كانت له مشاركة الدوا دار في كثير من الأمور السلطانية.

٢ - كتاب الدست: وهم الذين يجلسون في دار العدل، ويقرأون القصص على السلطان، ويوقعون عليها بأمره.

٣ - كتاب الدرج: وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن الأبواب الشريفة، وربما شاركهم كتاب الدست في ذلك. (١)

ولمعرفة خطر هذه الوظيفة ودقة شأنها ننظر في هذا الجزء مما يوصى به كاتب السر على لسان السلطان، يقول: "وليعلم أنه هو لدينا المستشار المؤتمن، والسفير الذي كل أحد بسفارته مرتين، وهو إذا كتب بنائنا، وإذا نطق لساننا، وإذا خاطب ملكاً بعيد المدى عنواننا، وإذا سدد رأيه في نحور الأعداء سهمنا المرسل وسناننا، فلينزل نفسه مكانها، ولينظر لدينا رتبته العلية إذا رأى مثل النجوم عيانها، فيراقب الله تعالى في هذه الرتبة، وليتوقّ لدينه، فإن الله لا يضيع عنده مقال حبة، وليخف سوء الحساب، وليتق الله ربه." (٢)

هذا، إذن، ما يكلف به صاحب هذا الديوان، مكلف أن يكون لسان السلطان إذا نطق، وبنانه إذا كتب، وسهمه المسدد إلى نحور أعدائه، ويكفيه ذلك شرفاً. وقد أدرك جماعة الوعاظ والفقهاء شدة خطر هذه الوظيفة، فبينوا له كيف يرضي الله سبحانه وتعالى، وكيف يكون شاكراً له على نعمته التي أنعم عليه بها، فمما قال تاج الدين السبكي في بيان واجبات صاحب هذه الوظيفة: "وظيفته التوقيع عن الملك، والاطلاع على أسرارها التي يكاتب بها، وعنه تصدر التوقيعات بالولايات والعزل، ومن حقه إنهاء القصص إلى الملك وتفهيمة إياها، فإن أكثر الملوك يعسر عليهم الفهم، ويؤتون من قبل ذلك، لا سيما إذا اشتبكت الأمور، وازدحمت الأشغال، فعلى كاتب السر التلطف في ذلك بحيث تصل إلى ذهن الملك، وإلا فمتى ظلم الملك واحداً في واقعة لعدم فهمه، وكان كاتب السر هو الذي قرأ عليه القصة كان شريكاً له، أو مستبدّاً عنه بالظلم، ومن حقه أن يكتم ما أسر إليه، كما قال الشاعر:

(١) صبح الأعشى: ٣٠/٤

(٢) التعريف: ١٥٧ - ١٥٨

ويكاتم الأسرار حتى إنه ليصونها عن أن تمر بخاطره

وأن يحترز من الكتابة في قطع الأرزاق، فقلما أفلح كاتبه." (١)

إذن، فواجب كاتب الإنشاء خطير، ومهمته عظيمة محاسب عليها في الدنيا أمام السلطان، وفي الآخرة أمام الله تعالى، ومن هنا فإن عليه أن يكون أهلاً لهذه المسؤولية، ولهذه المهمة، ويكفي أن نعرف ما ينبغي له أن يلم به من أنواع الثقافة، أن كتاب "صبح الأعشى" بأكمله في بيان ثقافة صاحب هذا الديوان وما يجب عليه معرفته.

وقد كان لديوان الإنشاء أثر واضح في الحياة الأدبية في هذا العصر، ففيه تخرج عدد كبير من كتاب العصر وأدبائه، وأخص بالذكر منهم مجموعة من الأسر التي كان لها أثر كبير في توجيه النثر وازدهاره في هذا العصر، أخص منهم أسرة ابن عبدالظاهر، وقد برز من هذه الأسرة: محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر سنة ٦٩٢هـ، (٢) وفتح الدين محمد بن عبدالله بن عبدالظاهر سنة ٦٩١هـ، (٣) وعلاء الدين علي بن محمد بن عبدالله بن عبدالظاهر سنة ٧١٧هـ، (٤)، وناصر الدين شافع بن علي بن عباس الكنائي سبط محيي الدين بن عبدالظاهر سنة ٧٣٧هـ. (٥)

ومن هذه الأسر أيضاً أسرة ابن الأثير، حيث ولي تاج الدين أحمد بن شرف الدين سعيد بن محمد الحلبي سنة ٦٩١هـ ديوان الإنشاء أيام الأشرف خليل، (٦) وقد ولي ديوان الإنشاء من أبنائه وأحفاده كل من: عماد الدين إسماعيل بن تاج الدين أحمد بن سعيد الحلبي سنة ٦٩٩هـ، (٧) وشرف الدين سعيد بن شمس الدين محمد بن سعيد بن الأثير سنة ٧٠١هـ. (٨) وشرف الدين محمد بن شمس الدين محمد بن سعيد بن الأثير سنة ٧٠٣هـ، (٩) وكمال الدين إسماعيل بن تاج الدين أحمد ابن سعيد بن الأثير. (١٠) وعلاء الدين علي بن تاج الدين أحمد بن شرف الدين سعيد بن شمس الدين محمد بن سعيد بن الأثير سنة ٧٣٠هـ، (١١) وجمال الدين عبدالله بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن سعيد بن أحمد بن الأثير سنة ٧٧٨هـ. (١٢)

(١) تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٢ مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المتنشي ببغداد، ١٣٦٧ - ١٩٤٨م

(٢) انظر: الوافي ٢٥٧/١٧

(٣) انظر: تذكرة النبیه ١٥٦/١

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٨٤/٢

(٥) انظر: فوات الوفيات: ٩٣/٢

(٦) انظر: تاريخ ابن الفرات: ١٤٧/٨

(٧) انظر: عقد الجمان: ٩٤/٤

(٨) انظر: تذكرة النبیه: ٢٤٣/١

(٩) انظر: عقد الجمان: ٣٣١/٤

(١٠) تذكرة النبیه: ١١٦/٢

(١١) المصدر نفسه: ٢٠٠/٢

(١٢) السلوك: ٢٩٧/٣

ومن الأسر العريقة في ديوان الإنشاء أسرة ابن فضل الله العمري، فقد ولي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمري سنة ٧١٧هـ ديوان الإنشاء لكل من الملك الأشرف خليل وحسام الدين لاجين والملك الناصر وسيف الدين تنكز. (١)، وقد ولي ديوان الإنشاء من ذويه كل من: محيي الدين يحيى بن فضل الله سنة ٧٣٨هـ، (٢) وبدر الدين محمد بن يحيى بن فضل الله سنة ٧٤٦هـ، (٣) وشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله سنة ٧٤٩هـ، (٤) وعلاء الدين علي بن يحيى سنة ٧٦٩ الذي باشر كتابة السر ثلاثين سنة ونيفاً، وخدم أحد عشر سلطاناً (٥)، كما وليها شهاب الدين أحمد بن علي بن فضل الله سنة ٧٧٧هـ. (٦)

ومن تلك الأسر التي كان لها أثر في ديوان الإنشاء أيضاً أسرة شهاب الدين محمود الحلبي سنة ٧٢٥هـ. (٧)، وقد عمل في ديوان الإنشاء من أبنائه وأحفاده كل من: شمس الدين محمد بن شهاب الدين محمود سنة ٧٢٧هـ. (٨). وشرف الدين بن شمس الدين محمد سنة ٧٤٤هـ، (٩)، وجمال الدين إبراهيم بن شهاب الدين محمود سنة ٧٦٠هـ. (١٠)، وكمال الدين محمد بن جمال الدين إبراهيم سنة ٧٦٩هـ. (١١) وتقي الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شهاب الدين محمود الحلبي سنة ٧٧٧هـ. (١٢)

وكانت أسرة ابن غانم المقدسي من الأسر العريقة في ديوان الإنشاء، حيث كان شمس الدين محمد بن سليمان بن حمائل بن علي المقدسي سنة ٦٩٩ ممن كتب في دواوين الإنشاء (١٣)، وقد باشرها من ولده كل من: شهاب الدين أحمد بن محمد بن سلمان سنة ٧٣٧هـ (١٤)، وبهاء الدين بن شمس الدين محمد سنة ٧٣٥هـ (١٥)، وعلاء الدين علي بن شمس الدين محمد سنة ٧٣٧هـ (١٦)، وجمال الدين عبدالله بن علاء الدين علي سنة ٧٤٤هـ. (١٣)

هذا وكان لديوان الإنشاء أثر كبير في تخريج جماعة كبيرة من الأدباء والكتاب في هذا العصر، يتعذر علينا في هذا المقام حصرهم.

(١) فوات الوفيات: ٤٢١/٢

(٢) تذكرة النبيه: ٢٩٠/٢

(٣) الوافي: ٢١١/٥

(٤) تذكرة النبيه: ١٢٥/٣

(٥) السلوك: ١٦٦/٣

(٦) إنباء الغمر: ١٦١/١

(٧) فوات الوفيات: ٥٦٤/٢

(٨) تذكرة النبيه: ١٧٩/٢

(٩) الوافي: ٢٥٩/١٠

(١٠) تذكرة النبيه: ٣٢٦/٣

(١١) إنباء الغمر: ١٨٨/١

(١٢) العبر: ٤٠١/٣

(١٣) فوات الوفيات: ١٢٧/١

(١٤) تذكرة النبيه: ٢٦٠/٢

(١٥) فوات الوفيات: ٧٨/٣

(١٦) تذكرة النبيه: ٥٤/٣

أما وقد تحدثنا عن ديوان الإنشاء وأثره في الكتابة في هذا العصر، فإنه أن لنا أن نتحدث عن الكتابة الديوانية وأنواعها في هذا العصر.

مفهوم الكتابة الديوانية وأنواعها:

الكتابة الديوانية هي: كل ما كان يصدر عن ديوان الإنشاء من مكاتبات، وكان أعلام هذه المكاتبات رؤساء الديوان أو ما ينوب مقامهم، حسب مكانة من توجه إليهم. وقد تنوعت هذه المكاتبات بحسب من توجه إليهم، فهناك مكاتبات موجهة من الخليفة، وكان أهم هذه المكاتبات عهود بالسلطنة إلى سلاطين المماليك، ثم هناك مكاتبات موجهة من سلاطين المماليك إلى الملوك الآخرين، ومكاتبات من السلاطين إلى الأمراء الآخرين داخل السلطنة، ومكاتبات أخرى موجهة من السلاطين أو على لسانهم إلى الموظفين والعمال في الدولة، وهي أيضا على أنواع حسب مراتب من توجه إليهم... بالإضافة إلى ما كان يرد إلى ديوان الإنشاء من الدواوين في الولايات والإمارات المختلفة في السلطنة. ولنبدأ الحديث بتفصيل هذه الأنواع المختلفة.

(١) مكاتبات موجهة من الخلفاء إليهم. (مكاتبات صادرة عن ديوان الخليفة وواردة إليه).

تنوعت المكاتبات الموجهة من الخلفاء في هذا العصر، ولعل أهمها:

المكاتبات التي كان الخلفاء يوجهونها إلى السلاطين بالعهد بالسلطنة، فمنذ أن بايع الظاهر بيبرس الخليفة المستنصر بالله أحمد بن الظاهر عام ٦٥٩هـ (١)، أصبحت السنة الجارية أن يصدر عن الخليفة عهد للسلطان بالسلطنة، وذلك لكي يكتسب السلطان المملوكي شرعية دينية تؤهله للحكم، وقد حرص سلاطين المماليك على ذلك، إذ بعد أن تمت مبايعة الخليفة، حرص الظاهر بيبرس على أن يقلده الخليفة شعار السلطنة، وعمل لذلك موكب فخم ومراسيم فخمة، وقرىء تقليد السلطنة على المنبر (٢)، ونظرا لأنها أول ما كتب عن الخلفاء في عهد المماليك، فسوف أحاول استعراض أهم الأفكار الواردة فيها:

فقد بدأها الكاتب بخطبة تضمنت حمد الله وشكره على نعمه، والثناء على الرسول الكريم، حيث انتقل إلى مدح الظاهر بيبرس وبيان ما أنعم به عليه، ثم قلده حكم الديار المصرية والشامية والبيكرية والحجازية واليمنية والفرازية، وما يتجدد من الفتوحات، وفوض إليه أمر جندها ورعاياها، وخلص بعد ذلك إلى مجموعة من الوصايا التي يوصيه بها، من بينها: عدم الغرور

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الفكر، بيروت: ص ٤٧٧

(٢) انظر: ذيل مرآة الزمان: ٤٤٣/١

بالدنيا، والعدل والإحسان، وحسن اختيار النواب والحكام من ذوي الرأي ومن أصحاب السيوف والأقلام، ثم يأمره بتقديم الجهاد وبيان فضله، ويوصيه بأن يرعى الجيش والأسطول الإسلامي، وأخيراً يدعو الله سبحانه وتعالى أن يمدّه بأسباب نصره، وأن يديم عليه شكر نعمه. (١)

وقد حرص سلاطين المماليك على هذا الأمر، فقلد الخليفة الحاكم بأمر الله الظاهر بيبرس تقليداً آخر بعد مبايعته له بالخلافة سنة ٦٦١هـ (٢)، وفي سنة ٦٧٨ تسلطن الملك المنصور قلاوون، وقد كتب له عن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس نسخة عهد بالسلطنة (٣). وكتب عنه عهد للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ في سلطنته الثانية بعد مقتل السلطان لأجين. (٤)

وفي عام ٧٠١هـ يتولى الخلافة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله (٥) فيصدر عنه تقليد وعهد بالسلطنة لركن الدين بيبرس الجاشنكير (٦).

كما يبايع الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المستكفي السلطان الملك المنصور أبو بكر بن الناصر محمد، ويصدر عنه عهد بالسلطنة (٦)، كما قلد هذا الخليفة الملك الكامل شعبان (٧)، ولم أعثر بعد ذلك على أن خلفاء بني العباس قد عهدوا إلى أحد من السلاطين حتى نهاية العصر المملوكي الأول.

هذه صورة موجزة لما صدر عن الخلفاء العباسيين في القاهرة من عهود إلى سلاطين المماليك، وكلها تجري على نسق واحد، حيث تبدأ بالخطبة التي قد تكثر فيها التحميدات فتصل إلى سبع، وقد تقتصر على واحدة (٨)، وكلما كثرت التحميدات في الخطب كان أفضل، لأنها تدل على عظم قدر النعمة (٩)، ثم يذكر بعد ذلك حميد أوصاف المعهود إليه، ويطنب فيها، ويثني عليه بما يليق بمقامه من الصفات الجليلة (١٠)، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مجموعة من الوصايا التي يوصي بها المعهود إليه، كأن يوصى بتقوى الله وإقامة حدوده، وأخذ مال الله بالحق وصرفها في الوجوه المستحقة، ثم يوصى بحسن النظر في اختيار الأمراء وحسن الرعاية للرعية، وجمع كلمة الأمة، ثم يوصى بالعدل والإحسان وإعمار الحرمين وبيت المقدس، ويوصى أيضاً بالجهاد

(١) انظر نص الخطبة في: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، الرياض ١٣٩٦، ١٩٧٦: ١٠١ - ١٠٢

(٢) تاريخ الخلفاء: ٤٤١

(٣) القلقشندي، مآثر الإنافة: ١٢٩/٣ - ١٣٧، صبح الأعشى ١٢٠/١٠ - ١٢٤

(٤) المصدر نفسه: ٦٠/٣ - ٧٦، صبح الأعشى: ٥٩/١٠ - ٦٨

(٥) انظر: تاريخ الخلفاء: ٤٤٥

(٦) انظر: صبح الأعشى: ٦٨/١٠ - ٧٤

(٧) حسن المحاضرة: ٦٥

(٨) تاريخ الخلفاء: ٤٦٠

(٩) صبح الأعشى: ٤٤/١٠

(١٠) التعريف: ١١٤

(١١) صبح الأعشى ٤٤/١٠، التعريف ١١٣ - ١١٤

وإعلاء كلمة الله والوقوف أمام الأعداء، ولا تهمل الوصية الجند، فيوصى برعايتهم وتأمين متطلباتهم، وكذلك الحرص على الأسطول الإسلامي وتقديم ما يلزم للنهوض به وتطويره. (١)

ومما يصدر عن الديوان، مما يخص الخليفة، عهدهم إلى أولياء العهد، ولا يخرج في صورته عما تقدم، حيث يفتتح بخطبة مناسبة للمقام. فيها حديث عن فضل الخلافة وأثرها، ثم يخص المعهود إليه بالخلافة، ويذكر شيئاً من فضائله وخصاله مما يؤهله لحمل هذا اللقب من بعده، ثم يختتم بالدعاء إلى الله بأن يجمع به كلمة الإسلام. (٢)

وندر ما يصدر عن ديوان الخليفة في العصر المملوكي الأول من مكاتبات لا تحمل هاتين الصورتين، ولعل ذلك يعود إلى تقييد السلاطين لهؤلاء الخلفاء، والحد من مسؤولياتهم وصلاحياتهم، فهم ليسوا إلا أداة يصل بها السلطان إلى ما يريد، وإعطاء حكمهم وسلطنتهم الشرعية الدينية، وهناك مكاتبة صدرت عن الخليفة العباسي المستكفي بالله إلى الملك المؤيد هزبر الدين داود صاحب اليمن من ملوك بني رسول في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون سنة ٧٠٧هـ، وذلك حين منع صاحب اليمن الهدية التي جرت العادة بحملها من ملوك اليمن إلى ملوك الديار المصرية، يهدده فيها، ويطالبه بالقيام معه في المساعدة له على التتار بمال يبعث به إليه، فكتب مفتتحاً بأية من القرآن الكريم: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"، من عبدالله وولي أبي الربيع سليمان، أما بعد حمد الله، مانح القلوب السليمة هداها، ومرشد العقول إلى أمر معادها ومبداها" ثم يذكر تخلف سلطان اليمن عن الوفاء بالتزاماته إلى مقر الخلافة، حيث جعل الخليفة من مصر مقراً له، وأن عليه أن يحمل إلى بيت المال المعمور ما تمشي به الجمال مشياً ونيداً، وأن عليه أن يخبر بحال دياره وبلاده، ثم يذكر بضعة أمور قصر فيها، ولذلك فإن عليه أن يقلع عما هو بصدده من الخيلاء والعجب، وأن ينتظم في سلك من استخلفه الخليفة، ويقدم الطاعة والولاء، ويبعث الأموال، ويجهز جيشاً ينضم تحت لواء الملك الناصر للقاء التتار، وإن رفض ذلك فإن الويل والدمار سيلحق به. (٣)

واضح أن هذه المكاتبة أيضاً مما يصب في خدمة سلاطين المماليك، وما يخدم أغراضهم.

(١) انظر: التعريف: ١٢١ - ١٢٢

(٢) مآثر الإنافة: ٣٣٧/٢ - ٣٣٨، وحسن المحاضرة: ٥٥ - ٥٦

(٣) انظر: عقد الجمان: ٤٦٤/٤ - ٤٦٨، صبح الأعشى: ٤١٠/٦ - ٤١٥. ومآثر الإنافة: ٢٥٦/٣ - ٢٦٤.

... هذا ما يصدر عن الخلفاء من مكاتبات، وأما ما يرد إليهم من مكاتبات، فإن له أساليبه التي تتفق ومكانة المرسل إليه، والكتابة إلى الخليفة لا تختلف صورتها وأسلوبها سواء أكانت من الملوك أم من السوقة، ولها أساليبها في الابتداء، "فمنها ما يفتح بأية من القرآن الكريم ثم بالسلام، ومنها ما يفتح بالسلام ابتداء، ومنها ما يفتح بالصلاة على الخليفة على مذهب من يرى جواز أفراد غير الأنبياء بالصلاة، ومنها ما يفتح بالدعاء لديوان الخلافة". (١)

وقد ذكر ابن فضل الله العمري أن ما استقر عليه الحال من المكاتب إلى ديوان الخلافة الشريفة أن يفتح بالديباجة التالية: "أدام الله أيام الديوان العزيز، المولوي السيدي النبوي الإمامي، الفلاني"، ثم الدعاء المعطوف والصدر بالتعظيم المألوف، وقد تفتح بغير ذلك الدعاء نحو: أدام الله تعالى سلطان... و"خلد الله سلطان..." أو غير ذلك. وأما الصدر فنحو: "العبد أو المملوك أو الخادم يقبل الأرض، أو العتبات أو غير ذلك، ويختتم الكتاب تارة بالدعاء، وتارة بـ"طالع أو أنهى" أو غيرهما مما فيه معنى الإنهاء، ويخاطب الخليفة في أثناء الكتاب بالديوان العزيز وبالمواقف المقدسة أو المشرفة، والأبواب الشريفة، والباب العزيز، والمقام الأشرف... وذلك بسبب الخضوع عن مخاطبة الخليفة نفسه، وتنزيل الخطاب منزلة من يخاطب الديوان". (٢)

وقد وجدت مكاتباً واحدة وردت إلى ديوان الخليفة في العصر المملوكي الأول، وهي تلك التي كتبها شهاب الدين بن فضل الله العمري إلى الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن المستكفي عن رماة البندق بالشام جواباً عما ورد عليه من كتابهم" (٣). وهذه المكاتب تجري وفق النسق والأسلوب السابق الذي رسمه ابن فضل الله في "التعريف".

تلك إذن، المكاتبات الموجهة من ديوان الخليفة العباسي في الديار المصرية، وكانت هذه المكاتبات في اتجاهين: الأول: عهد السلطنة إلى سلاطين المماليك، والثاني: عهد الخليفة إلى وليه من بعده. وقلمها خرجت المكاتبات عن هذين الاتجاهين إلا بما يخدم أحدهما، إذ كان هدف هذه المكاتبات إعطاء صفة الشرعية الدينية للحكم المملوكي، وأن السلطان المملوكي يفوض له الحكم من الخليفة. ونادر ما كان يرد إلى ديوان الخليفة أيضاً من مكاتبات إلا ما يخدم هذين الاتجاهين، أو لا يصطدم مع سلطة سلاطين المماليك.

(١) صبح الأعشى: ١٢٧/٧

(٢) انظر: التعريف: ٦ - ٧، وصبح الأعشى: ١٢٧/٧ - ١٢٨

(٣) انظر: صبح الأعشى: ١٤٠/٧ - ١٤٣، مآثر الإنافة: ٣٢٤/٣ - ٣٣١

(٢) مكاتبات سلاطين المماليك إلى الملوك الآخرين

شملت مكاتبات سلاطين المماليك مختلف الإمارات والممالك الإسلامية شرقاً وغرباً، كما اتسعت لتشمل الكثير من الإمارات والممالك غير المسلمة أيضاً، فمن الممالك الإسلامية التي شملتها مكاتبات سلاطين المماليك، سواء أكانت ترتبط بسلاطين المماليك بسبب أم لا: بلاد اليمن وبر العروة وتونس والأندلس ومالي والبرنو والكانم ودنقلة وماردين وحسن كيفا وبدليس وهراة وكيلان ونيف وإيران والسراي وخوارزم والقرم والقبحاق والهند والبلغار والصرب. أما الممالك غير المسلمة فهي: بلاد الروم والكرج وسيس ورودس وملوك الأندلس وغيرها. (١)

وكما هو واضح من ذكر هذه الممالك والإمارات، فإنها تمتد من الصين شرقاً إلى الأندلس والمحيط الأطلسي غرباً، ومن بحر قزوين وتركيا شمالاً إلى أواسط إفريقيا جنوباً، أي أن مكاتباتهم ورسولهم كانت تغطي قارات العالم القديم تقريباً.

أما أهم الموضوعات التي تغلب على هذه المكاتبات، فبالنسبة إلى الممالك الإسلامية، كانت هذه المكاتبات تشتمل على جملة من الموضوعات منها:

التهاني بالفتوحات، ونقل البشائر بالنصر وهزيمة الأعداء المخذولين، ومن ذلك ما كتب إلى الملك المظفر صاحب اليمن بعد انتصار عساكر المسلمين على التتار عام ٦٨٠هـ منها: "وكان المسلمون في سائر البلاد في تلك الساعة قد طرّقوا أبواب السماء، وجردوا سلاح الأنبياء من الدعاء، ولا مشهد ولا مسجد في تلك الساعة في القاهرة ومصر ودمشق والأقاليم إلا وصفوف المتجهدين في ذلك الوقت قائمة متزاحمة بالمناكب، كما صفوف المجاهدين ثابتة متعاقبة في تلك المواكب، فنظر الله تعالى إلى خلقه ببركة تلك الجباه الركن، وبمن قدم إلى الله به التوسل من الأطفال الرضع، فأرسل الله ملائكة النصر ترمي، وجرد سيوف الظفر تحز الرقاب وتدمي، وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سمع أن سلطاناً ثبته، واطلع الله على ما نواه من نصر الدين، فتقبله بقبول حسن وأنبته، وكان العدد في مائة ألف مقابل مقاتل مناضل، وصارم مصادم، ومكالب مكالم، فصبروا على مر العلقم، ورأوا أن الموت خير لهم من الهزائم، فلم يفلت منهم إلا من استمهل السيف ساعة من نهار، وفر بعضهم والموت يقول لهم: قل لن ينفعكم الفرار، وكان ذلك في يوم الخميس رابع عشر من رجب، ولم يفلت منهم إلا من تخطفته طيور الخيول في كل معبر ومضيق، ومن هوت به الريح في مكان سحق". (٢)

(١) انظر في ذلك: التعريف: ٢٧ - ٨٤.

(٢) تاريخ ابن الفرات: ٢٢٤/٧

هذا وكانت رسل سلاطين المماليك إلى سلاطين اليمن تترى، تحمل أخبار الجيوش الإسلامية، وتنقلاتها وتحركاتها وانتصاراتها على الأعداء من الصليبيين والتتار، ولم تقتصر هذه المكاتبات على نقل البشائر بالفتوحات فحسب، بل اشتملت على جملة من الأفكار أيضاً أهمها: وصف المدينة أو الحصن قبل تحريره، وما كان يسببه وجوده بأيدي الكفار من أذى للمسلمين، فمن ذلك ما ورد ضمن رسالة في وصف حصن الأكراد: "فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه على الممالك والحصون، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون، وغدا جاذباً بضيع الشام، وأخذاً بمخائق بلاد الإسلام، وشللاً في يد البلاد، وشجى في صدر العباد، تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسرة، وتتراع من سطوتها قلوب الجيوش الطائفة... تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون، ويصطفي كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون، كم شكت منه حماة تنثى بنكرها قلة الإنصاف، وكم خافته معرة وما منها من معرة خاف." (١)

كما نجد وصف المعركة وتدمير الحصون، ومن ذلك في وصف المعركة حول حصن الأكراد: "ونصبنا عليه عدة مجانيق حملت في شواهد الجبال على رؤوس الأبطال، فتغيظت السمهرية أن الذي تقوم به هذه تلك به لا تقوم، وأن ما منها إلا له من الأيدي والرؤوس مقام معلوم، وصار يرمي بها كل كمي مختلس، وأروع منتهس، وكل ليث غابة يحميها وتحميه... واشتد الأمر على الكفار فقاتلوا قتالاً أقض مضاجع الأسلحة، وأطار حجارة مجانيقهم بغير أجنحة." (٢)

كما نتبين في هذه المكاتبات وصفاً لأثر الفتح أو الانتصار على الأعداء، وبيان ما لحقه في نفوسهم من هلع ورعب، ومن ذلك: "والبلاد الفرثية قد غصت منها الأبصار، وخشعت القلوب، واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب، فهذه تود لو أكنتها البحار تحت جناح أمواجها، وهذه لو أسبلت الرياح والعواصف عليها ذيول عجاجها، وهذه لو اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وهذه لو خسف بها الثرى وعفت منها الآثار." (٣)

ونجد أيضاً وصفاً لجيش المسلمين وتحركاتهم، ومن ذلك قوله: "هذا وعساكر المسلمين مستوطنة

(١) صبح الأعشى: ٣٨٠/٧ - ٣٨١

(٢) المصدر نفسه: ٣٨١/٧

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٢/٧

في مواطنها، جاذبة عقبانها في ذكور ظباها، رابضة أسادها في غيل أفتاها، وما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لها ناسخة." (١)

إذن، فقد اشتملت رسائل التهاني بالفتوح على جملة من الموضوعات والأفكار منها وصف المدينة أو الحصن المفتوح، وبيان أثر هذا الفتح على الأعداء، وما ألحقه في نفوسهم من رعب، كما بينت وصف المعركة والحصار الذي سبق الفتح، بالإضافة إلى وصف تحركات الجيش الإسلامي.

ومن الموضوعات الأخرى التي تشيع في مكاتبات السلاطين إلى ملوك الإسلام الجواب عن استتصار الطرف الآخر على عدو له. ومن ذلك أن إمام الزيدية في اليمن كتب إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يشكو فيه من صاحب اليمن، ويعدد قبائحه، ويستصره بمدد، ويعد أنه إذا حضرت الجيوش الإسلامية فإنه سوف يقوم معها ويقوم العرب، وفي جواب الملك الناصر له يقول: "فقد سطرت وقد نهض إلى الخيل ملجمها، وبادر وضع السهام في الكنانن مزحمها، وكأنه بأول الأعنة، وأذان الجياد تفوق بين شطري وجهها الأسنة... ولا أرب لنا في استزادة بلاد وسع الله لنا نطاقها، وكثر بنا موارد أموالها، وقدر على أيدينا إنفاقها، وإنما القصد كله، والأرب جميعه كشف تلك الكرب، وتدارك ذلك الذماء الذي أوشك أو كرب." (٢)

فالخليفة يستجيب إلى الاستتصار، لا طمعاً في الأموال أو البلاد، إنما حقناً لدماء المسلمين، وإنهاء للفتنة التي قد تجر الكرب والمصائب على المسلمين.

وكان الحث على الجهاد والحض عليه، بطبيعة الحال، من أهم موضوعات هذه المكاتبات، ومن ذلك ما ورد في مكتبة بعث بها الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى صاحب اليمن، يقول موبخاً من اقتنى الأموال والسلاح لغير حرب العدو: "وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربي عن الحصر والحد، ويزيد على الإحصاء والعد، لا ينفق منها شيء في الجهاد، ولا يعد منها مصروف إلا بما لا تحمد عاقبته في المعاد، قد صد عنها جند الله الذين ينفقونها سرّاً وجهراً، ويستزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيوفهم قسراً وجهراً، وأبيحت لمن تسأبي الجهاد جانباً، ورضي باللهو صاحباً، واقتنى السلاح لغير يوم الباس، واعتنى بارتباط الجياد بطراً ورثاء الناس." ثم يذكر أن جيوش الإسلام تواجه أخطاراً وأعداء، يتربصون بها، من التتار

(١) صبح الأعشى: ٣٨٧/٧

(٢) المصدر نفسه: ٣٦٤/٧

والأرمن والفرنجة، وبين أن هذه الجيوش على استعداد تام للظفر بجيوش الأعداء لو توافر لها ما يلزم من إمداد بالأموال و"عانتهم على الكلف التي كلما أعد لها مال بدت حال يلانمها الإنفاق في سبيل الله، ويسألونك عن الجبال، وما هي قادمة إلينا يقدمها النصر، ويتقدمها من أسرى العدى وغنائمهم ما يربي عن الحصر." (١)

ومن الموضوعات التي كثرت حولها مكاتبات السلاطين الشكر على الهدايا المرسلة، ومن ذلك ما كتبه شهاب الدين بن فضل الله العمري إلى أحد ملوك اليمن: "صدرت إلى المقام العالي أعز الله جانبه تصل بوداده، وتصف حباً علق بفؤاده، وتبدي أن كتابه الكريم ورد جالبا لدر منه، جالبا لليمن من يمنه."، ثم يبين بعضاً من هذه الهدايا مع وصف دقيق جميل لها: "وأبدع في الهبة التي قدر مهديها، وقدر فيها من التحف ما لا يوجد إلا فيها، وجاء بكل ما يستعين به المرابط، وتهتز به الخزائن والمرابط، وتفتخر من الرماح بكل معتدل قاسط، وبما يردي العدى من أسننته بكل نجم هابط... ومن السيوف بما لا يطبع النهر في نصله، ولا يطمع البرق في مناضلة مثله، ولا يطمح الهلال أن يستقيم على شكله... ومن الخيل بما ترقص في أعنتها، وتفتخر على البدور بأن تدوس على أهلتها." ثم يصف ألوان هذه الخيول وصفاً شاعرياً دقيقاً من أدهم وأشهب وأحوى وكमित وأشقر... ثم يعدد بقية هذه الهدايا وأصفاً لها مثل: الفيل والزرافة والحصار الوحشي والنمر، وكذلك أنواع الطيب المفتخرة من صندل وكافور وعنبر، ثم يعبر عن تقبله لهذه الهدايا وشكره عليها، يقول: "فقبولت بالقبول هذه التحف، وأكرمت إكرام من لها عرف، وبها اعترف، وحمد سحابه الذي تسرعت مواطره، وبعثت من طرفها بالروض ما تنوء عنه أزاهره... والله تعالى يشكر هممه التي تعالت، وشيمه العلوية التي لأجلها المحامد قد توالى..." (٢)

وللموضوعات الشخصية في هذه المكاتبات دور بارز، حيث يعزي بعضهم بعضاً على حادث جلل أصيب به، فمن ذلك رسالة تعزية بعث بها صاحب اليمن إلى المنصور قلاوون يعزيه فيها ب وفاة ولد له، فيرد عليها بأخرى يذكر فيها خبر وصول رسالته يقول: "فشكرنا الله تعالى على ما أعطى، وحمدناه على ما أخذ، وما قلنا: هذا جزع قد انتبه، إلا وقلنا: هذا تثبت قد انتبذ، ولا توهمنا أن فلذة كبد قد اختطفت إلا وشاهدنا حولنا من ذريتنا والحمد لله فلذ، وأحسننا الاحتساب، ودخلت الملائكة علينا من كل باب، ووفانا الله عز وجل أجر الصابرين بغير حساب، ولنا والشكر لله صبر جميل، لا نأسف معه على فانت، ولا نأسى على مفقود." (٣)

(١) صبح الأعشى: ٣٧٥/٧ - ٣٧٦

(٢) المصدر نفسه: ٣٩٠/٧ - ٣٩١

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٣/٧

ومن المكاتبات الخارجية الصادرة عن سلاطين المماليك، وإن لم تكن موجهة إلى ملوك آخرين، رسالة موجهة إلى أكابر بلاد السند والهند والصين واليمن وتجار هذه البلاد وغيرها، يدعواهم فيها إلى القدوم إلى الديار المصرية والشامية من أجل التكسب، وذلك لأن فيها من العدل والأمن ما يمكنهم من الربح والكسب، ويأمنون فيها على أموالهم وتجارتهم ومنه: "قمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتجال إليها والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة، ربها غفور، وفي نعمة جزاؤها الشكر، وهل يجازى إلا الشكور، وفي سلامة في النفس والمال وسعادة تحلي الأموال، وتحول الآمال، ولهم منا كل ما يؤثره من معدلة، تجيب داعيها، ويحمد عيشهم دواعيها، وتبقى أموالهم على مخلفيهم، وتستخلصهم لأن يكونوا متفيين بظلالها وتصطفاهم" (١)

تلك، إذن، هي الموضوعات التي تضمنتها مكاتبات سلاطين المماليك إلى الممالك والإمارات الإسلامية. أما مكاتباتهم إلى الممالك والجهات غير الإسلامية، فكان معظمها إلى الأعداء الذين داهموا أرض العالم الإسلامي من فرنج ومغول، حيث تبودلت بين الطرفين المكاتبات التي نلمح منها صور الوعيد والتهديد، وأن جيوش أحد الطرفين قد انتصرت في معركة كذا وكذا، وأن عليهم أن يتعظوا مما حدث... كما أننا نجد فيها مكاتبات في جوانب الصلح أو طلب المهادنة.

ومن هذه المكاتبات، تلك التي تبودلت بين سلاطين المماليك والفرنجة في بلاد المسلمين، وتتضمن معاني التهديد والوعيد، وإخبارهم بانتصارات المسلمين المتعددة، وفتحهم لقلاعهم وحصونهم، وإنذارهم وتحذيرهم بعدم اللقاء، وأن يسلموا ما يملكون من أرض المسلمين وبلادهم، وإلا فالعاقبة عليهم. فبعد انتصار المسلمين وفتحهم لحصن الأكراد وحصن عكا، توجهت جيوش المسلمين إلى طرابلس، وقد كتب إلى أميرها ما يحمل المعاني السابقة التي أشرت إليها منها: "وقد علم القومص بيموند - جعله الله ممن ينظر لنفسه، ويفكر في عاقبة يومه من أمسه، نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنقات إليها في جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في جرها على مناكدة الأوحال ومكابدة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنقات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى، وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها ما كان عبر حبالها رشا... وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضه "الله أكبر"، ومن بقي من رجالك

أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح." (١)

ومثل ذلك ما كتب إلى صاحب أنطاكية بعد فتحها وتحريرها، وكان فر ونجا بنفسه قبل ذلك: "كان رحيلنا عنك من طرابلس في يوم الأربعاء رابع وعشرين شعبان، ونزلنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان. وفي حالة النزول خرجت عساكرك للمبارزة، فكسروا، وتناصروا فما نصرنا... وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها، فلو رأيت خيالك وهم صرعى تحت أرجل الخيل، وديارك والنهاية فيها تصول، والكآبة فيها تجول." (٢)

ومن المكاتبات التي تبودلت بين سلاطين المماليك وأمراء الفرنج وملوكهم مكاتبات الصلح والهدنة ونسخ الأيمان. ذلك أن المماليك كانوا قد تعرضوا لجملة من الأعداء، فلجأوا إلى مهادنة فريق ومحاربة آخر، من أجل أن تحين الفرصة الملائمة للانقضاض على الفئات الأخرى، وكانت سياستهم ناجحة إلى حد ما، فحينما دهم التتار بلاد المسلمين اضطروا المماليك إلى مهادنة الفرنج، حتى إذا تمكنوا من إضعاف شوكة التتار والحد من قوة هجومهم، انقضوا على الفرنج، واستأصلوا شأفتهم، وقضوا على ما تبقى منهم، وهذا نموذج من الصلح والهدنة الموقعة بين السلطان قلاوون وصاحب سيس، فقد كانت من صالح المسلمين، إذ تعهد صاحب سيس فيها أن يحمل كل سنة إلى خزينة المال ألف ألف درهم، وخمسين رأساً من الخيل والجياد والبغال، ومن التطاييق الحديد عشرة آلاف تطييقة بمساميرها، بالإضافة إلى الأقمشة وغيرها، ومما جاء في هذه الهدنة: "هذه الهدنة المباركة التي استقرت بين مولانا السلطان الملك المنصور السيد الأجل العالم العادل... قلاوون الصالحى قسيم أمير المؤمنين وولده وولي عهده الملك الصالح علاء الدين أبي الحسن علي، وولده المولى الملك الأشرف صلاح الدين والدنيا خليل... وبين الملك الجليل ليفون ابن الملك هيوم ملك الأرمن، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات... على بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وقلاعه وحصونه وممالكه ومذنه وأقاليمه ورعايا بلاده... وبلاد الملك ليفون المستقرة بيده أمنة مطمئنة على قواعد الصلح والمهادنة، هي ومن بها من رعيتيه وأمرائه وأجناده" (٣).

واضح أن مكاتبات الصلح والهدنة تغلب عليها اللغة العلمية البعيدة عن المجاز، بالإضافة إلى دقتها وخلوها تقريباً من السجع والبديع.

أما المكاتبات المتبادلة بين سلاطين المماليك وملوك التتار، فيمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول منها ما كان قبل دخول ملوك التتار في الإسلام، والثاني بعد دخولهم في الإسلام.

(١) الروض الزاهر: ٣٨٠ - ٣٨١

(٢) المصدر نفسه: ٣١٠ - ٣١٢

(٣) محيي الدين بن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦١، ص ٩٣ - ١٠٣

أما القسم الأول منها، فالمكاتبات التي تبودلت قبل دخول التتار في الإسلام، وتتمثل في هذه المكاتبات معاني الوعيد والتهديد، وأن التتار قد خربوا البلاد ومنها بغداد، وأنهم ألحقوا الدمار والقتل في البلاد والعباد، وليس أمام سلاطين المماليك إلا أن يذعنوا ويرضخوا مثل غيرهم من الملوك الآخرين، ويسلموا للتتار، ومن هذه الرسائل ما بعث به التتار إلى السلطان المملوكي قطز سنة ٦٥٨هـ إثر توجه التتار إلى مصر بعد احتلالهم لبغداد وتخريبها، ومنها قوله "وقد سمعتم أننا أخرجنا البلاد، وقتلنا العباد، فلکم منا الهرب، ولنا خلفکم الطلب، فما لکم من سیوفنا خلاص، وأنتم معنا في الأقفاص، خيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، فقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فمن طلب حربنا ندم، ومن تأخر عنا سلم." (١)

كما جرت مكاتبات بين الظاهر بيبرس وأبغا بن هولاکو سنة ٦٦٧هـ حينما حاول صاحب سبیس التوسط بين السلطان وبين بیت هولاکو في الصلح، وهذه المكاتبات تحمل المعاني السابقة. (٢)

أما القسم الثاني من المكاتبات التي تبودلت بين التتار والمماليك، فكانت بعد دخول ملوك التتار في الإسلام على يد السلطان أحمد بن أبغا بن هولاکو، (٣) حيث شرع السلطان أحمد سنة ٦٨١هـ بتجهيز الرسل إلى السلطان قلاوون يعلمه فيها بإسلامه، وأنه يريد للإسلام والمسلمين الخير، وحقن الدماء وتسكين الفتن الثائرة، ويعدد ما فعله لصالح الإسلام في بلاده، ويعرض على سلطان مصر "التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص، بحيث (٤) تلك الممالك والبلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف البائرة، وتحل الكافة أرض الهوينى وروض الهدون، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان، وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا، وأبلى عذرنا، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا." (٤)

واضح من هذه الرسالة أنها تتضمن معاني الوعيد والتهديد، وأن على سلطان مصر أن يعلن دخوله في الولاء والطاعة لهذا السلطان من أجل أن تضع الحرب أوزارها، مدعيًا الإسلام، ومتخذًا ذلك حجة وذريعة. فيرد السلطان على هذه الرسالة داحضا كل فكرة منها بقوة وحجة، رافضا هذا الأسلوب من طلب الود والصلح، يقول: "وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تتجلي ظلم الاختلاف، ويدرب بها من الخيرات والأحلاف، ويكون بها صلاح العالم، وانتظام شمل بني آدم، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد، وجنح إلى السلم، وما حاد ولا حاد... والصلح وإن كان سيد الأحكام، فلا بد من أمور تبني عليه قواعده، ويعلم من مدلوله فوائده... وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا"، فما على هذا النسق من الود ينسج، ولا على هذا السبيل ينهج." (٥)

(١) بدائع الزهور: ٣٠٤/١

(٢) انظر: الروض الزاهر: ٣٣٩ - ٣٤٢

(٣) انظر: تشریف الأيام والعصور: ٤

(٤) المصدر نفسه: ٦ - ١٠

(٥) صبح الأعشى: ٢٥٨/٧ - ٢٦٤، وانظر تشریف الأيام والعصور: ١٠ - ١٦

(٦) كلمة غير مقروءة.

وتستمر مكاتبات ملوك التتار بعرض الصلح على سلاطين المماليك، حاملة في طياتها نغمات التهديد والوعيد، ورد المماليك المدرك لغايات التتار وأهدافهم، وعدم الثقة بأقوالهم، وبخاصة أن أفعالهم تعارض أقوالهم. (١)

وتعود هذه المكاتبات في عهد السلطان محمود غازان المغولي سنة ٦٩٨هـ حاملة عروض الصلح وحقن الدماء بعد أن تعذر سفر التجار، وتوقف حال المعاييش لانقطاع البضائع والأسفار، وأن على سلطان مصر إن قبل بذلك أن "يسير هدية الديار المصرية لنعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النية." (٢) فيأتي رد السلطان قلاوون على ذلك بأنه إذا أراد الصلح حقيقة فإن عليه أن يرسل من خواص دولته رجلاً منهم يلتزم بما يتم الاتفاق معه. "وأما ما طلبه الملك من الهدية من الديار المصرية، فليس نبخل عليه، ومقداره عندنا أجل مقدار، وجميع ما يهدي إليه دون قدره، وإنما الواجب أن يهدي أولاً من استهدى، لنقابل هديته بأضعافها، ونتحقق صدق نيته وإخلاص سريرته." (٣)

ثم تعود هذه المكاتبات مرة ثالثة عام ٧٠٠هـ حاملة المعاني ذاتها، ولكن هذه المرة بصيغة أشد وأقوى، فيكون الرد بالأسلوب ذاته والصيغة نفسها. (٤)

ومن الموضوعات التي حملتها المكاتبات المتبادلة بين سلاطين المماليك وملوك التتار في عهود إسلامهم: نقل البشارة لملك التتار بانتصار جيوش المماليك عليهم، مهددين ومتوعدين لملوكهم، ومن ذلك ما كتب إلى السلطان محمود غازان بعد انتصار المسلمين عليهم في معركة شقحب (مرج الصفر) سنة ٧٠٢هـ، يقول: "قليل علم الملك محمود غازان جامع الوفود وحاشد الحشود، أنه قد كان ما جرى وقدر في القدم، فلا راد لما قضي وبرم وحكم... فلو رأيت أيها الملك عساكرك، إما ذليلاً أسيراً، أو جريحاً غفيراً، "وكان يوماً على الكافرين عسيراً"... لعضيت (٥) على يديك وقلت "يا ليتني كنت تراباً"... فان شئت أن تقف معنا على الكتاب المبين، "ولا تعثوا في الأرض مفسدين"، فنخرج أنا وأنت عن بغداد والعراق، ونتركها لخليفة رسول الله إلى يوم التلاق، وإن سولت لك نفسك بخلاف ذلك، فأنت لا محالة هالك، وعماً قليل يخلو منك العراق والعجم، وتندم حيث لا ينفعك الندم" (٦)

(١) تشریف الأيام والعصور: ٦٩ - ٧١

(٢) النجوم الزاهرة: ١٣٦/٨ - ١٣٩

(٣) المصدر نفسه: ١٤٢/٨ - ١٤٦

(٤) انظر في ذلك: عقد الجمان: ١٣٢/٤ - ١٣٧، ١٥٨ - ١٦٨، وصبح الأعشى: ٢٦٤/٧ - ٢٧٢

(٥) خطأ لغوي، وصوابه: لعضيت.

(٦) الدواداري، كنز الدرر: ١١٩/٩ - ١٢٢ "عقد الجمان: ٢٤٧/٤ - ٢٥١

ومن المكاتبات التي تبودلت بين سلاطين المماليك والأمراء والملوك الآخرين، مكاتبة من صاحب قبرص إلى السلطان الظاهر بيبرس، تخبر أن شواني مصر وصلت إلى قبرص، وكسرتها الريح، وأخذتها، وهي أحد عشر شينياً، فأمر السلطان بأن يكتب جوابه، ويتضمن النهي عن التفاخر والتبجح بشيء لم يكن لهم فيه سبب، إذ "ما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وأين من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح، وما النصر بالهوا مليح، إنما النصر بالسيف هو المليح". (١)

كما كانت هناك مكاتبات بين سلاطين المماليك وملوك الحبشة، تتصل بطلب مطارنة يقيمهم بطريرك كنيسة الإسكندرية، وذلك أنهم من معتقدي دين النصرانية لطائفة اليعاقبة، وكرسي البطريركية هي كنيسة الإسكندرية، (٢) فكانت المكاتبات تتم بينهم من أجل ذلك عن طريق ملك اليمن. (٣)

تلك، إذن، الموضوعات التي تناولتها مكاتبات سلاطين المماليك إلى الملوك الآخرين، فما البناء الفني الذي قامت عليه تلك المكاتبات؟

تكاد هذه المكاتبات تكون على نسق واحد تقريباً، لولا اختلاف مقام من ترسل إليه من الملوك والأمراء، إذ تختلف بداءات المكاتبات حسب ذلك، وقد فصل ذلك القلقشندي (٤) وابن فضل الله العمري (٥)، وهي في مجموعها تتضمن الديباجة التي يذكرها الكاتب في البداءة حسب مقام من ترسل إليه، ثم يأتي بعبدية، ثم بخطبة ثم يؤتى بالمقصود، وقد يؤتى في البداءة بمجموعة من الألقاب الطويلة الدقيقة جداً، حيث يفرقون بين استخدام ياء النسب أو عدم استخدامها، أما المكاتبات إلى ملوك الكفر، فغالباً ما تخلو من الألقاب أو الخطبة، إذ يؤتى بالمقصود مباشرة.

(١) الروض الزاهر: ٣٨٧ - ٣٨٨

(٢) انظر: صبح الأعشى: ٤١/٨

(٣) انظر: تاريخ ابن الفرات: ٢٤/٧ - ٢٥

(٤) انظر: صبح الأعشى: ٢٥٦/٧ - ٣٩٦

(٥) انظر: التعريف: ٢٩ - ٨٥

(٣) مكاتبات سلاطين المماليك إلى نوابهم وعمالهم وموظفيهم (مكاتبات داخلية)

تضمنت مكاتبات سلاطين المماليك إلى نوابهم وعمالهم مختلف القضايا الداخلية التي تخص المملكة أو الدولة، ولما كانت موضوعات هذه الرسائل متشعبة، فقد أثرت تقسيمها إلى فروع ليسهل الإحاطة بها:

(أ) مكاتبات السلاطين إلى أولياء عهدهم

اختلفت تسمية هذه المكاتبات عند كتاب العصر، فمنهم من يطلق عليها عهوداً، ومنهم من يطلق عليها تقليداً، إذ تطلق عليها كتب التاريخ تقاليد، بينما يفرق ابن فضل الله العمري بين العهود والتقاليد، فالعهود لا تكون إلا عن الخلفاء أو الملوك، أما التقاليد فلا تكون إلا لكفلاء الملك، كأكابر النواب والوزراء ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة. (١)

وممن أطلق عليها تقاليد ابن عبدالظاهر في "سيرته" إذ يقول: "وكتب مؤلف السيرة المولى محيي الدين التقليد بتفويض عهد السلطنة له" (٢) يقصد للملك الظاهر بيبرس.

ويبدو لي أن المصطلح الذي استخدم في لغة ذلك العصر هو "العهد"، ولكن المؤرخين لم يكونوا يلتزمون بهذه المصطلحات الدقيقة غالباً. (٣)

أما الطريقة التي سلكتها هذه المكاتبات، فتكاد تكون واحدة في ذلك العصر مع اختلاف بسيط، فتفتتح بالخطبة التي تختلف موضوعاتها حسب مقتضيات الحاجة والظروف، متضمنة التحميدات والثناء والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يؤتى بالبعدية التي يحاول الكاتب من خلالها تعليل تعيين ولي للعهد، ثم يذكر الصفات الحميدة التي يتمتع بها من يعهد إليه، وفي نهاية العهد يذكر جملة من الوصايا التي يوصي بها من يعهد له، خاتماً العهد بالدعاء له.

ولنأخذ نموذجاً لهذه المكاتبات، مما كتبه محيي الدين بن عبدالظاهر عن المنصور قلاوون حين عهد لولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، حيث بدأ بالتحميد المناسب للمقام، فقال: "الحمد لله الذي لم يزل له السمع والطاعة فيما أمر، والرضا والشكر فيما هدم من الأعمار وما عمر، والتفويض في التعويض إن غابت الشمس بقي القمر، نحمده على أن جعل سلطاننا ثابت الأركان، كل روضة من رياضه ذات أفنان، لا ترعزه ريح عقيم، ولا يخرج رزه عظيم عن الرضا والتسليم، ولا يُعْتَبَط من حملته كريم إلا ويغتبط من أسرته بكريم" (٤)

(١) التعريف: ١١٢، وانظر: صبح الأعشى ١٠/١٦٧

(٢) الروض الزاهر: ٢٠٤

(٣) انظر مثلاً: ذيل مرآة الزمان: ٤/٤٧، عقد الجمان: ١/٣٧٨

(٤) صبح الأعشى: ١٠/١٧٠

ثم يأتي الكاتب بالبعدية، فيقول: "وبعد، فإن من ألطاف الله تعالى بعباده، واكتتاف عواطفه ببلاده، أن جعلنا كلما وهي للملك ركن شديد شيدنا ركناً عوضه، وكلما اعترضت للمقادير جملة بدلنا آية مكان آية، وتناسينا - تجلداً - تلك الجملة المعترضة، فلم يحوج اليوم لأمره، وإن كان حميداً، ولا الغارس لغرسه وإن كان ثمره ياتعاً وظله مديداً..." (١)

ثم يفصل القول في بيان مزايا الأشرف خليل وصفاته الحميدة، فيقول: "وهو الذي بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف، وعلى الرعايا الأعطف وبالرعايا الأرف، وهو الذي ما برح النصر يتنسم من مهاب تأميلة الفلاح، ويتبسم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح... والذي كم جلا ببهي جبينه من بهيم، وكم غدا الملك بحسن روايته ويمن آرائه بهيم..." (٢) ثم يذكر الكاتب سبب تفويضه بولاية العهد، فيقول: "ولما تحتم من تفويض أمر الملك إليه ما كان لوقته المعلوم قد تأخر، وتحين حينه فكملة زيادة كزيادة الهلال حتى بادر تمامه فأبدر، اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور، والمراقبة لمصالح الأمور، والمصابقة لمناهج البلاد والثغور، والمقاربة من فواتح كل أمر ميسور، أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظمة..." (٣). ثم يوصيه بمجموعة من الوصايا المناسبة: "وأما الوصايا، فأنت يا ولدنا الملك الأشرف أعزك الله - بها الدرب، ولسماع شدوها وحدوها الطرب الذي للغولا يضطرب، فعليك بتقوى الله، عز وجل، فإنها ملاك سدادك وهلاك أضدادك... والشرع الشريف فهو قانون الحق المتبع ومأمون الأمر المستمع... والعدل فهو مثمر غروس الأموال، ومعمر بيوت الرجاء والرجال..." (٤) فهو يوصيه بتقوى الله واتباع الشرع الشريف والعدل ومضاعفة الخير وحسن الاعتناء بالثغور، ورعاية جيوش الإسلام والأسطول الحربي... (٥) الخ.

وفي ختام هذا العهد يدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل استخلافه هذا للمتقين إماماً، وللدن قواماً، وللمجاهدين اعتصاماً، وللمعتدين انفصلاً، ويطفىء بمياه سيوفه نار كل خطب، حتى يصبح كما أصبحت نار سميح صلى الله عليه وسلم برداً وسلاماً. (٦)

(١) صبح الأعشى: ١٧١/١٠

(٢) المصدر نفسه: ١٧٢/١٠

(٣) المصدر نفسه: ١٧٢/١٠

(٤) المصدر نفسه: ١٧٤/١٠

(٥) انظر: المصدر نفسه: ١٧٤/١٠ - ١٧٦

(٦) المصدر نفسه: ١٧٧/١٠

(٥) مكاتبات السلاطين إلى الأمراء والولاة أو العكس

لا أريد في هذا المقام الخوض في أنواع الوظائف التي سادت في دولة المماليك، وذلك لكثرتها، ولأن مقامها ليس هنا، وعلى أية حال فقد تعددت هذه الوظائف، وكثرت - تبعاً لذلك - مكاتبات السلاطين إلى أصحاب هذه الوظائف، كما تنوعت موضوعات هذه المكاتبات، وعلى العموم، كانت موضوعاتها في اتجاهين: الأول ذو طبيعة عامة، والثاني ذو طبيعة خاصة.

أما الأول منها: فيتعلق بموضوع الجهاد والحروب، وما ترتب عليها من تهنة بالانتصارات وبشرى بالفتوح، وما اقتضته بعض أمور الدولة التنظيمية من إبطال بعض العادات أو تنظيم أمور بعض الوظائف.

أما الثاني: فهو ذو طبيعة خاصة ترتبط بالأمير ذاته، وتتعلق بخلافات داخلية، أو بتعيينه في وظيفة معينة، أو عفو السلطان عنه، وهذه المكاتبات تعكس لنا الخلافات التي كانت تدور بين هؤلاء الأمراء، وبعضها يختص بتعيين الأمير في وظيفة معينة، وتوجيه السلطان له، كما تتضمن أيضاً إنعام السلطان على ممالكه بخلع وخيرات كثيرة. أما مكاتبات الأمراء إلى السلاطين، فكانت تشتمل على تهنة السلطان بمناسبة معينة، وشكره على هدية خاصة، وسوف أحاول تفصيل ذلك.

أما الخلافات التي كانت تدور بين الأمراء، فتمثلت على وجه الخصوص بصورة واضحة في فتنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إذ إنه عندما أثر اللجوء إلى الكرك، كتب كتاباً يخبر الأمراء، وقد جاء فيه: "حرس الله تعالى نعمة الجنابين العالين الكبيرين المجاهدين، وفقهما الله توفيق العارفين، أما بعد، فقد طلعت إلى قلعة الكرك، وهي من بعض قلاعي وملك، وقد عولت على الإقامة فيها، فإن كنتم ممالكي ومماليك أبي، فأطيعوا نائبي، ولا تخالفوه في أمر من الأمور، ولا تعملوا شيئاً حتى تشاوروني، فأنا ما أريد لكم إلا الخير، وما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لي وأقل كلفة، وإن كنتم تسمعون مني فأنا متوكل على الله والسلام." (١)

وعندما وصل الكتاب إلى الأمراء، قرأوه وتشاوروا بينهم، ثم أرسلوا كتاباً إلى الملك الناصر، جاء فيه أن عليه الحضور إلى القاهرة لمزاولة الحكم، وإن لم يحضر فإن الملك سوف يخرج من يده، (٢) ولكنه أثر عدم العودة، مما أدى إلى اختيار المماليك لبيبرس الجاشنكير.

(١) النجوم الزاهرة: ١٨٠/٨

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٨٠/٨

وتجري مكاتبات بين السلطان الناصر، وبعض الأمراء الذين بقوا على ولايتهم له كنائب حلب ونائب حماة ونائب طرابلس، يعلن فيها هؤلاء عن ولايتهم وتأيدهم له، فيحاول السلطان طمأنيتهم، وأنه سيعيد ترتيب الأمور، بل إنه يهادن بيبيرس الجاشنكير، ويكتب له كتاباً بذلك يقول فيه: "المملوك محمد بن قلاوون يقبل اليد العالية المولوية السلطانية المظفرية أسبغ الله ظلها، ورفع قدرها ومحلها." (١)

ويلاحظ على هذه المكاتبات صدورها بعفوية، وخلوها من الديباجة المتبعة في المكاتبات الأخرى، وذلك لأنها لم تكن تصدر عن ديوان الإنشاء، بل كانت تصف حالة سريعة، وربما كتبها السلطان نفسه، أو بعض أعوانه، فلا مجال فيها للتصنع والتكلف.

أما الموضوع الثاني الذي نتناوله هذه المكاتبات، فكان خاصاً بالتعيينات، حيث كانت هذه المكاتبات أشبه بكتب التكليف التي تصدر عن الديوان الملكي أو الجمهوري في أيامنا هذه إلى رؤساء الوزارات، ترسم لهم السياسة، وتحدد لهم خطة يهجون عليها، ويسرون وفقها خلال فترة حكمهم، فقد تقدم ما قلناه عن تعدد الوظائف في ذلك العصر، فافتضى إشغال هذه المناصب صدور مكاتبات خاصة لأرباب هذه الوظائف، سارت كلها تقريباً على نسق واحد مع اختلاف بسيط في بعض الشكليات والمظاهر والألقاب، حيث تضمنت خطبة افتتاحية مناسبة للمنصب، ثم ما يتوافر في هذا الشخص المعني من صفات تجعله أهلاً لتوليها، ثم يختم المكاتبه بوصية له تمثل منهجاً يسير عليه... (٢)

ولما كان دأب أمراء الممالك العمل على خلق الفتن وإثارتها، فإن السلطان عندما كان يظفر بخصومه منهم، كان يعمد إلى معاقبة بعضهم، ويعفو عن البعض الآخر، فتصدر مكاتبات عن السلطان تعكس هذا الجانب، وتبين أسبابه، مثال ذلك ما صدر عن السلطان ناصر الدين الحسن ابن الناصر عام ٧٦١هـ من عفو عن أحد أمرائه، فكتب له بأن يكون طرخاناً، (٣) يقيم حيث شاء من البلاد الإسلامية، ومنه: "أما بعد فإن من شأن أيامنا الشريفة أن تصفو وتصفح، وتمن بالعفو وتمنح، وتجنّي ثمر المنى لأمله وتجنح، وتلمع بمعروفها المعروف وتلمح، وتشعر في إثلاج الصدور بالاقبال وتشرح، وتمسك في اكتساب الأجر بقوله تعالى:

(١) النجوم الزاهرة: ٢٥٦/٨

(٢) انظر من هذه المكاتبات على سبيل المثال: صبح الأعشى: ١٣٣/١١.

وانظر فيما يوصى به كل صاحب وظيفة: التعريف: ١٢٢ - ٢٠٧

(٣) الطرخان: هو الأمير المتقاعد، وكان يمنح مبلغاً معلوماً من المال شبيهاً بالموظف أو العسكري المتقاعد. (صبح الأعشى: ٥١/١ - ٥٢)

"فمن عفا وأصلح..." (١) وهكذا تتضمن هذا النوع من المكاتبات أسباب العفو، شارحة ظروفه وملايساته، وما كان اقترفه من ذنب، وأن عفو السلطان أكبر من ذنبه، ولذلك اقتضى العفو عنه.

وأما الموضوع الرابع مما تضمنته هذه المكاتبات فهو: توجيهات إلى الأمراء باتباع أمور معينة، إن أرادوا النجاح في عملهم، وقد سميت هذه المكاتبات "تذكرة"، ومنها تذكرة كتبت عن المنصور قلاوون، يعتمد عليها الأميران سيف الدين وعزالدين عند توجيههما إلى قلعة صرخد عام ٦٧٩هـ، حيث يوصيهما بالعدل، وسلوك منهج الحق، واعتماد ما يرضي الله، كما يوصيهما بتقوى الله في العمل، ثم تضع التذكرة لهما خطة عمل بما يجب عليهما فعله، حيث يتقدمان بكشف أسرار القلعة وأبراجها وأبوابها، وما يحتاج منها إلى إصلاح أو ترميم أو إعمار، فيجتهدان في ذلك، ثم يتقدمان بعرض حواصل القلعة، ويحققان ما بها من الأموال والغلال والذخائر، ويعملان بذلك أوراقاً، ويسيران نسختها إلى السلطان... (٢) كما كتبت تذكرة أخرى إلى نائب السلطنة زين الدين كتبها سنة ٦٧٩هـ يعتمد عليها في مهمات الديار المصرية وأصولها ومصالحها، وما يرتب بها. (٣)

وتتميز هذه المكاتبات عن غيرها بخلوها من المقدمات والديباجة المعهودة في المكاتبات الأخرى، إذ تبدأ بعرض القضايا التي يجب على من تكتب إليه تنفيذها والالتزام بها، مقدما لكل قضية بكلمة: "فصل" مثال ذلك:

"فصل، الشرع الشريف: يشد من حكامه وقضاته في تنفيذ قضاياه وتعريف أحكامه، والشد منه في نقضه وإبرامه. "فصل"، العدل والإنصاف والحق، يعتمد ذلك في جميع المملكة الشريفة مدنها وقراها وأعمالها وولاياتها، بحيث يشمل جميع الرعايا من خاص وعام وبعيد وقريب..." (٣)

كما تتميز هذه المكاتبات غالباً بابتعادها عن الصنعة، وذلك لارتباطها بمهام رسمية خاصة.

والموضوع الخامس الذي تتضمنه هذه المكاتبات هو إنعام السلطان على ممالئكه وجوه الإنعام المختلفة كافة، من إقطاعات وعطايا وهدايا وخلع وخيول وصقور وشواهين وسلاح وغيرها، وكان يصدر في ذلك من المكاتبات ما يسمى في ذلك الوقت بالمنشور، إذ تبدأ المكاتبة بخطبة افتتاحية مناسبة، وقد تخلو منها مقتصرأ على قوله:

(١) تذكرة النبيه: ٢٣١/٣

(٢) انظر: تاريخ ابن الفرات: ١٩٦/٧ - ٢٠٠

(٣) المصدر نفسه: ١٩٦/٧

أما بعد حمد الله ... ثم يبين الأسباب التي جعلت السلطان ينعم عليه بهذه العطايا والإقطاعات، ثم يبين هذه العطايا، ويحددها، مثال ذلك ما صدر عن المنصور قلاوون وإنعامه على بيبرس الدوادر بخمسة عشر طواشياً: "أما بعد حمد الله الذي علم بالقلم، وجعله مؤاخي السيف في مهمات الأمم، وطاول به السميري، فنصيب هذا لرفع العلم وهذا لجز العلم... فإنه لما كان المجلس السامي الأميري بيبرس الدوادر المنصوري ممن رتبته النعماء في حبرها، وصرفته الآلاء في نهيقها وأمرها، وأنشأته المملكة تحت جناحها، ورتبته السلطنة في حمل ما هو أفخر وأفخم من حمل سلاحها... فلذلك خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي... أن يجري في إقطاعه ما رسم الآن من الإقطاع لخاصته، ومن الأجناد الجياد المعروفين بالخدمة بالبرك التام والعدة الكاملة..." (١)

كما كانت تصدر عن السلاطين مكاتبات بالبشارة بمناسبات معينة، كأن يرزق بولد، أو بوفاء النيل، أو المعاناة من مرض، أو بالقدوم من السفر، أو بالركوب في المواسم والأعياد... وكان الأمراء عادة يردون على هذه المكاتبات بتهنئة السلطان بهذه المناسبات... (٢)

تلك هي المكاتبات التي تصدر عن السلاطين، والتي كانت تحمل دلالة خاصة، أما النوع الثاني من المكاتبات، فهي تلك التي تحمل دلالة عامة، ولعل من أهم موضوعاتها التهاني بالفتوح، أو نقل البشري بالانتصارات، فعندما يكون السلطان على رأس الجيش الغازي تصدر عنه مكاتبات البشائر بهذا الانتصار أو الفتح إلى أمرائه، وعندما يقود أحد الأمراء الجيش، فإنه يكتب إلى السلطان يخبره ويهنئه بالفتح أو النصر، وهذه المكاتبات كثيرة، وذلك لكثرة المعارك التي خاضها المماليك، وقد كان النصر حليفهم في كثير منها، ومن هذه المكاتبات على سبيل المثال ما كتب عن السلطان قلاوون إلى أحد الأمراء يبشره بفتح حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ، يقول: "وأحل البشائر بساحته، وسره باستيلائنا على كل ثغر واستباحته، وأسمعه من أنبائنا الجميلة ما يعجز عن التعبير عنه لسان القلم على فصاحته..." (٣) ويبدو أن رسائل البشارة بالانتصارات، والتهاني بالفتوح كانت تخلو من المقدمات المعهودة في المكاتبات، إذ كثيراً ما كانت تفتتح بمثل هذه المقدمات: "جدد الله البشائر الواردة على المجلس السامي القضائي،

(١) عقد الجمان: ٣٢٣/٢ - ٣٢٦

(٢) صبح الأعشى: ٣٧٢/٨ - ٣٧٨

(٣) ذيل مرآة الزمان: ٢٤٤/٤ - ٢٤٥

وأسره بما أسمعته." (١) ومثل: "سر الله خاطر المجلس السامي، وأطلع الله عليه وجوه البشائر سوا فر... (٢)

ومثل: "هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، أسمعته الله من البشائر أجملها، ومن التهاني أشملها.. (٣) إلى غير ذلك من المقدمات التي تحمل معاني الدعوة باستمرار سماع هذه الأخبار السارة وديمومتها...

وهكذا فقد خلت رسائل البشارة بالفتوح من المقدمات المعهودة في المكاتبات الديوانية. ويبدو أن طبيعة الموضوع لا تسمح بمثل هذه المقدمات، فالذي يريد أن ينقل خبراً مفرحاً لا وقت لديه للتقديم، بل يسارع إلى أن يزف الخبر، ولكن الكاتب يأتي بمقدمة موجزة توحى بهذه البشارة، كما أن المتلقي غالباً ما يكون متلهفاً لمعرفة النتيجة، وفي المقابل فإن الكاتب يطنب في ذكر تفاصيل حركة الجيش حتى وصوله إلى مكان المعركة، فمن ذلك: "وتسري الكتائب، وتشرع الأسنة، وتبدو ضمانات النفوس المستكنة، وأخلصنا النية لله عز وجل في نصرة الإسلام، وتقاضينا ديونه على الأنام، وجعلنا منهم مقدماً على ما عداه، وصممنا على جهاد من نازعه رداء ملكه وعاداه، تركنا حظ النفس بمعزل، وكان في عزمنا أن نرتاد منزلاً فخرجنا عن ذلك المنزل." (٣)

وهكذا تستمر رحلة الجيش إلى أن يصل مكان المعركة وهو "حصن المرقب"، يقول: "إلى أن وافينا المرقب، وهي المقصد ومناخ ركائب العزم الذي هو لها مرصد، فكان محط رحالنا، وإليها مطارح آمالنا"، ثم يصف استعدادات الجيش لخوض المعركة، فيقول: "ونحن نعمل على الأمر الذي يلف العماء، ويعيرهم أذنًا سمیعة لا أذنًا صماء، ونرتاد منهم أمكنة الفرص، ونوحى لهم جمالة القنص..." حتى إذا اكتملت الاستعدادات، وبدأ النزال، وحمي وطيس المعركة، أحسن الكتاب في وصفها، وكان الوصف دقيقاً حتى يخيل للقراء أنه في وسطها، ويخوض غمراتها، يقول: "فلما رجمتهم الظنون، وتمخضت لهم المنون، وثبنا لهم وثبة الليث المغضب، وأوردناهم بأسيا فانا ماء لا ينزح قلبيه ولا ينضب، وما وردنا حتى قامت جيوش الجو على ساق، وجاءت بغوث الغمام من الآفاق... فنزلناها ونازلناها، وأمطنا عجب المهابة وأزلناها، وأحدقنا بها إحداق السوار، وأحطنا بها كما يحيط باليد السوار.. ويستمر في هذا الوصف الدقيق، حتى تتكشف المعركة عن انتصار جيوش المسلمين "إلى أن أقوت ربوعهم، وصبت على مثل جمر الغضا ضلوعهم، وأخذناهم أخذاً وبيلاً، وأوردناهم مهاوي المهالك وساءت سيلاً، وحشرت صفقة غدوهم وترواحهم، وتحللت أعقد أجسامهم من أرواحهم، ووجدوا من أنفسهم حداً مكياً وجداً عثوراً، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً"، وملكانها بالأمان، وهو في المعنى

(١) ذيل مرآة الزمان: ٣١٩/٢

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٨/٣

(٣) المصدر نفسه: ٣٧٥/٢

بالسيف، وهجمناها هجوم الطيف". وهكذا يفتح الحصن "والثغر قد جدد على أيدينا إسلامه، وأبدلنا بعد قطوبه ابتسامه، والدهر لمن عادانا عادى، ولمن ولانا والى". (١)

ويكتب الأمراء لسلطينهم مهنين بفتوحهم وانتصاراتهم، فهذا نائب السلطنة بالشام حسام الدين لاجين يكتب إلى الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان المنصور قلاوون يهنئه بفتح المرقب، يقول: "لا زالت آيات النصر تتلى على سمعه من صحف البشائر، ونفائس الظفر تجلى على سره في أسعد طالع وأيمن طائر". (٢) وهكذا تمضي هذه المكاتبة مبينة تحرك الجيش واستعداداته للقاء، ثم يصف المعركة وصفاً دقيقاً، إلى أن تتجلي عن نصره جيش المسلمين وفتح الحصن.

ولقد حظي هذا الموضوع باهتمام الأدباء والكتاب، فعمدوا إلى تنميق رسائل ومكاتبات أشبه بمقالات أدبية في وصف المعارك والانتصارات، ولا غرو في ذلك، فقد كان هذا العصر عصر حروب مع أعداء الإسلام، حيث كان النصر حليف جيوش المسلمين في كثير منها، ففتحت هذه الانتصارات القرائح، ونشطت العقول، وأسالت الأقلام، فأبدعت في وصفها، وتفننت في الشاء على قادتها، ومن ذلك ما كتبه علاء الدين علي بن عبدالظاهر في خبر وقعة "مرج الصفر" التي جرت بين المسلمين بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون والمغول بقيادة غازان سنة ٧٠٢هـ، وهو بعنوان: "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر" والكتاب يجري وفق النسق السابق مع زيادة في ذكر أدق التفاصيل والإطالة فيها، والتأني والتأنق الأسلوبي، إلا أن هذا الكتاب قد افتتح بخطبة تضمنت حمد الله وشكره على هذه النعمة، ثم الشهادتين، والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولعل حالة التأني والتروي التي يتمتع بها الكاتب قد جعلته يتأنق في صياغة مقدمة لهذا الكتاب، فهو ليس رسالة يبعثها إلى أمير أو شخص، إنما هو أشبه بمقال أدبي يكتب في هذه المعركة، ومنه هذا الجزء الذي يصف المعركة، يقول: "وقامت الحرب على ساق، والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق، وأتى العدو جملة واحدة، وحمل حملة أمست بالنفوس جايدة، ونكب على الميسرة، وقصد الميمنة والقلب، وهاله جمع الإسلام، فأراد أن يخلص بانحياز من شدة ذلك الكرب، واستمرت المناضلة تمتد بين الفريقين وتنتشر، والمؤمنون قد وفوا بما عاهدوا الله عليه، فممنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر"، ومولانا السلطان يردف مواكبه بحملاته، ويقدم فتحشى الأعداء مواقع مهابتة، وترجو الأولياء منافع هباته، ويرى غمرات

(١) ذيل مرآة الزمان: ٢٤٤/٤ - ٢٤٨

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٨/٤

الموت ثم يزورها، ويمر في مجال المنايا، فيحاوله مريزها ومزورها، ويقاسم سيوف العدى شر
قسمة، فعلى عاتقه غواشيها، وفي صدورهم صدورها". (١)

ومن المكاتبات الصادرة عن السلاطين، مما يحمل دلالة عامة، مكاتبات الحدث على الجهاد،
والدعوة إلى التأهب للقاء الأعداء، وقد كان منهج الكتاب في مثل هذه المكاتبات التفصيل
والإطناب في معاني وصف العزائم والهمم والنصرة للدين، وفي وصف جيوش المسلمين
وعساكرهم وحركاتهم وسرعتهم في الوصول إلى مقابلة العدو، ثم حثهم على اليقظة والوثوق
بأسباب النصر" (٢)

ومن هذه المكاتبات التي تمثل منهج الكتاب في هذا العصر ما كتبه شهاب الدين محمود في
صدر كتاب سلطاني إلى بعض نواب الثغور عند حركة العدو: "أصدرناها ومناذي النفير قد
أعلن: يا خيل الله اركبي، ويا ملائكة الرحمن اصحبي، ويا وفود الظفر والتأييد اقربي، والعزائم
قد ركضت على سوابق الرعب إلى العدى، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام، فلو كان في
مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى، والسيوف قد أنفت من الغمود، فكادت تنفر من
قربها، والأسنة قد ظمنت إلى موارد القلوب فتشوقت إلى الارتواء من قلبها، والكمأة قد زارت
كالليوث إذا دنت فرانسها، والجيوش كثرت النجوم أعدادها، وسأيرتها للهجوم على أعداء الله من
ملائكته الكرام أمدادها". (٣)

وهكذا تمضي مكاتبات الجهاد والحث عليه، مفصلة القول في استنهاض الهمم والعزائم،
مستقلة الموت أمام الشهادة في سبيل الله.

ولم تهمل مكاتبات السلاطين إلى عمالهم أمور البلاد الداخلية، حيث صدرت مراسيم
ومكاتبات بتنظيم بعض الأمور الداخلية في البلاد مثل: منع عادة معينة كالخمر، (٤) أو تنظيم
أمور طائفة معينة مثل أهل الذمة (٥) أو النصيرية (٦) أو غير ذلك.

(١) انظر نص الكتاب في: السلوك: ملاحق الجزء الأول رقم ١٦، الصفحات: ١٠٢٧ - ١٠٣٩،
وهو منقول عن النويري، نهاية الأرب المخطوط: ج ٣ ص ٣٣٧ ب وما بعدها.

(٢) انظر: حسن التوسل: ٣٣٢

(٣) حسن التوسل: ٣٣٣

(٤) انظر: ابن حجة، ثمرات الأوراق: ٢٣٤

(٥) انظر: السلوك ٩٥٩/٢ - ٩٦٢

(٦) المصدر نفسه: ٩٣٥/٢ - ٩٥٢

أنواع المكاتبات الدبلوماسية حسب مصطلحات ولغة العصر

(١) الهدن: مفردا هدنة وهي: "عبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة" (١)، وتكون بين ملكين، وأكثر ما تكون من ملوك الإسلام لملك كافر، يهادن بها أحدهما الآخر على نفسه وعساكره وبلاده ورعاياه، وما يدخل في دائرته. (٢)

ويتبع الهدن ما يعرف بالمواصفات، وهي ما يقرر بين ملكين على تقرير من الجانبين (٣)، أي ما يتفق كل من الجانبين الذين حصلت الهدنة فيهما على دخوله ضمن الاتفاق.

ومما يتبع الهدنة أيضا، أو الأصح ما يناقضها: المفاسخات، وهي نوعان: فسخ "وهو ما وقع من أحد الجانبين نقض عهد الموائمة عليه. (٤) ومفاسخة: وهو ما اتفق الطرفان على نقضه. (٥)

(٢) عقود الصلح: وهي الاتفاقات الموقعة بين ملكين مسلمين (٦).

(٣) نسخ الأيمان: وهي الأيمان التي يحلف بها من يتولى أمراً من أمور المسلمين. وهي أنواع منها:

- الأيمان التي يحلف بها على بيعة الخليفة عند مبايعته.
- الأيمان العامة: وهي التي يحلف بها المسلمون من أهل السنة وأهل البدع والخوارج والشيعة..
- أيمان خاصة لأهل الكتاب.
- أيمان خاصة لكل صاحب وظيفة ذات شأن في الدولة كالأمرأء ونواب السلطنة وكتاب السر والوزراء. (٧)
- الأيمان التي تحلف على الهدن الواقعة بين حكام المسلمين وحكام الكفر.

(٤) الأمانات: وهي ما يكتب عن الملوك لكل من خاف سطوتهم، ولا سيما من خرج عن الطاعة، وخيف استئثار الفساد باستمرار خروجه عن الطاعة. (٨)

(١) صبح الأعشى: ٥/١٤

(٢) التعريف: ٢٣٨

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٢

(٤) المصدر نفسه: ٢٤٣

(٥) المصدر نفسه: ٢٤٥، وصبح الأعشى: ١٢٣/١٤

(٦) صبح الأعشى: ٩١/١٤

(٧) انظر: التعريف: ٢٠٩ - ٢٣٢، صبح الأعشى: ٢٠٢/١٣ - ٣٢٠

(٨) صبح الأعشى: ٣٢٨/١٣

هذه الأنواع من المكاتبات غالباً ما تكون مكاتبات خارجية.

أما ما تغلب عليه من المكاتبات صفة المكاتبات الداخلية فهي أنواع منها:

(١) العهود: وهي نصوص المكاتبات التي تكتب عن الخلفاء إلى الخلفاء أو عن الملوك إلى الملوك. وتكون عادة بالعهد إلى الثاني بتولي الخلافة أو الملك بعد الأول. (١)

(٢) التقاليد: وهي مكاتبات لكفلاء الملك كأكابر النواب والوزراء، ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة. (٢)

(٣) التفاويض: وهي المكاتبات التي توجه لعامة القضاة، أو بصورة عامة لمن هو دون أرباب التقاليد. (٤)

(٤) التواقيع: وهي المكاتبات التي توجه لعامة أرباب الوظائف: جليلها وصغيرها، كبيرها وصغيرها. (٥)

(٥) المراسيم: وهي ما يكتب في صفائر الأمور التي لا تتعلق بولاية (٦)، وهي تختص بنواب القلاع المنصورة بالممالك الإسلامية وأمراء العربان ممن بالشام وحلب وشاذي مراكز البريد وغيرهم. (٧)

(٦) المناشير: وهي ما يكتب للأمراء والجند بما يجري في أرزاقهم من ديوان الإقطاع (٨)، أو هي ما يكتب في الإقطاعات من عاليها ودانيها للأمراء والجند والعربان والتركمان وغيرهم. (٩)

هذه صورة للمكاتبات الديوانية في العصر المملوكي الأول، أوضحت من خلالها أنواع هذه المكاتبات، محاولاً تبين موضوعاتها، وبنائها الفني.

(١) التعريف: ١١٢، صبح الأعشى: ٣٦٢/٩

(٢) التعريف: ١١٢، صبح الأعشى: ١٠١/١١ - ١٠٦

(٣) التعريف: ١١٢

(٤) صبح الأعشى: ١١٢/١١

(٥) التعريف: ١١٢، صبح الأعشى: ١١٣/١١ - ١١٥

(٦) التعريف: ١١٣

(٧) صبح الأعشى: ١٠٧/١١

(٨) التعريف: ١١٧

(٩) صبح الأعشى: ١٦٢/١٣

المكاتبات الإخوانية

وهي "ما يكتب به الرئيس إلى المرؤوس، والمرؤوس إلى الرئيس، والنظير إلى النظير" (١)، بحيث تخلو هذه المكاتبات من الأسلوب الرسمي الذي تلتزم به المكاتبات الديوانية، وقد عبر الفلقشندي عن ذلك فيما نقله عن صاحب "مواد البيان"، في قوله: "ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها، والكاتب إذا كان ماهراً، أغرب معانيها، ولطف مبانيها، وتسهل له فيها ما لا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ولا تتجاوز." (٢)

فالكاتب في هذا النوع من المكاتبات له أن يتحرر من كثير من الأمور الرسمية التي يلتزم بها في المكاتبات الديوانية مثلاً، إذ ليس لها مثال أو نموذج يسير الكاتب عليه، ولا يجوز له أن يحيد عنه، وقد اشترط شهاب الدين محمود فيها ضرورة مراعاة المقام الذي تكتب فيه، يقول في حديثه عن هذه الكتب: "إن الكاتب في ذلك الأمر مطلق العنان، يخلو بينه وبين قوته فيه أو ضعفه، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه." (٣)

نخلص من ذلك إلى أن المكاتبات الإخوانية يمكن أن يكتب بها من الرئيس إلى مرؤوسيه، أو العكس شريطة التزام كل بمقامه، وعدم تجاوز حدود مكانته أو وظيفته، ويختلف هذا الصنف من المكاتبات عن سابقتها المكاتبات الديوانية، أن الأول يرتبط بموضوع خاص بينهما، بينما الثانية تتعلق بأمر رسمي، كما تتخلص المكاتبات الإخوانية إلى حد ما من الألقاب الكثيرة التي لا ينبغي للمكاتبات الديوانية تجنبها والغفلة عنها. وقد تكون هذه المكاتبات بين النظير والنظير، وعندها تتخلص هذه المكاتبات تخلصاً تاماً من هذه الألقاب وغيرها من أنواع التكلف الذي يبدو في النوع السابق.

والمكاتبات الإخوانية كثيرة، وموضوعاتها مختلفة، وقد آثرت تقسيمها إلى عدة أقسام:

١ - الرسائل. ٢ - الإجازات. ٣ - الأسئلة والأجوبة. ٤ - التقارير.

وسوف أحاول فيما يلي تبنيها بالتفصيل:

(١) صبح الأعشى: ٣/٩

(٢) المصدر نفسه: ٣/٩

(٣) حسن التوسل: ٣٨٢

(١) الرسائل:

وهي مكاتبات تبودلت بين الرؤساء والمرؤوسين أو العكس، أو بين الإخوان والأصدقاء، موضوعاتها ذات صبغة خاصة تهم المتكاتبين، وهذه الموضوعات كثيرة لا يمكن حصرها، وذلك لخصوصيتها، ومن أشهرها:

أ - التهاني والشكر والمديح.

أما التهاني، فمجالاتها كثيرة أيضاً منها: التهنية بتولي منصب معين، أو بكرم السلطان عليه، أو بعودة من السفر، أو تهنية بموسم معين، أو تهنية بالزواج أو الأولاد، أو الشفاء من المرض...

ومن نماذج هذه الرسائل، رسالة بعث بها الشيخ جمال الدين بن نباتة عن نائب الشام إلى القاضي علاء الدين بن فضل الله، عند عودته من الكرك إلى الديار المصرية، مهنئاً له، حيث افتتحها بأسلوب جرت عليه الرسائل في ذلك الوقت، يقول: "تقبل الباسطة الشريفة مسيرة القصد إلى مناظرة أقلامها المقصودة، تقييلاً يود لو شافه بشفاهه مورد الجود من الأنامل، وكاثر بثغره عند المثول للتقيل ثغور الأمائل، فكان يشافه بشوقه مورداً كثير الزحام... وينهي ما وصل إليه وإلى الأولياء من السرور، وما رفع بينهم وبين الابتهاج من الشرور.. بوصول مولانا ومن معه إلى مساكن العز ساكنين، ودخولهم كدخول يوسف عليه السلام ومن معه إلى مصر آمنين، واستقراره في أشرف مكان ومكانة، واستنصار مصر بأقلامه على العادة، فإن هذه سهام وهذه كنانة".

ثم يحمد الله سبحانه وتعالى على عودته إلى منصبه، يقول: "فالحمد لله على أن أقر العيون بمعاودة ظله الوريث، وعلى أن شفى الصدر بقربه، وأولها وأولها صدر السر الشريف، وعلى أن أجزل الهناء، وقد شمل ظله، وقد كمل بابن الفضل فضله... وقد أخذ المملوك حظه من هذه البشرى، وإلى السجود لله شكراً، وجهز خدمته من هذه نانية عنه في تقيل بنان إن سماه مولى الكرم بحراً، فقد سماه مربى الملك برّاً". ثم يدعو للشخص المهني بأن يديم الله عليه هذه النعمة: "لا زالت الممالك متحفة بيمين مولانا ظاعناً ومقيماً، متصفة بحمده وحمد سلفه الكريم حديثاً وقديماً، تالية على مهمات الملك بصحبة بيته الشريف. وكان فضل الله عليك عظيماً." (١)

فالرسالة نوع من المجاملات الإخوانية، حيث يبدو تحررها من القيود الرسمية التي تتصف بها الرسائل الديوانية.

ومن رسائل المديح، هذه الرسالة التي بعث بها ضياء الدين القرطبي أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري سنة ٦٧٢هـ، كتبها جواباً على رسالة بعث بها إليه تقي الدين بن دقيق العيد، حيث بدأها بمقدمة خفيفة، يقول: "يخدم المجلس العالي العالمي صفات يقف الفضل عندها، ويقفو الشرف مجدها، وتلتزم المعالي حمدها، وسمات يبسم ثغر الرياسة منها، وتروي أحاديث السيادة عنها.."، ثم يبدأ بتقريظ الرسالة التي بعث بها ابن دقيق العيد إليه، حيث يقول: "وينهي ورود عذرانه التي لها الشمس خدن والنجوم ولاند، وحسناته التي لها اللفظ ورد الدراري قلاند، ومشرفته التي لها من براهين البيان شواهد، وكريمته التي لها الفضل ورد والمعالي موارد، وبديعته التي لها بين أحشائي وقلبي معاهد... هذه وأبيك أم الرسائل المبتكرة، وبنيت الأفكار التي هذبته الآداب، فهي في سهل الإيجاز البردة، وفي صور الإعجاز المخدرة، والمليئة ببدايع البدائنه، فمتى نقاضها منقاض لم تقل فنظرة إلى ميسرة." (١) وتمضي هذه الرسالة على هذه الصورة حتى نهايتها.

ب - رسائل التعزية.

وهذه الرسائل كثيرة، وغالباً ما تتضمن معاني الدعوة إلى الصبر والتسليم بقضاء الله وقدره، وتسليّة المعزى بمن فقده، والدعاء له بحسن العوض، بالإضافة إلى بيان مدى حزن المعزي على المفقود والمصاب، كما تتضمن أيضاً بيان محاسن أو مزايا المفقود، (٢) وهذا ما تتضمنه التعزية، حيث تشتمل ثلاث قضايا هي: الحزن والتفجع - التأبين وهو بيان المزايا التي يتميز بها المتوفى - ثم التعزية أو المواساة.

وقد تضمنت رسائل التعزية هذه الجوانب الثلاثة.

ومثال هذه الرسائل ما كتبه صلاح الدين الصفدي إلى علاء الدين بن فضل الله العمري، يعزّيه بوفاة أخيه شهاب الدين، منه: "يقبل الأرض، وينهي ما عنده من الألم الذي برح، والسقم الذي جر ذبول الدمع على الخدود وجرح، لما قدره الله من وفاة القاضي شهاب الدين، سقته بالطف أندائها وأغزرها ساريات الغمام، فإنا لله وإنا إليه راجعون... فيا أسفاً على ذلك الوجه المليء بالملاحة، واللسان الذي طالما سحر العقول ببيانه، فصاحت يا ملك الفصاحة... فرحم الله ذلك الوجه، وبلغه ما يرجوه، وضوؤه بالمغفرة يوم تبيض وجوه... وما يقول المملوك في هذا

(١) تاريخ ابن الفرات: ١٣/٧ - ١٨، الوافي: ٣٤٠/٧ - ٣٤٦

(٢) انظر: صبح الأعشى: ٨٢/٩ - ١٠٤

البيت الكريم، إلا إن كان قد غاب بدره، وأخل شهابه، أو غاض قطره، وتثخن سحابه، فإن نيره الأعظم باق في أوجه، وبحره الزاخر يتلاطم في موجه، وفي بقاء مولانا خلف عمن سلف، وعوض عما انهدم ركنه، أو نقض، وجبر لمن عدم الجلد والصبر." (١)

وهكذا تمضي هذه الرسالة مشتملة على جوانب التعزية التي ذكرتها أنفا.

ج - رسائل الشوق والعتاب والشكوى والاعتذار.

وقد جمعت هذه الموضوعات معا، وذلك لأن الأغلب عليها أن تكون بين النظراء، ومن هنا فإن هذا النوع من الرسائل يتصف باللطف والرقّة التي تظهر تمازج الأرواح وانتلاف القلوب. (٢)

فمن رسائل الشوق ما كتبه كمال الدين بن العطار (٧٠٢هـ) إلى محيي الدين بن عبدالظاهر، يقول: "غير أن المملوك أقامه الشوق فانتبه، بعدما رآه بعينه فهو لا يتأول ولا سيما في أمر ما اشتبه، وما كانت زيارته له إلا منافسة له بظنه أن المملوك علقت به أسباب الكرى، ومناقشة لطلبه زور الخيال حقيقة لما سرى." (٣) وهكذا يبني رسالته على وصف الطيف الذي زار المرسل ليلاً، فأثار شوقه إلى المرسل إليه.

ومن هذه الرسائل، رسالة عتاب للشهاب محمود الحلبي، يقول فيها: "وينهي أنه مازال يتلو آيات محاسنه وحمده، ويرفع رايات إحسانه ومجده، ويتولاه ولا يتولى عن محبته، ويكثر الثناء على ألمعي فطنته وجزيل مروءته، وقد صار يشاهد من المولى ملالاً وصدوداً وإعراضاً يغيظ به صديقاً، ويسر به حسوداً، ولا يعرف له ذنبا يوجب إبعاده، ولا جرماً يستوجب به أن ينقض حبل وصله ويرفض وداده." (٤)

هذا والرسائل بين الأدباء في هذه الموضوعات كثيرة، ولا نستطيع حصرها، وكلها تجري على هذا الأسلوب من بث الشوق وتذكر الأيام الخالية..

د - رسائل التهادي والاستزارة أو الدعوة.

وهذه الرسائل تخطب الود، وتطلب الصداقة، بل يرفق معها ما يوطد هذه الصداقة، ويقوي من أواصرها، فقد يهدي الصديق صديقه كتاباً، وقد يهديه تفاحاً أو كمثرى أو نرجساً أو بطيخاً أو مشمشاً أو مداداً أو خيلاً أو نوعاً من الطيور ... فقد أهدى جمال الدين المصري أبو الحسين

(١) الوافي: ٢٦٨/٨ - ٢٦٩

(٢) صبح الأعشى: ١٤٤/٩

(٣) الوافي: ١٦٨/٨

(٤) صبح الأعشى: ١٩٧/٩

الجزار إلى سراج الدين الوراق تفاحاً وكُمثرى ونرجساً، وكان أرمداً، وبينهما مداعبة، فكتب إليه:

أكافيك عن بعض الذي قد فعلته لأن لمولانا عليّ حقوقاً
بعثت خدوداً مع نهود وأعينا ولا غرو أن يجزي الصديق صديقاً

يقبل الأرض، ويسأل بسط عذره في التهجم على مولانا بما هو من وظائفه، والبحث في العلم الذي هو من بعض معارفه، فإنه قد فاق الأصاغر والأكابر، وأنس الأوائل والأواخر. (١) وهكذا تمضي الرسالة في الإفراط في مديح المرسل إليه، ووصف الهدية بما يحسنها في عين المهدي إليه، والمكاتبات في ذلك كثيرة. (٢)

أما رسائل الدعوى، فقد يدعو المرسل المرسل إليه إلى زيارته في بيته، وقد يدعو إلى زيارة مجلس أو بستان، وقد يدعو إلى حمام... وهكذا، فأيا كان موضوع الدعوة، فإن على الداعي أن "يبالغ في تشويق المستزار إلى الحضور، ويتلطف فيه أحسن تلطف". (٣)

ومثال هذه الرسائل ما كتبه محيي الدين بن عبدالظاهر إلى بعض أصحابه يستدعيه إلى حمام: "هل لك أطال الله بقاءك، إطالة تكرر في منهل النعيم، وتتملى بالسعادة تملى الزهر بالوسمي، والنظر بالحسن الوسيم - في المشاركة في حمام جمع بين جنة ونار، وأنواء وأنوار، وزهر وأزهار، قد زال فيه الاحتشام فكل عارٍ ولا عار، نجوم سمانه لا يعترىها أفول، وناجم رخامه لا يعترىه ذبول، تنافست العناصر على خدمة الحال به تنافساً أحسن كل التوصل فيه إلى بلوغ أربه". (٤) وهكذا تمضي الرسالة في وصف الحمام، وما يجري فيه وصفاً يغري المدعو إلى تلبية الدعوة.

هـ - رسائل الأخبار

موضوعات الأخبار كثيرة ومتعددة، منها: الأخبار بقدوم نائب إلى نيابته، ومنها ما يتعلق بظواهر الطبيعة كحدوث زلزلة أو حريق أو فيضان النيل... أو بوقوع مطر أو سيل... الخ.

وعلى الكاتب هنا أن يبين ما يطالع به من الأخبار، ويفصح عنه، ويكشفه ويوضحه، إلا إذا كان المقام لا يسمح بذلك، فيذكر الخبر تلميحاً لا تصريحاً. (٥)

(١) ذيل مرآة الزمان: ٧٤/٤ - ٧٥، عيون التواريخ: ٢٦١/٢١ - ٢٦٢

(٢) انظر: صبح الأعشى: ١٠١/٩ - ١٢٦

(٣) انظر: صبح الأعشى: ١٥٢/٩

(٤) الوافي: ٢٧٩/١٧، فوات الوفيات: ١٨٢/٢، نصره الثائر على المثل السائر: ٣٤٢ - ٣٤٥

(٥) صبح الأعشى: ٢١٩/٩

مثال ذلك قوله جمال الدين بن غانم من كتاب عن كافل الشام تنكز إلى نائب طرابلس في حريق سنة ٧٤٠هـ في دمشق: "وأضحى فم الفوارة يصاعد جمرات أنفاس، وسوق النحاسين يرسل منه إلى سوق الجامع شواظ من نار ونحاس"، وأُقعد بيت الساعات إلى قيام الساعة، ودخل إلى باب الجامع لكن لغير طاعة، وكاد يُصلى من به يُصلي، ويقبل على صف العابدين فيولي". (١)

وقد كثرت المكاتبات بالإخبار بفيضان النيل ووفائه، ومن ذلك ما كتب به محيي الدين بن عبدالظاهر إلى نائب السلطنة بحلب: "ولما تكامل إياه، وصح في ديوان الفلاح والفلاحة حسابه، وأظهر ما عنده من ذخائر التيسير وودائعه، ولقط عموده جمل ذلك على أصابعه، نزلنا وحضرنا مجلس الوفاء المعقود، واستوفينا شكر الله تعالى بفيض ما هو من زيادته محسوب، ومن صدقاتنا مخرج ومن القحط مردود". ويمضي الكاتب في وصف هذه النعمة وأثرها، ثم يحمد الله تعالى على ذلك، (٢) كما كتب صلاح الدين الصفدي كتاباً بذلك منه قوله: حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعاً، وأقبلت سوابق الخيرات سراعاً، وفتح أبواب الرحمة بتخليقه، وجد في طلب تخليقه، تضرع بمد ذراعيه إلينا، وسلم عند الوفاء بأصابعه علينا". (٣)

وفي عام ٦٥٤هـ ظهرت نار في أرض الحجاز، وقد كثرت الكتب التي تخبر عن هذه النار منها: "لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، ظهر بالمدينة النبوية دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة، رجفت منها الأرض والحيطان والسقف والأخشاب والأبواب، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة" (٤)، وقد ذكر أبوشامة المقدسي بعضاً من هذه الكتب الواردة في هذه الحادثة.... (٥)

(١) مسالك الأبصار: ٢٠٢/١

(٢) الوافي: ٢٧٧/١٧ - ٢٧٩

(٣) الغيث المسجم: ٧٥/٢

(٤) عقد الجمان: ١٢٣/١

(٥) انظر: ذيل الروضتين: ١٩٠ - ١٩٢

وفي عام ٧٢٨هـ ورد إلى مدينة عجلون سيل عظيم، وجهاز بخبره كتاب إلى دمشق منه: "وينهي أنه بتاريخ كذا أرسل الله تعالى ريحاً عاصفة، فاثارت حبباً واكفة، وفي خلالها بروق خاطفة، ليس لما جاءت به دون الله كاشفة، فطبقت الوهام وجللت الأكمام، وخيمت على مدينة عجلون وما قاربها من أرض الشام، ثم أرخت عزلها كأفواه القرب، حتى خيل لمن رآها أن الوعد الحق قد اقترب، فوجلت القلوب لهول ذلك وتصدعت، وكادت الحوامل أن تضع حملها وتذهل كل مرضعة عما أرضعت". ويستمر الكاتب في وصف هذا السيل وبيان خوف الناس وذعرهم من هذا الحدث: "فمن بالك على ما في يده من متاع الدنيا الحقيق، ومن مشفق خائف على ولده الصغير، ومن غريق ما له من ملجأ يومئذ وما له من نكير، ومن ناج يقول: أشهد أن الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير". ثم يبين بعض ما ألحقه هذا الحدث من دمار وخراب، فيقول: "وهدم الرواق القبلي من المسجد الجامع، وفي ذلك ما يحزن قلب كل منيب وخاشع، وردم داخله بالطين والأخشاب، فانتبهوا يا أهل الغفلة، واعتبروا يا أولي الألباب، وأتلف كثيراً من الأمتعة والبضائع والأموال حتى أبيح لكثير من أرباب ذلك أن يمد يده للسؤال" (١).

هذا، وقد كتب بعض الأدباء في هذه الحوادث رسائل أدبية، تبتعد عن أسلوب رسائل الإخبار، ولهذا سأحدث عنها في مكانها بإذن الله.

و - رسائل المداعبة:

نقل القلقشندي عن صاحب "مواد البيان" قوله: "ومعاني المداعبات التي يستعملها الإخوان غير متناهية، والأغراض التي ينتظمها المزاح، وتعد من طلاقة النفس لا تقف عند قاصية، لأنها مستملا من أحوال متباينة، ومأخوذة من أمور غير معينة" (٢).

إذن، فمجالات الدعابة في المكاتبات الإخوانية كثيرة، فهذا يكتب إلى صديق في معنى غريب، وذلك يكتب لآخر لغزاً يريد منه الإجابة، وآخر يكتب له صورة إجازة ساخرة... وهكذا.

ومن ملح المداعبات ما كتب به الشيخ جمال الدين بن نباته إلى الشيخ بدر الدين حسن الغزي الشهير بابن الزغاري صورة إجازة، منها قوله: "أما بعد حمد الله الذي جعلنا ممن كرم من البشر، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاسي من فجر، وعلى آله وصحبه ما نبج الكلب

(١) تذكرة النبيه: ١٨٩/٢

(٢) صبيح الأعشى: ٢٢٤/٩

ضوء القمر، فقد قرأ علي لازال صائداً للحمد من مكنه، صائلاً على القرن من مأمنه، وطالما دل على وجود القرى، ووجدته قد فاق جرولاً خطاباً، وافتخر على الكلبي وابنه نسباً وأدباً، وبلغت مفاخر قومه علم زعم القبائل فلا عمرأ بلغت ولا كلاباً، وعلا ذروة لوسامها ابن كلاب لما قرعها، بل ولو نبجها كوكب الكلب المقدم لما بلغها صوته ولا سمعها، والتقى صوت الآداب منه غادٍ ورائح، وامتزج عليها بجوارحه، فحبذا ما علم من الجوارح، وسعى على ظفر سعيه السريع المديد، ونام على المجارة قرناؤه مقام أهل الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد" (١) وتستمر الرسالة على هذه الصورة بالأسلوب الفكاهي.

ومن المداعبات الخفيفة اللطيفة، تلك الرسائل المتبادلة بين الأدباء، يطلب فيها أحدهم من الآخر حل لغز يذكره في رسالته، وقد كثر ذلك شعراً ونثراً، مثال ذلك ما عمله شرف الدين الحسين بن سليمان بن ريان، وهو لغز في المئذنة: "ما اسم شيء إن قصد تعريفه فهو معروف، وإن طلب وجد في جملة الظروف، خماسي وليس فيه إلا أربعة حروف، حار النحوي في تعريفه، وعجز عن تأليفه، مفعول وهو مرفوع، محمول وهو موضوع، مبني دخله الإعراب، مرفوع وهو باق على الانتصاب، يقبل التصغير والتكبير، وفيه التأنيث والتذكير، لا يستعمل إلا في النداء، ولا يعرب إلا وهو باق على البناء، وفيه نوعان من أدوات الشرط والجزاء، له هيئة إلى التبصرة مفتقرة، وشكل خطوطه في الهندسيات معتبرة، وأضلاع قامت من البسيط على كرة، وزواياه قائمة حدثت عن منفرجة." (٢)

وكتب الصفدي في جواب عن ذلك:

" وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

لحقيق بأن يصفه مولانا وصف الخنساء، ويعدد محاسنه التي أربت كثرتها على رملة الوعساء... وأما المملوك فيقول فيه: "إنه صاحب الرباط والزاوية، والمقام الذي يقال لقاعديه: الجبل يا سارية... كم في الزوايا منه خبية حنية، وكم علق عليه ذريه من الكواكب الدرية..." (٣)

هذا، ولم تقتصر المداعبات على الرسائل، بل تعدتها إلى فنون أدبية أخرى سأحدث عنها في حينها.

(١) الغزولي، مطالع البدر في منازل السرور، مطبعة إدارة الوطن، ١٣٠٠هـ، ٢/٢٣٠ - ٢٣١

(٢) الوافي: ٣٧٢/١٢

(٣) المصدر نفسه: ٣٧٣/١٢

ز - رسائل الذم والهجاء..

أوردت المصادر رسالتين للذم من هذا العصر، الأولى لمحبي الدين بن عبد الظاهر، كتب بها إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكنائي المعروف بابن النقيب سنة ٦٧٨هـ، في معنى شخص تنقصه بسبب التواضع في الجلوس، وهو ينسب إلى الرفض، وقد حذا فيها حذو ابن زيدون في رسالته الهزلية التي كتبها على لسان ولادة بنت المستكفي يسخر فيها من ابن عبدوس منافسه في حبها. (١)

بدأ ابن عبد الظاهر رسالته موجهاً الكلام إلى ابن النقيب، يلومه فيها على أنه قد نيل منه بحضرته، فيقول: "بلغني - أعز الله، ولا برحت رحيب فناء الفخر، قشيب ملبس العمر، يانع ثمر الشكر، مفعم حياض البر - أن فلاناً غص مني كل غص الجنى، وأنه عبث بي عبث الأيام بالمنى... والذي أقوله له مخاطباً، وأوحيه إليه مجاباً.."، ثم يبدأ بهجاء وذم هذا الشخص: "وإن كان استرسلالك، أيها العائب عبثاً، فما كل الأفاعي تعبث بها الأنامل، ولا كل المراعي تنصب بها الحبائل، ولا كل زخار يخاض، ولا كل جناح يهاض، ولا كل جامح يراض، ولا كل سابغة تفاض... وأعود إلى محاققة النفس فتأبى إلا إظهار اللبس، فأقول: هل أنت يا فلان إلا متخرص بزور، وأيس من الخير كما ينس الكفار من أصحاب القبور، وآمن من العواقب والله عاقبة الأمور... وما مبالاتي بك إلا مبالاة الديك بالبط، والشمعة بالقط، ورياح الخط بأقلام الخط، ومتى خافت الرعود من الوعود؟ أم متى أحجمت الأسود عن القروود؟ أم متى جزعت البحار من التيار؟ أم متى صارت النار كالأنوار...؟" (٢)

وهكذا تمضي الرسالة في هجاء هذا الشخص وذمه، والإقلال منه والتنقص من قدره، وأن الكاتب ليس بالشخص الذي يسهل أكل لحمه، إلى أن يختتمها بمدح ابن النقيب والثناء على خصاله، بقوله: "قد أنشأتها سحياً تقالاً لك منها عذاب الشراب، ولغيرك عذاب السراب، وأوريتها ناراً لك منها الإنارة ولغيرك الإحراق، وأجريتها بحاراً لك منها الإرواء ولغيرك الإغراق، وأدرتها شمولاً لك منها النشوة ولغيرك الخمار، وطبعتها فصولاً لك ما ضمت عليه الأنامل منها ولنحر غيرك الغرار." (٣)

وأما الرسالة الثانية في الذم، فهي لزين الدين عمر بن الوردي كتبها في القاضي شهاب الدين الرياحي المالكي، أول قاض للمالكية في حلب، وقد وجهها لأولي الأمر، حيث يقول في مقدمتها:

(١) انظر الرسالة في: ابن زيدون - شوقي صنف، دار المعارف بمصر: ٩٢-١٠٤
(٢) الصفدي، تمام الحقوق في شرح رسالة ابن زيدون، القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م: ٤٠٤ - ٤١٥

(٣) المصدر نفسه: ٤١٣

"وهذه رسالة أخلصت فيها النية، وقصدت بها النصيحة للرعاة والرعية، أودعتها من جوهر فكري كل ثمين، وناديت بها على هزيل ظلم أبناء جنسي مناداة اللحم السمين، لكن جنبتها فحش القول، إذ لست من أهله، وخلدتها في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله، ورجوت بها الثواب، وتحريت فيها الصدق والصواب، نصرة للمظلوم وغيره على حملة العلوم، وسميتها "الحرقلة للخرقلة"، حيث يبدأ بأسلوب وعظي، فيقول: "اعلموا يا ولادة الأمر، يا ذوي الكرم الغمر، أبقاكم الله بمصر للأمة، ووفقكم لدفع الإصر وبراءة الذمة، أن حلب قد نزعت للزبد، ووقعت من ولاية التاجر الرياحي في خسر وشدة.."، ثم يبدأ بهجاء هذا القاضي وذمه، فيقول: "قاس سلب الهجوع، وسكب الدموع، وأخاف السرب، وكدر الشرب بجرأته التي طمّت وطمّت، وعاميته التي عمّت وعمّت، وفنتته التي بلغت الفراق، وأسهرت ألف راقد... فكم لطخ من زاهد، وكم أسقط من شاهد، وكم أربع برياً، وكم قرب جرياً، وكم سعى في تكفير سليم، وكم عاقب بعذاب أليم"... ثم يعدد أخطائه وهي كثيرة: "بنانة توسط بها عند النائب، وحرص النائب على من قيل: إنه حضر الخمر، وحمله على أن قرعه بالمقارع إلى أن قضى الأمر، فامتعت الأمراء عن الشفاعة، وظنوا هم والنائب أن هذا الامتثال لأمر الشرع وطاعة، أسقط في يوم مشهود تسعة من أعيان الشهود، فوالله لو كان في غنم رياح ما سمح بهذه العدة لذباح، وهذا مقت وأي مقت، وما سمعنا بمثله في وقت.."، ويستمر في ذمه وبيان مدى جهله في العلوم: "مقدام ظلوم، جاهل بجميع العلوم، لا يعرف في الفقه الطلاق من التطلق ولا في النحو الإلغاء من التعليق، ولا في التفسير أسباب النزول، ولا في القرآن (حجج)*، إن كان مكرهم لتزول"، ولا في اللغة القدح من الكأس، ولا في الأصلين الجوهر الفرد والجلي من القياس.."، ثم يختم الرسالة بالتحريض على طرده والخلص منه، فيقول: "فأخرجوا من حلب هذه النار تدخلوا الجنة، ولقد غاظني عامي يتلو بسببه والعامّة عمى" أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"، فإن شئتم يا نظام الدولة أن يقوم وزن هذه البلاد، فكونوا في عروض عزله أسباباً تدعو لكم الأوتاد." (١)

هذا، والرسالة محشوة بمصطلحات العلوم المختلفة، كما سأحاول تبينه في الحديث عن الخصائص الفنية.

(١) ابن الوردي، ديوان ابن الوردي، دار القلم، الكويت: ١٥٥ - ١٧٦

* وردت هكذا في النص وصوابها: حججا.

وهكذا، تمضي الرسائل الإخوانية بموضوعاتها المختلفة التي تحدثت عنها، في بناء فني، لا يكاد يتغير، إذ تبدأ، في معظمها، بمقدمة بسيطة خفيفة، يتخفف الكاتب فيها من الألقاب، إلا إذا كانت من مرسوم إلى رئيسه، ولكن دون مبالغة أو تكلف، ثم يذكر ما يشير إلى غرضه من الرسالة، وغالباً ما تكون بعبارة: "وينتهي..." حيث يفيض خلالها بعبارات المدح والثناء حسب الغرض المقصود، وأخيراً يختم الرسالة بما يشير إلى نهايتها، وبما يتفق مع موضوعها.

ثانياً: الرسائل الامتحانية (رسائل الأسئلة والأجوبة)

قال القلقشندي: "قد جرت عادة مشايخ الأدب، وفضلاء الكتاب أنهم يكتبون إلى الأفاضل بالمسائل يسألون عنها، إما على سبيل الاستفهام واستمache ما عند المكتوب إليه في ذلك، وإما على سبيل الامتحان والتعجيز، ثم تارة يجاب عن تلك الأسئلة بأجوبة فتكتب، وتارة لا يجاب عنها، بحسب ما تقتضيه الحال." (١)

فالرسائل الامتحانية، إذن، هي رسائل تتبادل بين العلماء، وتحمل صبغة علمية، إذ يطلب فيها المرسل من المرسل إليه الإجابة عن أسئلة يطرحها، إما على سبيل الاستفهام أو على سبيل الامتحان والتعجيز.

وهذه الرسائل، غالباً، لا تحمل الصبغة الذاتية التي تتصف بها الرسائل الإخوانية.

فمما ورد من الرسائل الامتحانية على سبيل التعجيز، تلك الرسالة التي كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالشام، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان ينال منه، وأن الشيخ شهاب الدين ناضل عنه ودافع، فكتب إليه يشكره على ذلك، ويسأل كتاب الديوان عن أسئلة، بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ، منها ما جاء في مدح الشيخ شهاب الدين قوله: "فأعلى الله كلمة سيدنا العلامة في الدارين، وشكر غني جود كرمه وكلمه الدارين، فهو صاحب ديوانهم وحجة زمانهم، فلقد وصفني بما يزيد على الجواب، وشافهني عن الشكر بما لا يتوارى من الرزق بحجاب، وأمني العز والزمان حرب، ونصرني الأيام سيوف تنتوع من الضرب في كل ضرب، وأعطاني كرمه والمحل محل، وفي قلب الزمان دخل...."

ثم ينتقل إلى طرح الأسئلة على هؤلاء الكتاب، فيقول: "من كتب في الورق واستبطه؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه؟ ومن غير طين الكتاب بالنشا وضبطه؟ ومن قال: أما بعد في كتابه؟ ومن جعلها في الخطب؟ وأسقطها في ابتدائه في المكاتبة وجوابه؟ ومن كره الاستشهاد في مكاتبات الملوك بالأشعار؟ وكيف تركها على ما فيها من الآثار؟ ومن وضع هذه الطرة في التقاليد واخترعها؟ وما حجته إذ قدمها على اسم الله ورفعها؟

هذه أسئلة وغيرها يطول ذكرها هنا، ومما يتصل منها بصناعة الإنشاء قوله: "وكيف يكتب ملك طلب منه عدو قطيعة عن جيشه يعطيها؟ وكيف يكتب عن خليفة استسقى ولم يمطر؟ وخليفة صارع فصرع كالمعتصم وكيف يعذر؟ وما الذي يكتب في نار وقعت في حرم النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما الذي يكتب عن المهزوم إلى من هزمه في معنى ركونه إلى الإحجام...؟" (١)

وهكذا.. تمضي الرسالة في طرح مجموعة من الأسئلة على جماعة الكتاب الذين حاولوا النيل منه، وذلك لإظهار عجزهم، وأنهم أقل منه مكانة، ولذلك لا يحق لهم تجريحه أو الحط من شأنه.

وقد يختلف عالمان في قضية فقهية أو نحوية أو غير ذلك، فيلجأ إلى استفتاء علماء آخرين، وهذه هي الرسائل الاستفهامية، مثال ذلك ما حدث من اختلاف صلاح الدين الصفدي وشرف الدين حسين بن ريان في قول الحريري:

فلم يزل يبتزه دهره ما فيه من بطش وعود صليب

وقد ذكر ذلك الصفدي بقوله: "فذهب هو (يقصد شرف الدين بن ريان) في إعراب قوله: "ما فيه" إلى أنه في موضع نصب على أنه مفعول ثان، وذهبت أنا إلى أنه بدل اشتمال من الهاء التي في قوله: "يبتزه"، فكتب شرف الدين "فتياً" من صفد، وجهزها إلى الشيخ كمال الدين بن الزملكاني رحمه الله، ونقلتها من خطه وهي: "ما تقول السادة علماء الدهر، وفضلاء هذا العصر، لا يرحوا لطالب العلم الشريف قبله، وموطن السؤال ومحله، في رجلين تجادلا في مسألة نحوية، وهي في بيت من المقامات الحريريّة، وهو:

فلم يزل يبتزه دهره ما فيه من بطش وعود صليب

ذهبا إلى معنى "يبتزه" يسلبه، وكل منها وافق في هذا مذهب خصمه مذهبه، وموطن سؤالهما الغريب إعراب قوله: ما فيه من بطش وعود صليب"، لم يختلفا في نصبه، بل خلفهما فيما انتصب به، فذهب أحدهما إلى أنه بدل اشتمال من الهاء المنصوبة في "يبتزه"، ولسه على ذلك

استدلال، وذهب الآخر إلى أنه مفعول ثانٍ لبيئته، وجعل المفعول الهاء، واختلفا في ذلك، وقاصديكم جاء، وقد سألا لإجابة عن هذه المسألة، فقد اضطر في ذلك إلى المسألة".

فكتب الشيخ كمال الدين، رحمه الله، الجواب، ونقلته من خطه، وهو: "الله يهدي إلى الحق، كل من المختلفين المذكورين قد نهج نهج صواب، وأتى بحكمة وفصل خطاب، ولكل من القولين مساع في النظر الصحيح، ولكن النظر هو في الترجيح، وجعل ذلك مفعولاً أقوى توجيهاً في الإعراب، وأدق بحثاً عند ذوي الأبواب، أما من جهة الصناعة العربية، فلأن المفعول متعلق الفعل بذاته التي بوقوع الفعل عليه معنية، والبديل مبين بكون الأول معه مطرحاً في النية، وهذا الفعل بهذا المعنى متعد إلى مفعولين، وما فيه من بطش هو أحد ذينك الاثنين، لنلا يفوت متعلق الفعل المستقل، والبديل بيان يرجع إلى تأكيد بتأسيس المعنى فعل، وأما من جهة المعنى، فلأن المقام مقام تشكك وأخذ بالقلوب، وتمكين هذا المعنى أقوى، إذا ذكر ما سلب منه مع بيان أنه المطلوب، فذكر المطلوب منه مقصود كذكر ما سلب، وفي ذلك من تمكين المعنى ما لا يخفى على ذوي الأرب، ووراء هذا بسط لا تحتمله هذه العجالة، والله تعالى أعلم." (١)

ومن الرسائل الامتحانية في باب صناعة الإنشاء ما سئل به صفي الدين الحلبي أن جماعة من أعيان الموصل وقفوا على شيء من النكت التي أنشأها في أثناء المقامات والرسائل، فاقترحوا عليه أن يعمد إلى أبيات من فصيح شعر العرب، فيعد حروفها، وينشئ رسالة عدد حروفها بقدر عدد حروف تلك الأبيات جملة وتفصيلاً، وقد اقترحوا عليه الأبيات السبعة الأولى من معلقة امرئ القيس كتبوها له، كما اقترحوا معنى الرسالة أن تتضمن استعطاف مخدوم لهم، واعتذاراً من ذنب سبق، واستنجاراً لوعده منه سلف، فأنشأ رسالة في هذا المعنى يقول: "الكريم مرتجى وإن أصبح بابه مرتجاً، والندب يلتقى وإن كان بأسه يتقى، والسحب تؤمل بوارفها وإن رهبت صواعقها، ولحلم سيدنا أعظم من اللحن بعتب لسالف ذنب، فما فتى شرف الله بلثم كفوفه أفواه العباد يغفر الخطيئة ويوفر العطية، والمملوك مقر عرف أنه رب حق بل مالك رق، ومقتض من جوده العميم نجاز وعده الكريم، فسالف كرمه مقيم، لا برج إحسانه شاملاً مدى السنين، إن الله يحب المحسنين." ثم طلبوا منه أن ينظم أبياتاً في معنى الأبيات الأولى، ففعل ذلك، وكل من المقطوعين، الشعر والرسالة، عدد حروفه مثل الآخر مجملّة وتفصيلاً، فالمجموع واحد، وعدد حروف الألف فيها واحدة، وحروف الباء واحدة.. وهكذا" (٢)

(١) الوافي: ٢٢٠/٤ - ٢٢١

(٢) المصدر نفسه: ٤٩٤/١٨ - ٤٩٦

هذه ثلاثة نماذج من الرسائل الامتحانية، متضمنة كلا النوعين اللذين ذكرهما القلقشندي، وهي في موضوعات علمية مختلفة، ويبدو لنا من خلالها أنها على الرغم من اشتغالها على شيء من الذاتية التي تنسم بها الرسائل الإخوانية عموماً، إلا أن الصبغة العلمية تطغى عليها، كما أنها تضمنت موضوعات مختلفة في التاريخ والإنشاء والنحو. ومنها ما جاء في التفسير والفقه.

ثالثاً: الإجازات

وهي نوع من الشهادات العلمية، فإذا تأهل بعض طلاب العلم في مجال من مجالات العلوم المختلفة لأن يكون حاملاً له ومؤيداً، ومفيداً لغيره، فإن شيخه كان يجيزه بذلك، إن تحقق هذا الشيخ منه. والإجازة أنواع كان منها في هذا العصر ما يلي:

أ - إجازة الفتيا والتدريس والإقراء.

وهي: أن الشيخ يجيز تلميذه بالفتيا أو التدريس أو إقراء كتاب له، إذا رأى منه قدرة وأهلاً لذلك (١)، وهذه الإجازات كثيرة في هذا العصر، منها إجازة كتبها الشيخ مجدالدين بن دقيق العيد، وهو والد الشيخ تقي الدين، لشمس الدين عمر بن المفضل بتدريس مذهب الشافعي، يقول: "أستخير الله تعالى في الإيواء والإصدار، وأعتصم به من آفتي التفسير والإكثار، وأستغفره فيما فرط في الجهر والإسرار، وأقول: إني ذاكرت فلاناً، زينه الله بالتقوى، وحرسه في السر والنجوى، في فنون من العلوم الشرعية العقلية والنقلية، فألقيته يرجع إلى معقول صحيح ومنقول صريح، واطلاع على المشكلات، واضطلاع بحل المعضلات، لا سيما في فقه المذهب، فإنه أصبح فيه كالعالم المذهب، وقام بعلم العربية والتفسير، فصار فيهما الفاضل النحرير، وقد أجبتة إلى ما التمس، وإن كان غنياً بما حصل واقتبس، فليدرس مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه لطالبيه، وليجب المستفتي بقلمه وفيه، ثقة بفضل الباهر، وورعه الوافر، وفطرته الوقادة، وألمعيته المنقادة، والله تعالى ينفعني وإياه بما علمناه، ويرفعنا بذلك لديه في القصد سواه." (٢)

(١) صبح الأعشى: ٣٦٤/١٤

(٢) الوافي: ٣٠١/٢٢

هذه، كما رأينا، إجازة بالتدريس والافتاء في مذهب الشافعية، وقد تقتصر الإجازة على إقراء كتاب بعينه، ومنها ما كتبه ابن الوردي بقراءة "الخلاصة في النحو" لابن مالك وشرحها، لشهاب الدين أحمد بن ريان، منها قوله بعد مقدمة ملأمة لعلم النحو: "فقد قرأ علي القاضي شهاب الدين أحمد بن ريان، جعله الله - وقد فعل - فقيه أهله، ولا صرفه عن علميته ووزن فعله، جميع كتاب الخلاصة الألفية في علم العربية، للعلامة جمال الدين أبي عبد الله محمد بن مالك الطائي الجبائي... وما اكتفى بذلك حتى شرح علي شرحها لابن المصنف من أوله إلى آخره، ووقف على معانيه ومغازيه، وباطنه وظاهره، وفاز بحمد الله بخلاصة الشرح وشرح الخلاصة، وصبر بهمته الشامخة، وعزيمته الباذخة على الشرح بأسره حتى أحسن خلاصته، فصار أهلاً لإقراء هذا الكتاب وأصله، وأعرب عن ذهن وقاد يشهد بفطنة فطرته وفصله." (١)

ب - إجازة العراضة:

جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه أو أصوله، أو النحو، أو غير ذلك من الفنون، أن يعرضه على مشايخ العصر، فيفتح هذا الشيخ أبواباً من هذا الكتاب، ويستقريء الطالب من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير تلثم أو توقف، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وكتب له بذلك. (٢)

واضح أن الإجازة هنا تقتصر على الحفظ فقط، دون الإجازة بالإقراء أو التدريس، مثال ذلك، ما كتبه ابن الوردي: "أما بعد حمد الله على حسن البداية، والصلاة على نبيه محمد الموصوف في الكتب بما فيه الكفاية، وعلى آله وصحبه سفر النجاة ونجوم الهداية، وقد عرض علي فلان الدين محمد بن الحسن الحنفي من كتاب "البداية" مواضيع وافرة، أوائله وأواسطه وأواخره، فجرى فيه بلسان رطب فصيح جري من جمع بين طرفيه بالياء والنون وهذا جمع السلامة، وبالفاء والواو وهذا جمع التصحيح، فهو نجيب من نجيب، لا بل عجيب من عجيب، لا بل علم من علم، ومن يشابه أباه فما ظلم، فالحمد تعالى يرزقه العلم والعمل بما في الكتاب، وغير بدع لمحمد بن الحسن أن يعد من الأصحاب." (٣)

ج - إجازة بالرواية الأدبية:

وهي أن يجيز الشيخ لطالبه رواية جميع ما يجوز للشيخ روايته وإسماعه من محفوظات أدبية أو علمية نثراً أو نظماً، وهذا النوع من الإجازة غالباً ما يكون بين العلماء، ومثال ذلك ما أجاز به ابن الوردي لصلاح الدين الصفدي في قوله، بعد مقدمة بالغ فيها في الثناء على

(١) ديوان ابن الوردي: ٥٨

(٢) صبح الأعشى: ٣٦٩/١٤

(٣) ديوان ابن الوردي: ١٤٨ - ١٤٩

الصفدي، يقول: "ها قد أجزتك متطفلاً عليك، وأذنت لك متوسلاً إليك، أن تروي عني ما يجوز لي روايته وإسماعه ليتصل بك، فما اتصل بك أمن انقطاعه، من منقول ومعقول، وفروع وأصول، ونثر ونظم، وأدب وعلم، وشرح وتأليف، وبسط وتصنيف، بشرطه المضبوط، وضبطه المشروط، فأما مصنفاتي الشاهدة علي بقصور الباع، ومؤلفاتي المشيرة إلي بقلة الاطلاع، فمنها في الفقه: "البهجة الوردية في ونظم الحاوي"، وفوائد فقهية منظومة... الخ، حيث يعدد بعض هذه المؤلفات، ثم يقول: "أجزتك - أيدك الله - أن تروي عني الجميع بأفضالك. ورواية ما أدونه وأجمعه بعد ذلك حسبما اقترحه خاطرك العزيز، واستوجبت به مدحي، فأنا المادح، وأنا المجيز." (١)

وهذه الإجازة، عادة، تكون بطلب خطي ممن يريد لها، ويسمى "استدعاء إجازة"، حيث يطلب منه أن يجيزه برواية كل ما يرويه من مجاميع ومسانيد الحديث والمصنفات الأدبية وغيرها، ويزيد الطالب على ذلك بأن يكتب له شيوخه الذين روى عنهم من العلماء والأدباء، وممن لقيهم في أسفاره، ثم مصنفاته كاملة مما يعين المستدعي على كتابة ترجمة للشيخ، حيث تأتي الإجازة بصورة سيرة حياة ذاتية لصاحبها. (٢)

أما البناء الفني للإجازة، فغالباً ما تبدأ بمقدمة مناسبة يراعى فيها براعة الاستهلال، ثم ينتقل إلى مدح طالب الإجازة والثناء عليه، مما جعله جديراً بهذه الإجازة، ثم لفظ الإجازة ونوعها، وأخيراً يدعو للمجاز أن ينتفع بعلمه.

رابعاً - التقريظات:

وهو لون من ألوان الكتابة المتداولة بين الكتاب والأدباء في ذلك الوقت، ذلك أنه إذا صنف أحدهم كتاباً في فن من الفنون، أو نظم قصيدة فأجاد فيها، فإن أصدقائه وإخوانه من أهل تلك الصناعة يكتبون على كتابه أو قصيدته تقریظاً، يحاول كل منهم جهده أن يأتي بما في وسعه من البلاغة والفصاحة في ذلك التقريظ أو المدح. (٣)

فمما كتب تقریظاً للمصنفات، ما كتبه صلاح الدين الصفدي على كتاب "تسيم الصبا" لابن حبيب، يقول: "وقفت على هذا المصنف الموسوم بنسيم الصبا، والتأليف الذي لو مر بالمجنون لما ألف ليلاه ولا مال إليها ولا صبا، والإنشاء الذي إن شاء قائله جعل كلام غيره في

(١) ديوان ابن الوردي: ٩٧ - ١٠٣

(٢) انظر: الوافي: ٢٧٦/٥ - ٢٨١

(٣) صبح الأعشى: ٣٧٨/١٤

هبات الهواء هباء، والنثر الذي أغار قائله على سبائك الذهب الإبريز وسبا، والكلام الذي نبا عنه الجاحظ جاحداً ومالا ذكر ولا نبا، فسبحت جواهر حروفه لمن أوجده في هذا العصر، وعلمت أن ألفاظه ترمي قلوب حساده بشرر كالقصر، وتحققت أن قعقة طروسه أصوات أعلامه التي تخفق بالنصر. وتيقنت أن سطور غصونه لا تصل إليها كف جناية بجني ولا هصر.، ويمضي الكاتب في الثناء على هذا الكتاب: "هذا الفن الفذ، والنثر الذي قهر أقران هذه الصناعة وبذ، والأدب الذي سد الطرق على أوابده فما فاتته شيء ولا شذ، وهذا الإنشاء الذي ما له عدل في هذا العديد ولا ضريب، وهذا الكلام الذي فاق في الآفاق فما لحبيب بن أوس حُسْنُ حَسَن بن حبيب، فعين الله على هذه الكلم الساحرة، والفوائد التي أيقظت جفن الأدب بعدما كان بالساهرة." (١)

ومما كتب تقریظاً على الأشعار ما كتبه صفي الدين الحلي على مقطعات شعرية لابن حبيب حينما أطلععه عليها، حيث كتب عليها نحو عشرين سطراً منها: "لمحت هذه الملح الأدبية، والشذور الذهبية لمح معتبر لمعانيها، مختبر لمبانيها، فرأيت بها من التوجيه ما يعجز عنه ابن الوجيه، وينبه على فصاحته ابن النبيه، ومن البديع ما يطوي ذكر الطائي إذا انتشر، ويخفي اسم البحراري إذا ظهر، وشهدت إذ شاهدت نفاثات فيه أنه قد ورث فصاحة سميّه وسمي أبيه، فقلت :

لم يسبق الحسن به هاني غاية
وكذاك لم يبلغ حبيب رتبة
إلا وللحسن اغتدى كجنيب
إلا تجاوز شاوها ابن حبيب (٢)

وكما هو واضح، فإن الكاتب يقارن بين أدب هذا الأديب وبين سابقيه ممن يسمون باسمه، فهو هنا يقارن بينه وبين البحراري وأبي تمام، كما يوازن بينه وبين الحسن بن هاني (أبي نواس)، مما يظهر أن الكاتب قد سبق هؤلاء في ميدان الأدب، وبذهم في ميادين الشعر والفصاحة.

هذه التقریظات التي نجدها على المصنفات والأشعار كثيرة في هذا العصر، ولا مجال لحصرها، فهذان نموذجان كافيان لإعطاء صورة على هذا النوع من المكاتبات الإخوانية التي تبودلت بين الأدباء، إذ إنها بمجملها تتركز حول الثناء على عبارات المصنف أو القصيدة وألفاظها وبديع صناعتها، وأن قائلها قد تفوق على سابقيه من أهل هذه الصناعة، وفي نهاية التقریظ يدعو الكاتب أن تعم الفائدة من هذا المصنف أو هذه الأشعار.

(١) ابن حبيب، نسيم الصبا، المطبعة الوطنية، الإسكندرية، ١٢٨٩ هـ، المقدمة ص ٦ - ٧ وانظر أيضاً: تذكرة النبيه: ٢٧٠/٣

(٢) تذكرة النبيه: ٢١٦/٢

الرسائل الأدبية

مفهومها: هي نوع من النثر الفني الذي شاع في ذلك العصر، يعبر فيه الكاتب عن أنفسهم، وما يجول في خواطرهم من أفكار وتجارب ومشاعر، وتختلف عن أنواع المكاتبات السابقة من حيث إنها قد يكتب بها إلى شخص آخر، وقد لا يكتب، بل تبقى نوعاً من الأدب الذي يعبر عن ذات الكاتب فحسب، وربما شابه هذا النوع من الرسائل المقالات الأدبية في أيامنا الحاضرة، وربما كان هذا ما عناه القلقشندي حين عقد فصلاً بعنوان "الرسائل" قال فيه: "وهي جمع رسالة، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد أو مدح وتقريض أو مفاخرة بين شيئين أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشيء لها ربما كتب بها إلى غيره مخبراً فيها بصورة الحال، مفتحة بما تفتتح به المكاتبات، ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها. (١)

وقد وجدت أن من هذه الرسائل أنواعاً منها: الرسائل الملوكية، ومنها رسائل يكتبها الشاعر تجربة لخطره وبيان قدرته على الكتابة في الموضوعات الصعبة النادرة، ومنها الموازنات والمفاخرات، والرسائل العلمية، ثم رسائل الوصف ورسائل المعارضات. وسوف أحاول تبين هذه الأنواع بالتفصيل.

أولاً - الرسائل الملوكية

أطلق القلقشندي في "صبح الأعشى" هذا الاسم على نوع من هذه الرسائل، ولم يفصل المقصود بها، بل ذكر منها نوعين هما: رسائل الغزو ورسائل الصيد. والذي أراه أن هذا النوع من الرسائل ربما يختص بالموضوعات ذات الصلة بالملوك، وقد حددت ثلاثة موضوعات لها هي: الغزو، والصيد والطرْد، والبنْدَق.

أ - رسائل الغزو:

وهي رسائل مطولة في وصف معارك حاسمة أو فتوحات مهمة، قادها السلطان بنفسه، فينشئ الأديب رسالة يفصل القول فيها في خبر هذه الغزوة وتحركات السلطان ووصف ما مر به من بلاد وأراض إلى وصول الجيش أرض المعركة، فيصفها وصفاً دقيقاً مفصلاً، ثم يبين

نتائجها، ثم يعود إلى وصف حركة السلطان في طريق عودته من المعركة واصفاً ما يمر به الجيش المظفر من بلدات ومدن وأعمال السلطان فيها، ثم ينهي بوصول السلطان إلى مصر، ويختتم رسالته بالدعاء للسلطان.

والأصل في هذا النوع من الرسائل الإطالة فيها، بل على الكاتب أن يفعل ذلك، وهذا ما يعبر عنه شهاب الدين الحلبي (١).

وبين أيدينا نموذجان من هذه الرسائل: الأولى أنشأها محيي الدين بن عبدالظاهر بفتح الملك الظاهر لقيسارية من بلاد الروم، واقتلاعها من أيدي التتار واستيلائه على ملكها، وجلوسه على تخت بني سلجوق، ثم العودة منها إلى مملكة الديار المصرية، كتب بها إلى الصاحب بهاء الدين ابن حنا وزير الملك الظاهر (٢) وهي تبدأ بمقدمة قصيرة فيها من ألفاظ التعظيم وعبارات الدعاء لمن أرسلت له، ثم يبين قصده من هذه المكاتبة فيقول: "رأى أن يتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلمح يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يؤرخ أو يصنف... فإن كان المملوك قد طول في المطارحة، فمولانا يتطول في المسامحة، وإن قال أحد: هذا هذى، فمال زال شرح الوقائع مطولاً كذا..." وكأنني بالكاتب هنا أنه على وعي من هدفه وقصده، فهو يطيل، لعل في هذه الإطالة أولاً فائدة لمن يؤلف أو لمن يؤرخ، وثانياً لأن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى إطالة وتفصيل.

ثم ينتقل إلى وصف تحركات السلطان موثقاً ذلك بالزمان والمكان، ومن ذلك قوله: "ورحلوا من حلب يوم الخميس ثاني ذي القعدة، جرائد على الأمر المعهود، قد خفضوا كل شيء حتى البنود والعمود، فسرنا في جبال نشتهي فيها سلوك الأرض، وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض، نزور دياراً ما نحب مغناها، ولا نعرف أقصاها من أدناها... ومررنا على مدينة دلوک وهي رسوم سكانها، ضاحكة عن تبسم أزهارها، مقهقهة غدرانها، ذات بروج مشيدة وأركان موطدة، ونيران تزاويق موقدة في عمد من كنانسها معددة، وسرنا منها إلى مروج الديباج نتعادي، وذلك في ليلة ذات أندية وإن لم تكن من جمادى، ظلماتها مدلهمة، وطرقاتها قد أصبح أمرها علينا غمة... وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفي الرفيق عن رفيقه، وتشغل عن اقتفاء طريقه، حولها معائر أحجار كأنها قبور بعثرت أو جبال تفتطرت، بينها مخاض لا بل مغاض كأنها بحار فجرت، ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجدول وتعممت بالثلوج،

(١) انظر ص ٩٥ من هذا البحث.

(٢) صبح الأعشى: ١٥٧/١٤ - ١٨٨، ووردت الرسالة في الروض الزاهر: ٤٥٣ - ٤٧٢

فعميت مسالكها فلا أحد إلا وهو قاتل: "فهل إلى خروج من سبيل، أو إلى سبيل من خروج، تضيق مناهجها بمشي الواحد، وتلتف شجراتها التفاف الأكمام على الساعد، ذات أوعار زلقة، وصدور شرقية، وأودية بالمزدحمين مختنقة." ويستمر الكاتب في هذا الوصف إلى أن يصل الجيش إلى أرض المعركة، فيصف جيش العدو وترتيبه، وجيش المسلمين واستعداداته، يقول: "وترتب المغل أحد عشر طلباً، كل طلب يزيد على ألف مقاتل، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً بمفرده، ولما شاهدوا السناجق السلطانية، ومن حولها المماليك الظاهرية، وعليهم الخوذ المذهبة نفضوا ما عقدوه من العزائم وحلوا، وسقط من أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا."

ثم يصف المعركة وصفاً نابضاً بالحياة، يقول: "فأخذت فرقة منهم إلى الأرض وقاتلت، وعاجت المنايا على نفوسهم وعاجلت، وجاء الموت إلى العدو من كل مكان، وأصبح ما هال منهم وقد هان... فكم منهم من شجاع ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه، وحامى وناضل ورامى، وكم فيهم من شهيم ما سلم قوسه وقد بقي في كنانته سهم، وأما العدو فاشتدت فرقة منهم في جهة الميسرة معرجين على السناجق من خلفها، ومتقلبين بصفوفهم على صفها.. وثاب السلطان إليهم، ووثبت عليهم، وضحي منهم بكل أشمط، وأفرى الأجساد وأفرط... وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذو بأس شديد، فقاتلهم حتى ضجر الحديد.."

ثم يبين الكاتب نتيجة المعركة، يقول: "أصبح الأعداء لا ترى منهم إلا أشلاء مطروحة، ودماء مسفوقة مسفوحة... كم شوهد منهم من رؤوسهم مهيب الهامة، قد فض الرمح فاه فقرع السن ندامة، وكثرت الأسارى من المغل، فاختر السلطان من كبرانهم البعض، وعامل بقيتهم بقول الله تعالى: "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض".. وهكذا تتجلى المعركة عن انتصار المسلمين وهزيمة الأعداء... ثم يرحل السلطان من أرض المعركة متوجهاً إلى قيسارية، حتى إذا وصلها يخرج أهلها مرحبين بالسلطان، ثم يصف صنيع السلطان في مدة إقامته في هذه المدينة إلى أن تبدأ رحلة العودة، ويطنب الكاتب في وصف هذه الرحلة، وأخيراً ينهي رسالته هذه بابيات شعرية في مدح السلطان.

وأما الرسالة الثانية من رسائل الغزو فهي من تأليف القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر، وهي في بيان خبر وقعة مرج الصفر بين المسلمين بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتتار بقيادة غازان، وقد سماها "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"، وهي رسالة لم يبعث بها إلى أحد، وهي تفسير وفق الرسالة السابقة، حيث تبدأ بخطبة في الجهاد والحث عليه وبيان فضل المجاهدين في سبيل الله، ثم يبين فضل السلطان وجهاده، ينتقل بعدها إلى وصف أحداث هذه الغزوة منذ أن غادر السلطان الناصر القلعة بجيوشه، إلى أن عاد إليها مظفراً، يقول: "قد أحببت أن أذكر من أمرها ملحة تتشرح بها الصدور، وأتي بلمعة تعرب عن ذلك النور، وما أنا أذكر نبأ السفر من افتتاحه، وأشرح حديث هذه الغزاة من وقت صباحه، فأقول: ركب مولانا السلطان الناصر، خلد الله ملكه، بنية صالحة أخلصها في سبيل ربه، وعزيمة ناجحة ماثلت في

المضياء سمر عواليه وبيض قضبه، من قلعة مصر التي هي كنانة الله في أرضه، بجيوشه التي نهضت بسنن الجهاد وفرضه، تقدمها أمراؤه الذين كأنهم ليوث غاب أو غياث سحاب، أو بدور ليال أو عقود لآل..". ويمضي في وصف الجيش ووصف مسيره إلى أن يصل إلى مرج الصفر، يقول: "ووصل مولانا السلطان غزة والإسلام - بحمد الله - قد زاد قوة وعزة، ثم رحل بعزم لا يفتر عن المسير، وجيش أقسم النصر أن لا يفارقه، وأن يصير معه حيث يصير، إلى أن وصلوا يوم السبت الثاني من شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعمئة، وهو أول أيام السعود، واليوم الذي جمع فيه الناس، وذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، إلى مرج الصفر، الذي هو موطن الظفر، ومكان النصر الذي يحدث عنه السماء بأطيب سمر..."

ثم نجد وصفاً لجيوش المسلمين وأسلحتهم: "هذا والسيوف قد فارقت الأغماد، وأقسمت أنها لا تقر إلا في الرؤوس، والأسنة قد أشرعت وآلت أنها لا يروى ظمؤها إلا من دماء النفوس، والسهام قد التزمت أنها لا تتخذ كنانتها إلا من النحور ولا تعوض عن حنايا القسي إلا بحنايا الأضالع أو لترفعها لا تحل إلا في الصدور، والدروع قد لزمت الأبطال قائلة: لا أفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين، والجياد حرمت وطء الأرض وقالت لفرسانها: لا أطأ إلا جثث القتلى ورؤوس الملحدين، فلا ترى إلا بحرًا من حديد، ولا تشاهد إلا لمع أسنة أو بروق سيوف تصيد الصيد".

وأما جيش العدو فعادة الكتاب والشعراء الإطناب والمغالة في وصف عدده وعدده، يقول: "ولما كان بعد الظهر، أقدم العدو - خذله الله - بعزائم كالسيوف الحداد، وجاء على قرب من مقدمنا فكان هو والخذلان على موافاة، وجئنا نحن والنصر على ميعاد، وأتى كقطع الليل المظلم، بهم لا تكاد لولا دفع الله عن بزاتها تحجم.."

ويصل كاتبنا إلى وصف المعركة، فيطنب في ذلك ويقول: "والتقى الفريقان بعزائم لم يبينسها في الحرب نكول ولا تقصير، فكان جمعنا والله الحمد جمع سلامة وجمعهم جمع تكسير، وحمي الوطيس، وحمل في يوم السبت الخميس على الخميس، ودارت رحى الحرب الزبون، وتمنت السيوف بشرب الكماء كأس المنون... وقامت الحرب على ساق، والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق، وأتى العدو جملة واحدة، وحمل حملة أمست بالنفوس جايدة، ونكب على الميسرة، وقصد الميمنة والقلب، وهاله جمع الإسلام فأراد أن يخلص بانحيازه من شدة الكرب.. وحصرتهم العساكر الإسلامية بعزائم كالشهاب أو النار، ودارت عليهم كالسوار والسوار، وصيرتهم بقدرة الله في ربة الإسار، وقاتلتهم الجيوش المنصورة غير محتمة بقرى محصنة ولا من وراء جدار، تتلظى كبودهم عطشاً وجوعاً، ويكادون من شدة الهجير يشربون من سيل قتلاهم نجيعاً..". ويمضي الكاتب في وصف المعركة بكل فعالياتها وأعمالها العسكرية، حتى تتكشف عن نصرة المسلمين، فيعلن عن النتيجة: "وما انقضى ظهر يوم الأحد إلا والنصر قد خفقت بنوده، والحق سبحانه وتعالى قد صدقت وعوده، وطائر الظفر قد رفرف بجناحه وطار باليمن والسرور، ونسيم الريح قد تحملت رسالة التأييد فسارت إلى الإسلام بالصبا وإلى العدا بالدبور.."

وبعد انتصار المسلمين يتوجه السلطان إلى دمشق، فيصف الكاتب فرحة أهلها بقدوم السلطان: "وعادت المآتم بدمشق أفراحاً وأعراساً، وربوع الهناء قد عوضها أمن مقدمه الوحشة إيناساً، هذا والأنهار تسير ركابه، وقد صبغت من دماء العدا بأحمر (قاني)*، والأشجار تميل طرباً بالهناء، كما يميل النشوان بين الأغاني، والحمام يطرب بحسن الألحان والتغريد، وقد أقسمت لا تتوح، وكيف تتوح وقد خضبت كفها وطوقت الجيد." ثم يصف مغادرة السلطان دمشق، فيصف حزنها لفراقه، ويسير في ركب السلطان إلى وصوله للديار المصرية، وهنا يطنب الكاتب بوصف مظاهر الزينة والفرح بمقدمه، ثم يصور ركوب السلطان في موكب كريم حف به النصر إلى تربة والده، حيث يقص قصة النصر لروح والده، وليتخذ ذلك مناسبة ليشيد بالسلطان ووالده.

وأخيراً يصف عودة الموكب السلطاني إلى القلعة، ويختتم الرسالة داعياً للسلطان بدوام النصر، يقول: "قاله تعالى يمتع الدنيا منه بملك حمى شاماً ومصرأ، وأذاق التتار بعزائمه مصائب تترى، وحسبنا الله ونعم الوكيل." (١)

هذا، إذن، هو الموضوع الأول من الرسائل الملوكية، اشتمل على وصف حي ودقيق للمعارك والغزوات المهمة التي غزاها السلاطين، خلدت ذكرها، وأبقتها حية في ذاكرة التاريخ، وقد تضمنت جملة من المعاني منها: الوصف الدقيق للمعركة، والتفصيل الموثق للأراضي والبلدان التي يقطعها الجيش، كما اشتملت على وصف للجيشين المتقاتلين وللأسلحة المستخدمة، بالإضافة إلى بيان نتيجة المعركة وما حل بالعدو من هزيمة، مما يجعل هذه الرسائل بحق وثائق تاريخية جغرافية أدبية، فإذا كانت العصور السالفة قد خلدت لنا قصائد في الروميات مثلاً، فإن عصرنا هذا قد أضاف لنا رسائل خالدة في المعارك مع المغول، مما يحق لنا أن نسميها "المغوليات" أو "التتريات".

(١) السلوك: ١٠٢٧/١ - ١٠٣٩ نقلا عن: نهاية الأرب المخطوط: ٣٣٧/٣٠ وما بعدها.

* وردت هكذا في النص. وصوابها: قان.

ب - رسائل الصيد والطرْد:

ومن الموضوعات التي تخص الملوك، وتجلى فيها إبداع الأدباء والكتاب في ذلك الوقت موضوع الصيد والطرْد، وقد أطلق الأدباء فيها العنان لخيالهم، يسرحونه في الجبال والوديان حيثما يسير ركب السلطان، فيخلق مع الطيور في الجو، ويسابق الخيول والضواري، بل ويلحق بالظباء والبقر الوحشية، فها هو القاضي تاج الدين البارنباري (٧٥٦هـ) يكتب رسالة في صيد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فيبدأها بخطبة قصيرة مناسبة، ثم يذكر أن منشأ سعادة الملوك من حالين:

أولاهما: في الحرب وهي الجهاد وقتال العدو، والثانية: في السلم وتتمثل في الصيد والطرْد، ثم يصف مسير السلطان وموكبه مروراً بالنيل إلى أن يصل أرض الصيد، فيبدأ بصيد الطيور، حيث يرسل البزاة والصقور، فتعود بالصيد الوفير، "حتى ينسخ النهار الليل بظلماته، ويلمع الطارق بأضوائه"، فيعود الركاب الشريف إلى المخيم والجوارح كاسبة، والأقذار واهبة، والجوارح مسرورة، والطيور مأسورة" وفي الصباح تقدم له الجياد المسومة، ويسرح إلى صيد الوحش، فتعد العدة لذلك، فيصف الكاتب مستلزمات هذا الصيد وعدته، وأولها الخيول الضوامر، حيث يصور أشهبها وأحمرها وأدهمها، ومن ذلك قوله: "ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير، فعند ذلك يثني عنان السير إلى اقتناص الوحش، فيعد لإمساكها كل هيكل قيد الأوابد، قد عقد الخير بناصيته فأحسن المعاهد، فمن أشهب كريم المغار ذي إرهاب من النهار، وأديم كأنه صحيفة الأبرار، أبيض مثل الهدى، له في الصبح إشارة النصر وإغارة على العدا"... وبعد أن يصف الخيول، يصف الفهود والكلاب المدربة، ثم ينتقل إلى وصف الحيوانات المصيدة من نعام وظباء وبقر وحشية، يقول: "ومن ظباء مسودة الأحداق، حكّت الحبانب في كحل المقل وحسن سواف الأعناق، ابيضت بطونها، واحمرت متونها، وراقت أوراقها، وحلكت أماقها، نافرة في صحرائها، طيب مرعاها..".

ويستمر الصيد حتى ينال السلطان حظه الوافر منه، فيختم الكاتب الرسالة ببيان أهداف الرحلة، فهي في ظاهرها لهو، وفي باطنها تمرين الجنود على الحرب، "هذا كله، وإن كانت النفس تراه لهوًا، وتبلغ به كل ما تهوى، ففي طيه من تمرين الجنود على الحرب ما تشد به العزمات وتقوى." (١)

هذا وقد سار الكتاب على هذا النهج، حيث يصفون أدوات الصيد، فبعضهم يطيل، وبعضهم الآخر يوجز، ثم يصفون ما يصاد من طير وأوابد، وقد جمع شهاب الدين محمود عمل هذه الأدوات، حيث أبدع في وصفها، يقول: "ومعنا غلمة نحن بسهامهم منها أوثق، وهم بإصابة

شواكل المراد من كل ما ذكر يحذق، إذا أخذ كل منهم حنيته أروانا القمر في القوس، وإن نظم رميته قبل هذا حبيب وإن لم يكن ابن أوس، فما لاح طائر إلا وله السهام أجل، ووراءه من زجل الجوارح وجل، إن أخطأ هذا أصاب ذاك، وربما كان لهما استهام في تحصيله واشتراك، وإن سنج وحش فالسهم أدنى إلى وريده من قلادة جيدة، فإن فات فالكلب أعرف باختلاسه منه بكناسه، وأسرع إلى احتباسه من رجع أنفاسه، وإلا فالفهد أسرع إلى لحاقه من أجله، وألزم لعنقه لو كان يعقل من عمله". (١)

فبينما وصفت لنا الرسالة الأولى صيداً منظماً، يبدأ بصيد الطير باستخدام الباز والصقر والجوارح، ثم يثني بالكلاب والضواري لقنص النعام والظباء والبقر الوحشية، فإن شهاب الدين محمود يصف لنا صيداً مختلطاً يبدأ بإطلاق الغلمان لسهامهم ورميهم على الطير حيثما لاحت، أو الوحوش حيثما سنحت، فإن أخطأتها سهامهم انطلقت خلفها كلابهم، وإلا فالفهود كفيلة باللحاق بها وصرعها.

ج - رسائل البندق

وهو نوع من أنواع الصيد، عرف في تلك العصور. وقد اشتملت هذه الرسائل كما يقول القلقشندي على حال الرمي بالبندق وأحوال الرماة وأسماء الطيور المصيدة، واصطلاح الرماة وشروطهم. (٢)

والمتتبع لهذه الرسائل يجدها تدور حول هذه الموضوعات، فيحدد الكتاب زمن الخروج للصيد، وغالباً ما يكون في المساء، والشمس توشك على الغروب، يقول شهاب الدين محمود من رسالة: "فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمداً، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود، فكأنها كئيب أضحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدة الرمي، وقد اخضلت عيون النور لوداعها، وهم الروض بخلع حلتها المموهة بذهب شعاعها..".

ويستمر الموكب في المسير حتى يحل الليل، ويخيم بظلامه عليهم، فيحط الركب رحاله في "حدائق ملتفة، وجداول محتفة، إذا جمش النسيم غصونها اعتنقت عناق الأحباب، وإذا فرك مرّ المياه متوئها انسابت في الجداول انسياب الحباب... وطلها في خدود الورد منبعث وفي طور الرياح حيران، وطائرها غرد، وماؤها مطرد..".

(١) حسن التوسل: ٣٤٨

(٢) انظر: صبح الأعشى: ٣٢١/١٤

(٣) حسن التوسل: ٣٥٤ - ٣٥٧، والرسالة في: صبح الأعشى: ٣٢٧/١٤ - ٣٤٠ ومطالع

البدور: ٢٢٢/٢

ثم نجد وصفاً للطيور التي تكثر في تلك الرياض، تلك التي ستكون أهدافاً للرمي، "وكان صواف الطير المبيضة بتلك الملح خيام أو ظباء بأعلى الرقمتين قيام، أو أباريق من فضة رؤوسها لها فدام ومناقيرها المحمرة أوائل ما انسكب من المدام، وكان رقابها رماح أسنتها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما انطفأ وأحمره ما التهب." ولشلة الصيد وصف في هذه الرسائل، فقد يطنب الكتاب في ذلك وقد يوجزون. وقد أوجز شهاب الدين محمود في ذلك بقوله: 'وكنّا كالطير الجليل عدة، وكطراز العمر الأول جده:

من كل أبلج كالنسيم لطافة عف الضمير مهذب الأخلاق
مثل البذور ملاحه وكعمرها عدداً ومثل الشمس في الإشراق (١)

أما ابن حبيب فيفصل في وصف هذه الزمرة، فيقول: "ورأينا بها عصابة من الرماة، وفرقة تفرق منهم الأبطال والكماة، فالمنّا بحضرتهم، وانتظمتنا في سلك زميرتهم، فلما أنست بدارهم، وأنست نار قراهم، شاهدت قوماً نفوسهم أبيّة، ومقاماتهم عليّة، في وجوههم سيما القبول، ومعهم وصول بالوصول، يراعون حق الزمام، ويقتفون آثار الكرام، ويرفلون في حلل العفاف، ويسكلون سبل الإنصاف، ويحفظون الحديث عن القديم، ويثبتون الصحيح وينفون السقيم، ويوقرون الكبير، ويرضون من العيش باليسير، ويعتمدون حسن الوفاق مع الرفاق، ويعرضون عن أهل العرض، لعلمهم أن ما عندهم ينقد وما عند الله باق.. جماعة طريق حرمهم للنزول قبله، وحسن شيم للعقول عقله، كم فيهم قد أحجل الدمى، ورشيق قد جبل طرفه على سفك الدما... (٢)

وهكذا نجد وصفاً كاملاً لهذه الزمرة، يركز على الوصف الخُلقي والخلقي، فيوصفون بصفات الوسامة والملاحه، كما يتحلون بالخلق الكريم، مما يحق لنا مع ذلك وصفهم بصفات الفتوة التي عرفت في ذلك الوقت، أو بسمات الفرسان التي عرفت في أوروبا في تلك الفترة.

ومما وصف في تلك الرسائل أيضاً القسي أو آلات الرمي. يقول ابن حبيب في ذلك: "بأيديهم قسي قدورها رشيقه، وملابسها مدبجة أنيقة، من الطين اللازب نجمها، ومن الدمقس المفتل لحمها، أجاد خرمها الصنّاع، وهذبت كماء الرماة منها الطباع، كأنها حواجب مقرونة، أو نونات معرقة موضونة، أو أهلة مشرقة النور، أو مناجل لحصاد أعمار الطيور." (٣)

كما يصف الكتاب كرات البندق، يقول: "ومن البنادق كرات متففة السرد متحدة العكس والطرء،

(١) حسن التوسل: ٣٥٧

(٢) ابن حبيب، نسيم الصبا، المطبعة الوطنية، الإسكندرية/ ١٢٨٩: ٨٧

(٣) المصدر نفسه: ٨٨

كانما فرطت من المنديل الرطب، أو عجنت من العنبر الورد، ترى كالشهب في الظلام، وتسبق إلى مقاتل الطير مسددات السهام." (١)

وبعد هذا الوصف، ينتقل الكاتب إلى وصف عملية الرمي وصيد الطيور، فيصف فعل كل من في الزمرة واحداً واحداً، يقول الحلبي: "فوثب إليها الثامن وثبة ليث قد وثق من حركاته بنجاحها، ورمها بأول بندقة فما أخطأ قادمة جناحها، فأهوت كعمود صرع، أو طود صدع، قد ذهب بأسها، وتذهب بدمها لباسها... فحملها بجناحها المهيض، ورفعها بعد الترفع في أوج جوها من الحضيض، ونزلا إلى الرفقة جذلين بربح الصفقة، فوجدا التاسع قد مر به كركي طويل السفار، سريع النصار، شهي العراق، كثير الاغتراب يشتبو بمصر ويصيف بالعراق... فصبر له حتى جازه مجلياً، وعطف عليه مصلياً، فخر مضرجاً بدمه، مشرفاً على عدمه، وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون، وأصابه القدر بحبة من حمأ مسنون، فكثر التكبير من أجله، وحمله راميه من على وجه الأرض برجله." (١)

وهكذا تمضي هذه الرسائل في وصف الرمي بالبندق وأحواله، فتصف زمار الصيد ومكانه، وحالة الجو المفضلة للصيد وزمانه، ثم تبين صفات الرماة أو زمرة الصيد، فتذكر من صفاتهم ما يضعهم في عليا القوم خلقاً وخلقاً، ثم يصف أدوات الصيد المكونة من القوس والبندق، وأخيراً يفصل القول في وصف الطيور المصيدة وكيفية صيدها، وغالباً ما نجد أن أفراد الزمرة جميعاً قد ظفر كل منهم بصيد ثمين، وتنتهي الرسالة بعودة المجموعة ظافرين سالمين.

هذا هو النوع الأول من الرسائل الأدبية التي أطلق عليها اسم الرسائل الملوكية، وقد تضمنت ثلاثة أنواع من الموضوعات، أو على الأخص موضوعين:

الأول: وصف المعارك وأحوالها، والثاني: وصف الصيد والطرود وأحواله، وفي كلتا الحالتين وصف لنوعين من الرحلة يقوم بها الشخص المعني: الأولى للحرب والقتال، والثانية للصيد والطرود. ولكني أثرت تقسيم رحلة الصيد إلى قسمين نظراً لاختلاف الوسائل المستخدمة في كل منها، فبينما تستخدم الجوارح والضواري في رحلة الصيد والطرود الأولى، تستخدم كرات البندق لرحلة الصيد الثانية، كما أنها تقتصر على صيد الطيور، بينما الأولى تصاد فيها الطيور والوحوش من غزلان وحمير الوحش وغيرها... وقد أبدع الكتاب في وصف هذه الجوانب كلها، وعبروا عن روح عصرهم وواقعه.

ثانياً: رسائل تجربة الخاطر

ذلك النوع من الرسائل التي تكتب اختباراً للقريحة، وامتحاناً لقدرة الكاتب على الكتابة، وغالباً ما تختار موضوعاتها من الموضوعات النادرة التي لا تخطر بذهن الكاتب، ويصعب على بعضهم الإتيان بمثلاً، أو النسخ على منوالها، وقلما يبعث بها إلى شخص آخر، وبعبارة أخرى، فإن هذه الرسائل امتحان لقدرة الكاتب على الكتابة في الموضوعات النادرة، وقد ذكرت بعضاً من هذه الموضوعات في الأسئلة التي بعث بها جمال الدين بن نباتة إلى كتاب ديوان الإنشاء بالشام، عندما بلغه أنهم قد نالوا منه في حضرة شهاب الدين محمود، وهذا بعض آخر من هذه الأسئلة: "كيف يكتب ملك طلب منه عدو قطيعة عن جيشه يعطيها... وكيف يهنئ من زوج بعد موت أبيه أمه، ويعزي والدك قتل ولده، وولدا قتل والده، ويصوب حكمه؟ وكيف يكتب عمن حاصر حصناً وتركه بعد تسهيل المسالك؟ وكيف يكتب في نيل لم يوف، لا أحوج الله لذلك؟ ويعزي كافرًا عن بعض الأعداء الألزام؟ وينشئ عهد يهودي بوزارة أمير المؤمنين؟" (١)

وقد حاول بعض كتاب العصر اختبار أقلامهم في موضوعات تنوعت اتجاهاتها وموضوعاتها، فمنها ما يمكن وضعه ضمن الرسائل الديوانية الخارجية التي ترسل إلى الملوك الآخرين، ومن ذلك كتاب شهاب الدين محمود إلى ملك غير مسلم لكنه غير محارب، يهنئه بانتصار المسلمين على التتار في بعض معاركهم، ومنه قوله في صورة كتاب لبعض ملوك البحر ولم يكتب به كما يقول: "صدرت هذه المكاتبة مبشرة له بما منحنا الله من نصرة أجزل الصفاء منها سهمه، وأكمل الوفاء من التهنة بها قسمه، وخصه الود بأجل أجزائها، وأجلسه الاتحاد على أسرة مسرتها، إذا أجلس العناد غيره على بساط عزائها، علماً بأنه الصديق الذي يهجه مسار صديقه، والصاحب الذي يرى مساهمة صاحبه في بشرى الظفر بأعدائه أدنى حقوقه.." (٢)

وتمضي الرسالة في ذكر أسباب المودة التي تقضي مشاركتها لصديقه في المسار، ووصف ما جرى بينهم وبين أعدائهم من قتال، وما ألحقوه بهم من قتل وهوان.

ومن تلك الرسائل، رسائل داخلية موجهة من السلطان إلى الأمراء، أو العكس، ومنها رسالة كتبت إلى من هزم جيشه، تتضمن إقامة عذره ووصف اجتهداه، وتحت على معاودة عدوه والطلب بثأره، إذ يحاول تبرير الهزيمة بأنها قضاء وقدر لا مرد له، ويحثه على الجهاد من أجل الطلب بالتأثر، يقول:

(١) صبح الأعشى: ٢٨٢/١٤

(٢) حسن التوسل: ٣٣٨

"هذا هو الموقف الذي قام مقام النصر إذ فاته النصر، والمقام الذي أصيب فيه من أصحابه أحاد يدركهم أدنى العدو، فقد فيه من أعدائه مع ظهورهم ألوف لا يدركهم الحصر، وكذا فليكن قلب الجيش كالقلب يقوى بقوته الجسد، وإذا حق اللقاء فلا يفر من كناسه إلا الطبي، ولا يحمي عرينه إلا الأسد، وما بقي إلا أن تعفو الكلوم، وتثوب الحلوم، وتندمل الجراح، وتبرأ من فلول المضارب صدور الصفاح... والليث إذا جرح كان أشد لثباته وأمد لوثباته، والموتور لا يصطلى بناره، والثائر لا يرهب الإقدام على المنون في طلب ثاره، والدهر ذو دول، والزمان مثلون." (١)

ومما يدخل في هذا الجانب رسالة إلى من هزم أيضاً، ولكنها تتضمن ذمه وذم جيشه وتقريعهم والتهكم بهم، ونسبتهم إلى الوهن والضعف من الذلة والتقاعس عن القتال، مما كان سبباً في الهزيمة، منها قوله: "بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها العدو بجمع قليل غناؤه، ضعيف بناؤه، كثيف في رأي العين جمعه، خفيف في المعنى وقعه ونفعه، وأسرع في مفارقة المجال من الظل في الانتقال، وأشبه في مماثلة الوجود بالعدم من طيف الخيال".

وتستمر الرسالة في تقريع المهزومين والتهكم بهم، إلى أن تصل إلى استنهاض همهم، وتقوية عزائهم، يقول: "وبعد، فإن كانت له حمية فستظهر آثارها، أو أريحية فستشرب نارها، أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية، وتبعثه على طلب غايتين: إما شهادة مريحة أو حياة هنية." (٢)

ومن هذه الرسائل أيضاً، رسالة كتبت على لسان المهزوم، تتضمن الاعتذار ووصف اجتهداه على الأخذ بالثأر، والمهزوم هنا لم يقصر في إعداد العدة للقتال، ولا في ساحات الحرب والنضال، إنما كان ذلك بسبب ما أظهره الجيش من عجب وطمع، يقول: "فحصل لجندنا إعجاب أعجل سيوفنا أن تتم هدم بنائهم، وطمع منع فوارسنا أن تكف عن النهب إلى أن تصير من ورائهم، فاغتنم العدو الفترة التي ساقها المهلكان: العجب والطمع، وانتهاز فرصة الكرة التي أعانها عليها المطعمان، إبداء الهلع وتخليّة ما جمع، فانتثر من جمعنا بعض ذلك العقد المنتظم." (٣)

وقد تتضمن هذه الرسائل موضوعات اجتماعية إخوانية، منها رسالة على لسان مولود إلى والده، ولد والوالد في سفر، تظهر لنا شوقه وتعبه لرؤية والده، يقول: "وينهي أنه تعجل الشوق على صغره، وكان كمال المسرة به أن يقع نظر مولانا الشريف عليه قبل البشري بخبره،

(١) حسن التوسل: ٣٨٥ - ٣٨٧

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٧ - ٣٨٩

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٩ - ٣٩٠

لتلقي عليه أشعة سعادة مولانا في ساعة ظهوره، ويكسى قبل أن تلقي عليه الملابس من إشراق محياه الكريم حلل نوره.. فإن من يكون نجل مولانا تتطرق بالنجابة مخايله، وتدلل على الشجاعة سماته قبل أن تدل عليها شمائله، والهلال سيصير في أفقه بدرًا منيرًا، والشبل سيعود كأبيه أسدًا هصورًا". (١)

ومما يدخل في باب الموضوعات الاجتماعية أيضًا، رسالة إلى إنسان يتضمن مخاطبته في تزويج أمه، منها قوله: "وإذا كانت المرأة عورة" فإن كمال صونها فيما جعل الله فيه سترها وصلاح حالها فيما أصلح الله به في هذه الحياة أمرها، وإذا كان النساء شقائق الرجال في باطن أمر البشرية وظاهره، وكان الأولى تعجيل أسباب العصمة، فلا فرق بين أول وقت الاحتياج إلى ذلك وآخره". (٢)

ومما كتب فيه تجربة للخطر، بعض ما امتحن به السابقون، ويكشف عن أمور غريبة الحدوث كأن يُكتب كتابٌ يخبر فيه أن بقرة ولدت غلامًا، فكتب الممتحن مقدمة الكتاب، حيث قال: 'الحمد لله خالق الأنام في بطون الانعام'. ولم يتم ذلك، فعمد بعض كتاب هذا العصر إلى تكملة ذلك. ومنها ما كتبه الصفدي: "وإن أمير المؤمنين إذا تأمل ما ينشئه الله ويبدعه، وتدبر ما يبدیه سبحانه ويخترعه. وجد من غرائب الفعل وغوامض القدرة، وعجائب الصنع وسرائر الفطرة، ما يبعث على الضراعة له والخشوع، ويدعو إلى الاستكانة لعظمته والخشوع..". ويمضي في هذا المعنى في بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يعجزه شيء، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون". (٣)

هذه هي رسائل تجربة الخاطر، رياضة عقلية للقريحة فيما يقل وقوعه، لاحتمال أن يقع، أو فيما تمتحن به قوة القريحة ويعتبر به تصرف الفطنة، ويسير به غور الذهن، ويعلم به استعداد الفكر". وقد اشتملت على موضوعات ديوانية أو إخوانية أو اجتماعية ندر وقوعها، والكاتب مطلق الفكر في أن يرخي لقلمه العنان، ولكنه مع ذلك مقيد في مراعاة المقام. (٤)

(١) حسن التوسل: ٣٩١

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٣

(٣) الوافي: ٢٢/٢٣٠-٢٣١

(٤) انظر: حسن التوسل: ٣٨٢

ثالثاً: المفاخرات والموازنات

عمد بعض الأدباء إلى وضع رسائل في المفاضلة بين بعض الأشياء، وإقامة حوارات ومناظرات بينها، حيث يتقدم كل من المتحاورين ببيان ميزته، ويفتخر على الآخر بعرض فضله وبيان حجته. فيرد الآخر مفاخرًا، ومحاولاً نقض قول الأول بالدليل والبرهان... وتستمر المفاخرة والمناظرة حتى تنتهي بالتحكيم بين الطرفين، حيث يصدر الحكم، وحكمه الذي غالباً ما يكون بالتوفيق بينهما وعدم تفضيل أحدهما على الآخر، وغالباً ما يقدم الأديب لمناظرته بمقدمة يوضح فيها قصده وغرضه.

وقد كثرت المناظرات والمفاخرات في هذا العصر، وتتنوع موضوعاتها بين موضوعات مادية ومعنوية، ومن أمثلة هذه الأمور: مفاخرات بين: الورد والنرجس، والسيف والقلم، والسيف والرمح، والدرهم والديار، ومفاخرة بين مصر والشام، والشرق والغرب، والعرب والعجم، والنظم والنثر، ومفاخرة بين فصول السنة، وبين الجواري والمردان، بالإضافة إلى مفاخرة بين البخل والكرم.^(١)

وقد اختلفت أساليب الكتاب في عرض الحوار بين المتناظرين، فبعضهم يجعل الحديث بين المتحاورين بضمير المتكلم، والبعض الآخر ينشئ المناظرة بضمير الغائب. فممن أقام مناظرة على الأسلوب الأول علاء الدين بن عبد الظاهر، في المفاخرة التي بناها بين الرمح والسيف، حيث قدم لها بما يشير إلى أنه أنشأ هذه الرسالة لبيعها إلى بطل شجاع، لم يسمه، له علم وتجربة بالحرب وآلاتها، حيث نهض كل من السيف والرمح يفتخر بنفسه، وأنه قد أودع هذه الرسالة حمى هذا البطل، ليحكم بينهما، من ذلك قوله: "بعثت إليك رسالتي، وفي علمي أنك الكمي الذي لا يجاريك ند، والشجاع الذي أظهر حسن لوثتك للضد، والبطل المنيع للجار، والأسد الذي لك الأسل وجار، ولك المعرفة في الحرب ولا ماتها، والشجاعة والآتها، وإليك في أمرها التفضيل، ولديك علم ما لجملتها من تفصيل... وقد أطرقتها حماك لتحكم بينهما بالحق السوي، وتنصف بين الضعيف والقوي".^(٢)

ثم يقدم كل من المتحاورين فخره وحجته: فيقول السيف: "أنا الذي لصفحتي الغرر، ولحدي الغرار، وتحت ظلالتي في سبيل الله الجنة، وفي إظلالتي على الأعداء النار، ولي البروق التي هي للبصائر لا الأبصار خاطفة، وطالما لمعت فسحت سحب النصر واكفة.. فوصفي هو كذاتي

(١) انظر: الغيث المسجم في شرح لاية العجم: ٢٦٨/٢

(٢) الوافي: ٥٤/٢٢ - ٥٥

المشهور، وفضلي هو المأثور، فهل يتطاول الرمح إلى مفاخرتي، وأنا الجواهر وهو العرض، وهو الذي يعتاض عنه بالسهام وما عني عوض... فنطق الرمح بلسان سنانة مفتخرًا، وأقبل في علمه معتجراً، وقال: أنا الذي طلعت حتى اتخذت أسنتي الشهب، وعلوت حتى كادت السماء تعقد علي لواء من السحب، كم مثل نسيم النصر غصني وميّد، وكم وهي به للملحدين ركن وللموحددين تشيد، وكم شمس ظفر طلعت وكانت أسنتي شعاعها، وكم دماء أطرت شعاعها.. فهل للسيف فخر يطاول فخري، أو قدر يسامي قدري؟..."، ويستمر كل منهما في عرض مفاخرته والرد على الآخر، وهنا يختتمها بوقوفهما على حمى من كتبت الرسالة إليه ليحكم بينهما... "ومن هنا أن أمسك عنك لسان سناني، ونرجع إلى من يحكم برفعة شأنك وشاني، ونسعى إلى بابيه، ونثبت محاورتنا برحابه، وقد أوردتهما المملوك حماك، فاحكم بينهما بما بصرك الله وأراك." (١)

وممن جرى في مفاخرته على هذا الأسلوب ابن حبيب، وذلك في مفاخرته بين فصول السنة، حيث يبدأها بما يشير إلى المفاخرة، فتحضر هذه الفصول مجلساً للأدب، فيقوم كل منهم يعرب عن نفسه، ويفتخر على أبناء جنسه، فمما قاله الربيع: "أنا شاب الزمان، وروح الحيوان، وإنسان عين الإنسان، أنا حياة النفوس، وزينة عروس الغروس، ونزهة الأبصار ومنطق الأطيّار.."، ومما قاله الصيف: "أنا الخل الموافق والصديق الصادق، والطيب الحاذق، أجتهد في مصلحة الأصحاب، وأرفع عنهم كلفة حمل الثياب، وأخفف أثقالهم، وأوفر أموالهم، وأكفيهم المؤونة، وأجزل لهم المعونة.."، ومما قاله الخريف: "أنا سائق الغيوم، وكاسر جيش الغيوم، وهازم أحزاب السموم، وهادي نجائب السحائب، وحاسر نقاب المناقب، أنا أصد الصدى، وأجود بالندى، وأظهر كل معنى جلي، وأسمر بالوسمي والولي.."، ومما قاله الشتاء: "أنا شيخ الجماعة، ورب البضاعة، والمقابل بالسمع والطاعة، أجمع شمل الأصحاب، وأسبل عليهم الحجاب، وأتحفهم بالطعام والشراب، ومن ليس له بي طاقة أغلق من دونه الباب.. (١)"، وهكذا، يعرض كل منهم مزاياه دون التصدي لأقوال الآخر ومحاورته، ثم ينهي هذه المحاورّة مما يشير إلى تقبل الحاضرين لقول كل منهم.

وممن جرى في المناظرة بأسلوب ضمير الغائب ابن الوردي في محاورته بين السيف والقلم، حيث بدأها بالحديث عن مبررات هذا الحوار، يقول:

"ولما كان السيف والقلم عدتي العمل والقول، وعمدتي الدول، فإن عدمتها دولة فلا حول، وركني إسناد الملك المعربين عن المخفوض والمرفوع، ومقدمتي العز والذل الصادر عنهما المحمول والموضوع، فكرت أيهما أعظم فخراً وأعلى قدراً، فجلست لهما مجلس الحكم والفتوى،

ومثلتهما في الفكر حاضرين للدعوى، وسويت بين الخصمين في الإكرام. واستتطقت لسان حالهما للكلام، فقال القلم: "بسم الله مجراها ومرساها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها"، أما بعد حمد الله باريء باري القلم، والذي علمه بالقلم، وشرفه بالقسم، وجعله أول ما خلق، وجمل الورق بغضنه كما جمل غضنه بالورق، والصلاة والسلام على نبيه القائل: جفت الأقلام، وعلى آله وصحبه أعلم المعارف وأعرف الأعلام، فإن للقلم قصب السباق، فالكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتاب في السبع الطباق، جرى بالقضاء والقدر، وناب عن اللسان فيما نهى وأمر."

"قال السيف: بسم الله الخافض الرافع، "وأزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع"، أما بعد حمد الله الذي أنزل آية السيف، فعظم بها حرمة الحرم، وآمن خيفة الخيف، والصلاة والسلام على نبيه محمد الذي نفذ بالسيف سطور الطروس، وأحزمه الأقلام ماشية على الرؤوس، وعلى آله وأصحابه الذين أرفقت سيوفهم، وبنيت بها على كسر الأعداء حروفهم، فإن السيف عظيم الدولة، شديد الصولة، محا أسطار البلاغة، وأساغ ممنوع الإساءة".

وتستمر الرسالة على هذه الصورة من المحاورة بعرض مميزات كل طرف مدعمة بالحجج، ورفض أقوال الآخر، إلى أن تنتهي بعرض رأي الحكم بين الطرفين، فيقول: "قال الحكم بين السيف والقلم: فلما رأيت الحجتين ناهضتين، والبينتين بينتين متعارضتين، وعلمت أن لكل واحد منهما ما نسبة صحيحه إلى هذا المقر الكريم، ورواية مسندة صحيحة عن حديثه القويم، لطفت الوسيلة، ودققت الحيلة، حتى رددت القلم إلى كنهه، وأغمدت السيف فنام ملء جفنه، وأخرت بينهما الترجيح، وسكت عما هو عندي الصحيح، إلى أن يحكم المقر المشار إليه بينهما بعلمه، ويسكن سورة غضبهما الوافر، ولجأهما المديد ببسيط حلمه، ويعاملهما بما وفر في صدره من الوفاق، وسكن في قلبه من السكينة، وإذا كان في هذه المدينة مالكننا فلا يفتني العبد ومالك في المدينة، والسلام." (١)

وممن سار على هذا النهج في محاورته جمال الدين بن نباتة في محاورة أخرى بين السيف والقلم أيضاً، حيث يجريها بضمير الغائب، فيبدأ الكلام عن كل منهما بخطبة يبين فيها شرفه، ثم تبدأ بذكر مناقبه وصفاته، ويختتمها بما يشير إلى التوفيق بينهما وعدم تفضيل أي منهما على الآخر. (٢)

(١) ديوان ابن الوردي: ٧٨ - ٨٦

(٢) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م: ٢٣٠/١ - ٢٤٠ "باب التغاير"، وهناك صورة عن نسخة مخطوطة منها في الجامعة الأردنية. رقم ٨٤٨ بكر، وهي بخط مغربي.

هذا وللقشندي رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم، ومفاخرة أخرى بين العلوم، حيث بناها على المفاخرة بين سبعين علماً ونيف، ولأن الرسالتين متأخرتان قليلاً عن عصرنا أثرت عدم تفصيل القول فيهما. (١)

رابعاً: الرسائل العلمية

وهي رسائل يكتبها أدباء العصر، ليعثوا بها إلى آخرين منهم، ويحرص أحدهم على أن يضمن رسالته معلومات علمية غزيرة، يقصد بها التدليل على سعة معرفته ودقة معلوماته، فيحشوها على سبيل المثال بالأشعار والأحاديث النبوية المسندة المخرجة، والآراء الفقهية المختلفة، بالإضافة إلى بعض القصص الملانة للمقام، مما يجعلها كتاباً علمياً يحوي الكثير من المعلومات العلمية أكثر مما يحويه من عبارات الشوق التي تكثر عادة في الرسائل الإخوانية، ومن هنا أثرت وضعها في الرسائل الأدبية، وكأنني أستطيع وصفها ومقابلتها بالمقالات العلمية في وقتنا الحاضر، ومن هذه الرسائل رسالة بعث بها تاج الدين السبكي إلى الشيخ برهان الدين أبي إسحق القيرواني المصري من دمشق يتشوق إليه: "وإنما أصدرها المملوك تعللاً، وأرسلها مسندة عن نفس منقطع لهذا الأمر المعضل تبناً، وكتبها استرواحاً لضممة المتهالك حباً ماسلاً العاشق بها محبوبه، ولكن حبه سلا، أخبرنا أبو العباس أحمد بن علي بن الحسن بن داود الجزري، سمعاً عليه، أخبرنا عبد الحميد بن عبد الهادي حضوراً، أخبرنا إسماعيل بن علي الجنزوي... (إلخ في سند طويل) قال: جاء ابن سرحون السلمي إلى مالك بن أنس وأنا عنده، فقال: يا أبا عبد الله، إني قد قلت أبياتاً من شعر وذكرتك فيها، فأنا أسألك أن تجعلني في سعة، فقال له مالك: أنت في حل مما ذكرتني، وتغير وجهه، وظن أنه هجاء، قال: إني أحب أن تسمعها، فقال له مالك: أنشدني، فقال:

وحب الحسان المعجبات الفوارك
أسلي هموم النفس عني بذلك
أثم وهل في ضمة المتهالك

سلوا مالك المفتي عن اللهو والصبأ
ينبيكم أني مصيب وإنما
فهل في محب يكتم الحب والهوى

قال: قال لي معن: فسري عن مالك وضحك.

قلت: في هذا من مالك دليل على جواز الإبراء عن الكلام في العرض وإن كان مجهولاً، وأنه كان يرى التحليل من هذا أولى من عدمه.

ونقل أبو الوليد بن رشد في "شرح العتبية" أن مذهب الشافعي أن ترك التحليل من الظلمات والتبعات أولى، لأن صاحبها يستوفيها يوم القيامة بحسنات من عنده ويوضع سيناته على من عنده، كما شهد به الحديث، وهو لا يدري هل يكون أجره على التحليل موازياً ما له من الحسنات في الظلمات، أو يزيد أو ينقص، وهو محتاج إلى زيادة حسناته ونقصان سيناته.

قال: ومذهب غيره أن التحليل أفضل مطلقاً، قال: ومذهب مالك: التفرقة بين الظلمات فلا يحل منها، والتبعات فيحل منها عقوبة لفاعل الظلمات، وهو تفصيل عجيب. (١)

وتمضي الرسالة على هذا النحو من التفصيل العلمي الموثق، حيث يذكر الكاتب عبارة أو عبارتين تعبر عن الشوق، ثم يحاول أن يأتي بدليل على ما يقول بخبر أو حديث أو حكاية على النحو السابق. ويرد المرسل إليه برسالة أخرى، حيث يبدأ باستعراض رسالته جملة جملة، وخبراً خبراً، ويقرظها ويمدحها، محاولاً استخدام الأسلوب ذاته من الاستشهاد بالخبر أو الحديث أو الشعر بصورة واضحة، ومن ذلك قول القيراطي في رده: "عدنا إلى اجتلاء تلك العروس، واجتلاء تلك العروس، فأكرم بها عروساً ترفل من الطروس في حل، وتسير من خفراها في كلل، وأعظم بها غريبة يطيب بيت شعرها لا يبيت شعرها الحل، أنصارية النجار، لا خور في عودها إذا انتمى إلى بني النجار ولا خلل، سار ذكر بيتها الطيب في الأمصار، وعلم أن من الإيمان الاعتراف بحق الأنصار لما أخبرناه العدل أبو الحسن علي بن مسعود بن بهتاك العجمي قراءة عليه وأنا أسمع، قيل له: أخبرك الشيخ أبو العز بن الصبقل (فأقر)، أخبرنا أبو علي ضياء بن أبي القاسم... (في سند طويل) حدثني عيسى بن سبرة عن أبيه عن أبي سبرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا لا صلاة إلا بوضوء، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عز وجل، ألا لا يؤمن بالله من لا يؤمن بي، ولا يؤمن بي من لا يعرف حق الأنصار." (٢)

وتمضي الرسالة على هذا النحو، فهل أراد هؤلاء الكتاب إثبات سعة علومهم إلى جانب مقدرتهم الأدبية؟

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، مطبعة عيسى البابي الحلبي: ٣٢٦/٩ - ٣٢٨، والرسالة طويلة حيث تستغرق الصفحات من: ٣١٤ - ٣٣٦

(٢) المصدر نفسه: ٣٥٥/٩ - ٣٥٦ وهي طويلة أيضاً تستغرق الصفحات من ٣٣٦ - ٣٧٢.

الحقيقة التي لا مرأى فيها أنهم علماء، حفظة للعلم، فتاج الدين السبكي وبرهان الدين القيراطي من علماء ذلك العصر المعروفين بعلمهم.

خامساً: رسائل الوصف

الوصف باب أدبي واسع، أبدع فيه أدباء ذلك العصر، فمنه ما جاء من خلال رسائل متبادلة بين الأدباء، ومنه ما كان بصورة مقالات وصفية جاءت امتحاناً للخاطر، ورغبة في إظهار المقدرة الأدبية لهذا الأديب.

وقد تنوعت موضوعات الوصف، حيث وصف كتاب العصر كل ما وقعت عليه أعينهم من ظواهر طبيعية، أو مظاهر حضارية، أو حيوانات وطيور غريبة، أو بلدان أو أدوات، أو كوارث طبيعية، بالإضافة إلى كثير من الأمور المعنوية.

فقد وصف الأدباء في كتاباتهم من ظواهر الطبيعة مثلاً: السماء وزينتها، والشمس والقمر، والسحاب والمطر، كما وصفوا الليل والنهار، والبحر والنهر، ووصفوا الهلال والمطر والتلج... إلخ، وقد اختلفت مناهجهم في ذلك، فمنها ما جاء مضمناً في رسائل تبادلها الأدباء، ومنها ما جاء من أجل الوصف لذاته مما يمكن أن نطلق عليه بحق مقالات وصفية.

فمما جاء من وصف مضمناً في رسائل: وصف هلال شهر رمضان ضمن رسالة تهنئة بحلول الشهر المبارك، كتب بها زين الدين عمر بن داود الصفدي: "وينهي ورود المشرف الكريم ووقت الصوم قد حان، وهلاله في عنان السماء مرخي العنان، يشار إليه للبيان بالبنان، كأنه الطليعة وهي الرأ من أول رمضان، أو الساقة وهي النون من آخر شعبان، أو الخائف اختفى عن العيان، وترامته الأبصار فاستبان، أو طالب حاجة مع الشمس أدركه الليل فوقف وقفة الحيران، أو كوة في غار، أو قرين غار فغار، أو رقيب - ولذا اختبأ - ليطلع على مغيبات الأسرار، أو الحاجب لا جرم أنه حجب عن الأنظار... أو المنجل الحاصد للأعمار، القاصد جني ما على نهر المجرة من الأنهار، أو طوق لم ينضم أو مبدأ غمامة لمعتم، أو قرط خائنه العلامة فانقطع، أو ما انخرم معه من شحمه الأذن حين وقع" ويمضي في هذا الوصف مستخدماً ما أمكنه من تشبيهات مختلفة للهلال. (١)

ومن ظواهر الطبيعة التي أكثر الأدباء من وصفها: الشتاء بما فيه من أمطار وثلوج ورعد وبرق ورياح، مثال ذلك ما كتب به شهاب الدين بن فضل الله العمري إلى صلاح الدين الصفدي قوله من رسالة: "كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذي أقبل يرعب مقدمه، ويرهب تقدمه،

ويريب اللبيب من برقه المومض تبسمه، وكيف حاله مع رعوده الصارخة، ورياحه النافخة، ووجوه أيامه الكالحة. وسرر لياليه التي لا تبیت بليلة منها صالحة، وسحابه وأمواجه، وجليده والمشى فوق زجاجه، وتراكم مطره الأنيث، وتطاول فرع ليله الأنيث، ومواقده الممقوتة، وذوائب جمره وأهون به ولو أن كل حمراء ياقوتة، وتحدر نونه المتصبيب، وتحير نجمه المتصبيب... وأتى الزمهرير بجنود ما للقيوي بها قبل، وحمل الأجسام من ثقل الثياب ما لا يعصم منه من قال "سأوي إلى جبل"، ومد من السبل ما استبكي العيون إذا جرى، وكيف سيدنا مع مجامر كانون، وشرار برقها القادح، وهم وقدها القادح، وقوس قزحها المتكون، رد الله عليه صوائب سهامه، وبدل منه بوشائع حلل الربيع ونضارة أيامه..." (١) ويرد عليه الصفدي برسالة أخرى يصف فيها الأمطار والتلوج والشتاء وصفاً رائعاً، فيقول: "فإلى متى قطن هذه التلوج يطرح على جباب الجبال؟ وإلى متى تفاض دلاص الأنهار وترشقها قوس قزح بالنبال؟ وإلى متى يشقق السحاب ما لها من الحلل والحبر؟ وإلى متى ترسل خيوط المزن من الجو وفي أطرافها على الغدران إير؟ وإلى متى تجمد عيون الغمام وتكحلها البروق بالنار؟ وإلى متى تثار هذه الفضة وما يرى من النجوم دينار؟ وإلى متى نحن نحنو على النار حنو المرضعات على الفطيم؟ وإلى متى تبكي هذه المزاريب بكاء الأولياء بغير حزن إذا استولوا على مال اليتيم؟ وإلى متى هذا البرق تتلوى بطون حياته، وتتقلب حماليق العيون المحمرة من أسود غاباته؟" (٢)

ومما جاء في وصف الثلج أيضاً ما وصفه به محيي الدين بن قرناص في رسالة إلى القاضي تاج الدين بن الأثير: "وكان المملوك مشرفاً على مكان أحيط بثمره، والدوح يقلب كفيه على ما أنفق من عمره، وقد تزهد فتجرد من حرير أوراقه، ولبس قطن زهره فلا ترى إلا أشجاراً قائمة على أصولها، وكروماً خاوية العروش، وسقوط ثلج كالفراش المبتوث، وجبال غيوم كالعهن المنفوش." (٣)

ومما ورد في وصف مظاهر الطبيعة في رسائل لم يبعث بها، بل جاءت على صورة مقالات أدبية: وصف السماء وزينتها، وهو ما كتبه ابن حبيب في "تسيم الصبا"، يقول: "أيقظتني ليلة دواعي الهموم، فنظرت نظرة في النجوم، فإذا السماء كأنها روضة مزهرة، أو صرح كنس

(١) الوافي ٢٥٧/٨ - ٢٥٨، والرسالة في: ألحان السواجم المخطوط: ص ٣٩ ب - ٤٠ أ وفيه رسالة أخرى في وصف الثلج أيضاً: ص ٤٤ - ب وما بعدها.

(٢) الوافي: ٢٥٨/٨ - ٢٥٩

(٣) نصرة الثائر على المثل السائر: ٢١٦

جواريه مسفرة، أو غدير تطفو عليه الفواقع، أو بنفسج نور أفاقه لامع، أو مسح ألقى عليه درر غواص، أو ستر به لعين كل نجم وصواص، أو جمر في خلال رماد، أو كما قال من أجاد:

بساط زمرد نثرت عليه دنائير تخالطها دراهم

ونهر المجرة يجري في سندسها، ويسري ليسقي ذابل نرجسها، يا له من نهر صفا ماؤه، وعقد على الأفق لواءه، يتقلب "القلب" إليه، ويقف طرف "الطرف" عليه، ويقبل نحوه "الدبران"، وينصب على شطه "الميزان" ويحوم حوله "النسران"، ويعوم فيه الحوت "والسرطان".... ويستمر الكاتب في هذا الوصف، حيث يذكر الكثير من أسماء نجوم السماء مبدعا في وصفها. (١)

وقد وصف ابن حبيب أيضا الشمس والقمر، فمما قاله في وصف الشمس: "وإذا قرن الغزالة قد ظهر كأنه جذوة نار أو قطعة من دينار أو كأس ستر بعضه بالحباب، أو حسناء غطت وجهها بنقاب، ثم كشفت أستارها، وألقت على الأفق أنوارها، وبرزت كأنها كرة في ميدان أو مجن دولاب ضمخ بالزعفران، أو مرآة لم تصقل ولم تطرق، أو وجه المليحة في خمار أزرق، أو سبيكة زجاج منتفخة الجوانب، أو بودقة يحرك فيها ذهب ذائب". (٢)

ومما قاله في وصف الهلال: "وبزغ الهلال بأمر ذي الجلال كأنه قوس موتور، أو زورق منحدر في بحر الديجور، أو شطر سوار أو منجل معد لحصاد الأعمار، أو خنجر مرهف النصلين، أو نون مرسومة من لجين، أو شفة كأس مائلة، أو مقلب عقارب صائلة". (٣)

كما يصف السحاب والمطر والرعد والبرق بأسلوب متسلسل، وبترابط منطقي، حيث يبدأ بوصف إمساك السماء في بعض الأعوام مما جعل الناس يشعرون باليأس من خير السماء، فبينما هم كذلك إذ "تداركهم الله باللطف الخفي، وانثال عليهم المن الحفي، ونظر الله إليهم بعين حكمتهم، وحرك ساكن الرخاء لتجري بنعمته، وهو الذي يرسل الرياح بشري بين يدي رحمته، فمدت أعناقها، وجدت إعناقها، وركضت عادياتها، وجرت على أحسن عاداتها، وسدلت من أرديتها الأردن، وأرخت العنان في طلب العنان.. (٤) ثم يبدأ بوصف الرعد والبرق وقوس قزح، إلى أن تنتشع الغيوم وتتبدد، ثم يأخذ في بيان أثر هذه الأمطار والتذكير بهذه النعمة العظيمة،

(١) نسيم الصبا: ٣ - ٦

(٢) المصدر نفسه: ٦

(٣) المصدر نفسه: ٧ - ٨

(٤) المصدر نفسه: ١٠

يقول: "فأمسى الناس في عيشة راضية، يرفلوه من حلل الرفاهية، وأصبح محل المحل دارساً، ووجه الأمل يضحك بعد أن كان عابساً، وأخذت الأرض زخرفها بعد أن كاد زرعها يهيج، واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فتغورها مبتسمة، وفرائد قلاندها منتظمة، ونمارقها مدبجة، ورؤوس أشجارها متوجة، وغدرانها طافحة، ومخايل السعادة عليها لائحة، وألسنة أهلها مشغلة بشكر علام الغيوب، وقلوبهم مطمئنة بذكره، ألا بذكر الله تطمئن القلوب." (١)

كما وصف ابن حبيب أيضاً الليل والنهار، حيث يجرد من نفسه شخصاً آخر يحدثه في طول الليل وقصره، فيتذاكران متى يطول ومتى يقصر، يقول:

"واعلم أيها البصير الناقد أنه يطول على المهجور الفاقد، ويقصر على المسرور الراقد، فقلت: إيه أيها الإمام، أسمعني شيئاً في وصف الأيام، فقال:

لله أيام تقضت لنا ما كان أحلاها وأهناها
مرت فلم يبق لنا بعدها شيء سوى أن نتمناها

حيث الوقت معين، وماء الشببية معين، ونشر البشر فائح، ونور الهناء لائح، والحبیب مجيب، والرقیب غير قريب، وغصن الصبا رطيب، ومطرف النهو قشيب. "ثم ينهي مقالته بوصف الأيام بأسلوب وعظي، فيقول: "يا أبا الأدب، إلى كم ذا الحرص والدأب، الأيام نجمها غرار، ومدعي الوفاء منها غدار، كثيرة الملل، سريعة الزوال، تفرق الحباب، وتسترجع المواهب، ذمامها ذميم، ومسالمها سليم، تحل العقود، ولا تحفظ العهود، تكدر الصافي من الشراب، وتعد الظامي بورود السراب، لقد سقط من تمسك بعراها، وتعب من قصد الراحة من ذراها." (٢)

ومثل هذا الوصف القصصي يمضي في وصف البحر والنهر، حيث يصف ركوبه البحر في سفينة فيصفها كأنها عل منحط من شاهق، أو عرياض سابق يحثه سائق، أو عقرب شائلة أو عقاب صائلة، أو غراب أعصم أو تمساح أو أرقم، أو ظليم نفر في الظلام، أو جواد فر مستكفاً من صحبة الأيام. "ثم يصف ركوبه البحر وثورة ربح عاصف، فيقول:

"وثار ربح عاصف، يتبعها رعد قاصف، فمالت بنا الفلك واضطربت، ودنت شفتها من رشف الماء واقتربت" إلى أن تعدهم الله برعايته، ونظر إليهم من لا تخفى عليه السرائر، وأمر الجارية بحمل العبيد إلى بعض الجزائر، فلم ندر إلا ونحن تجاه جزيرة تسر النفوس بمحاسنها

(١) نسيم الصبا: ١٣

(٢) المصدر نفسه: ١٤ - ١٥

الجزيرة. " ثم يصف تلك الجزيرة: "فوجدتها مخضرة الأفنان، مخضلة الكتبان، بها من الياقوت ما يرجع خاسناً مناوئه، ومن الأشجار ما يحمل الفواكه والأفاوية. " ثم يخلص من ذلك إلى وصف نهر يجري في هذه الجزيرة: "وبين رياضها نهر شديد الخضر، أرضه ذهب وحبابؤه درر، وأمواجه عكن، ودراراته سرر، لين الأديم، مزاجه من تسنيم، يصقله الصبا ويفركه النسيم، فكأنه دروع موضونة، أو مبادر مسنونة، أو دمع يتسلسل أو أفاع تتلمل، أو ذوب فضة يسيل، أو صفحة سيف صقيل، أو لوح بلور مرقوم، أو رحيق بالمسك مختوم.. " ويتخذ من ذلك كله وسيلة للتفكير في قدرة الله ونعمه، حيث ينهي مقالته بذلك، يقول: فلبثت فيها مدة، مفكراً فيما رأيت من الفرج بعد الشدة، مؤمناً بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، وفقاً على شكر من تجري الفلك في البحر بأمره. "(١)

وهكذا، فقد وصف الأدباء ظواهر الطبيعة وصفاً حياً نابضاً بالحياة، فقد جرد بعضهم منها شخصاً، أو كائناتاً حياً يحادثه ويخاطبه، حيث وصفوا الثلج والمطر والبرق والرعد والسماء وزينتها من الشمس والقمر والهلال، والسحاب والليل والنهار، والبحر والنهر... إلى غير ذلك من تلك المظاهر، ولم يكن هذا الوصف وصفاً جامداً، بل كانت صوراً زاهرة بالحركة والحياة. (٢)

ومما وصفه أدباء هذا العصر أيضاً: المظاهر الحضارية، فقد وصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم، وما رأوه أمامهم من: حدائق ورياض وأزهار وورود وثمار، وقصور وديار، كما وصفوا السراج والشمعة والنار، والجواري والغلمان، ووصفوا الخمرة ومجالس الشراب، كما وصفوا المساجد ومناراتها، وغير ذلك من الجوانب الحضارية التي عرفت في ذلك الوقت.

ومما قيل في وصف الرياض والبساتين ما كتبه جمال الدين بن نباتة قال: "كتبها المملوك ومنظر الروض قد شاق، ودمع الغيث قد رقا ووجه الأرض قد راق، والغصون المنعطفة قد أرسلت أهواء القلوب بالأوراق، وحنانها المترنمة قد جذبت القلوب بالأطواق، والورد قد احمر خده الوسيم، وفكت أزواره من أجياد القضب وأنامل النسيم، وخرجت أكفه من أكمامه بأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم. "(٣)

ومما كتبه محيي الدين بن عبدالظاهر في ذلك: "والأغصان قد اخضر عارضها، ودنانير الأزهار ودرامها قد تهيأت لتسليم قابضها، والمنثور وقد نظمت قلائده وضيعت ولانده،

(١) نسيم الصبا: ٢١ - ٢٢

(٢) انظر: التعريف: ٣٦٨ - ٣٧٤

(٣) مطالع البدور: ١١٤/١

والحور قد جاوز السهى بالتباشير والسرور، قد كشفت عن سوقها، وقالت لها تلك الغدران بهديرها: إنه صرح ممرد من قوارير، والسوسان وقد لاحظ جفنه الوسنان، والورد وقد ورد والبان وقد بان. (١)

فكما نلاحظ، فقد وصف الأدباء أشجار الرياض وأغصانها وحمائمها ونسيمها وورودها وأزهارها، بصور أدبية جميلة، وكأنها لوحات شعرية أو فنية معبرة.

كما جاء وصف الرياض والأزهار على صورة مقالات أدبية سجلها ابن حبيب، وصف خلالها كثيراً من أنواع الأزهار، فمما جاء في ذلك قوله: "جد بي الوجد في إبان الربيع إلى رؤية فضل الغيث بمنازل الربيع... فإذا أنا بروضة أريضة، عيون أزهارها مريضة، قد فاح أرجها، وأضاءت سرجها، وأبدت من زينتها ما هو باللفظ منعوت، ونثرت على الزمرد أصناف الورد والياقوت... فمن ورد أحمر الإهاب، عندمي الخضاب، ملك جليل مخصوص بالتبجيل، رفيع الجناح خفيف الركاب، الرياحين جنده، والشوك سنانة وسلاحه، والعقيان والمرجان قلبه وجناته... ومن نرجس باسم عرفه ناسم، له عيون هديها من لجين، وحدقها من خالص العين، قامت من الزبرجد على ساق، فهامت بها قلوب العشاق... ومن ياسمين يجلو البصر، كأنه أفرط من الدرر، ومن نسرين جوهر عقده ثمين، درر على زبرجد، أو حقائق ورق فيها برادة عسجد.. (٢) ويتابع ابن حبيب في وصف البنفسج والزعفران والياس والريحان والمنثور والسوسن والأقحوان... إلخ، ثم يخلص في نهاية مقاله إلى استخلاص العبر التي تدعوه إلى التفكير في الخالق ودقة صنعه وبديع خلقه. (٣)

كما وصف الأدباء الأشجار المثمرة وأنواعها، ووصفوا ثمارها، ومنهم ابن حبيب أيضاً، حيث وصف بستاناً به من أنواع الأشجار المثمرة: النخيل والتفاح والكروم والسفرجل والموز والتين والرمان والعنبر والخوخ والكمثرى والشمس والتوت والعناب، وبها أيضاً: الفستق واللوز والصنوبر والزيتون، كما يصف الأترج والليمون والخشخاش... فمما قاله مثلاً في وصف الرمان:

(١) مطالع البدور: ١٢٣/١

(٢) نسيم الصبيا: ٣١-٣٣

(٣) المصدر نفسه: ٣٦

"ورمان بديع النظام، يبسم عن مثل حب الغمام، كأنه نهود الحسان، أو حقاق من صندل حشيت بالمرجان، في شجرة جلنار أشرق وأنار" (١).

ومما يرتبط بوصف الرياض والبساتين والأزهار وصف مجالس الأنس واللهو والشراب، حيث وفر هذا الجمال الطبيعي في مصر والشام للأخلاء والندمان بيئة مناسبة لهذه المجالس، وقد جاء وصفها من خلال رسائل الدعوة إلى هذه المجالس، حيث اشتملت على وصف لهذه الحدائق، بالإضافة إلى ما يدور في هذه المجالس، فمما كتبه فخر الدين الكنائي الشاطبي المعروف بابن الجنان (٦٧٥هـ)، قوله في دعوة إلى مجلس: "تحن يا سيدي - أطل الله بقاءك - في روض مجلس أغصانه الندماء وغمامه الصهباء، فبالله عليك إلا ما كنت لمجلسنا نديماً، ولزهر حديثنا شميماً، وللجسم روجاً، وللطيب ريحاً، وبيننا غُدرًا راجحاً خدرها، وحبابها ثغرها، بل شقيقة حوتها أكمامه، أو شمس حجبته غمامه، إذا طاب بها معصم الساقى فورده على غصنها... طافت علينا طواف القمر على منازل الحلول، وأنت - وحياتك - إكليلنا وقد آن حلولها الإكليل." (٢)

وقد خصص بعض الأدباء مقالات مستقلة لوصف المجالس، حيث وصفوا الندمان والسقا والأقداح والأباريق والأكواب والكؤوس، كما وصفوا الشموع والقيان، وذكروا أنواع الشراب، ومن ذلك مقالة لابن حبيب وصف فيها مجلساً للشراب، حيث يحرص الكاتب هنا على الحضور فقط دون المشاركة، ومع ذلك فإنه - في نهاية مقاله - يلوم نفسه على اتباع الهوى ومعاشرة من ضل وغوى، حيث يسأل المغفرة والعفو من الله.

فمما جاء في وصف الندمان مثلاً قوله: "يشتمل على ندمان، لا يسمح بمثلهم الزمان، حاشيتهم أرق من النسيم، ومزاج كاساتهم من تسنيم، إن نظموا أودعوا أصداف المسامع درأ، وإن نثروا نفثوا في عقد العقول سحراً." (٣)

ومما جاء في وصف الخمر ومجلسها قول برهان الدين القيراطي: "يوم أنيق وغيم دفيق، وروض إذا سلسل ماؤه المطلق تهلل وجهه الطليق، فإذا دعا الندامى فيه بالصباح جاءت قينة في يدها إبريق، وإذا نحررت السقا في دماء الزقاق صارت أيامهم كلها تشريق، وإذا خاط من الشرب ثياب سروره غار من أرجه المسك الفتيق." (٤)

(١) نسيم الصبا: ٢٦ - ٢٨

(٢) ذيل مرآة الزمان: ٢٠٣/٣

(٣) نسيم الصبا: ٥٨ وبقيّة المقال حتى ص ٦١.

(٤) مطالع البدور: ١٧١/١، وانظر في وصف الجوّاري والغلمان والخمرة أيضاً: مطالع البدور: ١٥٢/١، ٢٤٦/١، ونسيم الصبا: ٣٦ - ٤٦، ١٥٣.

ومن موضوعات الوصف، وصف القصور والديار والمساجد ودور العلم، فقد ذكر ابن حبيب أنه في عام ٧٣٧هـ غير الأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد الدوادار الناصري هبة داره التي كانت لبني العديم، ووقفها مدرسة على المذاهب الأربعة، وجعل بها دار قراءة ومكتباً للآيتام، وفي ذلك يقول الشيخ زين الدين عمر بن الوردي: "ولقد كانت الدار المذكورة باكية لعدم بني العديم، فصارت راضية بالحديث عن القديم، نزع الله عنها لباس البأس والحزن، وعوضها بحسن يوسف عن شقة الكفن، فتتم رخامها وزهوها، وجعل ثمال اليتامى عصمة الأرامل مكتبها، وكملها بالفروع الموصلة والأصول المفرعة، وجملها بالمرايع المذهبية والمذاهب الأربعة. وبالجملة فقد كتبها صلاح الدنيا في ديوان صلاح الدين إلى يوم العرض، وتلا لسان حالها اليوسفي "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض". (١)

وفي وصف المدارس أيضاً ما وصف به ابن أبي حجلة المغربي مدرسة الأشرفية التي بقلعة الجبل المنسوبة إلى الأشرف خليل بن قلاوون قال: "هي الآن كنانة الله في أرضه، ومعقل العدل وفرضه، والسر في السكان لا في المنزل، قد أصبحت وعلى وجوه خدامها للحسن أشراف، ولأذان شرفاتها بين النجوم بمصر أقراف، فالزهر أزهارها، والبروج قصورها، وهالة القمر سورها، والسعود أخبيتها وفريقها، وسهيل إلى صلة الأرزاق طريقها، وحاجب الشمس أميرها، وشيخ رايها ومشيرها". (٢)

ومما جاء في وصف المساجد، ما وصف به محيي الدين بن عبدالظاهر الجامع الأموي ليلة النصف من شعبان، يقول: "وايقاده حيث لا تلمع إلا عين مصباحاً، وتود أنها لا ترى لتلك الليالي صباحاً، إذ تمنطقت أركان من الذهب بمناطق الذهب، وبدت أشعتها في صفائه كما يبدو في الكأس، وحاشا الحبيب لا سيما في ليلة النصف، التي كم رفرغ عليها النعيم، وكم حذفها إلا من النسيم... كم أضواء بوجهه ديجور، وكم انعكست أشعة تلك الأضواء على وجهه المنيرة فكانت نوراً على نور، في خده للورى ربيع...". (٣)

ومما ورد في وصف الديار، ما كتبه ابن حبيب في وصفها، فقال: "وبوسطه دار بها فلك السعود، وأروقة لطالب كنزها عود الوعود، وسحت عيون ساحتها، ورفع في العقار فرش عقرها وباحتها، وتوقفت الكواكب لمراقبة عجائبها وغرائبها، وسال لعباب الشمس في الحيرة في

(١) تذكرة النبيه: ٢٨٥/٢

(٢) ابن أبي حجلة، سكردان السلطان: ٥٤

(٣) مطالع البدور: ٢٩١/٢

ملاعبيها، أنيقة المباني، مأهولة بأهله المعاني، تتشرح الصدور في قاعاتها وبقاعها، وتخبر محاسنها بصنائع أهلها وحذق صناعاتها، رحة الأكناف، بدعة الأوصاف، تحار الأعين في وشي أزاهيرها، وتقصر الألسن عن تقريظ مقاصيرها، مياه بركتها غزيرة، وجدرانها بالتمكين جديرة، وأشجارها لم تزل مورقة مثمرة، ولياليها لا تبرح بالسنا على مر السنين مقمرة." (١)

ومما يرتبط بالديار والقصور وصف جوانب زينتها وأثاثها، ومن ذلك الفوارة (النافورة) التي تزين الديار والقصور، كما وصفوا الشمعة والسراج والنار. فمما قيل في وصف الشمعة ما كتبه ناصر الدين بن شافع (٧٣٠هـ): "وشمعة قد استتم نبتها في روض الأنس حتى نور، ولا نما بدوحة الفاكهة حتى أزهر، أو ما بنان تبلجها إلى طرق الهداية وأشار، ودل على نهج التبصر، وكيف لا وهي علم في رأسه نار، وحسبها كرمًا أن جادت بنفسها، وأعلنت بامتاعها عن صمود حسنها... وقد جمعت من ماء دمعها ونار توقدها بين نقيضين، ومن حسن تأثرها وعين تبصرها بين الأثرة والعين." (٢)

ومما قاله محيي الدين بن عبدالظاهر فيها أيضا: "في ضوء شمعة نشرت على الورق رداء الأصيل، وأخفت من الدجى سواد جفنه الكحيل، وسترت ذوائبه في معصر أبهج من وجنتي بثينة لولا أنها في صفرة وجه جميل." (٣)

وقد أحسن ابن حبيب في وصفها حين يقول: "لمحت في المجلس شمعة، وقفت في الخدمة، وأجرت الدمعة، جسمها نحيل، ومحياها جميل، قامتها قوية، ودرة تاجها يتيمة، تحرقها أنفاسها، ويوقها نبراسها، كاسية عارية، تخجل بضوئها الجارية." (٤)

ومن الموضوعات الحضارية التي وصفوها الحمامات، فقد أكثر الأدباء والكتاب من وصفها، ومن ذلك ما جاء في كتاب لمحيي الدين بن عبدالظاهر يستدعي فيه شخصاً إلى حمام: "هل لك - أطل الله بقاءك - في المشاركة في جمع بين ماء ونار، وأنواء وأنوار، وزهر وأزهار، قد زال فيه الاحتشام، فكل عار ولا عار، نجم سمانه لا يعتريه أفول، وناجم رخامه لا يعتريه ذبول، تتنافس العناصر على بلوغ مآربه، فأرسل البحر ماء جسده من زبده، لتقيل أخمصه، إذ قصرت

(١) نسيم الصبا: ٢٤

(٢) مطالع البدور: ٨٥/١

(٣) المصدر نفسه: ٨٦/١

(٤) نسيم الصبا: ٤٦

همته عن تقبيل يده، ولم ير التراب له في هذه الخدمة مدخلا فتطفل وجاء وما علم أن التسريح لمن جاء متطفلا، وأعلمت النار ضدها الماء فدخل وهو حر الأنفاس، وغلت من أجله، فلأجل ذلك داخله من صوب تشاكله الوسواس، ورأى الهواء أنه قصر عن مطاولة النار، فأمسك متهيأ ينظر من وراء زجاجة إلى تلك الدار. (١)

ومن موضوعات الوصف في هذا العصر، وصف الحيوانات والطيور الغريبة، فقد مر بنا شيء من هذا في موضوع الصيد والطرْد، حيث وصفت حيوانات وطيور المصيد، والحيوانات والطيور المصيدة، فقد أبدع الكتاب في هذا العصر في وصف الخيل والإبل، كما وصفوا النمر والأسد والفهد والدب والضبع والذئب والثعلب والفيل والهر والنمس والسنجاب والزرافة والمها والوعل والظبي والأرنب. (٢) ووصفوا من أنواع الطيور: الصقر والباز والباشق والديك والبيغاء والهدهد والدراج والحجل والقطا والبلبل والغراب، كما وصفوا حمام الرسائل وغيرها. (٣) ووصفوا من الزواحف الحيات.

وقد كتبوا في وصف الخيول، وأكثروا وأبدعوا في ذلك، حيث وصفوا كل لون منها على حدة، فوصفوا من ألوانها: الأدهم والأشهب والأشقر والكميت والأصفر والأخضر والأبلق، فمما جاء في وصف الحصان الأدهم ما كتبه شهاب الدين محمود، يقول: "ومن أدهم حالك الأديم، حالي الشكيم، له مقلة غانية وسالفة ريم، قد ألبسه الليل برده، وأطلع من عينيه سعده، يظن من نظر إلى سواد طرته وبياض حجوله وغرته أنه توهم النهار نهراً فخاضه، وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة، لين الأعطاف سريع الانعطاف، يقبل كالليل، ويمر كجلمود صخر حطه السيل، يكاد يسبق ظله، ومتى جرى السهم إلى غرض بلغه قبله." (٤)

كما وصفوا الإبل، فوصفوا الناقة بصفاتها وألوانها التي وصفت بها في الجاهلية، فذكروا من صفاتها مثلاً: الجسرة والسردياح والرقوب والأمون والمصباح والشمردلة... فمما جاء في وصفها ما كتبه ابن حبيب: "ومن شمردلة لونها أحوى، مهارق البيد بغيرها لا تطوى، تجوب القفار، وتجوس خلال الديار، فشفرها رقيق، وسبب وظيفها وثيق، تختال في شنفها وزمامها، وتدهش الأبصار بسنا سنامها." (٥)

(١) مطالع البدور: ١٥/٢

(٢) انظر: التعريف: ٣٢٦ - ٣٣٩ (٣) انظر أيضاً: التعريف: ٣٤٠ - ٣٥٨

(٤) حسن التوسل: ٣٤٤

(٥) نسيم الصبا: ٦٧ - ٦٨

ومما وصفت به الحيوانات الأخرى مثلاً ما وصف به ابن حبيب النمر في قوله: "ومن نمر شرس الأخلاق، دم الفريسة بين يديه يراق، الجلبة بين جلبابه، والنواب كأمنة في أنيابه، وثباته لا تتكر، وثباته أشهر من أن يذكر، يقطع الطريق، ويحب شرب الرحيق." (١) ويمضي ابن حبيب في وصف أنواع أخرى من الوحوش، حيث يخصص مقالة لوصف هذه الحيوانات، فيصف كلاً منها في مقطع نثري جميل. (٢)

ومما وصفت به الحيات ما كتبه محيي الدين بن عبد الظاهر، يقول: "تروغ للمراغي والمراعي، وتسمع منها لسهام المنية قعاقع بتراكيش الأفاعي، من كل صل يفترس افتراس الضيغم، وينملس انملاس الجرول المفعم، تنقض انقضاض السهام، وتروغ رانيها في المنام، ومن حمتها يحم الحمام، وإذا انقبضت كانت للمنية عروة." (٣)

ومما قيل في وصف الطيور ما كتبه ابن حبيب، حيث يخص كل نوع منها بمقطع نثري، فمما قاله في وصف الهدهد مثلاً: "ومن هدهد وافر الهداية، نافر عن الضلالة والغواية، يرى الماء في باطن الفجاج، كما ينظره الإنسان في داخل الزجاج، مرقوم البرود، كثير الركوع والسجود، يمد في حله الفاخرة ويميس، كأنما ألبسه سليمان تاج بلقيس." (٤)

ويتخذ ابن الوردي من رسالة له مسماة "بمنطق الطير" من وصف الطيور وبيان لغتها وسيلة للوعظ، فمما قاله مثلاً في وصف الديك: "قصاح الديك ها أنا أناديك، أنا قد أذنت، فأقم الصلاة أنت، هذا أوان صف الأقدام، ووضع الجباه، ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، كم أوقظك، وبانقضاء الأوقات أعظك، فأشفق عليك بصياحي، وأرفرف عليك بجناحي، كم منحت أهل الدار إخواني، ووليتهم ولاني، وهم يذبحون أبنائي، ويستحيون نسائي." (٥)

ومما جاء في وصف الحمامة قوله: "فبينما ألباز سكران بما بان من البان، وإذا بحمامة قد وقعت أمامه، وقالت تتخثر، وأنت عظم نخر، أنت من آلة اللعب والصيد، وأنا من آلة الجد والكيد، أنا مع الطوق والخضاب من جملة حملة الكتاب، ومع خوفني من شرك الشرك، وحذري من فخ الإفك، حملت الأمانة التي أبت الجبال عن حملها، وامتثلت مرسوم أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها." (٦)

(١) نسيم الصبا: ٦٩

(٢) المصدر نفسه: ٦٨ - ٧٤

(٣) الغيث المسجم: ١٨١/١

(٤) نسيم الصبا: ٧٥ - ٧٦

(٥) مطالع البدر: ٧٥/١

(٦) المصدر نفسه: ٢٦٣/٢

ووصف الكتاب والأدباء حمام الرسائل، فمما كتبه محيي الدين بن عبدالظاهر في ذلك: "وأما حمام الرسائل، فكم أغنت البرد عن جوب القفار، وكم قدت جيوبها على أسرى أسرار، وكم أعادت السهام أجنحة فأحسنت بتلك العادية المطار... وكم سرت فحمدت المساء إذ حمد غيرها من السارين الصباح." (١)

وأما وصف الآلات والأدوات، فقد أكثر الأدباء منها، فقد عقد ابن فضل الله العمري فصلاً في ذكر هذه الآلات وأنواعها، حيث يذكر منها تسعة أنواع: في السلاح وآلات الحصار والآلات الموسيقية وآلات السفر وآلات الصيد وآلات المعاملة وآلات اللعب ثم المسكرات وآلاتها... وقد عدد ضمن كل نوع منها أنواعاً مختلفة أخرى من الآلات. (٢) فمما جاء على سبيل المثال في وصف السيف قوله: "وقلده مهابتاً سيفاً تلمع مخايل النصر من غمده، وتشرق جواهر الفتح في فرنده، وإذا سابق الأجل إلى قنص النفوس عرف الأجل قدره عند حده، ومتى حركه على ملك من ملوك العدا وهت عزائمه، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه، وعلم أنه سيفنا الذي على عاتق الملك الأغر نجاده، وفي يد جبار السموات قائمه." (٣)

ومن موضوعات الوصف. وصف البلدان، حيث تفنن الأدباء في وصف البلدان المختلفة التي زاروها، مما جعل هذا الوصف أحياناً يقرب من أدب الرحلات، فوصفوا دمشق وطرابلس وحلب والحجاز والقدس الشريف، وقد تراوح هذا الوصف بين الإيجاز الشديد الذي يقتصر على مجرد الخبر تقريباً إلى الوصف الأدبي الراقي، كما جاء بعضها ضمن رسائل الإخوانيات، بينما نجد البعض الآخر قد ورد على هيئة الرسائل الأدبية.

فمما جاء منها موجزاً ما ذكره ابن حبيب في وصف دمشق، يقول في حوادث سنة ٧٣٢هـ: 'وفيها توجهت رفيقاً للمولى كمال الدين عمر بن شرف الدين محمد بن عشائر الحلبي، ومعنا الشيخ علي بن معتوق المقرئ إلى دمشق المحروسة. وأقمنا بها أياماً نتلمى بروية محاسنها، ونطوف بحرم بساكنها ومسكنها، ونسعى إلى جامعها الفريد، ونلمح دقائق المعاني من بابي الساعات والبريد، ونتصفح وجوه المدارس، ونجتلي عرائس غزلانها الأوانس...' (٤)

(١) حسن المحاضرة: ١٨٨/٢ - ١٨٩

(٢) انظر: التعريف: ٢٩٤ - ٣٢٦

(٣) حسن التوسل: ٣٤٧

(٤) تذكرة النبيه: ٢٣٣/٢

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله في زيارة الحجاز الشريف: "وكان عاماً وافر البركة والخير، وسفراً مسفراً عن جزيل الميسر، حظينا فيها بزيارة خير الأنام، وبلغنا من الصلاة في روضة مسجده غاية المرام، وطفنا بالبيت العتيق، وانتظمنا في سلك الوافدين إليه من كل فج عميق، وسعينا بين المروتين، وظفرنا من منى وعرفات بجنى الجنتين". (١)

واضح أن ابن حبيب في ذلك يكاد يقتصر على مجرد الخبر. ومثل ذلك أيضاً ما ذكره في وصف بيت المقدس والخليل. (٢)

وفصل ابن حبيب في الوصف، حين يصف طرابلس، فيقول: "نزلنا على أن المقام ثلاثة، فطابت لنا حتى أقمنا بها دهرًا، ولعمري أنها بلدة طيبة، ومدينة أقطار خيراتها صيبة، ملابسها جديدة، ومحاسنها عديدة، ومساكنها أنيقة، وأشجارها في الصيف والشتاء وريقة، وماؤها دافق، ومرعاها موافق، وأزهارها باسمية، ومناظرها لمادة الأسى حاسمة". (٣)

ويأتي الوصف أيضاً مضمناً في الرسائل الإخوانية التي تبودلت بين الأدباء، من ذلك ما ورد على لسان ابن حبيب في وصف مصر: "وكتبت إلى بعض الأصحاب بطلب من مراسلة: "وأما ديار مصر فإنها نعم الديار، وهي - كما قيل - شرك النفوس، وعقلة الأبصار، تولد حيرة العقول بحسن حورنا وولدانها، وتقرط الأسماع بنغمات أطيوار قرطها وكتانها، وتجدد الأفراح بمقطعات نيلها، وتتقرب بسائر النزه إلى قلب نزيلها، ما أحسن جيزتها التي جازت الحد سيوف لهوها اللماعة، وأعطر روضتها التي لم يزل منصوباً بها منبر الخلاعة، يحلو لطرف المتتزه بها اجتلاء حلاها، ويجود بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين مشتهاها، وأما البحر فحدث ولا حرج، واركب فيه باسم الله تغلف بكل مطلوب من الفرج، كم لأصابع مقياسه على الخلق من الأيادي، وكم لخلجانه من منهل بر يرده الراح والغادي". (٤)

وتصل هذه الرسائل إلى الوصف الأدبي الراقى عند صلاح الدين الصفدي في قوله في وصف دمشق: "وكانت دمشق المحروسة لها هذه الصفحات، وعلى صفاها تهب نسمات هذه السمات، لم يتصف غيرها بهذه الصفة ولا اتفق أولو الألباب، إلا على محاسنها المختلفة، فهي البقعة التي يطرب لأوصاف جمالها الجماد، والبلد التي ذهب بعض المفسرين إلى أنها إرم ذات العماد، وهي في الدنيا أنموذج الجنة التي وعد المتقون، ومثال النعيم للذين عند ربهم يرزقون". (٥)

(١) تذكرة النبيه: ٢٤٣/٢

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٢٩٧/٢

(٣) انظر: المصدر نفسه ١٩٧/٣

(٤) المصدر نفسه: ٢٧١/٢

(٥) الوافي: ٩٣/١٧

وترتقي المراسلات الإخوانية بين الكتاب في تقريظ بلد ودم أخرى، إلى أن تصل إلى مستوى المناظرات والمفاخرات، ومن ذلك ما كتبه زكي الدين الحسين بن محيي الدين وهو بمصر إلى أخيه وهو بدمشق، يتشوق إليها، ويذكر ما فيها من المواضع والمنتزهات، ويذم مصر، بقوله: "فكيف يبقى لمن حل في جنة النعيم ورياضها، ويرتع في ميادين المسرات وغيابها تلفت إلى من سلمته يد الأقدار إلى أرض ليست بذات قرار، وبدلوا بجنتهم ذات البان المتفاح والورق المتصادح والنشر المتصاوح والماء المطلق المسلسل، والنسيم الصحيح العليل، جنتين ذواتي أكل خمط، وأثل وشيء من سدر قليل، وتقصدتهم يد القضاء، فأخذتهم بالأساء والضراء، وأوقعتهم بمصر وشموسها وحميمها، وغمومها وحزونها ووعورها وحرورها، وزفيرها وسعيرها.. فلو تراه في أرجائها القصوى كالأباعر الهمل، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل." (١)، وتمضي الرسالة في ذم مصر، وكان الكاتب قد أفاض في مدح دمشق وما فيها من نعيم، يقول: "إرم ذات العماد والأعواد، والسعود والإسعاد، والتهائم والأنجاد، والطارف والتلاد... والصفات والصفات المعجبة بحسنها وجمالها، الرافلة زهواً في ثياب إقبالها، المختالة طرباً في حلل خيلانها، التي ألهمت مولانا عن عبده بنعيمها ونسيمها، ووسيمها وشميمها، وأزهارها وأشجارها، وأنهارها وأمطارها، وأطيافها وأسحارها، وأقطارها وأوطارها، ورياضها وبساتينها، وميادينها وأفانينها، وغزلانها وخلانها." (٢)

وقد كتب إليه أخوه علاء الدين علي بن محيي الدين، وكان بدمشق، رسالة يتحدث فيها على لسان دمشق، وكأنها تخاطبه، حيث شخصها بأم تخاطب ابنها، يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من الوالدة إرم ذات العماد، إلى سيد الأبناء والأولاد، الذي لم يخلق مثله ولا مثلي في العباد والبلاد." وتمضي الرسالة مفصلة حالة الأم وقد غاب عنها أبنائها، وفارقها ضناها، تقول: "فأعوادي ذاوية، وسعود إسعادي خاوية، وتهانمي وبية، وأنجادي دنية، وطرفي كليل، وطارفي قليل، وتالدي ضئيل، وغزلاني نافرة، وأسادي بالقاهرة." (٣)، وتمضي الرسالة في معاتبة الأم لأبنائها على فراقهم لها، ثم يعاتبه على ذمه لمصر، ومن ذلك قوله: "ويا أيها الولد العزيز، كيف سمحت فطرتك السليمة، ومروءتك الكريمة، وسيرتك المستقيمة، وصبرك المحافظ، ودينك المراقب الملاحظ، بدم من جنيت نعمها، وسكنت حرمها، وقلت مصر وشموسها،

(١) خطط المقرئ: ٣٦٨/١، والرسالة بكاملها في: الأعلام الخطيرة لابن شداد - تاريخ مدينة

دمشق ٣١٩ - ٣٢٥ .

(٢) الأعلام الخطيرة: ٣٢٩

(٣) المصدر نفسه: ٣٢٩

وسقت عليها القول من كل جانب، واستعرت لها التكدير حتى في المشارب والمشارب، وهلا ذكرتها وقد باكرها نيل النعيم بمغيثه ليليل النسيم بكأس من تسنيمه، وطما البحر عليها زائراً فأغناها عن بكاء السحاب وتجهيمه، وعم معظم أرضها، وعب عبابه في طولها وأرضها... وانجاب عنها، فاهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، بدت روضة نضرة، بأملق مقطعة، كزمرة خضراء بلأل مرصعة." (١) وهكذا، تستمر هذه الرسالة في تقرّظ مصر، وذكر أوصافها الحميدة التي لا تبلغ البلاغة من "إحصاء فصلها مرماً، ولا الفصاحة تصوغ تشبيهها كلاماً." (٢)

فهذه الرسائل فريدة في موضوعها وفي أسلوبها، فالمدينة تتكلم على لسان أبنائها، تعرض مميزاتها، وتدافع عن ميزات الأخرى، وتعاتب أبناءها على محاولة ذم هذه المدينة.

ولم يقتصر وصف المدن والبلدان على مراسلات الإخوان ومكاتباتهم، بل كتب بعض الأدباء رسائل خاصة بوصف البلدان، وما تشتمل عليه من أوصاف، وما لها من فضل، من ذلك رسالة لابن حبيب في وصف دمشق وأخبارها، ونعت جامعها وذكر محاسنه، سماها: "شغف السامع في وصف الجامع"، منها قوله: "وبعد، فإن الشام دار الأمان، وقرار البركة والإيمان، ومحل الرحمة، ومحط النعمة، ومقر القرى، ومهبط ما يثرى به الثرى، وموطن الأخيار، ومعدن الأبرار، ومثوى الأبدال، ومأوى أصحاب الأحوال... وأما دمشق، فإنها في وجنة الشام كالشامة، وفي زينة البلاد كريح الطاووس أو طوق الحمامة.. وهي الربوة المباركة، والغوطة التي جلت عن المماثلة والمشاركة.. ما أعظم قصورها، وأدوم سرورها، وأوسع بساطها، وأجمل رياضها، وأفسح ميدانها، وأسمح غدرانها، وأحلى بناتها، وألذ أوقاتها... وأما جامعها الفريد النضير النضيد، الكامل المديد، المأهول بالطائفين من كل الطوائف على أنه وحيد الدرة اليتيمة، والنثرة النظيمة... هو إمام المساجد، ومقدم المعابد، قطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع، عين قلادة البنيان، وعقيلة بيوت الملك الديان، موطن أولياء الله وحزبه، ومنزل أشياع الدين وصحبه، مقام أهل التعب، ومحل ذوي التمسك والتزهد." (٣)

(١) خطط المقرئزي: ٣٦٨ - ٣٦٩

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٠

(٣) تذكرة النبيه: ٢٢٠/٣ - ٢٢٤

ويقرب وصف المدن والبلدان من أدب الرحلات، حين ينتقل الأديب من مكان لآخر، ومن بلدة إلى أخرى واصفاً هذه البلدان. ومن ذلك قول ابن حبيب في توجيهه إلى بعض أعمال حلب. يقول: "وكنّت أكثر الطلب وأعمل الفكرة لرؤية أعمال حلب، لأحيط بنواحي وطني علماً، وأملك من التتزه في جهات مملكته قسماً، فحصل ما كنت أرجوه، واتفق التوجه إلى المطلوب على أحسن الوجوه، فسرنا من حلب إلى الباب، وهي بلدة تختلس بحسنها الأبواب، ذات روضات أريضة، وجنات عريضة، ودواليب تحرك ساكن الطرب، وجدول حصابؤه من الدرر يعرف بنهر الذهب، ثم إلى البيرة الأثيلة الأثيرة، المطرب من حديث هوائها صحيحه، المخصوصة بالثمر الطيب طعمه وريحه، المجاور للفرات العظمى التي يستحق نثرها التنظيم أن يحرس ويحمي." (١) ويمضي الكاتب متجولاً بين بلدات حلب وأعمالها، واصفاً كل واحدة منها وصفاً دقيقاً جميلاً.

وقد سجل بعض الأدباء تفاصيل رحلاتهم إلى بعض المدن في رسائل خاصة، ومن ذلك رسالة لجمال الدين بن نباتة في وصف رحلته إلى القدس الشريف مع صاحب أمين الدين، بدءاً من دمشق، حيث يبدأها بمقدمة في مدح مرافقه، ثم يصف بداية المسير، فيقول: "فسرنا وأيدي السعد قد ذلت الطرق بل طوتها، وقدمت وعود الأمال بل أنجزتها، والأرض قد شرعت في لباس حليها وحللها، ومراعي الربيع قد وعدت الشمس لتسمين حملها." ويمضي في وصف معالم الطريق إلى أن يصل الركب إلى القدس الشريف، حيث يقول: "إلى أن قدمنا القدس الشريف نحن والغمام، وسبقنا طرة الصبح تحت أذيال الظلام، وخف بنا جناح الشوق والسوق حين دنت الخيام من الخيام، وألقينا بباب خرمة عصي السفر، وألقت هناك رحالها ركائب المطر، وزرنا باب الرحمة من الأرض، وزارنا باب الرحمة من السماء، وصرنا من الصالحين عند زيارة الأقصى، فمشينا على الماء، وحمدنا الأوطان والأقطار، واستمرت السحب حتى عادت كحجر موسى تنفجر منها الأنهار، وأقمنا في بيوت أذن الله أن يرفع شأنها، ويسبح فيها بالغدو والأصاال سكانها... وقمنا لبقية المشاهد قاصدين، ولتلك المباني المعظمة شاهدين ومشاهدين، فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت، ونثرنا على مواطئ القدم دموعاً عزت بلمسها ولا نقول هانت... ثم تليت الختمات التي شرف الله تعالى ذكرها، ومواعيد التفاسير والرقائق التي أجرت الأوقات الصاحبية أجرها." ويستمر في وصف المشاهد التي شاهدها، والمجالس التي حضرها في بيت المقدس، إلى أن يتوجه الركب إلى مدينة الخليل، فيصفها، ويفصل القول في الرحلة إليها، يقول: "ثم نزلنا من محل الخليل على محل القوي، وحمدنا عند صباح ذلك الوجه السري، واستقبلنا بمقام إبراهيم أماناً، واستكملنا من ضريح شاند الركن ومن ضرائح أهله أركاناً... وقلنا لأنفاس الشوق: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، ووردنا مورد اللقاء نشفي ظمأ إبراهيم."

ويمضي ابن نباتة في رحلته عائداً إلى دمشق، واصفاً كل ما شاهده في الطريق من مشاهد ومزارات مثل مشهد زكريا ويحيى عليها السلام، ثم قبر بنيامين أخي يوسف، ثم مشهد معاذ بن جبل إلى أن ينتسم ريح دمشق. (١)

وهكذا، فإننا نجد أن وصف المدن والبلدان قد تطور وارتقى من وصف موجز، يكاد يقتصر على مجرد الخبر، إلى أدب متكامل له خصائصه ومميزاته، حيث يحرص الأديب فيه على نقل الخبر صادقاً، مع وصف كل ما تقع عليه عيناه بأمانة ودقة، وبأسلوب لا يخلو من الخيال والإبداع، وهكذا، فإننا نجد أدباً يمكن أن نطلق عليه بحق أدب الرحلات، إذ لم يقتصر أدب الرحلات في هذا العصر على ما كتبه ابن بطوطة في رحلته، بل وجدنا أيضاً أن مصر والشام قد عرفت هذا النوع من الأدب، وإن كان متفوقاً على ما كتبه ابن بطوطة، حيث يكاد ابن بطوطة يقتصر في رحلة على النقل الصادق الأمين للمشاهد التي شاهدها، بأسلوب يكاد يخلو من الأدب الإبداعي الخيالي.

ومن موضوعات الوصف التي تناولها الكتاب والأدباء، ووضعوا لها رسائل خاصة، كوارث الطبيعة، حيث وصفوا ما حل بالبلاد والعباد من كوارث وزلازل وأوبئة.. وغيرها، حيث وصف الأدباء هذه الكوارث بطريقتين: الأولى: تقتصر على الوصف الموجز الذي يقتصر على مجرد الخبر، مع شيء من التشخيص والتجسيم.

والثانية: كتابة رسائل مطولة تصف الحدث وصفاً دقيقاً بأسلوب إبداعي جميل.

فمن النوع الأول: ما جاء في وصف طاعون عام ٧٤٩هـ عندما ذكرها ابن حبيب، فقال: "وفيها كان الفناء العظيم، والطاعون العميم الذي جاب البلاد والأمصار، ولم يسمع بمثله في سالف الأعصار، طالبت شقة مدته، وعالت مسألة شدته، وحمي وطيسه، ودارت خندريسه، سرى وسرح، واجترأ واجترح، ورمى ورمح، وما صفا ولا صفح، وضرب وطعن، وقتل من أقام ومن ظعن، وانتفى سيف سفكه، وصبغ بالدم الأحمر والأصفر وجه رنكه، وأخلى الديار والبيوت، وأوقع الناس في علة السكوت، وصال وجال، وقرب الأجال، وأيتم الأطفال، وقبض

(١) انظر الرحلة كاملة في: ثمرات الأوراق: ٢٣٥ - ٢٤٤.

الأرواح وأصرف الأموال. (١)

ومما ذكره ابن حبيب في هذا المجال أيضاً، وصف وباء عام ٧٦٤هـ، فقال: "وفيها وصل أمير الوباء إلى الديار المصرية، فجرد مواضي سيوفه، وأرسل سهام حتوفه، وأشرع الأسنة، وسن المدى، وألبس الناس أردية الردي، وصال في حومة سفكه، وجال في ميدان فتكه، حتى ورد من جهتها الخبر، أن العدة بلغت في اليوم إلى ألفي نفر، وقدم إلى بلاد الشام، نشر الألوية والأعلام، وجاس خلال الديار، وطاف الأعمال، وأفنى الأعمار، وقبض وصرف، وأخذ من لم يعرف ومن عرف، فسبحان القادر على رد ما بقوت، الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت." (٢)

ومن الرسائل الأدبية المطولة التي كتبت في وصف الأوبئة والكوارث، ما كتبه ابن الوردي عن طاعون عام ٧٤٩هـ بعنوان: "رسالة النبا عن الوباء". يقول فيها: "الله لي عدة من كل شدة، حسبي الله وحده، أليس الله بكاف عبده، اللهم صل على سيدنا محمد وسلم، ونجنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلم، طاعون روع وأمات، وابتدأ خبره من الظلمات، يا له من زائر، من خمسة عشر دائر، ماصين عن الصين، ولا منع عنه حصن حصين، سل هنديا في الهند، واستند على السند، وقبض بكفيه، وشبك، على بلاد أذربك، وكم قصم من ظهر فيما وراء النهر." ويستمر في عرض البلاد التي عمها الطاعون على هذه الطريقة، إلى أن يتحدث عن أثره، وما خلفه من كثرة الموتى، يقول: "ولو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى، وسمعت بكل قطر من حلب نعيًا وصوتًا لوليت منهم فرارًا، وأبيت منهم قرارًا" ثم يدعو الله سبحانه وتعالى أن يرفع هذا الوباء عن المسلمين، ويخلص العباد منه، يقول: "اللهم إنا ندعوك بأفضل ما دعاك به الداعون، أن ترفع عنا الوباء والطاعون، لا نلتجئ في رفعهما إلا إليك، ولا نعول في العافية إلا عليك." (٣) ولابن الوردي أيضاً رسالة من هذا النوع في وصف الزلزلة الحادثة في منتصف شعبان سنة ٧٤٤هـ، يقول: "تعوذ بالله من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، ونستعينه في طيب الإقامة بها وحسن الرحلة عنها، نعم، نستعيز بالله ونستعين، من سم هذه السنة فهي أم أربعة وأربعين، ذات زلزال ثبتت في بلاد الشام رجله وخيله، جاوز ستين يوماً، ووعظ بقوم قوماً، فإن قيل:

(١) تذكرة النبوة: ١١٠/٣

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٩/٣

(٣) ديوان ابن الوردي: ٨٦ - ٩٤

كيف صبر الجدار على إمساك شهرين متتابعين، وما اجتث من أصله، قلت: هي كفارة عليه، فإن وقع في نهار رمضان على أهله. "ويمضي ابن الوردي في وصف أثر هذا الزلزال على الناس، فيقول: "فكم دخل الفاعل والصانع داراً صخرها يابس، ودهنها غض، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض، وكم سماء سقط فلن يبرح الأرض، وبناء قصر في الطول إلى يوم العرض، وكم ليلة سهرناها سهر ليلي الهجر، ودعونا الله تعالى أنها "سلام هي حتى مطلع الفجر". (١)

كما وصف الكتاب والأدباء الكتابة والكتاب في مقالات أدبية رائعة، يقول ابن حبيب في وصف الكتابة: "الكتابة ألهمك الله معرفة فضلها ولا حرمك نفع صداقة أهلها، أشرف الوظائف والمناصب، وأرفع المنازل والمراتب، وأفصح صناعة، وأربح بضاعة، قطب دائرة الأداب، وصدر أسرار الألباب، ورسول صادق، ولسان بالحق ناطق، وسيف تحد بحده المعارف، وميزان يميز التالذ والطارف". (٢)

كما وصفوا الكتاب أيضاً، ومما جاء في وصفه قول ابن نباتة: "وخير جليس في الأنام كتاب، هو النديم الكريم، والخذن الأمين، البريء من الذنوب، السليم من العيوب، الذي إن أدنيته لم يباعذك، وإن أقصيته لم يعاودك، وإن واصلته حمدته، وإن هاجرته أمنت، وإن استتطقته أسمعك، وإن استكفيته أمتعك، وإن دعوته لباك، وإن استعفيتك أعفاك، لا يعصي لك أمراً، ولا يحملك إصراراً.. يملأ العيون قرة، والنفوس مسرة، يضحك الحزين للهف، ويلهي الغضبان الأسف". (٣)

وكما تناول الكتاب الموضوعات المحسوسة المادية في كتاباتهم، فقد تناولوا الموضوعات المعنوية غير المحسوسة، فكتبوا في مدح العشق وذمه، وكتبوا في الشجاعة والكرم، وفي العدل والإحسان، والشكر والثناء.... فمن ذلك، على سبيل المثال، ما كتبه ابن حبيب في مدح العشق وذمه، يقول: "فأما أوصافه الممدوحة فإنه جليس ممتع بمشاهدته، وأليف مؤنس بمناذمته، مسالكة لطيفة، وممالكة شريفة، برق لامع، ونور ساطع، تستضيء به نواظر العقول، ويفعل في الشمائل ما لا تفعله الشمول.."، ومن قوله في ذمه: "وأما أوصافه المذمومة، فإنه ملك قاهر، وحاكم جانر، هزله جد، وراحته تعب، وأوله لعب وآخره عطب، يعتري النفوس العاطلة، والقلوب الفارغة،

(١) ديوان ابن الوردي: ١٤٨ - ١٥٤

(٢) نسيم الصبا: ٧٧ - ٨٠

(٣) مطالع البدور: ١٧٥/٢

ويكشف من الآراء شموستها البازغة، ويسوق إلى وليه غمام الغم، ويهيم به في واد الهم، يذهب العقل، ويمرض الجسد." (١)

سادسا: رسائل المعارضات

يحدث أن يقرأ الأديب حكاية أو رواية في كتب الأدب، فيروق له أن يعارضها أو يساجلها بأسلوب أدبي، فينسج على منوالها رسالة أدبية، قد تقبل هذه الحكاية أو قد ترفضها، وكان اتجاه هذه الرسائل التي شددت الأدباء هي تلك التي تتجه نحو موضوعات العشق والغرام، ومن ذلك أن ابن أبي حجلة قرأ حكاية "ديك الجن" الشاعر (٢)، فأفرد لهذه الحكاية رسالة مستقلة سماها: "قرع سن ديك الجن"، وقدم لها بالحكاية المعروفة كما وردت في كتب الأدب، فقال: "يقبل الأرض، وينهي أن ديك الجن المذكور من جملة جنونه، أنه كان يهوى جارية وغلماً له، فمن شدة حبه لهما، وغيرته عليهما خشي أن يموت، وأن غيره يتمتع بهما بعده، فعمد إليهما، وذبحهما بسيفه، وأحرق جسديهما، وصنع من رماد الجارية برنية للخمر، ومن رماد الغلام برنية أخرى كذلك، وكان يضعهما في مجلس أنسه عن يمينه وشماله، فكان إذا اشتاق إلى الجارية قبل البرنية المجعولة من رمادها، وملأ منها قدحه وأنشد:

يا طلعة طلع الحمام عليها	وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها التراب وطالما	روى الهوى شفتي من شفتيها
وأجلت سيفي في مجال خناقها	ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطىء الثرى	شيء أعز علي من نعليها
ما كان قتلها لأنني لم أكن	أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على سواي بحسنها	وأنفت من نظر العيون إليها

(١) نسيم الصبا: ٤٩ - ٥٠

(٢) انظر ترجمته في الأغاني: ٥١/١٤، والرواية والأبيات مبثوثة في كتب الأدب منها على سبيل المثال: العاملي، الكشكول، المطبعة المصرية، بولاق ١٢٨٨: ٤٨، الأنطاكي، تزيين الأسواق: ١٧٤/١، ديوان الصبابة، ابن أبي حجلة، على هامش تزيين الأسواق: ٨٠-٨١، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

وإذا اشتاق إلى الغلام قدم البرنية المجعولة من رماده، وملأ منها قدحه، وبكى، وأنشد قوله:

أشفت أن يرد الزمان بغدره	أفأبتلي بعد الوصال بهجره
قمر أنا استخرجته من دجنه	لبليتني وأثرته من خدره
فقتلته وله علي كرامة	فلي الحشا وله الفواد بأسره
عهدي به ميتا كأحسن نائم	والطرف يفسح دمعتي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده	بالحي منه بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه	ويكاد يخرج قلبه من صدره

وبعد أن أنهى ذكر الحكاية، كما وردت في كتب الأدب، كتب يقول: "هذا الذي يقال له الجنون فنون، فإننا لله وإنا إليه راجعون، من فعل هذا المجنون، على أنه من أرق الناس شعراً، وأكثرهم للمحبوب ذكراً، فمن شعره الفائق، ونظمه الرائق قوله في الدعاء على المحبوب:

كيف الدعاء على من خان أو ظلما	ومالكي ظالم في كل ما حكما
لا واخذ الله من أهوى بجفوته	عني ولا اقتص لي منه ولا انتقما

أقول: صار الطالب "مطلوب" *، وهذا الفقه المقلوب، ما كفاه أنه فعل بالأحباب ما لا تفعله الكلاب حتى يقول: لا واخذ الله من أهوى بجفوته، يمزج رقة شعره بقسوته، فهو في الخفة والطيش، وقتل المحبوب لا في أيش ولا على أيش، فمن غلب عليه هواه كما تراه، فعل بمحبوبه ما فعل، وأقام ضربه بالسيف مقام القبل. (١)

وهكذا، فإن الكاتب قد جرب خاطره هنا تعليقا على هذه الحكاية، بأسلوب أدبي، يبين مدى تأثره بهذه الحكاية، وانفعاله التام مع أحداثها.

وقد يقرأ الأديب بعض الأبيات الشعرية في العشق والغزل، فيعلق عليها، ويجرب خاطره برسالة أدبية تعرض رأيه فيها، من ذلك ما قاله علاء الدين المغربي من "رسالة النيرين، وهي من المحب الكئيب إلى حبيب الحبيب". فقال بعد هذه الأبيات:

ذهب النيل وعادا	وعرامي يتعادي
كلما قلت غدا ينقص	بعض الوجد زادا
كل قلب غير قلبي	نال في الحب المرادا
وأنا المسكين وحدي	نلت في الصحب العنادا

(١) ابن أبي حجلة، ديوان الصبابة: ص ٨٠ وما بعدها.

* الصواب: مطلوبا، ولكنه سكنها لاقتضاء السجع

قال علاء الدين بعد هذه الأبيات: "وأنا المسكين وحدي، بليت في صحن القطائف، وعملت الخل ناطف، وصلبت إبليس بدقته، وتركته ينخفض ويصفق ويغني:

تلالة تلالة يا عوينات الغزالة

رحم الله من قتلني، وأي فخر في قتل مثلي، وهل أنا إلا شوبعر مخارف "مسخرة"، قد جعل رسائله وسائله، وقصائده مصايد، يستجلب ضرع الضراعة، ويميط قناع القناعة، إن جاع أكل تقطيع الأعاريض، وإن عطش شرب من بحور القريض، في زمان لا فرق فيه عند أهله بين القادح والمادح، والصائح والنايح:

قد ذقت منه ما ليس يقلعه أبو الحسين القلاع من ضرسي

بل أي شيء أحسن من خشفين ألفين، يتراضعان ثدي الصحبة، ويتراشفان كأس المحبة، ويقتطفان ثمر الوصال، ويتسالمان أنواع الدلال، ويتواصلان لواجع الغرام، ويتباسطان مباسطة الحمام، ولا يحضرهما غير مزاح ومراح، ولا يلثمهما غير كأس راح:

اثنان كالفرد من طول اعتناقهما باتا بليل حميد غير مذموم

يسفران عن نيرين، ويبتسمان عن درين، ويتسارقان النظر بلواحظ جوذرين، كأنهما اقتسما فنون الحسن والإحسان بكفة الميزان، إن تناقلا بعتاب، أو تراسلا بكتاب، فدر منثور، وسحر غير محطور، وإن تسابقا في ميدان الهوى، أو تراشفا بسهام الجوى، قالوا: بر موتور والساحر مسحور. (١)

ويمضي الكاتب في هذه الرسالة الظريفة معبراً عن أحاسيسه ومشاعره في هذا الموضوع المحبب إلى النفس.

- فن الحكاية الأدبية -

قصدت بالحكاية الأدبية: تلك الفنون الأدبية التي تقص حكاية معينة، بغض النظر عن طولها وقصرها، أو الأسلوب المستخدم في عرضها، وقد وجدت أن هذه الحكايات على أنواع متعددة منها:

فن المقامات - فن الحكاية الطويلة - خيال الظل

(أ) المقامات

يقول القلقشندي: المقامة: اسم للمجلس والجماعة من الناس، وسميت الأحداث من الكلام، مقامة، لأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها. (١) فالمقامة، إذن، تقص أحداث معينة، وتصلح لتروى في مجلس واحد يجتمع فيه جماعة من الناس لسماعها، أو تكون من الحجم بحيث تقرأ في مجلس واحد، فيشترط فيها أمران هما: وجود الحكاية، وصلاحيتهما لتروى في مجلس واحد لا تزيد عنه.

وقد علم أن أول من عمل المقامات هو بديع الزمان الهمذاني ثم تلاه الحريري حيث شاع هذا الفن بعد ذلك بين الأدباء.

وفي العصر المملوكي الأول، تصادفنا أعمال في هذا الفن لعدد من أدباء العصر، منها أعمال لمحيي الدين بن عبد الظاهر، وابن رجب، وابن الوردي والصفدي، وصفي الدين الحلبي، بالإضافة إلى أعمال الشاب الظريف، وقد كانت هناك أعمال ومقامات لم تصلنا، بل وصل إلينا إشارات في المصادر تدل عليها، ومن هذه الإشارات: مقامة في وصف الجوارح والخيل لجمال الدين محمد بن يوسف بن تحرير الأسواني (بعد سنة ٦٦٠هـ) (٢)، ومقامة في صفات البحرية لكمال الدين علي بن محمد بن المبارك الدمشقي المعروف بابن الأعمى ت ٦٩٢هـ، (٣) وللشيخ شمس الدين أحمد بن يعقوب بن أبي النصر الطيبي الأسدي (ت ٧١٧هـ) رسائل ومقامات (٤)، ولشمس الدين الصايغ محمد بن الحسن ت ٧٢٢هـ مقامة تسمى المقامة الشهابية عملها للقاضي شهاب الدين الخويبي (٥)، ولشهاب الدين محمود الحلبي ت ٧٢٥هـ "مقامة العشاق" (٦)، كما أن لشافع بن علي سبط محيي الدين بن عبد الظاهر ت ٧٣٠هـ مقامات تسمى المقامات الناصرية (٧)،

(١) صبح الأعشى: ١٢٤/١٤

(٢) الوافي: ٢٦٥/٥

(٣) العبر: ٣٧٩/٣

(٤) تذكرة النبيه: ٨٥/٢

(٥) الوافي: ٣٦١/٢

(٦) فوات الوفيات: ٨٢/٤

(٧) نكت الهميان: ١٦٣

ولعلاء لدين علي بن عثمان بن الخراط ٧٣٩ هـ خطب ومقامات (١)، كما كانت هناك أحداث أوجبت كتابة المقامات، منها عام ٧٢٩ هـ حيث قبض على كلاب دمشق ووضعت في خندق وقتلت، وقد عمل الأدباء في ذلك مقامة (٢).

تنوعت موضوعات المقامات في العصر المملوكي الأول، وقد حاولت حصرها فيما يلي:

(١) الوصف:

لم يقتصر موضوع الوصف على الرسائل سواء أكان منها الإخوانية أم الأدبية، وقد استغرق موضوع الوصف جزءاً كبيراً من تلك الرسائل، كما رأينا، بل تعدى ذلك إلى فن المقامات، حيث تعددت الموصوفات، منها وصف القصور والديار وأماكن العلم، إلى وصف البلالة، ووصف الفتن الداخلية والأحداث الحربية، بالإضافة إلى وصف الكوارث العامة من أمراض وزلازل أو حريق.

فمما وصفت به القصور هذا الجزء من مقامة كتبها الشيخ بهاء الدين الموصلي سماها: "سلوة الغريب وخلوة الحبيب"، حيث وصف فيه القصر الأبلق بدمشق الذي بناه السلطان الملك الناصر، يقول: "وقصرها الأبلق ليس بالعقوق، من شاهد بديع معانيه، نهى عن العاشق المعشوق، قد شام في غمده مشهور غمدان، وأسبل على إيوان كسرى ستر النسيان، يبهر الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه، الماء مرفوع في أقطاره ونواحيه، فتنضب في فواره بركة لتميز ناظره، قد جمع الصادح والباغم، واللاقط والطاغم، به الظباء الأوانس والمها الكوانس، أقطاره عريضة طويلة، لا ترجع الأبصار من السفر في زمنه إلا كليله." (٣)

وكان لدور العلم نصيب من الوصف في المقامات، حيث عمل ابن أبي حجلة مقامة في وصف "خانقاه شيخو" جاء منها شعراً:

ومدرسة للعلم فيها مواطن	فشيخو بها فرد وإيثاره جمع
لن بات فيها في القلوب مهابة	فواقفها ليث وأشياخها سبع (٤)

وكانت الرحلة بين مصر والشام مجالاً لإعمال الفكر، واستثارة العواطف لدى الأدباء، فهذا ابن أبي حجلة ينشيء مقامة يذكر فيها المنازل من دمشق إلى الديار المصرية، حيث وصف كل منزلة بما يتعلق بها، ومنها قوله: "قوصلنا الخرابي، وقد نعقت غربانه على الجيف في تلك

(١) ذيول العبر: ١١٥/٤

(٢) تذكرة النبيه: ١٩٨/٢

(٣) مطالع البدور: ٢٧٠/٢

(٤) السلوك: ١٨/٣

الروابي، فلم نشعر إلا وبنو بياضة أصبحوا بنا محدقين، وكانوا يقصون الأثر خلفنا، فيا لله يا للمسلمين." (١)

وأما ابن الوردي، فقد بنى مقامته "الأنطاكية" على وصف مدينة أنطاكية، حيث يجري الكاتب حواراً بين الراوي وأمير أنطاكية، يشتمل على ذكر لمحاسنها، كما يعرضها الراوي، وذكر لمساونها، كما يعرضها أميرها، فيبدو هذا الأمير قلقاً مهموماً لما في هذه المدينة من خليط بين العرب والروم، ثم يبدأ الراوي بالدفاع واصفاً هذه المدينة، ومبيناً محاسنها، ومن ذلك قوله: "فسورها منيع، وعاصيها مطيع، أطيارها تحن إلى نغماتها الجوارح، وأنهارها مطردة وعيونها سوارح، ونسيمها يبطل رائحة المسك السحيق، وساكنها يزهي على الغصن الوريق، يصدأ بهوانها السلاح، وتجلي به القلوب والأرواح:

برية بحرية حزنية	سهيلة * منثورها منثورها
متكامل فيها السرور لمن بها	يوماً أقام كما تكامل سورها
ما تلك إلا جنة الدنيا وما	ولدانها جليت عليك وحورها
... إلخ المقامة. (٢)	

ومن المقامات التي قامت على الوصف، مقامة لمحبي الدين بن عبد الظاهر، حيث بناها على وصف الديار الشامية، وما فيها من ثلوج وأمطار، ثم يصف الديار المصرية ونيلها، ويطنب في ذلك، فمما جاء في وصف الثلوج والأمطار في بلاد الشام قوله: "فعدنا الحبا وجنبنا الجنايب، وركبنا الصبا، وتسلمتنا من يد الربوة يد الوهاد والربا، وكان توجهنا حين أكثرت الجبال من الثلوج الاكتساء والاكتساب، وبفصل فتحت فيه السماء أبوابها بما ليس لفصوله عن تلك المواطن من فصول، ولا لأكوابه المترعة دائماً بجميع الفصول... فعدنا إلى جهة حمص، وإن لم يعجبنا العام، وقلنا كل ذلك مختفر في جنب ما أشارته مصلحة الإسلام المختصة بالخاص منهم والعام. واستقبلنا تلك النواحي المتناوحة، والمنازل المتناوية على المنازل المتناوحة، برقة جلود تتجالد على الجليد، وأوجه تواجه من تلك الجهات، وما ورد حياض المنون به أقرب من حبل الوريد، كم التقت الشمس بقارة من قرها بفروة سنجاب من الغمام، وكم غمضت عينها عمن لم يغمض جفونه بمناخ ولا مقام، وكم سبكت الرياح الزمهرية فضة ثلوجها فصحت عند السبك... فدخلنا إلى دمشق، وإذا أغصانها قد ألقت عصاها، وما استقر بها من الثمر والنوى، وأوراقها قد اصفرت وجوها من الهواء والهوى، وحمائمها لم تحتمل منة الليالي فخلعت ما لها بالأعناق من الأطواق، والنهر قد توقف عن زيارة الغصون فراسلته بالأوراق." (٣)

(١) سكردان السلطان: ٨٤

(٢) ذبوان ابن الوردي: ٣١ - ٣٢

(٣) الوافي: ٢٦٣/١٧ - ٢٦٤

* سهيلة: هكذا في النص، وصوابها: سهلية، إذ بها يستقيم الوزن والمعنى.

ومما قاله في وصف الديار المصرية من هذه المقامة: "ودخلنا مصر، فتلقنا نيلها مصعراً خده للناس، وقلنا هذا الذي خرج إلينا عن المقياس، وشاهدنا ربوعها وقد فرشت من الربيع بأحسن بسطها، وبدت كل مقطعة من النيل قد زينت بما أبدته من قرطها، وتتشقنا رياحها الهابة بما ترتاح إليه الأرواح، وشمنا بروق غمامها التي لم تغادر في القلوب من القر قروحاً لا تتعقبه لما تلقيه من الماء القراح، لا يكلج الجليد أوجه بكرها، ولا يهتم المدر ثانيا نهرها، ولا يوقظ البرق راقد سمرها، ولا تغير على أهلها القوانين، ولا يحتاج إلى التدفي في الكوائن بنيران الكوائن، كل أوقاتها سحر، وأصالتها بكر... غنيت بنيلها الخضم عن كل "دان مسف فويق الأرض هيدبه"، وعن كل نادي ارتداد نحيف الغزالة قطربه.." (١)

ولم تخل المقامات من وصف للأحداث الحربية، سواء أكان ذلك في الأحداث والفتن الداخلية، أم في الأحداث الخارجية، فمن الأحداث الداخلية التي وصفها المقامات فتنة حدثت عام ٧٥٣هـ، حيث خرج نائب السلطنة بطلب (بييغا روس القاسمي) ومعه نواب السلطنة بحماة وطرابلس وصفد، متوجهين إلى الديار المصرية لطلب الملك، حيث تمكنوا من دمشق، ولما علم السلطان بأمرهم خرج بالعساكر للقائهم، فهربوا وكانت نهايتهم الفشل، وألقي القبض عليهم جميعاً، وقد كتب في هذه الحادثة أهل الأدب (٢)، ومنهم ابن حبيب الذي أنشأ مقامة سماها "مروج الغروس في خروج بيبغا روس" حيث يسرد فيها الأحداث سرداً حقيقياً، ومنها قوله: "فلم يزل يبجل الأمر ويعظمه، ويشدد الحال ويضخمه، ويسير سير الملوك، ويسلك ما لا يليق من السلوك، ويمد رواق العز وأطنابه، إلى أن ركب في مواكبه بالمطربة والشبابية، ثم إنه لم يقنع بذلك، ولا رضي في الأرض بمشارك، واستقل نيابة السلطنة، وكشف ستر السر وأعلنه، وشق بسيف جهله العصا، وخرج عن الطاعة وعصى، وأظهر الرفعة على أبناء جنسه، وصرح بطلب ملك مصر لنفسه" (٣)

ويبين ما لقيه هذا الخارج عن السلطان من سوء العاقبة، فيقول: "قلما كان بتاريخ ثالث عشر رجب، برز بالعسكر إلى ظاهر حلب، عازماً إلى الديار المصرية، جازماً ببلوغ القصد والأمنية، ولم يدر أن المقادير ناقضة لما أبرمه من سوء التدبير.." (٤)

وفي عام ٦٦٠هـ دهم التتار حلب، وخرّبوا دورها وقصورها، وأعملوا السيوف في رقاب أهلها، وقد قال الأدباء في تلك الحادثة، ومن ذلك مقامة وصفها الشيخ جمال الدين عمر بن

(١) الوافي: ٢٦٥/١٧

(٢) انظر: تذكرة النبيه: ١٥٨/٣

(٣) تذكرة النبيه: ١٦٠/٣

(٤) المصدر نفسه: ١٦٠/٣ - ١٦٤

إبراهيم الرسعني، ومما قاله منها: "هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام، وهملت عيون العناء كالغمام، وصار وشام الإسلام كالوشام، وغرام الأنام في غرام، وخفيت آثار المآثر ودرست، وطفنت أنوار المنابر وطمست، وحلبت العيون ماءها على حلب، وسكبت الجفون دماءها من الصبيب، والتف عليها الختل والاختلال، واحتف بها القتل والوبال، واختطف من أعيانها عرائس الشموس والأقمار، واقتطف من أغصانها نفائس النفوس والأعمار، فستر سفور السرور، ونشر ستور الشرور، وتخربت الدور والقصور... ولما تعظم العدد وتكبر، وتقدم بالعنوت وتجبر، وبسط سيفه على الخافقين، وهبط خوفه على المشرقين، أطلع الله طلائع اللواء المظفر، وأبدع مطالع السناء الأنور، وخفقت الرايات والبنود، وشرقت الآيات والسعود بانجذاب الكفار إلى كنعان، وانسحاب الفجار إلى هوان." (١)

وكان لوصف النكبات والكوارث العامة نصيب وافر في أدب المقامات، حيث وصف كتابها ما أصاب البلدان من حريق أو زلازل أو أمراض أو فيضانات، ومن ذلك مقامة كتبها صلاح الدين الصفدي في حريق دمشق عام ٧٤٠هـ حيث يقول فيها: "فسألت الخبر ممن غبر، فقال: إن الحريق وقع قريبا من الجامع، وانظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقانق اللهب اللامع، فبادرت إلى صحنه والناس في قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشمع، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام معصفرات ذوائبها، وصعدت إلى السماء عذبات ذوائبها: ذوائب لجت في علو كأنما تحاول تأرا عند بعض الكواكب

وعلت في الجو كأنها أعلام ملانكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي: ترمي بشرر كالقصر"، فكم "زمر" أضحت لذلك "الدخان" "جائثة"، وكم في "النازعات" وهي تنلوا: "هل أتاك حديث الغاشية"... وهكذا تمضي المقامة في وصف ما أنت عليه النار، ودمرته، وتركته كأنه خراب. (٢)

وفي الحدث ذاته، يكتب ابن الوردي مقامته الدمشقية المعروفة "بالصفو الرحيق في وصف الحريق"، يقول فيها: "بينما أنا ذات ليلة من سنة سبعمئة وأربعين، وقد أويت من دمشق إلى ربوة ذات قرار ومعين، وإذا بضجيج أهلها قد ملأ الآفاق، والنيران في أسافلها وأعاليتها قد بلغت التخوم والطباق، فبادرت إلى الجامع الأموي لأمنه ويمنه، فوجدت العالم كأنه قطعة لحم في صحنه، وقد أرسل على أحاسن دمشق شواط من نار ونحاس"، وقربت النار من جامعها الخضر حتى كاد يحصل منه لباس، وثارت النار لأخذ الثار مشرفة في كلبها، وجاءت حمالة الحطب، فتبت بدا أبي لهبها:

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف*

(١) تاريخ ابن الوردي: ٢/٢١٥

(٢) مسالك الأبصار: ١/٢٠١

(*) الطراف: بيت من أدم، وهو من بيوت الأعراب، (الوسيط: طرف)

ويمضي في بيان ما سببته هذه النار من دمار وخراب في الأسواق والدور، لكن النائب يصبر على التحقيق عن سبب هذا الحادث، فإذا النصراني وراء ذلك: "حتى أظهر الله تعالى أنه من النصراني، الضالين الحيارى، قصدوا به الجامع والمشاهد، ومدارس العلم والمساجد، لا بل دمشق بأمته، لا بل الإسلام برمتها، بمكاتبات من ملوك الإفرنج وأشباههم، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم."، فأمسك نائب الشام بمن يشك به منهم، فيعاقبون ويضربون ضرباً "يجعل دمع العين صيباً، ودم الجنين صيباً... فجعلوا وهم تحت العقوبة يتشائمون، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون"، واشتد خصام الكفرة الفجار "إن ذلك لحق تخاصم أهل النار"، ثم يعاقبون بصلبهم باعتقادهم صلب المسيح "وما صلبوه"، ونصبوا أغراضاً لسهام السب بما كسبوه، وتعمر دمشق من جديد، بما فرض على هؤلاء من جزية وغرامات جديدة. (١)

٢ - موضوعات ذات دلالة دينية

تميل كثير من المقامات نحو النزعة الدينية، إذ نستطيع أن نلمح فيها مثل هذه الأهداف، فهي تشير إلى منكرات وبدع، أو انحرافات عن الدين الصحيح كان الناس يفعلونها، وكيف تم تصحيح هذا الانحراف، فكان الأديب يطرح للناس ممارسة خاطئة، ويبين لهم كيف تم معالجتها والقضاء عليها، وكأن فن المقامة بذلك قد اتخذ جانب الأدب الملتزم الذي يطرح قضايا ومشاكل الأمة، محاولاً وضع الحلول المناسبة لها، بعيداً عن أسلوب المباشرة والوعظية إلى حد ما، ومن ذلك ما حاوله ابن الوردي في مقامته "المشهدية"، حيث أظهر بعض البدع التي سار عليها الناس في ذلك الوقت من زيارة المشاهد والأضرحة، فيبذل الراوي جهده لبيان تحريم الأئمة لذلك، ويورد مجموعة من الأدلة على ذلك منها: "شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، ومشاركتهم أهل الكتاب في الأعياد والخبائث، وتشبههم بالمجوس في إصرام النار، وإضاعة المال المنهي عنها في الأخبار، واختلاط الناس* بالرجال، وركوب الأخطار والأوجال، ولهوهم عن العبادة والجماعات، وإقبالهم على اللعب والسماعات، ومحاكاتهم الجاهلية في أسواقها، وإحداث أحداث العشيرة في الشريعة ما ليس في قياسها ولا سياقها، وزيارة غير ما وردت به الرسالة، وارتكابهم أمر أمر مبتدع، وكل بدعة ضلالة، ويغني عن هذا كله خبر فرد" كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد"، هذا ما أحاط علم الناهي من دلائل لا حصر لها ولا تنتهي. (٢)

وإن كان في هذا الكلام شيء من المباشرة والوعظ، فإنه قد جاء ضمن حديث الراوي، وضمن حكاية وأحدثة يجلس لسماعها عدد من الناس، وهو بذلك يبين لهم خطأ ممارستهم، ويحاول إبعادهم عما كانوا يعتقدونه بطريقة مقنعة.

(١) ديوان ابن الوردي: ١١٩ - ١٢٩

(٢) المصدر نفسه: ٤٨ - ٤٩

* هكذا في ديوانه، ولعلها: النساء

٣ - موضوعات تهدف إلى غايات تعليمية

قد يعتمد بعض الأدباء إلى تدوين مقامات يقصد منها نقل فكرة معينة إلى الآخرين، فيشعر القارئ حين يقرأها أنه أمام شيخ يجلس على كرسيه، وأمامه مجموعة من الطلاب يستمعون إليه، وهو يتكلم في موضوعه، ويحاضر في طلبته حول القضايا التي يعرضها، ولنستمع إلى ابن الوردي وهو يتكلم على لسان الراوي، محاولاً أن يبين معنى الصوفية، واشتقاقها اللفظي، وشروط الصوفي، يقول: "اعلموا أيها الجماعة أن اشتقاق التصوف عند أهل التعريف والتعرف من الصفا والوفا والفناء هذا من حيث عبارة الناطق. وأما اشتقاقه من حيث الحقائق، فمن أحد أربعة أشياء تحيي الأسرار وتسر الأحياء: الأول، من الصوفانة، وهي بقلة قصيرة ذات زغبة، والثاني: من صوفة، قبيلة كانت تجيز الحاج وتخدم الكعبة، والثالث: من صوفة القفا: شعرات في قفا الإنسان. الرابع: من الصوف الغني عن البيان. وإذ قد أصغيتم لياني، فسأني بالبديع إلى شرح المعاني."

ويبدأ في الحديث عن تسمية الصوفي بهذا الاسم اشتقاقاً من كل واحد من هذه المسميات المختلفة. (١) وأما حول الشق الثاني من السؤال. وهو: شروط الصوفي، فيقول في ذلك: "وأما شروط الصوفي باستحقاق، فإن يتخلق بأخلاق الرسول، ويفوز من سؤل رياضاته بالشمول، ويتنكب عما عنه نكب، ويأخذ بما إليه ندب، ولا يتخذ محرمة ربيعه، ولا يجري كالعاصي الذي يزيد إعراضه عن الشريعة، فقد صفا من الكدر، ونحي عن العكر، ونجي من الغير. ومن عدل عن سمته ونهجه، وعول على حكم نفسه وهرجه، وسعى لبطنه وفرجه، كان/التصوف خالياً، وفي التجاهل ساعياً، ومن داخله في ذلك مرية، فقد عطل عما ذكره الحافظ في "الحلية" (٢). ثم يبدأ بالإجابة عن بعض التساؤلات حول طريقة الصوفية وعاداتهم، ومن ذلك قوله: "لم حلقوا الرؤوس، وقصروا الثياب؟ فقال موافقة لما في الكتاب، وهم في ذلك كالمذكرين أن من كان إلى العلا من المحلقين فليعترف أنه من المقصرين، قلت: فلم تركوا النعال ولبسوا الجمام؟ قال: شيء أحدثته الأعاجم..." (٣) ويمضي ابن الوردي في الإجابة عن مثل هذه الشبهات حول طريقة الصوفية، وكأنه قد نصب نفسه في موقع الصوفي الذي يعلم الناس أصول هذه الطريقة، ويبين لهم معانيها وشروطها، ويرد بعض الشبهات حولها.

ومن المقامات التي ينحو فيها ابن الوردي هذا المنحى مقامته "المنبجية" التي يحاول فيها بيان ما تتميز به هذه المدينة "منبج" من عراقية، لكنها اليوم مدينة مهملة، وقد طواها الدهر بنسيانه: "فمساجدها بالدثور ساجدة، ومشاهدها بحزنها على من غاب عنها شاهدة، ورباطاتها

(١) انظر: ديوان ابن الوردي: ٢٢-٢٣

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٠

(٣) انظر المقامة كاملة في: المصدر السابق: ١٨-٢٩

محلولة القوى وللأنس فاقدة، ومدارسها دارسة إلا واحدة...." وكأن الكاتب قد أراد أن يبين لنا أن هذه المدينة بها من المدارس والمشاهد والمساجد والرباطات التي كانت تجعلها مدينة تعج بالحركة العلمية، ويمضي في الحديث عن تاريخ هذه المدينة حديث عارف عالم، يقول : "وعجبت لسورها المديد وقصرها المشيد، ونهبت على قبر ملكها حسان بن بهلولان بعد أن دثر، وقرأت البيتين المكتوبين عليه نقرأ في حجر:

لقد غفلت صروف الدهر عني	وبت من الحوادث في أمان
وكدت أنال في الشرف الثريا	وها أنا في التراب كما تراني
ورأيت قبر البحري بها	وشهدت بهجة مشهد النور
ودعوت عند المستجاب وفي	سبح المصلى خارج السور (١)

وتبدو النزعة التعليمية واضحة حين يمضي راوي المقامة إلى مدرسة منبج، فيجد فيها مدرستها القاضي؛ فيحتقره لحدائثة سنه، "فإن المتصدر قبل أوانه سفيه، ورب فقيه لا أدب فيه"، كما يقول، فأراد أن يمتحنه ويختبره، فأنشده أبياتاً على لسان عشرة أصدقاء في موضوعات مختلفة، كل منهم ينشد بيتين في موضوعه، وطلب أن يحكم بينهم، وبدأ يعرض ما قاله كل منهم، والقاضي يرد عليه، وكأن ابن الوردي على لسان هذا المدرس الفقيه ينصب نفسه ناقدًا، يبين للشعراء ما ينبغي أن يكون عليه الشعر، ومن ذلك ما بدأ به لنفسه في بيتين هما :

زائرة زارت بلا موعد	أفدي بما أملكه سيرها
فقلت ما ذا وقته فارجمي	وعاوديني ليلة غيرها

فقال: هذا سوء الأدب بالأدب، والدليل على ضعف الطلب، أتزورك متفضلة، وترجع خجلة؟ سأشذك بيتين لا مطعن عليهما، ولا أسبق إليهما، وهما:

جبرت يا عاندتي بالصلة	فتمني الإحسان تنفي الوله
وهذه قد حسبت زورة	لم أنت يا لعبة مستعجلة

ثم قال: هكذا بيان المعاني... (٢) ويمضي الكاتب في استعراض ما قاله كل من أصحابه، ويستمر هذا المدرس في الرد عليها، ويأتي بما يناسبها ويفضلها، حتى ينهي الراوي عدد أبيات أصحابه، مما يجعل هذا الراوي يطلب منه الصفح عما بدر منه، لأنه إنما أراد اختبار علمه ومعرفته. (٣)

(١) ديوان ابن الوردي : ٣٦-٣٧

(٢) المصدر نفسه : ٣٨-٣٩

(٣) انظر المقامة في : المصدر نفسه : ٣٥-٤٦

٤- مقامات غزلية:

بين يدي مقامتان، يطلق على كل منهما مقامة العشاق، الأولى: ملحقة لديوان شهاب الدين التلعفري، والحق أن الناشر لم يضع اسماً لهذه المقامة، إنما قال في مقدمتها: "هذه مقامة رقيقة المبنى، رائعة المعنى، لتاج الأدباء وقدوة البلغاء شمس الدين المعروف بالشاب الظريف ابن الأديب المشهور عفيف الدين التلمساني... أحببنا ذكرها بذيل هذا الديوان نظراً لرقّة ألفاظها." (١)

وأما الثانية: فقد حققها وقدم لها التهامي الشريفي، وقد سماها: مقامات العشاق، ونسبها للشاب الظريف التلمساني، والمقامة غير مطبوعة.

أما موضوع المقامتين فمختلف تماماً، وإن كان ثمة عدد من الباحثين قد ظن أنهما مقامة واحدة، مما دفع التهامي الشريفي إلى نفي ذلك في مقدمة تحقيقه لمقامات العشاق (٢). والحققة أنني أذهب إلى ما ذهب إليه التهامي الشريفي، وذلك لأن موضوع المقامتين ومضمونها مختلف تماماً، وسوف أحاول استعراض مضمون كل منهما:

أما المقامة الأولى منهما والمنسوبة إلى الشاب الظريف، والملحقة لديوان شهاب الدين التلعفري، فتدور حول مجلس يضم جماعة من الأدباء، يتذكرون الأدب، ويسروون الشعروالخطب، ويبدو من بينهم شاب عليه أمارات الحزن والهم، فيتقرب الراوي منهم محاولاً تبين سبب حزن هذا الشاب، ويبدأ ببيان سبب ألمه وحزنه، وبث ما أصابه من لواعج الحب والشوق إلى من يحب، كما يصف محبوبه، فما يكاد هذا الشاب ينهي قصته حتى يبدأ شاب آخر بشرح ما يلاقيه من الوجد والأرق والنصب، ويصف محبوبه أيضاً، أما الأول فيهو فتى اسمه محمد، وأما الثاني فاسمه علي.

وعلى الرغم من أن هذه المقامة تبدو في ظاهرها غزلية، حيث يستنفذ الكاتب فيها كل مصطلحات العشق والغزل، ومن أمثلة هذا الوصف الغزلي الحسي ما قاله في وصف محبوبه شعراً من هذه المقامة:

صبوت إلى الصبابة والغرام	وودع ناظري طيب المنام
وسام القلب من أولاد سام	غزال طرفه من آل حام
يريني الموت في سيف ورمح	مقيماً في اللواظ والقوام (٣)

(١) ديوان الشهاب التلعفري: صححه: السيد محمد سليم الأنس، المطبعة الأدبية، بيروت: ١٣١٠هـ: وقد ذكر ذلك شاكر هادي شكر في تحقيقه لديوان الشاب الظريف ص ٧-٨ مطبعة النجف، النجف الأشرف ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

(٢) انظر: مقدمة مقامات العشاق، التهامي الشريفي، مخطوط: ص ٨

(٣) ملحق ديوان التلعفري: ٤

أقول: على الرغم مما يكثر في هذه المقامة من أوصاف وألفاظ غزلية حسية، إلا أنه يمكن القول: إن هذه المقامة مقامة صوفية تجمع الكثير من مصطلحات الصوفية، ولتنظر إلى اسمي المحبوبين، فالأول: اسمه محمد، والثاني علي، وحين يبدأ بوصف حبه قال: "وأما سبب تعلقي بحبه، ووقوع قلبي في شرك عينيه وهديه، أنه تراءى لي بعض الأيام بالجامع المعمور، وهو من وجهه وشعره كالقمر في الديجور"، ويقول أيضاً: "وحكى يوسف في اسمه، وأشبه النبي في اسمه، وقد أقام حرب الهوى على ساق، فذلت له أعناق العشاق"، ومما قاله أيضاً في وصفه شعراً:

وكيف يسלוه مغرم دنف	يرى جميع الوجود تعشقه
ويكاد يفصح عن غرضه حينما يقول :	
هل عائد والأمني ربما صدقت	دهر مضى ومغاني حسنكم أمم
يا غائبين ووجدي حاضر بهم	وعائبين وذنبني في الغرام هم
لا أوحشت منكم دار بكم شرفت	ولا خللت عن معاني حسنكم خيم
فكل أرض وطنتم تر بها فلك	وكل حي حللت ربه حرم (١)

وتزخر هذه المقامة بكثير من مصطلحات الصوفية التي تكثر في أشعارهم عادة، ومن هنا فإنني أوافق الباحث يوسف نور عوض حين عد هذه المقامة مقامة صوفية، ولكنني أضيف هنا إنها مقامة صوفية في حب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته. (٢)

وأما المقامة الثانية الموسومة بمقامة العشاق، فهي تلك التي حققها التهامي الشريفي، وتدور حول مجموعة من الندماء يخرجون للاستمتاع والشراب، فيضمهم مجلس أنس وأدب، ويبدأون بوصف الخمر والساق، فيقدم عليهم شاب يدعونه لمشاركتهم، فيرفض ذلك إلى أن يتمكنوا من إزالة همه وحزنه وكمه، فتنبهوا أنه محب، فيهنون عليه، ثم يبدأ بوصف حاله ووصف محبوبه، وينتهي مقالته بتقليد محبوبه إمارة الجمال، فمما قاله في وصف محبوبه:

مثل الغزال نظرة ولفتة	من ذا رآه مقبلاً ولا افتتن
أعذب خلق الله ثغراً وفماً	إن لم يكن أحق بالحب فمن
في جسمه وصدغه وشكله	الماء والخضرة والوجه الحسن

فتارة أبدي الرفعة والعلو، والرجعة عن الحب والسلو، وأونة ألبس للصبر حلة، وأنشد تعة، وإذا ما الحبيب خفق ينسب بلظى من صفات النفور فأعذرته، وأصبر عليه فلا بد لصبر الحب من تأثير. (٣)

(١) ملحق ديوان التلعفري: ٣-١٢

(٢) انظر: يوسف نور عوض، فن المقامات بين الشرق والغرب، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩ :

(٣) التهامي الشريفي: مقامات العشاق : ٦

أقول: إن هذه المقامة غزلية في مضمونها وروحها، ولا يبدو فيها أي أثر للتصوف.

هاتان، إذن، مقامتان تنسبان للشباب الظريف (٦٨٨هـ) دعيت كل منهما بمقامة العشاق. والذي أراه: أن لهذا الكاتب مجموعة من المقامات يطلق عليها "مقامات العشاق"، وهاتان المقامتان من بينها.

٥ - مقامات فكاهية :

لا تخلو المقامات التي وضعت في العصر المملوكي الأول من دلالات فكاهية، تهدف إلى إشاعة جو من المرح والدعابة والفكاهة لدى القارئ أو المستمع، حيث تعتمد فكرة التضاد بين الواقع والمثال أساساً لإثارة الضحك والفكاهة، ففي مقامة وضعها ابن شرف المصري حيث يتوجه فيها نحوي إلى إسكاف، ويطلب منه حذاء، فيعرض عليه قبل ذلك ثقافته وقراءاته، ثم يبدأ بعرض صفات هذا الحذاء الذي يريده، ومن ذلك قوله: "اجتاز بعض النحاة ببعض الأساكفة فقال: أبيت اللعن واللعن ياباك، رحم الله أمك وأباك، وهذه تحية العرب في الجاهلية قبل الإسلام، لكن عليك أفضل الصلاة والسلام، والسلم والسلام، ومثلك من يعز ويحترم، ويكرم ويحتشم، قرأت القرآن والتيسير" و"العنوان" و"المقامات الحريرية" و"الدرة الألفية" و"كشاف الزمخشري" و"تاريخ الطبري"، وشرحت اللغة العربية على سبويه ونفطويه وابن خالويه، والقاسم بن كميل والنضر بن شميل، وقد دعتني الضرورة إليك، وتمثلت بين يديك، لعلك تتحفني من بعض حكمتك وحسن صنعتك، بنعل يقيني الحر، ويدفع عني الشر، وأعرب لك عن اسمه حقيقةً، لأتخذك بذلك رفيقاً.... ويمضي مستعرضاً صفات هذا الحذاء الذي يريده، فهو: "أقوى من الصوان، وأطول عمراً من الزمان، خالية البواشي، مطبقة الحواشي، لا يتغير علي وشيها، ولا يروغني مشيها، ظاهرها كالزعفران، وباطنها كشقائق النعمان، أخف من ريش الطير، شديدة البأس على السير، لا يلحق بها التراب، ولا يغرقها ماء السحاب...." (١) ولا يلبث الإسكاف أن "دخل حانوته وخرج، فقال أخبرك أيها النحوي: أن الشراب حزوي شططبات المتفرق والمتبعقب، لما قرب من قرى قرق القر نقتفط طرق زرفات شراسيف قصر القشتيع من جانب الشرشنكل...." وهكذا يمضي الإسكاف في استعراض مثل هذا الكلام الذي لا يكاد يفهم منه شيء (٢) حيث يعتمد الكاتب على التناقض في المواقف لإثارة الفكاهة والدعابة، فالإسكاف لا يفهم سماع هذه القائمة من المؤلفات التي يستعرضها له النحوي، مما أثار غضبه، فحاول أن يأتي بكلام لا يفهمه هذا النحوي.

ومما يعتمد فكرة التناقض في المواقف لإثارة الفكاهة محاولة صفي الدين الحلي في رسالته المسماة: "رسالة الدار عن محاورات الفار"، وعلى الرغم من أن أسلوب هذه الرسالة من حيث بدايتها يبدو كأنه أسلوب الرسائل، إلا أنها في الواقع تقرب كثيراً من المقامات، حيث تقص حكاية تروى على لسان هذه الدار التي يعنيه، وعلى لسان الفار الذي يسكنها، فما هي الدار

(١) الوافي : ١٣٦/١٦ - ١٣٧

(٢) المصدر نفسه : ١٣٨/١٦

تقارن بين حالها وحال القلعة مكان إقامة وسكنى السلاطين والأمراء، مبينة ما بين حالتيهما من تناقض، فمما يأتي على لسان هذه الدار مبينة حال القلعة: "وأنت بحمدالله قد أصبحت أغزر ضياء من الشمس، وأعز منها في المنال والملبس، فأياك باسمه الثغور، وبلادك آمنة الثغور، يقصدك المادح والحمد، ويشكر الزائر والوارد،" ومما جاء على لسان الدار مبينة حالها: "قلما طوحت بساكنها الأيام إلى أقصى الشام، جفاها الإخوان حيناً طويلاً، وهجرها الرفاق هجراً جميلاً، فكابدت بعده همّاً وبؤساً، وأقامت فارغة كفؤاد أم موسى، لا تجد أنيساً في عراصها القفار، ولا تسمع حسيساً غير صهيل الفار، حتى رثت لها أكسار البيوت، وخيم على وجهها أسرة العنكبوت" (١)

ويعتمد فكرة قلب الحقائق لإثارة المواقف الفكاهية، منها أن أحد الجرذان يقوم بين بني جنسه خطيباً، مبيناً حرص جماعة الفران على هذه الدار، وعلى ضرورة عمرانها، لأن في ذلك حياة للفران جميعاً، يقول: "اعلموا معاشر الفار أنكم من أكرم جيل، وأشرف قيل، خلقت من عفن التراب والطين، وتلك جبلة آدم أبي العالمين، وشاركتكم بنيه في سكنى الدار، فلزمهم لكم حق الجوار، ألا وإن ملك القناعة عقيم، والبيغي مصرعه وخيم، فالطمع عذابه أليم، وهذه الدار المباركة أول تربة بركم أترابها، وأول أرض مس جسمكم ترابها، فلا يكن على أيديكم خرابها." وتمضي المقامة مبينة ما حل بهذه الدار من أنس ونعيم، وما طال الفران بسبب ذلك من ترف، إلا أنها ما لبثت أن تغير حالها، وعاد الخراب يغشى أركانها، فتعود هذه الدار إلى استعطاف القلعة المحروسة ورجائها إلى إجابة مسألتها (٢).

هذا من الجانب الموضوعي. أما من الجانب الفني، فقد اختلفت المقامات المؤلفة في هذا العصر عن المقامات المؤلفة في عصور سابقة، وذلك من عدة وجوه:

أولاً: لم تعد المقامات تهدف إلى أغراض التسلية، أو ذات صبغة تعليمية، كما كانت في السابق، بل اتخذت أهدافاً ذات أبعاد كثيرة، فهي إلى جانب قيمتها الأدبية، ذات قيمة تاريخية أيضاً، بالإضافة إلى ذلك فقد تعددت موضوعاتها، كما تبيننا سابقاً، بل لقد اتجهت نحو الرمزية أو الأدب الرمزي إن جاز هذا التعبير.

ثانياً: تصويرها لكثير من جوانب ذلك المجتمع، حيث ساهمت المقامات إلى جانب غيرها من موضوعات النثر في ذلك الوقت في رسم ملامح لكثير من مناحي الحياة في ذلك الوقت: السياسية والاجتماعية والعسكرية، والدينية والعلمية.

(١) ديوان صفى الدين الحلبي، المطبعة العلمية ومكتبتها في النجف الأشرف، ١٣٧٥، ١٩٥٦: ٤٦٢-٤٦٣

(٢) انظر الرسالة كاملة في: المصدر السابق: ٤٦٢-٤٧٠.

ثالثاً: لم تعد موضوعات المقامة مقتصرة على الكدية، بل تعددت أغراضها كما تبيننا، فتناولت جوانب الوصف والغزل والتصوف، بالإضافة إلى الصبغة التعليمية والفكاهية.

رابعاً: الراوي. لم تعد شخصية الراوي شخصية واحدة عند الأديب في هذا العصر، كما كان الحال عليه في عصور سابقة، بل تعددت شخصيته حسب موضوع المقامة، فعلى سبيل المثال: في مقامات ابن الوردي نجد الراوي في أربع من هذه المقامات يكاد يكون واحداً دون ذكر اسمه، فهو: "إنسان من معرة النعمان" في مقاماته: الصوفية (١) والأنطاكية (٢) والمنبجية (٣) والمشهدية (٤)، وذلك لأن موضوع هذه المقامات يستدعي السفر والانتقال من مكان إلى آخر، وأما في المقامة الدمشقية المعروفة "بالصفو الرحيق في وصف الحريق" (٥)، فالراوي هو "غيث بن سحاب بن ندى بن بحر"، فهذه الأسماء في سلسلة الراوي كلها من أسماء الماء ومشتقاته، فإذا عرفنا أن موضوع المقامة في وصف حريق دمشق، وأن الماء هو الوسيلة التي يتم بها إطفاء هذا الحريق أو السيطرة عليه، أدركنا سبب اختياره لهذا الاسم.

وفي مقامة لمحبي الدين بن عبدالظاهر راويها هو "مسافر بن سيار" (٦) إذ إن اسم الراوي يدل على السفر والترحال والتجوال، وذلك لأن موضوع المقامة قائم على السفر والترحال بين مصر وبلاد الشام.

وفي مقامات أخرى، نجد الكاتب لا يذكر اسم الراوي، وذلك عندما لا يكون هنالك حاجة لذلك، مثال ذلك "مقامة العشاق" ومقامة لشهاب الدين ابن أبي حجلة (٧)، ومقامة أخرى لابن حبيب (٨).

من ذلك نتبين أن اسم الراوي غالباً ما يختار ليتناسب مع موضوع المقامة، وقد لا يذكر اسم هذا الراوي.

(١) ديوان ابن الوردي : ١٩

(٢) المصدر نفسه : ٣٠

(٣) المصدر نفسه : ٣٥

(٤) المصدر نفسه : ٤٦

(٥) المصدر نفسه : ١١٩

(٦) الوافي : ٢٦٢/١٧

(٧) تذكرة النبيه : ٢٨٩/٣

(٨) المصدر نفسه : ١٥٩/٣

ب- الحكاية الطويلة:

إذا كان هذا العصر قد عرف المقامة، وهي حكاية تروى في مجلس واحد، فإنه قد عرف أيضاً نوعاً آخر من الحكايات تستغرق أكثر من جلسة، وقد أثرت أن أطلق عليه فن الحكاية الطويلة أو إن شئت "المقامة الطويلة"، وهي تشير إلى نمط من الحكايات يشابه إلى حد بعيد الحكايات المروية في المقامات مع الإطالة في الوصف، واستحداث أحداث جديدة، ويمكن القول: إنها مقامة طول الكاتب في أحداثها، وتزيد في الوصف الوارد فيها، مع زيادة بسيطة في شخصيتها، حيث تلازم فكرة الاغتراب هذا النوع من الحكاية، بالإضافة إلى وجود شخصية البطل الذي تدور حوله الحكاية، مع وجود شخصيات أخرى حسب مقتضيات الحدث، مع التفتن في ضروب الوصف، ومن هذه الحكايات حكاية لصالح الدين الصفدي بعنوان: "لوعة الشاكي ودمعة الباكي" وهي حكاية استغرقت أربعاً وسبعين صفحة، حيث يبدأها بمقدمة تتضمن تحميدات، ثم بيان أثر الحب والهوى، ويخلص من ذلك إلى بداية حكايته، إذ يخرج البطل في بعض الأيام إلى الحقول والرياض بصحبة صديق مخلص وفي، ثم يبدأ بوصف البستان الذي خرجا إليه وما فيه من أشجار وأطيار وجدول، وما كان يداعبها من نسمات متريداً في هذا الوصف، ثم يهيئ قارنه إلى إمكانية حصول حدث جديد، إذ يبين أنه ليس لديه رغبة في الحب، ولا باعث للغرام، ولكن الأقدار تشاء أن يقدم إلى ذلك الروض جماعة من الغلمان الأتراك، يطيل في وصفهم، إلا أن قلبه يتعلق بواحد منهم، يملك عليه شفاف قلبه، حيث تبدأ المعاناة، وينحل العشق جسمه، ثم يقترب منه، ويدور بينهما حديث وحوار يشكو فيه المحب آلام الهوى لمحبيه، فيحن المحبوب له، ويرأف بحاله، ويوافق على وصاله لولا وجود الرقيب والواشي، وهنا تحين لحظة الوداع والفراق، إلا أن المحب يصر على اقتناص موعد من محبوبة في المكان ذاته، فيفترقان على هذا، وهنا يفصل الكاتب في وصف حاله أثناء فترة الغياب، حتى إذا حان موعد اللقاء يذهب المحب مع صاحبه لملاقاة المحبوب، فيصحبهما إلى بيت المحب، حيث يقضيان ليلة خمرية، يطنب في وصفها، فيتشاكيان ألم البعد والفراق، ثم تدور كؤوس الراح بينهما، وينال المحب من محبوبة ما يتمنى إلى طلوع الفجر، حيث يغادر المحبوب، ويبقى المحب مع البكاء والنحيب والذكرى راجياً عودة الوصال، وبلوغ المنى والمنال.

واضح مما سبق أن هذه الحكاية تدور حول العشق والغرام، وهو موضوع كان وما يزال، يشد انتباه القراء واهتمامهم، ويلاحظ أيضاً أنها في الغزل الحسي الماجن، ويلاحظ أنها تخلو من الراوي، مع وجود ثلاثة شخصيات فيها، وهي شخصية البطل وصديقه والغلام التركي المحبوب، وأخيراً فإنه إذا جاز لي أن أقارن المقامة بالقصة القصيرة في عصرنا الحاضر، فإن هذه الحكاية تقارن بالرواية إلى حد ما، ومما جاء من هذه الحكاية ما ورد في وصف البستان الذي خرج البطل وصديقه إليه، يقول: "ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن في الاتفاق، ويكرر ألقانه، ويراسل في الأوراق، ويجتهد في الصلح ويدعو إليه، ويحرص على الوفاء ويحرص عليه، وقام الشحرور بينهما واعظاً وخطيباً، فأجدت مواعظه، وكان القلب صافياً وقريباً، وقام النسرين من السرور على ساق، وجذب كل صدوح للغنا بالأطواق، وتبسمت من

الأقحوان الثغور، وتنسبت نفحات المسك والكافور، واعتل النسيم غيرة وتغير، فتولى وهو بذيله يتعثر، وجعل يجز من الحيا ذيولاً على الأغصان، فتعتق اعتناق المواصل الغضبان:

في روضة علم أغصانها أهل الهوى العذري كيف العناق
هبت بها ريح الصبا سحرة فالتفت الأغصان ساقا بساق

ويكى النهر على مواصلة الغصون، وخر لديها وفاضت منه العيون، ومثلها في قلبه شغفاً
وحباً، وصار بها من دون الصبا صبا". (١)

والحق أن هذه الحكاية هي الوحيدة التي عثرت عليها من أدب مصر والشام في هذه الفترة، وهناك حكاية مشابهة لبهاء الدين علي الإريلي بعنوان "رسالة الطيف" وهو يعيش في هذه الفترة، لكنه بغدادى، فأثرت عدم ذكرها ضمن هذه الدراسة لاقتصارها على أدب مصر والشام.

وعلى العموم، فهذه الحكاية تسير على هذا النسق، إلا أن أحداثها تجري وكأنها في أحلام اليقظة، فهي طيف خطر في المنام، فأحداثها تجري في طيف الكاتب ومنامه، كما أن أحداثها مشابهة تماماً لأحداث سابقتها، وأغلب الظن أن الصفدي نسج حكايته على منوالها، بل إن كثيراً من ألفاظها وعباراتها تتكرر، حيث يبدأها بمقدمة، ثم الخروج إلى بعض الرياض في فصل الربيع، فيصفها، ثم يبين خلوه من بواعث الغرام، فبينما هو كذلك إذ يمر به سرب من الأطباء، فيعجب بواحدة منهم، ويتعلق قلبه بها.... وتمضي الحكاية في أحداث مشابهة تماماً للأحداث السابقة. (٢)

وخلاصة القول في هذا الفن من فنون الحكاية: إنه فن يقوم على نمط من الحكاية، يشبه إلى حد بعيد تلك الحكايات المروية في المقامات، مع الإطالة في الوصف، والتزيد في الأحداث، والإكثار من الشخصيات أحياناً، لتتناسب مع إطالة الأحداث.

(١) صلاح الدين الصفدي، لوعة الشاكي ودمعة الباكي، مطبعة الجوانب، الأستانة، ١٢٩٢ هـ ص ٨.

(٢) بهاء الدين الإريلي، رسالة الطيف، تحقيق: عبدالله الجبوري، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، بغداد، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م: ص ٥٥-١٥٨.

ج) خيال الظل :

وهي نوع من الحكايات، تجري فيه الأحداث على هيئة حوار بين شخصين يمثلون أبطال الحكاية، وتعرض هذه الأحداث أمام جمهور من النظائر بطريقة مناسبة لأسلوب ذلك الزمان، بحيث يجري تمثيل الأحداث خلف ستارة لا تظهر شخص البطل منها إلا خيالاً أو ظلاً، ولذلك سميت "خيال الظل"، ولو قدر لهذا الفن الشعبي أن يتطور إلى أسلوب العرض المباشر، ولو تهيأ للغة هذا الفن أن ترقى إلى لغة الأدب في ذلك الوقت، لأمكننا القول: إن هذا العصر قد عرف فن المسرح بصورته التامة، أما والحالة هذه، فإننا نقول: إن هذا العصر قد عرف بذرة الفن المسرحي بما يسمى اليوم "فن التهريج" أو "فن السيرك".

وقد وصلنا من أدب ذلك العصر ثلاثة نصوص لكاتب واحد هو: شمس الدين محمد بن دانيال الموصلي الكحال (٦٦٠هـ)

ويبدو أن ابن دانيال كان يعي أهداف ما يقدمه من أدب، فيقول: "كتبت إلي أيها الأستاذ البديع والماجن الخليع، لا زال سترك ربيعاً، وحجابك منيعاً، تذكر أن خيال الظل قد مجته الأسماع، ونأت عنه لتكراره الطباع، وسألتني أن أصنف لك من هذا النمط ما يكون بديعاً في أشخاص السفط، فصنني الحياء فيما رمته مني لترويه عني، ولكن رأيت تمنعي من هذا المرام يوهمك أنني قاصر الاهتمام، واهن الفكرة، عاجز الفطرة... فجلت في ميدان خلعتي، وأجبت سؤلك لساعتي، وصنفت لك من بابات المجون والأدب العالي لا الدون، ما إذا رسمت شخصه، وبوبت مقصوده، وخلوت بالجمع، وجلوت الستارة بالشمع، رأيته بديع المثال، يفوق بالحقيقة ذاك الخيال." (١)

والملاحظ في أسلوب هذه التمثيليات أو البابات، أن لغتها لم ترق إلى لغة الأدب العالي، كما ذكر مؤلفها، بل استخدم فيها لغة شعبية قريبة من لغة العامة، حيث كثرت الألفاظ العامية، بالإضافة إلى بعض الألفاظ الأعجمية، كما أننا نجد عدم الاهتمام بقواعد اللغة، ويبدو لي أن الكاتب كان على وعي مما يصنع، فقد اختار شخصيات تمثيلياته من عامة الشعب، فمن الضروري إذن، أن يستخدم لغة مناسبة، تتلاءم مع الشخصيات المختارة، وهذه القضية ما زالت حتى وقتنا الحاضر مجال اختلاف وجدل بين الباحثين والنقاد، وليس هنا مجال بحثها أو تفصيل القول فيها.

(١) خيال الظل وتمثيليات أخرى، دراسة وتحقيق: إبراهيم حمادة، المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة: ١٤٤

أما الموضوعات التي تتناولها هذه التمثيلات فمتنوعة، لكن غايتها تكاد تكون واحدة:

أما التمثيلية الأولى أو "البابة الأولى" فهي : بابة طيف الخيال، فقد بناها الكاتب على نقد بعض العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، حيث اتخذ الكاتب من أمر السلطان بيبرس بإبطال عادة شرب الخمر والحشيش، اتخذ من ذلك أساساً تدور حوله أحداث التمثيلية، فالكاتب ينتقد الطبقة الاجتماعية التي تتعامل مع هذه العادات، وهي طبقة المماليك أو من هم في مرتبتهم، ويكاد يفصح عن هدفه هذا حين يقرأ أحد شخصيات التمثيلية تقليداً بتكليف أحد النصاري الولاية والإمارة، (١) كما ينتقد أيضاً بعض العادات الاجتماعية الأخرى التي كانت شائعة مثل : اللواط، القمار، خروج النساء إلى الحمامات، وبعض العادات في دفن الموتى، بالإضافة إلى عمل الخاطبة في الزواج، وما يتسبب عن ذلك من مشاكل اجتماعية، حيث يجري تبديل الفتاة المتفق عليها، وذلك عندما تتم خطبة "الأمير وصال" بواسطة إحدى الخاطبات، حيث تصف له عروساً جميلة، وعندما يدخل بها يتبين أنها عكس ما وصفت الخاطبة تماماً، مما جعله يعزف عن الزواج تماماً، ويقرر الارتحال إلى الحجاز لغسل آثامه بماء زمزم، وزيارة سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم.

أما البابة الثانية فهي "بابة عجيب وغريب" حيث تقوم على تقديم نوع من عروض "السيرك"، تختلف في أنواعها حسبما كان شائعاً في ذلك العصر، فيقدم كل صاحب صنعة منهم صنعته وعروضه أمام الجميع، وينتهي كلمته بطلب من الجمهور للإقبال على عروضه، وتقديم ما يوجد به من أموال، وتنتهي البابة بنوع من التوبة والاستغفار. (٢)

والبابة الثالثة هي "بابة المتيّم والضائع اليتيم" وهي تحكي "طرفاً من أحوال المحبين، وطرفاً من الغزل الذي هو السحر المبين، وطرفاً من الملاعب، وطرفاً من المجون الذي ما عيب" (٣)، كما عرض في هذه البابة لبعض الممارسات الغزلية والجنسية الفاسقة، بالإضافة إلى بعض أنواع المحرمات والملاهي، حيث يختتمها بتوبة الفاسق ثم موته. (٤)

مما سبق، يتضح لنا أن هذه التمثيلات الثلاث تنتهي بنهاية واحدة، حيث تختتم كلها بالتوبة والاستغفار، ويبدو لي أن غرض هذه التمثيلات الثلاث هو الوعظ، وأستطيع القول: إن الكاتب يهدف من خلالها إلى فكرة "التطهير" التي تحدث عنها أرسطو في "فن الشعر"، وجعلها هدفاً للرواية، فكاتبنا يعرض في كل بابة من البابات الثلاث إلى ممارسة خاطئة شاعت في ذلك الوقت، ويختتمها بتوبة هذا الفاسق ثم موته، وكأنه يريد أن يقول: إن الحياة مصيرها إلى الموت والفناء،

(١) انظر: خيال الظل وتمثيلات أخرى : ١٥٨ - ١٥٩

(٢) انظر: المصدر نفسه : ٢٣٠-٢٣١

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٣

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٤٦

فلم كل هذا الفسق؟ ولم كل هذا المجون؟ ولم كل هذا اللهو....؟ أيها الانسان: مصيرك للموت، أفق من نومك، وتنبه من غفلتك قبل فوات الأوان، حيث يشبه الناس في فسقهم ومجونهم كأنهم في نوم وغفلة، وأن عليهم أن يتنبهوا، فختام البابة الأولى جاء على لسان طيف الخيال، حيث يقول: "استغفر الله العظيم من هذه الخصال، وأعوذ بعفو الغفار ذي الجلال، من تحمل الأوزار، والعمل بعمل أهل النار، فالإنابة أجمل، ونحن نقول ما لا نفعل:

كل حي إلى الممات يصير ما له ساعة النزاع نصير
وزمان العمر الطويل إذا ما اختلف الليل والنهار قصير
أين عاد وتبع وأولو الرس؟ وأين الألى؟ وأين نصير؟
والسعيد الذي يرى طرق الرشد بعين اليقين وهو بصير

وتتكرر التوبة والاستغفار على لسان "الأمير وصال" أيضا فيقول: "يا أخي طيف الخيال، ما بقي إلا الارتحال، وقد عزمت على الحجاز، وخرجت بالحقيقة عن المجاز، وقصدت غسل هذه الآثام بماء زمزم والمقام، ونويت زيارة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم وعلى آله الكرام، اجعلني نصب عينيك، وهذا فراق بيني وبينك." (١)

وفي ختام البابة الثانية، تأتي التوبة والاستغفار على لسان أحد شخوصها المدعو "عرب" يقول: "ولولا أن الإطالة داعية إلى الملالة لأظن عبدكم وقال، ولا استعفى ولا استقال، فلذلك اختصر من الاعتذار، واعتذر من الاختصار، وينشد ويقول:

يا إلهي أنت السميع القريب وأنت إلى كل داع مجيب
سألتك بالمصطفى توبة فإني عبد شكور منيب
وإني ومجدي وشأني وفني غريب غريب غريب غريب (٢)

وأما البابة الثالثة، وهي خاتمها، فيأتي على لسان المقيم، حيث يختمها بدعاء يظهر فيها التوبة والاستغفار، فيقول: "اللهم يا كثير الجود، وملك الوجود، والحوض المورود، يا ذي * الرحمة الواسعة، والمغفرة الشاملة الواسعة، ظلمت نفسي، وضللت في ظلمات حسي، فاغفر لي، إنك علام الغيوب، وغفار الذنوب، فإليك نتضرع ونتوب، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله خالقي وعوني

(١) خيال الظل : ١٨٦

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٠

* هكذا وردت في النص ، وصوابها : يا ذا الرحمة.

ورازقي، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الهادي، وشفيعي في معادي، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين، وأشهد أن الله هو الغفور الرحيم، وأن الله يبعث من في القبور". (١)

فكما نلاحظ ، فإن ختام هذه البابة جاء ختاماً للبابات جميعاً، مما يؤيد ما ذهبنا إليه.

هذا ، وكان الكاتب أحياناً يفصح عن هدفه قبل ختام تمثيلته، حيث ترد التوبة أحياناً أثناء الحوار، من ذلك ما جاء في التمثيلية الأولى:

"فالأولى على ذوي الألباب ترك هذا الباب (يقصد الفسق والمجون)، والتوبة قبل النوبة، والاستغفار قبل نفاذ المقدورات، والتستر من هذه القاذورات". (٢)

وهكذا وعلى الرغم من أن هذه التمثيليات تكاد تزخر بألفاظ الفسق الفاضح، مما دفع محققها إلى حذف أجزاء كبيرة منها، أشار إليها في مواضعها (٣)، على الرغم من ذلك، إلا أنها تهدف إلى الوعظ كما تبيننا سابقاً.

وختاماً أقول: إنه على الرغم من هذه الغاية النبيلة التي يسعى إليها الكاتب، فإن ذلك لا يبرر له مثل هذا العرض الفاضح للممارسات الجنسية، والأفعال القبيحة، والتصريح بألفاظ الفسق المتهتك، فكاتبنا هنا قد أحسن الهدف والغرض، ولكنه قد أساء الوسيلة والطريقة، ونحن لسنا معه في القول المعروف: "إن الغاية تبرر الوسيلة"، بل إن الغاية الشريفة لا بد أن تكون وسيلتها شريفة أيضاً.

(١) خيال الظل : ٢٤٦

(٢) المصدر نفسه : ١٥٧

(٣) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه: الصفحات : ١٥٦-١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧١ ،

١٧٣ ، ١٧٧

الخطابة والوعظ والكتابة الدينية

الخطابة

لم يكن للخطابة في العصر المملوكي الأول ذلك التأثير الجماهيري الذي كان لها في عصور سابقة، وبخاصة الخطابة السياسية، حيث الحكام من غير العرب الذين لم يكن فهمهم للعربية بكاف لتحرير الخطب أو إلقائها، كما لم يكن يعنيه الاتصال الجماهيري الواسع، فليس ضرورياً بالنسبة لهم أن يكون لحكمهم قاعدة شعبية يستمدون منها الشرعية، وإنما يكون ذلك بمقدار قوة الحاكم أو قوة ممالكه، وتمكنهم من شؤون الحكم وإدارته.

ومن هنا فإنهم ليسوا مكلفين بتحديد السياسة التي سيسيرون عليها، وليسوا مطالبين بتبرير أحكامهم وسلوكاتهم، بل ليس عليهم أو لهم إلا إصدار الأوامر، وعلى الآخرين تنفيذها، ومن هنا فقدت الخطابة السياسية دواعيها، وأهميتها والعوامل المؤثرة فيها، وحلت مكانها في الأهمية الرسائل التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء، بلسان السلطان أو من ينوب مكانه.

ومع أن هذا العصر كان عصر حروب، كثر فيه أعداء الأمة، الطامعون في اقتراسها، مما يوحى بإمكانية ازدهار الخطابة، لوجود عامل مؤثر وقوي لانتعاشها، يقتضي حث الناس وحضهم على القتال والجهاد ضد الأعداء، أقول: على الرغم من ذلك، إلا أن هذا العامل أيضاً فقد قوته وتأثيره، إذ كان للدولة جندها الخاص، وجيشها المتحضر للقتال، المدرب على فنونه، المتحضر للانطلاق متى طلب منه ذلك، وكان جل هذا الجيش من المماليك، وقلمما استعان السلاطين بعامة الشعب، إلا في المواقف التي تتطلب التعبئة العامة، ولم تكن مثل هذه المواقف بحاجة إلى بث المزيد من الحماس والحمية في نفوسهم للقتال والجهاد، ففوة الشعور الديني لدى الناس، وإحساسهم بالخطر الذي يدهمهم ويهدد دينهم وممتلكاتهم تكفي لتعبئة العدد الكافي للقتال. وبالإضافة إلى ما تقدم، فقد استعان السلاطين بكبار المشايخ والقضاة في ذلك الوقت لإصدار فتاوى عامة، أو توجيه رسائل تحفيزية إلى الأمة، تقوي الهمم والعزائم، وتبث النخوة والحمية في النفوس، ومن هنا، فقد قل الاعتماد على الخطابة في الحض والحث على القتال والجهاد أيضاً، وبذلك، فقدت الخطابة أيضاً أحد دواعيها وبواعثها المهمة.

ويبقى جانب الوعظ الديني، حيث استمر دور الخطابة في هذا الجانب، مقتصرة على خطب المناسبات الدينية كالجمع والعيد، مع أن رسائل الوعظ التي كان الوعاظ والمشايخ يوجهونها للحكام والأمة قد احتلت دوراً مهماً في هذا الجانب أيضاً. أما الخطابة المحفلية، أو الخطابة الاجتماعية، فقد قلت دواعيها أيضاً، واقتصرت على مناسبات الزواج وخطب الصداق.

ومن هنا يمكن القول : إن الخطابة في العصر المملوكي الأول قد فترت، وفقدت الكثير من دواعيها وحوافزها التي كانت لها في عصور سابقة.

أنواع الخطابة وموضوعاتها :

١- الخطابة السياسية :

تبيننا آنفاً أن الخطابة السياسية قد فقدت دواعيها، وفقدت أهميتها، ووقفنا على أسباب ذلك، إذ لم يصلنا من الخطب السياسية لهذا العصر غير بعض الخطب التي وردت عن خلفاء بني العباس في مصر، وإن كانت هذه الخطب قد أُلقيت في مناسبات دينية في أيام الجمع، إلا أن طابعها سياسي، وغاياتها سياسية أيضاً، إذ كانت تهدف إما إلى الحث على الجهاد والحض عليه، أو تفويض الحكم من الخليفة إلى السلطان المملوكي، وكان ذلك بإيعاز من السلاطين أيضاً، ومن هنا أثرت الحديث عنها ضمن الخطابة السياسية.

فعندما بويغ أبو القاسم أحمد بن الإمام الظاهر الذي تلقب بالمستنصر بالله، بالخلافة زمن الظاهر بيبرس ٦٥٩هـ يوم الجمعة سابع عشر من رجب، خطب بالناس في جامع القلعة، إلا أن المصادر لا تذكر هذه الخطبة. (١)

وعندما بويغ الخليفة أبو العباس أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله ٦٦١هـ زمن الظاهر بيبرس أيضاً، خطب في يوم الجمعة بعد مبايعته بالخلافة وتقليده للسلطان أمور البلاد والعباد، وقد ذكرت المصادر نص هذه الخطبة، ولأن هذه الخطبة أولى الخطب السياسية التي وصلتنا في هذا العصر، فسوف أحاول إلقاء الضوء عليها، وتبين موضوعاتها:

فبعد المقدمة المشتملة على التحميدات والشهادتين، ذكر أهمية الإمامة ووجوبها للمسلمين، ثم شرع في تفصيل أهمية الجهاد ومشروعيته، حيث يذكر الناس بدخول التتار بغداد، واستباحتهم للدماء والأموال، وقتلهم الرجال والنساء والأطفال، وأن ذلك لم يكن لولا استباحة حرمة الله، فعلى الأمة تقوى الله أولاً، ثم إحياء فريضة الجهاد، ثم يشيد بالسلطان الظاهر بيبرس لإقامته الخلافة ونصرته لها، ثم إحيائه هذه الفريضة، فريضة الجهاد، حيث يقاثل جيوش الكفر، فعلى الأمة تلبية ندائه وإطاعته.

(١) انظر : الروض الزاهر : ١٠١ ، ذيل مرآة الزمان : ٤٤٢/١

وفي الخطبة الثانية يوصي الناس بتقوى الله، وإطاعة نبيه وولي الأمر، ويختمها بالآية الكريمة: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم..." (١)

ويذكر صاحب "عقد الجمان" أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد ألقى هذه الخطبة سنة ٦٨٩ هـ في تولية السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. (٢)

ويبدو لي أن العيني قد ألبس عليه الأمر، حيث إن أغلب المصادر على أن هذه الخطبة أُلقيت في عهد الظاهر بيبرس ٦٦١ هـ، والعيني نفسه يذكر ذلك، ويذكر الخطبة كاملة في موضوع آخر. (٣)

ثم يذكر العيني لهذا الخليفة جزءاً من خطبة أخرى ألقاها عام ٦٨٩ هـ بحضور السلطان الأشرف، حيث يحدث فيها الناس على الجهاد والقتال، ويدعو للسلطان بالتوفيق والنصر، وأن تفتح على يديه دار السلام وممالك الأرض، ولعل اللبس جاء إليه من هنا. (٤)

ويذكر السيوطي أن الحاكم بأمر الله قد خطب خطبة ثالثة بالمنصورية، بحضور السلطان والقضاة ٦٩٠ هـ، حيث حض على غزو التتار، واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم، وأنه قد خطب خطبة رابعة ٦٩١ هـ حيث حدث فيها على الجهاد والنفير. (٥)

كما يذكر السيوطي أن الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد ابن الخليفة المستنفي، قد ألقى خطبة سنة ٧٤٢ هـ، في سلطنة المنصور سيف الدين بن أبي بكر بن الناصر، بحضوره أيضاً، حيث اختتمها بالآية الكريمة: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان...." و "أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم..." الآيتين، ثم يوصي الأمراء بالرفق بالرعية وإقامة الحق، وتعظيم شعائر الإسلام ونصرة الدين... ثم يفوض السلطان المنصور جميع أحكام المسلمين، ويقلده جميع ما تقلده من أمور الدين، ويستشهد بالآية الكريمة: "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه...." (٦)

هذا عرض موجز لأشهر الخطب التي وصلتنا عن خلفاء بني العباس في مصر، فعلى الرغم من أنها أُلقيت في مناسبات دينية أيام الجمع، إلا أنها ذات طابع سياسي، فهي بطلب من السلطان أولاً، وتلقى في مناسبات مبايعة الخليفة، أو تقليده للسلطان الحكم، كما أنها تدعو إلى طاعة السلطان وتفويضه أمور الدين والدنيا، وحكم البلاد والعباد. أما سلاطين المماليك، فلم يعهد عن أحدهم خطبة في ما بين أيدينا من مصادر.

(١) الروض الزاهر: ١٤٣-١٤٥، ووردت أيضاً في: عقد الجمان ٣٤٩/١-٣٥٣، حسن

المحاضرة: ٥٣/٢، بدائع الزهور: ٣١٥/١، تاريخ الخلفاء: ٤٤٠

(٢) انظر: عقد الجمان ٢٥/٣

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٥/٣-٢٦

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٤٩/١

(٦) انظر: المصدر نفسه: ٦٥/٢

(٥) انظر: حسن المحاضرة: ٥٤/٢

٢- الخطابة الدينية:

ذكرت فيما مضى أن مجالس الوعظ ورسائله حلت تقريباً محل الخطابة الدينية، وإن ظل لهذه الخطابة مناسباتها الرسمية في أيام الجمع والأعياد، وقد زخر هذا العصر بالخطباء، كما تذكر المصادر أن العديد منهم قد تركوا دواوين خطب، من هؤلاء على سبيل المثال: جمال الدين محمد بن الفضل بن الحسن بن موهوب ٦٥٧هـ، وله نظم ونثر وديوان خطب (١)، وأصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الإسعدي ٦٦٨هـ، وله ديوان خطب (٢)، وزين الدين أبو العباس المقدسي أحمد بن عبدالدايم بن نعمة ٦٦٨هـ، أنشأ خطباً عديدة (٣)، وناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندري ٦٨٣هـ، له ديوان خطب (٤)، وعماد الدين بن الأثير ٦٩٩هـ، وله خطب مدونة (٥)، وعبدالرحيم بن محمد السهمودي ٧٢٠هـ، وله خطب ورسائل (٦)، وعماد الدين محمد ابن العفيف ٧٣٦هـ، وله شعر وخطب (٧)، وجمال الدين عبدالقاهر بن محمد التبريزي الحراني ٧٤٠هـ، وله ديوان خطب (٨)، وشهاب الدين الحسين بن محمد المعروف بابن قاضي العسكر ٧٦٢هـ، وله ديوان خطب سماها: "المقال المحبر في مقام المنبر" حيث عارض بها خطب ابن نباتة (٩)، وقال: "كنت أنشأت خطباً وخطبت ببعضها". (١٠)

إذن، فقد ازدهرت الخطابة الدينية في هذا العصر، وكثر خطباؤها. ومن أجل التعرف على أهم موضوعاتها، فإنني سأستعرض أشهر وأهم الخطب التي استطعت العثور عليها في هذا العصر.

وأولها خطبة لناصر الدين بن المنير الإسكندري، خطب بها لما دخل هولاء الشام، وفيها يحث الناس على تقوى الله وطاعته وخوفه، واحتقار الدنيا وامتهانها، ثم محاولة إصلاح الفساد والإقبال على التوبة، لعل الله يأخذ بأيديهم، ويقودهم إلى النصر، ومن هذه الخطبة، بعد المقدمة

(١) الوافي : ٣٢٧/٤

(٢) المصدر نفسه : ٢/٢

(٣) نكت الهميان : ٩٩

(٤) تذكرة النبيه : ٩٢/١

(٥) الوافي : ٩٠/٩

(٦) المصدر نفسه : ٣٩٢/١٨

(٧) تذكرة النبيه : ٢٧٧/٢

(٨) المصدر نفسه : ٣٢٠/٢

(٩) البدر الطالع : ٢٢٨/١

(١٠) الوافي : ٥١/١٣

التي تتضمن حمد الله وشكره ثم الشهادتين، يقول: "أيها الناس، خافوا الله، فأمنوا في ضمان وعده الوفي، ولا تخافوا الخلق وإن كثروا، فإن الخوف منهم شرك، ففي الآداب: من خاف الله خاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء.... وإثنان لا يجتمعان في القلب، ولا تتعقد عليهما النية، فاختراروا لأنفسكم: إما الله تعالى، وإما هذه الدنيا الدنية... اتقوا الله وأصلحوا تفلحوا، وسلموا تسلموا، وعلى التوبة صمموا واعزموا، فما أشقى من عقد التوبة بعد هذه العبر ثم حلها، ألا وإن ذنبا بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها." (١)

وتأخذ الخطابة الدينية عادة طابع المناسبات، وغالباً ما تطبع افتتاحيات الخطب بطابع المناسبة التي تقال فيها، فمن ذلك فاتحة خطبة بمناسبة رأس السنة، ما قاله علي بن داود، نجم الدين القحفازي، يقول: "الحمد لله الذي لا تدرك كنه عظمتة ثواقب الأفهام، ولا يحيط بمعارف عوارفه خطرات الأوهام، ولا تبلغ مدى شكر نعمه محامد الأيام، الذي طرز بعسجد الشمس حواشي الأيام، ورضع بجواهر النجوم حلة الظلام، ونصل بلجين الأهلة عقود الشهور والأعوام...." (٢). ومن خطبة له في فاتحة عيد الأضحى: "الحمد لله العظيم شأنه، العزيز سلطانه، القديم إحسانه، العميم غفرانه، الذي دعت عوارف إحسانه إلى عرفات عزماته، من كل طريق فلبتها قلوب أولى الإنابة، مسرعة في الإجابة، وأمتها من كل فج عميق، أحمدته على نعمه التي أحلت مغني الغنى، فتحت بفراندها الأجياد، ومنته التي بلغت مني المنى، وكل الأيام بها أعياد... (٣)

وحاول الخطباء توجيه وعظهم للخلفاء، فوعظوهم بالعدل بين الرعية، مثال ذلك ما خطب به خطيب مكة إسماعيل الواسطي أمام الظاهر بيبرس لما قدم للحج، قال: "أيها السلطان، إنك لن تدعى يوم القيامة بأيها السلطان، ولكن تدعى باسمك، وكل منهم يومئذ يسأل عن نفسه، إلا أنت، فإنك تسأل عن رعاياك، فاجعل كبيرهم أباً، وأوسطهم أخاً، وصغيرهم وسطاً...." (٤)

وكانت مجالس الوعظ تشكل جانباً كبيراً من الخطابة الدينية في هذا العصر، حيث كثر الوعاظ في هذا العصر أيضاً، وأذكر منهم على سبيل المثال في هذا العصر:

(١) ذيل مرآة الزمان: ٢٠٨/٤-٢٠٩، ووردت الخطبة أيضاً في: تاريخ الإسلام، الذهبي، مخطوط، مصورة الجامعة الأردنية رقم ٢٧٩، ورقة ١٣٨.

(٢) الوافي: ٩٢/٢١.

(٣) المصدر نفسه: ٩٣/٢١.

(٤) تاريخ ابن الوردي: ٢٢٥/٢.

الشيخ أبواسحق إبراهيم بن محمد بن ميمون الواعظ (٦٦٠هـ) (١)، والشيخ عبدالسلام بن أحمد ابن غانم المقدسي الواعظ، أحد المبرزين في الوعظ (٦٧٨هـ) (٢)، وأحمد بن محمد زين الدين كتاكيت المصري الواعظ (٦٨٤هـ)، كان إماماً في الوعظ، والشيخ إبراهيم بن معضاد الجعبري تقي الدين (٦٨٧هـ) الذي كان يعظ الناس (٤)، وعلي بن إبراهيم المعروف بابن النثرة الواعظ (٧٥٠هـ)، وعظ بالجامع الأموي (٥).

أما موضوعات هذه المجالس، فكان منها ما يدور حول الترغيب في حب الذات الإلهية، والحث على المزيد من التقرب إلى الله، ومن ذلك مجلس الوعظ عمله الشيخ عبدالسلام بن أحمد ابن غانم المقدسي في دمشق سنة ٦٧٠هـ ومنه قوله: "من جعل قلبه لمحبتني ميداناً ملأته عرفاً وعرفاناً، ومن هجر في هواي أهلاً وأوطاناً أمنتهم عند لقائي صدأً وهجراناً، ومن تحمل بالافتراق عصياناً، أنزلته بالاعتراف عفواً وغفراناً." (٦)

كما ركز الوعاظ في مجالسهم على ذكر آيات الله، والتذكير بنعمه وآلائه التي أنعم بها على الإنسان، في سبيل الحث على وجوب شكر الله على هذه النعم، ومن ذلك مجلس عقده الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، حيث جلس تجاه الكعبة، وحضر المجلس أمير مكة وغيره، يقول الشيخ في مجلسه: "من ذا الذي سمك السماء، وعلى غير عمد بناها، من ذا الذي دور أفلاكها وفي قضاء بيد مشيئته مشاها، ومن ذا الذي سخر أفلاكها وفي حمى حمايته حماها، من ذا الذي قال للسموات انتبها طوعاً وكرهاً فأتت طائعة حين دعاها، ومن ذا الذي يعلم خفايا الغيوب وما في طواياها، من ذا الذي يبصر طوايا القلوب وما في رؤياها، من ذا الذي يسمع أنه العليل إذا هو في علته أبداها... من ذا الذي صورك فأحسن صورك، وفتق سمعك، وخرق بصرك، ثم برحمته شملك، وعلى أكف رحمته حملك، وجعل عن يمينك ملك، وعن شمالك ملك، ينقلان عملك إلى من ملك، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها." (٧)

(١) ذيل مرآة الزمان: ٥٢٥/١

(٢) العبر: ٣٣٩/٣

(٣) الوافي: ٣٣٣/٧

(٤) عقد الجمان: ٣٧٣/٢

(٥) فوات الوفيات: ٤٦٣/٢

(٦) ذيل مرآة الزمان: ١٦/٤، وهي في عيون التواريخ: ٢٢٧/٢١ - ٢٢٩

(٧) المصدر نفسه: ٢٠/٤ - ٢٢

وللمناجاة والتبتل جانب في مجالس الوعظ، ومن ذلك مناجاة للشيخ عز الدين بن عبد السلام: "إلهي، أنت قلت، وقولك الحق: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء، فأنت على لطفك دلتني، وفي جنب جودك أطمعني، وإلى كرم حرمك أوصلتني، فقد حسن ظني على ما كان مني... إلهي إنك أمرتنا بالوصية عند حلول المنية، وقد تهجمت عليك، وجعلت وصيتي إليك، عند قدومي لديك، فأول ما يبدأ به من أمري إذا نزلت قبوري، وخلوت بوزري، وأسلمني أهلي، أن تؤنس وحشتي، وتوسع حفرتي، وتلهمني جواب مسألتني، ثم تكتب علي منصوب نصيبي في لوح صحيفتي بقلم: اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين." (١)

من هنا نلاحظ أن الخطابة الدينية في هذا العصر قد سارت في اتجاهين متوازيين، نشطا في هذا العصر: الأول: اتجاه المناسبات الدينية في الجمع والأعياد، وكانت هذه الخطب تركز على المناسبات، والثاني: مجالس الوعظ، ولم يكن الوعظ موجها لعامة الناس فحسب، بل توجه إلى السلاطين والحكام أيضاً.

وعلى العموم، فقد ركزت الخطابة الدينية في اتجاهيها على الدعوة إلى تقوى الله ومخافته، وتعداد نعمه وآلائه على الإنسان، وأن الواجب يقتضي الشكر على هذه النعم، ثم دعوات وتبتلات إلى الله بالمغفرة والتوبة، والدعوة إلى الإقلاع عن الذنوب والآثام والمعاصي، فإن ذلك أيضاً من موجبات الشكر، ومن مسببات النصر على الأعداء.

٣ - الخطابة الاجتماعية

يكاد ما وصلنا من الخطب الاجتماعية في هذا العصر يقتصر على موضوع واحد هو: مناسبات الزواج، وقد سميت خطب الأصدقاء، ومن الأدباء الذين أكثروا من هذا النوع من الخطب الشيخ نجم الدين القحفازي علي بن داود (٢)، وابن الوردي (٣).

وهذه الخطب نوعان في طريقتها، فمنها ما كتب للملوك أو أبنائهم، ومنها ما كتب لغيرهم. (٤)

فأما ما كتب للملوك فمنه ما كتبه محيي الدين بن عبد الظاهر في خطبة الصداق الذي عقد للملك السعيد ناصر الدين محمد بركة بن الظاهر بيبرس على ابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالح، حيث قرأ محيي الدين تلك الخطبة في المجلس، وقد افتتحها بمقدمة تشتمل على

(١) ذيل مرآة الزمان: ٢٣/٤ - ٢٤

(٢) انظر: الوافي: ٩٣/٢١

(٣) انظر: ديوانه: ٩٥، ١٠٧

(٤) انظر: صبح الأعشى: ٣٤١/١٤

التحميدات المناسبة، ثم الثناء والشكر والشهادتين، ثم يحاول ابن عبدالظاهر إبراز قدر الخاطب ومكانته، وأن المخطوب إليه يتشرف بهذه المصاهرة، كيف لا وهي مصاهرة السلطان. (١)

ومثل ذلك أيضاً ما كتبه جلال الدين القزويني لولد السلطان الناصر محمد بن قلاوون على بنت بكتمر الساقى، حيث سلك الطريقة ذاتها، ومنه قوله: "أما بعد، فإن من عادة الغمام أن يتفقد الأرض بمطره، والبحر أن يسقي الزروع بما فاض من نهره، والمصاييح أن تمد بأنوارها ما يتوقد، والسماء أن لا يخلو أفقها من اتصال فرقد بفرقد، ولو توقفت القربى على مقاربة كبير، أو مقارنة نظير، لما صلحت الأغمار لمضاجع السيوف، ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر المنير... إنما الصدقات الشريفة الملوكية لها في البر عوائد، وفي الخير سجايا يقتدي فيها الولد بالوالد." (٢)

وأما ما كتب لغير الملوك من خطب الأصدقاء فكثير، وغالباً ما تكون مختصرة أكثر من الأولى (٣)، وهي تفتتح بخطب تتناسب المقام، ثم يذكر فيها فضل النكاح أو المصاهرة، ثم يذكر فضل الخاطب وشرف قدره، ويبين رغبته في مصاهرة الشخص الآخر، وخطبة ابنته (فلانة)، ثم يعدد بعض مناقبها مثل: المحبة، المصونة، العفيفة، فرع الشجرة الزكية... ومن ذلك نسخة صدق كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي للقاضي بدر الدين خطيب بيت الآثار على بنت شمس الدين الخطيب في مجلس قاضي القضاة تقي الدين السبكي، ومنه قوله بعد المقدمة: "وبعد، فإن النكاح من محاسن هذا الدين القيم، وفضائل هذا الشرع الذي لازال شرفه بدرراً بين مشرقات النجوم وهو مخيم، به يحفظ النسب الشرود، ويرعى عهد القرينة الولود الودود." ثم يذكر فضل الخاطب: "وكان فلان ممن أشبه أباه، وأبين ما أودعه من نفائس العلوم وحباه، تصدر في المجالس، ودرس في المدارس، وأورد ما عنده من النفائس، كيف لا، وهو سبط شيخ الإسلام وإمام المسلمين، وقاضي قضاة الشافعية وأوحد المجتهدين." ثم يذكر بعضاً من صفات المخطوبة: "لذلك رغب المجلس العالي" (ويذكر اسمه) وخطب "الجهة المصونة، المحببة، النقية، العفيفة، الخاتون، غصن الإسلام، شرف الخواتين، جميلة ذوات الستور، قرّة عين الملوك والسلطين." (٤)

(١) انظر نصه في: ذيل مرآة الزمان: ١١٩/٣ - ١٢٢، تاريخ ابن الفرات: ٥١/٧ - ٥٣. عقد

الجمان: ١٤٦/٢ - ١٤٩، صبح الأعشى: ٣٤١/١٤ - ٣٤٤.

(٢) صبح الأعشى: ٣٤٤/١٤ - ٣٥٠.

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٥٢/١٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣٦٠/١٤، وانظر المزيد من هذه الخطب في ديوان ابن الوردي: ٩٥، ١٠٧.

إذن، فقد اقتصرَت الخطابة الاجتماعية في هذا العصر على مناسبات الزواج، وكان ما يكتب من خطب الأصدقاء أو خطب النكاح على نوعين: أولهما ما يكتب للملوك، حيث يذكر فيه تشرف المخطوب منه بالخاطب، وللكاتب أن يطيل في ذلك ما يشاء.

وثانيهما: ما يكتب لغير الملوك، وفيها يذكر تشرف الخاطب بالمخطوب منه، وتكون أكثر اختصاراً من الأولى.

٤ - الخطابة العلمية:

ويقصد بها تلك الخطب التي تلقى في افتتاح الدروس عادة، وبخاصة في اليوم الأول لبدء الشيخ دروسه في إحدى المدارس، ومن ذلك خطبة للشيخ صلاح الدين خليل بن كيكلي العلاني أنشأها لدرس دار الحديث بحلقة صاحب حمص، يركز فيها على فضل العلم بعامة، والعلم الذي يدرسه بخاصة، ويكثر فيها عادة من مصطلحات هذا العلم، ومن ذلك قوله من هذه الخطبة: "الحمد لله الذي رفع متن العلماء، وجعل لهم من لدنه سنداً، وأبقى حديثهم الحسن على الإماء أبداً، وأمدهم بمتابعات كرمه المشهور، فوصل ما كان مقطوعاً، وأعز ما كان مفرداً، وحمى ضعيف قلوبهم من الاضطراب حتى غدت ثابتة الأفكار... أحمده على حديث نعمه الحسن المتصل المتسلسل، وتواتر مننه التي يدفع بها تدليس كل أمر معضل، ومزيد كرمه الذي عم المختلف والمؤتلف فلا ينقطع ولا يوقف على أن يعطل." (١)

فالخطيب، كما يتضح، قد أكثر من مصطلحات علم الحديث في خطبته مثل: المتن، السند، الحديث الحسن، الموصول، المقطوع، الضعيف، المتواتر، المختلف والمؤتلف... وكأنه بذلك يمهّد للدخول في درسه أو موضوعه.

ومثل ذلك أيضاً خطبة لأبي الفتح تقي الدين بن عدلان ألقاها في اليوم الأول من تدريسه بالركنية لما قدم مصر، حيث بدأها بحمد الله وحمد الملك الناصر، يقول: "الحمد لله ناصر الملك الناصر للدين الحنيفي، وممضي عزائمه، ومشيد أركانه، القائم بالشرع المحمدي ومقوي دعائمه." ثم يبين بعض أحوال الغريب، البعيد عن وطنه، يقول: "أما بعد، فإن غريب الدار، وإن نال مناط الثريا، فيكفي أن يقال: غريب وبعيد المزار، ولو تهيأ له ما تهيأ فما له في الراحة منهم نصيب، ولمشقة الغربة ازدادت رتبة الهجرة في العبادة، وشرفت الوفاة حتى جاء "موت الغريب شهادة" أو الغربة كربة ولو كانت بين الأقارب، ومفارقة الأوطان صعبة ولو عن سم العقارب." ويمضي الكاتب في بيان أحوال الغريب ومعاناته في بعده عن أهله ووطنه. (٢)

(١) الوافي: ١٣/٤١٣

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ١٧٨/٩ - ١٨٠

المواعظ والنصائح والحكم والوصايا.

لم يقتصر أدب الوعظ على تلك المجالس التي كان الوعاظ يعقدونها في المساجد أو الزوايا، بل كانت هناك مجموعة من الرسائل الوعظية التي بعث بها هؤلاء الوعاظ إلى السلاطين أو الحكام، حينما كانوا يشعرون أن ظلماً قد لحق بفئة من الشعب نتيجة لفرض أمر معين، أو إقرار مرسوم، أو فرض ضريبة، أو عندما يداهم العدو أرض المسلمين، ويكون هناك إحساس عام بضرورة النفي، وأن السلطان قد قصر في ذلك، فكان هؤلاء الوعاظ يرون أن عليهم واجباً بتوجيه مثل هذه الرسائل الوعظية للحكام، يأمرونهم فيها بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويحثونهم على ضرورة الجهاد في سبيل الله والدفاع عن أرض المسلمين، ومن هؤلاء الوعاظ محيي الدين النوري، وعز الدين عبدالسلام، وتقي الدين بن تيمية.

ومن هذه الرسائل الوعظية رسالة كتبها تقي الدين بن تيمية إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، يحثه على الجهاد، ويرشده إلى ضرورة مبادأة العدو بالقتال، وعدم التريث والانتظار حتى يهاجم العدو أرض المسلمين لنرد عليه، وذلك أن التتار كانوا هاجموا بلاد الشام عام ٦٩٩ هـ، فالتقاهم السلطان الناصر، وكانت الغلبة لهم على جيش المسلمين، مما أدى إلى تقدم التتار نحو دمشق (١). وفي عام ٧٠٠ هـ وردت الأخبار بعودة التتار، فانزعج الناس ونفروا إلى مصر، فنهض شيخ الإسلام ابن تيمية يدعو الناس إلى الثبات، ويحثهم على الجهاد، وكتب إلى السلطان الناصر في مصر يدعو إلى الجهاد، فكان أن استجاب السلطان لطلبه، وكان خروجه عام ٧٠٢ هـ لملاقاة التتار، فالتقاهم في وقعة شقحب (مرج الصفر)، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً (٢). وفي هذه الرسالة يبين ابن تيمية فضل الجهاد بالنفس والمال، ويوضح مشروعيته مستشهداً بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، والأخبار المتواترة، ثم يحاول التهوين من أمر العدو والتقليل من شأنهم، حيث يذكر مجموعة من الأخبار التي تظهر اختلاف كلمتهم، وأن بعض أمرائهم قد مالوا إلى جانب المسلمين، والتجأوا لهم، كما يذكر مجموعة من الفوائد التي يمكن أن يحصلها المسلمون من الحركة في سبيل الله، ومن هذه الرسالة، قوله: "فليس من الواجب أن يترك نصر الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله إذا كان عدو الله وعدو المسلمين قد وقع اليأس بينهم، بل هناك يكون انتهاز الفرصة، ولا يحل للمسلمين أن ينتظروهم حتى يطأوا بلاد المسلمين، كما فعلوا عام أول، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا" والله قد فرض على المسلمين الجهاد لمن خرج عن دينه، وإن لم يكونوا يقاتلوننا"، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وحلفاؤه يجهزون الجيوش إلى العدو، وإن كان العدو لا يقصدهم، حتى إنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مصيبتته أعظم

(١) انظر: النجوم الزاهرة: ١٢٢/٨ - ١٢٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٥٧/٨ وما بعدها.

* يقاتلوننا : صوابها يقاتلوننا.

المصائب، وتفرق الناس بعد موته، واختلفوا، أنفذ أبوبكر الصديق رضي الله عنه، جيش أسامة ابن زيد الذي قد كان أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام إلى غزو النصارى، والمسلمون إذ ذاك في غاية الضعف، فلما رآهم العدو فزعوا وقالوا: لو كان هؤلاء ضعافاً ما بعثوا جيشاً". (١)

ومن تلك الرسائل الوعظية أيضاً ما كتبه محيي الدين النووي، حيث كتب موعظة بعث بها إلى الظاهر بيبرس تتضمن العدل في الرعية وإزالة (المكوس)، وكتب معه فيها جماعة من العلماء، ووضعها في ورقة بعث بها إلى الأمير بدر الدين بيليك الخازندار أمير الشام، وفيها يبين ضيق أهل الشام في هذه السنة، وضعف حالهم، بسبب قلة الأمطار، وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي وغلاء الأسعار، وأن الرفق بأحوال الرعية يقتضي من السلطان ضرورة إلغاء هذه الضرائب، ثم يذكر السلطان بمسؤوليته عن رعيته، وضرورة إحسان هذه المسؤولية، ويذكر من الأدلة المؤيدة لذلك من القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك قوله: "وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية، ونصيحتته في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة، وقد كتب خدمة الشرع الناصحون للسلطان، المحبوبون له كتاباً يذكره النظر في أحوال رعيته والرفق بهم، وليس فيه ضرر، بل هو نصيحة محضة، وشفقة وذكرى لأولي الألباب". (٢)

فيرد السلطان على هذا الكتاب ردّاً عنيفاً، ولكن الشيخ محيي الدين النووي يكتب جواباً لذلك بصيغة أشد، حيث يذكر له حكم الشرع في ذلك، وأن الجهاد لا يقتضي فرض هذه الضرائب على المسلمين، وأن على المسلمين عدم السكوت إذا لحق بالامة شيء من الظلم، يقول: "وقد أوجب الله أيضاً الكلام عند الحكام عند الحاجة إليه، فقال تعالى: "وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه". فوجب علينا حينئذ بيان، وحرم علينا السكوت، وقال تعالى: "ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم". وذكر في الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد، وهذا أمر لم ندعه، وكان الجهاد فرض كفاية، فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم

(١) رسالة السلطان الملك الناصر في شأن القتار، نشرها د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٦، ص ١٦

(٢) حسن المحاضرة: ٧٥/٢

ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم من الزراعة والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم إليه، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء مادام في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك... (١)

ثم يبين أن النصيحة واجبة على العلماء، وأن على السلطان ضرورة التقيد بالشرع وأحكامه. كما كتب إليه عندما احتيط على أملاك دمشق، فبين ضرورة النصيحة للحكام، وأن واجب الحكام قبول ذلك، وأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد من على السلطان بالانتصارات والفتوحات، فإن ذلك يقتضي شكره على هذه النعم، ثم يبين حكم الشرع في هذه القضية، فيقول: "وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثبات ما لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيء فهو ملكه لا يحل الاعتراض عليه، ولا يكلف بإثبات، وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع، ويوصي نوابه، فهو أولى من عمل به، والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة، والإفراج عن جميعهم، فاطلقهم أطلقك الله من مكروهه، فهم ضعفة، ومنهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة والصالحون، وبهم تنصر وتغاث وترزق..." (٢)

كما كتب إليه لما رسم بأن الفقيه لا يكون منزلاً في أكثر من مدرسة واحدة، فقد بين فضل العلماء، وذكر من الآيات والأحاديث النبوية ما يبين ذلك، وأنهم قد لحقهم من هذا المرسوم ضرر كبير، ومن ذلك قوله: "وقد بلغ الفقهاء أنه رسم في حقهم بأن يغيروا عن وظائفهم، ويقطعوا عن بعض مدارسهم، فتكدت بذلك أحوالهم، وتضرروا بهذا التضييق عليهم، وهم محتاجون، ولهم عيال، وفيهم الصالحون..." (٣)

كما سبق أن تعرضنا لرأيه عندما خرج الظاهر بيبرس إلى قتال التتار بالشام، وأراد أن يأخذ من مال الرعية ليستتصر به على قتال العدو، وأراد أن يأخذ فتاوى العلماء على ذلك، فرفض النووي هذا، (٤) كما مر بنا موقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام لما طلب السلطان قطز منه فتوى بأخذ أموال من المسلمين للاستتصار بها على قتال التتار أيضاً. (٥)

(١) حسن المحاضرة: ٧٦/٢

(٢) المصدر نفسه: ٧٨/٢

(٣) المصدر نفسه: ٧٩/٢

(٤) المصدر نفسه: ٧٩/٢

(٥) تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م

ولا يقتصر الوعظ على السلاطين، بل يتعداه إلى العلماء وعامة الشعب أيضاً، فمن ذلك ما يقدمه تاج الدين السبكي للعلماء المتعصبين، إذ يرشدهم إلى الدفاع عن دين الإسلام، ومقاومة أصحاب البدع والضلالات، والعمل على إرشادهم وتوجيههم، ثم محاولة دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودعوتهم إلى الإسلام، يقول: "قلل لهؤلاء المتعصبين في الفروع، ويحكم! ذروا التعصب، ودعوا عنكم هذه الأهوية، ودافعوا عن دين الإسلام، وشمروا عن ساق الاجتهاد في حسم مادة من يسب الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويقذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي نزل القرآن ببراءتها، وغضب الرب تعالى لها حتى كادت السماء تقع على الأرض، ومن يطعن في القرآن وصفات الرحمن، فالجهاد في هؤلاء واجب، فهلا شغلتم أنفسكم به، ويا أيها الناس، بينكم اليهود والنصارى قد ملأوا بقاع البلاد، فمن الذي انتصب منكم للبحث معهم، والاعتناء بإرشادهم، بل هؤلاء أهل الذمة في البلاد الإسلامية تتركونهم هملاً، تستخدمونهم وتستطبونهم، ولا نرى منكم فقيها يجلس مع ذمي ساعة واحدة، يبحث معه في أصول الدين، لعل الله يهديه على يديه." (١)

وهذا الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يكتب نصيحة واعظة إلى نائبه ممثلاً عن كل القضاة، حيث يقدم وعظاً يصدق على أوضاع عامة القضاة في زمانهم، وفي كل زمان، فيبعد أن يحذرهم من عواقب الاتجار بالدنيا الفانية ومتاعها الزائل، يحثهم على تقوى الله، ثم يبين لهم خطر منصب القاضي، وأن عليه أن يهذب نفسه وينهاها عن هواها، ويوضح لهم ما يعينهم على ذلك، يقول: "ومما يعينك على الأمر الذي دعوتك إليه، ويزودك في السفر المعرض عليه، أن تجعل لك وقتاً تعمده بالتذكر والتفكير، وإنابة تجعلها معدة لجلاء قلبك، فإنه إن استحكمت صداه صعب تلافيه، وأعرض عنه من هو أعلم بما فيه، فاجعل أكثر همومك لاستعداد المعاد، والتأهب لجواب الملك الجواد، فإنه يقول: "فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون". ومهما وجدت من همتك قصوراً، واستشعرت من نفسك عما بدا لها نفوراً فاجررها إليه، وقف ببابه، وأطلب فإنه لا يعرض عن صدق، ولا يعزب عن علمه خفايا الضمان، ألا يعلم من خلق." (٢)

ويخص السبكي في نصائحه القضاة بموعظة طويلة أيضاً، فمن ذلك قوله: "تنبه أيها القاضي لما أنت فيه من الأخطار، وطب نفساً إذا حكمت بحق، تعلم لله تعالى، وإلا فلا، واعلم أن الحلال بين، وهو الذي تجده منصوصاً عليه في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم أو مجمَعاً عليه، أو عليه دليل جيد غير ذلك من سائر الأدلة الراجعة إلى الكتاب والسنة..." (٣). ثم يوجه

(١) معيد النعم: ٧٥.

(٢) حسن المحاضرة: ١١٣/٢، وانظر: تاريخ ابن الفرات: ٢٠٧/٨ - ٢٠٨.

(٣) معيد النعم: ٥٨.

السبكي النصيحة إلى كاتب القاضي وحاجبه، ويوصيهما بمجموعة من الأمور أيضاً. (١)

أما العلماء، وهم على أصناف، منهم المفسر والمحدث والفقيه والأصولي والمتكلم والنحوي وغيرهم، ثم يخص أرباب الحرف والصناعات، فيوجه لكل منهم نصيحة خاصة. (٢)

كما وجه العلماء رسائلهم إلى عامة المسلمين، ومن هؤلاء ابن تيمية، فقد وجه مجموعة من الرسائل اشتملت على موضوعات متعددة وقضايا خلافية، أثارت جدلاً بين المسلمين في ذلك الوقت، فكانت رسائله تهدف إلى إظهار مسألة، أو إزالة شبهة، حيث عالجت قضايا اعتقادية، فجلت معتقد أهل السنة والجماعة، وأزالت عنها ما ران عليها عبر العصور، منها رسالته "العقيدة الواسطية" (٣)، و"العقيدة الحموية الكبرى" (٤)، و"رسالة الفرقان بين الحق والباطل" (٥)، كما تناولت رسائله قضايا في العبادات (٦)، ومسائل فرعية أخرى مثل تفسير المعوذتين (٧)، وأخرى في تفسير بعض الأحاديث (٨)، وبعضها في بيان حكم السماع والرقص. (٩)

هذا وقدمت جماعة الصوفية الوعظ للناس، فزواياهم كانت عامرة بالذكر والوعظ، كما قدم المستبشرون منهم مجموعة من الحكم والمواعظ التي تحت على التقرب إلى الله، والدعوى إلى امتهان الجسد من أجل علو الروح ورفعة مكانتها، ومن هؤلاء ابن عطاء الله الإسكندري في حكمه، هذه الحكم التي حظيت بشروح كثيرة. (١٠)

والحديث عن أدب الصوفية مجال واسع تحدث فيه الباحثون، وتناولوه بالدراسة المفصلة (١١)، ومع ذلك، فلا مانع من إيراد هذه الفقرات من الأدب الصوفي، ومن ذلك وصية

(١) انظر: معيد النعم : ٦٠ - ٦٢

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٦٧ - ١٤٨

(٣) ابن تيمية، مجموعة الرسائل الكبرى، المطبعة الشرفية بمصر، ١٣٢٣هـ: ٣٨٧/١ - ٤١٣

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٤١٤/١ - ٤٧٠

(٥) انظر: المصدر نفسه: ٢/١ - ١٨٠

(٦) انظر: المصدر نفسه: ٢٤١/١ - ٢٥٦

(٧) انظر: المصدر نفسه: ١٨٠/٢ - ٢٠٢

(٨) انظر: المصدر نفسه: ٥٣/٢ - ٦٣

(٩) انظر: المصدر نفسه: ٢٨٨/٢ - ٣١٧

(١٠) انظر: شروح الحكم العطائية في: ابن عباد النفري الرندي، الحكم العطائية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ص ١١.

(١١) انظر: على سبيل المثال: اتجاهات الأدب الصوفي، د. علي الخطيب، دار المعارف بمصر.

كتب بها ابن عطاء السكندري، يقول فيها: "اعلموا، رحمكم الله، أن العناية الإلهية، وإن كانت غيباً فلها شهادة تدل عليها، ودلالة تهدي إليها، فتلمحوا عناية الله فيكم بوقوفكم على حدوده ورعايتكم لعهوده، ألا وإن من علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه، ومن علامة محبة العبد لله أن لا يؤثر عليه شيئاً سواه، ومن علامة عدم الإيثار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار." (١)

ومن حكمه قوله: "العارف لا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره"، (٢) وقوله: "إنما استوحش العباد والزهاد ومن كل شيء، لغيبته عن الله في كل شيء، فلو شهدوه في كل شيء، لم يستوحشوا من كل شيء." (٢)

ومن كتاباتهم ما يكون على شكل رسائل، ومن هؤلاء: ابن سبعين الشيخ قطب الدين عبدالحق إبراهيم المرسي الرقوتي (٦٦٨هـ)، ومن رسائله: رسالة تسمى "رسالة العهد" منها قوله: "واعلم أن مطالك مطال، ومحالك محال، والواصل رحمه مهما دعا الله تعالى رحمه، والعلم للعلم علامة، والسلم للعدو سلامة، والصلح مع جملتك صلاح، والدعاء بالإخلاص سلاح، وإياك من العمل المهدوم، والأمل المعدوم." (٣)

بهذا يتبين لنا أن أدب الوعظ في العصر المملوكي الأول قد سار في اتجاهين: الأول: الاتجاه الرسمي الموجه إلى السلاطين وأولي الأمر من المراتب المختلفة، مما يمكن أن نطلق عليه وعظاً مباشراً، وقد تضمن موضوعات حياتية خاصة أو عامة، كالحث على الجهاد وضرورة التوجه إلى قتال العدو ومبادئه بالقتال. أو توضيح مظلمة وقعت على فئة من الناس نتيجة لفرض قانون أو ضريبة أو غير ذلك، أو حث الناس على شكر الله على نعمه، وبيان الطريق المؤدية إلى هذا الشكر، كما اشتملت على قضايا عقدية أثارت جدلاً في ذلك العصر، وأمور أخرى في شؤون العبادة، أو تفسير آيات من القرآن أو بعض الأحاديث النبوية.

أما الاتجاه الثاني، فكان بواسطة جماعة الصوفية، ومجال ذلك واسع، تحدث فيه الباحثون.

(١) لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري ٣٧٤، تحقيق د. عبدالحليم محمود. مطبعة حسان، القاهرة، ١٩٧٤م

(٢) الحكم العطائية، ابن عطاء الله الإسكندري ٤٣، ٤٦، تقديم: إبراهيم اليعقوبي، المجمع العربي للتأليف والدراسات والترجمة. دمشق، بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ، ١٩٨٥م

(٣) رسائل ابن سبعين: ٤٤ - تحقيق: عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥.

المناظرات والخلافات المذهبية

لا أريد في هذا المقام البحث في المذاهب الدينية التي شاعت في هذا العصر، وما كان بين أتباعها من خلافات، لأن هذا يحتاج إلى بحث خاص،^(١) ولكنني هنا أشير إلى أن هذه الخلافات قد أدت إلى ازدهار فن المناظرات في هذا العصر، وأجد نفسي هنا مضطراً للوقوف عند حادثتين كان لهما أثر واضح في ازدهار فن الجدل والمناظرة في هذا العصر:

الأولى: حدثت للشيخ عز الدين بن عبد السلام، وذلك أن جماعة من مبتدعة الحنابلة القائلين بالحرف والصوت، ممن صاحبهم السلطان الأشرف موسى ابن الملك العادل بن أيوب في صغره، كانوا يكرهون الشيخ عز الدين ويطعنون فيه، وقرروا في ذهن السلطان أن الذي هم عليه اعتقاد السلف، وأنه اعتقاد أحمد بن حنبل. فاعتقد السلطان أن من خالف ذلك كافر حلال الدم، فلما مال السلطان للشيخ عز الدين حاولت هذه الفئة إقناع السلطان أنه اشعري العقيدة، يخطيء من يعتقد الحرف والصوت، وكتبوا فتياً بذلك، وأوصلوها إلى الشيخ عز الدين، وكان قصدهم من ذلك أن يكتب الشيخ فتياً عليها بخطه، فيسقط بذلك موضعه عند السلطان، وبالفعل حدث ذلك، فكتب الشيخ الفتياً بذلك، وأوصلوها إلى الشيخ عز الدين، وكان قصدهم من ذلك أن يكتب الشيخ فتياً عليها بخطه، فيسقط بذلك موضعه عند السلطان، وبالفعل حدث ذلك، فكتب الشيخ الفتياً بذلك، وهي مشهورة^(٢)، وقد أثارت جدلاً كبيراً في ذلك الوقت، ومن هذه الفتيا: "الحمد لله ذي العزة والجلال، والقدرة والكمال، والإنعام والإفضال، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر، ولا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات... متكلم بكلام قديم أزلي، ليس بحرف ولا صوت، ولا يتصور في كلامه أن ينقلب مدادا في الألواح والأوراق، شكلاً ترمقه العيون والأحداق، كما زعم أهل الحشو والنفاق، بل الكتابة من أفعال العباد، ولا يتصور في أفعالهم أن تكون قديمة، ويجب احترامها لدلالاتها على كلامه، كما يجب احترام أسمائه لدلالاتها على ذاته، وحق لما دل عليه، وانتسب إليه أن يعتقد عظمته، وترعى حرمة".^(٣) والرسالة طويلة..

وقد امتحن الشيخ بسبب موقفه هذا، فسجن، ثم اشترط السلطان عليه أن لا يفتي، وأن لا يجتمع بأحد، وأن يلزم بيته^(٤)، إلى أن أظهر الله الحق، وكان ذلك على يدي الشيخ

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية: ٢/١ - ١٧٩

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى: ٢١٨/٨

(٣) المصدر نفسه: ٢١٩/٨

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٣٥/٨

جمال الدين الحصري شيخ الحنفية في زمانه الذي حكم في هذه القضية، فحكم أن ما قاله الشيخ ابن عبدالسلام هو "اعتقاد المسلمين، وشعار الصالحين، ويقين المؤمنين". (١) وقد عقدت من أجل الفصل بين ما قاله الشيخ عز الدين وبين مبدعة الحنابلة مجالس للعلماء، جرى فيها مناظرات ومجادلات طويلة. (٢)

أما الحادثة الثانية، فقد حصلت مع الشيخ تقي الدين بن تيمية، فقد سبق وامتحان أكثر من مرة، حيث عقدت عدة مجالس للعلماء، للحكم في قضيته، وكان ذلك ابتداء من عام ٦٩٨ هـ وحتى وفاته، فكان أن قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب "الفتوى الحموية"، حيث بحثوا معه ذلك في مجلس من العلماء، وقد انتصر له الشيخ جلال الدين القزويني وأخوه إمام الدين (٣).

ثم طلب ثانية إلى مصر سنة ٧٠٥ هـ حيث تعصب عليه بيبرس الجاشنكير، فأل أمره إلى الحبس في القاهرة ثم في الإسكندرية، إلى أن عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون فأطلق سراحه، وعاد إلى دمشق. وهنا تعرض لمحنة أخرى سنة ٧١٢ هـ عندما طلبه الأمير الأقرم نائب الشام أمام جماعة من الفقهاء، وبحثوا معه في مواضع من عقيدته التي تعرف "بالواسطية"، ثم أحضر الشيخ تقي الدين إلى مصر، وعقد له أكثر من مجلس، وكانت النتيجة سجن الشيخ، وكتب إلى دمشق كتاب يتضمن أن من اعتقد عقيدة الشيخ ابن تيمية حل دمه وماله. (٤)

والحق أن سبب هذه الفتنة يعود إلى أن بعض أصحاب ابن تيمية قد أحضر له كتاباً من تصانيف الشيخ محيي الدين بن عربي، يسمى "قصص الحكم"، فطالعه الشيخ، ورأى فيه مسائل تخالف معتقده، فكتب كتاباً بين فيه أخطاء ابن عربي وسماه: "النصوص على الفصوص"، كما ألف كتاباً آخر فيه إنكار كثير على تأليف ابن عربي، وقد سير كتابين: أحدهما للشيخ نصر المنبجي، والآخر إلى الشيخ كريم الدين شيخ خانقاه سعيد السعداء، وهما ممن يعتقدون اعتقاداً قوياً بالشيخ ابن عربي، ولهما مكانة عند الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، حيث ألجأ على ابن تيمية وادعوا أنه يقول بالتجسيم. (٥)

وفي عام ٧١٩ هـ قام العلماء عليه بسبب مسألة الطلاق، فعقد له مجلس سنة ٧٢٠ هـ حبس على أثره، ثم أفرج عنه، وفي سنة ٧٢٦ هـ قاموا عليه بسبب مسألة الزيارة، وسجن، ولم يزل في سجنه حتى موته سنة ٧٢٨ هـ. (٦)

(١) طبقات الشافعية: ٢٣٧/٨

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٠/٨

(٣) انظر: الدرر الكامنة: ١٤٥/١

(٤) انظر: المصدر نفسه: ١٤٥/١ - ١٤٨ وكنز الدرر: ١٣٣/٩ - ١٤٣

(٥) انظر: كنز الدرر: ١٤٣/٩ - ١٤٤

(٦) انظر: الدرر الكامنة: ١٤٩/١

هاتان الحادثتان كان لهما أثر في ازدهار فن المناظرات في هذا العصر، فقد كانت مجالس العلماء التي تعقد في هذه القضايا وبحوثها بمثابة مناظرات علمية كبرى، تثار فيها قضايا الخلاف، ويناقشها العلماء... وقد سجل لنا ابن تيمية ما دار بينه وبين العلماء من جدل ومناظرة حول "العقيدة الواسطية" (١)، حيث جرت مناقشتها معه في مجلس الأفرم أمير الشام، حيث طلب من كاتبه أن يقرأها حرفاً حرفاً، وقد سجل ذلك ابن تيمية، فقال: "اعترض بعضهم على قولي فيها: ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، ومقصوده أن هذا ينفي التأويل الذي هو صرف اللفظ من ظاهره، إما وجوباً وإما جوازاً، فقلت: إني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف، لأن التحريف اسم جاء القرآن بـذمه، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة، فنفيت ما ذمه الله من التحريف، ولم أذكر لفظ التأويل، لأنه لفظ له عدة معان كما بينته في موضعه من القواعد، فإن معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه، وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف، وقلت لهم: ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه، لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه، حيث قال: "ليس كمثله شيء"، وأخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم، ويطنبون في هذا، ويعرضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك... ثم طلب المنازع الكلام في مسألة الحرف والصوت، فقلت: هذا الذي يحكى عن أحمد وأصحابه أن صوت القارئ ومداد المصاحف قديم أزلي كذب مقترى، لم يقل ذلك أحمد ولا أحد من علماء المسلمين، وأخرجت كراساً، وفيه: ما ذكره أبوبكر الخلال في كتاب السنة عن الإمام أحمد، وما جمعه أبوبكر المروزي من كلام أحمد وكلام أئمة زمانه، في أن قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع، قلت: فكيف بمن يقول لفظي أزلي، فكيف بمن يقول: صوتي قديم..." (٢)

وقد أثبت ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) شيئاً من هذه المناظرات، منها: مناظرة بين جبري وسني (٣)، وأخرى بين قدي وسني (٤).

فما جاء في المناظرة الأولى التي جرت بين جبري وسني قوله: "قال الجبري: القول بالجبر لازم لصحة التوحيد، ولا يستقيم التوحيد إلا به، لأنه إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلاً للحوادث مع الله، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر، قال

(١) سميت كذلك نسبة إلى واسط في العراق، حيث طلب إليه بعض قضاة واسط أن يكتب له ذلك، بسبب ما كان عليه الناس في بلادهم في دولة التتر من غلبة الجهل والظلم وقلة دروس الدين والعلم. الرسائل الكبرى: ٤٠٧/١، وانظر العقيدة الواسطية في الرسائل: ٣٨٣/١ - ٤٠٦

(٢) الرسائل الكبرى: ٤٠٧/١ - ٤١٠

(٣) ابن قيم الجوزية: شفاء العليل، دار الكتاب العربي، القاهرة: ١٩٦ - ٢١٢

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢١٣ - ٢٤٧.

السني: بل القول بالجبر مناف للتوحيد، ومع منافاته للتوحيد فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب، فلو صح الجبر لبطلت الشرائع، وبطل الامر والنهي، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب... (١)، وتجري المناظرة بينهما على هذه الصورة، حيث يذكر كل منهما حجته، فيرد عليه الآخر بما ينفي قوله، ويدحض حجته.

وهكذا، كما يبدو لنا، جرت هذه المناظرات حول أمور عقديّة تختص بأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، وحول القرآن الكريم، هل هو أزلي أم حادث، كما دارت حول أفعال العباد، هل هي جبرية أم قدرية، أو هل الإنسان بأفعاله مخير أم مسير... والحق أن البحث في هذه المسائل قديم، وقد كان من أسباب وجود الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، واستمرت هذه المذاهب والخلافات حتى هذا العصر.

ولم تقتصر المناظرات حول هذه القضايا العقدية، إنما كانت هناك مناظرات في هذا العصر حول موضوعات وفنون أخرى، فقد ناظر ابن تيمية أبا حيان في قضايا لغوية حول سيبويه، حيث ذكر ابن تيمية لأبي حيان أن سيبويه قد أخطأ في ثمانين موضعاً في "الكتاب". (٢)

(١) شفاء العليل: ١٩٦

(٢) انظر: الدرر الكامنة: ١٥٢/١ - ١٥٣

الفصل الثاني

"النشر الفني في إطار العصر"

- المحتوى -

أولاً: تمثيل النثر للحياة السياسية والأحداث التاريخية

- تمثيله للتنظيمات الإدارية في الدولة
- تمثيله للخلافات والفتن بين أمراء المعاليك.
- تمثيله للسياسة الخارجية في الدولة.
- تمثيله للأحداث العسكرية، ومواكبته لهذه الأحداث.

ثانياً: تمثيل النثر للحياة الاجتماعية.

- تمثيله لطبقات المجتمع وواقع كل طبقة.
- تمثيله لكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية.
- تمثيله للحياة الاقتصادية، وتنظيم عملية التجارة الداخلية والخارجية.
- تمثيله لأنواع النقابات التي كانت في ذلك العصر.

ثالثاً: تمثيل النثر للحياة الدينية.

- محاربة التقاليد والبدع الفاسدة، ومحاولة تطبيق مبادئ الشريعة.
- تصويره للخلاف بين المذاهب المختلفة.
- تصويره لأحوال أهل الذمة من اليهود والنصارى.
- تصويره لشؤون المساجد والوقف الإسلامي.
- تصويره للاهتمام بطائفة الصوفية ورعاية شؤونها.

رابعاً: تمثيل النثر للحياة العقلية.

- تمثيله لأصناف العلوم السائدة والتخصصات المختلفة.
- تمثيله للمراحل التعليمية المختلفة وطرق التدريس.
- تمثيله لنشاط الحياة العلمية بمختلف مجالاتها.
- تمثيله لبعض الآراء والنظريات التربوية.

أولاً: تمثيل النثر للحياة السياسية والأحداث التاريخية

أ - تمثيله للتنظيمات الإدارية في الدولة:

حرص كتاب ديوان الإنشاء في العصر المملوكي الأول على مخاطبة أولي الأمر والشأن بما يناسبهم من ألقاب، وتلك شروط صنعة الكتابة الديوانية، ومن أجل ذلك فقد حرص أيضاً من وضع أسس هذه الصنعة على وضع الألقاب وشروط المكاتبات المتعلقة بمختلف الوظائف، من أجل مخاطبة كل منهم بما يناسبه من الألقاب. ونستطيع من خلال ذلك أن نضع مخططاً للحالة التي كانت عليها التنظيمات الإدارية في الدولة المملوكية، ولعل رتبة الخلافة تأتي في أعلى سلم هذه الرتب، حيث تليها رتبة ولي عهد الخلافة، وقد جعلها ابن فضل الله العمري في صدر المكاتبات الديوانية، (١) كما أطلق عليها القلقشندي الألقاب المتعلقة بالخلافة، وجعلها في ثلاثة أنواع: الخلفاء وولاء العهد بالخلافة، وأئمة الزيدية باليمن. (٢)

يلي هذه المراتب: المراتب المملوكية، وأولها وأعلاها: السلطان، يليه ولي عهد السلطنة، ثم الملوك المستقلون بصغار البلدان، كما كان عليه صاحب حماة مثلاً. (٣)

وأما ما يلي ذلك من الوظائف فهم النواب. وأولهم كافل الممالك الإسلامية، ثم نواب الديار المصرية والشامية: نائب الشام ونائب حلب ونائب حماة ونائب طرابلس ثم نائب صنف، ثم ألحقت بها فيما بعد نيايتا حمص وغازة. (٤)

ثم يتحدث ابن فضل الله بعد ذلك عن أنواع الوظائف العامة، فيقسمها إلى ثلاثة أقسام: أرباب السيوف، وأرباب الأقاليم وأرباب الصلاح. (٥)

أما وظائف أرباب السيوف، فيصنفها إلى: أمراء مقدمي الألوف وأمراء الطبلخانات، ولهما عدة سبعين أو ثمانين فارساً أو نحو ذلك، والمقربين من الخاصكية، أو من له عزاقة في نسب كبقايا الملوك، أو أرباب وظائف جليلة، كحاجب كبير، أو أستاذ دار أو دوا دار... ثم أمراء العشرات، ومقدمي الحلقة والجند.

أما أرباب الأقاليم. فأبرزهم الوزراء، وناظر الخاص، ومستوفي الصلحة وكاتب السر

(١) انظر: التعريف ٦، ١٥

(٢) انظر: صبح الأعشى: ١١٨/٦ - ١١٩

(٣) انظر: المصدر نفسه: ١٢٠/٦ - ١٢١

(٤) انظر التعريف: ٨٥ - ٩٥

(٥) انظر التعريف: ٩٥

وناظر الجيش وناظر الدولة، ثم القضاة والعلماء والأئمة، (١) ويجعل ابن فضل الله قضاة القضاة بمصر وبخاصة الشافعي في الشام أعلاهم مرتبة، يليهم بقية القضاة في الشام وحلب وطرابلس وصنف، ووكيل بيت المال بمصر والشام، والخطيب بمصر والشام، يليهم أرباب الوظائف الدينية الأخرى، وبقية العلماء. (١)

أما القسم الثالث، فهم أهل الصلاح، وهم عموم أصحاب المراتب الدينية والعلمية. (٢)

واعتماداً على مكانة هذه الوظائف، فقد اختلفت الألقاب التي يخاطب بها صاحب الوظيفة، (٣) فمما يلقب به ناظر الخاص مثلاً: "المجلس العالي، القاضوي، الكبير، العالمي، الفاضلي، الأوحدي... جمال الإسلام والمسلمين، سيد الرؤساء في العالمين، قدوة الكتاب، رئيس الأصحاب، عماد الملة، صفوة الدولة، خالصة الملوك والسلاطين، ولي أمر المؤمنين، فلان الفلاني، أدام الله تعالى نعمته." (٤)

كما اختلفت أيضاً طريقة الوصف اللائق بصاحب هذه الوظيفة أيضاً، إذ يجب على الكاتب مراعاة ما يناسب صاحب الوظيفة من أوصاف تليق به، فمما يوصف به كاتب السر مثلاً: "الفصاحة والبلاغة وقيام أقلامه في التأثير في العدو مقام السيوف والرماح، وكتبه في تفريق الكتائب مقام الجيوش والعساكر، وسداد الرأي، وكنم الأسرار، وحماية الممالك بنتائج أفكاره." (٥)

كما تنوعت الوصايا التي يقدمها الكاتب في مكاتباته لصاحب هذه الوظيفة، تبعاً لنوع هذه الوظيفة أيضاً، إذ يجب على الكاتب مراعاة وصية رب كل ولاية من الولايات المعتمدة، فمما يوصى به الوزير مثلاً: العدل وزيادة الأموال وتنميرها، والإقبال على تحصيلها من جهات الحل، واختيار الكفاة الأمناء، وتجنب الخونة وتطهير بابه، وتسهيل حجابيه، والنظر في المصالح، والنظر في أمر الرواتب وإجرائها على أربابها. (٦)

وقد أورد ابن فضل الله شيئا مما يوصى به الوزير، من ذلك قوله: "يوصى بتقوى الله تعالى، فإنه عليه رقيب، وإليه أقرب من كل قريب، فليجعله أمامه، وليطلب منه لكل ما شرع فيه تمامه، وليجعل رأيه في كل ما تشد به الدولة أزرها، وتسند إليه ظهرها، وليجعل العدل أصلاً يبني على أسسه، والعمل في أموره كلها لسلطانه لا لنفسه، وليبصر كيف يثمر الأموال من

(١) انظر: التعريف: ٩٥ - ٩٩

(٢) التعريف: ٩٩

(٣) انظر التعريف: ٦ - ٧، ٨٥ - ١١٠

(٤) صبح الأعشى: ٧٨/١١

(٥) انظر: صبح الأعشى: ٨٧/١١

(٦) انظر: المصدر نفسه: ٩١/١١

جهااتها وكيف يخلص بيوت المال بالاعتصار على الدراهم الحلال من شبهاتها." (١)

وتبعاً لاختلاف أنواع الوظائف في الدولة الملوكية، فقد اختلفت أنواع المكاتبات الديوانية فيها من: عهود وتقاليد ومراسيم وتفاويض وتواقيع... وقد تحدثت عن هذه المصطلحات في الفصل السابق من هذا البحث. (٢)

هذا، وعلى الرغم من دقة هذه التنظيمات الإدارية في دولة المماليك، فإنه عندما كان السلطان يخرج إلى الأمصار المختلفة قاصداً الغزو، يلجأ إلى إعادة تنظيم الأمور الداخلية في مصر والقاهرة. فيرتب على الولايات والوظائف المختلفة من يراه مناسباً من الأمراء. ولا يكتفي السلطان بذلك، بل يكتب لنائب السلطنة تذكرة جامعة لمختلف المهام والوصايا التي يكلف بها، من أجل إقامة الشرع والعدل والإنصاف بين جميع الرعايا، وكذلك الحفاظ على الأمن، كما يوصى بمجموعة من المهام الداخلية مثل: تفقد الجسور والقناطر والترع وترميم ما وهى منها... (٣)

وعندما كان السلطان يعهد لأحد الأمراء في مهمة رسمية في جهة معينة، لم يفت السلطان أن يوجه إليه كتاباً رسمياً يتضمن الواجبات والمهام الموكلة إليه، وترسم له الطريق في عمله، مثال ذلك ما أوصى به السلطان المنصور قلاوون الأمير سيف الدين باسطي الذي عينه السلطان نائباً في قلعة صرخد، والأمير عز الدين أيبك الفخري الذي عين والياً فيها، حيث كتب لهما تذكرة نافعة، جامعة لكثير من المصالح، يعتمدان عليها. (٤)

وإذا ظهر للسلطان أن هناك خللاً قد لحق ببعض الجوانب الإدارية أو التنظيمية في الدولة، فإنه كان يأمر بالعمل على إعادة تنظيمها وترتيبها، وتغيير الإقطاعات وترتيب المعاملات، وكان أحياناً يشرف بنفسه على ذلك من خلال ما يسمى "بالروك"، كما حدث في عهد السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧هـ، وهو ما يسمى "بالروك الحسامي"، (٥) وكما حدث في عهد السلطان الناصر محمد سنة ٧١٤هـ وهو ما عرف "بالروك الناصري". (٦)

(١) التعريف: ١٢٣

(٢) انظر: ص ٩٧ من هذا البحث.

(٣) انظر: تاريخ ابن الفرات: ١٩٥/٧ - ٢٠٠، صبح الأعشى: ٩٦/١٣ - ١٠٥

(٤) انظر: المصدر نفسه: ١٩٢/٧، صبح الأعشى: ١٠٦/١٣ - ١١٠

(٥) انظر: التحفة الملوكية: ١٥٢، وخطط المقرئ: ٨٧/١

(٦) انظر: كنز الدرر: ٢٨٦/٩

ب - تمثيله للخلافات والفتن بين أمراء المماليك

لا أقصد في هذا البحث، بالتأكيد، التاريخ للخلافات والفتن التي حدثت في دولة المماليك الأولى، ولكنني سأشير إلى بعض الأحداث الداخلية التي تركت أثراً واضحاً في النثر، أو ظهرت واضحة من خلال النثر.

فما يعرف عن دولة المماليك: كثرة الفتن والخلافات الداخلية بين أمرائها، مما نتج عنه موت أكثر سلاطينهم قتلاً، فهذا السلطان الظاهر بيبرس يتولى السلطنة بعد مقتل السلطان قطز سنة ٦٥٨هـ، فيكتب إلى النواب يخبرهم بسلطنته، فيجيبونه جميعاً بالسمع والطاعة خلا الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق، فإنه يعلم الاستقلال بالسلطنة والاستبداد بالمملكة في بلاد الشام، ويخطب له على المنابر، فيكاتبه السلطان ليرجع عن رأيه، لكنه لم يتراجع، فيجرد السلطان له حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار، حيث يتم إحضار الحلبي إلى القاهرة، ويسجن فيها، وتعود دمشق إلى حظيرة السلطنة. (١)

وفي سنة ٦٥٩هـ يصل الإمام أبو العباس أحمد بن الظاهر بالله إلى القاهرة، وبعد أن تثبت نسبته في مجلس خاص يعقد لهذا الغرض، يبایعه السلطان خليفة للمسلمين، ويسجل النثر هذه الحادثة في كتاب السلطان الظاهر بيبرس إلى دمشق، جاء فيه: "هذه المكاتبة إلى القاضي نجم الدين، يعلمه بما تجدد من أمر يبهج الأمة، ويستدعي الرحمة. ويأخذ الثار ممن هتك للإسلام حرمة، وهو أنه ورد علينا الإمام أبو القاسم أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر في أمر نسبه، وأخذ البيعة له، فحضر جماعة شهدوا بالاستفاضة أنه ولد الإمام الظاهر، وثبت ذلك عند قاضي القضاة لدينا ثبوتاً شرعياً، وعند ذلك بسطنا لمبايعته راحتنا، واقتدى أثرنا الأمراء والحلقة والناس كافة في مبايعته، والرضا بخلافته، وذلك في يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وتقدمنا بأن يخطب له، ويتوج مفرق الدينار والدرهم باسمه الشريف، ونحن بصدد اهتمام نصرته الإسلام على يديه، وإهداء كرائم الأموال والذخائر إليه." (٢)

وبعد إتمام مراسيم المبايعه، يقلد الخليفة السلطان بيبرس السلطنة، ليضيفي على دولة المماليك صبغة شرعية (٣)، ويسجل النثر هذا الحدث، من خلال كتاب التقليد، وقد جاء فيه: "وأمر المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الراقع، وقد

(١) انظر في ذلك: السلوك: ٤٣٧/١ - ٤٣٩، التحفة الملوكية: ٤٥ - ٤٦

(٢) الذيل على الروضتين: ٢١٣

(٣) انظر: التحفة الملوكية: ٤٧

قلدك الديار المصرية، والبلاد الشامية، والديار البكرية والحجازية واليمينية والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك، حين أصبحت بالمكان فردياً، وما جعل منها بلداً من البلاد، ولا حصناً من الحصون مستثنى، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى..." (١)

وفي سنة ٦٦١هـ يستقدم السلطان الظاهر بيبرس الإمام أبا العباس أحمد بن الحسين، ويبيعه بالخلافة في مجلس عام، يضم العلماء والأمراء، ويلقب الحاكم بالله، ويقلد الخليفة السلطان لحكم الأمة. (٢)

وبواكب النثر هذه الأحداث مواكبة دقيقة من خلال الكتب المتبادلة في هذا المجال، فمما جاء في نسخة العهد الذي كتب به للسلطان الظاهر عن هذا الخليفة: "وبعد، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم ساجداً راعياً في تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدماً، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعرف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية، والديار البكرية والحجازية واليمينية والفراتية..." (٣)

وتسير أمور السلطنة إلى أن يتوفى الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ، فيخلفه ولده الملك السعيد بركة خان في السلطنة بناء على كتاب عهد السلطنة إليه، ولكن الأمراء، بعد ذلك، يتفقون على خلعه وتسييره إلى قلعة الكرك، ويولون السلطنة أخاه الملك العادل سلامش، وكان صغير السن، فاتفقوا أن يكون قلاوون الألفي أتابكه، وأن يكون إليه أمر العساكر وتبدير الممالك، وقد كتبت بذلك الكتب إلى الشام. (٤)

وتمضي الأمور في سلطنة الملك العادل الاسمية، بينما الحكم الفعلي للأمير قلاوون إلى سنة ٦٧٨هـ، حيث يجتمع الأمراء والأعيان، ويقررون خلع الملك العادل، وترتيب سيف الدين قلاوون الألفي على السلطنة، ويلقب بالملك المنصور. (٥) ويساير النثر هذه الأحداث، حيث تكتب الكتب إلى الشام بذلك، ومنها كتاب إلى نائب دمشق شمس الدين سنقر الأشقر، يقول فيه: "تهنى وترى من النصر ما كانت تتمنى... ويستفتح لسان الحمد بتقديمه، ويزداد به مسرة نفسه ابتهاجاً،

(١) الروض الزاهر: ١٠٢، ذيل مرآة الزمان: ٤٤٥/١

(٢) انظر: التحفة الملوكية: ٥١

(٣) مآثر الإنافة: ١٢٢ - ١٢٤

(٤) انظر: التحفة الملوكية: ٨٦ - ٩٠، السلوك: ٦٥٢/١ - ٦٥٧

(٥) انظر: المصدر نفسه: ٩١، السلوك: ٢٥٨/١

وتزدان به عقود السعود... ويظهر منه المحاب التي لو قصدت الأقلام بحصرها لعجزت عن الحصر، وهو أن العلم الكريم قد أحاط بالصورة التي استقرت من دخول الناس في طاعة المملوك، واجتماع الكلمة عليه، واستقلاله بأمر السلطنة المعظمة... (١).

كما يسجل النثر ذلك أيضاً من خلال نسخة العهد الصادر عن الخليفة أبي العباس أحمد إلى الملك المنصور قلاوون، بتفويضه الحكم، جاء فيه: "فوجب على من له في أعناق الأمة المحمدية مبايعة رضوان، وعند إيمانهم مصافحة أيمان، ومن وجبت له البيعة باستحقاقه لميراث منصب النبوة... أن يفوض ما فوضه الله إليه من أمر الخلق إلى من يقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحق... وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين، شرفه الله، أن يكون للمقر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري - أجله الله ونصره، وأظفره وأقدره، وأيده وأبداه - كل ما فوضه الله لمولانا أمير المؤمنين في حكم في الوجود، وفي التهائم والنجود، وفي الجيوش والجنود، وفي المدائن والخزائن، وفي الظواهر والبواطن..." (٢)

وتسير أمور السلطنة في عهد السلطان قلاوون، وعهد ابنه السلطان الأشرف خليل حتى سنة ٦٩٣هـ، إذ يقتل السلطان، وتثور فتنة بين الأمراء، تنتهي بترتيب السلطان الناصر محمد بن قلاوون على السلطنة، وتعيين الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة والمتصرف الفعلي بأمرها، إذ كان عمر السلطان لا يزيد عن تسع سنوات، ويكتب إلى الشام كتاب على لسان الملك الشرف، مضمونه: "إنا قد استتبنا أخانا الملك الناصر محمداً، وجعلناه ولي عهدنا، حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدو يكون لنا من يخلفنا"، وقد أمر في هذا الكتاب بتحليف الناس للملك الناصر محمد، وأن يقرن اسمه باسم الملك الأشرف في الخطبة، كان ذلك بعد وفاة الأشرف، وقد استمر الأمر على ذلك في الشام مدة حتى ورد مرسوم ناصري بالخطبة للسلطان الناصر وحده. (٣)

ويمضي كتبغا في تدبير أمور السلطنة مدة عام تقريباً، حيث يقرر مع جماعة من الأمراء خلع الناصر لصغر سنه، وتولييه السلطنة، وتلقب بالملك العادل زين الدين، وتكتب الكتب إلى البلاد الشامية بذلك. (٤) كما يسجل النثر سلطنة كتبغا من خلال تفويض الخليفة الحاكم بأمر الله له بالسلطنة، جاء فيه: "هذا عهد شريف في كتاب مرقوم، يشهده المقربون، ويفوضه آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمة الأقربون، من عبدالله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين، وسليل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين... إلى السلطان

(١) ذيل مرآة الزمان: ٩/٤

(٢) مآثر الإنافة: ١٢٩/٣ - ١٣٣، صبح الأعشى: ١٢٢/١٠ - ١٢٣

(٣) انظر: التحفة الملوكية: ١٣٦ - ١٣٨، السلوك: ٧٨٨/١ - ٧٩٥

(٤) انظر: السلوك: ٨٠٦/١ - ٨٠٧

الملك العادل زين الدين والدنيا كتبغا المنصوري أعز الله سلطانه. (١)

غير أن الأمور لم تدم للسلطان كتبغا، ففي عام ٦٩٦هـ ثور فتنة بين الأمراء، يفر كتبغا على أثرها، فينتفون على سلطنة حسام الدين لاجين، ويتلقب بالملك المنصور. (٢) ويكتب إليه الخليفة الحاكم بأمر الله عهداً بتقويضه أمر السلطنة، جاء فيه:

"ولما كان السلطان الملك المنصور حسام الدين أبو الفتح لاجين المنصوري، هو الذي جعل الله صلاح الأمة على يديه، واختاره لإقامة دينه، فساق ملك الإسلام عنوة إليه... وتحقق أمير المؤمنين أنه المكنون في طويته، والمستكن في إضماره، والقائم في عمارة بيته النبوي وسلامة مقام سلمانه وعمارته، فعهد إليه حينئذ في كل ما تقتضيه أحكام إمامته في أمة نبيه، وجعله في التصرف المطلق عنه قائماً مقام وصيه في الملة ووليّه، وقلده أمر ملك الإسلام تقليداً عاماً، وفوض إليه حكم السلطنة الشريفة تفويضاً تاماً... (٣)

ولم يدم الأمر للسلطان حسام الدين لاجين، إذ يقتل سنة ٦٩٨هـ، ويتم الاتفاق بين الأمراء على مكاتبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وإحضاره من الكرك، وإقامته في السلطنة، وجددت له البيعة، (٤) وكتب له عهد عن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، جاء فيه: "وكان ركابك العالي قد سار إلى الكرك المحروس، وقعدت عنك الأجسام، وسافرت معك النفوس، ووثقت الخواطر بأنك إلى السلطنة تعود، وأن الله يجدد لك صعوداً إلى مراتب السعود، وأقامت بها وذكرك في الآفاق سائر، والآمال مبشرة بأنك إلى كرسي مملكتك صائر، فلما احتاج الملك الشريف في هذه المدة إلى ملك يسر سريرته، وسلطان تغدو باستقراره عيون الأنام والأيام قريرة، لما للمسلمين في ذلك من تيسير أوطار وتعمير أوطان، ولأنهم لا ينفذون في المصالح الإسلامية إلا بسلطان، ولم يدر في الأذهان، ولا خطر لقاص ولا دان، إلا أنك أحق الناس بالسلطنة الشريفة، وأولاهم برتبتها المنيفة، ولا ذكر أحد إلا حقوق بيتك وفضلها، ولا قال عنكم إلا بقول الله تعالى: "وكانوا أحق بها وأهلها" (٥)، كما اتفق أيضاً على أن يكون الأمير سيف الدين

(١) مآثر الإنافة: ٣/٣٩.

(٢) انظر: السلوك: ١/٨٢٠ - ٨٢٣.

(٣) مآثر الإنافة: ٣/٥٥ - ٥٧.

(٤) التحفة الملوكية: ١٥٤.

(٥) مآثر الإنافة: ٣/٦٦ - ٦٧، وانظر أيضاً: كنز الدرر: ٦/٩ - ٧.

سلار نائباً للسلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذاراً^(١).

وتمضي الأحداث بتصريف الأميرين سلار وبيبرس، مما يجعل السلطان الناصر محمد يضيق ذرعاً بذلك، ففي سنة ٧٠٨هـ يتظاهر بأنه يريد الخروج للحج، لكنه يختار الإقامة بالكرك وترك السلطنة، وتجري بينه وبين الأميرين في القاهرة مكاتبات ومراسلات، تنتهي بتنازله عن السلطنة، فيقرر الأمراء ترتيب بيبرس الجاشنكير على السلطنة، ويتلقب بالملك المظفر^(٢)، ويكتب له عن الخليفة عهد، جاء فيه: "إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي الربيع سليمان بن أحمد العباسي لأمراء المسلمين وجيوشها، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". وإني رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين نائباً عني لملك الديار المصرية والبلاد الشامية، وأقمته مقام نفسي لدينه وكفائه وأهليته، ورضيته للمؤمنين، وعزلت من كان قبله، بعد علمي بنزوله عن الملك، ورأيت ذلك متعيناً علي، وحكمت بذلك الحكام الأربعة... وبلغني أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصاة على المسلمين، وفرق كلمتهم، وشتت شملهم، وأطمع عدوهم فيهم، وعرض البلاد الشامية والمصرية إلى سبي الحريم والأولاد وسفك الدماء، فتلكت دماء قد صانها الله تعالى من ذلك."^(٣)

غير أن السلطان الناصر محمد يبدأ بتدبير أموره، ويعيد ترتيبها مع نواب الشام وحماة وحلب وطرابلس، فتجري بينهم وبين السلطان مكاتبات، تنتهي إلى خروج السلطان إلى دمشق، بعد أن تلقى نواب الشام مكاتبات من السلطان بيبرس الجاشنكير، ينذرهم فيها بسوء عاقبة من يتعاون مع الناصر، ومنها كتاب إلى نائب دمشق، جاء فيه: "إنما خرجت هذه الطائفة الشرذمة اليسيرة عن الطاعة لسوء بختهم، وقلة بصائرهم، ونحن لهم في أشد الطلب، وإن أمعنوا في الهرب، وسوف (يجنوا) * ثمرة اعتمادهم، ولا ينفعهم من صار إليه ملاذهم"، كما يتضمن الكتاب التأكيد على نائب الشام بضرورة التيقظ وحفظ عهد السلطان.^(٤)

وتتكمال ترتيبات عودة الناصر إلى مصر، ويعود إلى سلطنته سنة ٧٠٩هـ، إذ يتنازل بيبرس عن الملك، ويولي هارباً.^(٥)

(١) انظر: السلوك: ٨٧٢/١ - ٨٧٣

(٢) انظر: التحفة الملوكية: ١٨٧ - ١٩١، كنز الدرر: ١٥٦/٩ - ١٦٠، السلوك: ٤٢/٢ - ٤٨

والنجوم الزاهرة: ١٨٠/٨ - ١٨١

(٣) النجوم الزاهرة: ٢٦٣/٨

(٤) انظر: كنز الدرر: ١٦٩/٩ - ١٧٠

(٥) انظر تفصيل ذلك في: كنز الدرر: ١٧٦/٩ - ١٨٩

* يجنوا: خطأ وصوابها يجنون.

وتستمر قضية الخلافات بين الأمراء المماليك حول السلطنة، فتتمضي بنا إلى سنة ٧٤٣هـ، عندما يتم خلع الملك الأشرف كجك بن الناصر محمد، ويستدعي الناصر أحمد أخوه من الكرك، من أجل تقليده السلطنة، فيكتب في ذلك كتاب عن الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد ابن المستكفي، حيث تفصل هذه الرسالة في أمر هذه الفتنة، وتذكر رؤوسها والقائمين عليها، ومن ذلك قوله فيها: "سطرها وأصدرها، وقد حققت بعوائد الله الظنون، وصدقت الخواطر العيون، وأنجز الله وعده، وأتم سعيه، وجمع على مقامه الكريم قلوب أوليائه، وفرق فرق عدده بإجابة ندائه، ووطد لرقية المنابر، ورجل لتلقيه العساكر، وهيا لمقاتل أعدائه في أيدي أوليائه السيوف البواتر، وأخفق قوصون وأمسك، ونهب ما له واستهلك... فأمسك ومعه رؤوس من أشياعه، وحصرت بالخوف نفوس أتباعه، ومنهم الطنبغا وقد أحاط به العلم الشريف بكيفية وصوله وحقيقة الخبر، وما قاساه في طريقة من العبر... وخلف وراءه الحق، وتبعه بعد الهزيمة التي ألجأهم إليها خوف العساكر المنصورة التي قعدت لهم على الطريق... وأخذت عليهم بمدارج أنفاسهم في قم المضيق." (١)

ولم تقتصر مشاركة النثر في العصر المملوكي الأول في توثيق الخلافات والفتن بين الأمراء على المكاتبات والرسائل، بل تعدى ذلك إلى المقامات، فقد كتبت مقامات في تسجيل هذه الأحداث، مثال ذلك ما ألفه ابن حبيب في توثيق أحداث الفتنة التي قادها نائب السلطنة بحلب بالاشتراك مع نواب السلطنة بحماة وطرابلس وصفد، وخروجه نحو الديار المصرية معلنا بطلب السلطنة لنفسه، وأقاموا نحو شهر قرب دمشق، يخربون البلاد، ويقتلون العباد، وقد سمي هذه المقامة: "مروج الخروس في خروج ببيغاروس"، جاء فيها: "ولما سمع البغاة برحيل عسكر الشام، دخلوا إلى دمشق ولكن بغير سلام، ونزلوا بظاهرها من الجهة القبلية، وشمروا عن ساعد الفتك في الرعاة والرعية، فكم من أموال نهبوا، وغلل غصبوها، ودماء سفكوها، وأستار هتكوها، وديار محوا آثارها، وبساتين قطعوا أشجارها، ومنزل أفقروا، وسعيد أشقوا، وعزيز في غيبة الذل، ألقوا، ومسلم أنزلوا به كل خطب وملمة، ومؤمن لم يرقبوا فيه إلا ولا ذمة." (٢)

وهكذا تمضي أمور الدولة في العصر المملوكي الأول، ويمضي النثر موثقاً لأهم الأحداث الداخلية، والخلافات القائمة المستمرة بين أمراء المماليك، ولا يستغرن أحد من ذلك الصراع المستمر بينهم، إذ إن دولة المماليك دولة يغلب الطابع العسكري على نظامها، فمن الطبيعي أن الحكم سيؤول للمتغلب على أمورها، القادر على جمع أكبر عدد من المناصرين والمؤيدين حوله.

(١) مآثر الإنافة: ٢٦٥/٣ - ٢٧٣، وانظر أيضاً: صبح الأعشى: ٤١٥/٦ - ٤١٩

(٢) تذكرة النبيه: ١٦١/٣

ج - تمثيله للسياسة الخارجية في الدولة:

تكاد المكاتبات الديوانية في العصر المملوكي الأول ترسم لنا صورة للعلاقات الخارجية التي كانت تربط هذه الدولة بالدول الخارجية في ذلك الوقت، فقد كان لهذه الدولة علاقات مع دول كثيرة، تنوعت بين علاقات صداقة ومودة وتبادل للهدايا، وبين علاقات حرب وعداء، وبين علاقات مهادنة ومصالحة.^(١)

أما الدول والممالك التي تربطها بدولة المماليك علاقات صداقة ومودة، فقد كانت الرسائل والمكاتبات إليها تتضمن البشرى بفتح أو انتصار، أو استتصارهم على عدو لهم، أو الشكر على الهدايا المرسل، بالإضافة إلى الرسائل الشخصية أو المجاملات.

وأما الدول والممالك التي كان بينها وبين دولة المماليك حالة حرب وعداء، فكانت المكاتبات الصادرة إليها تتضمن رسائل الوعيد والتهديد، وإخبارهم بفتح قلاعهم وحصونهم، وبث البشرى بذلك إليهم على سبيل السخرية والتهكم، وإنذارهم وتحذيرهم بعدم اللقاء، وأنه يجب عليهم تسليم ما بأيديهم من أرض المسلمين وبلادهم، كما تضمنت تلك المكاتبات أيضاً مكاتبات المهادنة والمصالحة ونسخ الأيمان التي يحلفون بها حسب دياناتهم ومذاهبهم.

وتكشف لنا مثل هذه المكاتبات عن ذكاء ودهاء في العلاقات الخارجية عند المماليك، إذ عندما دهم التتار أرض المسلمين كان على هذه الدولة الفتية مواجهتهم والتصدي لهم، وفي الوقت نفسه، كان الفرنج الجاثمون على أرض المسلمين يتربصون بالأمة الإسلامية، وينتظرون أن تدور عليهم الدوائر للانقضاء على ما تحرر من أرض المسلمين من أيديهم، فكان النصر للمماليك في لقائهم الأول مع التتار، واستقرت أمور دولتهم في مصر والشام، وعند ذلك عمل المماليك على تهدئة الأمر مع المغول بقصد التفرغ التام لتحرير بلاد المسلمين من الفرنج، فكان توسط صاحب سيس بين السلطان الظاهر بيبرس وأبغا بن هولاكو من أجل الصلح بين الطرفين سنة ٦٦٧هـ، وكان الظاهر بيبرس قد عمل على تأمين عدم عودة المغول واعتدائهم على البلاد الإسلامية، إذ أنفذ السلطان رسلاً إلى صاحب الروم عز الدين كيكاس بن كيخسرو، ليعود الرسل، وبصحبته رسول من صاحب الروم، ومعهما كتابه إلى السلطان الظاهر، يتعهد فيه

(١) انظر ص ٧٨ من هذا البحث (الفصل الأول).

بالعمل بأمر السلطان الظاهر بيبرس. (١)

وليس هذا فحسب، بل يكاتب السلطان بيبرس الملك بركة، فينفذ الملك رسولين من لدنه، ومعهما رسالة تتضمن السلام والشكر وطلب النجدة على هولاكو، ويعلمه ما وقع داخل البيت المغولي من خلاف، وأنه قد رهن نفسه لخدمة الإسلام وإقامة مناره، ويلتمس من السلطان إرسال جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لقطع الطريق على هولاكو، فيرد السلطان على ذلك، بمكاتبة تتضمن الترغيب في الجهاد بذكر آيات من كتاب الله تعالى، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في قتال المشركين، كما ترسل الهدايا القيمة. (٢)

إذن، فقد أمن السلطان الظاهر عدم خروج المغول ومهاجمتهم الديار الإسلامية، ليتفرغ بعد ذلك لقتال الفرنج وتحرير بلاد المسلمين، فيتوجه لفتح عكا وشقيف وأنطاكية وطرابلس وخصم وحماة. (٣).

وليس هذا فحسب، بل كان سلاطين المماليك يعمدون إلى مصالحة بعض أمراء الفرنج، ومعاداة الآخرين، كي يعملوا على التفريق بينهم وتسهيل التغلب عليهم، إذ قبل توجه السلطان بيبرس لفتح حصن عكار صالح صاحب صور بطلب من الأخير. (٤)

وتستمر هذه المكاتبات بين سلاطين المماليك والملوك الآخرين، حيث يوفد السلطان قلاوون سنة ٦٧٩هـ رسولين إلى السلطان غياث الدين ومعه كتاب له، ثم يتوجهان إلى القان الأعظم منكوتمر خليفة بركة خان، ومعهما من الهدايا ما يعرض لديه "حتى لا يكون السلام بينهما خالياً من إتحاف المسلم، ولا الحمد فارغاً من حلاوة منطق المشافه والمنكلم". (٥)

وتستمر علاقات المماليك بالمغول بين مد وجزر، وتمضي معها المكاتبات بين الطرفين، تفصل كل ما يدور بينهما من أحداث، ففي سنة ٦٨١هـ يعتنق بعض سلاطين المغول الإسلام، ويتسمى بالسلطان أحمد، فيتقدم بمكاتبة إلى السلطان المنصور قلاوون يخبره بذلك، ويعرض عليه الصلح والدخول في طاعته، وذلك من أجل حقن الدماء، وإطفاء الفتن الثائرة، وتقوية شعار الإسلام "وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة، وتتجلي بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والخمة، فتسكن في سابغ ظلها البوادي والحواضر، وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر، فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم،

(١) انظر: الروض الزاهر: ١٢٥ - ١٢٧

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٧٠ - ١٧٤

(٣) انظر: عقد الجمان: ٢١/٢ - ٢٩، ٧٥ - ٧٧

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٨١/٢

(٥) انظر: تاريخ ابن الفرات: ١٧٩/٧

وانتظام أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تتعمر تلك الممالك والبلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف البائرة، وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة، ومنع من معرفة قدر هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا، وأبلى عذرنا، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا". (١) فيرد السلطان قلاوون على هذا الكتاب، وعلى هذه الدعوة للمصالحة، بقوله: "وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف، وتدر بها من الخيرات والأخلاف، ويكون بها صلاح العالم، وانتظام شمل بني آدم، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد، وجنح إلى السلم وما حاد ولا حاد، ومن ثنى عناته عن المكافحة كان كمن مد يد المصالحة للمصافحة، والصلح وإن كان سيد الأحكام، فلا بد من أمور تبني عليه قواعده، ويعلم من مدلوله فوائده، فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة يعمر بها كل مغنى ومعلم، وإن تهيا صلح أو لم، وثم أمور لا بد وأن تحكم، وفي سلكها عقود العهد تنظم، وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا"، فما على هذا النسق من الود ينسج، ولا على هذا السبيل ينهج، بل الفضل المتقدم في الدين ونصرة عهود ترعى، وإفادات تستدعى". (٢)

وتتجدد الدعوة أيضا بعد تسلم السلطان المغولي محمود غازان الحكم، فيكاتب السلطان الناصر محمد سنة ٦٩٨ هـ، طالبا الصلح والود من أجل تسهيل عمل التجار، بعد أن منعهم الخوف من الأسفار، وأنه على السلطان الناصر إذا أقر بذلك، ووافق عليه، فعليه أن يسير لنا هدية الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النية، ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم". (٣)

فيرد السلطان الناصر على هذه الرسالة رداً عنيفاً، حيث جاء فيه: "فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح، وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح، وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، وليس في قولك مبن ولا يشوبه تمقيق، فنحن نقلدك سيف البغي، ومن سل سيف البغي قتل به، ولا يحق المكر السيء إلا بأهله، فيرسل إلينا من خواص دولتك رجل يكون منكم، إذا قطع بأمر وقفتم عنده، أو فعل حكماً انتهيتم إليه، أو جزم أمراً عولتم عليه، يكون له في أول دولتكم حكم وتمكين، وهو فيما يعول عليه ثقة أمين، لننكلم معه فيما فيه الصلاح

(١) تشريف الأيام والعصور: ٦ - ١٠، السلوك: ج ١/٩٧٨ - ٩٨٠

(٢) المصدر نفسه: ١٤ - ١٥، السلوك: ١/٩٨٠ - ٩٨٤

(٣) النجوم الزاهرة: ٨/١٣٨ - ١٣٩

لذات البين، وإن لم يكن كذلك عاد بخفي حنين." (١)

ويعيد غازان الطلب من جديد عام ٧٠٠هـ، ويرد عليه السلطان الناصر أيضا بخطاب يتضمن الأفكار السابقة تقريباً. (٢)

وهكذا، فقد هادن المماليك التتار حينما رأوا أن المصلحة تقتضي ذلك، كما هادنوا الفرنج عندما كانت حالة الأمة تستدعي ذلك أيضاً، ولست أريد أن أقدم توثيقاً لهذه المهادنات وعقود الصلح، فقد أتيت بأمثلة مما أشارت إليه المكاتبات بين المماليك والمغول، وسوف أقدم نماذج من المهادنات التي وثقتها المكاتبات، ووثقها النثر في العصر المملوكي بين المماليك والفرنجة.

كانت سياسة المماليك مع الفرنجة، كما أشرت، مهادنة فنة ومحاربة أخرى، وذلك من أجل التفريق بينهم، ليسهل الانقضاض على حصونهم ومعقلهم وتحريرها من أيديهم، فقد كانت عكار أكثر المدن تحصيناً ومنعة، ومن أكبر تجمعات الصليبيين عدداً وعدة في بلاد الشام، فليس من الحكمة المبادأة بقتالها وحربها، ولا سيما أنها كانت تتصل بأوروبا اتصالاً وثيقاً عبر البحر، فكانت مركزاً لوصول الإمدادات والحملات الصليبية من الغرب، ومن هنا عمل سلاطين المماليك على مهادنتها، إذ عقد السلطان المنصور قلاوون هدنة مع حكام هذه المدينة سنة ٦٨٢هـ، وكان المنصور قلاوون قد عقد قبل ذلك هدنة مع إمارة طرابلس وما اشتملت عليه من الأقاليم والبلاد والقلاع والحصون، وكانت تحت حكم مقدم الإسبتار، سنة ٦٨٠هـ ولمدة عشر سنوات، (٤) كما هادن السلطان قلاوون أيضاً مملكة صور سنة ٦٨٤هـ، (٥) وهادن أيضاً صاحب سبيس في العام نفسه، وكان مقدم فرق الداوية توسط للإصلاح بينهما، إذ كان لمقدم الداوية على السلطان خدمة تستوجب إجابة سؤاله في ذلك، وإقامة حرمة بقبول شفاعته. (٦)

ولم تقتصر اتفاقيات الصلح والمهادنة التي عقدها السلطان قلاوون مع الفرنج على مدنها وقلاعهم وممالكهم في بلاد المسلمين، بل تعدى ذلك إلى عقد اتفاقيات مهادنة مع الممالك البعيدة نسيباً عن سلطنة المماليك، فقد هادن مملكة صقلية سنة ٦٨٩هـ، إذ عرض ملكها الصالح على السلطان، فأرسل رسله محملة بالهدايا، وأقر الصلح على أن يكونوا أعداء أعداء السلطان،

(١) النجوم الزاهرة: ١٤٥/٨ - ١٤٦

(٢) انظر: عقد الجمان: ١٣٢/٤ - ١٦٨

(٣) انظر نص الهدنة وشروطها في: السلوك: ملحق رقم ٨، ج ٩٨٥/١

(٤) انظر: نص الهدنة وشروطها في: السلوك: ملحق رقم ٦، ٩٧٤/١

(٥) انظر نص الهدنة وشروطها في: تشریف الأيام والعصور: ١٠٣ - ١١٠

(٦) انظر نص الهدنة وشروطها في: المصدر نفسه: ٩٢ - ١٠٣

وأصدقاء وأصدقائه، بالإضافة إلى شروط أخرى تم الاتفاق عليها. (١)

كما هادن السلطان قلاوون أيضاً حكام جنوا، حيث التزموا بموجب هذه الهدنة بحفظ جميع المسلمين واحترامهم وتكريمهم، ويخص الذين يخرجون من بلاد المسلمين في البر والبحر، أو الذين يسافرون في مراكب الجنوية. (٢)

وكان قلاوون قد هادن عام ٦٨٠ هـ صاحب مملكة الروم والقسطنطينية. (٣)

هذا وكان من سياسة سلاطين المماليك أن يكتتبوا أعداءهم، كلما حققت جيوش المسلمين انتصاراً عليهم، وذلك تثبيطاً لعزائهم، وتشجيعاً لهم على الإستسلام والرحيل من بلاد المسلمين، ونستطيع أن نعد ذلك نوعاً من الحرب النفسية التي يشنها المسلمون ضد أعدائهم، إذ كانت المكاتبات وسيلة الاتصال الوحيدة في ذلك الوقت، ومثال ذلك ما كتب به عن الظاهر بيبرس إلى صاحب طرابلس إثر توجه المسلمين إليها بعد فتح حصن عكار، جاء فيه: "وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضه "الله أكبر"، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح... وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى، وليروهم الجراح التي أريناهم بها نفاذاً، ولينذروهم لقاء يومهم هذا... يعلم القومص هذه الجملة المسرودة ويعمل بها، وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده." (٤)

كما كان من عادتهم أيضاً أن يكتتبوا أمراء وملوك المسلمين، ليعلموهم بما تحقق لهم من انتصارات وفتوحات، مثال ما كتب به إلى ابن الأحمر صاحب غرناطة، ويبدو أن ذلك أيضاً يصب في بوتقة الهدف السابق، إذ يرمي السلطان من ذلك إلى رفع الروح المعنوية للمسلمين، ولا سيما إذا عرفنا أن ملوك بني الأحمر أيضاً كانوا يقارعون الفرنجة، ويواجهون حرباً شرسة منهم، يقول في الرسالة: "وتبدي لحلمه الكريم ورود كتابه الجليل مسفراً عن لوامع صفائه، منبأ بجوامع وده ووفائه، محتوياً على سروره بما بلغه من أنباء النصر التي سارت بها إليه سرعان الركبان، وذلت بعزم ما تلي عليه عباد الصليبان، وطبق ذكرها المشارق والمغارب، ومزقت مواكب أعداء الله التتار وهم في رأي العين أعداد الكواكب... وان التتار المخذولين أقبلوا كالرمال، واصطفوا كالجبال، وتدفقوا كالبحار الزواخر، وتوالوا كالأمواج التي لا يعرف لها الأول من الآخر، فصدمتهم جيوشنا المنصورة صدمة بددت شملهم، وعلمت الطير أكلهم." (٥)

(١) انظر نص الهدنة في: تشریف الأيام والعصور: ١٥٧ - ١٦٤

(٢) انظر نص الهدنة في: المصدر نفسه: ١٦٦ - ١٦٨

(٣) انظر: تاريخ ابن الفرات: ٢٢٨/٧ - ٢٣٣

(٤) الروض الزاهر: ٣٨٠ - ٣٨١، وانظر أيضاً: السلوك: ملحق رقم ٤، ج ٩٧٢/١

(٥) حسن التوسل: ٢٣٥ - ٢٣٦

وكان من سياسة المماليك أيضا إذا تم تحرير مدينة أو حصن من أيدي الفرنجة أن يؤمر عليه أميراً مملوكاً منهم، إذ بعد فتح أنطاكية ولى السلطان بيبرس عليها الأمير بدر الدين الخزندار والأمير بدر الدين بيسري الشمسي (١)، ويبدو أن ذلك لم يكن متبعاً إذا كانت البلاد بعيدة عن ديار مصر والشام، إذ عندما تم فتح بلاد النوبة على يد الأمير شمس الدين أق سنقر لم يؤمر السلطان أحداً من المماليك عليها، وإنما أبقاها بيد ملكها، مكتفياً بيمين يحلف به الملك، على أن يخلص النية للسلطان، وأن يبذل جهده وطاقته من أجل رضاه، وأن يكون نائبه في حكم هذه البلاد، وأن يتعهد بتقديم نصف ما يتحصل من هذه البلاد للسلطان، ويرصد النصف الآخر لعمارة هذه البلاد وحفظها من الأعداء، بالإضافة لما يقدمه في كل سنة من الهدايا الواجبة. (٢)

. ومن ذلك أيضا إقرار ممتلك سيس على حكمها بعد فتحها، وقد كتب له عن السلطان بذلك، وقد جاء فيه: "وكان الملك فلان ممن تدبر طرق النجاة فلم ير إليها بسوى الطاعة سبيلاً، وتأمل أسباب النجاح فلم يجد عليها غير صدق الانتماء دليلاً، فأبصر بالخدمة موضع رشده، وأدرك بسعيه نافر سعيه، وأراه الإقبال كيف تثبت قدمه في الملك الذي زلت عنه قدم من سلف... وانتفى إلىنا فصار من خدم أيامنا، وصنائع إنعامنا، وقطع علانقه عن غيرنا، فلجأ منا إلى ركن شديد، وظل مديد، ونصر عتيده... اقتضى إحساننا أن نغضي له عن بعض ما حلت جيوشنا داره، وحلت سطوات عساكرنا عراه... وأن نخوله بعض ما وردت خيولنا مناهله، ووطنيت جيادنا غاربه وكاهله، وسلكت كماتنا فملكت دارسه وأهله، وأن نبقي مملكة هذا البيت الذي مضى سلفه في الطاعة عليه، ويستمر ملك الأرض الذي أحمل السعي في مصالحه بيديه، ليتيمن رعاياه به، ويعلموا أنهم آمنوا على أرواحهم وأولادهم بسببه..." (٣)

تلك، إذن، سياسة المماليك وعلاقاتهم الخارجية، كما كشف عنها النثر في هذه الفترة.

(١) الروض الزاهر: ٣١٣

(٢) انظر: السلوك، ملحق رقم ٥، ج ١/٩٧٣ - ٩٧٤

(٣) حسن التوسل: ٣٧٢

د - تمثيله للأحداث العسكرية، ومواكبته لهذه الأحداث.

لقد واكب النثر الأحداث العسكرية في دولة المماليك منذ بدايتها، فحيثما سار السلطان، في حله وترحاله، كان يرافقه كتاب ديوان الإنشاء، يكتبون عنه المكاتبات في الموضوعات المختلفة، وقد سجل هؤلاء الكتاب من خلال كتب البشارة التي بعثوا بها إلى الأمراء في مصر والممالك الأخرى، سجلوا هذه الفتوحات وخذلوا، حيث وصفوا الجيوش والأسلحة والمعارك، كما فصلوا القول في ما حل بهذه المدن والقلاع والحصون المحررة تفصيلاً دقيقاً، كما أطنبوا في وصف رحلة السلطان موتقين ذلك بذكر الأزمنة، والأماكن التي حل بها ركبهم، وسوف أحاول فيما يلي تتبع بعض الأحداث العسكرية والمعارك التي خاضها سلاطين المماليك مع الصليبيين والتتار، لننتبين مواكبة النثر لهذه الأحداث.

ففي عام ٦٦٣هـ توجه السلطان الظاهر بيبرس بعساكره قاصداً قيسارية، فنزل عليها وحاصرها إلى أن فتحها عنوة، ثم حاصر قلعتها وفتحها، ثم رحل إلى أرسوف، ونزل عليها، ونصب المجانيق، ورمى أبراجها إلى أن تداعت، ثم فتحها، فصدرت كتب البشائر عن السلطان بهذه الفتوحات، ومن ذلك هذه المكاتبة التي جاء فيها: "هذه المكاتبة تبشر بنصر من الله وفتح قريب، وهناء يأخذ له المجلس منه أوفر نصيب، وتوضح لعلمه الكريم أنه لما كان يوم الإثنين التاسع من شهر رجب المبارك قد منا خيرة الله تعالى، وزحفنا على مدينة أرسوف بعساكرنا المنصورة، وأدرنا بها الأطلاب للزحف، وكانت مرتبة على أحسن صورة، وتناولناها مناولة القادم إذا ضم ضمة المشتاق، واستولينا على جميع أهلها، وأضحى كل منهم من القيد في وثاق، وأضررنا بها النيران فعجل الله لهم بها في الدنيا قبل الآخرة الإحراق". ويمضي في وصف ما لحق بهذه المدينة وأهلها من خراب، ثم يبين نتيجة المعركة ومدتها إلى أن انتهت بفتح المدينة وخرابها: "وكانت مدة القتال ثلاثة أيام آخرها يوم الخميس ثاني عشر رجب المبارك، فلم يفلت منهم أحد، وعاجلناهم في هذه المدة القريبة، فلم يغنهم ما فعلوه في تحصين البلد". (١)

وفي حصار قيسارية يوجه السلطان بيبرس إلى الأمراء أمراً بنقل الحجارة والتراب من خندق كان العدو طمره، وهو واقف بنفسه على سور قيسارية، يهدم بنفسه، وقد تجرحت يده، فكتب إليهم يقول: "إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة، ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة، ما منا إلا وهو مباشر الحروب، الليل والنهار وناقل الحجار، ويرابط الكفار،

وقد تساوينا فلي هذه الأمور، وما ثم ما تضيق به الصدور." (١)

وفي فتح أرسوف وحصارها، يشارك السلطان بيبرس الجنود في جر المنجنيقات ورمي التراب ونقل الحجارة، وفي ذلك يقول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر من مكاتبة عن السلطان: "فتعسّم الجبان، ولقد رأيت السلطان يبذل من نفسه كل مصون، ويهون منها ما لا يهون، وهو بمفرده ماثراً في يده ترس، وهو تارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر يرامي مراكب الفرنج، ويجر في المجانيق، ويطلع فوق الستائر يرمي من فوقها..." (٢)

وفي سنة ٦٦٤هـ، يتوجه السلطان الظاهر بيبرس إلى صفد، فيحاصرها حتى يقرر أهلها التسليم، وتكتب البشائر بذلك، منها: "هذا الفتح الذي كرم خبراً، وحسن أثره في الإسلام ورداً وصدرًا، وطابت أخبار ذكره فشغل به السارون حذاء، والسامرون سمرًا، وهو فتح صفد واستنقاذه من أسره، واسترجاعه إلى الإسلام وقد طالعت عليه في النصرانية مدة من عمره"، ثم يبين ما لحق بالمسلمين من ضرر من نصارى صفد، يقول: "كم استبيح بسببها للإسلام من حمى، وكم استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الأحرار ومسلمًا، وكم تسرب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين فحازوا مغنمًا وقوضوا معلمًا"، ثم يبين حصار جيوش المسلمين لها: "فعند ذلك زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنطاق بخصره، ودرنا به حتى عدنا كاللثام بثغره، وأمطرنا عليه من السهام وبلا سحبيت ذيول سحبه المتركمة، وأجرينا حولها من الحديد بحرًا غرقه أمواجه المتلاطمة"، ويمضي في وصف حصارها وضربها بالمنجنيقات: "فلم يزل يصدع بثبات أركانه حتى هدمها، فصلى أهل النار بنارين من الحريق والقتال، ومنوا بعدائين من حر الضرام وحد النصال، هذه تستعر عليهم وقودًا، وهذه تجعل هامهم للسيف غمودًا، فعند ذلك جاءهم الموت من فوقهم ومن أسفل منهم، وأصبح تغرهم الذي ظنوه عاصمًا لا يغني عنهم، ومع ذلك قاتلوا قتال مستقتل لا يرى من الموت بدءًا، وثبتوا متحابين يقدون ببيضهم البيض والأبدان قداءً، فصبر أولياء الله على ما عاهدوا الله عليه، وقدموا نفوسهم قبل إقدامهم رغبة إليه... فعند ذلك، خاب ظن أعداء الله، وسقط في أيديهم، وصار رجاء السلامة برؤوسهم أقصى تمنيتهم، فعدلوا عن القتال إلى السؤال، وضجوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال، واستدعوا راياتنا المنصورة فشرفوا بها الشرفات، ونزلوا على حكمنا فأقالت القدرة لهم العثرات، وتسلم الحصن المبارك وقت صلاة

(١) الروض الزاهر: ٢٢٦

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٧

الجمعة ثامن عشر شوال، وتحكم نوابنا على ما بها من الذخائر والأموال..." (١)

وفي سنة ٦٦٦ يتوجه السلطان بيبرس إلى الشام، فيقصد أولاً يافا حيث يحاصرها، ويهرب من كان فيها إلى القلعة، فتفتح المدينة، ويطلب أهل القلعة الأمان، فيتوجهون إلى عكا، وتحرر القلعة، وتكتب كتب البشارة بذلك، ومنها:

"هذه المكاتبة تعلن ببشرى بفتح حسن استفتاحه، وتساوى في الجلالة غرره وأوضاحه، وأتى بسملة لهذه الغزاة المباركة التي بها تتبرك المهارق، ومفتاحاً لمغلق الحصون التي إن فتحها الله فلا مغلق، وإن سهلها فلا عائق، وذلك لأن يافا كانت قد كثر عدوان من فيها، وحصل من أضرارهم ما لا يقدر أحد على تدارك تحيفاتها ولا تلافيتها، فلما توجهنا هذه الوجهة المباركة، وتعوضنا فيها عن إنجاز الملوك بالملائكة، حرفنا إليها العنان يسيراً، وعرجنا عليها تدريجاً مستروح ثم يستأنف مسيراً، وطرقناها بكرة يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، فما مضى إلا بقدر ما جردت السيوف من الأغمام، وأخذت المعاول في العويل على أهل الإلحاد، ونطقت ألسن الأعلام بالنصر المبين، وتلقى النصر رايتنا باليمين... وإذا بأهلها يطلبون الأمان على النفوس خاصة وأنهم يبذلون لنا كل ما لهم من مال وغلل وسلاح وغير ذلك، فأجبناهم إلى ذلك... وتسلمناها وقلعتها فتحاً قريباً، وتسلمناها مرتعاً مريعاً ومربعاً خصيباً." (٢)

ولما فرغ السلطان من يافا توجه إلى قلعة الشقيف، فحاصرها، وضربها بالمنجنيقات، إلى أن طلب أهلها الأمان، وقرروا تسليم القلعة، فتسلمها يوم الأحد في التاسع والعشرين من شهر رجب، وقد كتبت الكتب والبشائر توثق هذا الحدث: "وتعلمه بفتح أمست وجوه البشائر ببشره متهللة، وأسماع المنابر لوعيه متبثلة، وهو فتح الشقيف الذي جاء بتناوب الإتحاف إلى القلوب، ويتناسب أنباؤه كالرمح أنبوب على أنبوب... وكان نزولنا عليها في تاسع عشر شهر رجب المبارك سنة ست وستين وستمانه بعد أن سلكتنا إليها أوعاراً تتعثر بها ذيول الرياح، وهبطنا أودية لا يأنس فيها إلا بمجاوبة الصدى لقعاقع السلاح، وصعدنا في جبال لا يرى الأشباح فيها إلا كالذرى، والذرى إلا كالأشباح"، ثم يأخذ في وصف القلعة ومنعتها: "وهذه القلعة من وجه هذه الشواهد بمكان الغرة، ومن كتابها بمنزلة الطرة، كأنها سمع تناجيه النجوم بأسرارها، أو راحة بما بسطته من أصابع شرفاتها... قد أحكم بناؤها، فلا أيدي المعاول لأطراف أسوارها مجاذبة، وحصن فناؤها

(١) ذيل مرآة الزمان: ٣٤٠/٢ - ٣٤٢

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٥/٢ - ٣٧٦

فلا غير الغنائم لها مجاورة ولا غير الرعود لها مجاورة... ثم يبين نزول الجيش عليها وحصارها، يقول: "قحفت بها كما حفت الخواتم بالخناسر، أو كما حفت بالعيون الأهداب، ودارت حولها سوراً ما له غير الخوذ من شرفات، وغير نواهد الخيل من أبراج، وغير حنايا السيوف من أبواب، وأحدقت بثغرها كما تحدد الشفاه بالثغور، وأطافت بها قبل إطفائنا كما يطوف البند قبل المنطقة بالحضور." ويمضي في وصف حصارها وتضييق الخناق عليها حتى تعلن التسليم: "ونزلنا ربعا بالعساكر التي سيوفها مفاتيح الحصون، ورماحها أرشية المنون، فما نزلنا من ظهر جوادنا إلا على ظهر حبلها الذي حرته عن يمينها جنبياً، ولا ألقينا عصا التسيار حتى حملنا أعواد المجانيق على عاتقنا لنقدمها إلى الله تقرباً وإليهم تقرباً." (١)

ثم يتوجه السلطان بعدها إلى أنطاكية، فيحاصرها، ويطلب أهلها. الأمان، فتزحف جيوشه إليها ويتسلمها في الرابع من رمضان، وتكتب في ذلك كتب البشائر، ومنها: "هذه المكاتبة تتحدث بنعمة الله التي تهلل بها وجه الأيمان، وهلل بها من أهله كل لسان... وذلك بفتح أنطاكية التي لم تتطرق إليها الحوادث والخطوب، ولا طرق حديث فتحها الأسماع ولا هجس القلوب." ثم يبين مدى حصانة هذه المدينة ومنعتها: "يحف بها أسوار لا يقطعها الطائف في يوم مسيراً، ولا يدرك الناظر من أولها لها أخيراً، وبها رجال غدوا إليها من كل حذب ينسلون، ومن كل هضبة ينزلون..."

ثم يصف نزول الجيش إليها: "وكان نزولنا عليها في يوم الأربعاء غرة شهر رمضان، فلم يكن إلا بقدر ما نزلنا، إلا ورسلمهم قد حضروا ليمسحوا أطراف الرضا، ويتقاضوا من العفو أحسن ما يقتضى، فزحفنا عليها في يوم السبت بكرة، وهو رابع الشهر، فلم يلبثوا إلا ساعة من نهار، وقد دخلت عليهم من أقطارها، وتصور العسكر المنصور متن أسوارها، وامتدت السنة الصوارم وأسنة الرماح، وشهرت البيض الصفاح..." (٢)

وفي سنة ٦٦٩ هـ يتوجه السلطان بيبرس قاصداً حصن الأكراد، فتتصب المجانيق حوله، ويحاصر حصاراً قوياً حتى يتمكن من فتحه عنوة بالسيف، فتدخله جيوش المسلمين في الخامس والعشرين من هذه السنة، وتكتب رسائل البشرى بذلك ومنها: "تعلمه بفتوحات شملت بشانرها، وتعرفت بالنصر أمانرها... وذلك بفتح حصن الأكراد الذي كان في حلق البلاد الشامية غصة... كم صان كفرة في بلاد الإسلام وحماه، وكم ابتنى منها ب بكر أساء صحبتها فما خشي معرة ولا خاف حماه." ثم يصف هذا الحصن ومنعته، فهو "قد سما في السماء فلا أمل إليه يمتد، وعلا في الهواء فلا بصر يلح به إلا وينقلب خاسنا عنه ويرتد..." ثم يصف حصاره وضربه بالمنجنيقات: "ونصبنا عليه من المجانيق كل مثبتة في مستنقع الموت رجلها، حاطة في الهواء

(١) ذيل مرآة الزمان: ٣٧٨/٢ - ٣٧٩

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٣/٢

رحلها، جاثمة جثوم الهرم، هادية هداية العلم... وما زالت بها حتى هدمت منها الأركان، وما برح النقباءون حتى سروا في ضمائرهم سريان الدم في مفاصل الإنسان" ثم يصف استسلام هذا الحصن وتهاويه... "فحينئذ بلغت روحه التراقي، وعجلت عليه المجانيق المذكورة التي أصابته بعين ما لها من راق... مازالا هذا بعويل معاوله، وهذا بأنين سهامه ينعيان الكفر مساءً صباحاً، ويترنمان بما يظنه المسلم غناءً، وتحسبه للكفر عليه نواحاً، حتى تسلمناه في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان المبارك..." (١)

ويمضي الظاهر بيبرس في رحلة الفتوح هذه إلى حصن عكار، فيحاصره، وتتصب المنجنيقات حوله، وتذك أسوار الحصن إلى أن يطلب أهله الأمان، فيتسلمه السلطان في أواخر شهر رمضان من تلك السنة، وتكتب كتب البشارة بذلك، ومنها: "وهو أنه لما كان بتاريخ يوم الإثنين تاسع وعشرين من شهر رمضان المعظم سنة تسع وستين وستمئة تسلمنا حصن عكار، بعد أن رتبنا عليه المجانيق من كل جانب، وأذقنا من فيه من العذاب الواجب، ولم يزل الجاليش بسهامه يرشقهم، والمجانيق تجدفهم، والمنايا تتخطفهم، فعندما شاهدوا مصارع بعضهم، نزلوا من الحصن المذكور خاضعين، وعفروا جماجمهم بالذل متضرعين... وتسلمنا الحصن المذكور بحواصله وجميع ما فيه، وانتظم في سلك ممالكنا، ودخل في جملة حصوننا وممالكنا..." (٢)

وفي سنة ٦٨٤هـ، وفي سلطنة المنصور قلاوون، يتوجه السلطان للغزو، فيحاصر حصن المرقب، ويفتحه، وتكتب رسائل التهاني بهذا الفتح إلى الأمراء، حيث تفصل القول في حركة الجيش في بلاد الشام إلى أن يصل إلى حصن المرقب، ويصف منعه وقوته، ثم يصف حصاره وضربه بالمنجنيقات إلى أن يستسلم، وتدخله جيوش المسلمين، ومن هذه المكاتبات: "وكان في عزمنا أن نرتاد منزلاً، فعرجنا عن ذلك المنزل، وقلنا: يا خيل الله اركبي، ويا ملائكة النصر اصحبي، ويا أقلام البشرى اكتبي، فوصلنا الشام في جنود تقبل مثل قطع الليل، وتندفع اندفاع السيل... ولم نزل نطوي المراحل، ونتجاوز الخصب والمahl، إلى أن نزلنا بعيون القصب من عمل حمص، فوافاها البشير بما كان من أمر بلاطنس التي تقدمت بها البشرى... ولم نزل نغذ السير، ونود لو استعزنا أجنحة الطير، إلى أن وإينا المرقب، وهي المقصد، ومناخ ركائب العزم الذي هو لها مرصد، فكانت محط رحالنا، وإليها مطرح آمالنا... وما وردنا حتى قامت جيوش الجو على ساقه، وجاءت بعوث الغمام من الأفاق، ورشقت سهام السحائب، وتغلغلت ريح الصبا والحبائب، ورجعت الرعود بجنودها، وجردت البروق بيضها من غمودها... فنزلناها ونازلناها،

(١) ذيل مرآة الزمان: ٤٤٦/٢ - ٤٤٧

(٢) المصدر نفسه: ٤٤٩/٢

وأعطنا حجب المهابة وأزلناها، وأحدقنا بها إحداق السوار، وأحطنا بها كما يحيط باليد السوار، ويمضي في وصف حصارها إلى أن يطلب أهل هذا الحصن الأمان: "ووجدوا من أنفسهم حداً قليلاً وجداً عثوراً، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً، وملكتها بالأمان وهو في المعنى بالسيف، وهجمناها هجوم الطيف..." (١)

وفي عام ٦٨٨هـ يتوجه السلطان قلاوون لمنازلة طرابلس، ويحاصرها ثلاثة وثلاثين يوماً حتى يتم فتحها بالسيف، ويدخلها العسكر عنوة، وكان لها بأيدي الفرنج مائة وخمسة وثمانون سنة، وكتب في هذا الفتح مجموعة من المكاتبات منها مكاتبة إلى صاحب اليمن، جاء فيها: "هذه الخدمة تقص من أنباء البشرى كل ما يسري ويسر، ويمري أخلاف النصر ويمر... وهو الهناء بما تسنى من فتح طرابلس الشام، وانتقالها بعد الكفر إلى الإسلام، وهو فتح طال عهد المسلمين بمثله، وقدح فت في عضد الشرك وأهله". ثم يصف حصارها والقتال الذي دار حولها: "فلما أمكنت الفرصة، وأخذنا في أمرهم بالعزيمة دون الرخصة، جنناهم بمثل السيل إذا طما، والسحاب إذا هما، والبحر وأمواجه، والبرد وفجاجة، والليل ونجومه، والليث وهجومه، فزلزلنا أقدامهم، وأزلنا إقدامهم، ولم تزل أقران الزحف ترميهم بالقوارض، وتأتيهم من البأس بما ترعد منه الفرائص، إلى أن وهى سلكها، ودنا هلكها، وفتحناها وقد أخليناها مقفرة المغاني، خالية الألفاظ من المعاني..." (٢)

وكان فتح عكا وتحريرها من أيدي الصليبيين عام ٦٩٠هـ من أعظم انتصارات المماليك على الفرنج، إذ كتبت في ذلك كتب البشائر، ونظم الشعراء قصائد المدح في السلطان الأشرف خليل، فمما كتب من تلك المكاتبات في وصف حصارها: "قتمكنا من المرور، ووجدنا سبيلاً إلى العبور، وضرب بيننا وبين الأعداء بسور، وشرعنا في ردم الخندق الذي بين السورين بمخالي الخيل مملوءة بالتراب، مع ما تيسر من الأخشاب، فصار طريقاً سالكاً، وكان رأياً مباركاً، وسمع به السلطان فأعجبه، وركب بنفسه، وحضر بالكوسات والطبلخانات، وضربت عند الصباح ولاحت تباشير الفلاح، وحصل الزحف عليهم من ذلك المكان وغيره، وطلعت عليهم العساكر بالسناجق السلطانية، وأثخنوا في مقاتلة الفرنجية، وتمكنوا من المدينة، وبذلوا فيها المناصل، وأعملوا العوامل وسبوا الولدان والحلائل، وحقق الله في الفتح الظنون، وأقر به العيون، واستبشر يومئذ المؤمنون، وعلت الفرنجة ذلة وصغار، وانكسروا كسراً ما له انجبار..." (٣)

(١) ذيل مرآة الزمان: ٢٤٥/٤ - ٢٤٨

(٢) تذكرة النبيه: ١٢٢/١ - ١٢٣

(٣) السلوك: ملحق رقم ١٠: ج ١٠٠٤/١

هذه صورة لبعض الأحداث العسكرية، والمعارك والفتوحات التي خاضها سلاطين المماليك ضد الصليبيين، تكشف لنا بحق عن قدرة النثر على مواكبتها، ووصفها وصفاً دقيقاً موثقاً بالزمان والمكان.

وكما واكب النثر المعارك التي خاضها المماليك ضد الصليبيين، فقد تمكن أيضاً من مواكبة الأحداث العسكرية التي خاضوها ضد التتار وأعوانهم، ولعل أولى هذه المعارك وأولاًها بالتسجيل والتخليد انتصار المسلمين على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، بقيادة السلطان قطز، وقد كتبت في ذلك رسائل البشرى، منها رسالة كتبت إلى صاحب اليمن: "فصدرت هذه التهنية إليه راوية للصدق عن اليوم المجمل الأغر:

يوم غدا بالنقع فيه يهتدي من ضل فيه بأنجم المران

ففي أذن الدهر من وقعه صمم، وفي عرنين البدر من نقه شمم، ترفعه رواة الأسل عن الأسنة، ويسنده مجر العوالي عن مجر الأعنة، أما النصر الذي شهد الضرب بصحته والطعن بنصيحته، فهو أن التتر خذلهم الله استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستجدوا بقبائلهم على الإسلام، فاعتاضوا عن الصحة بالمرض، وعن الجوهر بالعرض، وقد أرخت الغفلة زمامهم، وقاد الشيطان خطامهم، وعاد كيدهم في نحورهم... هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها، جاذبة عقبانها في وكور ظباها، رابضة آسائها في غيل أقناها، وماتزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لها ناسخة... ولم تنزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونسخت آية الليل بسورة الشمس... إلى أن تراءت العين بالعين، واضطرم نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً... واقتنصت آساد المسلمين المشركين اقتناصاً، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصاً، حتى صار كافور الدين شقيقاً، وتلون الحصباء من الدماء عقيقاً، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد." (١)

كما خلد النثر ذكرى هذه المعركة أيضاً من خلال المكاتبات التي بعث بها المغول إلى سلاطين المماليك قبل هذه المعركة. (٢)

وفي سنة ٦٨٠هـ كان التتار قد توجهوا نحو حماة وحمص، فكانت عساكر السلطان قلاوون لهم بالمرصاد، فمزقتهم كل ممزق، فأرسل السلطان إلى الملك المظفر صاحب اليمن يبشره

(١) صبح الأعشى: ٣٨٦/٧ - ٣٨٨

(٢) انظر: بدائع الزهور: ٣٠٤/١، صبح الأعشى: ٦٤/٨ - ٦٥، السلوك: ٤٢٧/١ - ٤٢٨

بهذا النصر، فيصف جيش المغول وكثرة عدده وعدده: "وذلك بأن التتار المخدولين جمعوا كل من اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجميع بمفرده، وانتخبوا كل شجاع لا يالف غير ظهور الجياد من يوم مولده." كما يصف استعداد جيش المسلمين لملاقاتهم: "ومولانا السلطان وجنوده في غيلهم رابضون، أو على سيوفهم قابضون..."، وفي وصف اللقاء مع الأعداء يقول: "فارسل الله ملائكة النصر ترمي، وجرّد سيوف الظفر تحز الرقاب وتدمي، وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سمع أن سلطاناً ثبته، وأطلع الله على ما نواه من نصر الدين فتقبله بقبول حسن، وأنبته، وكان العدو في مائة ألف مقاتل مقابل، مناصل مناضل، مصارم مصادم، مكالب مكالم، فصبّروا على حرّ العلاقم، وأرادوا أن الموت خير لهم من الهزائم، فلم يفلت منهم إلا من استمهل السيف ساعة من نهار، وفر بعضهم والموت يقول لهم قل لن ينفعكم الفرار..." (١)

وفي سنة ٦٩١هـ تتوجه جيوش المسلمين بقيادة الأشرف خليل إلى قلعة الروم، فتحاصرها جيوشه، وترمى بالمنجنيقات، فيطلبون الأمان لأنفسهم، فيؤخذون جميعاً أسرى، ويأمر السلطان بتغيير اسم القلعة بعد تحريرها، وتسمى قلعة المسلمين الأشرفية، ويسجل النثر هذا الحدث من خلال كتب البشري بهذا الفتح، منها: "وذلك أنا زكينا لغزوها من مصر، وقد كان من قبلنا من الملوك يستبعد مداها، ويناديها فلا يجيب إلا بالصد والاعراض صداها... ومازلنا نصل السرى بالسير، ونرسل الأعنة إلى نحوها فتد الجياد أعناقها إليها مدّاً ينقطع بين قوتها وقوته السير...". ثم يصف هذه القلعة ووعورة مكانها: "واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى وعر المنتقى، شامق لا يلتقي به مسلك ولا يلتقى..."، ثم يصف حصارها وضربها بالمنجنيقات: "قلما أشرف عليها منا أشرف سلطان جعل جبلها دكاً، وحاصرناها حصاراً ألحقها بعكا وأخواتها، وإن كانت أحصن من عكا، ونصبنا عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور، وتقبض الأرواح من الأجسام، وإن ضرب بينها وبينهم بسور، وتفترس أبراجها بصقور صخور، افتراس الأسد الهصور"، وأخيراً يبين فتحها وتحريرها: "ولما أذن الله بالفتح الذي أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب، والمنح الذي أضفى على أهل الإيمان من المجاهدين أثواب الثواب، فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره في يوم السبت حادي عشر شهر رجب، فسبحان من سهل صعبها، وعجل كسبها، وأمكن منها ومن أهلها، وجمع شمل الممالك الإسلامية بشملها..." (٢)

وفي عام ٦٩٩هـ يهاجم المغول بلاد الشام، فتتصدى لهم جيوش السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ولكن الهزيمة تكتب لجيش المسلمين، فيتقدم المغول إلى دمشق، ويجتمع ابن تيمية

(١) تاريخ ابن الفرات: ٢٢٣/٧ - ٢٢٤

(٢) السلوك، ملحق رقم ١١، ج ١: ١٠٠٥ - ١٠٠٦، وانظر أيضاً المصدر نفسه: ١٠٠٧/١ -

١٠١٠ وعقد الجمان: ١١٢/٣ - ١١٨، وتذكرة النبيه: ١٥٠/١ - ١٥٣

بقادتهم، ويأخذ الأمان لأهل دمشق، فيرسل سلطانهم قازان الأمان لدمشق، جاء منه: "قصرت مراسمتنا العالية ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها، وتباين أجناسها، واختلاف لغاتها، لدمشق وأعمالها الشامية الإسلامية، وأن يكفوا أظفار المتعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم..." (١)

ونتيجة لذلك يوجه غازان فرماناً بتولية قبجق نيابة الشام، (٢) ولكن المغول أخلفوا بوعودهم، فهاجموا دمشق، وعاثوا فيها فساداً، (٣) وعلى أثر ذلك يوجه ابن تيمية إلى سلطان مصر رسالة يحثه فيها على قتال التتار، وقد جاء فيها: "وليست هذه النوبة كذلك، فإن تلك المرة كان فيها أمور لا يليق ذكرها، عفا الله عنها، وما فعله الله بالمسلمين كان أحمد في حقهم، ثم لا شك أن الله ينصر دينه، وينتقم من أعدائه..." (٤)، فيصر السلطان الناصر على الأخذ بالتأثر، ويبدأ بتجنيد الجيوش وإعادة تنظيمها وترتيبها للقاء التتار، ولم تمض فترة طويلة، حيث يخرج السلطان بجيوشه مرة أخرى إلى بلاد الشام للقاء التتار، ففي عام ٧٠٢ هـ يكون اللقاء بين المسلمين والمغول في مرج الصفر، فيكون النصر حليف جيش المسلمين، وتكون هذه الواقعة حاسمة في تاريخ الصراع بين المسلمين والتتار، فتكتب في ذلك رسائل البشري، حيث تصف حركة الجيش، وتبين عددها وعددها، كما تصف اللقاء، ونتيجة المعركة وأثارها، ومنها كتاب البشارة الذي أرسل إلى مصر: "تعلمه أن التتار المخذولين كانوا قد امتدوا إلى البلاد المحروسة، ووصلوا إلى حمص، وتعدوا جهة دمشق... وعند وصولنا إلى مرج شقحب ساق التتار المخذولون، ووصلوا إلى المنزلة التي نحن بها، وكانوا في العدد الذي لا يحصى، ولوقت قابلناهم بالعزائم الصادقة والنيات الخالصة، وركبنا بالجيوش المؤيدة، وصدمناهم بالعساكر المنصورة الصدمة العظمى، ومازال الحرب إلى أن نصرنا الله تعالى عليهم، وقتل منهم ما لا يحصى عددهم إلا الله..." (٥)

ومما كتب في هذه المعركة: "وتقدمت العصائب، وحمل عليهم السلطان، فحل بهم البلاء من كل جانب، وخسرت صفقة المخذولين، وانقلبوا على أعقابهم خائبين مغلوبين، ونكست أعلامهم، وبطل إقدامهم، وزلزلت أقدامهم، واشتد بهم الخوف والوجل، وأيقنوا بالهلاك وحلول الأجل، ومالوا إلى الفرار واعتصموا بالجبل، فأحاطت بهم الجيوش والعساكر، ودنت منهم الجحافل التي

(١) كنز الدرر: ٢٠/٩ - ٢٣

(٢) انظر المصدر نفسه: ٢٥/٩

(٣) انظر المصدر نفسه: ٢٨/٩

(٤) ابن تيمية: رسالة إلى السلطان الملك الناصر: ١٨

(٥) عقد الجمان: ٢٥٥/٤ - ٢٥٦

لا يعرف لها أول ولا آخر، فلما تحقق المخذولون الهلاك، وثيقن كل منهم وتحقق أن لا معدل له عن الموت ولا فكاك، ألقوا أنفسهم إلى العطب، وجدوا أجمعين في الهزيمة والهرب..."(١)

مما سبق، نتبين أن النثر قد واكب المعارك الحربية التي خاضها المماليك ضد أعدائهم من الصليبيين والمغول، وعاش مع أحداثها لحظة بلحظة.

ثانياً: تمثيل النثر للحياة الاجتماعية.

أ - تمثيله لطبقات المجتمع وواقع كل طبقة.

كان المجتمع في العصر المملوكي ينقسم إلى طبقتين رئيسيتين: الأولى: طبقة الحكام من الأمراء المماليك، وهم أصحاب السلطة، يحتكرون مزاولة مختلف النشاطات السياسية والعسكرية، أما الطبقة الثانية فهي: عامة الشعب أو جمهور الشعب المصري والشامي والحجازي، أو أهل البلاد على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم المعيشية المختلفة.

وقد قسم بعض مؤرخي العصر المجتمع إلى سبع طبقات هي: الأولى: أهل الدولة. والثانية: أهل اليسار وأولو النعمة من ذوي الرفاهية، والثالثة: الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز، والرابعة: أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف، والخامسة: الفقراء، وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة وغيرهم، والسادسة: أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن، والسابعة: ذوو الحاجة والمسكنة، وهم السوأل الذين يتكفون الناس، ويعيشون منهم. (١)

أما طبقة المماليك، أو أهل الدولة، فلهم المغنم كله، بينما كان على طبقة العامة الغرم كله، إذ جنى بعض أمراء المماليك أموالاً طائلة أثناء حكمهم وولاياتهم، وسوف أذكر، على سبيل المثال، بعض ما أورده المصادر من أموال أحد الأمراء، وهو سلال الصالح المنصوري، عند الحوطة عليها: "قال شمس الدين الجزري: قيل: إنه أخذ له ثلاثمائة ألف دينار، وشيء كثير من الجواهر الحلي والحلل والسلاح والغلال مما لا يكاد يحصر، قال: دفع إلي جمال الدين بن الغوييرة ورقة بتفصيل بعض أموال سلال وقت الحوطة عليه في أيام متعددة: يوم الأحد: تسعة عشر رطلاً بالمصري، زمرّد، ياقوت رطلان، بلخش رطلان ونصف، صناديق ستة ضمنها جواهر وفصوص ألماس وغيره، لؤلؤ كبار مدور من زنة درهم إلى مثقال، ألف ومائة وخمسون حبة ذهب، مائتان وألف وأربعون ألف مثقال، دراهم أربعمائة ألف وسبعون ألف درهم..." ثم يحصي أشياء قريبة من ذلك في أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء، بالإضافة إلى أشياء أخرى... (٢)

ومثل هذه الأموال أو المزيد منها في أملاك نائب الشام الأمير تنكز. (٣)

(١) انظر: إغاثة الأمة، المقريري: ٧٢ - ٧٥

(٢) فوات الوفيات: ٨٨/٢ - ٨٩

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٥/١ - ٢٥٨

إذن، فبينما نرى أن أمراء المماليك يملكون مثل هذه الآلاف المؤلفة من الدنانير والذهب واللاذليء والجواهر والدراهم، كان عامة الشعب يعانون من الفقر والمجاعات وغلاء الأسعار، ففي عام ٦٩٤هـ، وبعد تولي زين الدين كتبغا السلطنة، وقع الغلاء بالديار المصرية، ثم انتشر في البلاد الشامية، إذ ارتفع سعر القمح حتى بيع كل إردب بمائة وعشرين درهماً بعد أن كان بخمسة وعشرين درهماً (١)، ثم عظم أمر هذا الغلاء حتى أكل بعضهم الميتات والكلاب، ومات خلق كثير بالجوع. (٢)

هذا، وقد أثرت مجموعة من العوامل والأسباب في انتشار ذلك الغلاء، منها: عوامل طبيعية أو آفات سماوية كقصور جريان النيل بمصر، وعدم نزول الأمطار بالشام أو العراق أو الحجاز أو غيرها، أو آفات تصيب الغلال من سمائم تحرقها، أو رياح تهيفها، أو جراد يأكلها، وما شابه ذلك. (٣)

ومنها أيضاً التأثير بالأحوال السياسية والخارجية، نتيجة للفتن والخلافات التي كانت تحدث بين أمراء المماليك، أو نتيجة لعدوان خارجي، فعندما يسمع الناس بهجوم التتار مثلاً، فإن الأسعار ترتفع إلى درجة كبيرة، ففي عام ٦٩٨هـ يسمع الناس بخروج التتار نحو بلاد الشام، فترتفع الأسعار بدمشق حتى "بيعت الغرارة من القمح بثلاثمائة درهم، والرطل اللحم بتسعة دراهم، فلما خرج الجفل نزلت الغرارة إلى مائتي درهم." (٤) بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الأسباب يذكرها المقرئزي. (٥)

وعلى الرغم من هذا البون الشاسع، والهوة السحيقة بين هاتين الفئتين من فئات الشعب، فقد حرص سلاطين المماليك على إزالة المظالم الواقعة على الناس من الولاة أو الأمراء، وذلك تخفيفاً عنهم، ومحاولة لكسب حبهم ودعمهم، فقد كان قبل سلطنة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون يؤخذ من الناس عند باب الجابية بدمشق، عن كل حمل خمسة دراهم مكساً، فعندما تسلطن وردت إلى دمشق مسامحة بإسقاط هذا، وبين سطور المرسوم بقلم العلامة بخطه: "لتسقط عن رعايانا هذه الظلامة، ويستجلب لنا الدعاء من الخاصة والعامة." (٦)

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون حريصاً على تتبع أخبار الولاة والنواب، وعندما يصل إلى مسامعه سوء تصرف بعض الولاة، يعمد إلى عزله ومصادرة أمواله، ففي عام ٧٣٤هـ

(١) انظر: النجوم الزاهرة: ٥٧/٨

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٦٠/٨، وانظر: تاريخ ابن الفرات: ٢٠٨/٨ - ٢٠٩، وفيما أصاب الناس من مجاعات في دولة المماليك: انظر: إغاثة الأمة: ٣٢ - ٤١

(٣) إغاثة الأمة: ٤١

(٤) السلوك: ٩٠٩/١ (٥) انظر: إغاثة الأمة: ٤١ - ٤٧

(٦) النجوم الزاهرة: ٢٦/٨

يقبض على ألماس الحاجب، وتصادر أمواله، فكان عدة الحماليين الذين يحملون أمواله واحداً وثمانين حمالاً، على رأس كل منهم من الدراهم النقرة ثلاثون ألف درهم، فكان جملة ذلك ألفي درهم وثلاثمائة ألف وتسعين ألف درهم، وبعدها ستة حماليين يحملون الذهب العين وغير ذلك، وقد حصل هذه الأموال من جوانب الظلم والجور وعدم الإنصاف، بالإضافة إلى تجارة الخنازير. (١) كما يصل إلى علمه أيضاً سوء اعتماد بعض الولاة في حق الرعية، فيعزل الجميع، وتصادر أموالهم، كما ينفي بعضهم، ويعاقب البعض الآخر. (٢)

وهكذا، فقد حاول بعض الولاة والسلاطين التقرب من أبناء عامة الشعب، وتجسير الفجوة القائمة بين فئتي المجتمع، وقد حرم الكبت والاضطهاد السياسي الذي تمارسه الطبقة الحاكمة ضد أبناء الشعب، حرّمهم ذلك من التعبير عما في نفوسهم من كراهية لهذه الطبقة، ونستطيع أن نستخلص بعض جوانب هذه الكراهية الكامنة في اللاشعور الجمعي عند أبناء هذه الطبقة من بعض العبارات الواردة في الأدب، ويرد ذلك في "المقامة الأنطاكية" لابن الوردي، حيث يورد حواراً بين الراوي والوالي المدينة، يبين الراوي من خلاله بعض محاسن المدينة، بينما يرد الوالي بذكر مساوئها، مما يشير إلى عدم انتماء الوالي إلى هذه المدينة، فهو غريب عنها، ويصرح الوالي بذلك حين يسأله الراوي عن سبب إقامته في هذه المدينة على الرغم من كراهيته لها، فيجيب: "الزمني أن أقيم، مرسوم كريم، ممن غمرني بالعطا، وإذا خولف سطا، فكيف الخلاص؟ ولات حين مناص" (٣)

فإذا عرفنا أن النائب يتوجه إلى الإمارة التي يقلده إياها السلطان، أدركنا صحة ما ذهبنا إليه من عدم انتماء الولاة إلى إماراتهم التي يولون عليها. أما ما يذكره هذا الوالي من مساوئ أنطاكية، فيأتي من خلال هذا الحوار بين الراوي والوالي: "قلت: لله در فصاحتك، ما السبب في عدم راحتك؟ قال: لقد جمعت هذه المدينة بين عرب وروم، فأنا معهم في الحي القيوم، لا أطيق فيهم قراراً، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً، ومن يطيق الجمع بين الضدين؟ أم من يقدر على موالاة ندين؟ وكيف يظفر ساكن أنطاكية بنيل الأرب، وقد حنيت أضلع العجم على بغض العرب؟ كم أجد ويلعبون، وهم من بعد غلبهم سيغلبون."

من كل فظ أعجمي غث الكلام مذمم
إن نبهته مروءة فتقول عجمته: نَمْ

قلت: قصر عن خطاك خطاك، واشكر من أنطاك أنطاك. (٤)

(١) انظر: كنز الدرر: ٣٧٣/٩

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٣٧٨/٩

(٣) ديوان ابن الوردي: ٣٥

(٤) المصدر نفسه: ٣١ - ٣٢

إن الناظر في هذا الجزء من المقامة، يدرك أن الكاتب يعني كل لفظة أوردها، فالمدينة تجمع ضدين هم: العرب والعجم، وهذا حال مدن مصر والشام جميعاً في هذا العصر، إذ لا يستطيع ساكن المدينة أن يظفر بحاجته وأربه في ظل هذا التركيب السكاني في المجتمع، ويصرح الكاتب بما يريد قوله حين يقول: "إن العجم طبعوا على بغض العرب"، مهما حاولوا التقرب إليهم، كما يعبر عن الرغبة الجماعية في التخلص منهم ومن حكمهم، بل يتماذى أكثر من ذلك، حين يسخر منهم ومن أخلاقهم وطبائعهم، ولكن الكاتب يدرك أنه قد تماذى في الكلام، وصرح أكثر مما ينبغي له، وفطن إلى أنه قد يفهم قصده من هذا الكلام، فيوجه الخطاب لنفسه على لسان الراوي: "قصر عن خطاك خطاك"، فإن فهم أحد ما يقصد من هذا الكلام، فإن الكاتب يعده خطأ قد تراجع عنه.

وعلى الرغم من وجود مثل هذا التنافر القائم بين هاتين الفئتين في المجتمع، إلا أن الأزمات والخطوب قد تقرب بينهما، فعندما يداهم الأمة عدوان خارجي، يتعاون الجميع لصدده ودفعه، ومن ذلك حادثة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ عندما يهاجمها الفرنج فيما يزيد عن سبعين قطعة حربية ما بين قرمور وغراب وشيني... ثم خرجوا إلى الساحل، وتأهب الناس لقتالهم، وكان الثغر قد خلا من المجاهدين، فانتهاز الفرنج الفرصة، وهاجموا الثغر، فخرج المسلمون لقتالهم، فلما تكاثر المسلمون من العربان وأهل الثغر عند المنار، خرج لهم غراب حتى قارب السور، فقاتله المسلمون قتالاً شديداً، قتل فيه عدة من الفرنج وجماعة من المسلمين، وخرج إليهم أهل المدينة، وصاروا فرقتين: فرقة مضت مع العربان نحو المنار، وفرقة وقفت تقاتل الفرنج بالغراب فضرب الفرنج عند ذلك نفيرهم، وحملوا على المسلمين، ورمى الفرنج الذين في المراكب بالسهم، فانهزم المسلمون، ونزل الفرنج إلى نهر، ودخلوا المدينة، وقتلوا ونهبوا وأسروا، ثم هربوا إلى البحر لما أحسوا بمجيء العساكر المملوكية. (١)

وقد ظهر أثر ذلك في الأدب، فقد تكلم أهل الأدب فيها نظماً ونثراً، وأنشأ في هذا الحادث الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة مقامة، منها: "بينما الناس في غفلاتهم وظلم ولاتهم، لا يتناهون عن منكر، ولا يرون مع ارتكاب الكبائر إلا كل آية هي أكبر، إذ دهمهم بالثغر ما اصطكت به أسنانه، ونعقت بالبين غريانه، من كل غراب أسرع من عقاب، وفرقورة أشأم من غراب... فاسود البحر الأزرق من بني الأصفر، وفتح الباب الأخضر، فأخذ الناس في أهبة النزال، وحركة القتال، وخرجوا كقرية النمل، وانتشروا على الساحل كالرمل، وكان الثغر قد خلا من الضروس، ومحيت عنه آية الدبوس:

ونام عنها تولى أكلها السبع

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة

فانتهاز الفرنج هذه الرقعة، وقدموا بنفوس فيها كالسيوف حدة، فبرز إليهم من المتطوعة الأقلون، وتبعهم الأزدلون... فشاهد الناس يوماً مشهوداً، "هناك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً". وحضر من العربان كل عريان، أضر من السوس، وأشأم من البسوس، فكانوا سبب الكسرة وعدم النصر، فلا كثر الله منهم، ولا رضي عنهم..." (١)

واضح مما تقدم أن هذا النص يحمل أكثر من دلالة اجتماعية، فهو يبين بعض أسباب هذه الهزيمة، وهنا يكمن هدف الأدب، فعلى الرغم من أن هذه المقامة تبدو في ظاهرها مقامة تسجيلية، حيث تسجل الأحداث وتؤرخ لها، إلا أننا نلمح من خلالها نقداً سياسياً اجتماعياً، يبين أسباب هذا الحدث، وكأنه يلفت نظر المسؤولين إلى ضرورة تلافيها من أجل عدم تكرار مثل هذه الحادثة، فيذكر من بين هذه الأسباب: أولاً: إن الناس قد ركنوا إلى اللهو والغفلة، وخلدوا إلى الراحة، وتقاعدوا عن أداء الواجب المطلوب منهم في الجهاد والدفاع عن مدينتهم وأرضهم، وتركوا ذلك للعساكر، كما يشير ثانياً إلى بعد الناس عن الدين، فترتكب المحرمات والمنكرات، ولا تجد من ينهي عنها، ويدعو إلى تجنبها. وثالثاً ظلم الولاة والحكام المماليك. ويبين رابعاً أن من أسباب هذه الهزيمة إهمال الحكام، فالإسكندرية تعد ثغراً حدودياً يجب تأمين حمايته دائماً، وعدم الغفلة عنه، إذ يجب أن ترابط العساكر فيه على الدوام، أما وقد نام الحماة، وأهمل الحكام في هذا الواجب، فمن الطبيعي أن يداهم السبع هذه الأرض، ويفترس من أغنامها. تلك هي أسباب الهزيمة، كما يذكرها ابن أبي حجلة في مقامته، أما موضع استشهادنا بهذا النص، فهو انتلاف الجميع وتعاضدهم من أجل الدفاع عن هذه الأرض، فقد تعاونت قوى من تبقى من قوة حماية المدينة مع أهل المدينة والعربان لدفع هذا العدو الداهم، ولكنهم لم يثبتوا أمام هذه الكثرة من العدو المهاجم، بالإضافة إلى انعدام التخطيط والقيادة، وقد أشار إلى ذلك في قوله: "وكان من الرأي الصبر عليهم، وعدم الخروج إليهم، حتى تكمل العدة، وتصل النجدة." ويبين ابن أبي حجلة أن العربان كانوا من أسباب الهزيمة، ولعل ذلك يعود إلى عدم انضباطهم واتصافهم بالفوضى في القتال.

وقد استعان سلاطين وأمراء المماليك بأمراء العربان لحفظ أمن الثغور واستطلاع أمر العدو، وإعلام أولي الشأن بذلك، ولنستمع إلى ما يوصي به فضل بن عيسى أحد أمراء آل فضل، مما ورد في تقليده بإمرة قومه، صدر سنة ٧١٢هـ، يقول: "وليكن لأخبار العدو مطالعاً، ولنجوى حركاتهم وسكناتهم على البعد سامعاً، ولديارهم كل وقت مصباحاً، حتى يظنون* من كل ثنية عليهم طالعاً، وليدم التأهب حتى لا تفوته من العدو غارة ولا غيرة، ويلزم أصحابه بالتيقظ لإدامة

(١) تذكرة النبيه: ٢٨٩/٣ - ٢٩٠

* يظنون : وردت هكذا وصوابها : يظنوا.

الجهاد الذي جرب الأعداء منه مواقع سيوفهم غير مرة، وقد خبرنا من شجاعته وإقدامه، وسياسته في نقض كل أمر وإبرامه، ما يغني عن الوصايا التي ملاكها تقوى الله تعالى، وهي من سجاياه التي وصفت، وخصائله التي ألفت وعرفت، فليجعلها مرآة ذكره، وفاتحة فكره، والله تعالى يؤيده في سره وجهره بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى". (١)

ومما رسم به إلى مهنا بن عيسى أيضاً في إمرة آل فضل قوله ضمن ما يوصى به: "فليجر في ذلك على عادته التي لا نريد كمالها، ولا محيد عن مبدئها في مصالح الإسلام ومآلها، أخذاً للجهاد أهبته من جمع الكلمة واتحادها، واتخاذ القسوة وإعدادها، وتضافر الهمم التي مازال الظفر من موادها، والنصر من أمدادها، وإلزام أمراء العربان بتكميل أصحابهم، وحفظ مراكزهم التي لا تسد أبوابها إلا بهم، والتيقظ لمكايد عدوهم، والتتبع لكشف أحوالهم في رواحهم وغدوهم، وحفظ الأطراف التي هم سورها من أن تسورها مكاييد العدا، وتخطف من يتطرق إلى الثغور من قبل أن يرفع إلى أفقها طرفاً، أو يمد على البعد إلى جهتها المصونة يداً، وليبيت في الأعداء من مكاييد مهابتهم ما يمنعهم القرار، ويحسن لهم الفرار، ويحول بينهم وبين الكرى لاشتراك اسم النوم وحد سيفه في مسمى الغرار". (٢)

ويبدو أنه كان للمماليك استعانة أيضاً بالأكراد والتركمان، حيث يظهر من خلال ما يوصى به مقدم كل من هاتين الطائفتين، فمما يوصى به مقدم الأكراد: "وأنت عليهم الأمير، والجامع لهم بمشيئة الله على الطاعة، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير، فاعرف منهم ساكن كل عمود ودار، ومن قربت به أو بعدت الدار، وضمهم إلى كنف الاكتناف، والفهم بكلمة الائتلاف، وكن بهم على انتظار ما صرفنا إليه الوجه من الجهاد والتأهب بلبس الجلد للجلاد، واتخاذ أكابر فيهم لتصل منهم يدك بالبنان، ويشند بهم كما يشند بكعوب الرماح المثقفة السنان..." (٣)

ومما يوصى به مقدم التركمان: "فليجمع لنا طوائف التركمان، وليأمرهم بالاستعداد للجهاد فإنهم ترك الإيمان، ولا يدع منهم إذا رسمنا له من يلقم سهمه الوتر، ومن إذا جر قوسه

(١) صبح الأعشى: ١٢٠/١٢ - ١٢١

(٢) المصدر نفسه: ١٢٣/١٢

(٣) التعريف: ١٤٨ - ١٤٩

رأى منه طالعاً في العقرب القمر..." (١)

هذا، ويبدو لنا أن الهم الأول الذي كان يورق سلاطين وأمراء المماليك نحو هذه الطوائف، هو حفظ الأمن بينهم، وعدم إخلالهم بالأمن، ومن أجل ذلك يركز في الوصايا المقدمة إلى أمرانهم على الإبقاء على حالة النفي العام بينهم، وعلى جمع كلمتهم، وتوجيه قوتهم نحو ما يفيد المسلمين، كي لا يتفرغوا لإخلال الأمن، وتؤيد الروايات التاريخية ذلك، فقد هبت الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم لقتال التتار سنة ٦٥٨هـ، إذ بعد توجه هولاء إلى مصر، جمع السلطان قطز الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير للقاء العدو، فقبض على الرسل واعتقلوا، ولما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان خرج المظفر قطز بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل، يريد الصالحية..." (٢)

هذه صورة لحالة طبقات المجتمع في العصر العباسي الأول، تبينها كما كشف عنها النثر، وجلى لنا الكثير من خفاياها.

ب - تمثيله لكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية.

يكشف لنا النثر في العصر المملوكي الأول عن كثير من العادات والتقاليد التي كانت شائعة بين طبقات المجتمع في ذلك العصر، وسأحاول الكشف عن ذلك عند طبقة المماليك أولاً.

لقد أظهر المماليك المزيد من التألق في كثير من جوانب حياتهم المختلفة، وبخاصة الجوانب الرسمية منها، ويبدو الكثير من مظاهر هذا التألق في مراسيم مبايعة الخليفة، أو تفويض الخليفة للسلطان، أو تفويض ولي العهد بالسلطنة، وكذلك لدى استقبال الرسل، أو خروج السلطان في موكب عام... أو غير ذلك من المظاهر المختلفة، وقد صرح القلقشندي بذلك في حديثه عن دولة المماليك، فقال: "وجاءت الدولة التركية، وقد تنقحت المملكة وترتبت، فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب، وتنفيذ الملك وقيام أبيته، ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها، فسلكت سبيله، ونسجت على منواله، حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب، وفاقت سائر الممالك، وفخر ملكها على سائر الملوك." (٣)

(١) التعريف: ١٥

(٢) السلوك: ٤٢٩/١

(٣) صبح الأعشى: ٤/٤

فمن عاداتهم عند مبايعة الخليفة على سبيل المثال: أن يجلس السلطان والخليفة، ثم يدعى الوزير وقاضي القضاة والأمراء حسب طبقاتهم، ويقرأ نسب الخليفة على القاضي، ثم يشهد عنده بصحة ذلك، فيسجل ذلك، ويحكم القاضي به، ثم يبايعه، ويبايعه السلطان، ثم الوزير ثم الأمراء على اختلاف مراتبهم، ثم يلبس ملابس الخلافة، ويخطب في الناس، وتبدأ المراسيم من أجل تقليد السلطان السلطنة. (١)

وأما مراسيم تقليد الخليفة للسلطان، فتكون بإعداد المكان المناسب لذلك أولاً، ثم ركوب السلطان والخليفة إلى ذلك المكان، ويدخل السلطان ليلبس الملابس الخاصة بذلك، وهي: عمامة سوداء مذهبية مزركشة، ودراعة بنفسجية، وطوق وعدة، ويتقلد بسيف وسهمين كبيرين وقوس، وغير ذلك مما جرت به العادة، ثم يركب فرساً مزينة بأنواع الزينة المختلفة، ثم يخلع على الأمراء واحداً واحداً، ثم يقرأ صاحب ديوان لإنشاء التقليد على الناس كافة، حيث يركب السلطان، ويبدأ الموكب السلطاني يشق المدينة، بعد أن تنزين له، ويحمل التقليد مجموعة من الأمراء، ويسير حتى يصل إلى القلعة. (٢)

ومما يشابه ذلك من العادات تفويض عهد السلطنة لأحد أبناء السلطان. (٣)

وكان من عادة سلاطين المماليك لدى استقبال الرسل أن يظهرُوا من التأنق والترتيب ما يبهّر الرسل، ويثير إعجابهم، فمن ذلك لدى استقبال رسل التتار، حيث خلع السلطان على الأمراء والمقدمين، وحضروا أمام السلطان بهذه الخلع السنية، وتلك الهيئة الجميلة ما أذهل عقول الرسل، ثم أحضر الرسل في الليل إلى الدهليز بين يدي السلطان، وقد أوقدوا شموعاً كثيرة، ومشاعل عديدة، وفوانيس وأشياء كثيرة تتجاوز عن الحد، ثم يعطى الرسل الجواب، ويخلع عليهم... (٤)

كما حرص سلاطين المماليك على عرض قواتهم أمام الرسل، فقد تزامن وجود رسل بركة خان مع زواج الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس على ابنة الأمير قلاوون، فأقيم لذلك عرض كبير للعساكر، لبسوا فيه أجمل العدد، وركبوا في يوم واحد، وقصدوا السلطان، ولبس المماليك السلطانية الجواشن والخوذ، وعملت الأبرجة الخشب على القيلة. (٥) وقد سجل النثر ذلك، فقال محيي الدين بن عبد الظاهر في وصف ذلك اليوم: "فلا تقع العين إلا على خوذ لامعة، وأنوار ساطعة، وخيول تصهل، وجنود تقبل، وأطلاب سائقة، وعساكر متلاحقة، وساق كل أمير

(١) انظر: ذيل مرآة الزمان: ٤٤٢/١

(٢) انظر: الروض الزاهر: ١٠١ - ١١٠، ذيل مرآة الزمان: ٤٤٢/١ - ٤٤٣

(٣) انظر: الروض الزاهر: ٢٠٤

(٤) النجوم الزاهرة: ١٤٢/٨

(٥) انظر: السلوك: ٦٢٦/١

في طلبه لابساً لامة حربه، وجروا من الجنايب خيولاً كأنها الرياح في المطاردة، والجبال في المشاهدة، عليها من عدد الحروب ما تظمن به من الممتطين لصولتها القلوب، وأمر السلطان بأن لا يلبس أحد في هذا اليوم إلا ما هو من شعار الحروب." (١)

وفي استعراض أحداث ذلك اليوم، يقول المقرئ: "ثم نصب القبق بالميدان الأسود تحت القلعة، ورموا النشاب، وأنعم السلطان على كل من أصاب القبق من الأمراء بفرس من الجنايب الخاص، بسرجه ولجامه وتشاهيره، وأنعم على من أصاب من المماليك والأجناس بالخلع، والسلطان يسعى وقد تنوع في لأمات حربه، وساق بالرمح أحسن سوق، حتى تعجبوا من فروسيته، ثم ترتب العسكر من جهتين، واصطدموا وتطاعنت الفرسان، وكان السلطان بينما يراه الناس آخراً قد شاهدوه أولاً، وهو لا يسأم من الكر والفر، وشاهد الناس منه ومن الملك السعيد ما يبهر العقول، وتواصل الطعن بغير جراح، والسلطان بين تلك الصفوف لا يخاف، ثم خلع السلطان على الأمراء والمقدمين وأرباب المناصب، هذا ورسلك الملك بركة حاضرون، ثم مدت الأسمطة، وحضر السلطان والناس إلى خدمته إلى أن أخذوا حاجتهم من الطعام والحلاوات." (٢)

وفي وصف القبق هذا مما يجري في احتفالاتهم، ما عمل في ختان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٠هـ: "نصب السلطان القبق ظاهر القاهرة، خارج باب النصر، وصفة ذلك أن ينصب صار طويل، ويعمل على رأسه قرعة من ذهب أو فضة، ويجعل في القرعة طير حمام، ثم يأتي الرامي بالنشاب، وهو سائق فرسه، ويرمي عليه، فمن أصاب القرعة وطير الحمام خلع عليه خلعة تليق به، ثم يأخذ القرعة..."

وكان من عادة المماليك عند عودة السلطان وعساكره منتصرين، أن يقيموا لذلك احتفالاً عظيماً، فعندما توجه الأشرف خليل بن قلاوون من دمشق قاصداً الديار المصرية سنة ٦٩٠هـ، بعد انتصاره في عكا وتطهير آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، رسم لأهل الأسواق بدمشق وظاهرها، أن كل صاحب حانوت يأخذ بيده شمعة، ويخرج إلى ظاهر البلد، وعند ركوب السلطان يشعلها، فبات أكثر أهل البلد بظاهر دمشق لأجل الوقود والفرجة، فلما كان الثلث الأخير من الليل ركب السلطان، وأشعلت الناس الشموع، فكان أول الشمع من باب النصر، وآخر الوقود عند مسجد القدم، لأن والي دمشق كان قد رتبهم من أول الليل، فكانت ليلة عظيمة لم ير مثلاً لها." (٤)

(١) الروض الزاهر: ٢١٠ - ٢١١

(٢) انظر: السلوك: ٦٢٦/١ - ٦٢٧، الروض الزاهر: ٢١٠ - ٢١٤

(٣) النجوم الزاهرة: ١٦/٨

(٤) المصدر نفسه: ١٣/٨

وعند عودة السلطان الناصر محمد إلى القاهرة بعد انتصاره على التتار في وقعة مرج الصفر ٧٠٢هـ، اتفق الأمراء على أن يصنعوا زينة مفتخرة يراها السلطان والعسكر، فطلب من سائر الأمراء بأن يعمل كل أمير قلعة، ويتم تزيينها بأفخر ملبوس، ويكون ذلك من باب النصر أحد أبواب القاهرة إلى باب السلسلة أحد أبواب قلعة الجبل، وأعلموا أنه يجب الانتهاء منها مع نهاية شهر رمضان، ومن تأخر كانت روحه وماله للسلطان، وكتبت مراسيم لسائر الأقاليم أنهم لا يدعون في بلاد الأمراء من مغاني العرب، ولا من أرباب الملهي أحد، إلا ويرسلونه إلى المدينة، وتكون في قلعة ذلك الأمير، ويرتب لكل أمير مكان يقيم فيه قلعته، وقد جند لذلك الصناعات في المدينة، وعملوا قلاعاً حسنة عظيمة، ووضعوا فيها آلات الحرب والحصار، وجعلوا فيها من الصور المضحكة والوحوش والخيالة والفرسان، وزين كل أمير قلعته بأفخر ما يقدر عليه من الفصوص واللآلئ والحريير والزرر كمش والأشياء المفتخرة، وكانت أول القلاع على باب النصر صنعها متولي المدينة، حيث صنع فيها من كل شيء من الهزل والجذ، وعمل أحواضاً للسكرك والليمون، وعين هنالك ممالك بأيديهم كاسات يسقون الجند والأمراء، ولدى وصول السلطان إلى باب النصر، ترجلت أرباب الوظائف، وسارت الأمراء في منازلها... (١)

هذا، وقد كثرت عند السلاطين والأمراء عادة المهاداة، بأن ترسل الهدايا صحبة الرسل إلى الملوك الآخرين، وأن يتلقوا مثل هذه الهدايا، كما جرت العادة أن يخلع السلطان على الأمراء بعض الخلع والهدايا في المناسبات المختلفة، كأن يخلع عليهم الخلع، أو ينعم عليهم بالخيول والجوارح المختلفة من صقور وشاهين أو ضواري كالفهود والأسود، أو الإنعام بالسلاح، وكان يكتب مع ذلك الرسائل المختلفة، حيث سجل النثر ذلك. (٢)

هذه بعض عادات الممالك المتبعة في المراسم المختلفة، وأما ملاهي هذه الطائفة فكانت متنوعة أيضاً، منها ما يرتبط بمواسم خاصة، ومنها ما لا يرتبط، فمما يرتبط من ملاهيهم بمواسم معينة مثلاً: ركوب السلطان في الميدان الكبير وذلك عند وفاء النيل من كل سنة، وكان وفاء النيل من كل سنة مناسبة للاحتفالات الرسمية والشعبية، فعلى المستوى الرسمي تكتب كتب البشارة بوفاء النيل إلى الأقاليم والولايات المختلفة، وقد مرت بنا نماذج من تلك الكتب، (٣) كما كان ذلك مناسبة للاحتفالات رسمية أيضاً، حيث يركب السلطان إلى الميدان الكبير، ويجهز إلى أكابر النواب خيولاً، ويرسم لهم بالركوب في ميادين الممالك للعب الكرة تأسيساً بالسلطان،

(١) انظر: عقد الجمان: ٢٥٦/٤ - ٢٥٧

(٢) انظر: صبح الأعشى: ٣٥٤/٨ - ٣٥٩

(٣) انظر: حسن المحاضرة: ٣١٦/٢ - ٣١٩

وتكتب لهم كتب بذلك، ومنها ما صدر لنانب طرابلس سنة ٧٦٠هـ، يقول فيها: "صدرت هذه المكاتبة تهدي إليه من السلام والثناء كذا وكذا، وتوضح لعمله الكريم أننا نتحقق عزائمه حرباً وسلماً، واعتلاء هممه التي تحرس بها الممالك وتحمي، وأن صوافنه ترتبط لتركض، وتحبس لتنهض، فكذلك نعلمه من أنباء استظهارنا ما يبهج خاطره، ويقر ناظره، وهو أننا لما كان في يوم السبت المبارك خامس شوال، توجه ركابنا الشريف إلى الميدان السعيد، وفاض به جودنا فاخضرت مروجيه، وظهر به نيرنا الأعظم فأشرقت أفاقه، وتشرفت بروجيه، وأقر العيون منير وجهنا المبارك وبهيجه، وغدا كل ولي بموالاة إنعامنا مشمولاً، وبمنالات إكرامنا موصولاً، وركض الأولياء بين أيدينا جياداً ألفت نزالاً، وعرفت طراداً، وانعطفت ليناً وانقياداً..." (١)

ومن الملاهي التي لا ترتبط بمناسبة معينة: الصيد والطرْد، وقد واكب النثر رحلات الصيد التي خرج إليها السلاطين والأمراء، ووصفها وصفاً دقيقاً موثقاً بالزمان والمكان، بحيث تضمننا هذه الرسائل في صورة ما يجري على أرض الصيد. (٢)

ومن هذه الملاهي التي كشف النثر عنها أيضاً الصيد بالبندق، وكان لهذا النوع من الصيد تقاليد معينة لا يجوز الخروج عليها، تبين أحوال الرماة وشروطهم، وطريقة الرمي بالبندق وأسماء طير الواجب، فما ذكرته هذه الرسائل في وصف أحوال الرماة، أنهم يتصفون بصفات من مثل النصفاء والمروءة والهمم العالية والصدق وطيب الأخلاق، وحفظ عهد الصداقة إلى غير ذلك من صفات تقربهم من صفات الفتوة أو صفات الفرسان التي كانت شائعة في أوروبا في العصور الوسطى، من ذلك ما ورد في بعض هذه الرسائل: "تقضي رياضات النفوس السامية بمعاظاة كاسه، ومصافاة ناسه، لما فيهم من الفتوة، وكمال المروءة، وصدق اللسان، وثبات الجنان، وطيب الأخلاق، وحفظ الميثاق، لا يعرفون غير الصدق، وإن كانوا يملكون إلى الملق، ولا يبغون بصاحبهم بديلاً، يعطفون عليه عطف النسق..." (٣)

ومما يشير إلى شرف هذه الملهاة عند عليّة القوم أن حكم رماة البندق يكتب له توقيع عن السلطان بهذه المهمة، من ذلك ما ورد في شرفها من مكاتبة: "وبعد، فإنه لما كان رمي البندق من أحسن ما نهت به الكماة في حال سلمها، ومن أبهج ما حفظت به الرماة حياة نفوسها، وعزة عزمها، على ما فيه من اطراح الراحة واجتنابها، واستدعاء الرياضة واجتئانها، وخوض

(١) صبح الأعشى: ٣٣٦/٨ - ٣٣٧

(٢) انظر: صبح الأعشى: ١٨٨/١٤ - ١٩٦، حسن التوسل: ٣٤٧ - ٣٤٩

(٣) صبح الأعشى: ٣٢٣/١٤، وانظر حول رسائل البندق: حسن التوسل: ٣٥٣ - ٣٦٧، صبح

الأعشى: ٣٢٧/١٤ - ٣٤٠

الظلمات في الظلام، وتوخي الإصابة في غمرات الدجى التي تخفى فيها المقاتل على حدق السهام، وارتقاب ظفر يسفر عنه وجه سفر، ومهاجمة خطر تقضي إلى بلوغ وطر، وله شرائط تقتضي التقدم بين أربابه، وقواعد لا يخالفها من كان مبرزاً في أصحابه، وأدوات كمال لا بد للمتحملي بهذه الرتبة منها، وحسن خلال تهذر أعمال من بعد عليه مرامها، وقصرت مساعيه عنها، وعوائد معلومة بين أرباب هذا الشأن وكبرائه، ومقاصد مفهومة فيما يتميز به المصيب الحاذق على نظرائه". (١)

تلك، بعض ملاهي عليّة القوم من السلاطين والأمراء المماليك مما كشف عنها النثر في هذا العصر، أما ملاهي العامة فكثيرة، وأول هذه الملاهي مما يرتبط بملاهي عليّة القوم هو الخروج لمشاهدة العروض والموكب الرسمية في المناسبات المختلفة، ولعل من أمتع هذه العروض التي تجري على مرأى من العامة حفل استقبال السلطان لدى عودته من غزوة انتصر فيها، فعند عودة السلطان الناصر محمد من معركة مرج الصفر، "خرج إليه من كان في مصر من الجند والعامة وسائر المتعيشين والحرافيش، ولم يبق في البيوت من النساء والأطفال أحد، وبلغت بيوت الأرباع التي على طريقه، كل بيت منها بمائة درهم وأكثر، وأقلها خمسون درهماً". (٢)

فقد اكرى الناس البيوت التي يمر عليها السلطان، وبلغ كراء البيت من خمسين إلى مائة درهم، من أجل مشاهدة الموكب فقط.

وقد ظهر ذلك أيضاً عند خروج السلطان للعب الكرة في الميدان الكبير، حيث يضيف ذلك سعادة وسرورا وبهجة على الأنام كافة، وقد عبر النثر عن ذلك من خلال مكاتبات السلاطين إلى الأمراء، جاء في أحدها: "فلذلك لا نخل في كل عام بالتعاهد إلى الميدان السعيد، والركوب إليه في أسعد طالع يبديء النصر ويعيد، لما في ذلك من ابتهاج يتجدد، وأسباب مسرة لكافة الأنام تتأكد، ودعوات ألسنتها تتضاعف من الرعية وتتردد... ثم عدنا إلى القلعة المنصورة على أتم حال وأسعد طالع، بلغ الأنام الأمان والآمال، والعساكر بخدمتنا الشريفة محدقون، ومماليكنا يعقود ولاننا مطوقون، والرعايا قد ألبسها السرور أثواباً، وفتح لها من الابتهاج أبواباً". (٣)

واضح أن الرسالة تكشف عن مسرة العامة وبهجتهم في مشاهدة الموكب، وما يجري في ذلك من لعب للكرة في هذا الميدان.

كما يكشف النثر لنا أيضاً عن كثير من الملاهي التي كان يتلهى بها العامة، حيث نستطيع أن نتبين بعضها منها من خلال تمثيلات (خيال الظل) لابن دانيال، ومنها بعض وسائل الاحتفال

(١) صبح الأعشى: ٢٦٤/١٤ - ٢٦٨

(٢) عقد الجمان: ٢٥٤/٤

(٣) صبح الأعشى: ٣٣٧/٨ - ٣٣٨

التي كان يحتال بها بعض المحتالين على العامة من أجل كسب المال، وقد صرح بذلك في البابة الثانية وهي بعنوان: "عجيب غريب"، حيث يقول: "وهذه البابة تتضمن أحوال الغرباء، المحتالين من الأدباء، الآخذين بهذا الشأن، المتكلمين بلغة الشيخ ساسان"، حيث يعرض خلال هذه البابة بعض الألعاب التي تكاد تقترب من ألعاب "السيرك" في وقتنا الحاضر، يقدم صاحبها لكل منها بشرح مبسط، يوضح أسرار لعبته وخفاياها، ثم يطلب من الحضور أن يقدموا بعض ما معهم من أموال، ومن العروض التي تقدم في هذه البابة على سبيل المثال: عروض لاعبي الحيات والثعابين، ومروض الأسود والنمور والفيلة، ومروض الفئران والقطط، ومدرّب الكلاب، ومرقص القردة، بالإضافة إلى بائع المعجنات، والأعشاب والعقاقير الطبية، ثم قارئ الطلوع، وشخص مشعوذ، وآخر يبيع الأحبة والحروز، وآخر يقدم بعض الألعاب الخفيفة... الخ ولنستمع إلى ما يقوم به مروض الأسود والنمور المسمى (شبل السباع): "يدخل شبل السباع، ومعه الأسد والأتباع، وهو منقاد بالسلاسل والأغلال، وهو ماش تارة كالمختال وأونة كالمغتال، وقد اتخذ من لبدتيه كالفيل، ورد ورقته إلى يافوخة فصارت كالإكليل، والنمر غير خائف ولا مرتاب، وكشر عن ناب غير ناب، هذا وشبل السباع وقتاً يروضه، ووقتاً يتقل عليه جره ونهوضه، وهو مع ذلك ينشد بقوة جنان، وقلب غير جبان:

انظروني، يا سادتي كيف حالي	في مداراة ضيغم قتال
ملك جائر أروم رضاه	كل يوم بذلة واحتيال
ليس يبقي علي إلا لأنني	سائس مطعم بلا إخلال
وأنا في يديه قطعة لحم	فانقذوني من أبرة الأكال

فيبادرون إلى إجابة طلبه، ويستعيذون بالله من شر سم الأسد وغضبه، ثم ينصرف، فيخرج." (١)

وهذه لوحة أخرى لما يقدمه مدرب الجدي، ويدعى أبا العجب: "أبو العجب يقود جديده المذهب، ويشير إليه، فيحرك شراريب قرنيه، ثم يأمره أن يقوم على رجليه، وأن يريه الولد الحلال بيديه، ويرفعه على الكرسي والقطع الخشب، وينشد معرضاً بالطلب:

علمت تيساً فلم	يعدد ذلك التفهيماً*
وصار بالجدي نجمي	وما عرفت النجوماً
والتيس أرشد ممن	لا يقبل التعليماً

(١) خيال الظل: ٢١٤ - ٢١٥

* ورد البيت هكذا، ويبدو أنه غير موزون.

ثم يذهب، وقد ملأ كفه، والجدي خلفه... (١)

ويبدو لي أن مناقرة الديكة ومناطحة الكباش والثيران كانتا من الملاهي المفضلة لدى العامة في هذا العصر، وقد عرض ابن دانيال في "البابة الثالثة" لشيء من هذه الملاهي، حيث يحضر كل من المتبارزين ديكه، ويبدأ العرض بأن يقدم كل منهما ديكه للجمهور، ويطري عليه، ويثني على قدرته في المناقرة، ثم يتحدى أحدهما الآخر، فيقبل الثاني التحدي، ويشترط المراهنة ثقة منه بقوة ديكه، فيضعان الرهان على يد الحكم، ثم يقف الحكم بين الديكين، ويبدأ كلامه بخطبة يقول فيها: "الحمد لله فالق الإصباح، وملهم الديك تقسيم الزمان بالصباح، الذي توجه بتاج من عقيق، وبرقعه ببرقع من الشقيق، وألبسه الطيلسان المديج، وأقامه في صورة الملك المتوج، وبعد: فإن مكافحة الأقران لا تختص بنوع من الحيوان، وأحسن ما تفرج عليه السوق والملوك مناقرة الديوك، لأنه مناصلة ومناضلة ومقاومة ومنازلة..." (٢)، ثم يبين شروط المنازلة، ويدفع كلا من الديكين إلى الاستعداد والمناقرة، ويحدث مثل ذلك تقريباً عند مناطحة الكباش والثيران. (٣)

ولعل الرغبة في نسيان الهموم والأحزان هو السبب في إقبال العامة على مثل هذه الملاهي، وقد ظهر ذلك في كلام ابن دانيال، حين يقدم لبعض الألعاب والملاهي، ومن ذلك: "الحمد لله الذي جعل المزاح سلوة للهم، فهو روح الأرواح، ومفتاح الأفراح، أحمده على حسن الأخلاق، والتحبب إلى الخطاء والرفاق، وصلواته على الناطق صدقاً، الذي كان صلى الله عليه وسلم - يمزح ولا يقول إلا حقاً، المنزل عليه ذو الجلال والتعظيم، "إنك لعلی خلق عظيم"، وعلى آله عدد نعمه وأفضاله، إخواني: استعينوا من شرة اللسن، واعلموا أن أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن، والدنيا دار أسف ووجود وتلف، وصحة وسقم، ولذة وألم:

لا تحملوا الهم	فما يظلم حكم القلم
فالهم فيه ثقل	ومنه أصل السقم
وهل يطيق ناحل	يحمل نصف الهم

أين الذين بنوا الهرم، وأين عاد وإرم، مزقتهم أيدي النوى والبين، ومضوا إلى حيث لا أين، فرحم الله من داوى أحزانه بحسن خلق زانه، وصرف أتراحه بما أراحه. (٤)

(١) خيال الظل: ٢١٦

(٢) المصدر نفسه: ٢٤١ - ٢٤٢

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٢٤٢ - ٢٤٣

(٤) المصدر نفسه: ١٩٦ - ١٩٧

ويبدو لي أن هذه الوسائل في التحايل على كسب الرزق والمال كانت ممنوعة في المجتمع المملوكي، إذ يوصي المحتسب بتعقبهم ومعاقبتهم، فقد ورد في وصية المحتسب: "وأهل النجابة وسائر الطوائف المنسوبة إلى ساسان، ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة، ويأكلهم باللسان، وكل إنسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا إنسان، امنعهم كل المنع، واصدعهم مثل الزجاج حتى لا ينجبر لهم صدع، وصب عليهم النكال وإلا فما تجدي في تأديبهم ذات التأديب والصفح، واحسم كل هذه المواد الخبيثة، واقطع ما يجر ضعفاء الناس من هذه الأساليب الرثيثة." (١)

وكما كشف لنا النثر عن بعض عادات عليّة القوم، فقد كشف لنا أيضاً عن بعض عادات العامة، إذ يبدو أنه قد شاعت عند العامة في ذلك العصر بعض عادات شرب الخمر والمسكرات والحشيش، كما شاعت الفاحشة واللواط لدرجة لا يستطيع أولو الأمر السكوت عنها، ففي عام ٦٦٥هـ أمر السلطان الظاهر بيبرس "بإبطال ضمان الحشيش وإحراقها، وأخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمر وأراقها، ومنع الحانات من الخواطيء، واستتوب العلوق والخواطي، وعم هذا الأمر سائر جهات الديار المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات بالبلاد الشامية، فظهرت في أيامه سائر البقاع، وامتنع الناس من ذلك غاية الامتناع." (٢)، وقد كتب محيي الدين بن عبد الظاهر المرسوم السلطاني بهذا، وقد جاء فيه: "تعلمه أن المنكرات أمرنا أن تملأ الصحائف بأجرها وتفرغ الصحف، وأن لا يخلو بيت من بيوت من كسر أو زحاف، وقد بلغنا الآن أنها اختصرت، وأن كلمة الشيطان بالتعريض عنها ما قصرت، وأن أم الخبائث ما عقلت، وأن الجماعة التي كانت ترضع ثدي الكاس عن ثديها ما فطمت، وأنها في النشوة ما خيب إبليس مسقاها، وأنها لما أخرج المنع عنها ماء الخمر، أخرج لها من الحشيش مرعاها، وأنها استراحت من الخمار، واستغنت بما تشتريه ب درهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار، وأن ذلك فشا في كثير من الناس، وعرف في عيونهم ما يعرف من الاحمرار في الكاس، وصاروا كأنهم خشب مسندة سكرى، وإذا مشوا يقدمون لفساد عقولهم رجلاً ويؤخرون أخرى، ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقتلع، ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع، وتظهر منها المساجد والجوامع، ويشهر مستعملها في المحافل والمجامع حتى تنتبه العيون من هذا الوسن، وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن." (٣)

(١) التعريف: ١٧٩

(٢) بدائع الزهور: ٣٢٦/١

(٣) ثمرات الأوراق: ٢٣٤

كما كشف النثر أيضاً عن تأثير هذه المراسيم والأوامر على بعض من كان يتعاطى مثل هذه الأشياء، حيث يظهر تحسّرهم على الأيام الماضية عندما كان الأصحاب يجتمعون في الحانات لتعاطيها، فمن ذلك قول ابن دانيال: "أين تلك الأيام التي كانت مواهب، وكانت بإشراق الأحبة حباب، وأين أوقات المعشوق، والاجتماعات بباب اللوق، وأين قصصنا في بستان الخشاب، وشرابنا في عرصة أم شهاب." (١)، ثم يقول في مكان آخر مشيراً إلى مثل هذه العادات: "فالأولى على ذوي الألباب ترك هذا الباب، والتوبة قبل النوبة، والاستغفار قبل نفاذ المقدورات، والتستر من هذه القاذورات، فإن هذه الدولة قاهرة، وآثارها ظاهرة." (٢)، وهو بهذا يشير إلى المرسوم الذي صدر عن الظاهر بيبرس بمنع هذه الأمور.

ويبدو أن هناك أماكن كان يجتمع فيها الشباب وأولو الفساد ومن يتعاطون مثل هذه الأمور، فيذكر ابن دانيال في النص السابق بعضها وهو "باب اللوق"، كما أن السلطان يوصي النائب في الديار المصرية بأن لا يفسح لأحد بالاجتماع في هذه الأماكن ليل نهار." (٣)

كما يظهر النثر بعض أنواع من العادات الأخرى التي شاعت في ذلك العصر، وذلك من خلال نقد هذه العادات، مثل: خروج النساء إلى الحمامات وعمل الخاطبة في الزواج، وما تفعله من خداع الزوج واستبداد العروس التي رأتها الخاطبة بأخرى أقل منها جمالاً (٤)، بالإضافة إلى بعض أنواع القمار التي كانت شائعة حينئذ (٥)، وبعض العادات التي شاعت في دفن الموتى، وبخاصة حين يعم المرض والوباء (٦)، كما كانت هناك عادات لزيارة القبور وبخاصة في ليالي الجمع، حيث يوصي نائب السلطنة في مصر بأن يمنع اجتماع الرجال والنساء في ليالي الجمع بالقرافتين. (٧)

(١) خيال الظل: ١٥٥

(٢) المصدر نفسه: ١٥٧

(٣) انظر: تاريخ ابن الفرات: ١٩٧/٧

(٤) انظر: خيال الظل: ١٦١، ١٧٩

(٥) انظر: المصدر نفسه: ١٧٣

(٦) انظر: المصدر نفسه: ١٨٤

(٧) انظر: تاريخ ابن الفرات: ١٩٧/٧

ج - تمثيله للحياة الاقتصادية، وتنظيم عملية التجارة الداخلية والخارجية.

تحدثت عن الواقع المعيشي لطبقتي المجتمع في العصر المملوكي، إذ تبين لنا مدى الغنى والترفع الفاحش الذي كانت تتمتع به طبقة المماليك والأمراء، ومن كان يعيش في كنفهم، ومدى الشقاء والحرمان الذي عانت منه طبقة العامة، سكان البلاد الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من أبناء الأمة، وقد كشف لنا النثر المزيد عن الواقع الاقتصادي الذي كان ينعم به الأمراء ومن يتقرب إليهم، ولنستمع لهذا الوصف الذي يقدمه لنا صفي الدين الحلبي في مقامة: "رسالة الدار عن محاورات الفار"، يقول: "فلما استتم الخطاب إلا وقد فتح الباب، وولج به نفران كأنهما قمران، فبدأ بالكنس والرش، وثنيا بالبسط والفرش، وعززا بتعليق الستور وتدخين البخور، وفرشا المنظرة والطيارة، وملا البركة والفوارة، وأطلقا الماء في البستان، وصفا الخضرة في الإيوان، وأنا مع ذلك مترقب قدوم الساكن إلي، متوقع مطلع علي، فنظرت وإذا قد فتح الباب، وولج به أمردان كأنهما الفرقدان، وهو يتهدى في مشيته، وهو يكاد أن تقطر من أعطافه الخلاعة، وتلمع من أسرة وجهه الرقاعة، فطاف أقطار الدار، وهش لحسن الآثار، ثم مشى ورقفته حتى جلس بالشباك الحديد المشرف على باب الجديد، فلما استقر به المكان، وأسرح طرفه في محاسن البستان، أبدى لغلame سغباً ولغباً، وتلا أثناء غدانا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، فبادرت الولاند بالموائد، وسلخوا من الأدب أجمل العوائد، حتى إذا رفع الطعام من بين أيديهم، وردت أيديهم إليهم، حمدوا الله وشكروا، وأطعموا ولم ينتشروا، بل قال: أولى ما هضم به الطعام شيء من أرطال المدام:

ما يهضم الزاد سوى قهوة فقربوها نحونا واقربوا
ولا تخافوا الإثم في شربها فإله قد قال كلوا واشربوا

فما استتم الكلام إلا والمرام تجلى، والكؤوس تحلى، فشربوا أدواراً، وتنادموا أطواراً، وتناشدوا أشعاراً، وتجاوزوا أخباراً... (١)

ولننظر أيضاً في هذا الوصف لمجلس أنس وشراب، حيث نرى فيه ألواناً من البذخ والترفع، ونعيم العيش: "فلما استقر به المجلس أعجبه تركيبه، وراقه أرجه وطيبه، فقدم لنا الأكل برسم الإخوان، عليه من الأطعمة ألوان، وناهيك بالوان قد عجز في وصف ما عليه فصاحة الألسن، وجمع من المأكول ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، حتى إذا مد الليل رواقه، وألقى في بحر الجوزاء أطواقه، أشعلنا شموع الكافور عليها من فتات العنبر حباب، فغدت تلك الشموع يبدو

منها بعبير عنبرها التهاب، وتشير إلى الدجى بلسان أفعى فيشمر ذيله طلباً للذهاب... ثم أحضرت أنواع الرياحين، وتغاليبت في الجمع بين الورد والياسمين. وفرشنا سفر الملام، فتحدقت نحوها أحداق الأقداح بعد فتح المسام، ثم أتينا بسلاف أرق من الماء، وأجرى من الهواء... وتضاعفت المسرات بوجود القرقف، وإن كان رضاب الحبيب أشرق وأشرف... وأتينا بمناديل الشرب برسم مسح الصهباء عن الشفاه، ووضعنا على ركبنا نفائس القوط على عادة الشرب والسقا، وبعثنا أرواح الراح في أجسام الأقداح، وسال دم الزرق في تلك البواطي وساح... فيا له مجلساً ما فيه ساع سوى ساقى المدام، ولا مع الأحباب سوى الريحان نمام... (١)

وفي المقابل فإننا نلمس حياة الشقاء والحرمان التي تعيشها طبقة العامة، وقد كشف لنا الأدب عن بعض ملامح هذه الحياة، ففي "خيال الظل" يوافق الأمير "وصال" أحد شخصيات التمثيلية على النكاح بصدّاق قدره مائة معجلة، وأربعة وأربعون مؤجلة، على الرغم من عوزة وفقره المدقع، فيقول: "قبلت، ولبّس ما عملت، لا بد من تدبير الحال، وتجهيز المال، على أنني الليلة أعوز من زنبور وأفلس من طنبور، وينشد:

أمسيت أفقر من يروح ويغتدي	ما في يدي من فاقتي إلا يدي
في منزل لم يبق غيري قاعداً	فإذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة	ومخدة كانت لأم المهتدي
ملقى على طراحة في حشوها	قمل شبيه السمس المتبدد
والبق أمثال الصراصير خلقة	من متهم في حشوها أو منجد
يجعلن جسمي وارماً فتخاله	من هرصهن به ندوب المجدد

وبمضي مفصلاً في ذكر أنواع الحشرات في بيته من: براغيث وفئران وبعوض وخنافس وعقارب وعناكب وغيرها، فهي كما يقول عنها:

حشرات بيت لو تلقّت عسكرياً ولى على الأعقاب غير مردد

ويتابع في وصف فقره وحالته السيئة التي يعيشها قائلاً:

هذا ولي ثوب تراه مرقعاً	من كل لون مثل ريش الهدد
لولا الشقاوة ما ولدت فليتي	إذ كان حظي هكذا لم أولد

(١) لوعة الشاكي ودمعة الباكي: ٥٥ - ٥٧، وانظر وصفا لهذه المجالس

في: نسيم الصبا: ٥٨ - ٦١

ثم يبين أنه كان ذا مال وجمال وخيل وبغال ولكن "مال المال، وحال الحال، وذهب الذهب، وسلب السلب، وفرغت الكاس بطون الأكياس، وبعث العقار برشف العقار..." (١)

كما ورد على لسانه أيضاً في وصف حالة الفقر التي تعيشها هذه الطبقة: "الله لي ثلاثة أيام، لم أستطعم بطعام، فيسأله طيف الخيال: ما فعل ريشك ورياشك، وأين أثاثك وقماشك، فيتنفس الصعداء، ويبتدىء منشداً:

لم يبق عندي ما يباع ويشترى	إلا حصيراً قد تساوى بالثرى
نطع يريق دمي عليه بقه	حتى تراه وهو أسود أحمر
في منزل كالقبر كم قد شاهدت	فيه نكيرا مقلتاى ومنكرا
لو لم يكن قبراً لما أمسيت نسياً	فيه حتى أنني لم أذكرا
والقبر أنا مسكناً إذ لم أكن	مع ضيق سكناه أطالب بالكرى (٢)

تلك صورة لملامح الحالة المعيشية لكل طبقة من طبقتي المجتمع في ذلك الوقت: الثراء يقابله الفقر، والترف والبدخ أمام الحرمان والشقاء.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد عانت عامة الشعب أيضاً من المجاعات في فترات مختلفة في هذا العصر، (٣) وكانت الأسعار تتراوح بين هبوط وارتفاع تبعاً لعوامل متعددة، حيث كانت المناسبات المختلفة فرصة لتحسن معيشة الناس، إذ لدى عودة السلطان الناصر من غزوة مرج الصفر رسم بصنع القلاع التي أشرت إليها آنفاً، فكان ذلك سبباً لتحسن معيشة التجار، ولا سيما تجارة الخشب والقصب وآلة النجارة، كما استعملت الحرافيش بالأجرة. (٤)

وقد حرص سلاطين المماليك على تحسين معيشة الناس، وحاولوا العمل على تنشيط أمور التجارة، إذ عملوا في كل اتفاقية صلح يعقدونها مع الفرنج على تأمين أمور التجار وتنقلاتهم، وحرية حركتهم بين مدن بلاد الشام. ومما لا شك فيه أن ذلك أثمر حركة تجارية رانجة، فمما ورد في نسخة هدية كتبت بين السلطان الظاهر بيبرس وبين الاسبتار بحصن الأكراد سنة ٦٦٥ هـ "أن التجار والسفار المترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون أمينين من الجهتين: الجهة الإسلامية والجهة الفرنجية والنصرانية، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها... وعلى أن يتردد

(١) خيال الظل: ١٦٥ - ١٦٧

(٢) المصدر نفسه: ١٧١

(٣) انظر في ذلك: المقرئزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة: ٣٢ - ٤١، مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٩ هـ، ١٩٤٠ م: (٤) عقد الجمان: ٢٥٧/٤

التجار والمسافرون من جميع المترددين على أي طريق اختاروه، من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة." (١)

كما تضمنت اتفاقيات الهدنة الموقعة بين سلاطين المماليك وبين ملوك الدول الأخرى فقرات لتنظيم التجارة الخارجية بين هذه الدول، ومن ذلك اتفاقية الهدنة الموقعة بين السلطان قلاوون وصاحب القسطنطينية سنة ٦٨٠ (٢)، كما حرصوا على تأمين الثغور "واستجلاب قلوب التجار واستمالة خواطرهم، ومعاملتهم بالرفق والعدل، حتى يتواصل التجار، وتعمر الثغور، ويؤكد عليهم في المستخرج وتحصيل الأموال وأصناف الذخائر وأصناف الحرائر، ويوعز إليهم بأن هذا وقت انفتاح البحر وحضور التجار." (٣)

ومن أجل تنشيط التجارة الداخلية والخارجية في مصر والشام، فقد وجه السلطان قلاوون رسالة سميت "تذكرة اللبيب" إلى التجار في الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم، يحثهم فيها على القدوم إلى الديار المصرية والشامية، حاملين معهم صنوف التجارة، واستثمار أموالهم في هذه الديار، وتبين الرسالة لهم من العوامل التي تشجعهم على ذلك، فهذه البلاد: "جنة عدن لمن قطن، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن، وكيفية أن بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه، وأن بركة الله حاصلة في رحل من جعل الإحسان فيها من قراضه والحسنة من قرضه." ثم هي بلاد تتصف بالعدل وكثرة السكان وسعة الأوطان، لا يخشى التاجر فيها على أمواله، فهي تتمتع بالأمان: "وقد عمر العدل أوطانها، وكثر سكانها، واتسعت أبنيتها إلى أن صارت ذات المدائن، وأيسر المعسر فيها فلا يخشى سورة المداين، إذ المطالب بها غير متعسرة، والنظرة فيها إلى ميسرة، وسائر الناس وجميع التجار لا يخشون فيها من يجور، فإن العدل قد أجار." (٤)، ثم يبين هذا المنشور بعض أنواع البضاعة التي تحتاجها البلاد، ويفضل أن يجلبها التجار معهم لأن تجارتها رابحة: "ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم فلا يخاف عليه في حق، ولا يكلف أمرا يشق، فقد أبقي لهم العدل ما شاق ورفع عنهم ماشق،

(١) صبح الأعشى: ٤٠/١٤

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٨٦/١٤

(٣) تاريخ ابن الفرات: ١٩٨/٧

(٤) صبح الأعشى: ٣٣٩/١٣، تاريخ ابن الفرات: ٦٦/٨

ومن أحضر معه منهم ممالك وجواري فله في قيمتهم ما يزيد على ما يريد... لأن رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقاً على الجود، فليستكثر من يقدر على جلبهم، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاث على طلبهم، لأن الإسلام بهم اليوم في عز، لواءه المنشور وسلطانه المنصور." (١)

كما حاول سلاطين الممالك في منشوراتهم وتوجيهاتهم ضبط أمور التجارة الداخلية قدر استطاعتهم، فكان من أهم الوصايا التي يوصى بها المحتسب، وهو الشخص الموكل بالمراقبة والإشراف على مختلف الحرف والصنائع ومجالات الحياة المتعددة، يوصى هذا الموظف بنفقده أحوال العامة، ومراقبة ضبط الموازين والمكاييل ثم مراقبة الأسعار، وملاحظة العملة وأمر الدينار والدرهم، ويبدو أن تزوير النقود وتزييفها كان شائعاً في ذلك الوقت، حيث يشدد السلطان على ذلك في وصيته للمحتسب، كما يوصى بمنع احتكار أية سلعة، ولا سيما من أقوات الشعب، يقول في وصيته: "قليلاً شر ذلك، أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر... متفقداً أحوال الشعب ومعاشها في كل آن، ملتفتاً في أمر ما يكال أو يوزن إلى قوله تعالى: "وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان، وليستكثر الأخبار، وليستعلم الأسعار، ولا يغفل عن تعاهد السوق أثناء الليل وأطراف النهار، وليلاحظ أمر السكة السلطانية بإصلاح العيار وضبط أحوال النقود بمقدار، وليقم من خدمته رقيباً على من اتهم في صنعه أو استراب، وليبالغ في النظر في أمر المأكّل والمشارب، فإن أكثر الداء من الطعام والشراب، وليزجر في تأديبه من اقترى، أو تلقى الركبان أو غدا في الأقوات محتكراً." (٢)

ويبدو أن قضية تحديد الأسعار كانت محل خلاف بين العلماء في ذلك العصر، ولكن إذا سعى الإمام فعلى الرعية الانقياد للحكم واتباع ذلك، إذ أورد السبكي سنة ٧٧١هـ، وهو من علماء ذلك العصر، وصفاً لعمل حاجب القاضي، جاء فيه: "ويحرم عليه التسعير في كل وقت على الصحيح، وقيل يجوز في زمان الغلاء، وقيل: يجوز إذا لم يكن مجلوباً، بل كان مزروعاً في البلد، وكان عند الشتاء، وإذا سعى الإمام انقادت الرعية لحكمه، ومن خالفه استحق

(١) صبح الأعشى: ٣٤٠/١٣، تاريخ ابن الفرات: ٦٦/٨

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٦/١٢، وانظر في واجبات المحتسب: نهاية الرتبة في طلب الحسبة،

التعزير." (١)، وقد أيد ذلك أيضا ابن بسام المحتسب، في قوله: "ولا يجوز للمحتسب أن يسعر البضائع على أهلها، ولا أن يلزمهم بيعا بسعر معلوم." (٢)

كما يورد السبكي شيئا من مهمات المحتسب، ولا سيما في بلاد الشام، فيقول: "ومن مهمات المحتسب أمران ارتبطا به: أحدهما: النقود من الذهب والفضة المضروبين، ولا يخفى أن في زغلها هلاك أموال البشر، فعليه اعتبار العيار بمحك النظر، والنتبث في سكة المسلمين، وثانيهما: المياه، فعليه الاحتراز في سياقتها، وقد جرت عادة أناس في الشام أن يشتري بعضهم قدراً معلوما من ماء نهر ثوري أو باناس مثلاً، ويتحيل لصحته بأن يورد العقد على مقره بما له فيه من حق الماء، وهو كذا إصبعاً، ثم يسوقه، ويحمله على مياه الناس برضا طائفة يسيرة منهم، وكان الشيخ الإمام رحمه الله يشدد النكير في هذا." (٣)، ويبدو من هذا القول أن هناك فئة من الناس كانت تتحيل لشراء قسم معين من مياه الأنهار، وتدعي ملكيتها له، وواضح أن ذلك ملك عام، ولا يجوز لأحد ادعاء ملكيته.

(١) معيد النعم ومبيد النقم: ٦٦

(٢) المصدر نفسه: ٦٦

(٣) نهاية الرتبة في طلب الحسبة: ١٨

د - تمثيله لأنواع النقابات التي كانت في ذلك العصر.

سمحت دولة المماليك بنوع من التجمعات تحتكم إلى عدد من المعايير المهنية والدينية والاجتماعية، ولعل الهدف من إنشائها يعود أولاً إلى صالح الدولة، من أجل إحكام السيطرة على هذه الفئات والتجمعات، وليس لخدمة أغراض هذه الفئات، ولنحاول الوقوف على أغراض هذه التجمعات وطبيعتها من خلال دراسة تفصيلية لما يختص بها من النثر:

(١) نقابة الأشراف الطالبين.

يتولى أمر هذه الطائفة أحد شيوخها، ومن واجباته: النظر في أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من الأعداء، وإذا تشكك في نسب أحد طلب منه شجرة نسبه. (١)

وقد وضحت المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء في العصر المملوكي شروط من يتولى أمر هذه الطائفة، إذ يجب أن تكون له مكانة النسب الأعلى الخالص لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، متصفاً بصفات العفة والإباء والإخلاص والولاء، بالإضافة إلى التقوى والورع والعلم، فمما ورد في تلك المكاتبات في ذلك: "من كانت أوصافه شائعة بين الأنام، وصنوف فضائله منشورة لدى الخاص والعام، مع شرف نسب شامخ الأعلام، وتقى فخر به على الأنام، وعلم يجلى به صدأ الأفهام، وعفة مرانها محكمة الإبرام". (٢)

كما حددت تلك المكاتبات أيضاً واجبات من يتولى هذه المهمة، فمن ذلك أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مع مراعاة العدل بينهم، وأن يحرص على تخلفهم بحميد الأخلاق، بالإضافة إلى التحقق من نسب من يريد الانتساب إليهم، كما أن عليه أن يحرص على أوقاف هذه الطائفة، ويعمل على ترميمها وتوزيعها بينهم بالعدل، ومن ذلك ما ورد في بعض المكاتبات: "وليكن رؤوفاً بهم ما استقاموا، منتقماً منهم ما اعوجوا و مالوا، وإن وجب على أحدهم حق علي أو دني استخلصه منه ولم يمنعه تعلقه بنسب شريف علي، وإن افترى منهم مفتر على أحد من الملل قابله عليه بما يزجره عن قبيح العمل... وليحرص أنسابهم بإثبات أصولها وتحقيق فروعها، ومن رام دخولاً فيه بدعوى يبطل فيها نقب عن كشف حاله وإظهار محاله، وجازاه بما يستحقه أمثاله، ويرتدع فيما بعد مثاله، ليخلص هذا النسب الكريم من دعوى المجهول، واندماجه في أسرة الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم..." (٣).

(١) انظر: صبح الأعشى: ٢٧٣/٣ - ٢٨١

(٢) صبح الأعشى: ٤٧/١١

(٣) المصدر نفسه: ٤٨/١١ - ٤٩.

(٢) ومن واجباته: "النظر فيما لهم من الأوقاف، فهي شاملة جمعهم، وجامعة شملهم، وواصلة نفعهم، ونافعة كلهم، وفضل مباشرها تسبغ عليهم النعمة، وتستدر ببركة إجماعهم عليه سحب الرخمة". (١)

٢ - رئاسة الطب

يتولى رئاستها شخص منهم، يرعى شؤون أصحاب هذه المهنة، ويتفقد أحوالهم، وينتثب من قدرتهم على مزاوله هذه المهنة، فيقدم المبرزين منهم، ويحرص على تقديم العلم لمن هو بحاجة إلى المزيد منه، إذ يختبر الأطباء بخاصة في كتاب "محنة الطبيب" ليوحنا بن ماسوية، فمن وجده أهلاً لذلك أقامه على عمله، ومن وجده بحاجة للمزيد أمره بقراءة الكتب قبل انتصابه لمداواة الناس. (٢)

وقد أظهر النثر شيئاً من واجبات صاحب هذه المهمة، وذلك من خلال ما ورد في وصيته: "فليباشر هذه الرئاسة ناظراً في مصالحها، مطلعاً من شهاب فضله ما يزين أفقها زينة السماء بمصابيحها، متفقداً أحوال مباشريها، متلمحاً أحوال المستقل بأعبانها والداخل فيها، سالكاً في ذلك سبيل من تقدمه من رؤسائها، حاكماً في أمورهما بما جرت به العادة المستقرة بين أكابرها وعلمائها... ملزماً من ظهر قصوره فيها بالتدرب إلى حد لا يقنع منه بدون حصوله... وليعط هذه الوظيفة حقها من تقديم المبرزين في علمها، وتكريم من منحه الله درجتي نقلها وفهمها، وتعليم من ليس عليه من أدواتها المعتبرة غير اسمها واسمها، كما أن عليه أن يراقب مدعي هذه المهنة، ويمنعهم من مزاولتها، وملاحقتهم أينما وجدهم، "ومنع من يتطرق من الطريقية إلى معالجة وهو عار من ردانها، وكف يد من يتهجم على النفوس فيما غمض من أدائها قبل تحقق دوائها". (٣)، ومن واجباته أيضاً مراقبة الأدوية والعقاقير، ومراقبة معدي هذه الأدوية وبائعها، والنظر في هذه الأدوية لمعرفة صالحتها من فاسدها: "ولينعم النظر في أمور الأشربة والعقاقير والأدوية، ولينظر في مجموعات ومفرداتها وبسائطها ومركباتها مما جرت العادة باختباره، وليتقدم بالاحتراز فيها، وأن لا يباع منها إلا ما شك في جودته واختياره". (٤)

٣ - رئاسة اليهود:

يتولى رئاستها أحد أفرادهم، للحكم بين أبناء هذه الطائفة وفق ما تقتضيه شريعتهم، ووفق اختلاف مللهم وطوائفهم، مراعيًا العدل في ذلك، وعدم التمييز بين طائفة وأخرى،

(١) صبح الأعشى: ٤٢٨/١٢

(٢) نهاية الرتبة: ١٠٨

(٣) صبح الأعشى: ٣٧٣/١١ - ٣٧٤

(٤) تاريخ ابن الفرات: ٢٤/٨

ويعمل على استقامة أحوالهم وجمع شملهم وتأليف أقوالهم وأفعالهم، بما يعود إلى طاعة أولي الأمر والشأن من حكام الممالك، فمما ورد في ذلك من المكاتبات: "وخرج الأمر العالي أن يفوض إليه رئاسة اليهود على سائر طوائفهم الربانيين والقرائين والسامرة.... وأمرنا أن يعتمد في حق من وليناه أمرهم إصلاح فاسدهم وتقويم مائدهم، وأن يحملهم على منهج دينهم الذي يدينونه، ويسلك بهم سنن معتقدهم الذي يعتقدونه، وأن يحسن السيرة فيهم بما يقضي باستقامة أحوالهم، ويفضي إلى انتظام شملهم وتأليف أفعالهم وأقوالهم، لتخلص لنا طاعتهم، وتصح لنا نصيحتهم..." (١)، كما يوصى أيضا بضرورة التزام هذه الطائفة بلبس شعار الخاص بهم، وعدم التعرض للمسلمين في الطرقات والحمامات ومزاحمتهم في ذلك، مع إلزامه لهم بما يلزمهم من حكم أمثالهم، وعدم مضايقتهم في الطرقات، وحيث يحصل الالتباس بهم في الحمام، وضرورة حمل شعار الذمة الذي جعل لهم، "وليعلم أن شعارهم الأصفر موجب لنا ليراق دمهم الأحمر، وأنهم تحت علم علامته آمنون، وفي دعة أصانله ساكنون..." (٢)

يتضح لي مما سبق أن حرص الممالك على دخول هذه الجماعات والطوائف في خدمتهم، ومحافظةهم على النظام والأمن هو الدافع لتعيين رئيس لهذه الجماعات، يضمن تنظيم أمورهم، كما يضمن حق الدولة عليهم، إذ يكون هو المسؤول الأول المباشر أمام الدولة في الأمور الطارئة لهذه الجماعة.

٤ - الفتوة

وهو نظام نسب إلى علي بن أبي طالب، ويشترط لمن ينتسب لهذه الجماعة شروط وآداب جارية بينهم، ولهم رئيس وكبير ينظم أمورهم، كما أن لهم تقاليد خاصة للانتساب لهذه الجماعة، "والطريق الجاري عليه أمرهم الآن أنه إذا أراد أحدهم أخذ الطريق عن كبير من كبراء هذه الطائفة اجتمع من أهلها من تيسر جمعه، وتقدم ذلك الكبير، فيلبس ذلك المرید ثياباً، ثم يجعل في كوز أو نحوه ماء، ويخلط به بعض ملح، ويقوم كل منهم فيشرب من ذلك الماء، وينسبه إلى كبيره..." (٣)

وقد حددت المكاتبات الديوانية آداب هذه الجماعة، والصفات التي يتصفون بها، فثبتت من صفاتهم وآدابهم: الشجاعة والشهامة وصدق العزيمة وشدة البأس وصدق اللسان واللهجة وطهارة النفس، بالإضافة إلى حسن الطاعة للسلطان، وتلبية الواجب والأوامر متى طلب منهم ذلك، فقد

(١) تاريخ ابن الفرات: ١٩/٨

(٢) صبح الأعشى: ٣٨٥/١١

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٨/١٢ - ٢٦٩

ورد في بعض نسخها: "وبعد: فإن خير من اتصل به رجاء الرجال الأجواد، وطوى البعيد إلى تحصيل مرامه كل طود من الأطواد، وأماط به عن مكارم الأخلاق لثام كل جود، وامتطى ظهر خير جواد.. من اشتهر بالشجاعة التي تقدم بها على قومه، وحمد أمسها في يومه، وبالشهامة التي لها ما للسهام من تفريق، ولزرق الأسنة من تحديق... ومن صدق العزيمة ما يشهد به كرم الشيمة، ومن شدة اليأس ما يجتمع به على طاعته كثير من الناس، ومن صدق اللهجة واللسان ما اتصف عفافه منها بأشرف ما يتصف به الإنسان، ومن طهارة النفس ما يتنافس على مثله المتنافسون، ويستضيء بأنواره القابسون... وكان من الذين أبانوا عن حسن الطاعة وأنابوا، وإذا دعوا إلى استنفار جهاد واجتهاد لبوا وأجابوا، والذين لا يقعدهم عن بلوغ الأوطار مع إيمانهم حب الأوطان، وإذا نفذوا في حرب الأعداء لا ينفذون إلا بسلطان." (١)

ويبدو أن علماء ذلك العصر قد أفتوا بحرمة تلك البدعة، وأبدوا من الأدلة والشواهد على حرمتها، وقد ورد ذلك في فتوى أصدرها ابن الوردي في ذلك، يقول: "فقد غاظني حتى هاضني، وأحنقني حتى خنقني، ما أحدثه أهل الجهل والابتداع، وسكت عنه العلماء حتى شاع في الرعاع وذاع، وها هي البدعة التي يجب إعفاء رسمها، والضلالة المسماة بالفتوة وهي ضد اسمها، وكيف وقد عكف عليها أتباع الضلالة، ودعا إليها الحمقى وأهل البطالة، يجمعون لها الجموع والأنباط، ويحضرها المرد وأهل اللواط، كبيرهم العاصي يزيد تيهاً على ابن الفرات، وهو عند الشريعة صغير، ويتصدر فيهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، يلبسهم لباس الشر، ولباس التقوى ذلك خير... ويسقيهم ماء له بالملح مزاج، بنس الشراب ولو كان عذباً فراتاً، فكيف وهو ملح أجاج... ويمد لهم خواناً يجمع فاسقاً وخواناً، جمع ثمنه من الششم والأنزروت، والقرعة والقمار وضرب التخوت، والزبل والكنس والحجامة، والحوك والنجامة، ومن الزفورية والطرقية وسائر الحرف الدنية.... ليس الفتى من ضرب بالسكين والسيف، الفتى من أطعم المسكين والضعيف، ليس الفتى من أقام الشنانع، وشهر على الأمة السلاح، الفتى من دقق الذرائع، وشمر في جمع الكلمة والإصلاح..." (٢)

وهكذا، يستمر في عرض بطلان هذه البدعة وجوانب حرمتها، وعلى العموم، فقد حاول الممالك تنظيم أمور الصنائع المختلفة، حيث كان من مهمات المحتسب أن يجعل على أهل كل صنعة عريفاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشهم وتدليسهم، مشهوراً بالنفقة والأمانة، وقد بينت ذلك كتب الحسبة، فقد أورد صاحب "تهاية الرتبة" بأنه "ينبغي للمحتسب، ويستحب له أن يجعل على أهل كل صنعة عريفاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم،

(١) صبح الأعشى: ٢٦٩/١٢ - ٢٧٠

(٢) ديوان ابن الوردي: ٦٧ - ٧٢

بصيرا بغشوشهم وتدليسهم، مشهوراً بالثقة والأمان، يكون مشرفاً على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما جلب إلى سوقهم من المتاجر والبضائع لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "استعينوا على كل صنعة بصالح من أهلها." (١)

ثالثاً: تمثيل النثر للحياة الدينية.

أ - محاربة التقاليد والبدع الفاسدة، ومحاولة تطبيق مبادئ الشريعة.

لقد حاول سلاطين المماليك وأمرؤهم، قدر استطاعتهم، محاربة التقاليد والبدع الزائفة التي ظهرت في المجتمع بشكل عام، أو لدى طائفة معينة بصورة خاصة، محاولين تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية، فحيثما وجدت مثل هذه البدع جهد السلاطين والأمراء على كشف زيفها، ومحاربتها بمساعدة العلماء والأئمة في ذلك الوقت، وتكشف المصادر التاريخية عن مثل ذلك، كما يبين لنا النثر بعض جوانب هذا الأمر، يقول المقرئ في أحداث سنة ٧٠٥هـ: "أظهر ابن تيمية الإنكار على الفقراء الأحمديّة فيما يفعلونه من دخولهم في النيران المشتعلة وأكلهم الحيات، ولبسهم الأطواق الحديد في أعناقهم، وتقلدهم بالسلاسل على مناكبهم، وعمل الأساور الحديد في أيديهم، ولفهم شعورهم وتلييدها، وقام في ذلك قياماً عظيماً بدمشق ومصر في جماعة إلى النائب، وعرفه أن هذه الطائفة مبتدعة، فجمع له ولهم الناس من أهل العلم، فكان يوماً مشهوداً كادت أن تقوم فيه فتنة، واستقر الأمر على العمل بحكم الشرع ونزعهم هذه الهيئات." (٢)

كما حاول بعض العامة إشاعة بعض البدع، ويبدو أن الدافع وراءها يعود إلى التحايل لكسب المال. ومثال ذلك ما حدث سنة ٧٤٤هـ، حيث حفر بعضهم موضعاً، ليبنى بيتاً، فوجد بعض آثار مسجد، فأشاع بعضهم أنه رأى في منامه أن هذا البنيان على قبر بعض الصحابة، وأن من كراماته أن يقيم المقعد، ويرد بصر الأعمى، فاجتمعت عليه العامة، وأكثروا من الصياح، وبدأوا بالحفر حتى نزلوا فيه نحو قامتين، فإذا مسجد له محراب، فزاد نشاطهم، وفرحوا فرحاً كبيراً، فجاء هذا المتحايل، وحفر حفرة كبيرة، وزعم أنه موضع الصحابي، فخرج إليه أهل القاهرة ومصر أفواجا، وفزعت إليه نساء الأمراء، فينزلهن إلى تلك الحفرة لزيارتها، وما منهم إلا وتدفع الدنانير والدرهم، فقام القضاة وشنعوا على هذا الفعل، وخوفوا من عاقبته، حتى رسم لوالي القاهرة أن يتوجه إلى مكان الحفرة ويكشف أمرها، فإن كان فيها أحد الصحابة مقبوراً كما

(١) نهاية الرتبة : ١٨

(٢) السلوك: ١٦/٢

يشاع يحمل إلى مقابر المسلمين، ويدفن فيه سرا، ثم يعفى الموضع، فلما مضى إليه ثارت العامة تريد رجمه حتى رماهم الجند بالنشاب، فتفرقوا... ولم يجدوا هناك قبراً ولا مقبوراً، فطمروا الحفرة بالتراب، وانصرفوا..." (١)

وأمثلة هذا البدع والإشاعات كثيرة في هذه الفترة، وقد قوبلت بمحاربة رجال الدين والقضاة لها، كما تصدى السلاطين والأمراء لهذه البدع، فصدرت عنهم المكاتبات بالنهي عنها والابتعاد عن فعلها. ومما أظهره النثر من مثل هذه البدع إغلاق الظاهر بيبرس للخمارات والنهي عن شرب الخمر والحشيش، وقد رأينا ظهور أثر ذلك من خلال تمثيلية "خيال الظل لابن دانيال" (٢) ويبدو أن ابن دانيال كتب في الموضوع ذاته مقامة لطيفة، جاء فيها: "لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية، في الدولة الظاهرية... فوجدت تلك الرسوم دارسة، ومواطن الأتس بها غير آتسة، وأرباب المجون والخلاعة عابسة، وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، وتولى الحراني والي القاهرة إهراق الخمر، وحرق الحشيش، واستتوب العلوق واللواط، وحجر على البغايات والخواطي، وتأذى الخلاع غاية الأذية، وصلب ابن الكازروني وفي عنقه نيازية، ثم شاعت الأخبار، ووقع الإنكار، وانعكف المسطول في الدار، وأقيمت الحدود، وعطلت البدود، فعند ذلك دعاني بعض أصدقائي إلى محله، وأنزلني بين عياله وأهله، واعتذر مقصره في إكرامي، وانحصاره إذ لم يأتني بمرامي..." (٣)

وفي عام ٧٢٥هـ أفتى قاضي القضاة ابن الزملكاني بتحريم الاجتماع بمشهد روحين ودير الزربة وأشباههما، ومنع من شد الرجال إليه، ونودي بذلك في المملكة الحلبية، فإنه كان يشتمل على منكرات وبدع. (٤)

وفي هذه الحادثة عمل ابن الوردي مقامته "المشهدية"، وقد جاء فيها: "أحمد الله على تمييز الحال بين نبوت الهدى والضلال، فقد غلبت الروم فيما تروم، وانكسر صلب الصليب المذموم، وارتاحت أرواح أهل روحين، وترك أهل تيزين التريين، وتوفرت على الإنسان العين، وفطن أهل سرمين لسر المين... فما علمت أن مولانا وسيدنا قاضي القضاة كمال الدين شيخ الإسلام والمسلمين، لازال نداه مثل حرف النداء، كفيلاً بضم الأقربين والبعداء... هو الذي بدع بأهل هذه

(١) السلوك: ٦٤٩/٢ - ٦٥٠

(٢) انظر ص ٢٤ من هذا الفصل.

(٣) بدائع الزهور: ٣٢٦/١

(٤) تاريخ ابن الوردي: ٢٧٨/٢

البدعة، وأطفا شمعاً السمعة، وأمر بالمعروف المعروف، وقبح العكوف على هذا المؤلف، ونبه على غلط الغلط، وكسر سبط السقط.."(١)

وكان عند النصاري بعض من هذه البدع، حيث لاحقتهم الأوامر السلطانية، وقضت على هذه البدع، فقد كانوا يدعون أن النيل لا يفيض إلا إذا ألقوا فيه صندوقاً فيه إصبع من هلك من عبادهم يسمونه "الشهيد"، وكانوا يلقونه عند "شبرا"، ويقيمون لذلك احتفالاً، فكان أن أبطل الأمير صرغتمش الناصري هذه العادة، وأحرق ذلك الصندوق، فزاد النيل على غير العادة في تلك السنة زيادة معهودة، وقد وضع ابن أبي حجلة في هذه الحادثة مقامة، جاء فيها: "وغرق بقلوب الظلمة الذين هم في خوضهم يلعبون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فكم من نصراني قد كفر بالأنجيل، ويهودي قال حين أدركه الغرق: أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل.."(٢)

ب - تمثيله للخلاف بين المذاهب المختلفة.

كشف لنا النثر في العصر المملوكي الأول عن كثير من جوانب الخلاف بين المذاهب الدينية المختلفة في ذلك الوقت، حيث بين بعض جوانب الاختلاف بين كل من الخوارج والشيعة بفرقها المختلفة، الإسماعيلية والإمامية والنزارية والزيدية والنصيرية والدرزية، بالإضافة إلى طائفة القدرية، وذلك من خلال نسخ الأيمان الشرعية التي كان يحلف بها كل من يتولى أمراً من أمور الدولة، أو وظيفة من وظائفها، وقد اقتصت نسخ الأيمان هذه بما تميزت به كل طائفة من معتقدات خاصة بها، فمما يحلف به الشيعة الزيدية على سبيل المثال: ما يحلف به أهل السنة، ويزاد فيها: "والأبرنت من معتقد زيد بن علي، ورأيت أن قلبي في الأذان: "حي على خير العمل" بدعة، وخلعت طاعة الإمام المعصوم الواجب الطاعة، وادعيت أن المهدي المنتظر ليس من ولد الحسين بن علي، وقلت بتفضيل الشيخين على أمير المؤمنين علي وبنيه، وطعنت في رأي ابنه الحسن لما اقتضته المصلحة، وطعنت عليه فيه.."(٣)

فهذه الأمور التي يحلف بها الزيدي كلها من صلب معتقداتهم، حيث يستطيع القاريء التعرف على معتقداتهم، وهكذا فقد كشفت لنا هذه الأيمان عن بعض معتقدات

(١) ديوان ابن الوردي: ٤٩ - ٥٢

(٢) سكردان السلطان: ابن أبي حجلة: ٣١

(٣) صبح الأعشى: ٢٣١/١٣، التعريف: ٢٢٨

كما ظهر الخلاف بين هذه الفرق من خلال المناظرات التي رأيناها بين أهل السنة من جهة، والقدرية والجبرية من جهة أخرى، من خلال رسائل ابن تيمية. (٢)

ومما يكشف عنه النثر في هذا العصر من جوانب دينية، فتنة ابن تيمية، حيث واكب النثر هذه الفتنة عبر ما يزيد على عشرين عاماً، من خلال المكاتبات التي صدرت عن ديوان الإنشاء في السلطنة، أو الرسائل التي كان يكتب بها ابن تيمية توضيحاً لمذهبه ومعتقدده، وقد وصل الخلاف بين الطائفتين إلى درجة أن أصدر نائب السلطان في دمشق مرسوماً سلطانياً يقضي بأن من تكلم في العقائد حل ماله ودمه، ونهب داره، وهتكت عياله. (٣) وذلك إخماداً لنار هذه الفتنة، ولكن هذه الفتنة تعود للاشتعال مرة أخرى، حيث يأمر السلطان بإحضار كل من الفريقين إلى الديار المصرية، فيحكم بسجن ابن تيمية، ويكتب إلى دمشق كتاب يتضمن أن من يعتقد عقيدة ابن تيمية يحل ماله ودمه، ومن ذلك: "وكان التقي بن تيمية في هذه المدة قد سلط لسانه وقلمه، ومد عنان كلمه، وتحدث في مسائل الذات والصفات، ونص في كلامه على أمور منكرات، وتكلم فيما سكت عنه الصحابة والتابعون، وفاه بما يخفيه السلف الصالحون، وأتى في ذلك بما أنكره أئمة الإسلام، وانهقد على خلافه اجتماع العلماء والحكام.. فلما ثبت ذلك في مجلس الحكم العزيز المالكي، حكم الشرع الشريف بأن يسجن المذكور، ويمنع من التصرف والظهور، ومرسومنا هذا يأمر بأن لا يسلك أحد ما سلكه المذكور من هذه المسالك، وينهى عن التشبيه به في اعتقاد مثل ذلك... فليقف كل أحد عند هذا الحد، فله الأمر من قبل ومن بعد، فيلزم كل من الحنابلة عما أنكره الأئمة من هذه العقيدة، والخروج من هذه المشتبهات الشديدة..." (٤)

ولما استفحل أمر الشيعة، وقويت دعوتهم في الساحل الشامي، وتبعهم الكثير من أهل السنة والجماعة من أهل صيدا وبيروت وأعمالهما، كتب مرسوم سلطاني سنة ٧٦٤هـ يقضي برده من يعتقد معتقد الرافضة والشيعة ودعوته إلى الرجوع إلى مذهب أهل السنة والجماعة، ومنع أكابرهم من العقود الفاسدة والأنكحة الباطلة، والتعرض إلى أحد من الصحابة رضوان الله عليهم، وأن كل من سلك طريقهم، وادعى شيئاً من بدعهم، قوبل بالعذاب الشديد، وقد تعرض

(١) انظر: صبيح الأعشى: ١٣/٢٢٤ - ٢٥٦، التعريف: ٢٢١ - ٢٣٢

(٢) انظر ص ٩١ من هذا البحث

(٣) كنز الدرر: ٩/١٣٤ - ١٣٥

(٤) المصدر نفسه: ٩/١٣٩ - ١٤٢

المرسوم السلطاني إلى شيء من معتقداتهم، مبيناً زيفها وبطلانها، ومن ذلك قوله: "وكان من أسخفهم عقلاً، وأضعفهم نقلاً، وأوهنهم حجة، وأبعدهم من الرشد محجة طائفة الرافضة والشيعية، لا تركابهم أموراً شنيعة، وإظهارهم كل مقالة فظيعة، وخرقهم الإجماع، وجمعهم قبيح الابتداع... وتجروا على تبديل قواعد الدين، وأقدموا على نبذ أقوال الأئمة المرشدين... وتمسكوا بأثار موضوعة، وحكايات إلى غير الثقافت مرفوعة... يطعنون في أئمة الإسلام، ويسبون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة والسلام، ويدعون أنهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو بريء منهم منزّه عما يصدر عنهم، فقدّره أرفع عند الله والناس، ومحلّه أعلى بالنص والقياس... وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها وصيدا ونواحيها وأعمالها المضافة إليها، وجهاتها المحسوبة عليها قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه، وعملوا به وقرروه..."، ثم يبين بعض ما يعتقدون من معتقدات باطلة فاسدة، 'وأنهم يسبون خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ويستحلون دم أهل السنة من المسلمين، ويستبيحون نكاح المتعة ويرتكبونه، ويأكلون مال مخالفيهم وينتهبونه، ويجمعون بين الأختين في النكاح، ويتدينون بالكفر الصراح، وأردنا أن نجهز طائفة من عسكر الإسلام، وفرقة من جند الإمام، تستأصل شأفة هذه العصابة الملحدة، وتطهر الأرض من رجس هذه المفسدة، ثم رأينا أن نقدم الإنذار، ونسبق إليهم بالإعذار، فكتبنا هذا الكتاب، ووجهنا هذا الخطاب...'(١)

فقد كشف هذا المرسوم السلطاني الكثير من معتقدات هذه الطائفة.

وكان قد وصل إلى مسامع السلطان في مصر استفحال أمر الطائفة النصيرية في منطقة طرابلس، فقرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون إعادة تنظيم أمورهم بما يسمى: "روك نيابة طرابلس وضواحيها سنة ٧١٧هـ، حيث رسم بإبطال جهة الأفراح والسجون وغير ذلك، كما رسم أن يُبنى بقرى النصيرية في كل قرية مسجد، وأن يوقف عليه من أراضي هذه القرية، وأن تمنع طائفة النصيرية من الخطاب، فمما ورد في هذا المرسوم: "ولما اتصل بعلومنا الشريفة أن بالمملكة الطرابلسية آثار سوء ليست في غيرها، ومواطن فسق لا يقدر غيرنا على دفع ضررها وضيرها، ومظان آثام يجد الشيطان فيها مجالاً فسحاً، وقرى لا يوجد بها من كان إسلامه مقبولاً، ولا من كان دينه صحيحاً، وخموراً يتظاهر بها، ويتصل سبب الكبانر بسببها، وتشتاع في الخلائق مجهرًا، وتباع على رؤوس الأشهاد فلا يوجد لهذا المنكر منكر.... ومما أنهى إليها أن بها حانة عبر عنها بالأفراح قد تطاير شررها، وتفاقم ضررها، يتظاهر فيها بما أمر بستره من القاذورات، ويؤتى ما يجب تجنبه من المحذورات، ويسترسل في الانشراح فيها إلى ما يؤدي إلى غضب الجبار، وتتهافت النفوس بها كالفراس على الاقتحام في النار... ومنها أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرى سكانها يعرفون بالنصيرية، لم يلج الإسلام لهم قلباً، ولا خالط لهم لباً، بل يخالفون أحكامه، ويجهلون حلاله وحرامه، ويخلطون ذبائحهم بذبائح المسلمين، ومقابرهم بمقابر أهل الدين... فعند ذلك رغبتنا أن نفعل في هذه الأمور ما يبقى ذكره مفخرة

على مر الأيام، وتدوم بهجته بدوام دولة الإسلام... أما النصيرية، فليعمر في بلادهم بكل قرية مسجد، وليطلق له من أرض القرية المذكورة قطعة أرض تقوم به وبمن يكون فيه للقيام بمصالحه على حسب الكفاية، وكذلك رسمنا أيضا بمنع النصيرية المذكورة من الخطاب، وأن لا يمكنوا بعد مرسومنا هذا من الخطاب جملة كافية، وتؤخذ الشهادة على أكابرهم ومشايخ قراهم بأن لا يعود أحد إلى التظاهر بالخطاب، ومن تظاهر قوبل أشد مقابلة... فلتعتمد مراسمنا الشريفة، ولا يعدل عن شيء منها.."(١)

فالمرسوم، كما نلاحظ، يبين لنا بعض معتقدات هذه الطائفة من استحلالهم الخمر، وتظاهرهم بالمنكرات، وما يسمى عندهم بالخطاب، حيث يحتفل بالصبي منهم إذا بلغ الحلم، بجمع بعض أكابرهم، يأكلون، ويشربون الخمر، ثم يحلف المخاطب بكتمان ما يودع إليه من تعاليم ومعتقدات المذهب، حيث يلقي هذه التعاليم.(٢)، هذا وقد أفتى العلماء بتكفير هذه الطائفة، وأقروا بعدم استخدام أي منهم في أي أمر من أمور المسلمين، أو استخدامهم لحماية الثغور.(٣)

ج - تصويره لأحوال أهل الذمة من اليهود والنصارى

استخدم اليهود والنصارى من أهل الذمة في دواوين الدولة المختلفة أو عند الأمراء، ويبدو أن أحوالهم في دولة المماليك كانت جيدة، إذ كانوا يلبسون أفخر الملابس، ويركبون الخيل والبغال، ويستخدمون في مناصب الدولة ووظائفها، ويبدو أن ذلك قد كثر إلى درجة جعلت وزير ملك المغرب الذي قدم القاهرة في طريقه إلى الحج سنة ٧٠٠هـ، يحتج لدى الملك الناصر محمد ابن قلاوون، حيث تحدث معه ومع الأميرين سلاّر ويبرس الجاشنكير بشأن أهل الذمة، حيث أنكر حال اليهود والنصارى في الديار المصرية والشامية، وبين أنهم في بلاد المغرب في غاية الذل والهوان، لا يمكنهم ركوب الخيل، ولا يستخدمون في الجهات الديوانية، فخرج الأمر السلطاني بأن لا يستخدم أحد منهم في الجهات السلطانية ولا عند الأمراء، وأن تغير عمانهم، فيلبس النصارى العمامة الزرق، وتشد في أوساطهم الزنانيير، ويلبس اليهود العمامة الصفرة، والسمرّة من اليهود العمامة الحمر، كما ألزموا أن يركبوا الحمير، وأن يلف أحدهم إحدى

(١) السلوك: ج ٩٣٥/٢ - ٩٤١

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٩٣٦/٢

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٩٤٢/٢ - ٩٥٢

رجليه إذا ركب، وأن يقصر بنيانهم المجاور للمسلمين عن بناء المسلم..."(١)

ولكن يبدو أن هذا الأمر السلطاني لم يعمل به إلا فترة وجيزة من الزمن، حيث يصدر أمر سلطاني آخر سنة ٧٢٢هـ بشأن أحوال أهل الذمة، يقرر على النصارى مضاعفة الجزية، فيؤخذ منهم جزيتان، وأن يلبسوا الثياب الزرق مضافة إلى العمام، وأن يشدوا الزنانير فوق ثيابهم، وأن يميزوا إذا دخلوا الحمام بجلجل يجعلونه في أعناقهم، وأن لا يستخدموا في الدواوين السلطانية، ولا في دواوين الأمراء ولا في الأعمال الأخرى، ومن هذا المرسوم: "وكان جماعة من مفسدي النصارى قد تعدوا وطمعوا وتمادوا في المخالفة إلى ما تقتضي بعض العهود، وبغوا ومكروا مكرًا كبيرًا، فادخلوا نارًا، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارًا، وتعرضوا للرمي بنار أطفأها الله تعالى بفضله، ومكروا مكرًا سينًا ولا يحق المكر السيء إلا بأهله، اقتضى رأينا الشريف أن نأخذهم بالشرع الشريف في كل قضية، ولنجدد عليهم العهود العمرية، وأن نقرر على من شمله عفونا ممن ضعف منهم الجزية ما تكون به أنفسهم تحت سيوفنا مرتبهة، ونضرب عليهم في لباسهم وحرمانهم الذلة والمسكنة، فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني... أن تستقر الجزية على سائر النصارى بالوجه القبلي ضعف ما عليهم الآن... وأن تلبس سائر النصارى عمام زرقًا وجبايا زرقًا، ويشدوا الزنار في أوساطهم، وأن لا يستخدم أحد من الأمراء أحدًا من النصارى عنده، وأن يبطلوا جميعهم من الجهات التي كانوا يخدمون بها، والحذر ثم الحذر من أن أحدًا منهم يخرج عما رسمنا به، ومن فعل ذلك منهم كانت روحه قبالة ذلك، ولا تنفعه بعدها فدية ولا جزية..."(٢)

ويبدو أيضًا أن هذا المرسوم السلطاني لم يتم العمل به، ولم ينفذ ما جاء فيه، فلم يطالب النصارى بمضاعفة الجزية، كما منع بعضهم من العمل أياما قلانل، وأسلم بعض كتاب الأمراء، فاستقروا على وظائفهم، كما استقر سائر الموظفين والمستخدمين منهم على أعمالهم، وذلك أن ناظر الدولة أعلم السلطان أن جماعة منهم في الأعمال السلطانية، ومتى صرفوا قبل انتهاء السنة فسدت الأحوال، وتعطلت المصالح، وسأله أن يستمروا بقية السنة، ويفصلوا بعد رفع الحساب، فوافقه السلطان على ذلك، مما أدى إلى عدم تنفيذ هذه الأوامر لاحقًا.(٣)

(١) كنز الدرر: ٤٧/٩، صبح الأعشى: ٣٧٧/١٣ - ٣٧٨

(٢) السلوك: ٩٥٩/٢ - ٩٦١

(٣) انظر: السلوك: ٩٦٢/٢

وفي عام ٧٥٥هـ يصدر مرسوم سلطاني آخر يقضي بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية، فعليهم أن لا يحدثوا في البلاد الإسلامية ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب منها، ولا يؤووا جاسوساً ولا من فيه ريبة لأهل الإسلام، وأن لا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، وأن يلبسوا الغيار الأزرق والأصفر، وتمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين، وكذلك أن لا يركبوا سرجاً ولا يتقلدوا سيفاً، ولا يركبوا الخيل والبغال، ولا يبيعوا الخمر، وأن يلزموا حيث كانوا، ويشدوا زنانيرهم غير الحرير على أوساطهم، والمرأة البارزة من النصاري تلبس الإزار الكتان المصبوغ أزرق، واليهودية الإزار الأصفر، ولا يدخل أحد منهم الحمام إلا بعلامة تميزه عن المسلمين في عنقه من خاتم حديد أو رصاص أو غير ذلك... كما اقتضى المرسوم أن لا يخدموا في الدولة، ولا عند أحد من أمرائها، وأن لا يلوا وظيفة يعلو فيها أمرهم على أحد من المسلمين. (١)

ومما جاء في نص هذا المرسوم: "وقد أذلهم الله جل وعز لافترائهم واجترانهم على كتابه العزيز في مواضع عدة، فقال تعالى: "ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة"، فوجب أن لا يكونوا على الأعمال آمنة، ولا للأموال خزنة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اليهود والنصارى خونة"، وقال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: "لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشى في دينهم، ولا تحل الرشى، فباعترالهم واختزالهم يؤمن من مكرهم وخيانتهم ما يختشى..." (٢)

وكانت مهمة مراقبة أحوالهم موكلة للمحتسب، حيث ينبغي له أن يشترط عليهم ما اشترطه عمر بن الخطاب في كتابه الذي كتبه لأهل الذمة. (٣)

وفي عام ٧٦٥هـ يكتب عن نائب طرابلس إلى نائب حصن الأكراد بايपाल ما أحدث من الخمارة والفواحش، وإلزام أهل الذمة بما أجري عليهم أحكامه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من الأمور التي أشرنا إليها سابقاً، ومما جاء في هذا المرسوم: 'وأما أهل الذمة فما رفع

(١) انظر: صبح الأعشى: ٣٧٩/١٣ - ٣٨٧

(٢) صبح الأعشى: ٣٨٥/١٣

(٣) انظر في ذلك: نهاية الرتبة: ٢٠٧

عنهم السيف إلا بإعطاء الجزية والتزام الأحكام، وأخذ عهود أكيدة عليهم من أهل النقض والإبرام، فليتقدم الجناح الكريم بإلزامهم بما ألزمهم به الفاروق رضي الله عنه، وليلجنهم في كل أحوالهم إلى ما أنجاهم إليه، من إظهار الذلة والصغار، وتغيير الفعل وشدة الزنار، وتعريف المرأة بصبغ الإزار، وليمنعوا من إظهار المنكر والخمر والناقوس، وليجعل الخاتم أو الحديد في رقابهم عند التجرد في الحمام... (١)

وكما عمل المماليك على تنظيم أمور الطوائف المختلفة في الدولة، فقد عملوا على تنظيم أمور أهل الذمة أيضاً من خلال تعيين رئيس لكل طائفة منهم، يكون مسؤولاً عن تنظيم أمورهم، والحكم بين أبنائها وفق تعاليم شريعتهم، وما يقتضيه دينهم ومذهبهم، فقد مر بنا تعيين رئيس لطائفة السامرة (٢)، كما حرصوا على تعيين بطريرك لكل طائفة من طوائف النصارى من البعاقبة والملكية (٣)، ويبدو أن الهدف من ذلك هو القدرة على تحديد المسؤولية لدى كل طائفة، إذ إن على رئيس كل طائفة أن يعمم هبة الدولة على أفراد طائفته، ولننظر في نسخة توقيع لبطريرك البعاقبة: 'فليتول ذلك سالكاً من طرق النزاهة ما يجب، فاصلاً بين النصارى بأحكام دينه التي لا تخفى عليه ولا تحتجب... لتصبح أحكام كبيرهم وصغيرهم به منوطة، ومواريتهم مقسومة بشرعته التي هي لديهم مبسطة، ويقف كل منهم عند تحريمه وتحليله، ولا يخرج في شرعتهم عن فعله وقوله، ولا يقدم منهم إلا من رضي بتأهيله، وليأمر كل قاص منهم ودان، ومن يتعبد بالديرة والصوامع من الرجال والنسوان، برفع الأدعية بدوام دولتنا القاهرة، التي أسدت لهم هذا الإحسان، ويلزم كلاً منهم بأن لا يحدث حادثاً، ويكرم نزل من قدم عليه راحلاً أو لايتأ... (٤)

وكما أظهر لنا النثر بعضاً من معتقدات المذاهب الإسلامية المختلفة، فقد كشف لنا عن بعض معتقدات ومبادئ أهل الكتاب أيضاً، وذلك من خلال نسخ الأيمان التي يحلف بها هؤلاء، فمما يحلف به اليهودي مثلاً: 'وإلا تعبدت فرعون وهامان وهرنت من إسرائيل، ودنت بدين النصرانية، واعتقدت أن عيسى بن مريم المسيح الموعود به على لسان موسى بن عمران، وانتقلت عن اليهودية إلى سواها من الأديان، واستبحت لحم الجمل والشحم والحوايا وما

(١) صبح الأعشى: ٢٢/١٣ - ٢٣

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٣٨٦/١١

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٨٧/١١ - ٣٩٩

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٣٩٨/١١

اختلط بعظم... (١)

ومما يحلف به السامري، مما يكشف عن كثير من عقائدهم: 'وإلا كفرت بما في التوراة، وبرنت من نبوة موسى... واستبحت حرمة السبت، وقلت بالتأويل في الدين، وأقررت بصحة توراة اليهود، وأنكرت القول بأن لا مساس، ولم أتجنب شيئاً من الذبائح...' (٢)

ومما يحلف به النصارى مما يكشف عن عقائد مذاهبهم المختلفة: 'وقلت في السيدة مريم قول اليهود، ودنت بدينهم في الجحود، وأنكرت اتحاد اللاهوت بالناسوت، وبرنت من الأب والابن وروح القدس... وجدت مذهب الملكانية، وسفهت رأي الرهبان، وأنكرت وقوع الصليب على السيد يسوع...' (٣)، وإن كان من اليعاقبة بدل قوله: 'اتحاد اللاهوت بالناسوت'، بقوله: 'مماسة اللاهوت للناسوت...' (٥)

ويكشف لنا النثر بعد هذا عن محاولات أهل الذمة للتخريب في مرافق الدولة وممتلكاتها العامة، ويبدو أن كثيراً من الحرائق العامة التي حدثت في مصر والشام كان النصارى سببها، ففي حريق عام ٧٤٠ هـ الذي حدث في دمشق اتهم النصارى أنهم مدبرو هذا الحريق، وقد أقرروا بذلك (٦)، وقد سجل النثر هذا الحدث، حيث صرح بذلك ابن الوردي في مقامته التي وصف فيها ذلك الحريق، حيث أظهر سببه، فقال: 'واختلجت الظنون في سبب هذا الأمر، وأعملت الفكر في مسعر هذا الجمر، بغيط أهم الصبح فتتفس الصعداء، وحنق انفلق له الفجر زفيراً وكمداً، حتى أظهر الله تعالى أنه من النصارى، الضالين الحيارى، قصدوا به الجامع والمشاهد، ومدارس العلم والمساجد، لا بل دمشق بأكملها، لا بل بلاد الإسلام برمتها، بمكاتبات من ملوك الإفرنج وأشباههم، يريدون ليطفنوا نور الله بأفواههم"، وجهزوا لهم من البحر سكاكين مسمومات، ليذبحوا بها الذبائح للمسلمين في أيام معلومات، وحرصوهم على حريق الحرمين عناداً وكفراً، وضمن لهم القسيسون بذلك الجنة ولكن الحمرا...' (٧)

(١) التعريف: ٢١٥، وانظر: صبح الأعشى: ٢٦٨/١٣ - ٢٧٠

(٢) المصدر نفسه: ٢١٩ - ٢٢٠، وانظر: صبح الأعشى: ٢٧٣/١٣

(٣) المصدر نفسه: ٢١٧، وانظر: المصدر نفسه: ٢٩١/١٣

(٤) المصدر نفسه: ٢١٨، وانظر: المصدر نفسه: ٢٩٢/١٣

(٥) المصدر نفسه: ٢١٩، وانظر: المصدر نفسه: ٢٩٣/١٣

(٦) انظر: تاريخ ابن الوردي: ٣٢٩/٢، وتذكرة النبيه: ٣١٣/٢

(٧) ديوان ابن الوردي: ١٢٦

د - تصويره لتنظيم المساجد والوقف الإسلامي.

كان يطلق على الأوقاف في العصر المملوكي الأحباس: ومفرده: الحبس: وهو ما وقفه صاحبه وفقاً محرماً لا يورث ولا يباع، ويقال فيه: الحبس بسكون الباء. (١) قال القلقشندي: الأحباس: جمع حبس وهو الوقف. (٢)

وأما النظر: فيموضوعه: التحدث في أمور خاصة بإباحة ضروراتها وعمل مصالحها واستخراج متحصل جهاتها، وصرفه على الوجه المعتبر وما يجري مجرى ذلك. (٣)

وبذلك يكون عمل نظر الأحباس (الوقف)، التحدث في أمور الوقف بإباحة ضروراتها وعمل مصالحها، واستخراج متحصل جهاتها، وصرفه على الوجه المعتبر، وقد بدأت هذه الوظيفة في العصر المملوكي زمن الظاهر بيبرس، حيث أفرد صاحب بهاء الدين بن حنا للجوامع والمساجد والربط والزوايا ونحو ذلك رزقاً، وأوكل مهمة تنظيم أمورها ومصلحتها لناظر الأحباس ومباشرين آخرين معه، وقد كان يلي هذه الوظيفة أحد أرباب الوظائف الدينية. (٤)

وقد حددت المكاتبات الخاصة بتعيين ناظر الأحباس واجبات هذا الموظف، فمما ورد فيها: "فإن خير من عول عليه في تأسيس بيوت الله وعمارة ربوعها، ولم شعثها، وشعب صدوعها، والقيام بوظائفها، وتسهيل لطائفها، وتأهيل نواحيها، لهبوط الملائكة لتلقي المصلين فيها، من كان ذا عزم لا تأخذه في الله لومة لائم... وليجتهد كل الاجتهاد في صرف ريع المساجد والجوامع في مصارفها الشرعية وجهاتها المرعية، وليأخذ أهلها بالملزمة في أحيائها وأوقاتها وعمارتها بمصايبها وآلاتها، وحفظ ما يحفظون به لأجلها، ومعاملتهم بالكرامة التي ينبغي أن يعامل مثلهم بمثلها، وليحرر في إخراج الحالات إذا خرجت وأخرجت، وفي مستحقات الأجائر إذا استحققت وإذا عجلت..." (٥)

ومعروف أنه من شروط الوقف المحافظة على شروط الواقف، ولهذا يوصى ناظر الوقف... "فليباشر هذه الوظيفة مباشرة حسنة التأثير، جميلة التثمير، مأمونة التغيير، مخصوصة بالتعبير، ولينظر في هذه الأوقاف على اختلافها من ربوع ومباني*، ومسكن ومغاني*، وخانات

(١) انظر: اللسان: مادة: حبس

(٢) صبح الأعشى: ٢٤٨/١١

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٨/١١

(٤) المصدر نفسه: ٢٤٩/١١

(٥) المصدر نفسه: ٢٥٢/١١ - ٢٥٣

* هكذا في النص، وصوابها: ومبان ومغان.

مسبلة، وحوانيت مكملة، ومسقفات معمورة، وساحات مأجورة غير مهجورة، وليبدأ بالعمارة، فإنها تحفظ العين وتكفي البناء دشوره، وليتبع شروط الواقفين، ولا يعدل عنها فإن في ذلك سروره، ويندرج في هذه الأوقاف ما هو على المساجد ومواطن الذكر، فليقم شعارها، وليحفظ آثارها، وليرفع منارها. (١)

ولم يقتصر تنظيم شؤون الوقف الإسلامي على تعيين ناظر الأوقاف فحسب، بل كان هناك مجموعة من الوظائف الدينية الأخرى التي تختص بشؤون المساجد والوقف، منها: نظر الجوامع والمشاهد، ومهمته: النظر في أوقاف المسجد ومحاولة تثميرها، وملاحظة مباني المسجد، ثم صرف المستحقات في وجوهها، والحرص في اختيار الأكفاء من الأمناء والقوام والوقادين وغيرهم من خدم المسجد، فمما جاء من المكاتبات في بيان واجبات ناظر الجامع الأموي: "قليلاً ما فوض إليه بعزم لا تغل مضاربه، ورأي لا تأفل كواكبه... ناظراً في حسن وظيفتها باجتهاد لا يمل من النظر، مثمراً لأوقافها بغصن قلمه الذي لا ينكر لأصله الصائب أطيب الثمر، ملاحظاً لمباني هذا الجامع بسعاده، وإن السعادة لتلحظ الحجر، صارفاً لذوي الاستحقاق مستحقهم كما عهدوا من إمام براعته المنتظر... متخيراً من الكفاة كل مأثور الفضيلة، ومن الأمناء كل مأمون الرذيلة، ومن القوام كل من لا يقعد عن الواجب، ومن الوقادين كل من لا يعاب بطول الفتيلة..." (٢)

ويكاد يشبه عمل ناظر المسجد عمل ناظر البيمارستان أو ناظر المدرسة أو الزاوية، لأنها كلها تتبع في ذلك الوقت للوقف، فمما ورد في بيان واجبات ناظر البيمارستان المنصوري... "ولينظر في عموم مصالحها وخصوصها نظراً يسد خللها، ويزيح عللها، ويعمر أصولها، ويثمر محصولها، ويحفظ في أماكنها أموالها، ويقيم معالم العلوم في أرجائها، ويستنزل بها مواد الرحمة لساكنها بالسنة قرانها، ويستعيد صحة من بها من الضعفاء بإعداد الذخائر لملاطفة أسقامها، ومعالجة أدوائها، ويحافظ على شروط الواقف في إقامة وظائفها، واعتبار مصارفها، وتقديم ما قدمه مع ملازمة تدبيره باستكمال ذلك على أكمل ما يجب، وتمييز حواصلها لما يستدعي إليها من الأصناف التي يعز وجودها ويجتلب، وضبط تلك الحواصل التي لا خزان لها أوثق من أيدي أمنائه وتقائه، ولا مودع لها أوفق من أمانة من يتقي الله حق تقائه..." (٣)

(١) صبح الأعشى: ٢٥٤/١١ - ٢٥٥

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٩/١٢

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٧/١٢

ومما يدخل في باب تنظيم الأحوال الدينية: تعيين خطيب لكل مسجد، يخطب في الناس، ويعظهم، فمما يوصى به الخطيب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون كلامه مراعيًا للمقام، فمما جاء في وصية خطيب: "وليقرع المسامع بالوعد والوعيد، ويذكر بأيام الله من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"، ويلين القلوب القاسية، وإن كان منها ما هو أشد قسوة من الحجارة والحديد، وليكن قد قدم لنفسه قبل أن يتقدم، وليسبل عليه درع التوبة قبل أن يتكلم، وليجعل لكل مقام مقالا، يقوم به على رؤوس الأشهاد، ويفوق منه سهماً لا يخطيء موقعه كل فؤاد..." (١)

كما يقضي تنظيم شؤون المساجد تعيين الإمام أيضاً، وقد حدد النثر ذلك، ومن هذا ما ورد في بعض المكاتبات الديوانية: "فإن خير الرتب في هذا العصر، وفيما تقدم، رتبة الإمام، حيث تقدم سيد البشر في محرابها على الأمة وأم، فاخترها من اتبع الطريقة المحمدية وشرعها، وعلم سناءها ورفعها، فزاد بذلك سمواً إلى سموه، وحصل على تضاعف الأجر ونموه..." (٢)

ومن تلك الوظائف أيضاً وظيفة تسمى: التصدير، وموضوعها: "الجلوس بصدر المجلس بجامع أو نحوه، ويجلس متكلم أمامه على كرسي كأنه يقرأ عليه، يفتتح بالتفسير ثم بالرقائق والوعظيات، فإذا انتهى كلامه وسكت أخذ المتصدر في الكلام على ما هو في معنى تفسير الآية التي يقع الكلام عليها، ويستدرج من ذلك إلى ما سنج له من الكلام..." (٣)، وتوضح المكاتبات الخاصة بهذه الوظيفة شيئاً من واجبات المتصدر، فمما ورد في بعضها: "وليستد إلى صدر مجلس يقول فيه ويطول، وليبين من معاني كتاب الله ما أجمل، ويوضح من خفي مقاصده ما أشكل، وليسلك في تفسيره أقوم سنن، ويعلم بأسرار الخفية، فسر كتاب الله أجدر أن يكون عن علن، وليجر فيه على ما ألف من تحقيقاته، فإنه إذا لم يحقق المناظرة فمن؟" (٤)

ومن تلك الوظائف أيضاً، تعيين شيخ للإقراء في مسجد أو زاوية أو مشهد، حسب شروط الواقف، وقد حددت المكاتبات في هذا المجال شروط من يتولى هذه الوظيفة، فهو: "صاحب القراءة والبيان الذي لا يعوز زمان طلبته أبو عمر ولا أبو عمرو، والجامع لعلوم كتاب الله تعالى جمع سلامة في فنه، وصحة في شرف ذهنه، وجواز أمر يشهد أن البحر يخرج لادى

(١) صبح الأعشى: ٢٢٢/١١

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٣/١١

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٧/١١

(٤) المصدر نفسه: ٢٤٨/١١

المشكلات من صدره، ويدخل عند عقد الحبا في رده، والقارىء الذي إذا قال مبيناً قال الذي عنده علم الكتاب، والتالي إذا قصر أو مد، مد إلى سموات العلى بأسباب، والمشير إلى علمه المرسوم بمصحفه فلا عدم اشارته ومرسومه أولو الأبواب، والمجلي وإن سماه العرف تالياً، والمنقب عن غوامض التفسير، وابن النقيب أولى بسند التفسير عالياً... (١)

فمؤهلات هذه الوظيفة: العلم بعلوم القرآن كافة، والقدرة على قراءته وتلاوته وتجويده، بالإضافة إلى علم تام بالتفسير، وإتقان علوم اللغة.

وقد أولى سلاطين المماليك عناية فائقة بالمساجد الثلاثة في الإسلام، ألا وهي: المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، بالإضافة إلى الحرم الإبراهيمي.

ففي مكة، كان الإشراف على الحرم وسائر مناسك الحج من واجبات أمير مكة، وقد حدد تقليد الإمارة لأمير مكة الواجبات الملقاة على عاتقه، ومن ذلك: "فليحل البلد الحرام حاكماً وأمراً، وليستجلب له من العاكف والباد شاكراً، وليحسن للطائفين والعاكفين والركع السجود، وليتبع آثار آبائه أهل الكرم والجود، وليؤمن الخائف في تلك التهائم والنجود، وليروع الحائف عن حيفه فلا يعود، وليقف مع أمراء الحاج مقيماً لحرمتهم بجميل الاحترام... وليكن سياجاً على الحجاج في تلك الفجاج..." (٢)

وأما في المدينة، فقد خصص المماليك للحرم النبوي وظيفة خاصة، تسمى: "مشيخة الحرم الشريف"، من مهماتها: الإشراف على خدم الحرم النبوي الشريف، فمما يوصى به صاحب هذه الوظيفة: "ملزماً كلاً من طائفة الخدام بما يقربه عند الله زلفى، ويضاعف الحسنة الواحدة سبعين ضعفاً، هادياً من ضل في قوانين الخدمة إلى سواء السبيل، مبدياً لهم من آداب سلوكه ما يغدو لهم منه أوضح هاد وأنور دليل..." (٣)

وأما بالنسبة للمسجد الأقصى والحرم الإبراهيمي، فقد جعل المماليك لهما ديواناً خاصاً، يتولى أمره موظف، يسمى: صحابة ديوان الحرمين، أو ناظر ديوان الحرمين، يكون من واجباته: مباشرة أوقافهما، والإشراف على أرباب الخدم فيها، فمما يوصى به صاحب هذه الوظيفة: "وليعلم أن نظره في هذا البيت المقدس نظير نظره في البيت المحرم، وأن تدممه بضريح الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام مثل تدممه بقبر ابنه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم... فليباشِر هذا النظر بعين لا تمل من النظر، ولا تخل بمصالح يوفي بها النذر من نذر، وليتعهد

(١) صبح الأعشى: ٤١٦/١٢

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٢/١٢ - ٢٣٣

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٦/١٢

هذين الحرمين الشريفين متعهدا لأوقافهما تعهد المطر، وليتردد في أكنافهما تردد الظفر، وليتفقد دوام إسعافهما بما وصلت إليه طاقته وما قدر، وليقم وظائفهما أتم القيام، وليدم عوارفهما التي تعم من جاور فيهما مقيماً أو قرَّيهما وما أقام، وليلزم أرباب الخدم فيهما بما يلزم كلاً منهم عمله، وليزِم في قلوبهم رعباً لا يغيب عن عيانهم تمثله..." (١)

هذا، وقد حرص سلاطين وأمراء المماليك على تأمين الطريق إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، فقد خصصوا وظيفة لرعاية درب الحجاز، خاصة بالمسافرين من الشام، سميت "نظر السبيل بدرب الحجاز"، يكون من واجبات صاحبها: متابعة الحجيج ورعاية شؤونهم، وتيسير الراحة للمنقطع منهم، وتوفير الطعام والشراب والأدوية لهم، فقد جاء فيما يوصى به: "متصرفاً في الإرفاد والإرفاق بأراء يؤيد الله بها الذين هم رفاق وأي رفاق، منفقاً في سبيل الله على يده أعدل إنفاق، حامياً عدله من لفظة نفاق، مخصباً بإنعام الدولة الشريفة في الفقر الماحل، حاملاً للمنقطع على أنهض وأبرك الرواحل، مواصلاً لنقل الأزواد إقامته ومسيره، وبالماء والشراب الطيبين الطهورين ضعيفه وفقيره، وبأنواع الأدوية والعقاقير التي تعم متتابع الركب وعقيقه، وتجبر على الحالين كسيره..." (٢)

هـ - تصويره للاهتمام بطائفة الصوفية ورعاية شؤونها.

مر بنا حرص سلاطين وأمراء المماليك على الاهتمام بشؤون طائفة الصوفية، من خلال بناء الخوانق والزوايا والربط الخاصة، ووقفها على مجموعة منها، بالإضافة إلى وقف الأموال والإقطاعات الواسعة، للإنفاق على هذه المؤسسات، كما بينت دور هذه المؤسسات التربوي والعلمي والاجتماعي والديني.

وبهدف ترتيب شؤون هذه الطائفة، وتنظيم أحوالها، فقد اهتم سلاطين المماليك ونوابهم في الولايات المختلفة بتعيين رئيس لهذه الطائفة، يرعى أمورها، ويعمل على متابعة شؤونها، وقد كان هذا المنصب يحمل اسم "شيخ الشيوخ" حيث تمتد رئاسته لتشمل الديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية، وسائر الممالك الإسلامية، وقد كان هذا اللقب يطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية "سعيد السعداء"، ولم يزل كذلك إلى أن بنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس، فاستقرت مشيخة الشيوخ على من كان شيخاً بها. (٣)

(١) التعريف: ١٤٤، وانظر: صبح الأعشى: ٤٠٣/١٢ - ٤٠٤

(٢) صبح الأعشى: ٣٨٠/١٢

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٦٤/١١ - ٣٦٥

وقد حدد النثر في هذا العصر واجبات هذا الشيخ والأمور التي يجب عليه مراعاتها، ويبدو أن واجباته تقسم إلى قسمين: واجبات إدارية، وواجبات دينية. أما الواجبات الإدارية: فمراعاة أمور الخوانق والمحافظة على استقلاليتها عن أية جهة أو ولاية، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه في ذلك حديث، وتكون أمور الخانقاه فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة له، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا ينتسب إلا بإذنه، أي أن من واجباته أيضا قبول الأعضاء الجدد، فقد جاء في المكاتبات الخاصة بتعيين شيخ الشيوخ: "رسم بالأمر الشريف أن يفوض إلى المشار إليه مشيخة الخانقاه السعيدة والناصرية بسرياقوس، ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية، والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية، وسائر الممالك الإسلامية المحروسة على عادته في ذلك وقاعدته ومعلومه، وأن يكون ما يخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية بالخانقاه المذكورة للمشار إليه، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه في ذلك حديث، وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه، ولا يشهد من الصوفية، ولا ينتسب إلا بإذنه على العادة في ذلك." (١)

هذه واجبات شيخ الشيوخ الإدارية، أما واجباته الدينية فأهمها: حفظ هذه الطريقة من البدع والضلالات، فينبه إلى جوانب ذلك في المكاتبات الخاصة بذلك، ومن ذلك: "والزم كلاً ممن عندك، أو استجد تلاوة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهما الثقلان، وحسب من غرّى بهما قلبه وهو ملأن، فلا طريق إلى الله إلا من سبيلهما، ولا هدى إلا لمن استرشد بدليلهما، فعليك بهما فهما المنهاج والشرعة، وإياك إياك من كل محدثة، فكل محدثة ضلالة، وكل ضلالة بدعة، فاتخذهما لك إلى الله الذريعة، وأمر بتجنب ما سواهما، فقد أجمعت الأمة على بطلان كل حقيقة تخالفها الشريعة". كما تذكر هذه المكاتبات بعضاً من هذه البدع والضلالات من أجل أن يكون هو وجماعته على حذر منها، ومن ذلك: "ومن مال إلى ما نعوذ بالله منه من اتحاد أو حلول، أو ادعى أنه يكون له إلى الله من غير طريق الأنبياء صلوات الله عليهم ووصول، فكن أنت المنكر عليه، والسابق بعذلك السيف إليه، ومن لم يكن قلبه قد أشرب كفرًا، ولا أعمل في إقامته الدليل فكرًا، فأخذه بالتوبة والاستغفار، وخذه بما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم، قل: إنما الإله واحد، لا إله إلا هو سبحانه هو الله الواحد القهار". ثم يطلب من شيخ الشيوخ أن يأخذ على أيديهم، ولا تأخذه الرأفة بهم: "إياك والرأفة على أحد من هذه الفرقة الضالة رأفة رحيم، أو مخادعة رأيك فيهم فيما أنت به من سوء باطنهم عليهم، وخذ في أمرهم بالحزم... ومن دخل في هذه الطائفة من غير أهلها أو تغير عما عهد عليه لا تحسن له ملتقى،

ولا تدع له مرتقى..."(١)

ومما يوصى به مما يدخل في باب الواجبات الدينية أيضاً: أن يأخذ جماعته بالاجتهاد في العبادة، والمشي على طريق السلف من الزهد والورع والعفاف، وأن يرفق بهم مع ترتيب من استجد منهم، وإجرائهم على طرائق الصوفية وتدريب المريدين على قدر ما تحتمله أفهامهم دون أن يهجم عليهم من أحوال الطريق بما لا تحتمله عقولهم، يقول: "ولا تدع من تراه ترك نافلة حتى ترى دوام السهر على عينيه فرضاً، وأحسن تربية من استجد في التنقل من حال إلى حال، وإيقاظه من أول عشاء حتى يهب وبرود الليل أسما، وتدريب المريدين على قدر ما تحتمله أفهامهم، وتشتمله من مطارف القوة أيامهم..."(٢)

كما حدد النثر مفهوم مصطلح الصوفية ومصدر اشتقاقه، وبين شروط الصوفي وصفاته، ثم كشف عن بعض العادات الصوفية، وأزال سوء الفهم العالق بها،(٣) ومما ورد في ذلك من اتهامات حول الصوفية: "قلت: فلم يجلسون الوارد على باب الرباط، ولا يتلقونه أولاً بالرحب والانبساط؟ قال: لأنه بطاري السفر، قد تهجن طبعه ونفر، فأرادوا بذلك رياضة نفسه، ولينسى عشرة غير أبناء جنسه، ويبني النفس كهؤلاء على الكسر، وينصره الله تعالى على شيطانه، وما النصر..."(٤)

كما كشف النثر عن كثير من مصطلحات الصوفية: كالطريقة والمحبة والجلاء والحقيقة... ومن ذلك: "فإن أولى ما استقام به الشخص على الطريقة، واستدام به الرجوع إلى الحقيقة... طائفة أهل الصلاح". وقوله: "وعذبهم الهوى فاستعذبوا أن لا يلانموا وسناً، ومثل فرط الكلف لهم الأحباب فما رأوا لهم حالاً إلا حسناً". ومنها أيضاً: "وفيها مواضع خلواتهم ومطالع جلواتهم، ومكان صلاتهم، وإمكان صلاتهم..."(٥)

(١) التعريف: ١٨٣ - ١٨٤

(٢) المصدر نفسه: ١٨٢

(٣) انظر: ديوان ابن الوردي "المقامة الصوفية": ١٨ - ٢٨، وص ١٦٠ من هذا البحث.

(٤) المصدر نفسه: ٢٥

(٥) صبح الأعشى: ٣٦٦/١١ - ٣٦٧

هذا بالنسبة للخوانق الرئيسة في القاهرة، أما الخوانق في الممالك والمدن الأخرى، فقد ترك أمر تعيين شيوخها لأمرأء الولايات المختلفة مثل شيخ الخانقاه الصلاحية في دمشق.. (١٩)

كما أشار النثر الخاص في هذا الأمر إلى صفات الصوفي، فهم طائفة من الاتقياء الأخيار الأبرار، وأصحاب الإيثار وأهل الوفاء، "وهم المعروفون بسهام الليل، وأرباب الخطى التي تقصر عنهم خطوات الخيل، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، وجباههم مضيئة من آثار السجود، وهم أضياف الله الذين انقطعوا إليه، ووثقوا بكرمه فرمى أكياسهم، وتوكلوا عليه، ليس لهم صناعة ولا يملكون بضاعة، متجرهم ركعة، ومنهلهم دمة، ورأس مالهم في الماء والمحراب، وريحهم علمهم بأن تراباً ما فوق هذا التراب، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويعمون بمعرفتهم فلا يعدلون به عن العامة إلى الخاصة، يحافظون على الأذكار والجماعة، ويحاسبون أنفسهم على أقوالهم ساعة فساعة..." (٢)

(١) انظر: صبح الأعشى: ١٢/١٠٠

(٢) تاريخ ابن الفرات: ٣٠/٨

رابعاً - تمثيل النثر للحياة العقلية

أ - تمثيله لأصناف العلوم السائدة والتخصصات المختلفة

رأينا في حديثنا عن الحركة العلمية في العصر المملوكي الأول ازدهار هذه الحركة في مختلف فنون العلم التي كانت في ذلك الوقت، كما وقفنا على إسهامات علماء ذلك العصر في تلك العلوم، وسوف نتبين هنا مدى تمثل النثر لتلك العلوم المختلفة، فقد كتب القلقشندي سنة ٧٩٨هـ رسالة في المفاخرة بين العلوم، أنشأها لقاضي القضاة جلال الدين البلقيني، ذكر فيها نيفاً وسبعين علماً، ذاكرًا فضل كل علم على الذي قبله، محتجًا عليه بفضائل موجودة فيه دون الآخر، فقد بدأ هذه العلوم بعلم اللغة، وختمها بفن التاريخ، وأذكر هنا بعضاً من هذه العلوم التي تشترك في المفاخرة: علم اللغة، علم الخط، علم النحو، علوم المعاني والبيان والبديع، علم الشعر، علم القافية، علم العروض، علم الموسيقى، علم الطب، علم البيطرة، علم قص الأثر، علم خط الرمل، علم تعبیر الرؤيا، علم أحكام النجوم، علم الهيئة، علم كيفية الأرصاد، علم المواقيت، علم المناظر، علم المرايا المحرقة، علم الآداب الحربية، علم الكيمياء، علم الحساب المفتوح، علم الجبر والمقابلة، علم الفقه، علم أصول الفقه، علم الجدل، علم المنطق، علم دراية الحديث، علم التصوف، العلم الإلهي، علم تدبير المنزل، علم الأخلاق، علم التاريخ، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من العلوم. (١)

وقد بين القلقشندي في حديثه عن كل علم، فضل هذا العلم على سائر العلوم، كما أشار إلى فوائده وقيّمته وأثره في خدمة الإنسان، ولننظر فيما فخر به علم الطب مثلاً على غيره من العلوم، وكان قد سبقه علم الموسيقى، فقال علم الطب مفاخرًا علم الموسيقى: "لقد أضعت الزمان في اللهو، وملت إلى الأريحية، فماس بك العجب، وزاد بك الزهو، وداخلك الطيش ففقت بالإطراب، وعنيت بمعرفة اللحن ففاتك الإعراب.. وأنت وإن ادعيت أنك العلم الروحاني، والمستولي بتحريك الطبائع الأربع على النوع الإنساني وغير الإنساني، فأنت غير مستغن عني... وأنى تنبسط بك الروح مع وجود السقم، أو يستريح إليك القلب مع شدة مقاساة الألم؟ بل أنا قوام الأبدان، وغاية ملاك الإنسان، بي تحفظ صحة الأجسام، وتتمكن النفس من استكمال قوتها: النظرية والعملية بواسطة زوال الأسقام وانتفاء الآلام مع ما يتضح بالنظر في التشريح

(١) انظر: صبح الأعشى: ٢٣٧/١٤ - ٢٦٣

الذي هو أحد أنواعه من سر قوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"، وما يظهر من حال الصحة والمرض وسر الموت من أنه تعالى بدأ الخلق أول مرة وإليه يحشرون، مع ما يلتحق بي من علم خواص العقاقير الغريبة، والأحجاز التي تؤثر بتمزيجها الصناعي التأثير العجيبة، وتأتي من نواذر الأفعال بالأعمال الغريبة." (١)

ويكشف النثر لنا عن ظاهرة التخصص التي وجدت في هذا العصر، حيث نجد التخصص في مجالات الفقه على المذاهب الأربعة، كما نجد التخصص في مجالات الطب، فهناك: الطب الباطني وطب العيون والجراحة، بالإضافة إلى العظام، بما كان يعرف في ذلك الوقت: طبيب طبائعي وكحال وجراح والمجبر، وقد كشف النثر عن ذلك، حيث خصصت المكاتبات الصادرة إلى المدرسين بحسب تخصصاتهم في مجالات الحديث، والفقه على المذاهب الأربعة أو التفسير أو القراءات أو النحو، فمما يوصى به مدرس النحو مثلاً: 'فليتصدر للإفادة، وليعلمهم مثلما ذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزيادة، وليكن للطلبة نجماً به يهتدى، وليرفع بتعليمه قدر كل حبر يكون خبيراً له وهو المبتدأ، وليقدم منهم كل من صلح للتبريز، واستحق أن ينصب إماماً بالتمييز.' (٢)

ومما يوصى به طبيب طبائعي: 'وليتعرف أولاً حقيقة المرض بأسبابه وعلاماته، ويستقصي أعراض المريض قبل مداواته، ثم ينظر إلى السن والفصل والبلد، ثم إذا عرف حقيقة المرض وقدر ما يحتمله المزاج من الدواء لما عرض، يشرع في تخفيف الحاصل، وقطع الواصل مع حفظ القوى.' (٣)

ومما يوصى به طبيب العيون (الكحال): "ولا تقدم عليها بمداواة (يقصد العين)، حتى تعرف حقيقة المرض، والسبب الذي نال من ذلك الجوهر العرض، ثم داوها مداواة تجلو القذى عن البصر، وتشفي ما بها من السقام إلا الذي في عيون الغيد من حور." (٤)

ومما يوصى به الطبيب الجراح: "واعمل على حفظ الأعصاب، وشد الأعضاء، حتى يتمكن من معالجة المصاب، والتوقي في كل أعماله فإنه في صناعة كلها خطر، وجميع أمورها مغيبة لا يوقف لها على خبر." (٥)

(١) صبح الأعشى: ٢٤٣/١٤ - ٢٤٤

(٢) التعريف: ١٩٥

(٣) المصدر نفسه: ١٩٦

(٤) المصدر نفسه: ١٩٧ - ١٩٨

(٥) المصدر نفسه: ١٩٩

وعلى الرغم من وجود التخصص إلا أن ذلك لا ينفي التعاون بين العلوم والتخصصات المختلفة للعلم الواحد، فهذا الطبيب الكحال يوصى بأن يستشير الطبيب الطبائعي إذا أشكل عليه أمر: 'واستشر الأطباء الطبائعية فيما أهم، وفيما لا يستغني فيه عن رأي مثلهم من تخفيف مادة بالاستفراغ أو نقص دم، إلى غير هذا مما إذا فعلته لم تلم بعده بما ألم.' (١)

ب - تمثيله لمراحل التعليم المختلفة، والتنظيمات الإدارية في المدارس، وواجبات المربين:

تبين أن التعليم في العصر المملوكي الأول كان يمر بثلاث حلقات متسلسلة، إذ تمثلت الحلقة الأولى بالكتاتيب التي كانت منتشرة بكثرة في ذلك الوقت، حتى إذا اجتاز الطالب هذه المرحلة، وكانت لديه القدرة والرغبة في متابعة دراسته ينتقل إلى الحلقة الثانية في مراحل التعليم حيث المدارس والزوايا والربط والخوانق، حيث يتلقى فيها طالب العلم مختلف العلوم والفنون في ذلك الوقت، لينتقل إلى المرحلة الثالثة، مرحلة التعليم العالي حيث المساجد والبيمارستانات التي يتلقى فيها طالب العلم ما يريد من علوم دينية ودنيوية على أيدي كبار العلماء والمشايخ في ذلك الوقت.

وقد وقفنا أيضاً على دور سلاطين وأمراء المماليك في إنشاء دور العلم، على الرغم من تنوعها وتعددتها، وقد أشار النثر أولاً إلى دور هؤلاء السلاطين والأمراء في ذلك، وكشف عن فضلهم وسبقهم في هذا المضمار، ومن ذلك ما جاء في بعض المكاتبات: 'فنحن إما في تجنيد جنود شاع خبر نصرها للإسلام، وإما في تجنيد ركب وسبيل إلى بيت الله الحرام، وإما تشييد أماكن مباركة تبقى وجوه برها على الدوام، فمنها ما يتلى فيه كتاب الله سبحانه وتعالى، وحديث نبيه عليه الصلاة والسلام، ومنها ما يلقي فيه مذاهب الأربعة أئمة، وترفع فيه العلوم أعلام، ومنه ما يطلب فيه الدواء للداء، ويرجى فيه الشفاء من الأسقام، إقامة لمنار علمي الأديان والأبدان، وحفظاً لصحتي الأبدان والأديان.' (٢) فهو يشير هنا إلى فضل سلاطين المماليك في تجنيد الجيوش لنصرة الإسلام، وفي تسيير قوافل الحجيج إلى بيت الله الحرام، بالإضافة إلى بناء المساجد والمدارس والمستشفيات...

(١) التعريف: ١٩٨

(٢) تاريخ ابن الفرات: ٢٧/٨

أما فيما يتعلق بحلقات التعليم، فعلى الأرجح أن أثر الحلقة الأولى لم يظهر في النثر، وذلك لصغر شأن من يقوم على هذه المرحلة، فهم من صغار المعلمين، وتعليمهم يقوم على التلقين على الأرجح، ولكن كتب الحسبة قد حددت واجباتهم وما يقومون به، حيث كان مراقبة عملهم وأدائهم من مهمات المحتسب، فقال في واجباته: 'وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن بعد حذفه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، ويدرجه بذلك، ثم يعرفه عقائد السنن ثم أصول الحساب، وما يستحسن في المراسلات والأشعار دون سخيها ومستزذلها، وفي الرواح يأمرهم بتجويد الخط، ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظا غائبا.' (١)

أما الحلقة الثانية المتمثلة بالتعليم في المدارس والزوايا والخوانق والربط، فيقوم على التدريس فيها مدرسون أو شيوخ يعدون أعلى مرتبة في العلم من سابقهم، لكنهم لا يرقون إلى درجة مدرسي وشيوخ الحلقة الثالثة، ولم يكتب لهذه الفئة مكاتبات خاصة بتعيينهم أيضا.

أما مدرسو ومشايخ الحلقة الثالثة، فكانوا من العلماء ذوي الشأن، وممن يتفوقون على أقرانهم في مجالات علمهم المختلفة، ولهم إسهامات واسعة في التأليف، وقد كشفت المكاتبات الديوانية في هذا المجال عن شروط اختيارهم وانتقائهم، كما كشفت عن واجباتهم، وحددت لهم الطرق والوسائل التي يسلكونها في تدريسهم، وكان هؤلاء العلماء يتصدرون في مجالسهم العلم في المدارس المتخصصة حسب شروط وأقيدها، أو في زوايا خاصة في المساجد، أو في الخوانق الكبرى المشهورة، وقد كانت كتب تعيينهم تصدر عن السلطان أو ما ينوب عنه في الولايات والأمصار المختلفة.

وقد كشفت هذه المكاتبات عن شروط اختيار المدرسين وصفاتهم، فمما بينته في ذلك: التقوى والعفة والديانة والمعرفة بأصول علمه وفروعها، فمما ورد في ذلك في توقيع بتدريس زاوية الشافعي بالجامع العتيق بمصر: 'من حوى معرفة الفروع والأصول، وحاز من مذهبه المذهب خير محصول، ونشأ في حجر الفضائل، واقتدى بحكام بيته الذين لهم في العلوم بمصر والشام أوضح البراهين وأقوى الدلائل، وله في الآباء والأبوة الديانة التي بلغها من الإقبال مرجوه، طالما سارت أحكام عمه أجله الله في الأقطار، وحكم فأبدى الحكم بين أيدينا أو في الأمصار، وله العفاف والتقوى والمآثر الجميلة وجميل الآثار، والفتاوى التي أوضح بها مشكلا وفتح مقللا،

(١) نهاية الرتبة: ١٦١، وانظر أيضا: ابن الأخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة،

مطبعة دار الفنون: كمبرج: ١٩٣٧م: ١٧٠ - ١٧١

والفصل بين الخصوم بالحق المجتلى... (١)

وهؤلاء العلماء هم في أعلى مراتب العلم والمعرفة، إذ تولى بعضهم مناصب متعددة رفيعة المقام كالوزارة والقضاء والكتابة والإفتاء والخطابة... وقد كشفت المكاتبات الديوانية عن مثل هذه الصفات، ومن ذلك ما جاء في بعضها: 'ومن يزهر بنقى قلبه، ورقى جوابه لسانُ التعويل ولسانُ التعويد، كما يميز بإحاطته وحياطته قلم الفتوى وقلم التنفيذ، ومن يفخر به كل عالم مفيد إذا قال: أنا بين يديه طالب وأنا له تلميذ، ومن حيث التفت وجدت له سودداً جميلاً، وكيفما نظرت رأيت له من هنا وزارة، ومن هنا خطابة، ومن هنا مشيخة، ومن هنا تدريساً ومن هنا حكماً، فهو الأصل ومن سواه فروع، وهم الأئمة وهو ينبوع، وهو مجموع السيادة المختار منه الإفادة، فما أحسنه من اختيار، ما أتمه من مجموع...' (٢)

وبالإضافة إلى تلك الشروط العامة في اختيار هذه الفئة من المدرسين، فقد أظهرت المكاتبات أيضاً شروطاً خاصة لهم، كل بحسب تخصصه، فإذا كان شيخاً للإقراء مثلاً أظهرت المكاتبات صفاته حسب مواصفات علمه، فهو المواظب على تلاوة القرآن، الجامع لحروفه المعروفة، الملم بقراءات السبعة المعروفة (٣)، وإن كان محدثاً، فإن عليه أن يكون ملماً بالسنة النبوية، عارفاً بعلوم الحديث المختلفة، أحفظهم للحديث، رحلة في طلبه... (٤) وإن كان نحويّاً فعليه أن يكون ملماً بالمذاهب النحوية واختلافاتهم، ولا يأخذ إلا بأفصحها وأقربها إلى لغة الأعراب... (٥) وهكذا، فمما ورد في صفات محدث من تلك المكاتبات: 'وقد أصبح بالسنة النبوية مضطلعاً، وعلى ما جمعته طرق أهل الحديث مطلعاً، وصح في الصحيح أن حديثه الحسن، وأن المرسل منه في الطلب مقطوع عنه كل ذي لسن، وأن سنده هو المأخوذ عن العوالي، وسماعه هو المرقص منه طول الليالي، وأن مثله لا يوجد في نسبه المعرق، ولا يعرف مثله للحافظين' ابن عبد البر، بالمغرب، و'خطيب بغداد' بالمشرق، وهو يعلم مقدار طلب الطالب، فإنه طالما شد له النطاق، وسعى له سعيه وتجشم المشاق... (٦)

(١) صبح الأعشى: ٢٢٦/١١

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٩/١١

(٣) انظر: التعريف: ١٩٢

(٤) النظر: المصدر نفسه: ١٩٣

(٥) انظر: المصدر نفسه: ١٩٤ - ١٩٥

(٦) صبح الأعشى: ٢٤٥/١١، وانظر: التعريف: ١٩٣

وأما ما يوصى به المدرس من الوصايا، فتقسم إلى قسمين: أولهما وصايا عامة تتعلق بطبيعة المهنة، إذ يوصى بتقوى الله والإخلاص في عمله، مثل قوله: 'فليلتق ذلك بالقبول، ويبسط في مجالس العلم لسانه، فمن كان بمثابة في الفضل حق له أن يقول ويطول، وملاك الأمر تقوى الله تعالى، فهي خير زاد...' (١)، ومن ذلك قوله أيضاً: 'وينفق من ذخائر فضله ما هو بإنفاقه ملي، متفقدًا بفضل غنائه من هو عن فرائده المربحة غير غني، مقررًا للبحث تقريرًا يزول معه الالتباس، مسندًا فروعه النامية إلى أثبت الأصول من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، معتمدًا لما عليه جادة مذهبه في الترجيح، جاريًا على ما ذهب إليه جهابذة محققيه من التصحيح، مقبلًا بطلاقة وجهه على جماعته، باذلاً في استمالتهم طاقة جهده، محسنًا إليهم جهد طاقته، مربياً لهم كما يربي الوالد الولد، موفياً من حقوقهم في التعليم ما يبقى له ذكره على الأبد، منمياً ناشئتهم بالتدريب الحسن تنمية الغروس، جاهدًا في ترقيةهم بالتدريج حتى يوهل من لم يكن تظن فيه أهلية الطلب لأن يتصدى للفتاوى وإلقاء الدروس.' (٢)

أما القسم الثاني من الوصايا، وصايا خاصة، ترتبط بالعلم الذي يختص به هذا العالم، ومن ذلك ما ورد في وصية مقريء: "وليتوسع في مذاهبه، ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة، أئمة الأمصار، وليبذل للطبلة الرغاب، وليشبع فإن ذوي النّهمة سغب، ولير الناس ما وهبه الله من الاقتدار، فإنه احتضن السبع ودخل الغاب، وليتم مباني ما أتم "ابن عامر" و"أبو عمرو" له التعمير، ولغة "الكسائي" في كسانه، ولم يقل جدي "ابن كثير"، وحمّ به "لحمزة" أن يعود ذاهب الزمان، وعلم أنه لا "عاصم" من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطوفان، وطفق يتفجر علما وقد وقفت السيول الدوافع، وضر أكثر قراء الزمان لعدم تفهيمهم وهو "نافع". (٣)

أما التنظيم الإداري في المدارس، فقد تمثل في مجموعة من الأنظمة والشروط التي تحكمها شروط واقف المدرسة، كما حددت شروط الواقف عدد الموظفين ووظائفهم، وعدد المدرسين وتخصصاتهم ورواتبهم. كما بينت عدد الطلاب. وفي أحيان كثيرة كان الواقف يعين ناظر المدرسة، وهذا بدوره يرتب فيها المدرسين حسب التخصصات والشروط التي حددها الواقف، كما يعين الناظر أيضاً بقية الموظفين، فقد ورد في وصف المدرسة الناصرية ما يلي:

(١) صبح الأعشى: ٢٣٥/١١

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٩/١١

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٤/١١

"وجعل للناظر أن يرتب بالمدرسة المذكورة في كل من أوأوينها الأربعة مدرسيها على المذاهب الأربعة... ويعين الناظر لكل مدرس منهم من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد، ويرتب بالمدرسة المذكورة بالإيوان القبلي بها إمام يؤم بالمسلمين في الصلوات الخمس... ويرتب بها أربعة من القومة العارفين بما يلزمهم من ذلك، يقومون بخدمة المدرسة ووقود مصابيحها وكنسها وتنظيفها وتنظيف فسقيتها ودانرها... ويرتب بها شاهدا لخزانة الكتب، يحفظ ما فيها من الكتب، ويضبط ما يؤخذ منها للاستغلال بها بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة.. ويرتب بالمدرسة بواباً بالباب الكبير الجامع للقبة والمدرسة، حافظاً محتاطاً في أمور المدرسة والقبة من الداخلين إليها والخارجين، مانعاً من يرتاب به، ومن يكثر الدخول لغير حاجة... ويرتب سواقاً لإدارة الساقية وإجراء الماء من البئر إلى الصحن أمام إيوان القبة، وإلى الفسقية التي بوسط المدرسة، وإلى الميضاة التي بالمدرسة.."(١)

مما سبق، يتضح أن في المدرسة مجموعة من الموظفين يختارهم ناظر المدرسة حسب شروط الواقف، وبالمرتب الذي يحدده، وأول هؤلاء الموظفين هم المدرسون ثم المعيدون، ويحدد واجباتهم كما يراها، كما يرتب لكل من هؤلاء المدرسين العدد المناسب من الطلاب، كما يوجد في المدرسة إمام يؤم الناس في الصلاة، ثم مجموعة من القومة والمستخدمين الذين يقومون بخدمة المدرسة ومرافقها، كما يعين في المدرسة أمين مكتبة، بالإضافة إلى بواب ومستخدم خاص بخدمة المياه والعمل على توفيرها في مرافق المدرسة المختلفة.

وقد كشفت لنا المكاتبات الديوانية في هذا العصر عن واجبات الناظر في المدارس، فمما ورد في ذلك: "ويحتاج من ينظر بنور الله في وقفها، ويحفظ مسالك جمعها وصرفها، وينمي حال درهمها بتدبيره الوافي، فربما أبقتها الأحوال منه على نصفها... ولذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه النظر على هذه المدرسة المعمورة، وأوقافها المبرورة، إجابة لسؤال من فيها من جماعة الفقراء ورغبتهم فيه، وارتقابهم لعزمه الذي إذا نظر حالها الأول تلا فيه تلافيه، على أن يتبع في أمرها شرط الواقف برأي غير قاعد، وإن كان لا يزيد فيها على أربعمئة نفر، إلا أن يزيد ريع الوقف، وهو إن شاء الله ببركته وهمته زائد... فليباشر ما فوض إليه مباشرة من إذا بدأ أعاد... مثمراً لما لها على عادة غصن قلمها الأخضر أثماراً، مستخلصاً للبواقي من أربابها التي تنهب العين وتدعي لفترات انكساراً.."(٢)

(١) السلوك، ج ١/١٠٤٥ - ١٠٤٧

(٢) صبح الأعشى: ١٢/٣٤١ - ٣٤٢

واضح أن أهم واجبات ناظر المدرسة تتركز حول رعاية أمور أوقافها، واتباع شروط الواقف في ذلك، بحيث يعمل على تنمية جوانب وقفها، وصرفها في جوانبها المستحقة، وعدم استحداث شيء زيادة عما قرره الواقف من حيث عدد طلابها أو موظفيها إلا بزيادة ريع الوقف، كما أن عليه أن يحسن اختيار بقية موظفيها بخبرته ومعرفته.

أما واجبات المدرسين، فقد مر بنا تحديد النثر لذلك. كما حدد واجبات المعيد، حيث يشرح لمن يحتاج زيادة شرح من الطلبة، ويرغبهم في الاشتغال، ولا يمنع أحدا منهم يطلب منه زيادة تكرار وتفهيم معنى، ولا يقدم أحداً من الطلبة في غير نوبته، إلا لمصلحة ظاهرة. (١)

ويحدد قانون الوقف أيضاً الأوقاف التي تشكل دخلاً لهذه المدرسة، تمول نفقاتها ومصروفاتها، بالإضافة إلى تحديد إجازات المدرسين والمعيدين في هذه المدرسة، حيث كانت مدتها ثلاث أشهر وعشرة أيام، وهي شهور: رجب وشعبان ورمضان وعشر ذي الحجة من كل سنة، أما بقية الوظائف فشرط الواقف أن لكل من له وظيفة في هذا الوقف أن يستتيب عنه عند الضرورة لسفر أو مرض. (٢)

ومن الجدير بالذكر هنا أن بعض الواقفين قد اشروطوا عدم عمل الفقهاء أو المدرسين أو المعيين في أي عمل آخر يتعارض مع شرف مهنة التدريس وقديستها، كالعمل بتجارة أو غيرها باستثناء تجارة الكتب، كما يحظر عليهم الجمع بين التدريس أو أية ولاية أخرى إلا الإمامة، مع اختلاف بعض العلماء في ذلك، بل إن بعضهم قد حظر عليهم الاشتغال بأية مدرسة أخرى، ويبدو أن ذلك قد سبب جدلاً واسعاً في الأوساط العلمية آنذاك، مما أدى إلى استصدار فتوى من أحد العلماء في ذلك الوقت حول هذا الموضوع، وممن أفتى بذلك ابن عدلان، ذكر ذلك السبكي، قال: 'أفتى ابن عدلان في واقف مدرسة على الفقهاء والمتفقهة ومدرس ومعيدين وجماعة عينهم. قال: ومن شروط المذكور أن لا يشتغلوا بمدرسة أخرى غير هذه المدرسة، ولا يكون لواحد منهم تعلق بمدرسة أخرى، ولا مباشرة بتجارة ولا بزازة* يعرف بها غير تجارة الكتب، ولا ولاية، بأنه يجوز للمقرر في هذه المدرسة الجمع بينها وبين إمامة مسجد قريب منها، وواقفه شيخ

(١) انظر: السلوك ١/١٠٤٦.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١/١٠٤٧، البزازة: مهنة البزاز - (الوسيط: بز).

الحنفية في زماننا، قلت، وفيه نظر لنص الشافعي على أن الإمامة ولاية؟" (١)

ويبدو أنه لحق بهؤلاء المشايخ والعلماء شيء من الضرر بسبب هذا القرار، مما أدى ببعض رجال الدين والفقهاء أن يوجه موعظة ونصيحة للسلطان بأن يرجع عن هذا، ويسمح للعلماء بأن يجمع التدريس في أكثر من مدرسة، وقد جاء في ذلك: "خدمة الشرع ينهون أن الله تعالى أمر بالتعاون على البر والتقوى ونصيحة ولاية الأمور وعامة المسلمين، وأخذ على العلماء العهد وتبليغ أحكام الدين ومناصحة المسلمين... وقد بلغ الفقهاء أنه رسم في حقهم بأن يغيروا عن وظائفهم، ويقطعوا عن بعض مدارسهم، فتكدت بذلك أحوالهم، وتضرروا بهذا التضيق عليهم، وهم محتاجون، ولهم عيال وفيهم الصالحون، والمشتغلون بالعلوم، وإن كان فيهم طائفة لا يلحقون مراتب غيرهم، فهم منتسبون إلى العلم ويشاركون فيه، ولا يخفى مراتب أهل العلم وثناء الله تعالى عليهم، وبيانه مزيته على غيرهم، وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله عليهم..." (٢) وهكذا تمضي الوصية في بيان فضل العلماء ومكانتهم عند الله سبحانه وتعالى...

(١) طبقات الشافعية: ٩٩/٩

(٢) حسن المحاضرة: ٧٩/٢

ج - تمثيله لنشاط الحياة العلمية بمختلف مجالاتها

تبيننا نشاط الحركة العلمية في العصر المملوكي بمختلف مجالاتها، حيث يتمثل ذلك بافتتاح مدرسة أو خانقاه على سبيل المثال، إذ يجتمع أهل العلم والأدب والفقهاء، ويحضرون درس الافتتاح فيها مع واقفها، ثم يندفع الشعراء في مديح الواقف، فقد ذكر في افتتاح المدرسة الظاهرية التي بناها السلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة، بعد أن رتب فيها المدرسين: "وكان الإجماع بها في صفر من هذه السنة (٦٦٢هـ)، واجتمع بها أهل العلم والأدباء والفقهاء، ودرس المدرسون، واندفع الشعراء يمتدحون..." (١)

أما بداية الدروس في هذه المدارس، فكانت تفتتح بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم على الأغلب، ثم الدعاء للواقف، ثم يبدأ المدرس درسه، حيث يفتتح بخطبة، تمهد لموضوع الدرس، فقد جاء في وصف المدرسة الناصرية: "وجعل للناظر أن يرتب بالمدرسة المذكورة في كل من أوابنها الأربعة مدرسيها على المذاهب الأربعة، ينتصب المدرس المالكي المذهب بالإيوان القبلي، والمعيدون المالكية والطلبة المالكية في الوقت الذي تعين فيه، وهو ما بين طلوع الشمس إلى زوالها، أي وقت رآه المدرس من ذلك لإلقاء فروع مذهبه، وما تيسر له من إلقائه من تفسير وأصول وغير ذلك، بحيث يلزم الجلوس على العادة في الوقت المعين، بعد أن يتعين كل واحد من المدرسين هو وجماعته بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم، إما من ربعة أو من صدورهم... ويدعو عقيب ذلك للواقف وسائر المدرسين." (٢)

وقد سجل لنا النثر بعضاً من خطب افتتاحيات الدروس، وقد جاءت هذه الخطب مناسبة لموضوع الدرس المفتتح... ومن ذلك خطبة افتتح بها أحد المدرسين درس حديث، قال: "الحمد لله الذي رفع متن العلماء، وجعل لهم من لدنه سنداً، وأبقى حديثهم الحسن على الإملاء أبداً، وأمدهم بمتابعات كرمه المشهور، فوصل ما كان مقطوعاً وأعز ما كان مفرداً، وحمى ضعيف قلوبهم من الاضطراب حتى غدت ثابتة الأفكار." (٣)

ومما جاء في خطبة افتتاح درس للفقهاء الحنفي قوله: "الحمد لله ناصر الملك الناصر للدين الحنفي، وممضي عزائمه، ومشيد أركانه، القائم بالشرع المحمدي ومقوي دعائمه، ومخصص

(١) عقد الجمان: ٣٨٢/١

(٢) السلوك: ١٠٤٥/١

(٣) الوافي: ٤١٣/١٣

أهل التقوى بعلى ما حظيت أهل التقصير بمعالمه، وجامع شمل المتقين بمكارمه، وشامل جمع الموقنين بمراحمه، والمتفضل على من التجأ إليه، واعتمد في أموره عليه بنجح ما أشبه أواخره بأوائله، وريح ما أشبه فوائحه بخواتمه." (١)

هذه طريقة افتتاح الدروس في المدارس، أما ما كان يدور في مجالس العلم هذه، فكان يتراوح بين المناظرات والمناقشات الطويلة، وبين مجالس العلم والأدب، وبين أسلوب المحاضرات، وقد حفظ لنا النثر شيئاً من هذا، فقد قرط جمال الدين بن نباتة الشيخ كمال الدين بن الزملكاني بقوله: "أما وغصون أقلامه المثمرة بالهدى، وسطور فتاويه الموضحة للحق طرائق قديداً، وخواطره التي تولدت فكانت الأنجم مهوداً، ومآثره التي ضربت رواق العز للمجرة طنباً وكان الفجر عموداً، ومناظرته التي أسكتت المناظرين، فكانما ضربت سيوفهم المجردة لألسنتهم قيوداً..." (٢)

كما حفظت لنا المصادر شيئاً من هذه المناظرات والمناقشات التي دارت بين العلماء في مواضيع متعددة من العلم في المدارس، حيث يروي علاء الدين علي بن الأمدى ما دار بينه وبين ابن تيمية، يقول: "وسألته سنة ثمانى عشرة أو سبع عشرة وسبعمائة، وهو بمدرسته بالقصاعين، عن قوله تعالى: "وأخر متشابهات"، فقلت له: المعروف بين النحاة أن الجمع لا يوصف إلا بما يوصف به المفرد من الجمع بالمفرد من الوصف، فقال: كذا هو، فقلت: ما مفرد متشابهات؟ فقال: متشابهة، فقلت: كيف تكون الآية الواحدة في نفسها متشابهة، وإنما يقع التشابه بين آيتين؟ وكذا قوله تعالى: "فوجد فيها رجلين يقتتلان"، كيف يكون الرجل الواحد يقتتل مع نفسه؟ فعدل بي من الجواب إلى الشكر.." ثم يذكر جوانب أخرى من تلك المناقشات. (٣)

ومما ورد في تسجيل مجالس العلم ما رواه الصفدي في قوله: "كنت عند الشيخ الإمام الأديب الكاتب القاضي شهاب الدين أبي التثاء محمود أقرأ عليه كتابه "حسن التوسل"، فجاء هذا البيت في أثناء القراءة في مكانه، وعنده جماعة من الطلبة وغيرهم... (يقصد بيتاً لأبي الطيب وهو:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثى وبياض الصبح يغري بي

(١) طبقات الشافعية: ١٧٨/٩ - ١٧٩

(٢) المصدر نفسه: ١٩١/٩

(٣) إنظر الوافي: ٢٠/٧ - ٢١

قال : عدوا هذه الخمسة التي ذكرها أرباب البديع، (يقصد خمسة الأنواع من الطباق)، فكلهم قالوا: أزورهم يقابل: أنتني، وسواد يقابل: بياض، والليل يقابل: الصبح، ويشفع يقابل: يغري، ووقفوا، فقال: هذه أربعة لأربعة، وبقي القسم الخامس، فلم ينتبهوا له، فقلت: لفظة لي تقابل لفظة بي، لأن الشفاعة له تقابل الإغراء به، كأنه قال ذلك لي وهذا علي، قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر (١)

إذن، فهذه صورة ما كان يدور في مجالس العلم من مناقشات ومناظرات، كشف النثر لنا عن جانب مضيء منها، إلا أن تلقي العلم لم يقتصر على حضور مجالس العلم فحسب، إنما كان يتم أيضا بالمراسلات والمكاتبات، فقد تحدثت في الفصل السابق عن المكاتبات العلمية، ورأينا أنها تدور في محورين: إما بقصد الفائدة أو البحث عن المعرفة، وإما بغرض الامتحان، ومن ذلك ما كتبه أحد العلماء جوابا على سؤال السائل عن سبب إعادة لفظة "الأهل" في قوله تعالى: "حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها" ولم يقل: استطعماهم، والمحل محل الإضمار وفيه الإيجاز.. (٢)

ومن مظاهر نشاط الحركة العلمية في العصر المملوكي الأول: نشاط حركة التأليف في مختلف مجالات العلم والمعرفة آنذاك، وقد كشف لنا النثر عن بعض جوانب ذلك النشاط، حيث تمثل ذلك من خلال مجموعة من الفنون النثرية، منها على سبيل المثال: استدعاءات الإجازات والأجوبة عليها، إذ يكتب أحد الأدباء لآخر يستجيزه برواية مؤلفاته، فيرد عليه الآخر برسالة يعرض فيها ما يشبه ترجمة لحياته أو سيرة ذاتية، يذكر فيها شيوخه الذين روى عنهم، أو تلقى العلم على أيديهم، كما يعدد المؤلفات التي ألفها، ويجيز له روايتها، فمن ذلك مثلاً ما ورد في إجازة جمال الدين بن نباتة لصلاح الدين الصفدي قوله: "وأما مصنفاتي التي هي كالياسمين لا تسوى جمعها، ولولا جبر الخزائن الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية لها ما استجزت نصبها ولا رفعها، فهي: كتاب "مجمع الفرائد"، كتاب "القطر النبائي"، كتاب "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون"، كتاب "منتخب الهدية من المدائح النبوية"، كتاب "الفاضل من إنشاء الفاضل"، كتاب "زهر المنثور"، كتاب "سجع المطوق"... أجزت لك، أعزك الله، روايتها عني، ورواية ما أدونه وأجمعه بعدها حسبما اقترحه استدعاؤك، ونمقه ونسخه وحققه وتضمنه سؤالك..." (٣)، فهو بهذا يعدد له مؤلفاته التي ألفها كاملة.

(١) الغيث المسجم: ٢٨٣/١

(٢) انظر جواب ذلك في: الوافي: ٩٤/٢١ - ٩٦

(٣) الوافي: ٣١٩/١

كما أظهرت لنا المذكرات والمطالعات التي كتبت على بعض المؤلفات في ذلك الوقت نشاط حركة التأليف، ومن ذلك كتاب: "التذكرة" لصلاح الدين الصفدي، حيث كتب عليه علاء الدين بن فضل الله العمري يقرظه: "طالعت هذا السفر، فإذا هو مسفر عن روض يانع الثمار، وبحر تتدفق معانيه الغزار، وكنز ينثر على الطلبة سبائك النضار... فلهذا الروح الذي دحا "زهر الآداب" صلاح غرسه، وما أبدع ما نمقته يد كاتبه من الوشي المرقوم في طرسه." (١)

ومما كتبه على هذا الكتاب شمس الدين بن الصائغ قوله: "طالعت هذا الجزء، واجتليت قمره، واجتليت ثمره، وسرحت الناظر، وشرحت خاطر، ووجدته قد اشتمل على ما يملأ القلب والسمع، وألفيته واحداً في نوعه، يشهد لجامعه بحسن الجمع." (٢)

إن هذه المذكرات قد خلدت لنا أسماء تلك المؤلفات، وكشفت عن هذا الجانب المشرق من الحركة العلمية في ذلك العصر.

وتشكل الإجازات العلمية مظهراً من مظاهر نشاط الحركة العلمية في العصر المملوكي الأول، حيث كونت هذه الإجازات شكلاً من أشكال الشهادات العلمية في ذلك الوقت، مما يؤهل طالب العلم للاشتغال بعلمه وإفادة الآخرين به، وقد تحدثت عن هذا المظهر وأنواع الإجازات في الفصل الأول، حيث كشف النثر لنا عن هذا الجانب من جوانب ازدهار الحركة العلمية في هذا العصر.

(١) الوافي: ٣٢٣/٢٢

(٢) المصدر نفسه: ٣٢٣/٢٢

د - تمثيله لبعض الآراء والنظريات التربوية.

اشتملت المكاتبات الديوانية الخاصة بتعيين المدرسين والشيوخ، وتحديد مراكز عملهم على مجموعة من النصائح والإرشادات التي تشكل طرحاً لبعض الآراء والنظريات التربوية، تتشابه إلى حد كبير مع الآراء والنظريات التربوية الحديثة، وأستطيع هنا أن أقسمها إلى قسمين أساسيين:

الأول منها يتعلق بالتربية، والثاني يرتبط بطرق التدريس وعملية التعليم.

أما ما يرتبط بالجانب الأول منها فأهمها: ترغيب الطلبة بالعلم وتشجيعهم على الإقبال عليه، وذلك بحسن معاملتهم، والإقبال عليهم بطلاقة وجه، مما يشكل دافعاً وإشارة، ورغبة لديهم في تلقي العلم والإقبال عليه، ومن ذلك ما جاء في بعض هذه المكاتبات "مقبلاً بطلاقة وجه في درسه على جماعته، باذلاً في استمالتهم طاقة جهده، محسناً إليهم جهد طاقته، مريباً لهم كما يربي الوالد الولد، موفياً من حقوقهم في التعليم ما يبقى له ذكره على الأبد، منمياً ناشئتهم بالتدريب الحسن تنمية الغروس، جاهداً في ترقيعهم بالتدريج حتى يؤهل من لم يكن يظن فيه أهلية الطلب لأن يتصدى للفتاوى وإلقاء الدروس." (١)

ومن هذا الجانب أيضاً قوله: "وليعامل جماعة المستفيدين منه بالعطف، ومع هذا كله، فليفرق بهم، فما بلغ أحد علماً بقوة ولا غاية بعسف." (٢)

ومن الجوانب التربوية الأخلاقية التي تشتمل عليها المكاتبات إظهار التواضع، تواضع العلماء، ليكون الشيخ في ذلك قدوة لطلابه، يقول: "وليعلم الطلبة إذا أدهشتهم كثرة علومه أن فوق كل ذي علم عليم، وليتكرم عليهم بكثرة الإفادة فإن علماً هو الكريم." (٣) ومن ذلك أيضاً قوله: "وليخفض جناحه للطلبة فطالما خفضت الملائكة أجنحتها ليصير فلا عجب أن صار، وليفد وأفديه وهو قاعد أضعاف ما أفادهم صاحب المكان وهو واقف." (٤)

ومما يحث المدرسون عليه العمل على تحقيق العدالة في معاملة الطلبة والتعامل معهم، يقول: "ولينصف كبيرهم في بحثه، وليسعف صغيرهم بحضه على الاشتغال وحثه." (٥)

(١) صبح الأعشى: ٢٣٩/١١

(٢) التعريف: ١٩٤

(٣) صبح الأعشى: ٣٦٨/١٢

(٤) المصدر نفسه: ٣٦٥/١٢

(٥) تاريخ ابن الفرات: ٢٨/٨

وأما الجانب الثاني، وهو المرتبط بوسائل التدريس، وعملية التعليم والتعلم، مما يسمى "باستراتيجيات التعلم والتعليم". ومن ذلك: محاولة تحقيق حاجات الطلبة، وضرورة تلبية احتياجاتهم الأساسية، والإجابة عن استفساراتهم، ومن ذلك ما ورد في بعض المكاتبات: "وليجمع عنده شمل الطلبة، وليعط كل طالب ما طلبه، وليبلغ كل متمن من الاشتغال أربه، وليشرح لهم صدره، وليبذل لهم من عمره شطره، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره." (١)

ومن واجبات كل مدرس متابعة طلبته للتأكد من مدى حفظهم واستيعابهم لما قدمه لهم من دروس وعلوم، وقد كشفت المكاتبات عن ذلك بقوله: "وليتعهدهم بملازمة دروسهم، وحفظ ماضيهم، وليحسن في استعادتهم ما حفظوه تقاضيههم." (٢)

وفي التفاعل الصفي فنون وأساليب تتفاوت من مدرس إلى آخر، وقد حاولت المكاتبات الديوانية في هذا العصر الكشف عن كثير من هذا الجانب، ومن ذلك: البحث عن الوسائل والأساليب التي تتناسب مع حاجات الطلبة ومستوياتهم العقلية والذهنية، يقول: "وليبين ما يخفى على الطلبة بأوضح الدلائل، وليؤد الفوائد الواصلة إلى الأذهان على أحسن أسلوب، وليقرر الأصول التي امتدت فروعها بقواعد السنة المحمدية، وفي ثمرها الجني تقوية القلوب." (٣)

فإذا تحسس المدرس حاجات طلبته، فإن عليه أن يبدأ باختيار الأساليب والوسائل التي تحقق غايته، متدرجاً في أسلوبه من الأسهل فالأصعب، يقول: "مقرباً إلى أذهان الطلبة بتهذيب ألفاظه الرائقة ما يفيد، مورداً من علومه المدونة ما يجمع له بين نواذر المقدمات ومدارك التمهيد." (٤)

إذن، على المدرس أن يبدأ بالتمهيد لدرسه، وأن يحسن تقديمه لهذا الدرس، لينتقل إلى عرض مادته بأسلوب يقوم على الحوار والمناظرة بالفكر، وإبراز الدليل والحجة المقنعة، يقول: "شاملاً للطلبة المعتادين بعطفه، مقابلاً للمستفتين بلطفه ولطفه، باحثاً عن درر الجدل بفكره، إذا بحث قلم المجادلين عن حفته بظلفه..." (٥)، ومن ذلك أيضاً: "وليبين ما يخفى على الطلبة بأوضح الدلائل، وليؤد الفوائد الواصلة إلى الأذهان على أحسن أسلوب.." (٦)

(١) تاريخ ابن الفرات: ٢٦/٨

(٢) المصدر نفسه: ٢٨/٨

(٣) صبح الأعشى: ٣٥٧/١٢

(٤) المصدر نفسه: ٢٣٧/١١

(٥) المصدر نفسه: ٣٦٣/١٢

(٦) المصدر نفسه: ٣٥٧/١٢

ويكشف لنا النثر أيضاً عن الحث على استخدام الأسلوب العلمي في التدريس والبحث، ومن ذلك: "وليفد الطلبة على عادته، وليبد لهم من القول ما يظهر غزير مادته، وليستنبط المسائل، وليجب بالأدلة المسائل..." (١)

ويبقى النقاش والحوار طريقة التدريس الرئيسة التي تحكم الدروس العلمية، ومن ذلك: "وليقرر تلك البحوث، ويبين ما يرد عليها، وما يرد به من منعها، وتطرق بالنقض إليها، حتى لا تتفصل الجماعة إلا بعد ظهور الترجيح، والإجماع على كلمة واحدة على الصحيح." (٢)

ومن أهم واجبات المدرس في التربية الحديثة العمل على إثارة التفكير لدى طلبته، وقد كشف النثر عن ذلك، ومنه: هذا إلى أخذهم بالاشتغال، وقدح أذهانهم للاشتغال، ولينشئ الطلبة حتى تنمي منهم الغروس، ويؤهل منهم من كان يظن منهم أنه يتعلم لأن يتعلم ويلقي الدروس." (٣)

وقوله: "وليحفظهم المثل وكلمات الشعراء، ولينصب نفسه لحدّ أذهان بعضهم ببعض نصب الإغراء." (٤)

وفي النقاش والحوار يكون تقبل الرأي الآخر ضرورياً، ولا يقوم الحوار دونه، وقد بين النثر ذلك في هذا العصر، ومن ذلك قوله: "وليربهم كما يربي الوالد الولد، وليستحسن ما تجيء به أفكارهم، وإلا فكم رجل بالجبة لبنت فكر وأد." (٥)

ويبقى طالب العلم نهماً لا يشبع من مائدته، وظمآن لا يروى من معينه، ولذا فإن على المدرس أن "يبدل للطلبة الرغاب، ويشبع فإن ذوي النّهمة سغب." (٦)، كما أن عليه أن "يقبل على ذوي الإقبال على الطلب، ويأخذهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد انتسب." (٧)

(١) صبح الأعشى: ٢٢٧/١١

(٢) التعريف: ١٩١ - ١٩٢

(٣) المصدر نفسه: ١٩٢

(٤) المصدر نفسه: ١٩٥

(٥) المصدر نفسه: ١٩٢

(٦) المصدر نفسه: ١٩٢

(٧) المصدر نفسه: ١٩٣

- الفصل الثالث -

- الخصائص الفنية للنشر الفني.

- فنون نثرية غير مسجوعة.

- الدور الوظيفي للنشر الفني.

الخصائص الفنية

ينبغي للكاتب في ديوان الإنشاء أن يكون على دراية ومعرفة تامة بأصول المكاتبات الديوانية، بالإضافة إلى إلمامه بمختلف القضايا الأخرى التي ترتبط بالمكاتبات مثل "مقادير قطع الورق، وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقدار البياض في أول الدرج وحاشيته، وبعد ما بين السطور في الكتابات. (١) مع ملاءمة ذلك لكل نوع من أنواع المكاتبات الديوانية، فعلى سبيل المثال يذكر أن "قطع البغدادي الكامل كانت تكتب فيه عهود الخلفاء وبيعاتهم، وعهود أكابر الملوك، والمكاتبات إلى الطبقة العليا من الملوك كأكابر القانات من ملوك الشرق، أما قطع الثلثين من الورق المصري، فتكتب فيه مناشير الأمراء المقدمين، وتقاليد النواب الكبار والوزراء وأكابر القضاة ومن في معناهم." (٢)

أما الأقلام المستخدمة في كل نوع، فمثلاً يستخدم "قلم مختصر الطومار لقطع البغدادي، وقلم الثلث الثقيل لقطع الثلثين..." (٣) وأما مقدار البياض المتروك قبل البسمة فيختلف أيضاً باختلاف قطع الورق، فكلما عظم قطع الورق كان البياض فيه أكثر، فقطع البغدادي على سبيل المثال يترك فيه "سنة أوصال بياضا، وتكتب البسمة في أول السابع..." (٤)

أما حاشية الكتاب "أمر متروك لاجتهاد الكاتب فيه في السعة والضيق، وأما بعد ما بين السطور فيختلف باختلاف حال المكتوب واختلاف قطع الورق..." (٥)

تلك معلومات أولية ضرورية ينبغي أن يلم بها الكاتب، ثم يبدأ بتحرير كتابه، وخير ما تفتتح به المكاتبات، الخطبة، حيث اصطلح الكتاب على الابتداء في الكثير مما يكتبونه من المكاتبات والولايات وغيرهما مما له شأن وبال، كمكاتبات الملوك من قانات الشرق، والبيعات والعهود والتقاليد على افتتاحها بالخطب، ولكنهم اختلفوا في عدد مرات تكرار الحمد، فوصلت إلى السبع في الخطبة الواحدة، وقد أتوا بالحمدلة بعد البسمة تأسيا بكتاب الله تعالى من حيث إن البسمة آية من "الفاحة" أو فاتحة لها، أما سائر المكاتبات فإنما حذف منها الحمد استصغاراً لشأنها. (٦)

(١) انظر: صبح الأعشى: ١٨٠/٦ - ١٨٨، وانظر في ذلك التعريف: ١١٩ - ١٢٠

(٢) المصدر نفسه: ١٨١/٦ - ١٨٨، وانظر في ذلك التعريف: ١١٩ - ١٢٠

(٣) المصدر نفسه: ١٨٥/٦

(٤) المصدر نفسه: ١٨٦/٦

(٥) المصدر نفسه: ١٨٦/٦ - ١٨٧

(٦) المصدر نفسه: ٢١٥/٦، وانظر في ذلك التعريف: ١١٢ - ١١٨

وتتضمن الخطبة بعد الحمد. التشهد، (١) يليها الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، (٢) يليها السلام، وذلك لأنه تحية الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب، وهناك صيغة متعارف عليها عندهم، وهي: "سلام عليكم" في أول الكتاب، و"السلام عليكم" في آخره، (٣) يلي عبارة "أما بعد". (٣)

ثم هناك أصول عامة يجب على الكاتب أن يعتمد عليها في المكاتبات، أذكر منها:

١ - براعة الاستهلال: تحدث الأدباء وعلماء البلاغة في هذا الجانب، وأفاضوا فيه، وممن تكلم في ذلك: ابن الأثير فقال في ذلك: أن يكون مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من هذا الكلام، إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناءً فهناءً، أو كان عزاءً فعزاءً، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني. (٤) وفائدة ذلك كما ذكر ابن الأثير: "أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به". (٥)

وتكون براعة الاستهلال في المكاتبات في مجموعة من الأمور أهمها: الابتداء بالتحديد، بحيث تكون مناسبة لمعاني تلك المكاتبات، ولمراتب من يكتب إليهم أو الابتداء بالدعاء، كل ذلك شريطة أن يكون مناسباً للموضوع الذي تكتب فيه المكاتبات. (٦)

وقد أورد ابن حجة الحموي أمثلة من المكاتبات التي تتوافر فيها براعة الاستهلال، فذكر من ذلك مكاتبة لمحيي الدين بن عبدالظاهر إلى الأمير سنقر الفارقاني جواباً عن مطالعته بفتح سوس من بلاد السودان، واستهلها بقوله: "وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة." (٧) وبلغ من إعجاب ابن حجة ببراعة هذا الاستهلال أن قال: "الله أكبر، إن من البلاغة لسحراً، والله ما أظن هذا الاتفاق الغريب اتفق لفاثر." (٨)، وعلى الرغم من أن ابن حجة لم يعلل هذا الحكم النقدي، إلا أنه يشير إلى جمال هذا الاستهلال ومدى مناسبه للموضوع.

ومما يذكر في هذا الباب ما افتتح به جمال الدين بن نباتة محاوره السيف والقلم، إذ عندما انتصب القلم لمفاخرة السيف قال: "ن، والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون". الحمد لله الذي علم بالقلم، وشرفه بالقسم. وتحدث السيف، فقال مستهلاً: "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد

(١) انظر: صبح الأعشى: ٢١٧/٦

(٢) المصدر نفسه: ٢١٩/٦

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٠/٦

(٣) المثل السائر: ٩٦/٣ وانظر صبح الأعشى ٢٦٥/٦

(٥) المثل السائر: ٩٦/٣

(٦) انظر: صبح الأعشى: ٢٦٦/٦ وانظر: التعريف: ١١٤

(٧) خزائن الأدب: ٤٠/١ (٨) المصدر نفسه: ٤١/١

ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز. "الحمد لله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف. وشرع حدها في ذوي العصيان فأغصنتهم بماء الحتوف." (١)

وقد قال ابن حجة الحموي مفتونا ببراعة الاستهلال في هذه المفارقة: "وما أظن أن أحداً من المتقدمين نسج على هذا المنوال، ولا نفث في عقد أقلامهم مثل هذا السحر الحلال." (١)

٢ - أن يأتي الكاتب بمقدمة يصدر بها مكاتبتة تأسيساً لما يأتي به في المكاتبة، ويقتصر ذلك على المكاتبات المشتملة على الأمور الجلية العظيمة، كأن يأتي في صدور كتب الحث على الجهاد، فيذكر فرضه على الأمة، وما وعد الله تعالى به من نصر أوليائه وخذلان أعدائه، وفي صدور كتب الفتح بإنجاز ما وعد الله وعده لأهل الطاعة من النصر والظفر، وإظهار دينه على الدين كله... أما الأمور التي لا تشتمل على المقاصد الجلية، فلا يجعل لها مقدمة، كالمكاتبات المقترنة بالهدايا ونحوها. (٢)

٣ - أن يعرف الكاتب الفرق بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات، فيضعها في مواضعها، كما يكون قادراً على معرفة الفروق الدقيقة بينها، بحيث يستطيع أن يخاطب كل إنسان بما يستحقه من ألفاظ الخطاب، فلا يخاطب الرئيس بما يجب للمرووس أو العكس، وقد مثل ذلك بالفرق بين: أصدرناها، وأصدرت وصدرت، وبين: نبدي لعلمه، ونوضح لعلمه... (٣) وهكذا، فكل لفظة تصلح لمقام، وفي مقام، فيجب على الكاتب معرفة ذلك ومراعاته.

٤ - الدعاء: يجب على الكاتب مراعاة أمور متعددة في الدعاء منها:

أن يعرف مراتب الدعاء ليستخدمها في مواضعها، وأن يعرف ما يناسب كل واحد من أرباب المناصب من الدعاء الخاص به، وأن يعرف الحالات التي يستخدم فيها الدعاء، وما يناسبها منه، كما أن عليه أن يعرف ما يتجنب من الأدعية، كما يتجنب مواضع اللبس في الدعاء، كما أن عليه معرفة الأدعية الخاصة بالنساء... (٤)

٥ - الألقاب والنعوت: ينبغي للكاتب أن يعرف الألقاب التي اصطلاح عليها الكتاب، كما أن عليه أن يعرف مقدار المكتوب إليه، فيوفيه حقه، وما يليق به من الألقاب والنعوت، فللخلفاء والسلطين ألقابهم ونعوتهم الخاصة، وللملوك وأرباب مناصب السيوف والأقلام ألقابهم ونعوتهم، كما أن لأرباب الصناعات الرئيسة، ومشايخ الصوفية وأهل الصلاح والقضاة والتجار... ألقاباً

(١) خزنة الأدب: ٤٥/١

(٢) انظر: صبح الأعشى: ٢٦٧/٦ - ٢٦٨

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٢٦٩/٦ - ٢٧٢ وانظر: التعريف: ٦

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٧٢/٦ - ٢٨١

ونعوتاً خاصة بهم، بالإضافة إلى ألقاب ملوك الكفر، ورؤساء أهل الذمة، مما يجب على الكاتب معرفته. (١)

٦ - مراعاة مقاصد المكاتبات فيأتي لكل مقصد بما يناسبه. ويقصد بذلك مراعاة المقال لمقتضى الحال المناسب، "فإن الكاتب إنما يصير كاتباً بأن يضع كل معنى في موضعه، ويعلق كل لفظ على طبقه في المعنى"، كما يقصد بذلك أيضاً مراعاة مواطن التصريح أو التورية والإشارة في المواضع التي تتطلب ذلك. (٢)

٧ - مراعاة حال المخاطبين فيخاطب كلاً منهم بما يناسبه من اللفظ المناسب، فيجمل القول أو يبسطه، ويستخدم الألفاظ المتينة الجزلة، أو الألفاظ السهلة، كل ذلك في المواضع الخاصة التي تناسبها. (٣)

٨ - مراعاة حال المكتوب عنه في الخطاب، حيث يعبر عن كل واحد منهم بما يليق به من أنواع الخطاب سواء أكان رئيساً أم مرؤوساً. (٤)

٩ - حسن الاختتام. ينبغي للكاتب أن يحسن خاتمة كلامه غاية الإحسان "فإنه آخر ما يبقى في الأسماع"، وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال. (٥)، ويتحقق حسن الاختتام بأمرين:

أولهما: أن يكون الحسن في الكلام راجعاً إلى المعنى المختتم به، وذلك باستخدام الدعاء والتوقير، أو بالحرص على معاني الأدب إذا كان الكلام من المرؤوس إلى الرئيس.

ثانيهما: أن يعود الحسن فيه إلى الأسلوب، من: سهولة اللفظ، وحسن السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو. (٦)

تلك مجموعة من الأمور التي يجب على كتاب المكاتبات الديوانية مراعاتها في مكاتباتهم، فما عناصر البناء الفني لهذه المكاتبات؟
التزم كتاب الرسائل والمكاتبات بنمط يكاد يكون محدداً في معظم هذه المكاتبات، وقد تكون هذا البناء من مجموعة من العناصر، أهمها:

١ - فواتح الرسائل: وقد اشتملت هذه الفواتح على مجموعة من الأمور منها:
- البسملة: حيث اصطلح كتاب الإنشاء على استحباب الابتداء بالبسملة في مختلف أصناف المكاتبات باستثناء التواقيع والمراسيم الصغار، حيث عدوا مثل هذه المكاتبات ليست من الأمور المهمة، (٧) وقد اتفق الكتاب أيضاً على وجوب تقديمها في أول الكتاب تبركاً بالابتداء بها، أما

(١) انظر: صبح الأعشى: ٢٨١/٦ - ٢٨٢، ١٧٩ وانظر: التعريف: ٩٦ - ١١٠

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٢٨٢/٦ - ٢٨٣ (٣) انظر: المصدر نفسه: ٢٨٢/٦ - ٢٨٧

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٨٨/٦ - ٢٩٤ (٥) خزنة الأدب: ٤٩٣/٢

(٦) انظر: صبح الأعشى: ٣٠٠/٦ (٧) انظر: المصدر نفسه: ٢١١/٦ وانظر: التعريف: ١١٣

المكاتبات الصادرة إلى ملوك الكفر، فقد اصطلاح الكتاب على أن يبدأ بذكر الملك المكتوب عنه فوق البسملة، وذلك لأن بعض ملوك الكفر كانوا إذا ورد عليهم كتاب بما يكرهون ربما مزقوا أعلاه وتفلوا فيه، فيكون ذلك حفظاً لاسم الله تعالى. (١)

ومما تشتمل عليه فواتح الرسائل، الخطبة، وقد تحدثنا عن ذلك.

ومما تتضمنه فواتح الرسائل أيضاً السلام، وأما بعد، وقد سبق الحديث عن ذلك.

٢- ذكر موقع الإنعام في حسن المقلد، وذكر الرتبة وتفضيم أمرها، حيث يتحدث عن الوظيفة وأهميتها وخطرها.

٣- ذكر أوصاف المقلد، وما يناسب تلك الرتبة، وما يناسب حاله من عدل وسياسة ومهابة وبعد صيت وشجاعة وعدل وحسن تدبير... الخ حسبما يناسب تلك الرتبة من أوصاف.

٤- ذكر الوصايا، ويراعى فيها أن تكون مناسبة لما يقتضيه الحال، فلا يعطى أحداً فوق حقه، ولا يوصى بأكثر مما يراد من مثله، كما يراعى فيها تخير الكلام والمعاني مما يشيع ويذيع، (٢) ويرى الفلقشندي عموماً الإطناب في الوصايا، إلا لمن جل قدره، وعظم أمره، فإن الأولى الاختصار في الوصايا على أهم الجمليات. (٣)

٥- في الخواتم واللواحق: يستحب أن تختتم المكاتبة بعبارة: 'إن شاء الله تعالى، وذلك تبركاً ورغبة في نجاح مقصد الكتاب. (٤) كما يستحسن تأريخ المكاتبة، وذلك مما يصدر عن الملوك والنواب والأمراء والوزراء وقضاة القضاء، ومن ضاهاهم من مكاتبات، أما المكاتبات الأخرى الصادرة من آحاد الناس، فلم تجر العادة فيها بكتابة التاريخ. (٥)

ثم هناك مجموعة من الأمور يطلق عليها لواحق المكاتبات، ينبغي للكاتب معرفتها، مثل: عنوان الكتاب، وطيه وختمه، وحمله وتأديته، وفضه وقراءته... (٦)

هذا، وفي كل الأصول السابقة اختلافات وطرق كثيرة، اختلف فيها حسب حالة المكتوب إليه أو المكتوب عنه، وحسب الحال المكتوب فيها.

(١) انظر: صبح الأعشى: ٢١٣/٦ - ٢١٤ (٢) انظر: حسن التوسل: ٣٦٨

(٣) انظر: صبح الأعشى: ٢٧٦/٩، انظر في ذلك: التعريف: ١١٧، وقد أورد نماذج من

الوصايا في الصفحات من ١٢١ - ٢٠٧

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢٢٣/٦

(٥) انظر: المصدر نفسه: ٢٢٥/٦ - ٢٢٧ وانظر في خواتم المكاتبات: التعريف: ١١٥ - ١١٦

(٦) انظر: المصدر نفسه: ٣٣٢/٦ - ٣٥٠

لعل الصنعة والبديع أهم ما يتميز به النثر في العصر المملوكي الأول، ولعلها من أهم ما يوجه للنثر في العصر المملوكي الأول من نقد واتهام، ولذلك سوف أتحدث عن ذلك بالتفصيل.

أول من أطلق "علم البديع" هو مسلم بن الوليد حيث أطلق هذا المصطلح ليشمل علوم البلاغة كلها، ولكن هذا العلم بمفهومه المؤلف أخذ يتطور شيئاً فشيئاً حتى استقل عن بقية علوم البلاغة، وأصبح علماً قائماً بذاته، وذلك على يد مجموعة من العلماء، أمثال: ابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري، وابن رشيق القيرواني وغيرهم. (١) وقد بين ابن خلدون أن علوم اللسان العربي أربعة هي: اللغة والنحو والبيان والأدب، وجعل علم البيان على ثلاثة أصناف:

الأول: يبحث في الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة، والثاني: يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه، وهي الاستعارة والكناية ويسمى علم البيان، وألحقوا بها صنفاً آخر هو النظر في ترتيب الكلام وتحسينه بنوع من التتميق إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخف منه لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع. وأطلق على الأصناف الثلاثة عندهم اسم البيان... ثم لم تزل مسائل هذا الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن محص السكاكي زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه. (٢)

ولعل أكثر أبواب علم البديع ظهوراً في هذا العصر هو السجع، وقد تحدث عنه الكتاب وعلماء البلاغة، فقد خصه الجاحظ بباب مستقل في "البيان والتبيين" (٣)، حيث دافع عن السجع في الكلام كثيراً، كما أورد الكثير من الأقوال المسجوعة، تعود إلى عصور مختلفة، من العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعصر الأموي، كما أورد بعض الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، (٤) فقال: "وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة، فلم ينهوا منهم أحداً". (٥) كما بين الجاحظ السبب الذي كرهه الأسجاع للناس، فعزا ذلك إلى أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكون إليهم، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع... فوقع النهي في ذلك، لقرب عهدهم بالجاهلية،

(١) انظر: مقدمة خزنة الأدب: ٧/١

(٢) مقدمة ابن خلدون: ٥٥١/٢ - ٥٥٢

(٣) انظر: البيان والتبيين: ١/١٥٢، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت: ١٩٦٨م

(٤) انظر: المصدر نفسه: ١/١٥٢

(٥) انظر: المصدر نفسه: ١/١٥٥

ولبقيتها فيهم، وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم." (١)

وممن تحدث عن هذا الفن أيضاً قدامة بن جعفر، حيث ناقش حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أنكر فيه على الرجل الذي جاء بكلام مسجوع، فقال له: "أسجع كسجع الكهان؟" فبين قدامة أسباب هذا الإنكار بأن هذا الرجل جاء بكلامه كله مسجوعاً، وتكلف فيه السجع تكلف الكهان، (٢١) ويبدو أن قدامة لا يؤيد لزوم السجع في الكلام، فلم يدافع عنه كما دافع عنه الجاحظ، حيث قال: "ولو كان لزوم السجع في القول، والإغراب فيه وفي اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالهما في كلامه الذي هو أفضل الكلام، وكان النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة المهديون قد استعملوهما، ولزموا سبيلهما، وسلخوا طريقهما، فأما ولسنا واجدين فيما في أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا في المواضع اليسيرة، فهم أولى بأن يقتدى بهم، ويحتذى بمنهجهم ممن قد نبت في هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها، ولا من الخطابة إلا التحلي باسمها." (٣)

وأورد القلقشندي قولاً لأبي هلال العسكري يدحض كلام قدامة، يقول فيه: "لا يحسن منشور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تجد لبليغ كلاماً محلوّاً من الازدواج، وناهيك أن القرآن الكريم الذي هو عنصر البلاغة ومناط الإعجاز مشحون به، لا تخلو منه سورة من سورته، وإن قصرت." (٤)

وممن تحدثوا في هذا الفن أيضاً ابن الأثير، حيث دافع عنه كثيراً، ولم ير وجهاً لزمه، فقال: "وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعاً مسجوعة، كسورة "الرحمن" وسورة "القمر" وغيرهما، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور." (٥)، ويورد ابن الأثير أمثلة، من آيات القرآن الكريم المسجوعة، ويستشهد ببعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كما ناقش من ادعى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أنكر على بعضهم وقد كلمه بكلام مسجوع، فقال: الجواب عن ذلك أنا نقول: "لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقاً لقال: أسجعاً؟ ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا

(١) انظر: البيان والتبيين: ١٥٤/١ - ١٥٥.

(٢) نقد النثر: ١٠٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٩.

(٤) صبح الأعشى: ٣٠٢/٢ - ٣٠٣.

(٥) المثل السائر: ٢٧١/١.

الفعل لم كان، فلما قال: "أسجعا كسجع الكهان" صار المعنى مطلقاً على أمر، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه، فعلم أنه لما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق"، بل إن ابن الأثير يفهم من هذا الحديث أمراً آخر، إذ إن له فيه رأياً آخر، يقول: "إن النهي لم يكن عن السجع نفسه، وإنما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع، ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنين بغرة عبد أو أمة، قال الرجل: أدي من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، ومثل ذلك يطل؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أسجعا كسجع الكهان"؟ أي أتتبع سجعا كسجع الكهان؟ وكذلك كان الكهنة كلهم، فإنهم كانوا إذا سنلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعاً، ثم يتابع ابن الأثير حديثه قائلاً: "فالسجع إذاً ليس بمنهي عنه، وإنما المنهي عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن"، بل إن ابن الأثير يستحسن السجع الوارد في هذا الحديث، فيقول: "وهذا كلام حسن من حيث السجع، وليس بمنكر لنفسه، وإنما المنكر هو الحكم الذي تضمنه في امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة"، ويستدل ابن الأثير على صحة تحليله لهذا الحديث بورود السجع في القرآن الكريم، وفي أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إنه صلى الله عليه وسلم قد "غير الكلمة عن وجهها اتباعاً لها بأخواتها من أجل السجع، فقال لابن ابنته عليهما السلام: "أعيذه من الهامة والسامة، وكل عين لامة"، وإنما أراد "لمة" لأن الأصل فيها من "ألم" فهو "لمم"، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "ارجعن مازوراتي غير مأجورات"، وإنما أراد "موزورات"، من الوزر، فقال: مازورات لمناسبة "مأجورات" طلباً للتوازن والسجع، وهذا مما يدل على فضيلة السجع. (١)

والذي أراه أن ابن الأثير محق في قوله وتعليقه على قول القائل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم أنكر السجع، وقد ناقش القول الوارد في هذا الحديث كثيرون قبل ابن الأثير، حيث كان لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي، وهو كما يقول الجاحظ من أخطب الناس، وكان متكلماً وقاصاً مجيداً، فقد كان يسجع في أقواله وكتابه، فقال لمن وجه إليه اللوم في ذلك مستدلاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أسجعا كسجع الكهان"، قال: "لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالاً لحق فتشادق في كلامه". (٢)

نستدل مما سبق أن السجع في قول هذا الرجل مقبول، وغير مرفوض من علماء الأدب والبلاغة، ولا يخرج عن حد القبول.

أما ما اشترطه رجال الأدب والبلاغة في السجع، فكان على العموم عدم التكلف، وعدم الإطالة فيه، حيث شدد الجاحظ على ذلك، فقال: "إذا لم يطل ذلك، ولم تكن القوافي مطلوبة

(١) انظر: المثل السائر: ٢٧١/١ - ٢٧٥

(٢) البيان والتبيين: ١٥٣/١

مجتلبه، أو ملتزمة متكلفة... لأن الكلام إذا قل وقع وقوعاً لا يجوز تغييره، وإذا طال وجدت في القوافي ما يكون مجتلباً ومطلوباً مستكرهاً^(١). فهو كما نلاحظ يشترط عدم الإطالة في الكلام، لأنه إذا طال أصبح متكلفاً مجتلباً مستكرهاً، أما إذا قل كان وقوع السجع في مكانه بحيث لا يستطاع تغييره.

واشترط قدامة بن جعفر أن يكون السجع في موضعه، وعند سماحة القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته، فذلك جهل من فاعله، وعي من قائله.^(٢) قدامة يشترط عدم التكلف في السجع أولاً بأن يكون طبيعياً، ولا تستكره القرائح من أجله، كما يشترط أن لا يكون لازماً في الكتابات والأقوال جميعاً، بل في مواضعه التي يأتي فيها دون تكلف أو تصنع أو إكراه.

أما ابن الأثير، فيحدد شروطاً أربعة للكلام المسجوع، هي:

أولاً: اختيار مفردات الألفاظ بحيث تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة، طنانة رنانة، لاغثة باردة، وقد عني بقوله هذا، "أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، ولا يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها ما يشترط له من الحسن".

ثانياً: الاعتدال في مقاطع الكلام المسجوعة، والاعتدال، كما يقول ابن الأثير، مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، وهذا الشرط ما عناه قدامة بأن لا يكون السجع لازماً في الكتابات والأقوال جميعاً، بل يكون في بعضها دون بعض.

ثالثاً: أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى، لا المعنى تابعاً للفظ، وقد وضع ابن الأثير ما عناه بقوله هذا: "إذا صدرت في نفسك معنى من المعاني، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع، ولم يواتك ذلك إلا بزيادة من ذلك اللفظ أو نقصان منه، ولا يكون محتاجاً إلى الزيادة ولا إلى النقصان، وإنما تفعل ذلك، لأن المعنى الذي قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه، وإذا دلت

(١) البيان والتبيين: ١٥٣/١

(٢) نقد النثر: ١٠٧

بذلك اللفظ لا يكون مسجوعاً إلا أن تضيف إليه شيئاً آخر، أو تنقص منه، فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذي يذم من السجع ويستقبح، لما فيه من التكلف والتعسف، وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف، فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام.

وأما الشرط الرابع فهو أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها. ويضيف ابن الأثير حول هذه القضية: "إن كان المعنى فيهما سواء، فذلك هو التطويل بعينه، إنما هو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها، وإذا وردت سجتان تدلان على معنى واحد، كانت إحداهما كافية في الدلالة عليه." (١)

وأضاف القلقشندي إلى الشروط السابقة شرطاً آخر، وهو قوله: "أن تقع في خلال السجعة الطويلة قرانن قصار، فتكون سجعاً في سجع"، أي أن تتضمن السجعة الرئيسية الطويلة سجمات أخرى قصيرة. (٢)

أما ابن حجة الحموي، فقد أورد شروطاً للكلام المسجوع مشابهة لتلك التي أوردها ابن الأثير، ومن ذلك قوله: "أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيراتها في المعنى، لأن اللفظ إذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى كان معيباً." (٣)، إلا أن ابن حجة قد سمح ببعض التجاوزات في السجع، مما "يطول بها باع المنشئ" على حد تعبيره، ومن ذلك قوله: "إن السجع مبني على الوقف، وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفاً عليها، لأن الغرض أن يجانس المنشئ بين القرانن، ويزاوج، ولا يتم له ذلك إلا بالوقف، إذ لو ظهر الإعراب لفات ذلك الغرض، وضاق ذلك المجال على قاصده."، ومن ذلك أيضاً: "إن السجع مبني على التغيير، فيجوز أن تغير لفظة الفاصلة لتوافق أختها، فيجوز فيها حالة الازدواج ما لا يجوز فيها حالة الانفراد... ومن ذلك حذف المفعول مثلاً، أو صرف ما لا ينصرف..." (٤)

ولا يشك في أن للسجع محاسن وغايات في صناعة الإنشاء، فقد حاول الأدباء والبلاغيون البحث عن ذلك، فقد سئل عبدالصمد بن الفضل الرقاشي: "لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن، قال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه

(١) انظر المثل السائر: ٢٧٥/١ - ٢٧٩

(٢) صبح الأعشى: ٣١٤/٢

(٣) خزانة الأدب: ٤١٢/٢ - ٤١٣

(٤) المصدر نفسه: ٤١٣/٢

أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلّة التفلّت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره. (١)

هذا القول من الرقاشي، يشير إلى غايتين للسجع:

أولاهما: تيسير حفظه على القارئ، وبالتالي صعوبة نسيانه وضياعه.

وثانيتهما: إثارة تشويق القارئ والمستمع لسماع الكلام المنثور، إذ إن السجع في الكلام المنثور يوازي الوزن والقوافي في الشعر. فالغاية من السجع إذن غاية مستقبلية من أجل المحافظة على الكلام المنثور من الضياع.

كما حدد الأدباء مواضع استخدام السجع في المكاتبات، ومنهم الفلقشندي، فقال: "إنه لا يفرق فيه بين كتاب الأعلى للأدنى وبالعكس، وأنه بما يكتب عن السلطان أليق، لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابة بالسجع نقص في حق المكتوب إليه، وقضيته أنه لا يكتب به إلا من الأعلى للأدنى، إلا أن الذي جرى عليه مصطلح كتاب الزمان تخصيصه ببعض الكتب دون بعض من الجانبين". (٢) ويبدو أن الفلقشندي قد عجز عن تحديد مواضع وحالات معينة يستخدم فيها الكتاب السجع في مكاتباتهم، وبخاصة أنه وكتاب عصره يستخدمون السجع في جميع المكاتبات سواء أكانت من الأعلى إلى الأدنى أو العكس.

ومن هذا البسط الذي قدمته حول السجع، أستطيع أن أخلص إلى مجموعة من القضايا أهمها:

أولاً: إن السجع كان جارياً في كلام العرب، منذ العصر الجاهلي، حتى هذا العصر، مروراً بعصر صدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي، ولا تكاد كتابات كتاب تلك العصور تخلو منه، فليس كتاب العصر المملوكي، إذن، بدعاً بين كتاب العربية في استخدام السجع.

ثانياً: إن السجع ميزة في الكلام المنثور، وليس عيباً فيه، إذ لو كان كذلك ما ورد في القرآن الكريم، وما تكلم به الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك الخلفاء الراشدون.

ثالثاً: لقد أحس كتاب العصور المختلفة ونقادها بأن في كتابات الكثيرين من مدعي الكتابة تكلفاً وتصنعاً أساء إلى الكتابة الجيدة التي تدل على سلامة الطبع، وامتلاك لخاصية الأدب واللغة،

(١) البيان والتبيين: ١٥٣/١

(٢) صبح الأعشى: ٢٩٤/٦

ولا سيما ممن يحاولون استخدام هذا الفن في كتاباتهم، مما دفع علماء البلاغة والأدباء إلى وضع القواعد التي يستطيع بها القارئ تمييز السمين من الغث من هذه الكتابات، وتمييز المقبول من غير المقبول من الكلام المسجوع، وما فيه من تجاوزات يمكن قبولها، وتلك التي لا يمكن قبولها.

رابعاً: لقد أحس الكتاب أنه لا بد من وجود شيء يميز النثر، كما يتميز الشعر بالوزن والقافية، حيث يبسران حفظه، وبالتالي تقليل فرصة ضياعه، فكان السجع هو الذي يحقق هذه الغاية في نظرهم.

وبعد، فقد ارتأيت أن أورد نموذجاً من أدب هذا العصر، تحققت فيه شروط السجع التي ذكرها القدماء، وإن تخلف شرط واحد، وهو أن السجع جاء في الكلام كله لا في بعضه، وهذا النموذج من إنشاء صاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وهو نسخة عهد كتب به للظاهر بيبرس عن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد ثاني الخلفاء العباسيين بالديار المصرية، يقول فيه: "الحمد لله الذي أضفى ملابس الشرف، وأظهر درره وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدف، وشيد ما وهى من علانه حتى أنس ذكر ما سلف، وقبض لنصره ملوكاً اتفق على طاعتهم من اختلف، أحده على نعمه التي رتعت الأعين منها في الروض الأنف، وألطفه التي وقفت الشكر عليها فليس لها عنها منصرف، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب من المخاوف أمناً، وتسهل من الأمور ما كان حزناً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جبر من الدين وهناً، وصفيه الذي أظهر من المكارم فنوناً لا فناً، صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحيت مناقبهم باقية لا تفنى، وأصحابه الذين أحسنوا في الدين فاستحقوا الزيادة من الحسن، وبعد: فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم ساجداً راکعاً في تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدماً ودعا فأجاب من كان منجداً ومتهماً، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً، وأجرأه دماً، ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي... شرفه الله وأعلاه، ذكره الديوان العزيز النبوي، الإمامي، المستصري... أعز الله تعالى سلطانه - تنوياً بشريف قدره، واعترافاً بصنعه الذي تنفذ العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره.... فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملاً، وخلص نفسك من التبعات اليوم، ففي غد تكون مسؤولاً لا سائلاً، ودع الاغترار بالدنيا فما نال أحد منها طائلاً... والله تعالى يمدك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فإن النعمة تستتم بشكره." (١)

فهذه المكاتبة، تتضح فيها شروط السجع التي وضعها العلماء، كما تتضح فيها أصول المكاتبات الديوانية، والقواعد المتبعة فيها، كما ذكرتها آنفاً، وإن المتتبع لها يستطيع ملاحظتها، ولا أجد داعياً لإعادتها وتكرارها.

أما وقد أوردت نموذجاً من السجع المقبول، فإبني سأحاول إيراد بعض النماذج التي لا تتحقق فيها بعض الشروط السابقة.

ومن ذلك: رسالة لابن سيد الناس، قال فيها: "ووردت نهله الصافي، والتحت ظله الضافي، واجتليت من وجهه بشراً قابله الشكر بالقلم الحافي، وعكفت منه على كعبة الفضل، فله ما نشر في استلامي، وطوى في طوافي، وكلفت قلبي الطائر جواباً فلم تقو القوادم، وظهر الخوى في الخوافي... وأقسم أن البيان ما نكب عما دبجه مولانا ونكت، ولا أجراه الله على لسانه إلا لما سكت البلغاء وبكت، ولا آتاه هذه النقود المطبوعة إلا وقد خلصت القلوب من رق غيره وفكت، ولا وهبه الله هذه الكلم الجوامع إلا أن الأوائل أحسوا بطول رسائلهم فقطعوها من حيث رقت والصحيح ركت..." (١)

واضح من هذه الرسالة تخلف الشرط الرابع من الشروط التي وضعها ابن الأثير لصحة السجع وجودته، وهو احتواء كل فقرة من الفقرتين المسجوعتين على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها، حيث أراد بالفقرتين الأولى والثانية أنه أخذ عن هذا العالم وتلقى العلم على يديه، وفي الثالثة والرابعة: محاولته شكره، لكنه لم يستطع اللحاق بفضله وكرمه... وهكذا، حيث يمكن للقارئ ملاحظة ذلك من القراءة الأولى لهذه الرسالة.

كما تظهر الألفاظ التي أنهى فيها كل فقرة من الفقرات الأخيرة مرادفة لما قبلها، فلفظة "نكب" مرادفة للفظ "نكت"، و"سكت" مرادفة للفظ "بكت"، ولفظة "خلصت" مرادفة للفظ "فكت"... وهكذا.

ويظهر مثل ذلك في هذا النص أيضاً، يقول: "ومرحباً مرحباً بداعي القيام من قبله، وأهلاً أهلاً بما بلغ على ألسنة رسله، وهلم هلم إلى قلع هذه الشجرة التي لم ينجب ظن غارسها، وقطع هذه الصخرة التي لم تنصب إلا مزلة لدانستها، والتعااضد التعاضد لما هتف به هاتفه الصارخ، وسمعه حتى الرمح الأصم والسيف المتصاوخ..." (٢)

في هذا النص قضيتان: الأولى: إن المعنى في كل عبارتين مسجوعتين يكاد يكون واحداً. والثانية تكمن في لفظة "المتصاوخ" حيث لا يوجد في المعاجم أصل لهذا الفعل: صاخ يصوخ، بألف أصلها واو، وإنما هناك "صيخ" ومنها: أصاخ، يصيخ، إصاخة: أي استمع وأنصت للصوت، وصيخ ومنها الصخ: وهو الضرب بالحديد على شيء مصمت أو الطعن... (٣)

(١) الوافي: ٢٩٨/١

(٢) صبح الأعشى: ٣٦٣/٦

(٣) انظر اللسان، الوسيط، مادة: صوخ، صخ.

وفي بعض العبارات المسجوعة نجد أن اللفظ هو الذي يقود المعنى، ويسير الكاتب في عبارته، ولننظر في هاتين العبارتين: "ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيه موضح الطرق إلى الحق المبين، وناهجها إلى حيث مجتمع الهدى ومرتبغ الدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تهدي إلى صراط الذين." (١)

نلاحظ أن ضرورة السجع هي التي ألجأت الكاتب إلى قطع الصلة عن الموصول في الآية التي اقتبس منها، مما أدى إلى التوقف عند لفظة "الذين". وفي أحيان كثيرة يضطر الكاتب إلى تغيير لفظة معينة من أجل السجع، فتخرج عن مقاييس اللغة الفصيحة، ولننظر في هذه العبارات:

يقول: "وأن سبحان يود من خجله أن يسحب ذيله على مآثره الماثورة عنه، ليعفي آثار فلتات كلماته ولفئات لفظاته" (٢)، تجمع المعاجم على أن "لفظة" لا تجمع على "لفطات"، بل على "ألفاظ". (٣)

ومنها: "وليتلق هذه المباشرة بعزمه الشديد بنفسه لا بالتقليد، فإنه شاهد ومسؤول بقوله: يوفق في الاستحقاق وفي النقود والكيول." (٤)
الكيل: هو ما يكال به من حديد أو خشب أو نحوهما، وجمعها "أكيال"، ولا يرد جمعها على "كيول". (٥)

ومنها: "والله تعالى يجعلها لناوله زاداً وحرزاً، وذخراً يوم المعاد وركزاً." (٦)
الركز: هو الصوت الخفي، وأراد بها ركزة وجمعها ركاز: وهي المال المدفون، أو ما وجد من المعادن مدفوناً بصورة طبيعية في الأرض. (٧) وقد اضطر الكاتب إلى استعمال اللفظ السابق مراعاة للسجع.

وقد يقود تكلف السجع الكاتب إلى مجازاة العامة في كلامهم، ومن ذلك قوله: "وتقوى الله تعالى هي السبيل الأقوم، فليكن له منهاجاً، وليواظب على طريقة الحق، فكم شر عنها حاد، وكم خير منها "جا" (٨)
حيث أراد: منها جاء.
ومنه قوله: "قليباشر هذه الوظيفة المبرورة بعزم يبير من الوجد ماكنه، وحزم يثير من المدح المشكور كامنه." (٩)

(١) صبح الأعشى: ٢٢٨/١١

(٢) المصدر نفسه: ٤٧٣/١٢

(٤) صبح الأعشى: ٤٧٤/١٢

(٣) اللسان: مادة لفظ

(٦) صبح الأعشى: ٤٥٥/١٢

(٥) اللسان: مادة كيل

(٨) صبح الأعشى: ٣٧٩/١٢

(٧) اللسان: ركز

(٩) المصدر نفسه: ٣٨٠/١٢

أراد بقوله: "ماكنه": مكينه، لكن السجع اضطره لذلك.

وفي مواضع أخرى، يلجأ الكاتب إلى مخالفة قواعد اللغة من أجل موافقة السجع، ومن ذلك قوله: "صلاة تتعطر بنفحات عرفها أرجاء المدارس، وينادي لسان فضلها لراند فراند المعالي على طول المدا:رس".^(١)

أراد هنا بقوله: رس: ارس من الفعل رسا: يرسو والأمر منه ارس وليس: "رس" وإنما اضطر لذلك من أجل السجع.

ومنه قوله: فادرك اللطف الإلهي ممالك الإسلام، وحل الركاب الشريف بأرض الشام، فكان بردا وسلام.^(٢)، وهنا ضرورة السجع قد ألزمت الكاتب إلى تسكين الحروف الأخيرة من الكلمات المسجوعة، حيث خالف قواعد اللغة في قوله: "برداً وسلام"، والصواب بالطبع: "برداً وسلاماً".

ومثل ذلك في قوله: "ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين، الذي أرسله بواضح الحجج ومحكم البراهين، وأنزل عليه كتابا عربيا مبين".^(٣) حيث اضطر الكاتب إلى تسكين لفظة "مبين" من أجل ضرورة السجع، ومقتضى الكلام يقتضي نصبها.

وقد يلجأ الكاتب بسبب التزام السجع إلى قطع الجملة والعبارة عند حد السجعة الأولى، وإكمالها في العبارة التالية: ومثال ذلك قول ابن نباتة: "وأردنا أن نكتم دخولنا البلد، وكيف تكتمنا وهي ذات عين صافية، ثم نزلنا بالخيام في مرجتها الخضراء، تحت قلعتها الغراء، وهي في معارج السحب صاعدة شائدة، في الجو كأنها في السحر على عمود الصبح قاعدة، مضيئة بين عقود الأنجم كأنها درتها اليتيمة، جالسة على سرير الخيل تنام الفرقدين كأنها جذيمة".^(٤)

فقوله: "وهي في معارج السحب صاعدة وشائدة"، حيث تنتهي هذه السجعة دون إكمال الجملة، ويتمها في الفقرة التالية: "في الجو كأنها...". أما لفظة "شائدة" فلم أجد لها وجودا في المعجم، وربما أراد بها مشيدة من: أشاد: يشيد.^(٥)

هذه بعض نماذج من السجع المتكلف وردت في مكاتبات هذا العصر، ولكنها لا تعبر عن الصورة العامة للنثر في هذا العصر، إنما هي نتف النقطة من هنا وهناك، وحاولت تبين أوجه التكلف فيها، وهي تشير إلى وجود فئة من الكتاب تمثلت بعض هذه الظواهر في مكاتباتهم، مما يؤكد ما تقرر سابقا من أن النثر في هذا العصر ليس بدعاً بين العصور في استخدام السجع، حيث يوجد منه الغث ومنه السمين.

(١) صبح الأعشى: ٤٣٦/١٢

(٢) المصدر نفسه: ٤٥٠/١٢

(٣) المصدر نفسه: ٤٦٩/١٢

(٤) ثمرات الأوراق: ٢٣٩

(٥) الوسيط: مادة: شيد

ومن فنون البديع التي شاعت في هذا العصر: الطباق والمقابلة.

يجمع أصحاب هذه الصناعة على أن "المطابقة في الكلام هي: الجمع بين الشيء وضده كالسواد والبياض والليل والنهار". (١)

وقد ذكر قدامة بن جعفر مصطلح الطباق ضمن نعت انتلاف اللفظ مع المعنى، فقال: "قد يضع الناس من صفات الشعر المطابق والمجانس، وهما داخلان في باب انتلاف اللفظ والمعنى، ومعناهما: أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة، وألفاظ متجانسة مشتقة، فأما المطابق: فهو ما يشترك في لفظة واحدة بعينها". (٢)

وهذا الذي أطلق عليه قدامة "المطابقة" يطلق عليه في مصطلح البلاغيين "الجناس" حيث تختلف الألفاظ المتشابهة في معانيها، وأما مفهوم الطباق، فقد أطلق عليه قدامة اسم "التكافؤ"، وعرفه بقوله: "أن يصف الشاعر شيئاً أو يذمه، ويتكلم فيه أي معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين، والذي أريد بقولي: متكافئين في هذا الموضع أي متقابلين إما من جهة المصادرة أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل". (٣)

وقد تصدى غير واحد من النقاد للرد على قدامة بن جعفر في رأيه هذا، منهم الأكمدي، فقال: "وهذا باب - أعني المطابق لقبه أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب "المتكافئ" وسمى ضرباً من المتجانس "المطابق"، وما علمت أن أحداً فعل هذا غير أبي الفرج... فإني لم أكن أحب أن يخالف من تقدمه مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها". (٤)

كما محص رأيه هذا ابن الأثير، فقال بعد أن عرف المطابقة: "وخالفهم في ذلك قدامة بن جعفر الكاتب، فقال: المطابقة: إيراد لفظتين متساويتين في البناء والصيغة، مختلفتين في المعنى، وهذا الذي ذكره هو التجنيس بعينه". (٥)

إلا أنه عاد ليؤيده مرة أخرى، وذلك بالنظر إلى أصل الكلمة واشتقاقها في اللغة، حيث إن المعنى اللغوي لهذه اللفظة يؤيد ما ذهب إليه قدامة، إذ إن الطباق في اللغة من "طابق البعير في سيره: إذا وضع رجله موضع يده، فاليد كما يقول غير الرجل لا ضدها، والموضع الذي يقعان فيه

(١) المثل السائر: ١٤٣/٣

(٢) نقد الشعر: ١٦٢

(٣) المصدر نفسه: ١٤٧ - ١٤٨

(٤) الأكمدي، الموازنة بين الطائيين: ٢٧٤/١ - ٢٧٥، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م.

(٥) المثل السائر: ١٤٣/٣

واحد، وكذلك المعنيان يكونان مختلفين، واللفظ الذي يجمعهما واحد، فقدمة سمي هذا النوع من الكلام مطاباً، حيث كان الاسم مشتقاً مما سمي به، وذلك مناسب وواقع في موقعه، إلا أنه جعل للتجنيس اسماً آخر وهو: المطابقة، ولا بأس به إلا إن كان مثله بالضدين كالسواد والبياض، فإنه يكون قد خالف الأصل الذي أصله بالمثل الذي مثله. (١)

أما ابن الأثير نفسه، فيرى أن "الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة، لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين: إما أن يقابل الشيء بضده، أو يقابل بما ليس بضده، وليس لنا وجه ثالث. (٢)

فابن الأثير، كما هو واضح، لا يفرق بين المقابلة والمطابقة.

وأما ابن حجة، فقد حاول جمع أقوال من سبقوه في هذا المجال، وقال في إشارة لقول ابن الأثير، بعد أن أشار إلى اشتقاق الكلمة اللغوي: "وليس بين تسمية اللغة وتسمية الاصطلاح مناسبة، لأن المطابقة في الاصطلاح الجمع بين الضدين في كلام أو بيت شعر. (٣)

وقد أشار ابن حجة أيضاً إلى ابن الأثير في عدم تفرقه بين المطابقة والمقابلة، حيث قال: "ومنهم من أدخل المقابلة فيها، وليس بمليح. (٤)

ثم نقل ابن حجة قول السكاكي في تعريفهما، فقال: "المقابلة أن تجمع بين شيئين فأكثر، وتقابل بالأضداد، ثم إذا شرطت هنا شيئا شرطت هناك ضده، والمطابقة هي: الإتيان بلفظة واحدة ضد الأخرى، وكان المتكلم طابق الضد بالضد. (٥)

وأضاف مميزاً بينهما أيضاً: "المقابلة أدخلها جماعة في المطابقة، وهو غير صحيح، فإن المقابلة أعم من المطابقة، وهي التنظير بين شيئين فأكثر، وبين ما يخالف وما يوافق... فالمقابلة أعم من المطابقة، فإن التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة. (٦)

وقد ورد استخدام الطباق والمقابلة بمصطلحاتها السابقة في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية الشريفة، وفي كلام الصحابة رضوان الله عليهم، أورد أمثلتها رجال البلاغة السابقون. (٧)

(١) المثل السائر: ١٤٣/٣

(٢) المصدر نفسه: ١٤٤/٣

(٣) خزنة الأدب: ١٥٦/١ (٤) المصدر نفسه: ١٥٧/١

(٥) المصدر نفسه: ١٥٧/١ (٦) المصدر نفسه: ١٢٩/١

(٧) انظر أمثلة ذلك في: المثل السائر ١٤٤/٣ - ١٤٥، خزنة الأدب: ١٣٠/١ - ١٣١، ١٥٨

وأما في هذا العصر، فقد استخدمها الكتاب لتحقيق قيمة تعبيرية واضحة في العمل الأدبي، حيث إن معظمها لم يكن متكلفاً، إذا اتفقنا أن اللفظ المتكلف هو ما لا يضيف قيمة تعبيرية للنص الذي استخدم فيه، فلا يشعر القارئ بإقحامها في السياق، إنما جاءت في مكانها بحيث إن الكاتب لو لم يستخدمها لما أمكنه تقديم المعنى الذي يريده بطريقة أخرى، ولنتظر في هذا النص الذي ورد ضمن مكاتبة ديوانية: "أمير المؤمنين يشهد الله وخليفته عليه أنه أقر كل امرئ من ولاية الأمور الإسلامية على حاله، واستمر به في مقله، تحت كنف ظلاله على اختلاف طبقات ولاية الأمور وتفرقهم في الممالك والثغور: برأً وبحراً، سهلاً ووعراً، شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وكل جليل وحقير، وقليل وكثير، وصغير وكبير، وملك ومملوك وأمير، وجندي يبرق له سيف شهير، ورمح طرير، ومن مع هؤلاء من وزراء وقضاة وكتاب، ومن له يد تبقى في إنشاء وتحقيق حساب، ومن يتحدث في بريد وخراج، ومن يحتاج إليه ومن لا يحتاج..." (١)

فالكاتب هنا قد أراد على لسان ولي الأمر أن يقر جميع ولاية الأمور على مناصبهم في كل مكان من بقاع الدول الإسلامية، فكانت المطابقة في الأماكن، والمطابقة في درجات المناصب في هذا النص لتبين هذا الأمر.

ومما جاء أيضاً من وصايا المحتسب في بعض المكاتبات: "وقد ولي أمر هذه الرتبة، ووكل بعينه النظر في مصالح المسلمين لله حسبة، فلينظر في الدقيق والجليل، والكثير والقليل، وما يحصر بالمقادير وما لا يحصر، وما يؤمر فيه بمعروف أو ينهى عن منكر، وما يشتري ويباع، وما يقرب بتحريره إلى الجنة ويبعد عن النار، ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها إلا قدر باع أو ذراع، وكل ما يعمل في المعاش في نهار أو ليل..." (٢)

فالكاتب قد أراد بهذه المطابقات أن يوكل المحتسب النظر في مصالح المسلمين كافة، والنظر في جميع أمورهم مهما كانت، كما وضحها الكاتب في بيانه.

وأما المقابلة، فمن أمثلة ما ورد منها في نثر العصر المملوكي قول صلاح الدين الصفدي على لسان المحب بعدما أصابه من لواعج الحب والغرام، يصف تغير حاله، يقول: "كان يقطع الليل نوماً ملء جفونه، فصار يقطعه سهراً بتصاعد أنينه، وكان قلبه حراً وبده على العشاق ضارية، فصار قلبه مملوكاً ودموعه في الهوى جارية، وكان تائها على كل متواجد بالخلو، فصار تائها لا يعرف القرار ولا الهدوء، وكان فائقاً من سكرة الحب ولاعج الغرام، فصار عاشقاً لا يردده العذل ولا يثنيه الملام، وكان سالياً عن ملاعبة كل حبيب، فصار شاكياً من ملازمة كل رقيب، وكان رادعاً كل محب عن الحبايب، فصار واقعاً في مصايد المصايب، وكان عادلاً فصار

(١) صبح الأعشى: ٣٣٧/٩

(٢) المصدر نفسه: ٢١٢/١١

عاذراً، وكان حاذقاً فصار حائراً، وكان مخدوماً فصار خادماً..." (١)

هذه الفقرة تكشف عن تغير حال من أصابه الحب بعد أن كان خالياً منه، حيث أراد أن يقارن بين حالته قبل أن يصاب بهذا الداء، وبين حالته بعد ذلك، مما فرض عليه أن يأتي بمثل هذه المطابقات والمقابلات.

ولننظر في موقع هذه المطابقات والمقابلات في هذا النص، ونلاحظ مدى خدمتها للمعنى والمناسبة التي قيلت فيها، حيث وردت ضمن مكاتبة من تهنية وتعزية لما مات الملك الناصر محمد، وقام بعده ابنه المنصور أبوبكر، يقول كاتبها ابن الوردي: "أجل والله لقد أساء الدهر وأحسن، وأهزل وأسمن، وأحزن وسر، وعق وير، إذ أصبح الملك وباعه بفقد الناصر قاصر، وقد ضعفت أركانه، ومات سلطانه، فما له من قوة ولا ناصر"، فأمسى، ولله الحمد، وقد ملأ القصور بالمنصور سروراً، وأطاعه الدهر وأهله، "فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً..." (٢)

نعم، أظن أن الكاتب لا يستطيع أن يبلغ مراده في التعبير عن هذه المناسبة، وهذا الموضوع الذي يبدو فيه التناقض، إلا باستخدام الطباق والمقابلة، وقد نجح الكاتب في التعبير عن فكرته وتوصيلها في هذه المناسبة.

ومع وجود هذا الاستخدام المقبول للطباق والمقابلة، الذي يخدم المعنى والمناسبة التي يقال فيها، فإننا نجد بعض الكتاب قد تكلف استخدامهم، فجاء الكلام خالياً من العاطفة، يحس المرء بتصنعه، ومن ذلك قول ابن الوردي: "وينهي وصول ابن الأخ الحسين مغموراً بإحسانه المعهود، مبروراً من لطفه وعطفه بـ"شاهد ومشهود"، مقصوراً بثنائه المعرب على مبني ظله الممدود، مسروراً بتعريف رسمه الذي علمه، كما قيل، غير محدود، خطيباً لمحاسنه التي هي كلمة إجماع، مشوقاً إلى ذاته التي تروق الأبصار، وصفاته التي تطرب الأسماع، ولكنه مع ذلك مريض الحركة، صحيح المودة، مثن على ما أسدي إليه من الرخاء في تلك الشدة." (٣)

فلننظر إلى استخدام الطباق في قوله: مريض وصحيح، ثم الرخاء والشدة، تجد التكلف بيناً في استخدام هذه الألفاظ، حيث يمكن للكلام أن يستغني عنها، ولا تفيد معنى هذه الفقرة في شيء.

ومما شاع في نثر وأدب هذا العصر من فنون البديع: الجنس، وهو كما عرفه علماء البلاغة: "أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً، وسمي كذلك "لأن حروف ألفاظه يكون

(١) لوعة الشاكي ودمعة الباكي: ٤

(٢) ديوان ابن الوردي: ١٤٥

(٣) المصدر نفسه: ١٣١

تركيبها من جنس واحد." (١)

وقد مر بنا موقف قدامة بن جعفر حين وضع الجنس والطباق في باب انتلاف اللفظ والمعنى، وجعل لهما معنى واحداً، وهو أن تكون في الشعر معانٍ متغايرة، قد اشتركت في لفظة واحدة أو ألفاظ متجانسة، حيث سمى اشتراك الكلمتين في اللفظ اشتراكاً تاماً "مطابقاً"، وأما المجانس: فهو اشتراكهما في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق. (٢)

كما تحدث ابن الأثير عن التجنيس، حيث خص التجنيس الحقيقي بما كان لفظه مشتركاً، وما عداه، كما يقول "ليس من التجنيس الحقيقي في شيء" (٣) وقد أطلق على هذه الأنواع اسم: 'ما يشبه التجنيس، ذكر منها ستة أنواع. (٤) وقد أورد ابن الأثير على بعض هذه الأنواع أمثلة من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف والشعر العربي، كما أتى على بعض هذه الأنواع منها ما يسمى: المعكوس أو عكس الألفاظ، ومثاله قول القائل: "عادات السادات سادات العادات" وقال فيه: "هذا الضرب من التجنيس له حلاوة وعليه رونق." (٥)

أما ابن حجة الحموي، فقد حمل على الجنس حملة شديدة، فقال: "أما الجنس فإنه غير مذهبي، ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ، فإن كلا منهما يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة." (٦) وقد احتج ابن حجة لرأيه هذا برأي شهاب الدين محمود في الجنس بقوله: "إنه نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع كالتورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه، وما قارب ذلك من أنواع البديع، وحكي عن ابن جني أن الأصمعي كان يدفع قول العامة إذا قالوا: هذا يجانس هذا إذا كان من شكله، ويقول: ليس بعربي خالص، وقال ابن رشيق: هو من أنواع الفراغ وقلة الفائدة ومما لا يشك في تكلفه." (٧)

ثم يعود ابن حجة ليحمل على الجنس ومن يكثر استخدامه، فيقول: "ولم يحتج إليه بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعاني التي هي كالنجوم الزاهرة في أفق الألفاظ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزلت منزلة الألفاظ البالية." (٨) وفي حملته هذه على

(١) المثل السائر: ٣٤٢/١

(٢) انظر: نقد الشعر: ١٦٢ - ١٦٣

(٣) المثل السائر: ٣٤٢/١

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٣٤٩/١

(٥) المصدر نفسه: ٣٥٦/١ - ٣٥٧

(٦) خزانة الأدب: ٥٤/١

(٧) المصدر نفسه: ٥٥/١

(٨) المصدر نفسه: ٥٥/١

الجناس، حمل حملة شديدة على الشيخ صلاح الدين الصفدي لكثرة استخدامه الجناس، فقال: "وكان الشيخ صلاح الدين الصفدي يستسمن ورمه، ويظنه شحما، فيشبع أفكاره منه، ويملاً بطون دفاتره، ويأتي منه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور.." (١)

وقد وضع علماء البلاغة شروطاً لحسن الجناس، ومن ذلك ما استشهد به ابن حجة من كلام شهاب الدين محمود قوله: إنما يحسن الجناس إذا قل، وأتى في الكلام عفواً من غير كد ولا استكراه، ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة، ولا يكون كقول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوث يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول (١)

وقد اشتمل النثر في العصر المملوكي الأول على استخدام واضح للجناس، فمنه ما جاء مقبولاً، يضيف على العمل الفني جمالاً ورونقاً، ويضيف إلى المعنى قوة ورصانة، مع إحساس القارئ أنه لم يأت عفويةً، وإنما تكلفه الكاتب وسعى إليه، ومن ذلك قول ابن الوردي في رسالة "النبا عن الويا"، في إشارة لمرض الطاعون. يقول: "ماصين عن الصين، ولا منع منه حصن حصين، سل هندياً في الهند، واستند على السند... ثم ارتفع ونجم، وهجم على بلاد العجم، فأوسع الخطى إلى أرض الخطأ، وقرم القرم، ورمى الروم بجمر مضطرم، وجر الجرائر إلى قبرص والجزائر... ثم تيمم الصعيد الطيب، وأبرق على برقة منه صيب، ثم غزا غزة، وهز عسقلان هزة، وعك إلى عكا... ثم مز المزة، وبرز إلى برزة." (٢)

ومنه قوله أيضاً في موضع آخر: "ونما سروره حتى أطرب الحي، وأحيا الطرب، ويحسن أن ينشد بالسن فصاحة، وأفصح لسان..." (٣)

انظر كيف استطاع أن يعبر عن ثقل هذا المرض، وشدة أثره على هذه الأماكن التي ذكرها باستخدام ألفاظ من جنسها، بالإضافة إلى شدة وقع هذه الألفاظ مما يزيد من التعبير عن هذا المعنى الذي أراده.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك نماذج يحس القارئ بثقل ألفاظها وتكلفها، بالإضافة إلى أنها لا تضيف إلى المعنى المقصود شيئاً، حيث يشعر المرء أن في الكلام حشواً لا فائدة منه، مثال ذلك ما ورد في رسالة ديوانية: "وكم آثار في البلاد والعباد أثرت وأثرت، وكم

(١) خزانة الأدب: ٥٥/١

(٢) ديوان ابن الوردي: ٨٦ - ٨٨

(٣) المصدر نفسه: ٩٦

وافت ووفت، وكم كفت وكفت، وكم أعفت وعفت وعفت". (١)

فما الذي أضافته هذه الألفاظ المتجانسة إلى معنى هذه الفقرة؟؟

ومثال ذلك أيضا ما كتبه صلاح الدين الصفدي: "فسرحنا الناظر في تلك الربا والرياض، وشرحنا خاطر في تلك الخمائيل والغياض، وأصغينا إلى نغمات طيورها الصوادح، واستنشقنا أرج نسيمها الفائق الفائح، والأطيار قد أخذت في الأفنان بفنون ألحانها، وخلعت القلوب بشدوها على دفها وعيدانها، وناحت فناجت كل مشوق بأنواع الأشواق، وفرحت وقرحت فأخذت الأحزان عن يعقوب والألحان عن إسحق، وصدحت فصدعت قلب كل متيم مشتاق، وشدت فشدت في حسين الرمل، فهيجت بلابل العشاق، وناحت في النواحي تشكو ألم الفراق ولها ألف ألف، ولم تكن كالعاشق المسكين ينوح على غصن القوام، ويبكي على خصر وردف". (٢)

وانظر كيف جاءت الألفاظ في هذه الفقرة مصنوعة، ينفر منها الطبع السليم، يقول: "فأنشدت وقلبي طائر، وعقلي حائم وحائر، ووجدني جائد وجائر، وطرفي ساهد وساهر، ودمعي سائل وسائر.. فتبسم عن نظيم الدرر المكنون، ورمقني بعين تحار منها العيون، وقال: والله: إن غيرك لا يراغ ولا يراد ولا يرام، وأنت عندي تطاغ ولا تضار ولا تضام، ولمثل ودك لا يقاس ولا يقال ولا يقام، ولمثل شرك لا يذاع ولا يزال ولا يدام". (٣)

إن القارئ يستطيع أن يكتشف التكلفة والتصنع في ألفاظ الجناس في هذه الفقرات بوضوح ويسر.

ومما يدخل في باب البديع ما نجده في أدب هذا العصر، وأطلق عليه "لزوم ما لا يلزم". وقد عرف عند علماء البلاغة بأنه: سجع التزم الكاتب فيه بتمائل الحرفين اللذين تنتهي بهما أجزاء الفواصل. (٤)

وقد اشترط لصحتها ما سبق في أنواع البديع الأخرى، ومن صدورها عن سلامة الطبع وعدم التكلفة، يقول ابن الأثير: "وكذلك أقول في غير اللزوم من الأنواع المذكورة أولاً، فإن الألفاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلامة طبع، وكانت غير مستجلية ولا متكلفة، جاءت غير محتاجة إلى التائق، ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق، فإن قيل: ما الفرق

(١) صبح الأعشى: ٢٦٦/١١

(٢) لوعة الشاكي ودمعة الباكي: ٩

(٣) المصدر نفسه: ٤٨

(٤) انظر: المثل السائر: ٣٦٥/١

بين المتكلف من هذه الأنواع وغير المتكلف؟ قلت في الجواب: أما المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والروية، وذلك أن ينفي الخاطر في طلبه، ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره، وغير المتكلف يأتي مستريحاً من ذلك كله، وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته، أو الخطيب أو الكاتب في إنشاء خطبته أو كتابته، فبينما هو كذلك إذ سنج له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب. (١)

ويمكن القول: إن أكثر ما ورد من سجع مما يدخل في باب "لزوم ما لا يلزم" إنما يرد ضمن سلامة الطبع وعدم التكلف والتصنع، حيث وردت ضمن فقرات السجع، مثال ذلك ما ورد في مكاتبة: "أما بعد حمد الله مانح القلوب السليمة هداها، ومرشد العقول إلى أمر معادها ومبداها، وموفق من اختاره إلى محبة صواب لا يضل سالكها، ولا يظلم عند اختلاف الأمور العظام مسالكها، وملهم من اصطفاها لابتغاء آثار السنن النبوية، والعمل بموجبات القواعد الشرعية، والانتظام في سلك من طوقته الخلافة عقودها، وأفاضت على سدته الجليلة برودها، وملكته أقاصي البلاد، وأناطت بأحكامه السديدة أمور العباد، وسارت تحت خوافق أعلامه أعلام الملوك الأكسرة، وشيدت بأحكامه مناهج الدنيا ومصالح الآخرة، وتبخر كل منبر من ذكره في ثوب من السيادة معلم، وتهللت من ألقابه الشريفة أسارير كل دينار ودرهم." (٢)

حيث التزم الكاتب في الفواصل الأولى: هداها ومبداها، سالكها ومسالكها، بحرفي الدال والهاء الممدودة في الفاصلتين الأوليين، والتزم بالكاف والهاء الممدودة في الفاصلتين التاليتين، ولكنه خالف فيما تلاهما، إذ التزم بحرف واحد هو الياء المشددة المنتهية بالوقف، وعاد للالتزام بحرفين هما: الدال والهاء الممدودة، ثم بحرف واحد هو الدال الساكنة...

وهناك ظواهر أخرى من نثر هذا العصر يمكن أن ندخلها في باب "لزوم ما لا يلزم"، من ذلك التزام الكاتب في رسالة جميع حروفها مهملة، مثالها: رسالة كتبها صفي الدين الحلي، وبعث بها إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣هـ جاء فيها: "أدام الله دولة الملك العادل العامل الأوحد الكامل، موئل الأمل ومآل الأرامل، مالك ملوك الدول، طامس أسماء الكرام الأول، أسد الأساد ومكمد الحساد، ومورد الموارد... حلمه مهد أحكام الإسلام، واسمه اسم رسول الملك العلام، ما آده حمل ملك منصر، ولا حمل طود حلمه الأصر، وعدله جسم

(١) المثل السائر: ٣٧٤/١

(٢) مآثر الإنافة: ٢٥٧/٣

المطامع وأحاد الطامع... (١)

ومما يدخل في باب "لزوم ما لا يلزم" ما كتبه أيضا صفي الدين الحلي من رسالة، حيث كتب فيها أربعمائة فقرة نثراً، وثمانين نظماً، كل كلمة فيها تصحف ما بعدها، جاء فيها: قبل قبل يراك ثراك، عبد عند رخاك رجاك، أبي أبي سؤال سواك، أمل أمك رجاء رخاء، فألقى فألقى جرة خده بأعتابك بأغيا بك، شرفاً سرفاً، لاذ بك لأدبك... (٢)

إن هذين النوعين من "لزوم ما لا يلزم" هما بحق من الأدب المتكلف الذي يطغى تكلفه وتصنعه على ما فيه من جمال الصياغة وشرف المعنى.

ومما يدخل في باب "البديع" مما كثر في أدب هذا العصر "التورية" وهي في اللغة: مصدر الفعل وري: تورية: إذا ستر الخبر وأظهر غيره، وفي الاصطلاح: "أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجازاً، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد، ويوري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب، وليس كذلك." (٣)

وقد كان ابن حجة من المعجبين بهذا اللون البلاغي، فقال: "ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب، ولعمري إنهم بذلوا الطاقة في حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب، فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفت في القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة، وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول، ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول." (٤)

وفي مكان آخر يقول: "قد تقدم وتقرر أن التورية عند علماء هذا الفن بمنزلة الإنسان من العين، وسموها في البلاغة سمو الذهب على العين، وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة، وأفكارهم لا تقصد مظانها، وإن كانت سليمة صحيحة، لكنها ربما وقعت لهم عفواً من غير مرام، فنقول: إنها رمية من غير رام، وقد علم أن المتأخرين من الفاضل إلى من فضل بعدهم نور مشكاتها، والمتفكهين في أدواح الأدب بثمراتها..." (٥)

(١) ديوان صفي الدين الحلبي: ٤٨٨ - ٤٩٠ والملاحظ أن الكاتب لم يراع وجود التاء المربوطة حيث عدّها من الحروف المهملة.

(٢) المصدر نفسه: ٤٩١

(٣) خزائن الأدب: ٣٩/٢

(٤) المصدر نفسه: ٤٠/٢

(٥) المصدر نفسه: ٤٤/٢

هذه التورية التي تحدث عنها ابن حجة وأعجب فيها، أقرب إلى الصنعة والتكلف من غيرها من أنواع البديع الأخرى، وبخاصة الجنس الذي حمل عليه حملة شديدة، وعده من مظاهر التكلف، وقد وردت التورية في نثر العصر المملوكي ولكن بصورة قليلة، حيث أكثر منها ابن الوردي، ومن ذلك ما ورد عنه في شرط الصوفي، يقول: "أن يتخلق بأخلاق الرسول، ويفوز من سؤل رياضاته بالشمول، ويتكعب عما عنه نكب، ويأخذ بما إليه ندب، ولا يتخذ محرمة ربيعه، ولا يجري كالعاصي الذي يزيد إعراضه عن الشريعة." (١)

ففي هذا النص أكثر من تورية منها: الشمول: تعني: الإحاطة وهي ما عناء، وتعني: الخمرة، ومحرم: تعني الشيء المحرم غير الحلال، وتعني شهر محرم، وربيعه: تعني فصل الربيع أو مكان الربيع، والعاصي: تعني: نهر العاصي والمذنب الذي يفعل المنكر، والشريعة تعني: الدين أو الشرع، ونهر الأردن.

ولننظر أيضاً في هذه التوريات التي ذكر فيها كتباً في النحو، كما وري من خلالها بأسماء الحروف، يقول: "أما بعد حمد الله المقدمة رحمته، الكافية نعمته، حمداً يبلغ به المقرب خلاصة التسهيل، ويمس به مفصل الجمل وهو بإيضاح العمدة كفيل، والصلاة على نبيه محمد، الذي ألف التقوى، ولام أهل العدوى، ودال على كل كاف من أهل العناد، وذال إذ قصر ثيابه فطمس عين أهل الشرك، وفاء بعين المراد، وباء من إسرانه الشريف بما ضاد، وشين حاسده بما بان لكل راء في 'يسن' و'ص'." (٢)

في الجزء الأول من قوله هذا: استخدم التورية في ألفاظ تحمل عناوين مؤلفات نحوية، وبخاصة إذا عرفنا أن هذه المكاتبة جزء من إجازة بعرض "المقدمة الكافية" في النحو، وأسماء هذه المؤلفات واضحة في النص، كما استخدم أيضاً أسماء بعض الحروف الهجائية للتورية بها عن بعض الأفعال والأسماء: كالآلف واللام والدال والكاف والذال والفاء والعين والباء والضاد والسين والراء والياء والسين والصاد....

ومن التورية باستخدام المصطلحات النحوية والصرفية، قوله: "أما بعد حمد الله جابر الكسر، والصلاة على نبيه محمد البشير النذير، وعلى آله الذين أعربت أفعالهم، فسكن حب أسمائهم في مستكن الضمير، وعلى صحبه الذين وجب رفعهم على الابتداء، وسلم جمعهم من التكسير..." (٣)

يبدو لنا أن التكلف واضح في هذا النوع من البديع أكثر من غيره من الأنواع الأخرى.

(١) ديوان ابن الوردي: ٢٣

(٢) المصدر نفسه: ٥٩

(٣) المصدر نفسه: ٩٧

وبعد، فهذه بعض مظاهر البديع والصنعة التي وجدت في نثر العصر المملوكي، أوردت نماذج منها مقرونة بمواقف العلماء في ذلك العصر من هذا الفن، ولا أقف هنا مدافعاً عن استخدام البديع في هذا العصر، ولكنني أقول: إن التكلفة والتصنع في استخدام البديع بأنواعه قد يذهب العاطفة التي يفترض أن توجد في الأعمال الأدبية، وبخاصة إذا كانت في مناسبة تعزية مثلاً، ولننظر في هذا الجزء من مكاتبة لابن الوردي تعزية بوفاة قاضي القضاة شرف الدين هبة الله بن البارزي الحموي، يقول: "وينهي أنه بلغ المملوك انهداد الطود الشامخ، وزوال الجبل الباذخ، الذي بكته السماء والأرض، وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض، فشرقت أجفان المملوك بالدموع كما شرقت صدر القناة من الدم، وأحرق قلبه من الضلوع فراق ومن فارقت غير مضمم، وسواه في حزنه الوارد والصادر، واجتمع الناس لما تم لمأتم ظاهر، فالعلوم تبكيه، والمحاسن تعزي فيه، والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده..." (١)

وهكذا تمضي هذه الرسالة حافلة بأنواع البديع من جناس، وطباق وسجع وتورية بمصطلحات العلوم المختلفة، مما يقتل العاطفة، ويجعل النص جامداً، يقتصر على ألفاظ وعبارات لا حياة فيها.

وفي المقابل، فإننا نجد نصوصاً أخرى تكاد تفيض عاطفة وانفعالاً بالحدث، على الرغم من اشتغالها على صنوف المحسنات البديعية المختلفة، فلننظر في هذا النص الذي كتبه الصفدي لعلاء الدين بن فضل الله العمري يعزیه بفقد أخيه شهاب الدين، يقول: "يقبل الأرض، وينهي ما عنده من الألم الذي برح، والسقم الذي جر ذيول الدمع على الخدود وجرح، لما قدره الله من وفاة القاضي شهاب الدين، سقته بالطف أندائها وأغزرها ساريات الغمام، فـ"إنا لله وإنا إليه راجعون"، قول من غاب شهابه، وأب التهابه، وذاب قلبه فصار للدمع قليلاً، وشاب فوده لما شب جمر فؤاده، ولا غرو، فيومه جعل الوالدان شيباً، فيا أسفاً على ذلك الوجه المليء بالملاحه، واللسان الذي طالما سحر العقول ببيانه، فصاحت يا ملك الفصاحة... فرحم الله ذلك الوجه، وبلغه ما يرجوه، وضواه بالمغفرة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه..." (٢)

انظر معي في هذا النص تجده حافلاً بالمحسنات البديعية التي حفل بها النص الأول، لكن العاطفة فيه أقوى منها في ذلك النص، مما يثبت أن المحسنات البديعية قد لا تؤثر في

(١) ديوان ابن الوردي: ١٠٤

(٢) الوافي: ٢٦٨/٨

العاطفة، إن كان تأثر الكاتب بالتجربة التي يعبر عنها قويا، وانفعالاته صادقة، تتبع من مشاعر متصلة بالحدث اتصالاً وثيقاً.

وقد حمل ابن خلدون على كتاب عصره الذين اتخذوا السجع طريقة لهم في النثر، فقال: "واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفهم الذي ارتضوه، وخلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل، وتناسوه، وخصوصاً أهل المشرق، وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة" (١)

ثم يحاول ابن خلدون تعليل حكمه هذا بقوله: "وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمره في البلاغة، وانفساح خطوبه، وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود، ومقتضى الحال فيه، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية، ويغفلون عما سوى ذلك." (٢)

والحق أن قول ابن خلدون هذا فيه تحامل كبير على كتاب هذا العصر وعلى أدبه، فلقد نظرت في أدب هذا العصر فوجدت أن هذا العامل الذي ذكره، وهو العجمة ووجود قوم لا يستطيعون الإفصاح عن أنفسهم باللغة السليمة سبب لتمييز كتاب العصر من أبناء هذه الأمة عن الكتاب من الجنسيات الأخرى، فحاولوا إظهار هذا التميز بهذه الفنون المختلفة، وبخاصة أنه تصادفنا بعض من مكاتبات الممالك تخلو من هذه الفنون، وإن حاولوها فلا يصلون إلى درجة الكتاب المتميزين في هذا المجال.

ثم نظرت في مختلف مظاهر الحياة في هذا العصر، فوجدت التأنق يكاد يطغى على ميادينها ومجالاتها المختلفة، في المأكّل والمشرب والملبس... في الاحتفالات والمواسم المختلفة، انظر معي إلى ما أورده القلقشندي عن دولة الأتراك وإظهار مدى التأنق في مراسيمها، قال: "وجاءت الدولة التركية، وقد تنقحت المملكة، وترتبت، فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب، وتتضيد الملك، وقيام أبيته، ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها، فسلكت سبيله، ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب، وفاقت سائر الممالك، وفخر ملكها على سائر الملوك." (٣)

(١) مقدمة ابن خلدون: ٥٦٧

(٢) المصدر نفسه: ٥٦٨

(٣) صبح الأعشى: ٤/٤

فدولة هذه حال الترتيب والتهديب فيها لجذيرة بمثل هذا التأنق اللفظي في مكاتباتها، إذ إن هذه المكاتبات مظهر من مظاهر الأبهة وترتيب الملك وتنظيمه فيها.

وثمة عامل ثالث أستطيع تبينه، وهو أن كتاب هذا العصر حاولوا إبراز النثر الفني وتمييزه عن أنواع النثر الأخرى في هذا العصر، وبخاصة النثر التأليفي، حيث خلت الكتب المؤلفة في هذا العصر، إلا ما ندر، من الألوان البديعية، ويدعم هذا أن مؤلف الكتاب إذا أراد أن يكتب كتاباً في أي ميدان من ميادين العلوم المختلفة، فإننا نجد أن لغة الكتاب من النثر المرسل، بينما نجده يكتب مقدمة هذا الكتاب، أو ما اصطلح على تسميته "بخطبة الكتاب" بأسلوب مسجوع، وكأنه يشعر أن هذه المقدمة أو الخطبة يجب أن تكون من إبداعه، فالأدب الإبداعي يتطلب لغة أعلى، وأسلوباً أرفع من لغة العلم والأسلوب المستخدم فيه، ومن هؤلاء ابن خلدون نفسه، حيث إنه من المعلوم أن لغته في كتابه التاريخي تجري على الأسلوب المرسل، أما خطبة هذا الكتاب فإنها جاءت بلغة مسجوعة لا تخلو من التكلف، فمن ذلك قوله: 'أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقوال، ويتساوى فيه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيها الأمثال... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكاننات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق.' (١)

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين تعليل هذه الظاهرة في النثر المملوكي، بأن أدب هذا العصر أدب أرسنقراطي، فهو من "عمل رجال انتهوا إلى القمة في هذه الصناعة، وكانوا لا يقصدون به سواهم، فهم أحذق من أن يخاطبوا به كل إنسان، إنه أدب اختصت به طائفة قليلة من الناس هي أرقى فكرياً، وأكمل ذوقاً، تصنفه الطبقة الممتازة فنياً لهذه الطبقة عينها، فهي فاعلة وقابلة، ومغنية ومتلقية... وإذا كان أدب المماليك أدباً أرسنقراطياً ممتازاً، فليس عليه أن يجهل قدره العامة، وهم الجاهلون، ولا يهمه اعتراف الناس، بل عامتهم بقدره، أم أنكروه." (٢)

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣ - ٤

(٢) محمد الحبيب بن خوجة، عصر المماليك - الترسل وابن عبد الظاهر، مطبعة الترقى، تونس:

وفي ختام حديثي عن البديع والصنعة أجد مناسباً أن أورد هذه الكلمة للأستاذ محمد الحبيب ابن خوجة عن نثر هذا العصر، ففيها إنصاف للنثر في هذا العصر وأهله، يقول: "وإننا مع ذلك لفي حاجة إلى الإشارة إلى ما طبع به رجال هذا العصر طريقتهم في الترسل، فقد أخذوا بمذهب القاضي الفاضل، وهذا المذهب معناه أن الكاتب لا يقتصر على تصوير المعاني بالألفاظ القريبة التي تحضر ذهنه عندما يريد التعبير كما نفعل اليوم، بل نجده ينتقي هذه الألفاظ، ويختار منها الأجود والأصلح لأداء المعنى المراد، ثم هو يحرص كل الحرص على أن يكون لتأليفهم إيقاعات موسيقية تشبه هذه الإيقاعات التي نجدها في الشعر، ومن أجل ذلك نجدهم يلتزمون السجع، ويقدرّون الفواصل، ويحكمون التناسب بينها، ويرصّعون جملهم بالتضمين تارة والاقتراس أخرى، ولا يخلون بشيء من التورية والجناس والمقابلة ومراعاة النظير والاستخدام والتصريع، وغير ذلك من الصور التي يستعملونها توشية، ويتفاخرون بها وبكثرتها، لما تحقّقه في طريقتهم من ترصيع وتجميل، يزيد اللفظ بهاء والصورة جمالاً والتعبير رونقاً." (١)

ومن القضايا الفنية التي ينبغي دراستها في أدب هذا العصر: الأسلوب. وأولى القضايا التي أجدها تلح علي بالدرس والبحث في هذا الموضوع هي قضية مناسبة الأسلوب للموضوع، أو مراعاة إعطاء كل مقام حقه من حيث: الإيجاز أو الإطناب أو المساواة.

فقد ذكر ابن الأثير مثلاً "أن جماعة من مدعي علم البيان ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم إلى قسمين. فمنه ما يحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات، ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التي تقرأ على ملأ من عوام الناس، فإن الكلام إذا طال في مثل ذلك أثر عندهم، وأفهمهم، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقع لأكثرهم، حتى يقال في ذكر الحرب: "التقى الجمعان، وتطاعن الفريقان، واشتد القتال، وحمي النضال... وما جرى هذا المجرى..." (١).

ولكن ابن الأثير يناقش هذا الكلام، فلا يرى فهم العامة شرطاً معتبراً في اختيار الكلام، وذلك لأنه إذا كان فهمهم شرطاً لوجب أن يستعمل في الكلام الألفاظ العامية المبتذلة عندهم، ليكون ذلك أقرب إلى فهمهم، وإنما يجب توخي المسلك القويم في تركيب الألفاظ على المعاني، بحيث لا تريد هذه على هذه، مع الإيضاح والإبانة، وليس على مستعمل ذلك أن يفهم العامة كلامه، فإن نور الشمس إذا لم يره الأعمى لا يكون ذلك نقصاً في استنارته، وإنما النقص في بصر الأعمى". (٢)، كما تناول هذه القضية أيضاً في رده على أبي هلال العسكري، حيث يقول في حديثه عن الإطناب: "رأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه، فمنهم من ألحقه بالتطويل الذي هو ضد الإيجاز، وهذا عنده قسم غيره، فأخطأ من حيث لا يدري، كأبي هلال العسكري والغانمي حتى إنه قال: إن كتب الفتوح وما جرى مجراها مما يقرأ على عوام الناس ينبغي أن تكون مطولة مطنّباً فيها". (٣)، ثم يعلق على هذا الكلام بما يشبه تعليقه على الكلام السابق مع التفريق بين الإطناب والإطالة، يقول: "وهذا القول فاسد، لأنه إن عني بذلك أن تكون ذات معان متعددة، قد استقصى فيها شرح تلك الحادثة من فتح أو غيره، فذلك مسلم، وإن عني بذلك أن تكون مكررة المعاني، مطولة الألفاظ قصداً لإفهام العامة، فهذا غير مسلم، وهو مما لا يذهب إليه من عنده أدنى معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة، ويكفي في بطلانه كتاب الله تعالى، فإنه لم يجعل لخواص الناس فقط، وإنما جعل لعوامهم وخواصهم، وأكثره لا بل جميعه مفهوم لألفاظ العوام إلا كلمات معدودة وهي التي تسمى "غريب القرآن"، وعلى هذا فينبغي أن تكون الكتب جميعها مما يقرأ على

(١) المثل السائر: ٢٦٨/٢ - ٢٦٩

(٢) المصدر نفسه: ٢٦٩/٢

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٥/٢

عوام الناس وخواصهم، ذات ألفاظ سهلة مفهومة، وكذلك الأشعار والخطب، ومن ذهب إلى غير ذلك فإنه بنجوة من هذا الفن، وعلى هذا فإن الإطناب لا يختص به عوام الناس، وإنما هو للخواص كما هو للعوام". (١)

والحق أن أبا هلال العسكري يفرق بين الإطناب والتطويل، فالإطناب عنده "بلاغة، والتطويل عي"، لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب، والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة". (٢)

وحول رأيه في الموضوعات التي يجب فيها الإطناب، يقول: "ولا شك في أن الكتب الصادرة من السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة، وتفخيم النعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة، تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب". (٣)

حتى إن العسكري قد جعل الإطناب إذا جاء في موضعه إيجازاً، يقول: "والإطناب إذا لم يكن منه بد إيجاز، وهو في المواعظ خاصة محمود كما أن الإيجاز في الإفهام محمود ممدوح". (٤)

وقد فصل شهاب الدين محمود القول في بيان مواضع الإيجاز والإطناب في المكاتبات، فقال: "ومما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسك به هو إعطاء كل مقام حقه، فإذا كتب في أوقات الحروب إلى نواب الملك عنه، وإلى مقدمي الجيوش والسرايا فليتوخ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد من غير تطويل ولا بسط يضيع المقصد، ويفصل الكلام بعضه عن بعض، ولا تهويل لأمر العدو، تضعف به القلوب، ولا تهوين لأمره يحصل به الاغترار". (٥)

كما ينبغي الإطناب في مواضع أخرى منها: 'إذا كتب عن الملك في أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم، فعلى الكاتب عندئذ أن يفصل القول في وصف العزائم وقوة الهمم وشدة الحمية للدين وكثرة العساكر والجيوش، وسرعة الحركة وطي المراحل ومعالجة العدو، وتخيل أسباب النصر، والوثوق بعوائد الله في الظفر، وتقوية القلوب منهم، وبسط آمالهم، وحثهم على التيقظ، وحضهم على حفظ ما بأيديهم، ومن ذلك ما أشبهه، ويبرز ذلك في أمتن كلام وأجله، وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة، وأبعده من اللين والرقّة، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى، واستنزال نصره وتأييده، والاعتصام به في الصبر،

(١) المثل السائر: ٢٥٦/٢

(٢) العسكري، الصناعاتين: ١٩١، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧١هـ، ١٩٥٢م.

(٣) المصدر نفسه: ١٩٠ (٤) الصناعاتين: ١٩٢

(٥) حسن التوسل: ٣٣١

والاستعانة به على العدو، والرغبة إليه في خذلانهم، وزلزلة أقدامهم، وجعل الدائرة عليهم، دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم، ورجاء تأخرهم، وانتظار العرضيات في خلفهم، لما في ذلك من إيهام الضعف عن لقائهم، واستشعار الوهن والخوف منهم." (١)

من هذا القول لشهاب الدين محمود، نستخلص عدداً من القضايا الأسلوبية التي تمهد الطريق لأرباب هذه الصناعة، فالموضوع الرئيس الذي يطلب الكتابة فيه هو: الكتابة عن الملك أو السلطان إلى أهل الثغور في أوقات حركة العدو، يعلمهم بحركته، والاستعداد للقائه، حيث يحدد لهم الأفكار والمعاني التي يجب على الكاتب أن يتناولها في هذا الموضوع عند الكتابة به مثل: وصف العزائم والهيم والحمية للدين وتقويتها في نفوسهم، ببيان كثرة عساكر المسلمين وجيوشهم، وبيان سرعة الحركة وطبي المراحل ومعالجة العدو، وتخيل أسباب النصر والوثوق بعوائد الله في الظفر، تقوية قلوب المسلمين وبسط آمالهم، وحثهم على التيقظ وحفظ ما بأيديهم، ثم العودة إلى الله وطلب نصره، والاعتصام به والاستعانة به على العدو.

ثم يتحدث عن المنهج والأسلوب العام الذي يسكله الكاتب في ذلك وهو:

الإطناب وبسط القول في هذه الأفكار والمعاني جميعاً، ثم يبين اللغة التي يجب على الكاتب استخدامها، وهي اللغة التي تتصف بالقوة والجزالة، والبعد عن اللين والركة.

ومما يجب الإطناب وبسط الكلام فيه: التهاني بالفتوح، حيث يفصل الكتاب والأدباء للشاديين في هذا المجال الأفكار والمعاني التي ينبغي لهم تناولها، ومن ذلك ما فصل فيه شهاب الدين محمود، يقول في بيان هذه المعاني: 'شكر نعم الله والتبري من الحول والقوة إلا به، ووصف ما أعطى من النصر، وذكر ما منح من الثبات، وتعظيم ما يسر من الفتح، ثم ما وصف بعد ذلك من عزم وإقدام وصبر وجلد عن الملك وعن جيشه، حسن وصفه، ولاق ذكره، وراق التوسع فيه، وعذب بسط الكلام فيه، فإنه مترتب على ما قدمنا من نسبة النصر إلى واهبه، والكرم إلى معطيه، والثبات إلى الموفق له، ثم كلما اتسع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفها كان أحسن وأدل على البلاغة، وأدعى لسرور المكتوب إليه، وأحسن لموقع المنة عنده، وأشهى إلى سمعه، وأشفى لغليل تشوقه إلى معرفة الحال على جليته، ولا بأس بتهويل أمر العدو، ووصف جمعه وإقدامه، فإن في تصغير أمره تحقيراً للظفر به...' (٢)

(١) حسن التوسل: ٣٣٢ - ٣٣٣

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٥

وإذا كانت هذه المعاني والأفكار موجهة إلى ملك "صاحب مملكة منفردة، تعين أن يكون البسط فيها أكثر، والإطناب أمد، والتهويل أبلغ والشرح أتم" (١)، وأما "إن كتب في ذلك إلى ملك غير مسلم لكنه محارب، فالحكم في ذلك أن يذكر من أسباب المودة ما يقتضي المشاركة في المسار". (٢)

ومن الأبواب التي ينبغي للكاتب أن يبسط فيها القول، ويطلق العنان فيها لفصاحته وبلاغته: 'ما تضمن الأوصاف من الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب وأنواع الرياضات من الصيد ورمي البندق ولعب الكرة'. (٣)

وهناك أنواع من المكاتبات يستحسن فيها الإطالة وبسط الكلام، وذلك بحسب مراتب من تكتب عنهم وإليهم، ومنها: التقاليد والتواقيع والمناشير، وفي ذلك يقول شهاب الدين محمود: 'فأما التقاليد والتواقيع والمناشير، وما يتعلق بذلك، فالأحسن فيها بسط الكلام، وتعتبر كثرتة وقلته بحسب الرتب'. (٤)

ثم يحدد ما على الكاتب مراعاته في مثل هذه المكاتبات، حيث إن عليه 'أن يتخير الكلام والمعاني، فلا يعذر المقصر في ذلك بعجلة، ولا ضيق وقت، فإن مجال الكلام عليه متسع، والبلاغة تظهر في القليل والكثير'. (٥)، وفي ذلك إشارة منه إلى أن الإطالة والإيجاز في هذه المكاتبات مباحة.

أما الإخوانيات، فالإطالة والإيجاز فيها يعود للكاتب نفسه، إن شاء أطال، وإن شاء أوجز، فذلك يعود لصاحبها بحسب اختياره. (٦) أو بحسب ما بين الصديقين من المودة والقرب، وما يعلمه كل واحد منهما من خلق الآخر، وما توجبه دالته عليه. (٧)

تلك مواطن الإيجاز والإطناب في المكاتبات الديوانية، كما حددها الأدباء، وأورد هنا نموذجاً مما كتب في وصف جيش، وهو من الأبواب التي ينبغي للكاتب أن يطنب ويفصل القول فيها، يقول: 'وسرنا بالجيش الذي لا يدرك الطرف حده، ولا الوهم عده، فكان ذوانب السحائب عذب بنوده، وكان شوامخ الأكام مناكب أبطاله ومواكب جنوده، وما قصدوا عدواً إلا ونازلهم قبل

(١) حسن التوسل: ٣٣٥

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٨

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٣

(٤) المصدر نفسه: ٣٦٨

(٥) المصدر نفسه: ٣٦٩

(٦) المصدر نفسه: ٣٩١

(٧) صبح الأعشى: ٣١٠/٦

خيله خياله، وقضى عليهم وعده ووعيده قبل أن ترهف أسننته أو ترعف نصاله، وإذا لمع حديده، وخفقت عذبه وجنوده قيل هذا غمام تلهبت بوارقه، ودمدمت صواعقه، أو بحر تلاطمت أمواجه، وقذف الشرر من مائه أجاجه، أو سيل غصت به فجاجه، وعكس أشعة الشمس اضطرابه وارجاجه، وما علا جبلاً إلا والحق صعوده إليه حزنه بالصعيد، وما منع الريح مواجهته إلا ليسمع صهيل خيله من بأقصى الروم من أقصى الصعيد. (١)

وقد فصل القلقشندي القول في مواضع الإطناب في المكاتبات، فذكر تلك التي ذكرها شهاب الدين محمود (٢)، أما مواطن الإيجاز فقد ذكر منها ما ذكره شهاب الدين محمود، وأضاف إليها مواضع أخرى منها:

أولاً: أن يكون ما يكتب عن السلطان خبراً يريد التورية به عنه وستر حقيقته، كإعلامهم بالحوادث الحادثة عن الملوك، والنواب الملمة بالدول من هزيمة جيش، أو إعلام الرعية ما لا يسهل عليها.... (٣)

ثانياً: أن يكون المكتوب به عن السلطان أمراً أو نهياً.

ثالثاً: أن تكون الكتب المكتوبة عن السلطان باستخراج الخراج وجباية الأموال، وتدبير الأعمال.

رابعاً: أن يكون ما يكتب عن السلطان إحماداً أو إذماماً، أو وعداً أو وعيداً، أو عدلاً أو توبيخاً.... (٣)

تلك مواطن الإيجاز والإطناب في المكاتبات، أما مواطن المساواة فتكون فيما يكتب به إلى النظراء والأكفاء والطبقة الثانية من الرؤساء. (٤)

ولم يقتصر الكتاب على الموضوعات العامة في ذلك، بل بينوا أي الأجزاء من المكاتبات التي يجب فيها الإطالة والإطناب، وأنها يجب فيها الإيجاز، فمن ذلك ما ذكره القلقشندي حيث بين أن الاختصار في التحميدات في الخطب مفضل، بينما الإطناب في الوصايا محبوب أكثر، إلا لمن جل قدره، وعظم أثره، فإن الأولى فيها الاختصار على أهم الجمليات. (٥)

وفي الحديث عن الأسلوب، يقتضي الحديث عن اللغة، فما اللغة التي استخدمت في النثر في العصر المملوكي؟ وهل كانت محققة لشروط الفصاحة التي اشترطها علماء البلاغة؟

(١) حسن التوسل: ٣٥٠

(٢) انظر: صبح الأعشى: ٣٠٥/٦ - ٣٠٧

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٠٣/٦ - ٣٠٥

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٣١٠/٦

(٥) انظر: المصدر نفسه: ٢٧٨/٩

لا أريد هنا الدخول في تفاصيل آراء علماء البلاغة في هذا الأمر، وإنما أذكر هنا ما ذكره ابن الأثير في شروط الألفاظ، فقال: 'إن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، لأنها مركبة من مخارج الحروف، فما استلذه السمع منها فهو الحسن، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح'. (١)

ويأتي ببعض الأمثلة على ذلك، فيقول: 'إن استخدام لفظة الغصن أحسن من لفظة العسلوج'، ولفظة 'الأسد' أحسن من لفظة 'الفدوكس'، (١) ولا يعني ابن الأثير أن كل الألفاظ الغربية أو الوحشية قبيحة، فمن الوحشي ما يكون حسناً، ومنه ما يأتي قبيحاً، فالألفاظ عنده تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسمين حسنين وثالث قبيح. أما القسمان الحسنان: فأولهما ما تداول استعماله من الزمن القديم إلى زماننا، والآخر ما تداول استعماله الأول دون الآخر، حيث استعمله القدماء، ولم يكن استخدامه معاباً عندهم، لأنه لم يكن عندهم وحشياً، وهو عندنا وحشي، وقد تضمن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف شيئاً من هذا مما يطلق عليه 'غريب القرآن وغريب الحديث'، وأما القسم الثالث من الألفاظ فهو الوحشي القبيح الذي لا يختلف في استقباحه عربي بآد، ولا قروي متحضر. (٢)

واعتماداً على ذلك فإن للفظ عنده عيبين هما: الأول: كونه غريب الاستعمال، والثاني: كونه قبيحاً على السمع، كريهاً على الذوق. (٣)

ويبدو أن الذوق العام في ذلك العصر كان ينفر من الألفاظ الغربية الوحشية، وإلى ذلك يشير صلاح الدين الصفدي: 'طلب مني علي بن محمد بن فرحون المدني 'المقامات الجزرية' ليوقف عليها، فجهزتها إليه، فأعادها وقد كتب عليها بخطه يقول: 'الفقير إلى الله تعالى علي بن محمد ابن أبي القاسم بن فرحون اليعمرى المدني، عفا الله عنه، لما نظرت مقامات الجزري رأيت ألفاظها حوشية، وحلل أسجاعها غير مطرزة ولا موشية، لم يسق روضها ماء البلاغة المستعذب، فما أنبت أرضها زهر اللفظ المذهب، ومع هذا فطالما كلف نفسه فيها وعذب،، وعندي أن من لم يستحسن كذبها لم يكذب:

ظن الفصاحة في الغريب فأثره فلكم له من فقرة هي فاقرة

ثم يقول بعد ذلك: 'وقد أثبت منها عندي المقامة الأولى، ورأيت أن ترك ما سواها أولى'. (٤)

(١) المثل السائر: ٢١٩/١

(٢) انظر المصدر نفسه: ٢٢٨/١ - ٢٢٩

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٤/١

(٤) الوافي: ١١٥/٢٢

في هذا النص مجموعة من العوامل جعلت هذا الأديب يرفض هذه المقامات ولم يستحسنها، أهمها: استخدام الألفاظ الغريبة الحوشية، وعدم جمال الأسجاع المستخدمة فيها، بالإضافة إلى تكلف كاتبها وتصنعه في كل ذلك، مما دفع الصفاي إلى إثبات واحدة منها فقط وترك الباقي.

والحق أنني نظرت في نثر ذلك العصر، فوجدت أن ألفاظه تتفق وشروط الفصاحة التي أقرها العلماء باستثناء بعض الألفاظ التي كانت ترد متناثرة في ثنايا المكاتبات هنا وهناك، ومن أمثلة ذلك قول بعضهم في مكاتبة: 'وحماية أطرافها من كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير، وصيانة أكنافها من كل عصابة محلقة في جوها كالطير، وحفظها من عادية كل أفك وسفاك، وبادية أعراب وأتراب، وكل فارس فرس وراكب بعير، وكل وقفة محاصر وكقطة مغير، وجانبى برو بحر، في أحدهما المسالك تعمى والآخر لا يعام، صاحبي سر وجهي: هذا تخشى له عاقبة كلام، وهذا معاقبة كلام...' (١)

إننا إذا نظرنا إلى موقع لفظة 'حقة' من هذا النص نجد أنها نابية في مكانها، شاذة عن بقية الألفاظ، فهي ثقيلة على السمع، صعبة على اللفظ والنطق، وقد عنى بها الكاتب هنا: الوثبة والإغارة السريعة، ولو وضع مكانها لفظة 'وثبة' لجاء موضعها أفضل من الأولى، وأخف على اللسان والسمع.

ومن ذلك الغريب قول آخر: 'موكلاً بحركات العدو وسكناته، جفنا لا يالف الفرار، وسيفاً لا يعرف القرار، وعزماً لا يرضى من عدوه دون اصطلامه القرار.' (٢)

وفي بعض الأحيان يستخدم بعض الكتاب صيغة غريبة، فتخرج اللفظة ثقيلة مستقبة، ومن ذلك قول بعضهم في مكاتبتهم: 'وإلزام كل واحد بما يلزمه من الوظائف في ليله ونهاره، وإدلاجه وابتكاره، ومن عليه في هذا المعقل إشراف من شرفاته، أو تسور على أسواره، وإظهار الرهج والصيت والسمعة بالاهتمام في كل ليلة بزفاف عروسها، وضرب الحرس لنواقيسها.' (٣)

فلفظة 'الرهج' هنا: لغة في الهرج وهو الشغب، ولو استخدمها لجاءت أكثر تمكناً في النص.

ومن ذلك قول آخر 'فالخطب والذهب معناهما واحد، وبهما يذكر الله قيماء المساجد.' (٤)، قيماء: جميع قيم، والصحيح أن جمعها قوام، وجمعها على هذه الصورة جمع غريب.

(١) صبح الأعشى: ١١١/١٢، وانظر لسان العرب مادة حَقَطَ

(٢) المصدر نفسه: ١٣٧/١١ واللسان مادة صِلِمَ

(٣) المصدر نفسه: ٢٦/١٢ واللسان مادة رَهَجَ

(٤) المصدر نفسه: ٣٣٨/٩ واللسان مادة قَوْمَ

ومنه قول الآخر في مكاتبتة: 'وعساكر العلة المحمدية قد دوخت البلاد، فقتلت الأعداء تارة بالإلمام وتارة بالإدهام'. (١) ولعله أراد بالإدهام: المداهمة، وهو مصدر غريب للفعل 'داهم'، لعل السجع هو الذي اضطره لذلك.

هذا عن اللفظة في ذاتها، أما عن الألفاظ في مواقع استخدامها، أو مدى مناسبتها للموضوع، فقد تحدث علماء البلاغة في ذلك، فقسموا الألفاظ إلى قسمين: جزلة ورقيقة، أما الألفاظ الجزلة فهي التي 'تستعمل في وصف مواقف الخروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام العباد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك'. (٢)

وقد أوضح ابن الأثير ما المقصود بالجزل والرقيق، فالجزل من الألفاظ هو: 'أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذائذته في السمع، وأما الرقيق، فهو: اللطيف، الرقيق الحاشية'. (٣)

وقد راعى النثر في العصر المملوكي الأول هذه السمة في الألفاظ واستخدامها، ولننظر في ألفاظ هذه المكاتبة التي كتب بها إلى من هزم جيشه: 'أصدرناها وقد اتصل نبأ ذلك المقام الذي أوضحت فيه السيوف عذرها وأبدت به الكماة صبرها، وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها، وبذلت فيه الأبطال من الجلال جهدها، ولكن لم يكن الظفر إليها، فكان عليهم الإقدام على غمرات الحرب الزبون، والاصطلاء بجمرات المنون...'. (٤)

وفي المقابل، نجد للكاتب ذاته ألفاظاً رقيقة، ولكن في موضوع آخر وهو الوصف، يقول: 'إلى حدائق ملتفة، وجداول محتفة، إذا جمش النسيم غصونها اعتنقت اعتناق الأحباب، وإذا فرك من المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحباب، ورقصت في المناهل رقص الحباب، وإن لثم ثغور نورها حيته بأنفاس المعشوق، وإن أيقظ نواعس ورقها غنته بألحان المشوق، فنسيمها وإن، وشميمها لعرف الجنان عنوان، ووردها من سهر نرجسها غيران...'. (٥)

لعل القارئ لهذين النصين يلاحظ بصورة واضحة جزالة الألفاظ وفخامتها في النص الأول، ورقتها وعذوبتها في النص الثاني.

هذا وقد وردت في النثر في العصر المملوكي بعض الأخطاء اللغوية الخاصة باشتقاق بعض

(١) صبح الأعشى: ١٦٨/١٠

(٢) المثل السائر: ٢٤٠/١

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٠/١

(٤) حسن التوسل: ٣٨٥

(٥) المصدر نفسه: ٣٥٦

الألفاظ. ومن ذلك على سبيل المثال قول بعضهم: "ولقد استحققت أن يقول لك منصب سلفك رضي الله عنه أهلاً وسهلاً ومرحباً." (١) وصواب هذه اللفظة: استحققت.

ومنه قول الآخر: "أنت الشمس التي بها تعرف الأوقات الخمس... رفلت في الحلل المعصرة، محيت آية الليل، وجعلت آية النهار مبصرة." (٢)

فقوله: "محيت" خطأ وصوابه: "محو"، إذ إن الفعل معتل الآخر بالواو. ومن ذلك قوله أيضاً في وصف "سهيل": "أو كمصباح تلعب به أيدي الرياح، أو ظام يريد أن يرد." (٣)

ربما أراد بهذه الكلمة "ظاميء" من الفعل ظميء، فاسم الفاعل منها ظاميء وليس ظامي مما لا يجوز له حذف الهمزة.

وقد تنوعت الأساليب التي استخدمها الكتاب حسب مقتضيات الحال، وحسب الموضوع الذي يتحدث عنه الكاتب، فاستخدموا الأسلوب الخبري في مواضعه، واستخدموا الأسلوب الإنشائي في الأماكن التي تقتضي ذلك، كما استخدم الحوار أحياناً، وراوح الكتاب بين الجمل القصيرة والطويلة حسب مقتضيات الحال أيضاً.

أما استخدامهم لأسلوب الخبر والإنشاء، فلم يكن عبثاً، وإنما جاء لخدمة المعنى، ففي المواطن التي تستدعي الإشارة كالحث على الجهاد نجدهم يكثر من جمل النداء والأمر والاستفهام... أما مواطن نقل الأخبار وسردها فتستدعي استخدام الجمل الخبرية، ومن ذلك ما ورد في مكاتبة: "فلما جاسوا خلال الديار، وماسبوا يرفلون في حلل الإيمان التي تشفي صدور قوم مؤمنين، وتغيظ الكفار، لم يسلكوا شعباً إلا سلك شيطان الكفر شعباً سواه، ولا وطنوا موطناً إلا وكل كافر يأباه، ولا نالوا من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، كما وعدهم الله... وما برحوا كذلك إلى أن نازلوا البلد المسمى بآياس، فحصل لأهله من مسماء الاشتقاق الأصغر والاشتقاق الأكبر بقطع الأمل منه واتصال الإياس، فناداهم من ذلك الحصن من أسارى المؤمنين:

يا رحمة الله حلي في منازلنا حسبي برائحة الفردوس من فيك

ويا نصر الله انشر بالظفر رايات مواجهنا ومنازلنا، فطالما كنا نؤمك ونرجيك، ويا خيل الله اركبي، ويا خيل الكفار اذهبي، ويا جند إبليس ارهبي من جند الله الغالبيين، وإن وجدت مناصاً

(١) صبح الأعشى: ٢٣٠/١١

(٢) نسيم الصبا: ٧

(٣) المصدر نفسه: ٤

فانفري، ويأما للإسلام من جنود وأنصار قاتلوا الذين يلونكم من الكفار..."(١)

فكما نلاحظ، فقد استخدم الكاتب الأسلوب الخبري في مواضع السرد والإخبار، ولكن عندما حان اللقاء، واستدعى الأمر المواجهة مع العداء، فلا بد من استخدام الأسلوب الإنشائي لحث الجنود على الثبات، ولقاء العدو بنفوس لا تهاب الموت.

وحيثما وجدت المعنى يقتضي استخدام الجمل القصيرة أو الطويلة، فإننا نجد الكتاب يراعون ذلك، فلننظر إلى هذه المكاتبة في البشري بنصر: "ولما كان في العام الماضي سوف ببعضه وأخر، ودافع عند إبانة وقصر، وسأل مراحنا في تنقيص بعض ذلك المقرر، وأرسل ضراعاته إلى نوابنا بالممالك الشامية في هذا المعنى وكرر، وقدر في نفسه المراوغة وأسر في (ارتعا)*، والله أعلم بما قدر، فاقتضت آراؤنا الشريفة أن نرسل إليه بعثا يذلل قياده، وينكس صعاده، ويخرب بلاده، ويوطيء أطواره، ويوهن عناده، ويذهب فساد، ويفرق أجناده، ويمزق أنجاده، ويقلل أعداده، ويقلل جموعه، ويدكدك ربوعه، ويذري على ملكه دموعه، ويدني خضوعه..."(٢)

إن استخدام الجمل الطويلة أو القصيرة قد أدت غرضاً معنوياً، حيث يستطيع القارئ أن يدرك من قراءة هذا النص وتسارع جملة، وخروجها منطلقة سريعة، يدرك واجب هذه البعثة التي أرسلت لمعاقبة العدو ومقاصصته على تأخيرها في إرسال الجزية المطلوبة منه، فكانت هذه البعثة التي انطلقت وأدت واجبها بسرعة انطلاق جملها...

كما استخدم الكتاب أيضا أسلوب الحوار إذا اقتضى السياق ذلك، فمن ذلك ما ورد في فتوى على الفتوة، كتبها ابن الوردي: "إن قال أحدهم: أنا أقضي دين المدين، وأجبر المكسور بتسكين روعة المسكين، وأحمل الثقل وأطلق المعتقل، قلت: أخصصت به رفاقك وعشراك، وتركت بقية الناس وراك، وقصدت به حظ نفسك، وأردت أبناء جنسك... فإن احتج للفتوة بأخذها عن الخليفة، قلنا: إن صح فبدعة أحدثت كتقيل العتبة الشريفة، وإنما يصح الاقتداء بالخلفاء الراشدين الذين أخذ عنهم العلماء وأئمة الدين..."(٣)

حيث يتضح أن الكاتب هنا يريد محاورة مؤيدي الفتوة وأنصارها، ومن يحاولون الاستدلال لها، فلا يجد الكاتب أفضل من أسلوب الحوار، ليفضح أفكارهم، ويثبت عدم صحة آرائهم وزيفها.

(١) صبح الأعشى: ٤٣٢/٧ - ٤٣٣

(٢) المصدر نفسه: ٤٣٠/٧ - ٤٣١

(٣) ديوان ابن الوردي: ٧١

ومن الخصائص الفنية التي يتميز بها النثر في هذا العصر كثرة الاقتباس والتضمين، فما المقصود به؟

اختلف العلماء في بيان المقصود بالاقتباس والتضمين، فيرى بعضهم: "أنه إن جاء في المنظوم فهو عقد وتضمين، وإن كان في المنثور فهو اقتباس". (١)

كما خصه البعض الآخر بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية (٢)، في حين عمو قسم ثالث استخدامه، فأطلقه في مسائل الفقه أيضاً. (٣)

كما اختلف العلماء في إطلاق التسمية على هذا الباب، فابن الأثير سماه التضمين (٤)، وكذلك شهاب الدين محمود (٥)، في حين أطلق عليه ابن حجة "الاقتباس" (٦)، وقد فصل بعضهم في ذلك، فإذا كان الأخذ من القرآن أو الحديث سمي "اقتباساً"، أما إن كان من الشعر أو المثل أو غيره، فيسمى تضميناً، وهو هنا يشير إلى النقل باللفظ، وإن أشار إلى الشعر أو القصة من غير ذكرهما فهو تلميح... (٧)

ومهما يكن المصطلح الذي استخدمه البلاغيون في ذلك، فإن الكتاب والشعراء قد استخدموا هذا الأمر - ولازوا- وذلك قصداً للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود. (٨)

أما مواضع استخدامها في الرسائل والمكاتبات، فقد اختلف فيها أيضاً، فذكر بعضهم أن مكانها صدر الكتاب، يذكرها الأدنى للأعلى في معنى ما يكتب به، كما ذكر أيضاً أنها تكون في أثناء الكتب وفي المواقع المناسبة، ولا يشترط صدر المكاتبات. (٩)، وقد ورد ذلك في مكاتبات العصر المملوكي. فمما ورد من المكاتبات مفتتحاً بآية من القرآن الكريم قوله: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، أما بعد حمد الله، مانح القلوب السليمة هداها، ومرشد العقول إلى أمر معادها ومبداها..." (١٠)

(١) خزانة الأدب: ٤٧١/٢

(٢) انظر: المثل السائر: ٢٠٠/٣

(٣) انظر: خزانة الأدب: ٤٧١/٢

(٤) انظر: المثل السائر: ٢٠٠/٣

(٥) انظر: حسن التوسل: ٦١ (طبعة المطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٨هـ).

(٦) انظر: خزانة الأدب: ٤٥٥/٢

(٧) انظر: القزويني، تلخيص المفتاح: ٣٧٩ - ٣٨٥، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

(٨) انظر: المثل السائر: ٢٠٣/٣

(٩) انظر: صبح الأعشى: ٢٩٤/٦

(١٠) صبح الأعشى: ٤١٠/٦

ومما ورد في ذلك من غير المكاتبات الديوانية في رسالة المفاخرة بين السيف والقلم لجمال الدين بن نباتة، فكانت براعة القلم لما انتصب لمفاخرة السيف بقوله: "ن، والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون..."، وكانت براعة السيف لما قام لمفاخرة القلم: "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز" (١)

وأما ما ورد في ثنايا المكاتبات، فمثاله ما ورد في مكاتبة عن الخليفة: "سطرها وأصدرها، وقد حققت بعوائد الظنون، وصدقت الخواطر العيون... وأخلي له الغاب وما خرج من الكناس، وغالب به الغلب حتى وطىء الرقاب وداس الأعقاب، وخادع ودله الشيطان بغروره، ودلس عليه عاقبة أموره، فاعتمد بعتاده، واعتز بقياده، واغتر بأن الأرض له، وما علم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده." (٢)

ولم يقتصر الاقتباس من القرآن الكريم على المكاتبات والرسائل بنوعها فحسب، وإنما شمل معظم فنون وموضوعات النثر حتى المقامات، ومن ذلك ما ورد في المقامة الدمشقية لابن الوردی، قال: "فما كان إلا أن نائب الشام أخذته الغيرة للدين والاحتشام، وأمسك منهم أهل الريبة، وقرره فأفروا بتفاصيل هذه المصيبة، فأخذتهم الولاة بكل سبب "يجعل الولدان شيباً"، وضرب يجعل دمع العين صيباً ودم الجنين صيباً، فعوقب كل منهم من بياض رأسه وسوط جلاده بشيبين، وما كفاهم عيب الشرك حتى ضموا إليه عيب الفساد، فجمعوا بين عيبين، فجعلوا وهم تحت العقوبة يتشائمون،" وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون" واشتد خصام الكفرة الفجار، "إن ذلك لحق تخاصم أهل النار..." (٣)

ومما ورد في المكاتبات من الاقتباس من الأحاديث النبوية الشريفة قول بعضهم: "ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي ندب إلى مكارم الأخلاق بقوله: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا" صلى الله عليه صلاة يزيد من يقرن الثناء بها تكريماً..." (٤)

كما تضمنت مكاتباتهم أيضاً بعضاً من أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، فمن ذلك ما جاء في قوله: "وما نحن ممن لاحت له رغبة راغب فتشاغل عنها، ولا مما يسالم فيقابل ذلك بجفوة النفار، والله تعالى يقول: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها"، كيف والكتاب بعنوانه، وأمير المؤمنين

(١) المثل السائر: ٤٥/١

(٢) صبح الأعشى: ٤١٦/٦ - ٤١٧

(٣) ديوان ابن الوردی: ١٢٧

(٤) صبح الأعشى: ٢٤٩/٧

علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: "ما أضمر إنسان شيئاً إلا ظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه". (١)

وأما التضمين بالأبيات الشعرية، فله أصول ومواضع ينبغي للكاتب التقيد بها في المكاتبات الديوانية، إذ "ليس كل مكاتبة يستحسن فيها إيراد الشعر، بل يختلف الحال في ذلك بحسب المكتوب عنه والمكتوب إليه". (٢)

وقد فصل الفلقشندي في هذه المواضع، فقال: "فأما المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة إليهم، فقد ذكر في "مواد البيان" أنه لا يتمثل فيها بشيء من الشعر، إجلالاً لهم عن شوب العبارة عن عزائم وأوامرهم ونواهيهم، والأخبار المرفوعة إليهم بما يخالف نمطها ووضعها، ولأن الشعر صناعة مغايرة لصناعة الترسل، وإدخال بعض صنائع الكلام في بعض غير مستحسن". (٣)

ثم يناقش الفلقشندي ما ذكره بعض النقاد الذين ذكروا أنه يتمثل بالشعر في المكاتبات الصادرة عن الملوك دون غيرهم، فيقول: "إن الملوك والخلفاء إذا كتبوا إلى من ضاهاهم في أبهة الملك، وقاربهم في علو الرتبة، فإنه لا يمنع التمثل بأبيات الشعر فيها تطريزاً للنثر بالنظم، وجمعاً بين جنسي الكلام اللذين هما خلاصة مقاصده، ولا زالت الخلفاء والملوك السالفة يخللون كتبهم الصادرة عنهم إلى نظرائهم في علو الرتبة بالأبيات الرقيقة الألفاظ، البديعة المعاني، للاستشهاد على الوقائع المكتوب بسببها". (٤)

والتمثل بالشعر في المكاتبات كثير في نثر العصر المملوكي، فمنه ما يتمثل به بشطر من البيت يكون مناسباً لفقرات السجع، ومنه ما ورد في مكاتبة: "وظاهر الأمر أن ذلك الشخص ما عصا بالمكان الذي كان فيه إلا لما رأى بالمملكة اليمنية من اضطراب الأحوال، وأسباب الاختلاف والاختلال، والوهن الذي حسن له الاحتراز والاختزال، والخلوة التي حملته على أن طلب الطعن وحده والنزال". (٥)

ومن ذلك أيضاً: "وما يمضي وقت إلا والبشائر متواردة علينا بفتح جديد، ونصر له في كل يوم مخلق تخلق، وفي كل بر بريد، وقصارى أمر العدو الآن أنهم ليس لهم بلد، إلا وقد أخنى عليه الذي أخنى على ليد"، ولا دار إلا وقد أضحت كدار مية التي "أقوت وطال عليها سالف الأمد". (٥)

(١) صبح الأعشى: ٢٦٧/٧

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٤/٦

(٣) المصدر نفسه: ٢٩٥/٦

(٤) المصدر نفسه: ٣٧١/٧

(٥) المصدر نفسه: ٣٧٣/٧

كما ضمنت المكاتبات بأبيات شعرية كاملة، ومن ذلك ما ورد في مكاتبة: "وأحضرت الأسارى من الروم، فترقب مولانا السلطان فيهم من الإل والذمة:

وما قتل الأحرار كالغفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا*

وكان في جملة الأسارى الروميين مهذب الدين بكارنكي يعني أمير الأمراء ولد البراواناه... فكان البراواناه أحق بقول أبي الطيب:

نجوت بإحدى مقلتيك جريحة وخلفت إحدى مهجتيك تسيل
أتسلم للخطية ابنك هارباً ويسكن في الدنيا إليك خليل(١)**

هذا عن التمثل بالشعر في المكاتبات الديوانية، أما عن التمثل به في المكاتبات الإخوانية كالتهاني والتعازي... فقد ذكر القلقشندي أنه "يجوز أن تودع أبيات الشعر على سبيل التمثل، وعلى سبيل الاختراع، محتجاً بأن الصدر الأول كانوا يستعملون ذلك في هذه المواضع"، وقد أجاز التمثل ببيت أو بيتين فأكثر حتى القصائد الطوال.(٢)

وقد اجتمع ذلك في رسالة كتبها ضياء الدين القرطبي رداً على رسالة الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، يقول: "وينهي ورود عذرانه التي "لها الشمس خدن والنجوم ولاند"، وحسنائه التي "لها اللفظ در والدراري قلاند"، ومشرفته "التي لها من براهين البيان شواهد"، وكريمته التي "لها الفضل ورد والمعالى موارد"، وبديعته التي "لها بين أحشائي وقلبي معاهد":

وآيته الكبرى التي دل فضلها على أن من لم يشهد الفضل جاحد
وأنتك سيف سله الله للورى وليس لسيف سله الله غامد

فلمثلها بحسن صوغ السوار، ولفضلها يقال: "أناة أيها الفلك المدار"، وإنها في العلم أصل فرع ثابت، والأصل عليه النشأة والقرار، وفرع أصل ثابت، والأصل فيه الورق والثمار..."(٣)

وكان للتمثل بالشعر حظ وافر في فنون النثر الأخرى أيضاً، وبخاصة فن المقامات والرسائل الأدبية.

(١) صبح الأعشى: ١٦٨/١٤ - ١٦٩

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٩/٦

(٣) الوافي: ٣٤٠/٧

* انظر ديوان المتنبي: ٣٧٢، دار صادر، بيروت.

** انظر ديوان المتنبي: ٣٥٩

ومما يدخل في هذا الباب تضمين الرسائل بالأمثال، فمما ورد في بعض المكاتبات قوله: "وأوجب من حقوق الطاعة علينا ما أمسى به لدينا - مع جلالة الأبناء - ابناً، وغدونا له - مع شرف الآباء - في نسب الفخر العريق أباً، ونشأ في مهاد الملك فسما به للعلم والعلم بالسيف والقلم، والياس والكرم، واعتزى إلى أبوة حنونا ببنوة رجائه، فتشبهه بعدل أيامنا، ومن شابهه أباه فما ظلم". (١)

ومن ذلك أيضاً قول آخر: "وإنهم اجتمعوا بالميدان على حديثي، وذكروا قديمي وحديثي، وتسابقوا في الغيبة أفراس رهان، وأعجب كلا منهم أن يقول: "هذه الشقراء في يدي وهذا الميدان" (٢) وأمثلة ذلك كثيرة في فنون النثر المختلفة في هذا العصر.

ومما تميز به النثر في العصر المملوكي الأول ظهور ثقافة الكاتب في أدبه، إذ كان كتاب الديوان في هذا العصر يتمتعون بثقافة علمية واسعة، انتقل أثرها إلى مكاتباتهم، مما صبغ نثرهم بصيغة علمية، فقد حفلت تلك المكاتبات على اختلاف فنونها بمصطلحات العلوم والفنون في ذلك العصر، إذ إن صنعة الكتابة قد ازدهرت في أحضان ديوان الإنشاء كما قدمت، وكان على الكاتب في هذا الديوان أن يلم بأنواع متعددة من العلوم التي ذكرها من ألف في هذا الميدان، فقد ذكر شهاب الدين محمود شيئاً منها في كتابه "حسن التوسل" (٣)، كما ذكر القلقشندي شيئاً من أنواع هذه الثقافات في مقامته التي وجه القول فيها لتقريب المقر البديري صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية يومئذ وسماها: "الكواكب الدرية في المناقب البديرية" وضمنها ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من أنواع الثقافة (٤)، وعلى هذه المقامة بنى القلقشندي كتابه 'صبح الأعشى'.

هذه الفنون المختلفة التي يجب على كاتب ديوان الإنشاء أن يلم بها، ظهر أثرها واضحاً في مكاتباتهم.

وأول هذه العلوم: العلوم الدينية، فقد ظهر أثر القرآن الكريم واضحاً في الاقتباس من آياته لفظاً ومعنى، فهذا ابن الوردي يستخدم أسماء سور القرآن الكريم تورية في وصف حريق دمشق، يقول: "فكم أحزاب زمر جاثية كغاشية ذلك الدخان، وكم صاحب دار إذا زلزلت" "عبس وتولى"، وقال: قد أتى الحريق على مال هبة لم يكن فـ"هل أتى على الإنسان". (٥)

(١) صبح الأعشى: ٢٧٢/١٢

(٢) المصدر نفسه: ٢٧٨/١٤

(٣) انظر: حسن التوسل: ١٠٣ المطبعة الوهبية

(٤) انظر: صبح الأعشى: ١٢٦/١٤ - ١٤٥

(٥) ديوان ابن الوردي: ١٢٠

وأما أثر السنة فيظهر أيضاً بالإضافة إلى الاقتباس من نصوصه الشريفة التي عرضنا لها أنفاً، يظهر باستخدام مصطلحات علوم الحديث المختلفة، ومن ذلك ما ورد في مكاتبة: "وقد أصبح بالسنة النبوية مضطجعاً، وعلى ما جمعت طرق أهل الحديث مطلعاً، وصح في الصحيح أن حديثه الحسن، وأن المرسل منه في الطلب متطوع عنه كل ذي لسن، وأن سنده هو المأخوذ عن العوالي، وسماعه هو المرقص منه طول الليالي." (١)

وهذه بعض أبواب علم الفقه ومصطلحاته تظهر واضحة في مكاتبة أخرى، منها: "وسجل لعترته المنيفة كتاب الطهارة، وأنبع من أصابعه الشريفة باب المياه، وعلى آله الذين فتح لهم باب الولاء لإحياء الموات، وأغلق عنهم باب الرد بالعيب لما زكا معدنهم، وطاب نباتهم، فهذه زكاة المعدن والنبات، وهي صحبة المعدودين من خيار المجلس، المقصودين للاستسقاء وصرف القبض عن المفلس، وعلى تابعيهم الذين عقلوا الوصايا وأدوا فرائض العبادات، وحسنت منهم السير، فنزه تعديلهم عن الجرح في الشهادات، صلاة تعقب الجنایات بالمسابقة إلى جنات وحرير، وتوجب القضاء بالعق وألغفو عن القصاص وحسن التدبير." (٢)

وليس حظ علوم اللغة بأقل من العلوم الدينية، فقد ظهرت واضحة جليلة في النثر أيضاً، واستخدمها الأدباء في التورية عن بعض أغراضهم، فهذا محيي الدين بن عبد الظاهر يضمن رسالة استشفاع بكثير من مصطلحات النحو والصرف، يقول: "أدام الله نعمة مولانا، ولازال علم علمه مرفوعاً أبداً، وبناء مجده منصوباً بخفض العدا، ولا برحت أقلامه لأفعال الشك جازمة، ولأعدائه متعديّة، ولآرائه لازمة، أما بعد: فإن فلانا حضر وادعى أنه رخم في غير النداء، وجزم والجزم لا يدخل في الأسماء، واستثنى من غير موجب، فخفض والخفض من أدوات الاستثناء، وذكر أن العامل الذي دخل عليه منعه من الصرف، ولزمه لزوم البناء، واجتمع معه في الشرط وأفرده بالجزاء، والمأثور من مكارم مولانا نصب محله على المدح لا على الإغراء، ورفع اسمه المعرى من العوامل على الابتداء، ففيه من التمييز والظرف ما يوجب العطف، ومن المعرفة والعدل ما يمنعه من الصرف، لازال مولانا باباً للعطف والصلة، ومأثر مكارمه متصلة لا منفصلة." (٣)

ويستخدم الكتاب مصطلحات علم البلاغة في نثرهم أيضاً، ومن ذلك قول بعضهم: "فللجمال بوجهه تقسيم، وللشعر بناظره تسهيم، وللماء طباق بنار خده، ولالنفات جیده جناس بتوشيح قده." (٤)

(١) صبح الأعشى: ٢٤٥/١١

(٢) ديوان ابن الوردي: ١٣٥

(٣) ثمرات الأوراق: ٢٣٥

(٤) ديوان شهاب الدين التلعفري: ٣

وفي استخدام مصطلحات علم العروض، يقول ابن الوردي في رسالة هجاء القاضي الرياحي: "فإن شئتم يا نظام الدولة أن يقوم وزن هذه البلاد، فكونوا في عروض عزله أسباب تدعو لكم الأوتاد:

مد يد الزحاف سريع الخلاف بسيط الخراف ضعيف طويل
على جهله بضروب العروض لكل قبيح فعول فعول

فاقصدا لبحر ظلمه المديد خبناً وبترأ، وأديرُوا عليه الدوائر بالفاصلة الكبرى." (١)

وتظهر أيضاً أثر الثقافة الفلكية في مكاتباتهم، فها هو ابن حبيب يعدد بعض أسماء النجوم والأجرام السماوية، ومن المعروف أنها مما يجب على الكاتب في ديوان الإنشاء معرفته، ومن ذلك قوله: "ونهر المجرة يجري في سندسها، ويسري ليسقي ذابل نرجسها، يا له من نهر صفا ماؤه، وعقد على الأفق لواءه، يتقلب القلب إليه، ويقف طرف الطرف عليه، ويقبل نحوه الدبران، وينصب على شطه الميزان، ويحوم حوله النسران، ويعوم فيه الحوت والسرطان." (٢)

وأما المعرفة التاريخية، فأهم ما يوصى الكتاب بعلمه، ومن ذلك ما ورد في مكاتبة القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في تتبع بعض غزوات السلطان الظاهر بيبرس، يقول: "ولم نزل كذلك حتى وصلنا كوكسوا، وهو النهر الأزرق، وهو الذي رد الملك الكامل منه سنة الدربندات لما قصد التوجه إلى الروم." (٣)، ومن الرسالة ذاتها قوله: "ورحل مولانا السلطان في بكرة السبت حادي عشر ذي القعدة من مكان المعركة، فنزل قريب القرية المعروفة بريان، وهذه القرية قريب الكهف والرقيم حقيقة، لا ما يقال: إنه قريب حسيبان من بلاد البلقاء." (٤)

وقد جمع ابن الوردي كثيراً من مصطلحات العلوم ضمن رسالة في هجاء القاضي الرياحي: ومن ذلك ما يقول فيه: "جاهل بجميع العلوم، لا يعرف في الفقه الطلاق من التطليق، ولا في النحو الإلغاء من التعليق، ولا في التفسير أسباب النزول، ولا في القرآن حجج" وكان مكرهم لتزول"، ولا في اللغة القدر من الكاس، ولا في الأصلين الجوهر الفرد، والجلي والقياس، ولا في المنطق الشكل المنتج من العقيم، ولا في الحديث الصحيح من السقيم، ولا في العروض تفاعيل الدوائر، ولا في القوافي المتدارك من المتواتر، ولا في التصريف المثال من الأجوف، ولا في الطب أي الأمراض أخوف..." (٥)

(١) ديوان ابن الوردي: ١٧٤ - ١٧٥

(٢) نسيم الصبا: ٣

(٣) صبح الأعشى: ١٦٢/١٤

(٤) المصدر نفسه: ١٧١/١٤

(٥) ديوان ابن الوردي: ١٦٤

هذا وكان ابن الوردي من أكثر من وظف معارفه المختلفة في كتاباته، ولننظر في هذا النص من مقامته الصوفية قال: "سافرت إلى القدس الشريف سفر متكرر بعد التعريف، فاجتزت في الطريق بوادر وقانا لفحة الرمضاء، وقال: حكمت على الوادي الذي تروع حصاه حالية العذارى بأنه دوني، فقلنا دائم الحكم والإمضاء، وإذا فيه عين كعين الخنساء تجري على صخر، ويقول ماؤها: أنا سيد مياه هذا الوادي ولا فخر، فرويت كبد صادم تلك العين، ولكن نغص علي منظرها الحسن تذكر ظمأ الحسين، هذا وماؤها يجري على رأسه خدمة للوارد، ويطوف بنفسه "سواء العاكف فيه والباد." (١)

إن الناظر في هذا النص يلاحظ تسخير ابن الوردي لأكثر من نوع من أنواع المعرفة في خدمة نشره وفنه، فهو أولاً يوظف معارفه اللغوية، حيث يستخدم مصطلحات النحو في إشارة إلى "النكرة والمعرفة"، ثم يوظف معرفته الأدبية، حيث ينثر أبياتاً للشاعرة الأندلسية حمدونة، في قولها:

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العميم
يروع حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم (٢)

كما يشير أيضاً إلى الخنساء وأخيها صخر. ويسخر معرفته الدينية ببعض مناسك الحج كالطواف، ثم الاقتباس من أي الذكر الحكيم، بالإضافة إلى تأثر واضح بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة"، وأخيراً يوظف معرفته التاريخية بإشارة إلى حادثة استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما..

وكما ظهرت مصطلحات العلوم في النثر، فقد ظهر أيضاً أسماء العلماء والمؤلفات في كثير من فروع العلم والمعرفة في ذلك الوقت، فقد ورد ضمن مكاتبة في مدح بعض العلماء: "إن تكلم في الفقه فكانما بلسان "الشافعي" تكلم، أو "الربيع" عنه يروي، و"المزني" منه يتعلم، أو خاض في أصول الفقه، فقال: "الغزالي هذا هو الإمام باتفاق، وقطع السيف "الأمدي" بأنه المقدم في هذا الفن على الإطلاق، أو جرى في التفسير قال "الواحدي" هذا هو العالم الأوحد، وأعطاه "ابن عطية" صفقة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد، واعترف له "صاحب الكشف" بالكشف عن الغوامض، وقال "الإمام فخر الدين" هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل... أو أخذ في القراءات والرسم أزرى "بابي عمرو" في الرواية، واعترف له "ابن معين" بالتبريز والتقدم في الدراية، وهتف الخطيب البغدادي بذكره على المنابر، وقال "ابن الصلاح": لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة، وفي تحصيلها تنفذ المحابر، أو أبدى في أصول الدين نظراً، تعلق منه "أبو الحسن الأشعري

(١) ديوان ابن الوردي: ١٩

(٢) المقرئ، نفح الطيب: ٢٨٨/٤ ت. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

بأوفى زمام، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول "عمرو بن عبيد" و"واصل بن عطاء" ليتنا لم نفتح باباً في الكلام... (١)

وهكذا يمضي في ذكر أنواع العلوم ومشاهير العلماء في كل علم، فيذكر مثلاً بالإضافة إلى ما تقدم، علوم: المنطق واللغة والنحو والصرف والبلاغة ورواية الشعر والعروض والقوافي والطب والهندسة والعلوم الطبيعية وعلم الهيئة والحساب. (٢)

كما ظهرت أسماء المؤلفات في العلوم المختلفة أيضاً في نثر هذا العصر، وبخاصة عند ابن الوردی. (٣)

ولا تغيب الثقافات الأجنبية في ظل هذا البروز الواضح للثقافات المختلفة، عن النثر في العصر المملوكي، حيث تظهر من خلال أسماء بعض العلماء في ميادين العلم المختلفة، كما تظهر من خلال بعض المفردات الأعجمية التي يستخدمها الكاتب، من ذلك ما يظهر في قول ابن حبيب في بيان أنواع الأجرام السماوية ووصفها: "زهرة الزهرة" تضيء بين الخزامى، وبهرام يخلج البهرمان... (٤) فبهرام: لفظ فارسي يطلق على المريخ، والبهرمان: لفظ فارسي يطلق على نوع من الباقوت الأحمر. (٥)

هذا، ويمكن أن نجد شيئاً من الصبغة التعليمية في النثر الفني في هذا العصر، وبخاصة في فن المقامات، حيث يظهر لنا ذلك في مقامات ابن الوردی، كالمقامة الصوفية، حيث يعرف الصوفي، ويبين اشتقاق كلمة الصوفية والتصوف، ويحاول دحض بعض الشبهات عن الصوفية، بأسلوب تعليمي واضح. (٦)

وفي المقامة المنبجية، يقدم لنا ابن الوردی مقامة تعليمية نقدية، حيث يذكر الراوي مجموعة من الأبيات لعشرة من أصحابه، لكن مدرس المدرسة النورية في منبج يقدم نقداً لهذه الأبيات، ويعرض أبياتاً بديلة تفضل سابقتها في رأيه. (٧)

كما تبدو النزعة التعليمية واضحة في مقامة القلقشندي المسماة "الكواكب الدرية في المناقب البدرية"، حيث ضمنها جملة مما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد والمعارف، حيث جعل مبناهما

(١) صبح الأعشى: ٢٥٩/١٤

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٢٥٩/١٤ - ٢٦٠

(٣) انظر ديوان ابن الوردی: ٥٩

(٤) نسيم الصبا: ٤

(٥) انظر: اللسان: مادة: بهر

(٦) انظر: المقامة في ديوانه: ٣٥ - ٤٦

(٧) انظر: المقامة في ديوانه: ١٨ - ٢٩

على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلّق بها ومعيّشة يتمسك بسببها، وأن الكتابة هي الحرفة التي لا تليق بطالب العلم سواها، ولا يجوز له العدول عنها إلى ما عداها، مع الجنوح فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها. (١)

وقد خط القلقشندي فيها للمبتدئين في كتابة الإنشاء أصول هذه الصنعة، وما تتطلبه من أنواع الثقافات والمعارف.

كما تظهر النزعة التعليمية أيضاً في رسالة ابن الوردي المسمّاة "منطق الطير"، حيث يقدم فيها المواعظ على السنة الطيور، فمن ذلك ما ذكره على لسان الببغاء التي تخاطب الطاووس: 'أيها الطاووس الطريد المعكوس الشريد، شغلّك ظاهر الثياب عن باب العيوب، إن الله لا ينظر إلى الثياب، ولكن ينظر إلى القلوب، هلا شغلت بمداواة أمراضك عن بساتينك وغياضك، ولم لا أفنيت عن ملبوسك وعجبك، ليغفر الله ما تقدم من ذنبك، شاركت آدم في الخروج من الجنة والأسف عليها، فشاركه في التوبة والاستغفار والعودة إليها...' (٢)

واضح أن هذا الكلام ليس موجهاً لهذا الطائر، ولكنه موجه للإنسان عموماً.

ومثل هذه النزعة التعليمية الوعظية تظهر في تمثيلات 'خيال الظل' حيث تنتهي كل منها بغطّة يقدمها للإنسان بعد التوبة عن الذنوب والآثام التي كان يرتكبها، كما تبيننا في فصل سابق.

(١) صبح الأعشى: ١٢٦/١٤ وانظر المقامة: ١٢٧/١٤ - ١٤٥

(٢) مطالع البدور: ٦٧/١

الصورة الفنية في النثر المملوكي.

يتفق الباحثون على أن اللغة ليست مجرد رموز أو معانٍ، ولكنها تشتمل على كثير من النواحي الموسيقية والوجدانية والخيالية، وتتضمن كذلك ألواناً من الإحياء والرمز، فنحن نستطيع بواسطة اللغة أن نلمس ونرى ونشعر لا بحواسنا الظاهرة، بل بعقولنا ومواطن إدراكنا، (١) إذ إن فيها ألواناً شتى من التعبير تتمثل فيما تثيره في نفس كل منا من إحياءات ودلالات، فيقدر اختلاف هذه الإحياءات والدلالات من شخص إلى آخر تكون قيمتها وأثرها أبعد، وبمعنى آخر، فإن قيمة اللغة تكمن في قدرتها على إثارة الخيال لدى كل منا. هذا الخيال له أهمية في تحويل الأشياء المدركة إلى معاني، "فهو يخرج من الصامت صوراً تفيض بالحياة، ويحول المحسوس إلى معنى، والجماد إلى مدرك وجداني تهتز له النفس، فترى المحسوس المجسم وقد تحول إلى فكرة متموجة ننعج بجمالها الفني وقوتها المعنوية." (٢)

أما نوع هذا الخيال، فيكاد العلماء يجمعون على أنه: "ذلك الخيال الجزئي الذي يساق للإيضاح أو للتحلية، أو لبيان حالة المشبه، أو تقرير حالة في النفس، أو تحسينه أو تقييده أو إكسابه طرافة وجدة." (٣)

وهذا الخيال الجزئي عند معظم النقاد، يعتمد، إذن، اعتماداً كلياً على التشبيهات والاستعارات.

وقد كان النثر في العصر المملوكي الأول حافلاً بمثل هذه الأنواع، فلا تكاد تخلو منها مكاتبة أو خطبة أو مقامة، ولننظر في هذه الصورة: "وأما فلان فإنه شمر الذيل، وامتنطى هرباً أشهب الصباح وأحمر الشفق، وأصفر الأصيل وأدهم الليل." (٤)

فهذه الصورة تعبر عن هرب المقصود بالحديث، واستخدامه الخيل التي عبر عن اختلاف ألوانها بصورة تدل على ذلك.

وهذه صورة أخرى للمجانيق، يقول: "من مجانيق كالعقارب شائلة أذناها، دافعة في صدر الخطب إذا نابها، ترمي بشرر كالقصر، وتنزل من السماء بآيات النصر." (٥)

فاستخدم الكاتب التشبيه والاستعارة والكناية، وهي واضحة هنا.

(١) انظر: عبد الحميد حسن، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الانجلو مصرية، ١٩٦٤م، ص ٦٥

(٢) المصدر نفسه: ١٠٦

(٣) المصدر نفسه: ١٤٣

(٤) مطالع البدور: ١٣٠/١

(٥) صبح الأعشى: ٢٠٧/١٢

وقد استخدم الكتاب هذه الصور الجزئية المتمثلة بالاستعارات والتشبيهات والكنائيات في تكوين صور كلية تعطي تصوراً أشمل للفكرة، وتفسح المجال للخيال للانطلاق في أفق أرحب، يحول الجماد إلى كائن حي ينمو ويتحرك، كما تحول المعنوي إلى محسوس ماثل للعين، ولتنظر في هذه الصورة التي رسمها لبيان منعة هذا الحصن وقوته، وكيف جعل منه كائناً حياً يتيه بكبرياء وخيلاء على بقية القلاع والحصون، ثم يصف منعته وقوته، فلقد غدا غصة في حلق البلاد والعباد، كما يصف لنا حماة هذا الحصن، ويشبههم بصقور تنقض من أعشاشها لتفترس فريستها ثم تعود سالمة، كما وصفهم بالأسود التي تحمي غابها بشجاعة وإقدام... يقول: "فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه على الممالك والحصون، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون، وغدا جاذباً بضبع الشام، وأخذاً بمخائق بلاد الإسلام، وشللاً في يد البلاد، وشجى في صدر العباد، تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسرة، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة، وتربض بأرباضه أساد تحمي تلك الأجام، وتنفق من قسيه سهام تصمي مفوقات السهام، تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون، ويصطفي كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون، كم شككت منه حماة، تثني بنكرها قلة الإنصاف، وكم خافته معرة وما من معرة خاف، مازالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه، تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياحي، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي..." (١)

فهذا النص يحفل بمجموعة من الصور الجزئية من استعارات وتشبيهات وكنائيات، وهي مجموعها تكون الصورة الكلية لهذا الحصن التي تصور منعته وقوته، وكونه يشكل غصة في حلق الممالك والقلاع الإسلامية المجاورة له، لتضرع إلى الله بالتخلص من ظلمه وجوره.

هذا، وقد أنطق كتاب هذا العصر الجماد الصامت، والحيوان الأعجم، فإذا بها كائنات ناطقة، تترجم عن لسان حالها، فما هي مدينة دمشق تلوم أبناءها الذين غادروها، فهي الأم الرؤوم التي تحنو على أبنائها، وتعاتبهم لفراقها والبعد عنها، تقول: "من الوالدة إرم ذات العماد إلى سيد الأبناء والأولاد، الذي لم يخلق مثله ومثلي في العباد والبلاد، الذي طوحت به عني يد النوى والبعد، وزايلني بفرقة سواد العين وسويداء الفؤاد... فيا أيها الولد العزيز، الغالي الذكي.. رزقتك على كبر سني، وحملتك وهنا على وهن، وما شيت حتى شابت النوى من طول عمري، وأيقنت الدهور أن مقدارها ينقص عن قدرتي، وولدت القرون قرناً قرناً، وخبرت أبنائي ابناً ابناً، فاصطفاك قلبي بمحبته كاصطفاء "يعقوب" "يوسف" بين إخوته..." (٢)

(١) صبح الأعشى: ٣٨٠/٧

(٢) الأعلام الخطيرة - تاريخ مدينة دمشق سنة ٣٢٧ - ٣٢٨

وها هو كبير الفئران في دار ابن الدكناس التي كان يقطنها صفى الدين الحلبي، يقف في جمع من بني جنسه خطيباً، يحثهم على حسن الجوار، يقول: "الحمد لله مكون الأكوان، المعبود بكل أوان، خالق أصناف الحيوان على اختلاف الأشكال والألوان... اعلموا معاشر الفار أنكم من أكرم جيل، وأشرف قيل، خلقت من عفن التراب والطين، وتلك جبلة آدم أبي العالمين، وشاركتكم بنيه في سكنى الدار، فلزمهم لكم حق الجوار، ألا وإن ملك القناعة عقيم، والبغي مصرعه وخيم..." (١)

وها هي الحمامة تذب لتفاخر الباز، وتقول: "فبينما الباز سكران بما بان من البان، وإذا حمامة قد وقعت أمامه، وقالت تفتخر: وأنت عظم نخر، أنت من آلة اللعب والصيد، وأنا من آلة الجد والكيد، أنا مع الطوق والخضاب من جملة حملة الكتاب، ومع خوفي من شرك الشرك، وحذري من فخ الإفك، حملت الأمانة التي أبت الجبال عن حملها، وامتثلت مرسوم أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها..." (٢)

وقد مر بنا أن الأدباء في هذا العصر قد أنطقوا السيف والقلم، والسيف والرمح، والليل والنهار، والفصول الأربعة... في حوارات تكشف عن صور فنية رائعة... وها هو ابن نباتة قد أنطق العلوم المختلفة بتقريظ ابن الزمكاني يقول: "قال التفسير لبراعته: قد حكم بكتاب الله المنزل، وقال النقة لعلم فتاويه: أنت الرامح وكل أعزل، وقال الحديث لتلقيحه: هذا النظر الذي لا يعزل، وقال الإنشاء لكتابه: ليهنك أن قلم كل بليغ لديك بخط أو بغير خط مغزل..." (٣)

هذه الصور الخيالية التي رسمها الأدباء لا بد أن تكون منتزعة من مظاهر بصرية أو سمعية أو شكلية من الألوان والأحجام والأصوات، وغير ذلك مما يتصل بالحواس. (٤) وقد ظهرت مثل هذه المظاهر في الصور التي رسمها الكتاب في هذا العصر، ولننظر في ألوان

(١) ديوان صفى الدين الحلبي: ٤٦٤

(٢) مطالع البدور: ٢٦٣/٢

(٣) طبقات الشافعية: ١٩١/٩ - ١٩٢

(٤) انظر: الأصول الفنية للأدب: ١٤٣

هذه الصورة التي رسمها بعضهم للخيل، نجدها تحمل ألوان الليل المظلم الذي ينبلج من سواده شعاع مضيء يتمثل في غرته التي يشبهها بالصبح الذي يتنفس في دجى الليل، وحجوله المشبهة بالبرق الذي يشق ظلمة الغسق، وسنابكه التي يشعل قدحها ناراً، يقول: "ومن أدهم مدرك كالليل، منصب كالسيل، كريم الناصية، جواب قاصية، كأن غرته صبح تنفس في الدجى الحالك، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب يضيء المسالك، وكأن حجوله بروق تفرقت في جوانب الغسق فحسن منظراً لذلك، سنابكه يوري قدحها، وغرته ينير صبحها، وجوارحه مسودة جناحها، وصهوته كمن فيها العز، فلا يزال ظاهراً نجمها." (١)

ومما ظهرت فيه الصور البصرية، قوله: "وخاف الكفر كل شيء أشبه ظباه من توقد شمس نهاره، أو حكى أسننته من تألق نجوم ليله... وصانت الثغور صوارمه فلم يشم برقها إلا أسير أو كسير، أو من إذا رجع إليها بصره، انقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير، ونالت الأقاليم معدلتها، فلا ظلم يغشى ظلامه، ولا جور يخشى إمامه." (٢)

كما أبانت صورهم دلالات سمعية، كقول بعضهم: "والرعد يزجره ويسوقه بين يديه، فإذا قصر صاح به وزمجر عليه، تارة يترنم كالحمام، وطورا يزار كالضرغام:

وكان صوت الرعد خلف سحابه حاد إذا ونت النجائب صاحاً (٣)

فالرعد يزمر تارة كالأسد، وطوراً يترنم كالحمام، وأحياناً أخرى يشبه حادي الإبل الذي يغني لنجائبه، ويصيح بها ليحثها على السير.

وما هي صورة لحصن حصين: "إذ هو للمرابطين بها أوثق حرز حريز، وأصون حجاب لمبارزة ذوي التبريز، فتصبح به مستوراً غوارها، كاتمة لأسرارها أسوارها، تخاطب منازلها من مجانيقها بأبلغ لسان، وتشافه ملاحيتها من أنفة أنفها إلا أنه بأعلى مكان." (٤)

فهذه القلعة تكتم لأسوارها أسرارها، وتخاطب من ينزلها بلسان فصيح بليغ، ولكن من مجانيقها، ثم إنها تشافه من ينزلها، ويتحداها بأنفه وكبرياء.

ومن الصور الفنية ما هو مستمد من مظاهر حركية، من مثل قوله: "وليجعل له من المناصحين

(١) صبح الأعشى: ١٤/١٩٣

(٢) المصدر نفسه: ١٢/١٤٣

(٣) نسيم الصبا: ١١

(٤) صبح الأعشى: ١٢/١٥٢

طلانع ما فيهم إلا من هو في انتهاب الأخبار أبو الغارات، ومن إذا أجمه الخوف كان له في لمع البروق إشارات، وليتخذ من الكشافة من يسبق قبل أن يرتد إليه طرفه، ومن الخيالة من لا يرتد عن وقد الرماح طرفه، ومن القصاد من لا يطوي عنه خبراً، ومن الديادب من يعيره، وقل أن تعار العيون نظراً. (١)، فهذه الصورة تشير إلى سرعة إحضار الخبر، والموكلون بذلك هم من الطلائع والكشافة والخيالة والقصار والديادب الذين يتصفون بالسرعة بحيث يستطيعون إحضار الخبر بأقصى سرعة ممكنة.

وها هي صورة الخيل التي تسابق الريح، بالإضافة إلى سرعة حركة الجيش وإحاطته بالعدو، يقول: "ويسبق خياله سرايا خيله التي هي أسرى من هوج الرياح إلى هزم الجموع وتفريق الصفوف، وتنظم أسنة رماحه في الوغى قلوب العدى نظم السطور، وتنتثر صفاحه رؤوسهم نثر الحروف، وتحيط بنطاق الممالك المتطرفة صوارمه إحاطة الأسوار بالحصون، والخمائل بالغصون، والهالات بالأقمار والجوانح بالأسرار." (٢)

فالأفعال في هذا النص: يسبق، تفرق، تنظم، تنتثر، تحيط، كلها أفعال تدل على سرعة الحركة.

هذه الجوانب المختلفة للصورة، فما المصادر التي استمد منها كتاب هذا العصر صورهم؟؟ نستطيع القول: إن مصادر الصورة في هذا العصر متعددة، وعلى العموم فإن للصور الخيالية عند الأدباء مصدرين أساسيين هما: ثقافتهم وأثر المعارف التي نهلوا من معينها، ومن البيئة التي أحاطت بقائلها، (٣) فهل كانت هذه هي المصادر التي استقى منها كتاب هذا العصر صورهم؟

تعددت مصادر الصورة في العصر المملوكي الأول، وأستطيع حصرها في عدد من المصادر، تعود بجملتها إلى العنصرين السابقين:

أولها: القرآن الكريم، فقد جاء في "المقامة الزعفرانية" لشهاب الدين بن أبي حجلة حول الفيضان، يقول: "قلت: فما فعل النغير بجزيرة الطير، قال: لم يبق بها هاتف يبشر بالصياح، ولا ساع يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح* إلا اتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء**، أو

(١) صبح الأعشى: ١١١/١٢

(٢) المصدر نفسه: ١٤٨/١٢

(٣) انظر: الأصول الفنية للأدب: ١٤٥

* الآية ٣٨ من سورة الأنعام: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم."

** الآية ٣٥ من سورة الأنعام: "فإن استطعت أن تبتلي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء.."

أوى إلى جبل يعصمه من الماء*، فأذاق بها الحمام الحمام في المروج، وترك أرضها كسما ما لها من فروج***، وتلا على الحمام: "أينما تكونوا يدرككم الموت، ولو كنتم في فروج***". (١)

وثاني هذه المصادر التي استقى منها الكتاب صورهم هو الحديث النبوي الشريف، فمن ذلك ما ورد في وصف الخيل: "ومن عقد بناصيته كل الخير، وعقد له لواء الفخار على كل الخيل" (٢)، فهذه الصورة مأخوذة من قوله صلى الله عليه وسلم "الخيّل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة".

ومن مصادر الصورة أيضاً الشعر العربي، ومن ذلك ما ذكر في وصف مدينة دمشق: "ودمشق حرسها الله هي أم ذلك الإقليم، ومدده الذي يحنو على مشارعها "حنو المرضعات على الفطيم"، وتثبت بها فوائد لا تأمن معها الغواني حتى تلمس "جانب العقد النظيم". (٣)

تلك المصادر التي عبر عنها القول السابق بالثقافة والمعارف السابقة للأديب وأثرها في بناء الصورة الفنية، أما عن أثر البيئة، فاستطيع تقسيمه إلى ثلاثة جوانب:

الأول: ظواهر الطبيعة المحيطة بهم، بما فيها من ليل ونهار، وأمطار وبرق وأجرام سماوية... ومن ذلك قول بعضهم في وصف الخيل: "وما منها إلا أن تقصر الرياح أن تسلك فجه، والبروق أن تتبع نهجه، ومن تود الثريا أن تكون لجامه، والهلال أن يكون سرجه، ومن يتمطر كالغمام ويركض كالسيل... وكل أحمر سابق فهو البرقي على الحقيقة، وكل أصفر شفقي إلا أن الرياح عن مجاراته على نفسها شفيقة، وكيف لا يشبه بالشفق وهو من الأصائل...". (٤)

الثاني: مظاهر المدنية: حيث استمد الكاتب صورته أيضاً مما يحيط به من مظاهر الرقي والحضارة الحديثة التي كانوا يحيونها ويعيشونها، ومن ذلك ما جاء في وصف الخيل أيضاً: "تسحب من الحرير أذيالاً، وتصحب من الوشي سربالاً، وتميس بجللها وحلاها عجبا واختيالاً". (٥)، حيث صور الخيل وهي تميس بخيلاتها وكبرياتها كأنها نساء يختلن بزينتهن.

(١) صبح الأعشى: ٣١٥/١٤

(٢) المصدر نفسه: ١٠٧/٩

(٣) المصدر نفسه ٤٢/١٢

(٤) المصدر نفسه ١٠٧/٩

(٥) المصدر نفسه: ٤١٩/٧

* آية ٤٣ من سورة هود: "قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء".

** آية ٦ من سورة ق: "كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج"

*** آية ٧٨ سورة النساء.

ومثل ذلك ما جاء في صورة نهر: "وبين رياضها نهر شديد الخضرة، أرضه من ذهب، وحصباؤه درر، وأمواجه عكن، ودراراته سرر

عذب إذا ما غب فيه ناهل فكَأَنَّهُ من ريق خود ينهل(١)

الثالث: الواقع الحربي أو العسكري الذي كان يعيشه الناس في ذلك الوقت، حيث إن الحياة العسكرية التي كان يحياها الناس في العصر المملوكي الأول، نتيجة للحروب والمعارك التي خاضها المماليك، وطبيعة حياتهم العسكرية، كل ذلك قد ألقى بظلاله على الحياة العامة وعلى النثر الفني بعد ذلك، فمحيي الدين بن عبد الظاهر يشبه فيضان النيل وأمواجه بالجيوش الضخمة أو بالسفن العسكرية، ومن ذلك قوله: "فقد وطئ بلادها بعسكره العجاج، وزاحم ساقنتها بأفواج الأمواج، فعمل فيها بذراعه، ودار عليها بخناقه، وتخللها بنزاعه، وحملها على سوارى الضواري تحت قلوعه، وما هي إلا عمد قلاعه." (٢)

ومن ذلك ما جاء في بيان أثر الفيضان: "قلت: فمصر؟ قال: زحف عليها بعسكره الجرار، ونفط مائه الطيار، قلت: فالخليج الحاكمي؟ قال: خرج عسكر موجه بعد الكسر على حَمِيَّة، ومرق من قسي قناطره مروق السهم من الرَمِيَّة." (٣)

وبعد، فهل كان اعتماد كتاب العصر المملوكي على صور القدماء، أم كانت لهم إبداعاتهم وابتكاراتهم الخاصة؟؟

يقسم علماء البلاغة المعاني إلى ضربين: الأول: ما يبتدعه مؤلفه من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه، وهذا النوع "ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة، ويتنبه له عند الأمور الطارئة" (٤)، فالكاتب هنا ينظر في هذه الحادثة، ويبتكر لها ما يناسبها من المعاني والصور.

وأما النوع الثاني، فهو الذي يحتذي فيه الكاتب على مثال سابق ونهج مطروق، (٥) وهذا النوع ليس جميعه مبتذلاً، إنما يتسطيع الكاتب أن يجعل منه مبتكراً، وإذا تمكن من إضفاء مشاعره وانفعالاته الخاصة على هذه الصورة أو المعنى، وإلى هذا أشار ابن الأثير في إرشاده الكتاب إلى طريقة إيجاد المعنى المخترع، وذلك بأن ترد الآية من كتاب الله أو الحديث النبوي، حيث يقصد بها معنى معين، فيأخذها وينقلها إلى معنى آخر، فيصير مخترعاً له. (٦)

(١) نسيم الصبا: ٢٢

(٢) صبح الأعشى: ٣١٠/١٤

(٣) المصدر نفسه: ٣١٦/١٤

(٤) المثل السائر: ٧/٢

(٥) المصدر نفسه: ٥٨/٢ (٦) انظر: المصدر نفسه: ٥٦/٢

وهكذا يمكن نقل أي بيت من الشعر أو غيره إلى معنى آخر، دون أن يكون في ذلك نوع من السرقة.

ولننظر في هذه الصورة الجميلة التي رسمها شهاب الدين محمود لحصن المرقب. "وحوله من الجبال كل شامخ تنهيب عقاب الجو قطع عتابه، وثقف الرياح خدما دون التوقل في مضابه، وحوله من الأودية خنادق لا تلام منها الشهور إلا بأنصافها، ولا تعرف فيها الأهلة إلا بأوصافها، وهو مع ذلك قد تشرط بالنجوم، وتترطق بالغيوم، وسما فرعه إلى السماء، ورسا أصله في التخوم، تخال اسمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه، ويظن من سما إلى السها أنه ذبالة في سراجيه، فكأن ذي جيوش قد مات بغصة، رذي سطوات أعمال الحيل فلم يفز من نظره على البعد بفرصة، لا يعلوه من مسمى الطير سوى نسر الفلك ومرزومه، ولا يرمى متبرجات أبراجه غير عين شمسها والاسفل التي تدارف من أنجمه." (١)

فهذه الصور، وإن كان الكاتب قد سبق إلى بعضها، فإنه قد استخدمها استخداماً جديداً فيه أصالة وقدرة واضحة على سبك المعاني والصور الفنية.

ومن ذلك أيضاً هذه الصورة الفنية في وصف قلعة ذات أودية ومحاجر من إنشاء علاء الدين بن غانم، يقول: "لا تراها العيون لبعد مرماتها إلا شراً، ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلا نزراً، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالمة بين النجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر، إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، ولها واد لا يقي لفحة الرمضاء، ولا حر الهواجر، وقد توعدت مسالكه فلا يداس فيه إلا على المحاجر، وتفاوت ما بين مرآه العلي وقراره العميق، ويقتحم راكبه الهرل في هبوطه فأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق." (٢)

انظر كيف نقل الكاتب هذه الآية القرآنية، ونقلها من معنى إلى معنى، حيث أضافت بعداً جديداً، ومعنى طريفاً في بيان عمق هذا الوادي ورسورة مسالكه.

وفي "البلد"، فإننا نجد صوراً لم يجد أصحابها نقلها إلى معانٍ أخرى، بل جاءت في معانٍ مشابهة، فلم تخرج من دائرة التقليد إلى دائرة الابتكار والتجديد، ومن ذلك قول بعضهم: "والمعاقل لا تسمح بعقائلها إلا لمن هو على خطبتها مواظب..." (٣)، فقد دأب الشعراء والكتاب على وصف المدينة أو القلعة المحررة بالفتاة التي رفضت من تقدموا لخطبتها، ولكنها قبلت بهذا البطل خطيباً لها.

(١) صبح الأعشى: ٣٦٦/٨

(٢) الوافي: ٣٧/٢٢ - ٣٨

(٣) صبح الأعشى: ١١٠/١٢

ومن ذلك قول الآخر: "وكان فلان هو أصلب من في كناثنا الشريفة عوداً، وأنجز وعوداً، وأصدق رعوداً، وأيمن اذا طلع نجمه في أفق سعوداً، فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه نيابة الرحبة المحروسة... (١)

فالكاتب هنا يشير إلى قول الحجاج: "وقد نثر أمير المؤمنين كناثته، فوجدني أصليها عوداً... حيث استخدم هذه الصورة في معنى مشابه، فبقيت في إطار الصورة التقليدية إن لم تكن المبتذلة. وعلى العموم، فإن أدب هذا العصر ليس بدعاً بين العصور، فلم تكن صورته جميعها مبتكرة، كما لم تكن جميعها مبتذلة.

كان حديثنا في الفصل السابق عن تصوير النثر لمختلف مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية في العصر المملوكي الأول، وقد تكشف لنا قدرة النثر على تمثيل مختلف تلك الظواهر، وأضيف هنا بعضاً من القضايا التي تكشف عن خصوصية النثر في هذا العصر وتصويره لبيئتي مصر والشام في ذلك العصر.

وأول ما يلفت النظر هنا أن النثر قد كشف عن كثير من أسماء المدن والأقاليم المصرية والشامية، وهو كثير في فنون الكتابة في هذا العصر، أذكر منه ما جاء في بعض المكاتبات: "وبه كراسي منها السيارة تمتاز، وعلى سواها من البلاد تمتاز، وبه مراكز ولاية ينفرد كل منها عن الآخر وينحاز، وهي: إطفيح والبهنسي والأشمونين ومنفلوط وسيوط وإحميم وقوص، وهذه الأقاليم مجتمعة متفرقة، وحدود بعضها ببعض متعلقة." (١)

وتذكر المراسيم وكتب التواقيع الموجهة إلى الولاة عادة الأقاليم التي تتبع إلى هذا النائب أو ذاك، مما يفيد في دراسة التقسيمات الإدارية في ذلك العصر، ومنه قول بعضهم: "خارج الأمر الشريف أن يكون والي الولاة بالوجه البحري جميعه عائد إلى أعماله وراجع إلى متوليه، على عادة من تقدم وقاعدته فيما يليه، وهي ما يذكر من الأعمال: الغربية، الشرقية، البحرية، المنوفية، إبيار، أشمون، قليوب..." (٢)

وقد حفلت مكاتبات الهدن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام بذكر أسماء البلاد والأقاليم بأدق التفاصيل، وأذكر ما جاء في بعضها على سبيل المثال: "وهي التي في مملكتيهما وتحت حكمهما وطاعتهما، وما تحويه أيديهما يومئذ من جميع الأقاليم والممالك والقلاع والحصون الإسلامية... وثغر غزة المحروس وما معها من الموانئ والبلاد، والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها، والصلت وأعمالها، وبصرى وأعمالها، ومملكة بلاد الخليل صلى الله عليه وسلم، ومملكة القدس الشريف وأعمالها، وبيت لحم وأعماله وبلاده، وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت جبريل ومملكة نابلس وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانئها وسواحلها، ومملكة يافا والرملة وميناها، وقيسارية وميناها وسواحلها وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها..." (٣)

ولم يكتف الكتاب بذكر أسماء تلك الأماكن والأقاليم والبلدان، بل أضافوا إليها ما يشير إلى خصوصياتها، بحيث تعرف البلد أو الإقليم دون ذكره، فمن ذلك ما ذكرت فيه حماة التي تعرف

(١) صبح الأعشى: ٤٢١/١١

(٢) المصدر نفسه: ٤٣٣/١١

(٣) المصدر نفسه: ٥٨/١٤ - ٥٩، وانظر بقية المناطق والأقاليم حتى ص ٦٦.

بدواليبيها ونواعيرها. ومنه قوله: "وحمى حماة، وزان موكبه بأحسن حماه، وحسن كنانن سهامه التي لا يصلح لها غير بلده حماه، صدرت هذه المكاتب إلى الجناب العالي تهدي إليه سلاماً تحمله إليه الركائب السائرة، وثناء تشرق منه الكواكب أضعاف ما تريه أفلاك الدواليب الدائرة." (١) ومما ورد في ذلك ما يشير إلى حلب الشهباء قوله: "ولأزال يعد ليوم تشيب منه الولدان، ويعد دونه كل محارب بينه وبين الشهباء الميدان، ويعم حلب من حلى أيامه ما لا يفقد معه إلا اسم ابن حمدان..." (٢)

ويقترن بذكر أسماء البلدان والأماكن تقديم وصف حي لها يعطي القارئ أو السامع صورة واضحة عن ذلك المكان والإقليم، ومن ذلك ما ورد في مكاتبه في وصف قرية اسمها: 'ريان'، يقول: "وأما القرية المذكورة بريان، فإن بيوتها بنيت حول سن جبل قائم كالهرم إلا أنه ملموم، وعمرت البيوت في سفحه حوله بيتاً فوق بيت فبدت كأنها مجرة النجوم، وما من بيت منها إلا وبه مقاعد ذوات درابزينات منجورة، ورواشن قد بدت في أكمل صورة، يختتمها من أعلاها أحسن بنیان، ويعلوها من رأسها منزل مسنم الرأس كما يعلو الصعدة السنان، وتطوف بهذه القرية جبال كأنها أسوار بلا سوار، وكأنها في وسطها إناء فيه جذوة نار، ويتفرع منها أنهار هي في تلك الأودية كأنها بهبوطها كثيب قد انهار، ذوات قناطر لا تسع غير راكب، ومضايق لا يلقى عبرها لناكب." (٣)

ومما يعبر عن خصوصيات الأقاليم والمناطق في النثر المملوكي وصف الأحوال الجوية التي تميز إقليماً بعينه، فمن المعروف أن جبال لبنان تتصف بوعورة حادة، وبرد شديد في فصل الشتاء، بل تكاد الثلوج لا تفارقها طوال هذا الفصل، وقد أظهر النثر هذه الميزة ضمن بعض المكاتبات، يقول: "فاهتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغت الثلوج، ومعارج لا مرافق بها غير الرياح الهوج، وانحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل انحطاط الأجادل، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال، ولم يحفل أحد منهم بسرب لاصق، ولا جبل شاهق، فقال: "أهذا منخفض أو عال..." (٤)

وعلى العموم فقد اتصفت بلاد الشام بشتاء بارد، تكثر أمطاره وتلوجه، حيث وصف كتاب هذه البلاد شتاءها وصفاً دقيقاً، جاء ذلك بقلم أحد أبنائه صلاح الدين الصفدي، يقول: "قال متى

(١) صبح الأعشى: ١٦٤/٧

(٢) المصدر نفسه: ١٦١/٧

(٣) المصدر نفسه: ١٧١/١٤

(٤) المصدر نفسه: ٣٩٥/٧

قطن هذه الثلوج يطرح على جباب الجبال؟، وإلى متى تفاض دلاص الأنهار، وترشقها قوس قرح بالنبال؟ وإلى متى نحن نحن على النار حنو المرضعات على الفطيم؟ وإلى متى تبكي المزاريب بكاء الأولياء بغير حزن إذا استولوا على مال اليتيم؟... كم من جليد يذوب له قلب الجليد ويرى زجاجه الشفافة أصلب من الحديد، ووحل لا تمشي هريرة فيه الوحي، وبرد لا تنتطق فيه نؤوم الضحى... (١)

وأما في الديار المصرية، فلعل فيضان النيل أهم ما يميزها عن غيرها من البلدان، يقول القلقشندي بشأن المكاتبات بوفاء النيل: "هذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك، ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاية الأعمال اهتماماً بشأن النيل، وإظهاراً للسرور بوفائه الذي يترتب عليه الخصب المؤدي إلى العمارة وقوام المملكة وانتظام أمر الرعية..." (٢)، وقد ظهر أثر ذلك في النثر في هذا العصر، ومن ذلك ما ورد في هذه المكاتبة: "صدرت هذه المكاتبة إلى الجنب العالي تهدي إليه أتم سلام وأعم ثناء تام، وتوضح لعلمه الكريم أن الله تعالى وله الحمد، قد جرى في أمر النيل المبارك على عوائد ألطافه، ومنح عباده وبلاده من مديد نعمه مزيد إسعافه، وأورد الآمال من جوده منهلاً عذباً، وملأها به إقبالاً وخصباً، وأحيا به من موات الأرض فاهتزت وربت، وأنبتت كل بهيج وأنجبت، وأينعت الرياض فجرت فيها الروح ودبت، وامتلات الحياض ففاضت بالمياه وانصبت..." (٣)

ولعل المهن الشعبية التي كانت عامة الناس تتعامل بها في ذلك الوقت من أهم ما يميز خصوصيات البيئة أو الإقليم، وقد أورد النثر بعضاً من هذه المهن، ومنه قول ابن الوردي: "ويمد لهم خواناً يجمع فاسقاً وخواناً، جمع ثمنه من الششم والأنزروت، والقرعة والقمار وضرب النخوت، والزبل والكنس والحجامة، والحوك والنجامة، ومن الزفورية والطرقية وسائر الحرف اليدوية..." (٤)

وأما اللغة، فإنها من أكثر الأمور دلالة على خصوصية الإقليم أو البيئة، وقد ورد أثر اللغة المحلية أو المحكية في النثر المملوكي، ومن ذلك ما ورد في مقامة لابن الوردي: "قلت: فلم يجلسون الوارد على باب الرباط، ولا يتلقونه بالرحب والانبساط، قال: لأنه بطاري السفر، وقد تهجن طبعه ونفر..." (٥) فلفظة "طاري" هنا تبدو من اللغة المتداولة.

(١) الوافي: ٢٥٩/٨

(٢) صبح الأعشى: ٣٣٢/٨

(٣) المصدر نفسه: ٣٣٥/٨

(٤) ديوان ابن الوردي: ٦٩

(٥) المصدر نفسه: ٢٥

ومن ذلك أيضا ما ورد في مكاتبة: "وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء." (١)، فالعالمات من النساء هن اللواتي يدرن بيوت اللهو والمجون... ومنها أيضا قوله: "الأمكن التي يجتمع فيها الشباب وأولو الدعارة، ومن يتعاني العبث والزنطرة" (٢)، في المعجم: تزنتر بمعنى تبختر، ويبدو أن العامة يقولون: تزنتر.

ومن ذلك قوله أيضا: "وما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء، وما قعاده عن زرقه هذا النيل..." (٣)، واضح هنا أن مصدر قعد: قعود وليس "قعاد" وإنما هكذا تلفظها العامية المصرية.

ومن ذلك: "وليدخل الديوان والمباشرون في التثمين لنلا يسلك أمر التثمين على الرجالة والضعفاء مع قلة معلومهم، ويوفر من ذلك أرباب الدواوين مع كثرة معلومهم." (٤)، حيث يتضح هنا جمع "رجل" على "رجالة"، وهي دارجة على السنة العامة، كما يظهر استخدام لفظة 'معلوم' التي تعني: قيمة الراتب الشهري، وهذا لا يوجد له معنى في المعجم مما يدل على استخدام العامة لها فحسب.

(١) صبح الأعشى: ٤٧٠/١٢

(٢) المصدر نفسه: ١٠٠/١٣ وانظر: الوسيط: (زنتر)

(٣) المصدر نفسه: ٣٠٦/١٤

(٤) المصدر نفسه: ١٠٩/١٣

فنون نثرية غير مسجوعة

وكما كانت هناك عناية فائقة بالأساليب النثرية المسجوعة، حيث يمثل ابن الأثير هذه العناية بقوله: "ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعاً لذ سامعه فحفظه، وإذا لم يكن مسجوعاً لم يأنس به أنسه في حالة السجع" (١) فقد كانت هناك مكاتبات وفنون نثرية غير مسجوعة، وقد تمثلت في عدد من الفنون استطعت حصرها فيما يلي:

المكاتبات الديوانية: تنوعت المكاتبات الديوانية التي خلت من السجع وجاء أسلوبها مرسلاً، منها: مكاتبات عن الملوك إلى ملوك آخرين، ومنها مكاتبات داخلية، بالإضافة إلى مكاتبات أخرى غير صادرة عن الملوك.

فمن المكاتبات الصادرة عن الملوك مثلاً: نسخ المهادنات، فقد نقل القلقشندي خمس نسخ لمهادنات كتبت في هذا العصر، وكلها بأسلوب غير مسجوع، وقد ذكر القلقشندي في تعليقه على هذه النصوص ما يلي: "وليس منها ما هو حسن الترتيب، رائق الألفاظ، بهيج المعاني، بليغ المقاصد غير النسخة الأخيرة المعقودة بين الملك الأشرف وبين الملك دون حاكم، أما سائر النسخ المتقدمة فإنها مبتذلة الألفاظ، غير رانقة الترتيب، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام، والعجب من صدور ذلك في زمن الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، وهما من هما من عظماء الملوك، وكتابة الإنشاء يومئذ بيد الذين هم بيت الفصاحة ورؤوس أرباب البلاغة." (٢)

ويحاول القلقشندي تحليل ذلك بقوله: "لأن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام، فيقع الاتفاق والتراضي بين الجهتين على فصل فصل، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتي المسلمين والفرنج بألفاظ مبتذلة غير رانقة، طلباً للسرعة، إلى أن ينتهي بهم الحال في الاتفاق والتراضي إلى آخر فصول الهدنة، فيكتبها كاتب الملك المسلم على صورة ما جرى في المسودة، ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج، إذ لو عدل فيها كاتب السلطان إلى الترتيب وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب لاختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاً، فينكرونه حينئذ، ويرونه أنه غير ما وقع عليه الاتفاق، لقصورهم في اللغة العربية، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة." (٣)

(١) المثل السائر: ٦٦/٢

(٢) صبح الأعشى: ٨٢/١٤ - ٨٣

(٣) المصدر نفسه: ٨٣/١٤

ولعل هذا تعليل واضح لعدم التأنق في هذا النوع من المكاتبات، جاءنا من أحد كتاب العصر نفسه، ولكن ذلك ليس قاعدة في كل المكاتبات والمهادنات التي جرت بين المسلمين وغيرهم، إذ أورد القلقشندي نسخاً لمهادنات جرت بين ملوك المسلمين في الأندلس، وملوك الفرنجة في فترة متقاربة مع هذا العصر، جاءت بأسلوب مسجوع. (١)

ومن نسخ المهادنات غير المسجوعة التي ذكرها القلقشندي، تلك المهادنة التي كتبت بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون وبين دون حاكم الريد أرغون صاحب برشلونة من بلاد الأندلس على يد رسله سنة اثنتين وتسعين وستمائة، ومنها: "وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعاهديه من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده كتاب الملك دون حاكم وختمه إلى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف يفسح له في الزيارة مسموحاً بالحق، ليقتضي زيارته، ويعود إلى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله، رجلاً كان أو امرأة، بحيث إن الملك دون حاكم لا يكتب لأحد من أعدائه، ولا من أعداء الملك الأشرف في أمر الزيارة بشيء". (٢)

ومن المكاتبات الديوانية التي تخلو من السجع أيضاً: نسخ الأيمان، سواء ما كان منها للموك أو للأفراد من مختلف الطوائف، فمما حلف به الملوك مثلاً، نسخة يمين حلف عليها ملك النوبة للسلطان المنصور قلاوون عند استقراره نائباً عنه في بلاد النوبة: "إنني أخلصت نيتي وطويت من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك فلان، وإنني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته، وإنني مادمت نائبه لا أقطع المقرر علي في كل سنة تمضي، وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة... ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو شيء من هذا المذكور أعلاه كله، كنت بريئاً من الله تعالى ومن المسيح، ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلي إلى غير الشرق، وأكسر الصليب، وأعتقد ما يعتقده اليهود..." (٣)

ومما كانت تحلف به الفرق المختلفة ما يحلف به الخوارج مثلاً، ومنه: "إنني والله والله والله العظيم الرب الواحد الأحد، الفرد الصمد، وما أعتقد من صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ونصه على إمامة ابن عمه ووارث علمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم غدیر خم، وقوله: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأدر الحق على لسانه كيف دار، وإلا كنت مع أول قائم يوم السقيفة، وآخر متأخر يوم الدار، ولم أقل بجواز التقية خوفاً على النفس..." (٤)

(١) انظر في ذلك: صبح الأعشى: ٢٨/١٤ - ٣٢

(٢) المصدر نفسه: ٨١/١٤

(٣) المصدر نفسه: ٢٩٣/١٣

(٤) المصدر نفسه: ٢٣٧/١٣

واضح إذن أن نصوص الأيمان في هذا العصر قد خلا معظمها من السجع، وأقول في تعليل ذلك ما قاله القلقشندي في تعليل خلو المهادنات من ذلك، وهذا لأن نسخ الأيمان يتم الاتفاق عليها بين طرفين من الكتاب أو المفاوضين، وكثيراً ما يكون الطرف الثاني لا يمتلك اللغة سليقة، مما يضطر كاتب المسلمين الى موافقته على ما يريد، ولعل السبب الأهم أن التركيز في هذه المكاتبات على المعنى أكثر من التركيز على جانب اللفظ والتأنق فيه، ومن هنا فقد خلت مثل هذه المكاتبات من فنون السجع والبديع، إذ إن كثيراً من تلك المكاتبات الداخلية التي كان يهم السلطان فيها جانب المعنى، وتنفيذ الأوامر كانت تخلو من السجع، ومنها بعض المراسيم الصادرة عن السلطان، حيث نجد خطبة المرسوم ومقدمته مسجوعة، يتأنق الكاتب بصياغتها، وعندما يأتي الكاتب إلى نص المرسوم نجد كتابته مرسلة، تخلو من السجع والتأنق اللفظي، ويركز فيها على المعنى، ومن ذلك مرسوم صادر عن السلطان الملك الصالح ابن الملك الناصر سنة خمس وخمسين وسبع مائة، موجه إلى أهل الذمة في مختلف البلاد، ليقرأ على المنابر، لإلزامهم بالشروط العمرية، جاء في نص خطبته: "الحمد لله الذي بصر سلطاننا الصالح باعتماد مصالح الدين والدنيا، ويسر لرأينا الراجح توفير التوفيق إثباتاً ونفياً، وتحرير التحقيق أمراً ونهياً، وقهر بأحكام الإسلام من رام نكث العهود ونقض الزمام..." (١)

ومما جاء في نص المرسوم قوله: "فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي... أن يعتمد جميع طوائف النصارى واليهود والسامرة بالديار المصرية، وجميع بلاد الإسلام المحروسة، وأعمالها من سائر الأقطار والآفاق، وما أخذ على سالفهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أكيد العهد ووثيق الميثاق، وهو أن لا يحدثوا في البلاد الإسلامية وأعمالها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا يجددوا فيها ما خرب منها، ولا يمنعوا كنائسهم التي عاهدوا عليها وثبت عهدهم لديها، أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤووا جاسوساً ولا من فيه ريبة لأهل الإسلام، ولا يكتموا غشاً للمسلمين..." (٢)

ويبدو أن أكثر المراسيم التي كانت تصدر عن السلطان إلى النواب وأرباب الوظائف في الممالك المختلفة، أو إلى عامة الناس، كانت تخلو من أسلوب السجع، ومن ذلك قوله من مكاتبة: "وتبدي لعلمه الكريم أنه اتصل بالمسامع الشريفة أن غالب البلاد بالصفقة الفلانية محمية متجاهية على الكشاف والرعايا، ويؤوون المفسدين، وأن يد الكشاف لا تصل الى هذه البلاد، ولا إلى النصفة ممن بها من المفسدين، وحصل بذلك الضرر للبلاد والعباد، واقتضى الرأي الشريف الكشف عن هذه البلاد وسائر الأعمال، والمناداة في البلاد بإبطال الحماية والرعاية... ومرسومنا

(١) صبح الأعشى: ٣٧٩/١٣

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٢/١٣ - ٣٨٣، وانظر بقية المرسوم حتى ص ٣٨٧

للمقر الكريم أن يتقدم أمره الكريم بالمناداة في سائر البلاد بإبطال الحماية والرعاية والمساواة بين الخاص والعام وتطهير الأرض من المفسدين، وأن لا يحمى أحد ببلد من البلاد، ومن تظاهر بحماية وإيواء مفسد ببلد من البلاد حل ما له وروحه..." (١)

كما تخلو مكاتبات الجواب عما يرد من النواب أيضاً من السجع، وإن كانت المكاتبة مشتملة على عدة فصول أجيب على فصولها فصلاً فصلاً، بأسلوب يخلو من السجع أيضاً. (٢)

ومن أنواع المكاتبات التي تخلو من السجع أيضاً ما يعرف "بالتذاكر"، وقد تحدثت عنها في مكان سابق، ومما جاء في بعضها: "فصل: ويكثرون من الاحطاب ومن الفحم والملح بالذخائر، وكذلك من كل ما تدعو الحاجة إليه، ويجتهدون في تحصيل الأموال وتوفيرها بالخزانة المعمورة، بحيث لا يكون لهما شغل يشغلهم عن ذلك، بل يصرفان الهمة في غالب أوقاتها إلى الفكرة في مال يحصلونه، أو صنف يدخرونه، ولا يهتملان ذلك." (٣)

يلاحظ على أسلوب هذه الرسالة عدة أمور: أولاً: خلوها من السجع، ومن جوانب التأنيق اللفظي، ولعل هذا له ما يبرره، إذ إن الاهتمام منصرف هنا إلى المعنى وتوصيله إلى المعنى مباشرة.

الأمر الثاني: ما لاحظته القلقشندي من إهمال جانب الفصاحة والبلاغة جملة، بل إنها لم تراعى قوانين النحو "إذ يتكلم بصيغة التنبيه على سياق ما عقدت له التذكرة لاشتمالها على اثنين، فإذا هو قد عدل إلى لفظ الجمع، ثم يعود إلى لفظ التنبيه هذا." (٤). وهذا يظهر واضحاً في النص السابق، ولعل مثل هذا ليس له ما يبرره سوى قلة التدقيق.

يتبين لنا مما سبق تركيز المكاتبات السابقة على المعنى أكثر من تركيزها على التزيين اللفظي، ذلك أن هدف الكاتب فيها أن يصل فكرته إلى من يهمهم الأمر، ولذا جاء التركيز على المعنى، وأما ما لا يمكن تبريره أو فهمه أن تصدر نسخة مكاتبة عن السلطان بالبشارة بجلوسه وتولييه السلطنة بأسلوب مرسل يخلو من السجع، ومن ذلك رسالة البشارة بجلوس السلطان الصالح بن الناصر على التخت سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، منها: "صدرت هذه المكاتبة إلى

(١) صبح الأعشى: ٢٢٥/٧ - ٢٢٦

(٢) انظر مكاتبات من ذلك في: صبح الأعشى: ٢٢٧/٧ - ٢٣٤

(٣) المصدر نفسه: ١٠٩/١٣

(٤) المصدر نفسه: ١١٠/١٣

فلان مقدما بالظفر، وذكرها قد ملأ الأقطار فجمع عليه كل قلب كان قد نفر، تهدي إليه سلاماً عن وجه الشكر سفر، وثناء يحصل منه على النصيب الأوفر، وتوضح لعلمه أن الجنابات العالية الأمراء الأكابر، أمراء الدولة الشريفة، ضاعف الله نعمتهم، كانوا قد عظموا أخاننا الناصر، وحكموه، ومشوا إلى خدمته على أحسن سنن، وما أبقوا في خدمته ممكناً من التعظيم والأجلال والتحكيم، وامتنال الأمر في كل جليل وحقير، فلم يرع لهم ذلك، ولا التفت إلى ما لهم عليه من حقوق الخدمة..." (١)

ومن ذلك أيضاً مكاتبة بشارة بانتصار المسلمين في معركة "شقحب"، وهي من إنشاء علاء الدين بن عبد الظاهر، منها: "بسم الله الرحمن الرحيم: نصر من الله وفتح قريب"، خصه الله من البشائر بأحسنها وأجملها، ومن التهاني بأتمها وأكملها، ومن المسرات بأوفرها وأجزلها. نعلمه أن التتار المخذولين كانوا قد امتدوا إلى البلاد المحروسة، ووصلوا إلى حمص، وقعدوا جهة دمشق، وكانت العساكر المنصورة بحلب وحمص قد انضموا إلى دمشق، وعند وصولنا إلى مرج شقحب ساق التتار المخذولون، ووصلوا إلى المنزل التي نحن بها، وكانوا في العدد الذي لا يحصى، وذكر عدتهم عن مائة ألف أو يزيدون، وللوقت قابلناهم بالعزائم الصادقة، والنيات الخالصة، وركبنا بالجيش المؤيدة، وصدمناهم بالعساكر المنصورة الصدمة العظمى، وما زال الحرب إلى أن نصر الله عليهم، وقتل منهم ما لا يحصى عددهم إلا الله..." (٢)

ويمكن تحليل هذا الأسلوب في هذه المكاتبة أنها صدرت من قلب المعركة، إذ لا وقت لدى كاتبها للتأنق والزخرف اللفظي، فهو في عجلة من أمره، يريد أن يذف البشرى بهذا النصر، بأية صورة من صور التعبير، وإن خلت المكاتبة عن الأسلوب المعهود.

ومن أنواع المكاتبات التي خلا بعضها من السجع: الرسائل الامتحانية التي كان يقصد فيها الإجابة عن مسألة من أي فرع من فروع العلم المختلفة، في التفسير والفقه والحديث واللغة وغيرها... ومن ذلك رسالة موجهة إلى ابن تيمية، منها "وسألته عن تفسير قوله تعالى: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها"، إلى قوله تعالى: "عما يشركون"، فأجاب بما قاله المفسرون في ذلك، وهو آدم وحواء، وأن حواء لما أنزلت بالحمل أتاها إبليس في صورة رجل، وقال: أخاف من هذا الذي في بطنك أن يخرج من دبرك، أو يشق بطنك، وما يدريك لعله يكون بهيمة أو كلباً، فلم تنزل في هم حتى أتاها ثانياً، وقال: سألت الله تعالى أن يجعله بشراً سوياً،

وإن كان كذلك سمي عبدالحارث، وكان اسم إبليس في الملائكة: الحارث، فذلك قوله تعالى: "فلما أتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما أتاهما". (١)

ومثل هذه الرسائل يمكن تحليل ورودها مرسله، وذلك لأنها رسائل تتحدث عن مسائل علمية، يقصد بها عرض فكرة، وتوضيح مسألة علمية، مما يجعل الكاتب يبسط القول فيها بسطاً، دون أن يترك لأسلوب التأنيق اللفظي أن يحد من قدرته على التعبير وبيان جوانب المسألة، ولعل هذا هو السر في أن معظم الكتب المؤلفة في هذا العصر خلت من أسلوب السجع.

وكثيراً ما تخلو رسائل الوعظ من أسلوب السجع، وإلى ذلك أشار القلقشندي بقوله: "واعلم أن الكتب التي تكتب عن القضاة، ألفاظها مرسله، لا جنوح فيها إلى فن البلاغة والسجع إلا في القليل النادر". (٢)، ومع ذلك فإن القلقشندي يورد نسخة كتاب عن قاضي القضاة فخر الدين الشافعي إلى الحكام بالمملكة، وهي تجري على أسلوب السجع. (٣)

ويمكن تحليل هذا النوع من الرسائل بأن هذه الرسائل موجهة على سبيل المثال إلى ولي الأمر، أو إلى أبناء الأمة، القصد منها عرض قضية أو مشكلة، وتقديم رأي الدين فيها، فالأولى العرض والتفصيل فيها، وعدم التقيد بقيود أسلوبية لفظية قد تنتقل المعنى، ومنه رسالة كتبها الشيخ النووي إلى السلطان الظاهر بيبرس لما احتيط على أملاك دمشق، منها: "بسم الله الرحمن الرحيم، قال تعالى: "وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه"، وقال تعالى: "وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"، وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان، أعز الله أنصاره، ونصيحة عامة للمسلمين، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الدين النصيحة، لله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم، ومن نصيحة السلطان، وفقه الله تعالى لطاعته، وأولاه كرامته، أن ننهي إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام..." (٤)

ومن ذلك أيضاً ما أورده تاج الدين السبكي في موعظة العلماء، بعد نهيههم عن التردد إلى أبواب العلماء: "وإذا قال لك فقيه: إن التردد إلى أبواب السلاطين لإعزاز الحق ولنصرة الدين، ولغرض من الأغراض الصحيحة، فقل له: إن صح ما تقول، وأنت أخبر بنفسك، فأنت على

(١) الوافي: ٢٠/٧

(٢) صبح الأعشى: ٣٩٢/١٤

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٩٢/١٤ - ٣٩٥

(٤) حسن المحاضرة: ٧٥/٢

خطر عظيم، لأنك قد انغمست في الدنيا، وأنت تدعي أنك تقصد بها الآخرة، وإن ثبت هذا، فلا نأمن عليك أن تتجر مع الدنيا، ولذلك كان سفيان الثوري، رحمه الله، يقول: إن دعوك لتقرأ عليهم: "قل هو الله أحد" فلا تمض، ولا تقرأها، وبالجملـة أنت أخبر بنفسك، فابحث عنها... (١)

كما نجد بعضاً من المكاتبات التي تظـلـو من السجع ما يصف كارثة أو حادثة وقعت في منطقة معينة، وتعليل ذلك قريب من يعلل ما سبق، ذلك أن مثل هذه المكاتبات تركز على الحدث، وعلى نقل الخبر بصورته الحقيقية دون محاولة التصنع في إبراز صورة أدبية، أو تكلف لفظة لموافقة السجع قد تحد من قدرة الكاتب على نقل الخبر بصورة صادقة، من ذلك ما ورد في وصف زلزلة وقعت في الحجاز سنة أربع وخمسين وستمائة، ومنها رسالة من قاضي المدينة إلى بعض أصحابه، يقول فيها: لما كان ليلة الأربعاء ثالث عشر جمادى الآخرة، حدث بالمدينة في الثالث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها، وبانت باقى تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب لها المنبر، إلى أن سمعنا منه صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربت قناديل الحرم الشريف النبوي، ودامت الزلزلة يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثل دوي الرعد القاصف. (٢)

(١) معيد النعم: ٦٨ - ٦٩

(٢) عقد الجمان: ١٢٥/١ - ١٢٦

الدور الوظيفي للنثر في العصر المملوكي

كان العصر المملوكي الأول عصر جهاد و قتال، تكالب فيه الأعداء على الأمة الإسلامية، فمن هجوم صليبي إلى غزو مغولي إلى تواطؤ الأرمن أو الروم مع المغول على قتال المسلمين، للأدب في أي عصر من العصور رسالة ينبغي له تحقيقها، وكان النثر في ذلك العصر أحد وسائل التعبير الأدبي التي ازدهرت، فهل استطاع النثر أن يؤدي رسالته، ودوره الذي أنيط به؟؟

لقد كان للأدب بصفة عامة، وللنثر بصفة خاصة دور كبير في المجال العسكري، وقد تجلّى هذا الدور في عدد من القضايا التي سنتبينها:

فقد كان للنثر أولاً دور في تعريف الأمة بأعدائها، وكشف دورهم وممارساتهم:

أما الصليبيون، فما كان قتالهم بحاجة إلى تعبئة وإقناع، وذلك لأنه عدو هاجم بلاد الإسلام، واستوطن فيها، فكان على الأمة الإسلامية واجب ديني في قتالهم وطردهم واستئصالهم من أرض المسلمين، ولذلك فقد استمر قتالهم حتى تم اقتلاعهم نهائياً من أرض المسلمين، وأذهب الله عن بلاد المسلمين "رسوم التثليث حتى كاد الثلاثة أن يسقط من العدد، وتبرأ منهم من كان يغرم بإمداده حتى الفرات ودت النقص خوفاً أن يطلق على زيادتها اسم المدد، ونطق بها الأذان فخرس الجرس، وعلت بها كلمة الإيمان، فأصبحت لها بعد الابتذال أية الحرس..."^(١)

هكذا كان دوماً تذكير المسلمين بهذا العدو، وبوجوده في أرض المسلمين، وأما التتار، فلم يكن هناك قضية أيضاً في إقناع المسلمين لقتالهم، والتعبئة ضدهم، فقد هب المسلمون يداً واحدة في مصر والشام لدفع هذا الخطر الداهم، كلما خرجت موجة من موجاتهم، حتى إذا اعتنق بعض ملوكهم الإسلام كان من الواجب كشف زيف هذا الادعاء، ومن ذلك مكاتبة إلى ملوكهم في ذلك: "وأما القول إنه لا يجب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة وتركيب الحجة، فبانظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته متركبة على من غدت طواغيته عن سلوك هذه المحجة متكبّة، فإن الله سبحانه وتعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة، وجهادنا واجتهادنا إنما هو لله، وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول، فقد ذهبت

الأحقاد وزالت الذحول، وبارتفاع المنافرة تحصل المظافرة، فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض، ومن أقام مناره فله أهل بأهل في كل مكان، وجيران بجيران بكل أرض. (١)

وأما الأرمن، فهم جيرة المسلمين، فكان قتالهم بحاجة إلى إظهار وإعلان وبيان الأسباب والأعذار، وإقناع المسلمين بذلك، ومن ذلك ما ورد في البشارة بفتح قلعة الروم: "وكانت هذه القلعة المذكورة للشعور الإسلامية بمنزلة الشجى في الحلق، والغلة في الصدر، والخوف الطاريء على طلعة البدر، لا تخلو من غل تضره، في لين تظهره، وغدر تستره، في عذر تورده وتصدره، وقد أسكن أهلها إلى مخادعة الجار وموادعة التتار، وممالأتهم على الإسلام بالنفس والمال، ومساواتهم لهم حتى في الزي والحال، يمدونهم بالهدايا والألطف، ويدلونهم على عورات الأطراف... وبها من الأرمن عصب جمعهم للتكسير، ومن التتار فرق زيادتهم للتغوير، قد بذلوا دونها النفوس، وتدرعوا للذب عنها لبوس..." (٢)

وقد عرفت مكاتبات سلاطين الممالك الإسلامية بأعداء الأمة، وبينت شدة عداوتهم ومكرهم، ومن ذلك ما ورد في بعض المكاتبات: "وكل ذلك في أشد أعداء الله تعالى: من التتار الذين عرف عددهم وجلدهم، والفرنج الذين طال وكثر في عداوة الإسلام أبدهم ومددهم، والأرمن الذين هم أكثر الطائفتين في الظاهر وفاقاً، وأشد الفئتين في الباطن نفراً ونفاقاً..." (٣)

هؤلاء هم أعداء الأمة، وهذا حالهم ودأبهم.

أما وقد انكشف عدو هذه الأمة، فليس عليها إلا الاستعداد، وتجهيز الجيوش، وتعبئة أبنائها لحربهم وقتالهم، فكانت الدعوة إلى الجهاد، ممثلة أولاً في الخلفاء، حيث دعوا السلاطين إلى تقديم أمره، وإعلاء شأنه، وتقديمه على أي عمل وواجب آخر، إذ هو أولها وأولها بذلك، فساهم النثر بذلك مساهمة فاعلة، فكانت مكاتبات الخلفاء إلى السلاطين تحفل بذلك، ومنه ما ورد في بعضها: "ومما يجب تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحنات مبيضاً، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم... فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافياً ولا هاجعاً، وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا

(١) صبح الأعشى: ٢٦٠/٧

(٢) السلوك: ١٠٠٨/١ - ١٠٠٩

(٣) صبح الأعشى: ٣٧٦/٧

تابعاً، وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً..^(١)

وللعلماء ورجال الدين دور في هذا التوجيه، فيبعثون برسائلهم الواعظة إلى السلاطين، يحثونهم فيها على جهاد أعداء الأمة وقتالهم، ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن تيمية إلى السلطان الناصر، يقول: "فمن ترك الجهاد عذبه الله عذاباً أليماً بالذل وغيره، ونزع الأمر منه فأعطاه لغيره، فإن هذا الدين لمن غلب... ومتى جاهدت الأمة عدوها ألف الله بين قلوبها، وإن تركت الجهاد شغل بعضها ببعض."^(٢) وهكذا يمضي في إعداد موازنة بين ترك الأمة للجهاد وقيامها بهذا الواجب.

عند ذلك يوجد السلطان تعليماته إلى العساكر بالتأهب والاستعداد لقتال العدو، فتنتطلق المكاتبات في ذلك، تحت على الجهاد، وتبين فضله، ومن ذلك ما ورد من مكاتبة: "واطلبوا أعداء الله برأً وبحراً، وقسموا فيهم الفتكات قتلاً وأسراً، واتخذوا الخيام مساكناً* واجعلوا ظهور الخيل لكم مواطناً* ولا تخشوا من جمعهم الآيل إلى التفريق، وحشدهم الذي عما قليل إن شاء الله في البحر غريق..."^(٣)

ولا بد لإعداد الجيوش وتجهيزها من توافر المال اللازم لذلك، فيأتي الحث على التلبية ببذل المال، وإنفاذ المكاتبات إلى الممالك المختلفة لجمع المال الذي يلزم لذلك، فقد جاء في بعضها: "وهؤلاء هم جيوشنا الذين دوخوا البلاد، وأذلوا أهل العناد، وطهروا السواحل، وأجروا في كل مواطن من أنهار الدماء ما يروي البلد الماحل، وهزموا جيوش التتار وهم في أعداد الكواكب... فمثل هؤلاء الذين يستحقون أموال الممالك الإسلامية، ليستعينوا بها في جهازهم لجهادهم، وينفقوها في إعدادهم لأعدائهم، ويصرفوها في ذبهم عن دين ربهم."^(٤)

فإذا اكتملت الاستعدادات يكون إصدار الأوامر للجيوش والعساكر بالتوجه لقتال العدو، فتصحبها الوصايا والحث على الصبر والمصابرة، والثبات على الطعن والمطاعنة، فهذا مرسوم بالأمر العالي: "أن تتقدم العساكر المنصورة بالمملكة الطرابلسية بارتداء ملابس الجهاد والتحلي بمرارة الصبر على اجتلاء الجلاذ، وأن يجيبوا داعي الدين، ويكفوا أيدي المعتدين، ويفوقوا

(١) الروض الزاهر: ١٠٧

(٢) رسالة إلى السلطان الملك الناصر: ١٤

(٣) تذكرة النبيه: ١٩٩/٣

(٤) صبح الأعشى: ٣٧٥/٧

* مساكن... ومواطن: صرف ماحقة المنع، وصوابهما: مساكن ومواطن.

سهامهم، ويجعلوا التقوى أمامهم، ويشرعوا أرماعهم، ويحملوا سلاحهم، ويومضوا بروق السيوف، ويرسلوا نبال الحتوف، ويهدموا بنيان الكفار... وأن يصابروا ويصبروا، فإذا استنفروا فلينفردوا... وينافسوا في أمر الآخرة ويدعوا الدنيا، ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، ويشهدوا المواقف، ويبذلوا القالد والطارف، وليبرز الفارس والراجل، ويظهر الرامح والنابل، فإن الجهاد سطوة الله تعالى على ذوي الفساد، ولقمته القائمة على أهل الشرك والعناد..." (١)

وتخوض جيوش الإسلام وعساكره المعارك ضد أعدائهم، فإما أن يكون النصر أو الهزيمة، فإن كان النصر، وهي الحالة الغالبة التي أكثر النثر تسجيلها، فإنك تجد الكتاب يطلقون العنان لأقلامهم بالتهاني بالفتوح والانتصارات، مما يكون له كبير الأثر في إلهاب المشاعر، وإثارة الفرح بين الناس، إذ غالباً ما تقرأ أخبار الانتصارات، أو المكاتبات الواردة من أرض المعركة في مكان عام يجتمع فيه المسلمون، مما يكون له دور كبير في رفع الروح المعنوية للمسلمين جميعاً، ومن ذلك هذه المكاتبة: "قد أسفر عن الفتح المبين صباحه، والتأييد وقد طار به محلق التبشير، فحقق في الخافقين جناحه، والإسلام وقد وطىء هامة الكفر بمقدمه، والدين وقد عز بفتكات سيفه المنصور، فأنف أن يكون الشرك في خدمه، والأفلاك وقد علمت أنه لهذا الفتح القريب كان اجتماع كواكبها، والأملاك وقد نزلت لتشهد أحمد النصر البدرية في صفوفها ومواكبها..." (٢)

ومنه أيضاً قوله: "وما سطرنا هذه المكاتبة إلا وجيوشنا المنصورة قد وطنت عقر بلادهم فأذلتها وأذلتها، وغيّرت أحوالها وحالتها، وقاسمتهم شر قسمة فلها منها الحصون والمصون، والجنات الوارفة الغصون، ولهم منها الخراب والتباب، والدارس الذي لا يحصل بكف دارس بيته إلا التراب، وما هي قادمة إلينا يقدمها النصر ويتقدمها من أسر العدا وغنائمهم ما يربي عن الحصر..." (٣)

وكما أن للنصر أثراً إيجابياً على المسلمين، فإن له أيضاً أثراً سلبياً على العدو، حيث حاول النثر إبراز هذا الجانب، وغالى في ذلك من أجل تثبيط همهم وعزائهم، بما يسمى اليوم بالحرب النفسية أو المعنوية، فتجده يتناول الموضوع بروح ساخرة، وأسلوب تهكمي تثير غيظهم،

(١) صبح الأعشى: ٢٥٣/٨ - ٢٥٤

(٢) المصدر نفسه: ٣٩٥/٨

(٣) المصدر نفسه: ٣٧٢/٧

ومن ذلك مكاتبة إلى ملوكهم بعد هزيمة أحد جيوشهم: "وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضه: "الله أكبر"، ومن بقي من رجالك أطلقوا، ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكا النوائح." (١) ومنه أيضا ما ورد في مكاتبة أخرى: "ولو رأيت عدوك المسلم، وقد داس مكان القداس والمذبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة وقد دهموا بطارقة، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخرق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تخرق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت كل منهما وزالت، لكنت تقول: "يا ليتني كنت تراباً"، ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً." (٢)

وفي حرب المماليك مع المغول تكون الأيام سجلاً، فتسجل مكاتبات المماليك ذلك، ومنها: 'وبعد، فليعلم الملك محمود غازان جامع الوفود، وحاشد الحشود، أنه قد كان ما جرى وقدر في القدم، فلا راد لما قضى وبرم وحكم، فحملنا ذلك أنه كان من ربنا تقدير، وأنه ليس لأحد فيما أراد الله تعالى تدبير، فما لبثت إلا اليسير من المدة، حتى أرسلت رسلك إلينا مجدة..."' (٣)، وتمضي الرسالة مبينة تفاصيل المراسلات بينهما، إلى أن أرسلوا جيوشهم، ولكن هذه المرة تدور الدائرة عليهم، فتخاطبه المراسلات والمكاتبات بأسلوب تهكمي ساخر: "قبادر أيها الملك إلى حمد الله العادل، الذي لم ير عينك هذه المحافل، ومرورها على سمعك أهون من العيان، ونظرك إلى عورات أصحابك يغنيك عن البيان، فإنه كان يوماً مشهوداً، وكان الملائكة فيه شهوداً، ولقد نصحتك فما أروعيت، وبذلت لك القول فما وعيت، وركبت فرس البغي أحمر كميته، فمن أحل ذلك عاد كل حي من جيشك ميت..." (٤)

هذا إن كان النصر، وإن كانت الهزيمة فدور النثر في هذا المجال أهم وأخطر، ذلك لأن من أخلاق العامة تقبيح سيرة السلطان المهزوم، والإزراء على تدبيره في جيش يجهزه فيهزم، مما يتوجب على الكاتب أن يعي دوره، فيحتاج إلى مكاتبتهم بتذكيرهم بانتصاراته السابقة،

(١) الروض الزاهر: ٣٨٠

(٢) المصدر نفسه: ٣١١

(٣) كنز الدرر: ١١٩/٩

(٤) المصدر نفسه: ١٢١/٩

وفتوحاته الماضية، وتعظيمها، كما ينبغي تذكيرهم بشكر الله على إسباغ نعمه، وكشفه أعداء الدين والأمة، ليقوي من عزائمهم، ويبقي على طاعتهم... (١)، ثم إن عليه أن يبدي عذر القائد المهزوم، ويصف اجتهاده، ويحثه على معاودة عدوه والطلب بثأره. (٢) والمكاتبات من هذا النوع قليلة، منها مكاتبة أنشأها شهاب الدين محمود، منها: "أصدرها وقد اتصل به نبأ ذلك المقام الذي أوضحت فيه السيوف عذرها، وأبدت فيه الكماة صبرها، وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها... ولم يكن عليهم إتمام ما قدر الله أنه لا يكون، فكاثرت رقاب الأعداء في ذلك الموقف السيوف، وكابرت أعدادهم الحتوف... فضاق بازدهام الصفوف على رجاله المجال، وزاد العدد على الجلد فلم يقد الإقدام على الأحوال مع قدوم الأجل، وأملى للكافرين بما قدر لهم من الإنظار وحصل لهم من الاستظهار، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام عما ألفوه من الفرار... والليث إذا جرح كان أشد لثباته، وأمد لوثباته، والموتور لا يصطلي بناره، والشائر لا يرهب الإقدام على المنون في طلب ثاره، والدهر ذو دول، والزمان يتلون، إن دجت عليكم بالقهر ليلة، فقد أشرقت لكم منه بالنصر ليال أول، فالمولى لا يلتفت إلى ما فات، ويقبل بفكره على تدبير ما هو آت، ويعد للحرب عدته، ويعجل أمد الاستظهار ومدته..." (٣)

واستكمالاً للحديث عن دور النثر في المجال العسكري أقول: "إن النثر قد رافق الجيوش الإسلامية أنى ذهبت، وواكبها في حلها وترحالها، وسجل وقائعها مع أعدائها موقعة بالزمان والمكان، فقد عبر الكتاب من خلال رسائل مطولة عن كل تحركات الجيوش والعساكر، ووصفت أسلحتها وأماكن إقامتها في رحلاتها، كما قدمت وصفاً مطولاً لحركات العدو، وأطنبت في وصف اللقاء، فمما ورد في بعض هذه المكاتبات على سبيل المثال: "وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأدراع لامات حربهم، وحمل آلات طعنهم وضربهم... ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذي القعدة جرائد على الأمر المعهود، فقد خفقوا كل شيء حتى البنود والعمود... ومررنا على مدينة دلو، وهي رسوم سكانها، ضاحكة عن تبسم أزهارها، وقهقهة غدرانها..." (٤)

(١) انظر في ذلك: صبح الأعشى: ٢٩٦/٨ - ٣٠٢

(٢) انظر: حسن التوسل: ٣٨٥

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٥ - ٣٨٦

(٤) صبح الأعشى: ١٥٩/١٤

وهكذا تجد أن النثر في هذا العصر قد أدى دوره الذي أنيط به في هذا المجال، حيث كشف عن هوية الأعداء، وفضح أهدافهم، ثم كان دوره في الحض على الجهاد وبذل المال اللازم لتسيير الجيوش والعساكر، حتى إذا حشدت الحشود، فإن رفع الروح المعنوية لهؤلاء الجند ضروري جداً، وبخاصة عند التوجه للقاء العدو، وبعد المعركة حيث يكون النصر تكون الفرحة الكبرى، فلتعم هذه البشرى على المسلمين كافة، تتناقل الركبان هذه البشائر إلى أرجاء الدولة كافة تقرأ على الملأ، كما أن للعدو حظاً من رسائل البشرى هذه، إذ تزف لهم مثلها، ولكن بأسلوب تهكمي ساخر يتناسب مع ذلك المقام، تثبيطاً لعزائمهم، وردعاً لهم عن معاودة التعدي على أرض المسلمين، وإن كانت الأخرى، فدور النثر أخطر، إذ يقتضي ذلك منه العمل على رفع الروح المعنوية للمقاتلين، وإعادة ثقة الناس بسلطانهم وعساكرهم، بالإضافة إلى حثه على معاودة الكرة على العدو، فالجرب سجال، والأيام دول، وقد سجل النثر تفاصيل ذلك كله موثقاً بالزمان والمكان في رسائل مطولة تستحق أن يطلق عليها مقالات عسكرية.

هذا عن دور النثر في المجال العسكري، أما دوره في الحياة السياسية، فمما لا شك فيه أنه دور خطير، وقد قام النثر بهذا الدور خير قيام، إذ مر بنا كيف كشف النثر عن بعض الخلافات والفتن التي نشبت بين أمراء المماليك، وواكبها، وسجلها، كما أبان عن العلاقات السياسية التي كانت بين المماليك والدول المجاورة في حالتها السلم والحرب، فبالإضافة إلى ما سبق أقول هنا: إن النثر في هذا الجانب قد وضع لنا اتجاهين في هذا المجال:

الأول: الكشف عن بعض الممارسات السياسية الخاطئة لدولة المماليك، سلاطين وأمراء ونظاماً، وأسوق هنا بعض الأمثلة لا على الحصر، فقد ورد في "خيال الظل" ضمن أقوال "طيف الخيال"، وهو يرقص ويغني ببعض أبيات من الزجل:

"وندعو لسلطاننا بالبقا
وبالنصر والفتح والارتقا
فلولاه مازال عنا الشقا
فذاك المطاع القوي الأمين..." (١)

فإذا علمنا أن الهدف العام من هذه التمثيليات هو النقد السياسي والاجتماعي حسب تحليلنا السابق لها، نستطيع القول: إن طيف الخيال في هذه الأزجال يوجه نقداً ساخراً لسلطين المماليك،

حيث يدعى للسلطان عادة إن كان عادلاً أو جائراً، إن كان قائماً بواجبه أم مقصراً، ثم ننظر في قوله : "فلولاه ما زال عنا الشقاء"، نلمح فيه سخرية واضحة إذ إن نفي الشيء القائم الموجود أقوى في علوقه بالذهن من وصف الحالة القائمة وإثباتها، ولا سيما وهو يصفه بالقوي الأمين.

ومن هذا الجانب فضح طبقة الموظفين من أصحاب الأقلام الذين يسخرون أقلامهم في خدمة السلطان والحاكم، حيث يمدحون من يستحق ومن لا يستحق، فهم طوع أمر الحاكم، يوجهون مديحهم نحو من يريده الحاكم، ويصبون حميم نقيمتهم وهجائهم صوب من يغضب الحاكم والسلطان عليهم، ومن ذلك ما جاء في تفويض الأمير "وصال"، وتقليده مسخرة الجمهور، يقول : "وبعد، فإن أول من يستندب لاستجواب الفرخ، ويستحضر لاستماع النوادر والملح من يقوم في دفع الهموم مقام ابنة الكروم، ولما كان الأمير الأوحده، عين الدين، فخر البله والمجانين، وصال الأحبة، أطال الله قفاه، وبارك في () *، وأعطاه من الصفع أوفره وأوفاه، من يتجمل بطلعة المجالس، ويحن إلى صفع قذالة كل قاعد وجالس، كان جديراً بأن تمتد إليه الأكف والسواعد، ويكون كالبحر الذي ساحله المصادر والموارد، فوضنا إليه أمور القبور، وجعلناه أميراً على مسخرة الجمهور..." (١)

فعلى الرغم من حقارة هذه المهنة، وقلة شأنها، إلا أن الكاتب يعطي من أمرها وشأن من تفوض إليه على سبيل السخرية والتهمك بما يجري في أوساط هذه الفئة أو الطبقة من الناس.

أما الاتجاه الثاني الذي وضحه النثر في الحديث عن دوره السياسي، فهو دور توجيهي، حيث نجد النثر يوجه أنظار الأمة إلى وجوب لزوم طاعة السلطان، فقد حرص سلاطين المماليك منذ البداية على أن يكتسب حكمهم صفة الشرعية باستقدامهم لبعض أقارب خلفاء بني العباس، ومبايعتهم بالخلافة، ثم تقليد الخليفة بدوره للسلطان، وتفويض الأمر إليه بالنيابة عنه في القيام بأمر الأمة، وكان حرص المماليك واضحاً على إعلان ذلك، وأن تكون المراسيم على مشهد من الناس جميعاً، فقد حفلت كتب العهود الموجهة من الخلفاء إلى السلاطين بحث الرعية على الطاعة، ومن ذلك ما جاء في بعضها: "وشهد بهذا العهد الشريف من شهدته من الملائكة المقربين، كل من حضر تلاوته من سائر الناس أجمعين، لتكون حجة الله على خلقه أسبق،

(١) خيال الظل : ١٥٨

(*) بين القوسين لفظة نابية.

وعهد أمير المؤمنين بثبوته أوثق، وطاعة سلطان الأرض قد زادها الله على خلقه بذلك تأكيداً،
وشهد الله وملأته على الخلق بذلك، وكفى بالله شهيداً." (١)

وإذا حاول أحد الحكام التابعين للسلطنة شق عصا الطاعة، يستعان بالخليفة لتوجيه مكاتبات
إلى ذلك الحاكم المارق، ومن ذلك ما كتب عن الإمام المستكفي إلى صاحب اليمن، حين منع
الهدية التي جرت العادة بحملها إلى ملوك الديار المصرية، يهدده فيها، وبطالبه بالقيام معه في
المساعدة له على حرب التتار بمال يبعثه إليه، حيث بدأها بأية من كتاب الله تدعو إلى طاعة
السلطان، يقول: "يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"، ثم يطلب
منه أن يبعث رسولا لينوب عنه، كما أن عليه أن يجهز الجيوش، ويبعث مبلغاً من المال يحدده
على نفسه كل سنة وإلا "فقد منعناك التصرف في البلاد، والنظر في أحكام العباد حتى تطأ خيلنا
العتاق مشمخرات حصونك، وتعجل حينئذ ساعة منونك..." (٢) كما يقول.

ومما يدخل ضمن الجانب التوجيهي في دور النثر، ما يقدم على لسان السلطان من كتب
التقليد والتوقيع والتفويض... إلى أرباب الوظائف والمناصب في الدولة من وصايا، توجههم إلى
أسلوب العمل، وتوضح لهم خطة السير والمنهج الذي يجب عليهم أن يسيروا عليه في تنظيم
أمر البلاد الداخلية، أو في أداء عملهم على الوجه الأكمل، ومن ذلك ما جاء في وصية كافل
السلطة: "فأهم ذلك تقوى الله تعالى، وهو عليها مجبول، وأمرها عنده متلقى بالقبول، والعدل فهو
منه مأمول، والجهاد، فعزائمه في ميدانه تجول، وصوارمه بها من قراع فرسانه فلول، والعساكر
الإسلامية، فيتأييده تبطش أيديهم بالعدا وتصول، وممالك الإسلام، فما منها إلا معمور بما أوتيه
كفالتة مأهول، وثغوره: فكلها بسام بفتكاته التي ألقى رعبها في البحر، فهو بين كل فاجر وبين
البحر يحول، وما هو بذلك من حميد المسالك موصول..." (٣).

أما دور النثر في المجال الاجتماعي، فاستطيع بيانه أيضاً في هذين الجانبين: الإعلامي
والتوجيهي. ففي المجال الإعلامي أقول: لقد كان للنثر دور في فضح بعض الممارسات والعادات
الاجتماعية الفاسدة والكشف عنها، حيث كشف النثر أولاً عن مناطق الفقر، أو المناطق الشعبية
في القاهرة، وكأنه هنا يوجه أنظار الحكام والمسؤولين إليها، لينظروا لها بعين الرعاية،

(١) مآثر الإنافة : ٥٠/٣

(٢) المصدر نفسه : ٢٥٦/٣-٢٦٤

(٣) صبح الأعشى : ١٤٥/١١-١٤٦

وقد ورد ذلك ضمن التقليد السابق: "تقليد الأمير وصال مسخرة الجمهور، يقول: ولما كان الأمير الأوحده ... فوضنا إليه أمور القبور، وجعلناه أميراً على مسخرة الجمهور، وأضفنا إليه من الولايات ما يأتي ذكره من خرائب هذه الجهات، وهي ولاية مصر القديمة والسنباب، مع ما دثر من الجدران والخراب، وسد عمائر الأهرام، وما يجاورها من التلال والأجام..." (١)

وبعد أن ينبه الأنظار إلى تلك الأماكن، فإنه يسقط الضوء على جوانب هذه الحياة... جوانب الفقر، والحياة البائسة التي يعيشها أغلب أبناء الشعب، حيث يسأل "طيف الخيال" "الأمير وصال" عن سبب تغير حاله بعد أن كان "ذا مال وجمال وخيل وبغال"، فيجيبه: "مال المال، وحال الحال، وزهد الذهب، وسلب السلب، وفرغت الكاس بطون الأكياس، وبعثت العقار برشف العقار..." (٢)، كما تحدثت عن بعض ظواهر حياة الفقر التي يعيشها عامة الناس في ذلك الوقت في فصل سابق.

ومما يدخل في باب الإعلام أيضاً: الكشف عن بعض الظلمات التي لحقت بالرعية، وإشهار ذلك وإذاعته، وكان النشر وسيلة ذلك من خلال المكاتبات التي توجه إلى الولايات المقصودة لإعلامهم بذلك، من أجل كسب ثقة أبناء الشعب، واسترضائه، مثال ذلك ما ورد في إلغاء بعض المظالم في البلاد الشامية، جاء فيه: "لما اتصل بنا أن باقي البلاد الشامية من البواقي التي يتعب السنة الأكلام إحصاؤها، ويتقل كواهل الأفهام تعداد وجوهها واستقصاؤها، اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعفي ذمما كانت في أغلال إسارها، وأنقل انكسارها، وأن نعق نفوساً كانت في سياق مساقها وجبال إزهاقها وإرهاقها، لتتوفر الهمم على عمارة البلاد بالأمن على الطارف والتلاد، وتجمع الخواطر على حسن الخلف بماحصل لهم من المسامحة عما عليهم من ذلك سلف، بذم بريئة من تلك الأتقال، عرية عن عثرات تلك البواقي التي ما كان يقال: إنها تقال..." (٣)

واضح إذن، أن محاولة إلغاء بعض هذه المظالم إنما هو مظهر إعلامي فقط، أو حملة دعائية في مفهومنا المعاصر.

ومما يدخل في هذا الجانب أيضاً فضح بعض الممارسات والعادات الاجتماعية

(١) خيال الظل : ١٥٨

(٢) المصدر نفسه : ١٦٧

(٣) صبح الأعشى: ٢٧/١٣

الخاطئة كشرب الحشيش والخمر (١)، وعمل الخاطيات في الزواج (٢)، وخروج النساء إلى الحمامات (٣)، بالإضافة إلى الكشف عن بعض الملاهي الباطلة من ألعاب بني ساسان وحيلهم (٤)، وما يدعى بالفتوة (٥)....، كما يكشف النثر عن بعض البدع والمعتقدات التي تنسب إلى الدين مثل بدعة زيارة المشاهد (٦).

كما بين النثر بعض معتقدات الفرق والمذاهب الفاسدة كالشيعة والنصيرية والمرجئة (٧)، وكشف دور بعضها في الوقوف مع أعداء الأمة، ومد يد العون للتتار، يقول: "ومن أعظم المصائب عندهم "النصيرية"، انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى النصارى على ثغور المسلمين". (٨)

كما حاولت المكاتبات الدولية أيضاً إظهار البلاد الخاضعة لسلطان الممالك بالصورة المثلى للدولة من أجل جذب التجار والمستثمرين إليها للمساهمة في تطوير الحياة الاقتصادية في البلاد وإنعاشها، من ذلك ما ورد في مكاتبة موجهة إلى تجار الممالك المجاورة: "ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد - النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها، الظليلة أفاؤها وأفناؤها، فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة..." (٩)

ولم يكتف النثر بهذا الدور الإعلامي، بل كان له أيضاً دور التوجيه، فلم يزل "السلطان يكتب إلى الولاية عندما ينتهي إليه من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم، واستباحة المحارم، واقتراف المآثم كالزناد واللواط وشرب الخمر وقطع الطرق... وما يجري هذا المجرى، بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالى فيهم..." (١٠)، ووسيلة السلطان في ذلك النثر، ومنه مرسوم كتب به عن نائب طرابلس إلى نائب حصن الأكراد بإبطال ما أحدث بالحصن من الخمار والفواحش، يقول: "المرسوم بالأمر العالي... أن يتقدم الجنب الكريم باستمرار ما وفقنا الله تعالى له، ورسمنا به، وأعطيناه دستوراً يجده من عمل به يوم حسابه، من إبطال الخمار وهدم مبانيها بحيث لا يبقى للنفس الأماره عليه أماره، وإخفاء معالمها التي توطنها الشيطان فقطن، وإزالة ما بها من الفواحش التي ما ظهر منها أقل مما بطن، وإخلاء تلك البلاد من هذا

(١) انظر: خيال الظل: ١٥٠، ١٥٥ (٢) انظر: المصدر نفسه: ١٦١

(٣) انظر: المصدر نفسه: ١٦١ (٤) انظر: المصدر نفسه: ١٨٨

(٥) انظر: ديوان ابن الوردي: ٦٧ (٦) انظر: المصدر نفسه: ٤٦

(٧) انظر: السلوك: ٩٣٩/٢ (٨) المصدر نفسه: ٩٤٦/٢

(٩) صبح الأعشى: ٣٣٩/١٣ (١٠) صبح الأعشى: ٣٠٩/٨

الفساد الموجب لكثرة المحن والاختلاف، وإراقة ما بها من الخمر التي هي رأس الإثم والشرور، وإحراق كل مخدر مذموم في الشرع محذور..."^(١)

ويبدو الدور التوجيهي أيضاً في محاولة النثر إطلاع ولاية الأمور على ما يحدث من أمور فيها ظلم للرعية، وعدم قيام الموظفين في الدولة بدورهم على الوجه الأكمل، ومن ذلك ما ورد في كشف ممارسات بعض القضاة: "اعلموا يا ولاية الأمر، ويا ذوي الكرم الغمر، أبقاكم الله بمصر للأمة، ووفقكم لدفع الإصر وبراءة الذمة، أن حلب قد نزعت للزبد، ووقعت في ولاية التاجر الرياحي في خسر وشدة، قاض سلب الهجوع، وسكب الدموع، وأخاف السرب، وكدر الشرب... فكم لطخ من زاهد. وكم أسقط من شاهد، وكم أرعب برياً، وكم قرب جرياً، وكم سعى في تكفير سليم. وكم عاقب بعذاب أليم..."^(٢)، إلى هنا يكون دور النثر إعلامياً، إلا أنه ما يلبث أن ينتقل في رسالته هذه إلى التوجيه، حيث يوجه ولاية الأمر إلى عزله وتخليص الأمة من شره، يقول: "فاعزلوا عن أعمالكم هذا القرد، وإن غضب، فغضب الأسير على القد، فإنه يميل إلى الزيدية، ويتذكر الدولة العبيدية..."^(٣)

كما يبدو الدور التوجيهي للنثر أيضاً في أدب الوعظ، حيث إننا نستطيع القول: إن النثر قد أدى دوره في هذا الجانب، فقد توجه هذا الأدب إلى الحكام والسلاطين ووعظهم وأدى دوره على أتم وجه. (٤) كما توجه الوعظ أيضاً إلى العامة، فمن ذلك ما ورد في قول تاج الدين السبكي: "قما أجهل من يقول: ما بال فلان المستحق خاملاً، وفلان غير المستحق غير خامل؟ أما علم أن هذه عادة الزمان، وأن ذلك عدل من الله تعالى، إذ كونه مستحقاً، فضل من الله عليه، يربو ويزيد على ذلك الحطام الذي هو حظ من لا يستحق، أليس إذا عادل العالم بين العلم مع الفقر، والجهل مع الغنى، وجد علماً بفقر خيراً من جهل بغنى، وتقوى بانكسار خيراً من فجور باستكبار..."^(٥)

هذا عن دور النثر في المجال الاجتماعي، ويمكن أن نتبين أدواراً إعلامية أو توجيهية للنثر في مجالات أخرى، فيمكن أن نتبين دوراً إعلامياً للنثر، يبدو من خلال نقل البشارة إلى عامة

(١) صبح الأعمى : ٢١/١٣

(٢) ديوان ابن الوردي: ١٥٥

(٣) ديوان ابن الوردي: ١٧٣

(٤) انظر ص ١٨٤-١٨٦ من هذا البحث.

(٥) معيد النعم : ١٥٤

(٦) انظر : صبح الأعشى: ٣٣٥/٨

الناس بفيضان النيل، وأن الخير قد يعم على الجميع بتأثير ذلك، وقد مرت بنا مثل هذه المكاتبات بوفاء النيل (٦)، كما يكون مثل ذلك عند حدوث الآيات السماوية المهولة مثلاً كالصواعق والرياح والعواصف والزلازل، أو عند حدوث الأمراض والأوبئة والحرائق مثلاً (١)، وتكاد تكون رسائل ابن الوردي في الزلزلة الحادثة سنة ٧٤٤ هـ (٢)، ورسالة "النبا عن الويا" في وباء سنة ٧٤٩ هـ (٣)، ورسالته في وصف حريق دمشق (٤)، تكاد تكون أمثلة على هذا الدور الإعلامي للنثر.

وقد حاول بعض الخطباء استغلال مثل هذه الكوارث لتوجيه الناس ووعظهم بالتوجه إلى الله تعالى، وترك المعاصي، والآثام، فهي سبب من أسباب هذه الكوارث، مثال ذلك ما عظه به أحدهم الناس في زلزلة عام ٧٠٢ هـ من خطبة بذلك: "أيها الناس، إن المعاصي قد كثر عملها حتى تباهيتم في أعمالها، وفشت في سائر الأرض وأعمالها، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"، فذلك "زلزلت الأرض زلزالها" وقال الإنسان مالها، ولولا رحمة الله علينا لأخرجت الأرض أنقالها، فيالها من ساعة يا لها... فالتوبة التوبة، عباد الله في الأيام الباقية الفانية، واستحيوا ممن لا تخفى عليه خافية، واعتبروا بمن هلك تحت ردمها فجأة، وقد كان في تلك الساعة في عافية، وأصبح منزله بعد التشييد مهدوماً، وما له بيد الوارث مقسوماً، وحمل إلى قبره، فعاد التراب عليه مردوماً، ولم تغن عنه الدنيا وأموالها لما هلك في ساعة زلزالها." (٥)

كما استغل بعضهم فرصة الهزيمة أيضاً من أجل الوعظ والدعوة إلى التوبة، ومن ذلك خطبة لما دخل التتار الشام، منها: "فمن كانت الدنيا أكبر همه لم يزل مهموماً، ومن كانت زهرتها نصب عينه لم يزل مهزوماً، ومن كانت جدتها غاية وجده لم يزل معدماً حتى يصير معدوماً، فالله الله، عباد الله، الاعتبار، الاعتبار، وأنتم السعداء إذا وعظتم بالاعتبار، أصلحوا ما أفسد، فإن الفساد مقدمة الدمار، واسلكوا الجدد تتجوا في الدنيا من العار، وفي الآخرة من النار...." (٦)

كما لمسنا مثل هذا الدور التوجيهي من خلال تمثيلات "خيال الظل"، إذ تنتهي كل منها بالوعظ والتوبة. (٧)

(١) انظر: صبح الأعشى: ٣١٥/٨

(٢) انظر: ديوان ابن الوردي: ١٤٩

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٨٦

(٤) انظر: المصدر نفسه: ١١٩

(٥) كنز الدرر: ١٠٢/٩-١٠٣

(٦) ذيل مرآة الزمان: ٢٠٩/٤

(٧) انظر ص ١٧٠-١٧٢ من هذا البحث

الخاتمة

قامت هذه الدراسة على فرضية مفادها: أن الحركة الفكرية في العصر المملوكي الأول كانت استمراراً للمسيرة الفكرية في عصور سابقة، ولكن في إطار ظروف ذلك العصر، والوسيلة لإثبات ذلك دراسة النثر الفني في هذا العصر، لأن اللغة مقياس صادق لعقول الناس الذين تصدر عنهم.

ومن أجل الكشف عن ذلك كان لا بد لهذا البحث أن يتناول ذلك في إطارين رئيسيين:

الأول: إلقاء الضوء على حركة التأليف العلمي في ذلك العصر، بالتعرف إلى أسباب استمرار هذه الحركة، والنتائج التي تكشف عنها في مختلف مجالات العلوم في ذلك الوقت.

والثاني: دراسة النثر الفني في ذلك العصر من حيث المضمون والسمات في إطار ذلك العصر. ولتحقيق هذه الغاية، جاء هذا البحث مشتملاً على تمهيد وثلاثة فصول:

أما التمهيد، فيلقي الضوء على حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، حيث تكشف لنا أن الحياة العلمية في ذلك العصر كانت مشرقة، وأن مصر والشام كانتا في ذلك العصر زاخرتين بالعلم والعلماء والمصنفات في مختلف فنون العلم والمعرفة، وقد تبين لنا ذلك من خلال البحث في الأسباب والمظاهر. أما البحث في الأسباب، فقد تحدثت عن جملة من الأسباب أدت إلى هذا الإشراق، وأهمها: تشجيع المماليك للعلم والعلماء، حيث ظهر لنا تقدير المماليك، سلاطينهم وأمرانهم، للعلم وتشجيعهم لأهله، ومحاولة بعض سلاطينهم استشارة العلماء فيما يعرض لهم من أمر الأمة، وحرصهم على الأخذ برأيهم، كما تبين لنا تقديرهم للعلماء، وحرصهم على ضمان الحياة الكريمة لهم، بل كان لبعضهم إسهامات واسعة في ميادين العلم المختلفة.

وأما العامل الثاني، فكان دور العلم وتعددتها في ذلك العصر، حيث ظهر لنا أن حواضر مصر والشام في ذلك العصر كانت زاخرة بمراكز العلم على اختلاف أنواعها، حيث تشكلت الحياة العلمية للطالب من ثلاث حلقات: يتوجه في أولها إلى الكتاب، حيث يحفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه، ويتعلم الخط والكتابة، ثم يتوجه بعدها إلى الحلقة الثانية التي تتألف من المدارس أولاً، حيث التخصصات العلمية المختلفة من: علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة وعلوم النحو والطب. وبوادي المدارس في هذه الحلقة الخوانق والزوايا والربط والترب، حيث يتلقى الأيتام والطلبة الفقراء العلم. وقد تبين لنا أن هذه المراكز لم تقتصر وظيفتها على الناحية الدينية، بل كانت مؤسسات علمية، وخيرية اجتماعية تعمل على إيواء الفقراء، وتقديم لهم كل ما يحتاجونه من طعام وشراب وكساء ودواء. أما الحلقة الثالثة، فتتمثل في الجوامع والبيمارستانات، التي كانت بحق جامعات إسلامية كبرى، تعقد فيها حلقات العلم المتنوعة،

ويحاضر فيها كبار العلماء والمشايخ في ذلك العصر. وكان يدعم دور العلم هذه، ويمدها بمصادر الفكر والعلم المكتبات، حيث ارتبط كل مركز من مراكز العلم السابقة بمكتبة جليلة، تضم أمهات المصادر والمراجع الضرورية لطلبة العلم، هذا عدا عن مكتبات الأدباء والعلماء أنفسهم، بالإضافة إلى رواج تجارة الكتب في أسواق القاهرة ودمشق، حيث اشتملت على أسواق خاصة للكتب، كل ذلك يكشف عن حركة علمية نشطة تولى السلاطين والأمراء والعلماء وأهل الخير الإنفاق عليها، حيث وقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، إذ كان وجود هذه المؤسسات واستمراريتها مرهونا باستمرار الوقف، وما يدر به من دخل، كما تبين لنا أن هذه الحركة لم تكن مقتصرة على دمشق والقاهرة، بل عمت معظم المدن والحوضر المشهورة في كلا القطرين.

أما العامل الثالث، فهو هجرة العلماء إلى مصر والشام، حيث تبين لنا أيضا أن مصر والشام كانتا في ذلك العصر محط أنظار العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فقد وفد إليها علماء من العراقيين والمغرب والأندلس وبلاد الروم والهند واليمن، وقد لعب هؤلاء العلماء دوراً قوياً في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية، إذ تخرج على أيديهم جلة العلماء، وأغنوا المكتبة العربية بالمؤلفات القيمة في شتى فنون العلم والمعرفة، وما كان التقاء العلماء هذا ليثمر عن شيء لولا الرغبة الأكيدة الصادقة لدى طالبي العلم، ولولا البيئة العلمية التي توافرت في هذين القطرين في هذه الفترة، فأنى اتجهت تجد دور العلم، وحيثما ذهب هؤلاء العلماء وجدوا التشجيع والإكرام الذي يدفعهم إلى بذل المزيد من العطاء، فيصلون ليلهم بنهارهم في التصنيف وإفادة الطلبة، وما كانت مصر والشام في تلك الفترة، بطبيعة الحال، خلوا من العلماء الأفاضل في مختلف فنون العلم والمعرفة، وقد أسهم هؤلاء الوافدون مع إخوانهم في هذه البلاد في دفع حركة العلم دفعة قوية، مازلنا نحن في عصرنا الحاضر نجتر ثمارها، فما الذي أثمرت عنه هذه الحركة؟

هذا الحديث يدفعنا للتعرف إلى النتائج التي خلفتها هذه العوامل، فكان الحديث عنها ضمن مظاهر الحركة الفكرية في مصر والشام، حيث تبين لنا أن هذا العصر قد حفل بحركة علمية واسعة في مختلف مجالات العلم والمعرفة في ذلك الوقت، وقد تكشف لنا استيعاب علماء هذا العصر لعلوم أسلافهم وفنونهم، كل في مجال تخصصه، حيث حظيت المؤلفات السابقة من علماء هذا العصر باهتمام واسع، فقد أسهموا في شرحها أو تلخيصها أو نظمها، كما أسهموا في إضافاتهم الجليلة لهذه الميادين المختلفة، فقد تعددت اتجاهات التأليف في كل مجال منها، مما يكشف عن حركة إبداعية قوية لدى علماء هذا العصر، كما تبين لنا أن الازدهار والتقدم كان من نصيب العلوم الدينية، وعلوم اللغة العربية والإنسانية، أو ما قام من العلوم الأخرى على خدمتها كعلم الحساب الذي ارتبط بعلم الفرائض، أحد فروع علم الفقه المعروفة، أو لارتباطه بالوظائف والدواوين الرسمية، وكذلك علم الفلك والهيئة الذي ارتبط أيضا بالعلوم الشرعية.

كما تميز هذا العصر بوجود ظاهرة فريدة لم تعرف قبله، ألا وهي ظاهرة الموسوعات، حيث ساعد على وجودها مجموعة من العوامل السياسية والاجتماعية والعلمية، أوجدت لنا

مجموعة من العلماء الملمين في علوم العصر المختلفة، حيث يروى عن بعضهم أنه كان يدرس في حلقته ثلاثين علماً، فخلقوا لنا مؤلفات علمية ضخمة، بلغ حجم بعضها خمسين مجلداً، ضمت بين دفتيها عشرين علماً.

وأما الفصل الأول، فقد خصصته للحديث عن فنون النثر واتجاهاته في هذا العصر، حيث كشفت لنا الدراسة الدقيقة عن وجود خمسة اتجاهات:

أولها: الكتابة الديوانية: نما هذا النوع من الكتابة وازدهر في أحضان ديوان الإنشاء، هذا الديوان الذي ترك أثارة وبصماته واضحة في النثر الفني في ذلك العصر، حيث خرج لنا أسراً عريقة من الكتاب، كآسرة ابن الأثير، وابن فضل الله العمري، وشهاب الدين محمود الحلبي... كما تحدثت عن أنواع هذه المكاتبات، فقد تبين لي أن بعضها موجه من الخلفاء العباسيين في الديار المصرية وإليهم، وكانت هذه المكاتبات تسير في اتجاهين:

أولها: العهود بالسلطنة إلى المماليك، وثانيها: عهود الخلفاء إلى أولياء العهد من بعدهم. كما كان بعض هذه المكاتبات موجهاً من سلاطين المماليك إلى الملوك الآخرين، وقد تركزت في معظمها حول أمور المهادنات وطلب الصلح، أو الرد على ذلك، وهي تحمل في غالبها معاني التهديد والوعيد، وبخاصة عقب انتصار أحد الطرفين في معركة من المعارك.

وقسم ثالث من هذه المكاتبات كان موجهاً من سلاطين المماليك إلى نوابهم وعمالهم وموظفيهم، وقد تبين لنا أن هذه المكاتبات قد تناولت موضوعات عامة تخص الدولة والأمة جمعاء، كموضوع الجهاد أو التهاني بالفتوحات، أو إبطال عادة معينة لدى فئة محدودة من الناس، وبعضها كانت ذات طبيعة خاصة تختص بالأمير ذاته، حيث اقتضى سبب أو آخر توجيه المكاتبة له.

وثاني هذه الاتجاهات: المكاتبات الإخوانية، وهذه المكاتبات كثيرة، وموضوعاتها متشعبة، وقد أثرت تقسيمها إلى عدة أنواع:

أولها: الرسائل: وقد تبين لي أن قدراً من الذاتية يغلب عليها، كما تعرضت لأشهر أغراضها التي جرت عادة الكتاب والأدباء المكاتبة فيها من: تهاني وتعازي وشكر وثناء ومديح وتهادي ومداعبة أو ذم وهجاء...

وثانيها: الرسائل الامتحانية، وقد تبين لي أن هناك نوعين منها: الأول: ما يكون على سبيل الاستفهام وطلب الجواب من المكتوب إليه. والثاني: ما يكتب على سبيل التعجيز وإظهار تفوق السائل على المسؤول في هذا المجال، وقد شملت هذه الأسئلة كثيراً من العلوم التي عرفت في ذلك الوقت من علوم دينية ودنيوية.

وثالث أنواع المكاتبات الإخوانية: الإجازات، حيث عرضت لأشهر أنواع الإجازة السائدة في ذلك الوقت، منها: إجازة الفتيا والتدريس، حيث يجيز الشيخ لطالبه تدريس أو إقراء كتاب له، أو التدريس في علم ما، ثم إجازة العراضة، حيث يجيز الشيخ لطالبه قراءة هذا الكتاب بعد عرضه عليه، دون إجازة تدريسه أو إقرائه، ثم إجازة الرواية لكافة العلوم والمؤلفات التي تخص ذلك الشيخ، وهذا النوع من الإجازة يكون غالباً بين العلماء، حيث يستدعي الأول إجازة الثاني، فيجيبه على طلبه بصورة تتضمن ترجمة لحياته وشيوخه الذين روى عنهم، ومؤلفاته التي ألفها، مما يجعلها تشكل سيرة ذاتية لهذا الشيخ.

وأما النوع الرابع من المكاتبات الإخوانية، فهي مكاتبات متبادلة بين الأدباء أيضاً، حيث يطري أحدهم ويثني على أدب أخيه، وصنعة زميله الأدبية، إذ كانوا كثيراً ما يتهادون المصنفات والأشعار، فيكتب أحدهم للآخر تقريراً وثناء على هذا المصنف أو هذا الشعر.

وأما الاتجاه الثالث من اتجاهات الكتابة في هذا العصر، فهو الرسائل الأدبية. وقد قسمت هذا النوع من الرسائل إلى ستة أنواع:

أولها: الرسائل الملوكية، فقد تبين لي أن هذه الرسائل تتصل بالملوك، وليست لأنها تكتب إليهم، حيث كشفت عن ثلاثة أنواع منها: رسائل الغزو، ورسائل البندق، ورسائل الصيد والطرْد، وقد تبين لي أن رسائل الغزو قد اشتملت على وصف حي ودقيق للمعارك والغزوات المهمة التي غزاها السلاطين، خلدت ذكرها، وأبقتها خالدة مسجلة في ذاكرة التاريخ، كما ظهر لي أن هذه الرسائل تتضمن من التفاصيل التاريخية المشتملة على الوصف الحي للأماكن ما يجعلها بحق وثائق تاريخية وجغرافية، بالإضافة إلى أهميتها الأدبية.

أما رسائل الصيد والطرْد، فقد كشفت لنا عن تفنن الأدباء في هذا الموضوع، وافتنانهم به، حيث عبرت هذه الرسائل عن حب السلاطين وغرامهم بهذا الفن، فقد أطنب الكتاب في وصف أنواع حيوانا الصيد، كما أطنبوا في وصف أدواته وأسلحته، وفصلوا في وصف الحيوانات المصيدة، عداك عن وصف الخيل الذي كان مضماراً تفننت أقلام الكتاب في وصفها.

وأما رسائل البندق، فجاءت رسائل ملوكية بحق، عبرت عن صفات الفروسية الحقّة، لتصف لنا الزمرة التي خرجت للرمي ووقت خروجها، كما تفصل في ذكر المكان والزمان، وكأن هناك تقاليد معينة لهذا الفن تتمسك بها الزمرة، ولا يجوز لها الخروج عليها، حيث تبدأ الطيور بالتوافد زرافاتٍ ووحدانا، ثم يبدأ الرمي عليها، فتتساقط تترى، إلى أن تنتهي الزمرة من عملها، فيشدون الرحال، وتعود أدرجهم من حيث أتوا فرحين مسرورين، وقد حققوا فائدتين: متعة الصيد والتدريب على الرماية.

وأما النوع الثاني الرسائل الأدبية فهو رسائل تجربة خاطر، تلك الرسائل التي تكتب امتحاناً للخواطر والقرائح، واختباراً للقدرات والمهارات الكتابية، حيث تختار موضوعاتها من الموضوعات النادرة والصعبة التي يصعب على الكتاب أن ينسجوا على منوالها. وقد حاولت استقصاء اتجاهات الكتاب فيها، فتبين لي أن أقلامهم قد انطلقت في عدة اتجاهات منها: اتجاه الرسائل التي تصلح للكتابة للملوك الآخرين، وأخرى صوبت نحو الداخل، حيث تصلح أن تكتب إلى الأمراء، من السلاطين أو العكس، وقسم ثالث منها قد تضمن موضوعات اجتماعية إخوانية، ورابع قد اشتمل على موضوعات غريبة لا تخطر على البال.

وأما النوع الثالث من الرسائل الأدبية، فهو رسائل المفاخرات والموازنات، حيث عمد بعض الكتاب والأدباء إلى تأليف رسائل في المفاخرة والموازنة بين بعض الأمور المادية أو المعنوية، وإقامة مناظرات بينها، فيتقدم كل من المتناظرين ببيان ميزته وفضله، ويرد عليه الآخر بعرض فضله وبيان حجته، وتستمر المناظرة حتى تنتهي بالتحكيم، إذ يصدر الحكم الذي غالباً ما يحمل التوفيق بين الجانبين وعدم تفضيل أحدهما على الآخر. وقد تنوعت موضوعات المناظرات، حيث تبين لي أن منها موضوعات مادية كالمفاخرة بين السيف والقلم، والسيف والرمح، والليل والنهار... ومنها موضوعات معنوية كالمفاخرة بين البخل والكرم، كما تعددت أساليب الكتاب في عرض هذه المحاورات، فبعضهم من يجعل الحديث فيها على لسان المتحاورين بضمير المتكلم، والبعض الآخر منهم يجعل الكلام عن المتحاورين بضمير الغائب.

والنوع الرابع منها هو الرسائل العلمية، وهو نوع من الرسائل الإخوانية التي تتبادل بين أدباء العصر، ويحرص كل منهم على أن يضمن رسالته معلومات علمية غزيرة، تدلل على سعة معرفته، ودقة معلوماته، وتعدد مصادره، كأن يحشو رسالته بالأشعار المنسوبة، والأحاديث النبوية المسندة المخرجة، أو الخلافات الفقهية، بالإضافة إلى القصص الوعظية الملانة للمقام والموقف، مما يجعل هذه الرسائل كتباً علمية تحوي معلومات علمية دقيقة أكثر مما تحويه من عبارات الشوق.

وخامس أنواع هذه الرسائل هو رسائل الوصف، حيث كان الوصف ميداناً جالت الأقلام في مضاميره المتعددة، فلقد وصف كتاب العصر بلغة أدبية راقية كل ما شاهدوه من ظواهر طبيعية، أو مظاهر حضارية متنوعة، بالإضافة إلى وصف الحيوانات والطيور، كما وصفوا الأدوات والبلدان، حيث أبدعت في هذا المجال القرائح، فكان وصف البلدان والمدن نوعاً من أدب الرحلات الذي يعد فناً متقدماً عن المؤلف في هذا الفن، حيث يجمع بين الوصف الدقيق والأمانة العلمية، بالإضافة إلى إطلاق العنان للخيال إلى جانب العقل، كما وصفوا الكوارث التي أصابت البلاد والعباد كالأمراض والزلازل بأسلوب فريد مما يجعل هذا الموضوع بحق موضوعاً متميزاً فريداً عند كتاب العصر.

وأما النوع السادس والأخير من هذه الرسائل، فهو رسائل المعارضات، حيث تمر بالأديب حكاية أو نادرة في كتب الأدب، أو أبيات شعرية تعجبه، فينفعل معها، ويروق له أن ينسج على منوالها، أو يساجلها، مؤيداً أو معارضاً، برسائل أدبية يعبر فيها عن مشاعره وأحاسيسه نحو هذا الموضوع، وكانت أكثر الموضوعات التي جذبت اهتمامهم هي موضوعات العشق والهوى.

وأما الاتجاه الرابع من اتجاهات الكتابة في هذا العصر، فكان فن الحكاية الأدبية، فقد تبين لي أن هذه الحكايات على ثلاثة أنواع هي: فن المقامات، وفن الحكاية الطويلة، وخيال الظل.

أما فن المقامات، فقد درستها من جانبين: جانب موضوعي، حاولت فيه استقراء أهم الموضوعات التي تناولتها، فقد تبين لي أنها تدور في خمسة اتجاهات: أولها: الوصف: حيث وصفت المقامات مختلف الموضوعات التي تناولتها الرسائل، من أحداث سياسية وعسكرية وقصور وديار وبلدان، بالإضافة إلى وصف الكوارث والأحداث العامة، مما يجعل منها ذات قيمة أدبية وتاريخية لا يستغني عنها دارس هذا العصر. وثانيها: مقامات ذات دلالة دينية، حيث كشفت لنا عن كثير من الممارسات الدينية الخاطئة، وكثير من البدع التي دخلت إلى معتقدات الناس، مما اقتضى وجود نوع من الأدب الموجه لعلاج هذه الأمراض.

وثالثها: مقامات ذات غاية تعليمية، حيث اعتمد بعض الأدباء في نقل أفكارهم إلى مستمعيهم على هذا الفن، بحيث يتخيل لك وأنت تقرأ المقامة كأنك تجلس أمام شيخ يملئ عليك علمه، وأنت تستمع.

ورابعها: مقامات ذات طابع غزلي، فقد كشفت لنا دراسة نماذج من هذه المقامات نوعين منها: الأول يتخذ من الغزل الصريح رمزاً للأدب الصوفي، لكنه ليس متعلقاً بالذات الإلهية، بل يتوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأل بيته الكرام.

الثاني: يحمل نزعة الغزل الصريح، حيث يبدو الميل إلى التصابي واللهو والترف، كما تظهر الرقة والعاطفة والشفافية في بيان لوعة الحب وأسى الحرمان. وخامسها: مقامات ذات صبغة فكاهية، حيث اعتمدت هذه المقامات أسلوبين من أساليب إثارة الضحك، وإشاعة الفكاهة والدعابة، الأول منها يعتمد فكرة التضاد والتناقض في المواقف والسلوك، والثاني يعتمد قلب الحقائق أساساً للإضحاك.

هذا من الجانب الموضوعي، وأما من الجانب الفني، فقد اختلفت المقامات المؤلفة في هذا العصر عن غيرها من عدة وجوه:

أولاً: لم تعد المقامات تهدف إلى أغراض التسلية، أو ذات صبغة تعليمية كما كانت في السابق، بل اتخذت أهدافاً ذات أبعاد كثيرة، فهي إلى جانب قيمتها الأدبية، ذات قيمة تاريخية، بالإضافة إلى تعدد موضوعاتها، بل لقد اتجه بعضها نحو الرمزية، أو الأدب الرمزي، إن جاز هذا التعبير.

ثانياً: تصويرها لكثير من جوانب ذلك المجتمع، حيث ساهمت المقامات إلى جانب غيرها من موضوعات النثر في ذلك الوقت، في رسم ملامح كثير من مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والعسكرية والدينية والعلمية.

ثالثاً: لم تعد موضوعات المقامة مقتصرة على الكدية، بل تعددت موضوعاتها وأغراضها، فتناولت جوانب الوصف والغزل كما بينا.

رابعاً: لم تعد شخصية الراوي شخصية واحدة عند الأديب في هذا العصر، بل تعددت شخصيته حسب موضوع المقامة، فهو: "مسافر بن سيار" إذا كان موضوع المقامة يستدعي السفر والتنقل، وهو "غيث بن سحاب بن ندى بن بحر" في مقامة تصف الحريق... وفي أحيان أخرى لا يذكر اسم الراوي، وذلك عندما لا يكون هناك حاجة لذلك.

وأما الفن الثاني من فنون الحكاية الأدبية، فهو: فن الحكاية الطويلة أو المقامة الطويلة، فإذا كانت المقامة تروي حكاية في مجلس واحد، فإن هذا الفن يروي حكاية تستغرق أكثر من مجلس، فهي مقامة طول الكاتب في أحداثها، وتزيد في الوصف الوارد فيها، مع زيادة بسيطة في عدد شخصوها، وتشارك معها في فكرة الاغتراب، بالإضافة إلى وجود شخصية البطل الذي تدور حوله الحكاية.

وأما الفن الثالث، فهو: خيال الظل. وهو نوع من الحكايات تجري فيه الأحداث على هيئة حوار بين شخصين يمثلون أبطال الحكاية، وتعرض أمام جمهور من النظار بطريقة مناسبة لأسلوب ذلك الزمان، والملاحظ في أسلوب هذه التمثيليات التي وصلتنا أن لغتها لم ترق إلى لغة الأدب العالي، بل استخدمت فيها لغة شعبية قريبة إلى لغة العامة، بالإضافة إلى عدم الاهتمام بقواعد اللغة، فلو قدر للغة هذه التمثيليات أن ترقى إلى لغة الأدب في ذلك الوقت، لأمكننا القول: إن هذا العصر قد عرف بذرة الفن المسرحي بما يسمى اليوم "فن التهريج"، أو "فن السيرك". ويبدو لي أن غرض هذه التمثيليات التي وصلتنا كان واحداً وهو الوعظ، وأستطيع القول: إن الكاتب يهدف من خلالها إلى فكرة "التطهير" التي تحدث عنها أرسطو، وجعلها هدفاً للرواية، فكاتبها يعرض في كل بابة من باباتها الثلاث إلى ممارسة خاطئة شاعت في ذلك العصر، ويختمها بتوبة هذا الفاسق ثم موته، وكأنه يريد أن يقول: أيها الإنسان، إن مصيرك للموت، أفق من نومك، وتنبه من غفلتك. فهو يشبه الناس في فسقهم ومجونهم وكأنهم في نوم وغفلة، وأن عليهم أن يتنبهوا، ويتوبوا إلى الله، فالحياة مصيرها إلى الموت والفناء.

وأما الاتجاه الخامس والأخير من اتجاهات الكتابة في هذا العصر، فهو: فن الخطابة والوعظ والكتابة الدينية، فقد تبين لي أن الخطابة في هذا العصر قد فترت، وفقدت الكثير من دوافعها، فلم يعد للخطابة السياسية ذلك التأثير الجماهيري الذي كان لها في عصور سابقة، حيث حلت الرسائل التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء بلسان السلطان مكانها، كما قل الاعتماد على الخطابة في

الحض على الجهاد والحث على القتال، فقد كان للدولة جيشها المدرب المتحضر للقتال دائماً، وكان جل هذا الجيش من المماليك، وكلما استعان السلاطين بعامة الشعب إلا في المواقف التي تتطلب التعبئة العامة، ولم تكن مثل هذه المواقف بحاجة إلى بث المزيد من الحماس والحمية في نفوس الناس، لقوة الشعور الديني لديهم، وإحساسهم بالخطر الذي يداهمهم، ويهدد دينهم وممتلكاتهم. ومع ذلك، فقد استعان سلاطين المماليك بكبار المشايخ والقضاة لإصدار فتاوى عامة، أو توجيه رسائل تحفيزية للأمة تقوي الهمم والعزائم، وتبث النخوة والحمية في النفوس.

أما الخطابة الدينية، فقد استمر دورها، مع أن رسائل الوعظ التي كان الوعاظ والمشايخ يوجهونها للحكام والأمة قد احتلت دوراً مهماً. وأما الخطابة المحفلية أو الاجتماعية، فقد قلت دواعيها أيضاً، واقتصرت على مناسبات الزواج وخطب الصداق.

وعلى العموم، يمكن القول: إن الخطابة الدينية هي الأوسع انتشاراً في هذا العصر، نظراً لاستمرار دواعيها، فقد رأينا كثرة الخطباء ودواوين الخطب في هذه الفترة، كما لم يكن الخطباء في هذا العصر عالة على خطب سابقين، إنما أبدعوا وأنشأوا الخطب البليغة التي ربما فاقت في قوتها خطب السابقين، بالإضافة إلى مجالس الوعظ التي كانت تتركز حول الدعوة إلى الله وشكره، والامتنال لأوامره والابتعاد عن معاصيه، وربما كان يحضرها الأمراء وكبار الأعيان، وقد سار أدب الوعظ في هذا العصر باتجاهين:

الأول: الاتجاه الرسمي الموجه للسلاطين وأولي الأمر مما يمكن أن نطلق عليه وعظاً مباشراً، وقد تضمن موضوعات حياتية خاصة أو عامة كالحث على الجهاد، أو توضيح مظلمة وقعت على فئة من الناس، نتيجة لفرض قانون أو ضريبة، أو الحث على شكر الله وطاعته، وقد تتضمن قضايا عقدية أثارت جدلاً في ذلك العصر، أو أموراً أخرى في شؤون العبادة أو تفسير آية أو حديث.

أما الاتجاه الثاني، فكان بواسطة جماعة الصوفية، ومجال ذلك واسع تحدث عنه الباحثون فيما يعرف بالأدب الصوفي.

وأما المناظرات والخلافات المذهبية، فقد جرت حول أمور عقدية تختص بأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، وحول القرآن الكريم، كما دارت حول أفعال العباد، والحق أن البحث في هذه المسائل قديم، وكان من أسباب وجود الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، وقد استمرت هذه الاختلافات حتى هذا العصر، هذا بالإضافة إلى مناظرات حول موضوعات وفنون أخرى كالقضايا اللغوية مثلاً.

أما الفصل الثاني من هذا البحث، فقد بحثت فيه تمثيل النثر لمختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية، وذلك انطلاقاً من أن الأدب هو نتاج العصر الذي يولد فيه، ويجب أن يمثل خير تمثيل، وقد كشف لنا عن تمثيل النثر لجوانب الحياة السياسية والأحداث التاريخية، حيث تبيننا تمثيله للتنظيمات الإدارية في الدولة، إذ تكشف لي أنواع الوظائف والمرتبات التي

سادت في ذلك الوقت وتسلسلها الإداري، وذلك من خلال الألقاب التي كان يخاطب بها صاحب الوظيفة، بالإضافة إلى الوصف اللائق بهذه الوظيفة والوصايا التي يقدمها الكاتب لصاحب هذه الوظيفة.

كما اختلفت أنواع المكاتبات الديوانية باختلاف الوظائف من عهود ومراسيم وتواقيع، كما كشف لنا النثر أيضاً بعض الإجراءات الإدارية التي كانت تتخذ إذا ما ألم خطب أو طرأ طارئ.

ومعلوم أن دولة المماليك دولة يغلب الطابع العسكري على نظامها، فمن الطبيعي أن الحكم سيؤول للمتغلب على أمورها، القادر على جمع أكبر عدد من المناصرين والمؤيدين حوله، فمن الطبيعي إذن أن يؤدي ذلك إلى نشوب صراعات وخلافات بين الأمراء، بل حدوث فتن داخلية، وقد تمكن النثر من مواكبة تلك الأحداث وتوثيقها توثيقاً دقيقاً بحيث لا يستطيع الدارس لأحداث هذا العصر الاستغناء عن دراسة النثر.

وفي مجال تمثيل النثر للحياة السياسية، لا بد له أن يكشف عن السياسة الخارجية للدولة، بحيث تمكننا من خلال النثر رسم صورة واضحة للعلاقات الخارجية التي كانت تربط هذه الدولة بالدول المجاورة في ذلك الوقت، فقد كان لهذه الدولة علاقات مع دول كثيرة، تنوعت بين علاقات صداقة ومودة وتبادل للهدايا، وبين علاقات حرب وعداء، وعلاقات مهادنة ومصالحة، كما كشف لنا النثر عن ذكاء ودهاء المماليك في إدارة هذه العلاقات، وبخاصة في تنظيمهم للعلاقات بينهم وبين التتار والفرنج.

وأما تمثيل النثر للأحداث العسكرية، فقد تبين لي أن النثر قد واكب هذه الأحداث منذ نشأة الدولة، فحيثما سار السلطان، في حله وترحاله، يرافقه كتاب ديوان الإنشاء، يكتبون عنه المكاتبات، فقد سجل هؤلاء الكتاب الفتوحات والانتصارات، وخلدوها، وفصلوا القول في وصف الجيوش والأسلحة والمعارك، كما أفاضوا في وصف القلاع والحصون والمدن المحررة، وأطنبوا في وصف رحلة السلطان، موثقين ذلك بذكر الأزمنة والأماكن التي حل بها ركبه، مما يكشف عن مشاركة القلم للسيف مشاركة حقيقية.

كما كشف هذا الفصل عن تمثيل النثر للحياة الاجتماعية بكل أبعادها، فقد كشف عن طبقات المجتمع في ذلك الوقت، وصور واقع كل طبقة، فبينما نرى أن أمراء المماليك وسلاطينهم يملكون الآلاف المؤلفة من الدنانير والذهب والجواهر، كان عامة الشعب يعانون من الفقر والمجاعات وغلاء الأسعار، مما ولد حقداً ونقمة لدى طبقة العامة. إلا أنه على الرغم من هذا التفاوت بين هاتين الطبقتين، فقد كانت الخطوب توحد بينهما، كما كشف النثر عن استعانة سلاطين المماليك ببعض الطوائف والفئات القليلة في المجتمع، على الأقل من أجل الاطمئنان إلى عدم إخلالهم بالأمن، ولا سيما في حالات النفير العام.

كما صور لنا النثر الكثير من العادات والتقاليد التي كانت شائعة بين طبقات المجتمع، فقد أظهرت الطبقة العليا في ذلك الوقت المزيد من التأنق في كثير من جوانب حياتهم المختلفة، سواء في مراسيم تقاليد السلطان أو استقبال الرسل، أو استقبال السلطان لدى عودته منتصراً، كما بين النثر لنا بعض ملامح هذه الطبقة، مثل ركوب السلطان في مواسم خاصة، أو الصيد والرمي

بالبنديق واللعب بالكرة في الميدان الكبير... أما عامة المجتمع فكان من ملامههم مشاهدة ما يجري في الميدان الكبير من ركوب الخيل أو اللعب بالكرة، بالإضافة إلى الاستمتاع ببعض الألعاب التي أطلق عليها الحيل الساسانية. وكشف لنا النثر كذلك عن بعض عادات وتقاليد هذه الطبقة، فقد أظهر لنا شيوع عادة شرب الخمر والمسكرات والحشيش، بالإضافة إلى شيوع بعض جوانب الفاحشة واللواط، وخروج النساء إلى الحمامات وعمل الخاطبة وبعض أنواع القمار، وبعض العادات السيئة في دفن الموتى.

وفي مجال تمثيل النثر للحياة الاجتماعية، فقد تتبعنا أيضاً تصويره للحياة الاقتصادية في ذلك الوقت، فعلى المستوى الداخلي، تبين لنا مدى الغنى والترف الفاحش الذي كانت تنعم به طبقة المماليك والأمراء ومن سار في ركبهم، ومدى الحرمان والشقاء الذي عانت منه طبقة العامة، بالإضافة إلى ارتفاع الأسعار وشيوع المجاعات.

وعلى مستوى تنشيط أبواب التجارة، فقد حرص المماليك على تشجيع التجارة الداخلية والخارجية، إذ تضمنت كل الاتفاقيات الموقعة بين المماليك والتتار والصليبيين عدم التعرض للتجار من كلا الجانبين، كما وجه سلاطين المماليك الدعوة إلى تجار الدول المجاورة للقدوم إلى الديار المصرية والشامية، والعمل فيها أمنين على أرواحهم وأموالهم.

وكشف لنا النثر كذلك عن وجود نوع من التجمعات التي كانت تحتكم إلى عدد من المعايير المهنية والدينية والاجتماعية، قريبة مما يسمى في وقتنا الحاضر بالنقابات، ولعل الهدف من إنشائها يعود أولاً لصالح الدولة، وذلك من أجل إحكام السيطرة على هذه الفئات والتجمعات، وليس لخدمة أغراض هذه الفئات، ومن أشهر هذه التجمعات في ذلك الوقت: نقابة الأشراف الطالبيين ورئاسة الطب ورئاسة الفتوة ورئاسة اليهود.

أما عن تمثيل النثر للحياة الدينية في ذلك العصر، فقد تتبعنا من خلاله محاربة المماليك للبدع والتقاليد الفاسدة التي ظهرت لدى بعض فئات المجتمع، كما كشف عن بعض الخلافات بين المذاهب المختلفة، وبخاصة في دقائق المعتقدات، كما صور لنا النثر أيضاً أحوال أهل الذمة، والفروق الدقيقة بين فرقهم المختلفة، كما كشف عن بعض مؤامراتهم ومحاولاتهم للتخريب في مرافق الدولة وممتلكاتهم العامة.

وبين النثر أيضاً تنظيم المماليك لشؤون المساجد والوقف الإسلامي، حيث حددت المكاتب واجبات ناظر الأوقاف وبعض الوظائف الأخرى الخاصة بشؤون المساجد، منها: ناظر الجوامع، وشيخ الإقراء. وقد أولى المماليك عناية خاصة للمساجد الثلاثة في الإسلام، وهي المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، بالإضافة إلى الحرم الإبراهيمي، فكان الإشراف على الحرم المكي وسائر مناسك الحج من واجبات أمير مكة، أما الحرم النبوي فكان الإشراف عليه من مهمات وظيفة خاصة تسمى 'مشيخة الحرم الشريف'، وأما المسجد الأقصى والحرم الإبراهيمي فقد خصص المماليك لهما ديواناً خاصاً يتولى أمره موظف خاص يسمى 'ناظر ديوان الحرمين'. كما أولى المماليك عناية خاصة بشؤون طائفة الصوفية، من خلال بناء الخوانق والزوايا والربط الخاصة بهم، ووقف بعضها على مجموعة منهم، بالإضافة إلى وقف الأموال

والإقطاعات الواسعة للإتفاق على هذه المؤسسات، كما اهتم الممالك بترتيب شؤون هذه الطبقة ورعاية أمورها من خلال تعيين رئيس لهذه الطبقة يحمل اسم 'شيخ الشيوخ'، حيث تمتد رئاسته لتشمل الدولة بأكملها، وتوكل له مجموعة من الواجبات الإدارية والدينية، كشف النثر عنها، كما أشار أيضا إلى مفهوم مصطلح الصوفية، وبين شروط الصوفي وصفاته، بالإضافة إلى بعض عادات الصوفية.

وأخيرا، فقد كشف لنا النثر عن تمثيله للحياة العقلية في هذا العصر، حيث وقفنا على أهم العلوم التي كانت شائعة في ذلك العصر، وبين لنا بعض التنظيمات الإدارية في المدارس، وكشف عن واجبات المدرسين وأصنافهم، كما فصل لنا مختلف الأنشطة العلمية والتعليمية التي كانت تجري في مراكز العلم، من افتتاحيات للدروس، أو حلقات التدريس أو الندوات والمناظرات، بالإضافة إلى تصوير نشاط حركة التأليف في مختلف ميادين العلم والمعرفة، كما أشار النثر إلى بعض الآراء التربوية التي سادت في ذلك الوقت، تلك التي تتشابه إلى حد بعيد مع الآراء والنظريات التربوية الحديثة، سواء المتعلقة منها بالتربية والتنشئة الصالحة للطفل، أو التي ترتبط بطرق التدريس وعملية التعليم بذاتها.

وأما الفصل الثالث والأخير من هذا البحث، فقد اشتمل على دراسة النثر في إطاره الفني حيث تحدثت فيه عن ثلاث قضايا: الخصائص الفنية للنثر الفني، وفنون نثرية غير مسجوعة، والدور الوظيفي للنثر الفني.

ففي القضية الأولى، تمكنت من الوقوف على أهم خصائص النثر الفني في ذلك العصر وأهمها: شيوع السجع والمحسنات البديعية الأخرى، حيث تبين لنا أن هذا العصر ليس بدعاً بين العصور في هذه القضية، وإنما كان ذلك استمراراً لعصور سابقة، فقد كان السجع ميزة الكلام المنثور وليس عيباً فيه، وإن كان البعض قد أساء استخدام هذه الميزة، فقد حاول بعض الكتاب وعلماء البلاغة الغيورين على هذه الصنعة وضع بعض القواعد والأسس التي يستطيع بها القارئ المدقق تمييز السمين من الغث من هذه الكتابات، والوقوف على هذه التجاوزات في استخدام هذه المحسنات في الكتابة. وأما بقية فنون السجع المستخدمة، فقد خلصت من خلالها إلى أن أغلب الكتاب في هذا العصر قد استخدموها لتحقيق قيمة تعبيرية واضحة في العمل الأدبي، وأنها جاءت لخدمة المعنى، وإن لم يخل بعضها من التكلف والتصنع الذي لا يخدم المعنى في النص، ولا يقدم أية قيمة تعبيرية له.

وفي الحديث عن الخصائص الفنية للنثر، فقد تحدثت عن الأسلوب ومدى مناسبته للموضوع، أو مراعاة كل مقام حقه من حيث الإيجاز والإطناب والمساواة، حيث نظر كتاب العصر في ذلك، ووضعوه نصب أعينهم في مكاتباتهم، كما تبيننا أيضا أن اللغة المستخدمة في النثر كانت لغة العصر يتحقق فيها الذوق العام في ذلك الوقت، إذ كان ينفر من الألفاظ الغريبة

الحوشية، فكانت لغة النثر محققة لشروط الفصاحة التي أقرها العلماء باستثناء بعض الألفاظ التي ترد متناثرة هنا وهناك في ثنايا المكاتبات.

وقد تميز النثر أيضاً بظهور ثقافة الأديب في أدبه، فقد كان كتاب الديوان في ذلك العصر يتمتعون بثقافة علمية واسعة، انتقل أثرها إلى مكاتباتهم وفنونهم النثرية، مما صبغ نثرهم بصبغة علمية، فقد حفلت تلك المكاتبات على اختلاف فنونها بمصطلحات علومهم المختلفة، من تفسير وحديث وفقه ونحو وصرف عروض... كما لمست في نثر ذلك العصر نزعة تعليمية واضحة في كثير من فنونه، وبخاصة المقامات.

كما خصصت الصورة الفنية في النثر بحديث مفصل، حيث تبينت اعتماد كتاب ذلك العصر على نوعي الصورة الجزئية والكلية، للتعبير عن معانيهم، وتوضيح أفكارهم، ونقلها إلى القراء، فعن طريق الصورة تحول المعنوي عندهم إلى محسوس، وعن طريقها أنطق كتاب العصر الجماد والصامت، والحيوان الأعجم، فإذا بها كانت حية ناطقة تترجم عن لسان حالها، ولكن من أين استمد كتاب هذا العصر صورهم؟ لقد تعددت مصادر الصورة عند كتاب هذا العصر، فقد تمكنت من حصرها في مصدرين أساسيين: الأول منها، يعود إلى ثقافة الأديب، وأثر المعارف المختلفة التي نهل منها كالقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي... والثاني يعود إلى البيئة التي تحيط بالأديب من ظواهر طبيعية، ومظاهر حضارية محيطة، بالإضافة إلى الواقع الذي كان الناس يحيونه في ذلك العصر، ولعل الطابع الغالب على ذلك الواقع هو الطابع العسكري، فقد ترك هذا الواقع أثره واضحاً على صور الكتاب والأدباء. وأما من حيث كون هذه الصور مبتكرة أم تقليدية مستمدة من صور القدماء، فقد تبينت أن أدب هذا العصر ليس بدعاً بين العصور، فلم تكن صورهم جميعها مبتكرة، كما لم تكن جميعها تقليدية مبتذلة.

وإذا كان الأدب صورة صادقة عن جوانب ومظاهر الحياة فيه، معبراً عن خصوصية البيئة والإقليم الذي ينشأ فيه، فقد حاولت الكشف عن مدى تحقيق النثر لهذه الخصوصية، وتصويره لبينتي مصر والشام في ذلك العصر، حيث تبين لنا أن النثر قد تمكن من ذلك، فقد كشف لنا عن كثير من أسماء المدن والأقاليم المصرية والشامية بأدق تفاصيلها وخصوصياتها، بحيث يستطيع القارئ تمييز هذا البلد أو الإقليم، كما قدم لنا وصفاً حياً صادقاً لتلك البيئة، تعطي القارئ صورة واضحة عنها، إذ كشف لنا عن موقعها الطبيعي، وقدم وصفاً لأحوالها الجوية، وإذا كانت اللغة من أكثر الأمور دلالة على خصوصية الإقليم أو البيئة، فقد ورد أثر اللغة المحكية في مصر والشام في هذا النثر.

ولكي نبين أن أدب هذا العصر لم يكن جميعه أدباً مسجوعاً، على الرغم من العناية الفائقة بالأسلوب المسجوع، فقد كشفت عن عدد من الفنون النثرية التي خلت من السجع، وجاء أسلوبها مرسلًا، منها مكاتبات موجهة إلى ملوك آخرين كنسخ المهادنات والأيمان، ومنها مكاتبات داخلية موجهة إلى الأمراء كالمذكرات أو التذاكر، ومنها موجهة إلى عامة الناس كالمناشير والمراسيم. كما كانت بعض الرسائل العلمية أو رسائل الوعظ تخلو من السجع أيضاً. وقد حاولت تحليل ذلك والوقوف على أسباب خلو هذه المكاتبات من هذا الأسلوب.

وإذا افترضنا أن للدب رسالة ينبغي له تحقيقها، فهل كان للنثر في هذا العصر رسالة؟ ومن أجل الإجابة عن ذلك، فقد حاولت الوقوف على دور النثر في المجال العسكري والسياسي والاجتماعي، حيث تبين لي أن النثر قد وعى دوره في كل جانب من هذه الجوانب، فقد كان دوره واضحاً في تذكير الأمة بأعدائها، وكشفهم لها، ثم الدعوة إلى الاستعداد، وتجهيز الجيوش، وتعبئة أبناء الأمة للقتال، فكانت الدعوة إلى الجهاد موجهة أولاً إلى السلاطين، ومنهم إلى قادة الجيوش والعساكر، وأخيراً إلى أبناء الأمة جميعاً، فإذا اكتملت الاستعدادات، وتوافرت الأموال والرجال لمحاربة العدو، يأتي إصدار الأوامر للجيوش والعساكر بالتوجه لقتال العدو، فتصبحها الوصايا حائكة لهم على الصبر والمصابرة، والثبات على الطعن والمطاعنة، وتخوض جيوش الإسلام المعارك ضد الأعداء، فإما أن يكون النصر أو الهزيمة، فإن كان النصر أطلق الكتاب العنان لأقلامهم بالتهاني بالانتصارات والفتوح، أو الكتابة إلى ملوك الكفر من أجل تثبيت عزائمهم وشل قواهم، وإن كانت الهزيمة فدور النثر أخطر، إذ إن عليه أن يعمل على إعادة ثقة المسلمين بجيشهم وقادتهم، وقد سجل النثر تفاصيل ذلك كله موثقاً بالزمان والمكان في رسائل مطولة، تستحق أن يطلق عليها اسم مقالات عسكرية.

أما دور النثر في الحياة السياسية، فقد تبين دور النثر في الكشف عن العلاقات السياسية التي كانت بين الممالك والدول المجاورة في حالي السلم والحرب، كما تبين دوره في الكشف عن بعض الخلافات والفتن التي حدثت بين الأمراء، بالإضافة إلى دوره في الكشف عن بعض الممارسات السياسية الخاطئة لدولة الممالك: سلاطين وأمراء ونظاماً، وكأن النثر يحاول فضح هذه الممارسات وكشفها للأمة، كما أنه يوجه أنظار الأمة إلى وجوب طاعة السلطان، ولم تخل الكتب الموجهة بتعيين أرباب السيوف والأقلام من نصائح توجيهية، توضح لهم منهج العمل في كل مجال من مجالات عملهم.

أما دور النثر في المجال الاجتماعي، فقد انطلق أيضاً في اتجاهين: الأول: إعلامي، يتمثل في الكشف عن بعض الممارسات والعادات الاجتماعية الفاسدة، حيث كشف عن مناطق الفقر أو المناطق الشعبية في القاهرة، وكأنه يوجه أنظار الحكام والمسؤولين إليها، ثم يسلط الضوء على جوانب من حياة هذه الفئة، كما أشار إلى بعض الظلمات التي لحقت بالرعية.

والثاني: توجيهي، حيث يتمثل في توجيه أنظار المسؤولين إلى ضرورة القضاء على هذه المفساد ومحاربتها، وتخليص الرعية من الظلم الذي يمكن أن يلحق بها.

هذا وقد حاول بعض الخطباء والوعاظ استغلال بعض الكوارث والحروب التي أصابت الأمة في هذا العصر لتوجيه الناس، ودعوتهم إلى ضرورة التوجه إلى الله وترك المعاصي والآثام، ليخلصهم من هذه النوائب.

هذا ما تمكنت الوصول إليه من دقائق هذا البحث وتفصيلاته، أرجو أن أكون وفقت في تقديمه وعرضه، خدمة للعم، ووفاء لحق القدماء علينا في بيان فضلهم وأثرهم، محتسباً ذلك عند الله عز وجل.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

أ - المطبوعة:

- إبراهيم حمادة، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.
- ابن الأخوة محمد بن محمد بن أحمد القرشي، معالم القرية في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه: روبن ليوي، مطبعة دار الفنون، كميرج، ١٩٣٧م.
- ابن الأثير ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وحققه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- الإدفوي، أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعید، تحقيق: سعيد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.
- الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٣٨٠هـ، ١٩٦١.
- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتعليق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، حققه وعلق عليه: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي، رحلة ابن بطوطة - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، قدم له وحققه: محمد العريان، راجعه: مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- البغدادي، إسماعيل بن محمد، إيضاح المكنون في الذيل علي كشف الظنون، دار الفكر، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٥٥م.
- بهاء الدين الإريلي، أبو الحسن علي، رسالة الطيف، تحقيق عبد الله الجبوري، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، بغداد، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- بيبس المنصوري، التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره وقدم له: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، تقديم سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.
- التلعفري، شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة، ديوان التلعفري، صححه: السيد محمد سليم الأنس، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣١٠هـ.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد، رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار، نشرها وقدم لها: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٦م.
- ابن تيمية، مجموعة الرسائل الكبرى، المطبعة الشرفية بمصر، ١٣٢٣هـ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت.
- ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد، غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق: برجستراسر، مكتبة الخانجي بمصر، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الفيصلية، مكة المكرمة.
- ابن حبيب الحلبي، الحسن بن عمر بن الحسن، تذكرة النبيه في سيرة المنصور وبنيه، حققه، محمد محمد أمين، راجعه: سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

- ابن حبيب الحلبي، بدر الدين محمد بن عمر بن حسن، نسيم الصبيا، المطبعة الوطنية، الإسكندرية، ١٢٨٩هـ.

- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، إنباء الغمر بأبناء العمر، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت.

- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبوبكر علي بن محمد، ثمرات الأوراق في المحاضرات، شرحه وضبطه: د. مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧.

- ابن أبي حجلة المغربي التلمساني، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر، ديوان الصباية، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

- ابن أبي حجلة المغربي، سكردان السلطان، مطبوع على هامش كتاب المخلاة للعاملي، دار الفكر للجميع، القاهرة، ١٣١٧هـ.

- الحلبي، صفى الدين، ديوان صفى الدين الحلبي، المطبعة العلمية ومكتبتها، النجف الأشرف، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر. [دون مكان أو زمان]

- الدواداري، عبدالله بن أيك، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع وهو بعنوان: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانز روبرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

- الذهبي، شمس الدين، العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبوهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، وقف على طبعه وتصحيحه: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

- ابن سبعين، رسائل ابن سبعين، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥م.
- السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود الطباخي وعبدالفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.
- السبكي، معبد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجاد وأبوزيد شلبي ومحمد أبوالعيون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م.
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الفكر، بيروت.
- السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، المكتبة العلمية، ١٣٧٩ هـ، ١٩٥٩م.
- السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ١٣٢١هـ.
- السيوطي، طبقات الحفاظ، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- السيوطي، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- ابن شاکر الکتبی، الوافي بالوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٤م.
- ابن شاکر الکتبی، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر، ونبيلة عبدالمنعم، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٤م.
- أبوشامة المقدسي، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، عني بنشره: السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة - تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، دمشق، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
- ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، نشر باعتناء: أحمد حطيط، فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- شهاب الدين محمود الحلبي، حسن التوصل إلى صناعة الترسيل، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.
- الصفدي، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
- الصفدي، لوحة الشاكي ودمعة الباكي، مطبعة الجوانب، الأستانة، ١٢٩٢هـ.
- نفسه، المختار من شعر ابن دانيال، الحكيم شمس الدين محمد بن دانيال الموصلي الكحال، حققه وعلق عليه محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الصفدي، نصرة الثائر على المثل السائر، تحقيق: محمد علي سلطاني، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.
- الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه: أحمد زكي، المطبعة الجمالية بمصر، ١٣٢٩هـ، ١٩١١م.
- الصفدي، الوافي بالوفيات، أجزاء من ١ - ٢٢ - دار فرانز شتاينر - شتوتغارت.
- ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، مقدمة ابن الصلاح، طبعها وصححها: محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب، ١٣٥٠هـ، ١٩٣١م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، كتاب الصنائع، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧١هـ، ١٩٥٢م.

- ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين أحمد بن محمد، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفري الرندي، إعداد ودراسة: محمد عبدالمقصود هيكل، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٨م.

- ابن عطاء السكندري، الحكم العطائية، تقديم: إبراهيم اليعقوبي، المجمع العربي للتأليف والدراسات والنشر، دمشق، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

- ابن عطاء السكندري، لطائف المنن، تحقيق: عبدالحليم محمود، مطبعة حسان، القاهرة، ١٩٧٤م.

- ابن العماد الحنبلي شهاب الدين عبدالحق بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- العمري، ابن فضل الله، التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق: سمير الدرومي، جامعة مؤتة، الكرك، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

- العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي، دار الكتب المصرية، القاهرة، (١٣٤٢ هـ، ١٩٢٤م).

- العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - عصر سلاطين المماليك، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

- الغزولي، علاء الدين علي بن عبدالله البهائي، مطالع البذور في منازل السرور، مطبعة إدارة الوطن، ١٢٩٩هـ.

- أبو الفداء، إسماعيل الملك المؤيد، المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٠م.

- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم، تاريخ ابن الفرات، حققه وضبط نصه: قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٢م.

- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبوبكر أحمد، تاريخ ابن قاضي شهبة، حققه: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م.

- قدامة بن جعفر، أبو الفرج، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبدالمعزم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- قدامة بن جعفر، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
- القزويني، محمد بن عبدالرحمن، تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبدیع، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤م.
- ابن قيم الجوزية، شفاء العليل، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م.
- محيي الدين بن عبدالظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.
- محيي الدين بن عبدالظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.
- المقرئ، أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، قام على نشره: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م.
- المقرئ، السلوك لمعرفة الدول والملوك، تحقيق: سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م.
- المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، مكتبة المثني، بغداد.
- ابن نباتة المصري، جمال الدين محمد بن محمد، شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة: ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م.

- النعيمي، عبدالقادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٨م.

- ابن الوردي، زين الدين عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الوهيبية، ١٢٨٥هـ.

- ابن الوردي، ديوان ابن الوردي، حققه وعلق عليه: د. أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت.

- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة: أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- اليونيني - قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م.

ب - المخطوطة

- ابن أبي حجلة، منطق الطير، ميكروفلم في الجامعة الأردنية.

- ابن حجة الحموي، قهوة الإنشاء، ميكروفلم في الجامعة الأردنية.

- ابن حجة الحموي، رسالة في وصف دمشق، ميكروفلم في الجامعة الأردنية.

- الذهبي، شمس الدين، تاريخ الإسلام، ميكروفلم في الجامعة الأردنية رقم ٥٥١٣.

- ركن الدين الدواداري، زبدة النكرة في تاريخ الهجرة، ميكروفلم رقم ٢٠ في مركز الوثائق في الجامعة الأردنية.

- الشاب الظريف التلمساني، مقامات العشاق، حققها وقدم لها: التهامي الشريفي (بخط ستانسل).

- صلاح الدين الصفدي، أحان السواجم بين المبادئ والمراجع، ميكروفلم رقم ٥٧٥ في الجامعة الأردنية.

المراجع:

- أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، القاهرة.

٤٥٨٨٩٠

- أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢م.

- حياة ناصر الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٤م.

- عبد الجليل عبدالمهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

- عبد الحميد حسن، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.

- عبد الحميد حسن، صفحات من الأدب المصري من العهد الفاطمي إلى النهضة الحديثة، دار الفكر العربي، القاهرة.

- عبد الحميد يونس، خيال الظل، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م.

- عبد اللطيف حمزة، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- علي صافي حسين، الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م.

- عمر موسى باشا، الأدب في العصر المملوكي والعثماني، جامعة دمشق، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

- محمد الحبيب ابن الخوجة، عصر المماليك، الترسل وابن عبد الظاهر، مكتبة الترقى، تونس، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م.

- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف بمصر.

- محمد عبدالرحيم غنيم، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية، تطوان، ١٩٥٣م.

- محمد كامل القتي، الأدب العربي في العصر المملوكي، دار الموقف العربي، القاهرة.

- محمد كرد علي، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٣٨١هـ، ١٩٦٢م.

- يوسف عوض، فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩م.

Abstract

**"ARTISTIC PROSE IN THE
FIRST MEMLUKI ERA"
JALAL YOUSEF ATARI
SUPERVISED BY :
Dr. MAHMOUD IBRAHEEM**

The subject of this thesis is "Artistic prose in the first memluki era." Its preface deals with the culture of this period in the Syrian and Egyptian territories. It shows that these territories included a large number of learned men specialized in different subjects.

The first chapter dealt with the types of prose and its methods, including the official documents, friendly letters, literary epistles, humorous writings, including the maqamat. Long stories and fantasies. Lastly I wrote about preaching and religious writings.

In the second chapter I wrote about the role of prose in showing political, social religious and rational aspects in the society life.

In the third chapter I discussed the artistic elements in that prose. But I showed that the prose in this era was not in its whole rhymed prose.

I ended by asserting that the prose of this era had its effect in the military, political and social life.